
ريم بسيوني
رواية
الحلوانية
ثلاثية الفاطميين
دار نهضة مصر
بعدتم ولم يبعد عن القلب حبكم * وغبتم وأنتم في الفؤاد حضور

(كلمه مهمة):

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الحلواني

(ثلاثية الفاطميين)

تأليف: ريم بسيوني.

إهداء..

حبيبتي أمي الجميلة، هذه الرواية كانت آخر عمل تقرئينه لي قبل انتقالك إلى مكان أفضل، وعشقت معي بدر الجمالي السيد الأجلّ، وسرت معي في شوارع القاهرة مع الصقلي، وسافرت إلى الأكوان مع إبراهيم الحلواني ورشيدة. شكرًا لأنك كنت أفضل من يصنع الكنافة في بر مصر.

وأتمنى ألا تكون هذه الرواية آخر عمل تقرئينه لي في مكانك الأفضل، أسمع صوتك حولي، وأريد أن أطمئنك أن حضورك في حياتنا أنت وأبي، حضور الحاضر والناصح الحنون. نتعلم منكما كل يوم ربما دروسًا أعمق وأقوى من الماضي.

أهدي لكما هذه الرواية.

أمي، أنت من علمتني الشجاعة والتشبث بسنا البرق.

وأبي، أنت من علمتني الثقة بأني أستطيع الوصول، مهما حاربتني شياطين السماء والأرض.

بعدتم ولم يبعد عن القلب حبكم

وغبتم وأنتم في الفؤاد حضور

ابن الفارض

إلى نور الهدى محمد خضر

أحمد رفعت بسيوني

يناير 2022

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عواصم مصر في العصور الإسلامية

1- بدأ فتح مصر سنة 18 هـ /639م، واستمر حتى عام 20 هـ /641 م.

2- الدولة العباسية استمرت من 132 هـ /750م إلى 656 هـ /1258م.

3- تقلد محمد بن طغج ولاية مصر سنة 323 هـ /935م، وانتهت دولة الإخشيديين مع فتح الفاطميين سنة 358 هـ /969م.

4- فتح الفاطميون مصر سنة 358 هـ / 969م، واستمر حكمهم حتى سنة 567 هـ /1171م.

5- قامت الدولة الأيوبية في مصر سنة 567 هـ /1171م، واستمرت حتى سنة 648 هـ /1250م.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القاهرة في العصر الفاطمي

بـدايـــة:

«وقيل إن يوسف عليه الصلاة والسلام لما دخل مصر وأقام بها قال: اللهم إني غريب فحببها إليَّ وإلى كل غريب. فمضت دعوة يوسف، فليس يدخلها غريب إلا أحب المقام بها».

الإمام جلال الدين السيوطي

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة

«الشجاعة لحظة، يختار فيها الإنسان أن يناطح شياطين السماء والأرض وحده، بلا تردد ولا وسواس، ملقيًا بكل الحذر إلى قاع النهر، متشبثًا فقط بسنا البرق».

بحنس ساحرة الهرم

2016 م – 1437 هـ

«عم عبده المجنون بتاع الزلابية» كما يطلقون عليه في منطقة باب البحر، كان رجلًا يتقن الحكي، ولكنه لا يحكي إلا لمن يريد أن يسمع، ولا يصنع الزلابية إلا لمن يقدِّرها، ولا ينطق جملة دون لعن الدنيا وما فيها. قبل أن أقابله سمعت عنه الكثير، قالوا: لا أحد يصنع الحلوى مثل عم عبده في كل أنحاء القاهرة وربما العالم. قالوا إن عم عبده في شبابه كان لا يسقي الكنافة بالشربات سوى بعد أن يدخن سيجارة حشيش أفغاني تعيد له ذكريات المجد. عندما قابلت عم عبده لأول مرة، تعمدت أن أرتدي الملابس الفضفاضة، وأستمع في خشوع وصبر. بدأ يفتح أصابعه في حرفية فتسقط قطعة من العجين في الزيت الساخن، تتبلور في لحظات، وتتخذ شكلًا دائريًّا متناسقًا وهوية واثقة صلبة. حدقت في قطع العجين التي تتسرب من بين أصابعه، أدار وجهه، ثم بصق ولعن الزمن، ثم عبس وجهه، وانحنى، وأمسك بخفه يخرج مسمارًا يزعجه منذ يومين، أخرجه بأصابعه، ثم غاص بيده في العجين مرة أخرى، تداركت نفسي قبل أن أؤنبه أو أظهر أي امتعاض، ابتسمت له وقلت: تعرفني يا عم عبده؟

قال بلا تفكير: لا أعرفك.

بدا نحيلًا، شعره الأبيض الخفيف غير مهندم، وقميصه الأبيض أيضًا متعب من عمر طويل قضاه على جلده.

قلت في رفق: جئت إليك خصيصًا أسألك...

دس إصبعه في الزيت، وأخرج قطعة زلابية، ومد يده إليّ قائلًا: تذوقيها أولًا.

أمسكت بها، ووضعتها في فمي دون تفكير، أحرقت فمي، فلفظتها في توتر، ثم وضعتها مرة أخرى، وقلت في رفق: اعذرني يا عم عبده. جئت أسألك عن حياتك..

قال بلا أدنى دهشة: لو كنت تكتبين فلا شيء يهمك في حياتي، ولو كنت تصدقين القصص سأحكي لك..

قلت: أصدق القصص. احكِ لي.

استمر في فتح أصابعه، ولملمة العجين بين راحتيه، ثم قال: أتعرفين من تذوق حلوياتي؟

قلت بلا تفكير: من؟ وزير؟ أم...

قاطعني في حماس: صلاح الدين الأيوبي.

أمسكت بقلبي حتى لا أشهق، ثم قلت: يا عم عبده.. صلاح الدين مات منذ ألف عام أو يزيد.

قال في حماس لم يتغير: قوليها لا تخجلي.. قولي يا عم عبده المجنون. اسمه يوسف، صلاح الدين يوسف بن أيوب، اسمه الأصلي يوسف ولم يستطع مقاومة القطايف. من بنى مصر؟

بلعت ريقي، وقلت في هدوء: أي مصر؟

ضحك فجأة بصوت عالٍ ثم قال: من بنى القاهرة؟

تذكرت حصص التاريخ، ثم قلت: جوهر الصقلي.

قال وكأنه يتكلم مع ابنته التي لم تتم الخامسة: أنت تعرفين الكثير. يقولون «جوهر الصقلي» كان حلوانيًّا، ولذا قالوا من بنى القاهرة هو حلواني. لا تصدقيهم. جوهر الصقلِّي كان قائدًا في الجيش. ولكنني أعرف الحلواني الذي انتصر على حرائق الحاكم بأمر الله، ثم علَّم «بدر الجمالي» تذوق السكر، وأغوى صلاح الدين بالحلوى..

- يا عم عبده، الحاكم بأمر الله فاطمي وصلاح الدين أيوبي ونحن في عصر...

- هو عصر بلا اسم يا ابنتي.. قلت لك لو جئت لتشكِّي فارحلي، ولو جئت لتسمعي فاسمعي دون مقاطعة. ما سأحكيه حقيقي. لا يتبقى من الإنسان سوى بضع حكايات، يومًا ستقولين عم عبده قال لي هذا وذاك. وربما لن يصدقك أحد، ولكنك ستستمرين في الحكي، وتنتصرين على كل خوف مثل جعفر بالضبط.

همست في بعض الشفقة: يا عم عبده أدعو لك بطول العمر. من جعفر هذا؟

- هو من لم يخف من الأرماني. الوحيد الذي لم يخف من الأرماني. أما جوهر الصقلي...

- احكِ لي بصبر واعذر جهلي.. احكِ لي من البداية..

- لديك وقت للاستماع؟

- لدي وقت.

قال فجأة دون مقدمات: ماذا تعرفين عن الحلوى؟

قلت: ممتلئة بالعسل والسكر.

توقف فجأة وكأنني صفعته أو أهنت كرامته ثم قال: أنت لا تعرفين شيئًا عن الحلوى. سأعلمك كيف تفتحين قلبك لما هو جميل. لا نرى الجمال سوى عندما ينشرح الصدر. للحلوى قصص وأساطير.

فتحت عيني كطفل يرى الألوان لأول مرة، ويسمع صوت الطيور، ويحلق مع الأمطار بين حنايا الأشجار الكثيفة. قال في صوت بطيء وكأنه يريدني أن أحفظ الكلمات: سأحكي لك عن الصقلي والأرماني والكردي، وعن الحلواني. سأحكي لك ماذا قالوا، بعض الكلمات لا تخرج إلا من الروح،

وما يخرج من الروح يبقى في الذاكرة. أنت تعرفين «جوهر الصقلي»، وتعرفين ماذا قال أليس كذلك؟

قلت في حماس: أعرفه، ولا أعرف ماذا قال.

قال: كل رجل يحب بيته والأرض التي نشأ بها، هذا شأن الرجال وشأن الأوطان، ولكن أحيانًا بل نادرًا تطأ قدمك أرضًا لم تنشأ بها، ولكنها تجذبك إليها لتلتصق بطميها كما المسحور، فتتخذها وطنًا، وتفترش أركانها بيتًا تمامًا كالزلابية عندما تلتصق بأصابعك، ويبقى طعمها في فمك. نحن لا نتذكر من الماضي سوى الروائح والمذاق. الوطن رائحة وطعم لا يترك فمك. من يتذوق الحلوى هنا لا ينساها. وعندما يبقى الطعم في الفم، ولو حدث هذا، فهذا أمر عظيم، فسوف تحارب من أجلها، وكأن جذورك لم تزل تنمو في جوفها. ليست كل أرض للاستقرار، ولكن عندما تجد الأرض التي تغوص بها لن تنجو من قبضتها. في مصر يا ابنتي هناك مصري يريد الهجرة والهرب، وهناك «صقلي» بنى الأسوار واستقر. ولكن ليس للصقلي أن يعرف أي شيء عنها لولا الحلواني وما سمعه من الحلوى.

بدا لي أن جرعة الحشيش التي تناولها عم عبده اليوم ستودي بعقله كله. قلت في ذهول: يا عم عبده وهل تتكلم الحلوى؟

نظر إليّ هذه المرة في استياء كأنني ابنته التي لم تحفظ جدول الضرب وهي في العشرين، ثم قال: لم أعد أدخن الحشيش. كنت أدخنه لأنسى أن الحلوى تتكلم. لأنها تطل علي دومًا في لوم، وأنا أكره اللوم. تتكلم يا باحثة.. يا عالمة.. تتكلم كما تتكلم الجدران، وكما يحزن المبنى على فقدان الشغف، وكما يستغيث الحائط من لج البشر. تتكلم كما تنطق القلاع والمساجد وأسوار المدن.

ولكن يا عم عبده هذه مبان للخلود، أما الزلابية وعروس المولد...

قاطعني بعنف أفزعني: هذه مبان للتذكرة بأن هناك خلودًا في عالم آخر. والزلابية بها رحيق الجنة وطعم العالم الآخر. لو استمعت إليها، وأعطيتها الفرصة فسوف تحكي لك.. أسمعها وأتكلم معها كل يوم. ثم ما هو مصيرها؟ ألا تمتزج بالفؤاد حتى ولو إلى حين؟!

- وماذا تقول لك الزلابية؟

- تقول إنك لم تأتي للبحث عن حكاية، بل جئت للبحث عن طعم العسل في أيام كالحنظل. ماذا تفعلين هنا؟ تمرين كما العابرين، ثم تنسين؟

- أقسم ألا أنسى.

- أقسمي أن تصدقي الحلوى حتى وإن قصر عمرها. فلا شيء يضاهي جمالها. ستحكي لك عن الصقلي والأرماني والكردي. لأنهم حكوا لها.

بلعت ريقي، والتفتُّ حولي، ثم قلت: حكوا لمن يا عم عبده؟

فقال: الثلاثة حكوا قصتهم لحبات الزلابية.. اذهبي لو كنت تظنين أني مجنون..

- أصدقك... وأصدق الحلوى..

الحكاية الأولى: الصقلـــي

الباب الأول: 1019 ميلاديًّا - 410 هجريًّا

(لكل زمان دولة ورجال)

جوهر الصقلي

- 1 -

حكى جوهر بن حسين بن جوهر الصقلي وقال..

ترددت هنيهة كأني أنتظر طلبًا من مستغيث قبل أن أدخل من الباب الفارع، حملقت في السور المبني من الطوب اللبن، وسمعت الاستغاثة، بل لم أسمعها، جاءت بلغة الإشارة. نقر الشيخ على كتفي، وأشار بيديه إلى باب المدينة. فهمت طلب الشيخ، ولم أسمع صوته، ولم أر وجهه، فقد غطى كل جسده ووجهه بالأغطية الخشنة الممزقة. قلت: يا شيخ، لا يدخل القاهرة سوى من له حاجة أو جاه. كيف لي أن أتخطى بك الأبواب؟

أشار الشيخ بيديه، وعيناه تتضرعان من وراء الخرقة البالية التي تغطي وجهه. التقت أعيننا، وتفحصت عيني الشيخ وجسده المحني وهيئته ويديه التي يربطها بقصاصات من القماش الأبيض. ثم مددت يدي، وأمسكت بيد الشيخ، وقلت في رقة: في عينيك استغاثة ورجاء، لِمَ تريد دخول المدينة؟.. بل لِمَ تريدين دخول المدينة؟

قبل أن ينطق الشيخ، انتزعت القماش من على يده وقربتها إلى أنفي وقلت: رائحة الياسمين في يديك يا سندس، لا تتقنين الكذب ولا المراوغة، زوجتي التي خدعتني، لِمَ جئت إلى هنا اليوم؟

همست في صوت الراجي: أريد دخول المدينة.

- يذبحك الحراس لو دخلت.

- لن يذبحني أحد لو دخلت معك، باعتباري شيخًا كبيرًا.

غطيت يدها ثم قلت: لن أسألك لِمَ تريدين رؤية المدينة فلن تَصدُقي. لست أول من يريد دخول القاهرة ولا آخر من لا يستطيع دخولها. فهي ليست ملكًا لك، هذه المدينة هي لبني عبيد، للفاطميين فقط.

همست: أنت يا أمير جوهر صاحب المدينة، تعرفها، هذه المدينة بنيت من دمك أنت، ودم جدك، أنت من يحدد من يدخلها.

- أفقدتِ عقلك؟ كلماتك تؤدي إلى الموت.

نزعت «سندس» الغطاء من على يدها، ثم رفعت يدها، ووضعتها على قلبي، وضغطت في تمهل، وقالت: تمنَّ يا جوهر.. أدخلني القاهرة معك، ولك كل ما تريد.

قلت في غضب: كفي عن ألاعيبك يا امرأة. أكنت تظنين أني لن أعرفك؟ غطي وجهك ما شئت. يدك تشي بمن تكونين.

قالت في صوت خافت: أنا زوجتك.

- أنت نكبة من نكبات السنين السوداء. الخديعة لا تخلق زواجًا ولا تقيم بيتًا. أبقيت عليك حتى لا أفضحك، ولكن إياك أن تحاولي رؤيتي.

نزعت يدها من على قلبي، وهمست وهي تقترب مني: أتوسل إليك أن تريني القاهرة وبهاءها. أصيب صدري بكل العلل من تراب الفسطاط.

قلت في حسم: سندس، عودي إلى بيتك. وإياك، إياك أن تحاولي رؤيتي مرة أخرى.

- وأنا أريد أن أدخل المدينة، وأمر على باب البحر. وأريد أن أصاحبك طوال اليوم.

دفعت بها وقلت: ارحلي.

- كيف لم تلاحظ وجودي كل هذه الأعوام؟ كنت أتتبعك بعيني..

اقتربت مني، ونزعت الخرقة من على فمها، ثم همست في أذني وسط ذهولي: اليوم شققت صدرك فلا مفر.

فتحت فمي فقالت: اقبض يدك على الهواء ثم افتحها. أين الجمال؟ كان في قبضة يدك، ثم تلاشى في الأفق، الجمال متردد رقيق كشغاف القلب يتناثر بين ذرات الهواء قبل أن يرتد إليك بصرك كما العمر والأيام.

التقت أعيننا مرة أخرى، فقالت في إلحاح: خذني إلى حدائق القاهرة يا حفيد القائد الشجاع.. أرني أزهار القصور، وأجلِ عن بصري تراب الحسرة..

مدت يدها.. أخذتها، وسرت معها داخل المدينة.. هنا ولدتُ، وهنا أنوي الموت. هنا المكوث في الجنة التي لا تنتهي. في بلادنا جنة للخليفة يدخلها من يرضى عنه، ويخرج منها المذنب والثائر. هذه الجنة هي القاهرة.

- زوجتي، سندس التي تزوجتها أيام الشقاء. منذ أربعة أعوام ولم أمسسها بعد أن اكتشفت خداعها. هي أيام كلها ظلام وفقر. الفقر أسوأ الابتلاءات وخاصة لو جاء بعد رخاء، والوحدة أسوأ الهموم لو أصابت قلبًا كان بين القلوب سيدًا وآمرًا. هذا ما يحدث عندما يغضب الخليفة. أعرف الآن أن في غضب الخليفة ظلام القبور ونار جهنم وضعف الهدهد أمام سليمان. لم أعد آبه بشيء سوى رضا الخليفة. ولا أحقد على الخليفة لأنه قتل أبي. الخليفة من حقه أن يقتل وينكل بمن يريد. هو الحاكم بأمر الله. فعلى الرغم من حذر أبي فقد جاءت نهايته وتعلمت أنا الدرس. تعلمت أن العمر قصير، فيجب اقتناص الفرص والتمتع بالملذات، وتعلمت أن الغدر واجب، وأن العدل من صفات الله كما الرحمة لا يتمتع بها بشر. عندما حل عليّ غضب الخليفة اضطررت أن أعيش بين العامة والجمهور في الفسطاط، ثم هربت إلى دسوق، أكلت الخضراوات، ونسيت طعم لحم الطير. استنشقت هواء الفقر، وكدت أنسى أني أمير. حتى نساء الفسطاط لهن مذاق غير مذاق نساء القاهرة. البغيات في الفسطاط بعيون حزينة ووجوه صفراء كالغبار، أما جواري القاهرة فتتأجج الصحة والوفرة من أطرافهن. أطاع العامة أوامر الخليفة في كل شيء إلا في إغلاق بيوت البغاء، استمرت البيوت سرًّا تفرح القلوب المنهزمة كقلبي.

حمدًا لله أن قلب الخليفة قد رق للصقلي، لجوهر، لي. اليوم أصلي مع أني لا أصلي كثيرًا. اليوم أحمد الله، وأشكر خليفته لو استطعت. دخلت القاهرة بقلب متحمس يود استعمال السيف وبتر الأعداء.

دخلت القاهرة وأنا أنظر إلى القصر والحدائق وأبتسم في ارتواء. أنا الأمير جوهر بن الحسين بن جوهر الصقلي. جدي هو جوهر الصقلي من فتح مصر وبنى القاهرة. مهما غضب عليّ الخليفة لن يستطيع أن يمحو الماضي ولا أن يُغفل وجود الأسوار والمدن. سأعود للجيش الفاطمي أخدم بني عبيد كما خدمها جدي ووالدي. سأعود أميرًا، وسأتذكر ماضيًا ليس ببعيد. كان والدي الحاكم والآمر، وجدي هو الباني والمعطي للأرزاق وللجيوش. سأتذكر من أكون اليوم. فقد طلب القائد الأمير «مسعود بن ثابت» أن يقابلني، قال إن الخليفة عفا عني. اليوم أعود إلى قصر أبي في القاهرة.

- «لا تثق في ملك، ولا تأخذ العهد من وزير» هكذا قالت والدتي «لمياء بنت حمدون». والدتي كحسام الهند، حادة ونقية لا تصلح لهذا العصر ولا لأي عصر. والدها أمير سجلماسة في المغرب، تشيَّع بعد هزيمته أمام جوهر الصقلي ولم يتشيع بقلبه. أرغمها على الزواج من ابن جوهر الصقلي الحسين بن جوهر. فوافقت، وأدت واجبها للزوج حتى مقتله على يد الحاكم بأمر الله. حزنت، ولم تفقد كبرياءها. ولكنها لم تفهمني يومًا، ولا تعاطفت مع محنتي. قلبها سُني، وقلبي شيعي. ولم تأتلف القلوب حتى بين الأم وابنها. وكيف لا أثق بملك، وحياتي بيد الملك، وكيف لا آخذ عهدًا من وزير، والذل بعد الرخاء يصيب النفس بكل العلل؟ فلتبق أمي نقية ولأبق أنا بشرًا.

مسعود بن ثابت الأسفهسلار قائد الجيوش يريدني اليوم.

جلست بين يديه مترقبًا، وقلبي يتوق إلى الخلاص.

قال مسعود: والدك كان أعز صديق وأخ. لندع الماضي يرقد في سلام. فالماضي دومًا مؤلم وموجع. لنفكر في ما هو آت. الخليفة يريدك أميرًا من أمراء الجيش. الخليفة يصون العهد مع أبيك يا جوهر.

ابتسمت قائلًا: الخليفة دومًا كريم أعانه الله وحماه. نحن مدينون له بحياتنا وبموتنا يا مولاي.

نظر إليَّ مسعود في ريبة، فقلت مسرعًا: أعني لو أمرنا أن نموت من أجله الآن فسأكون أول من يجيب.

- أن تنفذ أوامر الخليفة هو إلزام، يا جوهر، مثله مثل الصوم والصلاة، وليس لك رفاهية الاختيار.

قلت في تأكيد: هو إلزام.

- يغفر الله لنا زلاتنا، تشرب الخمر ثم تصلي لا بأس من هذا، فرحمته وسعت كل شيء. ولكن الخليفة يتعامل مع جمهور من السفهاء أحيانًا والفاسدين كثيرًا. أهل مصر يحتاجون التأديب.

نظرت إليه في عدم فهم، فقال مسعود: يعجبني فيك فهمك لماهية الحياة، تقتنص الفرص، وتلهث وراء المتعة، تعرف أن ليلة في أحضان جارية رومية تعادل خمسين عامًا في الفسطاط، وأن الفرس الجامح عند ترويضه يصيبك بلذة تشبه لذة الجماع وأحيانًا تفوقها. توقف عن شرب الخمر حتى لا يذبحك الخليفة.

قلت في صرامة: حدث من الآن.

- ما حدث في الفسطاط جرم كبير. ذنب لا يغتفر. ما رأيك في من يصفع والده، ثم يبصق في وجهه؟ ماذا تفعل به لو كنت قائد الجيوش؟

- يستحق الموت قبل التأديب.

- تفهمني يا جوهر. سأفتح أمامك طريقًا جديدًا، وسنبدأ معًا بداية مختلفة. ننسى الماضي المرتبك، ونفكر في الحاضر وانتصاراته. اليوم أختار لك مائة جندي من جنود الترك والمغاربة تحت إمرتك وثلاث جوار حسناوات، إحداهن تتقن الشعر، والثانية تتقن الرقص والثالثة.. لا بأس.. الخليفة يريد التأكد من ولائك.

قلت في صرامة: لو كان الأمر بيدي كنت قد بترت الخنصر والبنصر الآن بسيفك، ولكني لو فعلت لن أستطيع المحاربة من أجل الخليفة.

ابتسم مسعود، ثم قال: لا تَعِدْ بما لا تطيق. الخليفة لا يحب الإطراء. تعرفه، يزهد في الدنيا والخيل والنساء.

قلت وكلي حماس: لا أعد بما لا أطيق. حياتي تحت إمرته، رقبتي وأطرافي عبيد له.

ابتسم مسعود قائلًا: جوهر، حربك القادمة مع العامة. أريد للفسطاط أن يصل لهيبها إلى بني عباس في العراق. عندما يخرق الطفل عيني والده يُذبَح. فما بالك بمن يعيب في خليفته؟ أنت غير والدك وجدك، أنت ستصبح أفضل منهم وأشهر. جوهر بن حسين بن جوهر الصقلي. سيتكلم عنه أهل صقلية، ويتمنون رضاه، وسيتحدث عنه أهل مصر برجفة وولع. يا قائد.. أثبت إخلاصك، فلك أن تحيا فيها بلا عناء. انقل أمك إلى القاهرة، وتسلَّم جنودك وجواريك، وعد إلى قصرك الذي طُرِدت منه منذ أعوام.

- هي القاهرة مدينة الملوك.

ولكن حدث شيء ما. أمسكت بقلبي، ووخز صدري يشي بالموت أو السحر. سحرت لي سندس، أعرف. زوجتي التي لم أخترها ولم أردها. هي سندس مَنْ خدعتني، وأوهمتني أنها بارعة الجمال.. يقولون من تمسسهم النار ينقلبون على أعقابهم. عندما أصبحت من الجمهور والعامة تزوجتها. كانت لحظة يأس. رأيت عينيها في سوق دسوق في الدلتا حيث كنت هاربًا مع أمي من نظرات السخرية والشفقة. أزاح الهواء الخمار عن نصف وجهها، فعرفت معنى الجمال حينها، ثم نسيت ما عرفت. طلبتها للزواج دون مقدمات. كنت ضئيلًا حينها نسيت أني ابن حسين بن جوهر الصقلي، وأن الدنيا لا بد أن تكون بين يدي بكل مباهجها. أردت زوجة جميلة، ذهبت إلى والدتها، فقد كانت يتيمة لا يعرف عنها أحد أي شيء. حتى والدتها لا أحد يعرف كيف تعيش، ولا من أين تأتي بأموالها، يقولون إن لديها رَبعًا في الفسطاط. ولم أسأل ولم أهتم. ما إن طلبتها حتى رحبت الأم، ووافقت دون شروط. لم تكلفني الجميلة دينارًا واحدًا. ظننت حينها أن الدنيا تعطي البهجة أحيانًا للبؤساء، وأنني لن أنتظر ادخار دينار كل ليلة لأتمتع بإحدى البغيات. ولم أعرف أن الدنيا مثلها مثل الملوك، تغدر بلا موعد، وتنتزع الضوء من العين بلا ذنب ولا رحمة. ليلة الدخول بها عرفت الحقيقة. غضبت وثرت. خرجت وتوجهت إلى والدتها وصحت بأعلى صوتي. طأطأت الأم رأسها، ورجتني أن أبقيها في بيتي،

كجارية أو كأحد المستورين الذين يحتاجون إلى المأوى. أصررت على إعادتها، ولكن أمي لمياء رفضت. أمي دومًا تعارضني منذ موت الأب وهي تقف أمام رغباتي كالحائط المبني من أحجار الأهرام. لمياء.. أمي. لا تخاف الملوك مع أنهم سلبوها كل ما تملك. ترى أعندما تستيقظ لتجد الصحراء تحاصرك بعد أن ملكت جنات خضراء هل تنصاع لأوامر الملك أم تثور عليه؟ رأيته.. رأيت والدي وهو يموت تحت قدمي الخليفة. ولم أر الخليفة قط. ارتجفت ولم أبك. لم أقسم على الانتقام، وتقبلت جفاف الصحراء. أتذكر اليوم، دخل الجندي على قائده، أبي، كان القائد بل قائد القواد، رفع سيفه ثم قال بلا أدنى تردد: ارفع رأسك يا أستاذ، لا أريد أن أقتلك وأنت لا تراني.

***

- سأحكي لكم عن الصقلي.. جوهر الصقلي من بَنَى المدينة وابنه حسين الصقلي أبي.

رفع والدي رأسه، ثم ابتسم في أسى وقال: حاولت.. تعرف أني حاولت، مضت سنون وأنا أحاول. ترى لِمَ يقتلني الخليفة اليوم؟ ألأن إخلاصي يذكره بعجزه أم أن حب العامة أصبح أكثر فتكًا من أنياب الضباع؟

همس الجندي في بطء: يا أستاذ.. أنا لم أسمع شيئًا. ولا أريد أن أرى الخازوق يفتك بقائدي.

ثم رفع سيفه، وذبح أبي أمامي. بعد أن تسربت الدماء من العروق، رأيت الجندي يغرس السيف في موضع النحر ثم يسلته في تعسر وهو يحاول أن يفصل الجسد عن الرأس. أقسم أني رأيت الجسد ينتفض لحظتها رافضًا ربما أو مستكينًا أو فرحًا لا أدري. كتمت أمي أنفاسها وانهمرت دموعها في صمت، وضعت أمي يدها على عيني وكنت في السابعة عشرة حينها، فأزحت يدها وأنا أنظر إلى الجندي، وكيف يستعصي عليه عضل قوي في مؤخرة الرقبة. لم أكن أعرف لحظتها هل تمنيت أن ينتهي الجندي من مهمته سريعًا أم كنت أتمنى أن يستمر في مهمته وقتًا طويلًا حتى لا يفارقني جسد أبي؟ ربما كان غيري سيقسم على الانتقام.. ربما يضل ريعان الشباب صاحبه فتتشابه أمام عينيه أشياء وأناس، ربما توقعت أمي أن أنتفض غاضبًا، وأصرخ في وجه الجندي، وأدعو على الخليفة، يا لمياء!.. أفيقي، ألم يظن الملك أنه يحيي ويميت؟ ألم يقتل أمام إبراهيم النبي؟ من يعادي الملوك هالك لا محالة. أيقنت لحظتها أن العمر قصير ينتهي على حين غفلة، وأن الجمال والمتعة نفحات من نفحات الجنة، نلملمها بين راحتينا، ونعيش أبد الدهر نستدعيها ونمجدها. خرجت يومها من بيتنا، وتركت أمي تبكي. شربت الخمر حتى الثمالة. جوهر بن حسين بن جوهر الصقلي. قلت لصاحب الحانة إن جدي هو من بنى القاهرة، وإنه بنى أسوارها بالطوب اللبن، وسوف تُهدَم لا محالة. ثم قلت وأنا أضحك: اليوم قُتل أبي، ذُبح كالشاة، تعرفه؟ القائد حسين بن جوهر، الذي كان لا يمتطي جواده خشية غيرة الخليفة الحاكم بأمر الله، وكان يُبعد عنه نظرات الإعجاب من الجنود والعامة، الحسين بن جوهر الذي التفت حوله الجنود الترك من كل البلاد فأمرهم ألا ينتفضوا من حوله، ولا يخاطبونه راكبًا فرسه، أمرهم ألا ينظروا إلا للخليفة، ولا يطيعوا إلا الخليفة. رأيته بأم عيني يرتجف كلما مجده مصري خوفًا من غيرة الحاكم بأمر الله. ولكن الحذر لا يدفع القدر. هي أيام قليلة نقضيها بين حنايا الصحراء القفراء ثم تتلاشى، ولا تعدني بالجنة ولا بأجر المظلوم. ولا تسألني لِمَ قُتل أبي؟ وما جريمة جدي حتى يبعده المعز لدين الله خوفًا من نفوذه فيموت في بيته وهو لا يملك فرسًا. قالها جدي جوهر

الصقلي: «لكل زمان دولة ورجال»، وهذا عصري ودولتي. لنعش معًا يومًا أو اثنين ثم نموت. يا ساقي.. أريد أجمل جارية في مصر، قل لها جوهر ابن حسين بن جوهر الصقلي يريد أن ينسى بين ذراعيك ذبح أبيه وعيني أمه اللائمتين. قل لها إن جوهر يريد أن يقبض على الحلوى بين راحتيه، ويتذوق طعم السكر وشوق العاشقين. اليوم نحتفل بنهاية الخوف، اليوم نحتفل بقوة الخليفة، وندعو له، قال إنه يحيي ويميت، ولكنه يميت ولا يحيي. فالموت قادم لا محالة.

- كان هذا في الماضي. اليوم أعود إلى القاهرة أميرًا ابن أمير وحفيد أمير. أمرت الجنود

بحمل أغراضنا إلى القاهرة. وحاولت أن أؤجل مقابلة أمي، ولكن هذه اللحظات تأتي لا محالة كتوبيخ ملك الموت وشيخ المسجد.

قلت وأنا أتحاشى عينيها: هيا إلى قصرنا.

فقالت في حدة: بِمَ ضحيت ليرضى عنك الخليفة قاتل أبيك يا بني؟ يا جوهر هل أخصاك مسعود ليثبت ولاءك؟ هذا زمن الخيانة والوهن. أين أنت من والدك وجدك؟ ماتوا رجالًا وستموت أنت...

- أمي.. ليت قلبك يرق لولدك.. وما عاناه..

- لا أم لك.. ما سيطلبه منك مسعود ضرب من الجنون، والجنون أقسى من كل الحروب. الحذر من صفات العقلاء، أما البطش فمن صفات أصحاب العلل والخنوع. لو قتلت كل أهل مصر والفسطاط لن تدخل القاهرة، ولن تنعم بحدائقها. آه! يا زوجي آه! يا حسين، الحاكم بأمر الله قتلك مرتين، مرة عندما لم يصن العهد وذبحك وأنت تدافع عنه، ومرة عندما قتل النخوة في قلب ابنك فأصبح يطيع قاتل أبيه، ويعبد الملوك والقواد.

- أخرجت ثوب أبي الأحمر وعمامته الزرقاء المزينة بالذهب، وحدقت فيهما ساعة أو أكثر. حدث شيء ما جعل الخليفة يتغير تجاه الحسين بن جوهر. والدتي تقول: هي كلمات نطقها العامة يومًا في أسواق الفسطاط، وبينما كان حسين يعاف أن يمتطي جواده خشية سخط الخليفة خرج بعض التجار والحرفيين ليحيوا قائد الجيوش فقالوا: يا قائد القواد، بعثك الله لنا عونًا ورزقًا.

فقال مسرعًا: بل بعث الخليفة لكم رزقًا يا قوم.

التفت كل منهم إلى الآخر ثم قالوا: فليطل الله عمرك لتدافع عن أهل مصر يا قائد القواد.

بلع أبي ريقه حينها، وكأن أحدًا غرز سيفًا في قلبه، وهرول إلى قصره خائفًا يترقب. قال لزوجته: لمياء، جهزي أغراضك سنرحل اليوم. لا بقاء لنا هنا. أصبحنا موضع سخط الخليفة.

لم تصدقه زوجته. قالت: لقد خلع عليك وأكرمك، وحتى عندما رفضت ركوب الخيل والألقاب أصر أن يعطيك الذهب والخيل، ولقبك بقائد القواد. هو يعرف ولاءك. هذه بلادنا ليس لنا غيرها.

أصر وهو يلملم أغراضه، وينادي على أولاده: هيا لا وقت للكلام.

هرب والدي، وأخذني أنا وإخوتي معه. لم يترك مصر، ولكنه ترك القاهرة والفسطاط. حتى أختي وزوجها القاضي أخذهما معه. ثم ماذا؟ عرف الحاكم بأمر الله بهروب قائد القواد، أصابه الذهول ثم

الفزع. بحث عنه ولم يجده. ولكنه أعطاه الأمان هو وأولاده. أصرت لمياء على عودتهم. قالت إن الخليفة أعطاه الأمان. بعد ثلاثة أيام عاد الحسين مع أولاده ليمتثل بين يدي الخليفة، فعفا عنه، وأعطاه الذهب والفضة، ووثيقة أمان له هو وأولاده، لا ضُر سَيمسُّ ابن جوهر الصقلي؛ القائد ابن القائد.

عاد إلى بيته وبداخله بعض الاطمئنان وبعض القلق. انتفض من نومه مفزوعًا، فقالت لمياء: ماذا بك يا رجل؟ حاربت الجيوش وانتصرت، ما كل هذا الخوف؟ هو خليفة نعم، ولكن العمر بيد الله.

- أقسم أني أخاف عليك وعلى أولادي.

- العمر بيد الله. الخوف لا يغير القدر، بل يعجل به.

بعد مرور ثلاثة أيام استدعى الخليفة الحسين بن جوهر وأولاده.

أتذكر وأبتسم سخطًا ويأسًا. كل ما يثير غضبي هو أن سياف الخليفة لا يتقن الذبح، لِمَ اضطر أن يمرر السيف مرات ومرات على العظام والعضلات؟ ما حدث بعد ذلك كان أكثر غرابة من حكايات أساطير القدماء!

عاد أخي الكبير عبد الله ولملم أغراضه، وقال لأمي وزوجته وإخوتي: سيأتي علينا الدور، هذا أكيد. لا بد من الهرب. لا أمان لنا هنا. رجال الخليفة لا تقول عنا الخير. أخشى رجاله أكثر مما أخشاه.

حينها بعد الذبح، اتجهتُ ليلًا كما حكيت إلى مركب مغطى في النيل، به كل ما تشتهي النفس من الطيبات، الخمر والنساء، لم يستطع الحاكم بأمر الله أن يجده، ولا يعرف عنه شيئًا. مركب أُعِدَّ خصيصًا للأمراء منذ أيام الأمير تميم بن المعز لدين الله الذي أبعده والده عن الخلافة لمجونه وأشعاره الرائعة. لو صار هو الخليفة لكانت الدنيا ستزدهر، وتشرق كل الشموس وتخرج الحسناوات إلى النهر. آه من حسناوات الفسطاط عندما يخرجن إلى المراكب ليلًا!

في أثناء كلام أخي وأمي، كنت أنا أصب كل غضبي وحزني داخل الجارية، وأمي كانت تبحث عني، وتتلهف علي، وأخي الأكبر عبد الله يدور حول نفسه. قال للأم: بعد ذبح الأب أعطانا الخليفة الأمان، ولكن لا أمان له، لا بد من الخروج إلى الشام أو العراق.. أي مكان لا تطوله يد الحاكم بأمر الله. هيا يا أمي. السفر ليلًا أسرع، وهو آمن هذه الأيام.

قالت في تصميم: لن أبرح دون جوهر ابني.

- اتركيه، هذا يوم كيوم القيامة؛ إما أن نهرب الآن أو نُذبح في الصباح. أتريدين لأولادك الثلاثة أن يُذبحوا أمامك؟ اهربي معنا، أنقذي ما تبقى لك يا ابنة حمدون.

قالت أمي في إصرار: لن أبرح دون ابني. ابحث عن أخيك.

- يا أمي.. لدي زوجة وأبناء سيُقْتلون أمام عيني. لا وقت للبحث. أين ذهب في جنح الليل؟

لا بد أنه ذهب للسُكْر أو يبحث عن النساء الآن. هو هكذا منذ وُلـد، حمل ونقمة.

قالت في هدوء: اهرب أنت وإخوتك واتركني أنا هنا. لن أرحل دون ابني.

- نحن أيضًا أولادك.

- ستكونون في الأمان خارج الديار المصرية، وسأبقى أنا معه نبحث عن الأمان بداخلها. سنلتقي يومًا ليس بقريب.

- أمي..

لم يكن هناك الكثير من الوقت. هرب الإخوة.. هرب إخوتي متجهين إلى العراق أو الشام. عدت أنا بعد ثلاثة أيام. ثلاثة أيام في عمر مصر كالدهر بأكمله. تقوم بها القيامة ثم تعود الأرض لدورتها، تتحرك الكواكب ثم تستقر الشمس وراء السماء غاضبة بائسة من رفقاء الأرض الحمقى. هل أضحك أم أبكي؟

بعد ثلاثة أيام عدت.. لأجد أن الخليفة الحاكم بأمر الله قد أمر بالقبض على إخوتي، وحدد مكافأة ثلاثمائة ألف دينار لمن يجدهم. وجدهم أحد الرجال، وذبحهم، وهذه المرة كان سريعًا في الذبح، ثم أرسل رءوسهم إلى الخليفة. عدت بعد ثلاثة أيام من المجون لأجد رءوس إخوتي ذكرى لِمَنْ هرب ومَن خاف ومَنْ تمنى ومَنْ تجرأ. ازدادت ضحكاتي وسط صمت أمي المخيف وعينيها المتحجرتين. ضحكتُ وضحكتُ وهي تنظر إليَّ دون كلمة. لا تلومني، ولا تزجرني على مجوني، ولا على تأخري عن موعد المنية. يا لمياء.. عيناك دومًا تلومان، حادتان كما الصوارم. أي امرأة أنت؟ ترى هل ندمتِ على عدم الذهاب مع من رحل أم حمدتِ الله على عدم الذهاب لأن أحدهم بقي حيًّا إلى حين؟ أعطاني الحاكم بأمر الله الأمان. قال إني لم أهرب. من يخاف لا بد أنه ارتكب خطيئة، الأنبياء لا تخاف، والصالحون يتأذون في صبر بلا هرب. تعلمت الدرس. هو الخوف، ما يثير الخليفة ويشعل ريبته. هو الخوف إذن. هي حياة كقطعة الحلوى الهشة تصنعها في ساعات، ثم تلتهمها في ثوان، وعند الالتهام لا يبقى لها أثرٌ. هي حياة كزبد الموج لا فائدة لها ولا غاية. هي حياة بطعم الحنظل وبريق السراب. أيام نقضيها بين شوق وفزع، من يخرج منها فقد شفي، ومن يبقى فيها يصيبه النصب والمرض المزمن، ولا أمل له في الشفاء. من ينفذ من بين الظلمات فهو سعيد هذا أكيد، ومن يبق في دهاليز القدح العميق الضيق فسوف تشتعل فيه النيران حتى يتغير طعمه ويلين. آه يا لمياء! لِمَ كل هذه القسوة يا ابنة حمدون؟ لم تفرحي بنجاتي، ولم تصرخي في وجهي بأنني خائن فأنا لم أزل حيًّا.

يا خليفة، قتلت خير الرجال، وأبقيت على الماجن الذي لا ولاء له. يحركه جسده وشهواته كما الطيور الجارحة، ويطير هائمًا وحيدًا، لا يطمع إلا في حرية مطلقة، وجارية مليحة مخضبة الكف، تتقن العشق والغناء. يا خليفة.. أحيانًا من لا يخاف لا يملك نفسًا يخاف عليها، ولا صدرًا يتنفس به.

- هذا كان. ماضٍ لا مفر منه. اليوم نعمل مع الخليفة ونقسم بالولاء. فلو واجهك الجن بقسوته صادقْه واتبعْه حتى لا يمحوك من على وجه الأرض، وأثناء الصداقة حاول أن تقتنص من الحياة الملذات، فهي حزمة من الملذات الفانية لا أكثر.

ليت أمي تعرف أنها تعجل نهايتي قبل أي شيء. ليت أمي تعرف أنها تريد موتي لو لم أطع أوامر الخليفة. اليوم أثبت ولائي، وربما يعطيني الخليفة بعض الوقت للاستمتاع، فأنا لا أطلب الكثير. أما الجنة والنار فالله أرحم وأقدر.

- هنا عند باب البحر تتكشف الجنة وتنمو وتبتكر. جنة السماء بعيدة المنال، وجنة الأرض عادت إلى ذراعي، وألقت بعبيرها على أنفي ولساني. القاهرة، ولكَمْ أتمنى أن أراها من جديد! أسير بين بساتينها المزدهرة صيفًا وشتاء، أشبع عيني من أحجار القصور والذهب الذي لا يفنى ولا يجف منبعه، رأيت في مخيلتي قصر الخليفة والفوارة التي تبتلع ماء الذهب، ثم تطرحه مرة ومرات، ما أزهى الرخاء وما أسعد السلاطين! عندما نغلق أبواب المدينة تصبح لمن يستحق الجنة، وليس لمن أذنب فعاقبوه بالنار. لو كانت جنة الله حكرًا على الطيبين والبؤساء فإن جنة القاهرة حكر على صاحب السلطة والجاه، حكر على من بنى لنفسه جنة على الأرض لأنه لا يثق في أن جنة السماء ستتسع له. تنهدت في سعادة، وكانت عيناي مغمضتين، نسيم القاهرة كله نشوى، ينبض بالوفرة والخلود. هنا لحم طير وإستبرق وطرز، هنا أجساد جوارٍ لم تمسسها شمس ولا تعرف الشقاء، هنا أرجوحة ترفع ولا تنخفض، هنا يقطن الفرح والجمال وحلاوة العيش. عدت إلى القاهرة وإلى قصري..

فتحت عيني..

لم أجد الأشجار التي تمتد للسماء، وجدت بدلًا منها أحجارًا سوداء تسيطر على الماضي والحاضر، تلاشت من أمامي الجواري الحسان، وتبدلت النار من فم الوحوش، تبدل الذهب وأصبح علقمًا مرًّا، وتبدلت الطرق المستقيمة وامتلأت بالأفاعي والعقارب السامة. أمسكت بقلبي. القلب يخدع ويضل. هذا من عمل الشيطان، من عمل سندس زوجتي الخادعة الخائنة. تريد الانتقام مني لأني أهملتها أعوامًا. هي من شقت صدري اليوم، السحر لا ينتصر عليه سوى الموت والنار. قلبي لم يعد يتوق إلى القاهرة، ولا عيني ترى بهاءها. طمست على قلبي الماكرة. الموت عقاب رادع لكل من يريد أن يوقف سعادة «جوهر» وأيام هنائه.

عبس وجهي حينها، وبدأت في تدريب جنودي. سأهجم على الفسطاط غدًا صباحًا. أهالي المدينة تعرف بمجيء جنود الخليفة، تعرف الجريمة وتتوقع العقاب. يقولون إن الأهالي تستعد للقتال. وعندما تستعد الأهالي لقتال جيش الخليفة فلا بد من أن تمتلئ فوارات القاهرة بدمائهم، وتزين رءوسهم الأسوار بدلًا من النوافذ. أهل الفسطاط يحتاجون إلى العقاب هذا أكيد. ولكن خطيئتهم لم تعد تُغتفر. غدًا سينتهي كل شيء.

- فلأتذكر نعم.. أنا جوهر من نشأ في قصور الخلفاء وتربى بها وبين جنات القاهرة، أنا جوهر حفيد القائد جوهر الصقلي، وجوهر هو من دخل مصر بجيوش بني عبيد، ولولا جوهر ما كان هناك بنو عبيد، فكم حاولوا دخول مصر وفشلوا حتى استعان المعز لدين الله بجوهر القائد الذي عاش حياته محاربًا لم يعرف سوى الولاء والعمل!

آه من أمي ومن سيفها الباتر! لا تعرف الكثير من الحكام. قالها جدي يومًا «لكل زمان دولة ورجال».

جدي جوهر كان يعرف. فتح مصر للمعز لدين الله الفاطمي، وبنى القاهرة والأزهر، وحكم نيابة عن المعز أربع سنوات كان هو الخليفة أو كاد. أحبه أهل مصر، واحترموا دهاءه وقوته. ثم جاء المعز فسلم له «جوهر» مصر، واختفى عن الأنظار. هذا حال الدول والرجال، البلاد لا تسمح سوى لرجل واحد، وعندما يلمع بريق القائد يعمي بصيرة العامة، وتختلط عليهم الأمور، وفي هذه الحالة إما أن

يختفي القائد، أو يعاقب على نجاحه وسحره. فالنجاح أعظم الخطايا في البلاد وبين العباد. خطيئة لا يغفرها خليفة.

أتعرفون جدي؟ تعالوا سأحكي لكم عن جدي. هذا رجل تتفتح أمامه الأبواب، وتخر الجيوش ساجدة رهبة وورعًا من هيبته.

مكث الخليفة المعز في إفريقيا، وبعث قائده وكله ثقة أن الصقلي لا ينهزم. يومًا قال الخليفة في مجلسه:

«والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر، وليدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب، ولينزلن في خرابات ابن طولون، ويبني مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا». هذا هو جدي.. رجل الأزمنة السابقة، قرأ وتعلم، جاء من عند بحر الروم وهو صبي على سفينة مع تجار الرقيق من صقلية، رأى صحراء إفريقيا الفيحاء أمامه، وترك الوادي والأهل، ثم أسكنه الخليفة قصره، ورباه على الطاعة والدين. ابتعدت صقلية ولم تترك القلب، عاد إليها بعد أعوام يبحث عن الأهل، وجد أمه وإخوته ولم يجد السكن. ضاع سكنه وسط الطمع وأهواء الحكام. ثم جاء إلى هنا.. مصر.. هنا خطَّ قصر الخليفة، وهنا رسم لنفسه بيتًا ووطنًا. شيَّد الأسوار وهو يستنشق هواء القاهرة، ويمزجه بهواء صقلية الندي ورضاب أشجارها البهية. أغمض جدي عينيه، ورأى جمال السكن والأمان. للأمان جمال لا يدوم. إخلاصه للخليفة يُضرب به المثل. حكم وعدل، أقام أذان الشيعة وزاد عليه «حي على خير العمل»، كتب على أبوابه أن «محمدًا رسول الله وعليًّا ولي الله». ولكنه عدل فأغرم به العامة. للقوي العادل سحر كسحر القدماء. حكى لابنه حسين عن أشجار صقلية التي زرع مثلها في القاهرة، وعن حصان خشبي ورثه عن والده هو كل ما تبقى من بيت قديم في بلاد لم يعد يعرفها.

وعندما قارب جوهر الصقلي الثمانين، وزار الخليفة العزيز بالله بن المعز لدين الله، خرج من عند الخليفة وهو يمشي على قدميه وسط القادة التي تمتطي الخيول. تنهد صاحبه، وزفر زفرة كاد ينشق بها صدره، وبكى على حال قائد الجيوش، جدي جوهر، الذي يمشي راجلًا، بينما يركب أنصاف الرجال الخيول حوله. فهدأه جدي جوهر قائلًا: «قد كنت عندي يا أبا عمار أثبت من هذا، لكل زمان دولة ورجال. أنريد نحن أن نأخذ من دولتنا ودولة غيرنا؟ وها أنا اليوم أمشي راجلًا بين يدي قائد جديد، هؤلاء قوم أعزونا، وأعزوا بنا غيرنا، وبعد ذلك أقول: اللهم قرب أجلي وموتي، فقد شارفت على الثمانين».

آه يا جدي! ليتك شاهدت هذه الأيام.. وتمرد العامة وزوال العزة. آه يا جدي! لِمَ بنيت السور حول المدينة التي طردت حفيدك كما طردت كل أهل مصر؟

تعلم الحسين بن جوهر الدرس، وآثر ألا يتجلى بريق شجاعته للعامة فيذبحه الحاكم بأمر الله حفيد المعز لدين الله. ولكن الحاكم بأمر الله ذبحه حتى وهو يتوخى الحذر. ها هو حب العامة نقمة ووباء، يُهلك صاحبه لا محالة، إما من الغرور أو الخيانة. ولأصدقك القول: أنا لا أملك كبرياء أمي، ولا صدق أبي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حكت لي لمياء أمي. عادة أمي لا تهتم بأحد، ولا تتكلم معي كثيرًا. ولكنها حكت بحماس طفل وهي تقطب حاجبيها وتفتح عينيها. ترى كيف كنت في شبابك يا لمياء؟ وهل أحببت حسين بن جوهر أم تقبلت العيش معه فقط؟لِمَ لم أر نظرات الحنو في عينيك قط؟ وكيف لم تغاري من زوجته الأخرى وجواريه؟ حكت لي لمياء عن زوجتي التي لا أعرفها. هجرتها منذ أول يوم، وتركتها في حجرة في بيتي الصغير في دسوق، واليوم دخلت القاهرة كما تمنت، وستسكن قصر جوهر، ولكنني لا أنوي رؤيتها، ولا الاطمئنان على حالها. وكيف لمن دخل الجنة أن يعكر صفو جمالها بسندس!

تفحصت لمياء الجواري كما تتفحص كل السلع التي تدخل بيتها. تريد التأكد من الصحة والولاء. راقبتها سندس عن بعد هنيهة، ثم اقتربت منها وقالت: اسمحي لي أن أختار لزوجي واحدة منهن يا مولاتي.

نظرت إليها لمياء في بعض الدهشة وبعض الرثاء، ثم قالت: سندس.. الزوجة الرشيدة نعمة من الله. تعرفين؟ عندما كنت في مثل سنك ربما كنت أكثر منك غيرة واندفاعًا، ولكنني تعلمت وفهمت.. الزواج يا سندس ليس نكاحًا بين رجل وامرأة، ولا هو بضع ساعات على فراش حب وشبق، الزواج صدق وصحبة دافئة. اخلعي عنك خمارك، لا يخيفني وجهك، ولا يقشعر بدني من الحرق يا ابنتي.

قالت سندس في هدوء: اعذريني يا مولاتي..

- قولي يا خالتي.. أو يا أمي..

قالت سندس في صوت هادئ: أريد أن أتكلم معك يا خالتي منذ زمن، أريد أن أشرح لك ما حدث.

- أسمعك.

- لم أنو خداع الأمير، ولا كنت أطمع سوى في مصاحبته. أقسم لك أني منذ عمر الرابعة عشرة وأنا أعرف مصيري وأرضى به. لا أحلم كبقية البنات، ولا شوق لي لرجل. كنت أريد الحماية والرفقة.

نظرت إليها لمياء، ثم قالت: اشرحي لي ما تقصدين.

- يا خالتي.. أريد مصاحبة جوهر وأنا بخماري حتى لا أوذي عينيه لا أكثر. عند الحرق تلاشت كل الأمنيات.

اقتربت منها لمياء ثم قالت: هل احترق موضع أنوثتك؟

بلعت سندس ريقها، ثم قالت: لم يحترق، ولكنه محاط بالنار فلا إنقاذ له.

- لم تشتاقي لرجل قط؟ كم عمرك؟ واحد وعشرون على الأقل، مَنْ في سنك لديها خمسة أبناء على الأقل.

قالت في ثبات: أقسم لك لا أشتاق للرجال، ولا أريد سوى بيتٍ به أمان بعد موت أمي وأبي.

ثم نظرت إلى الجواري، والتقت عيناها بعين جارية بدت أجملهن وأكثرهن ذكاء. سألتها لمياء لو كانت تجيد الغناء، وبدأت تغني بصوت عذب، فقالت سندس: هذه تصلح لجوهر، جميلة ووجهها كله خير إن شاء الله.

قالت لمياء في حماس: سأخبره أنك اخترتها له بنفسك. سأحكي له.

ابتسمت سندس من وراء خمارها، ثم قالت: اتركيني أزينها، وأعلمها كيف تسعد الأمير.

ثم تقهقرت لتترك الغرفة وهي تنحني قليلًا أمام لمياء.

-حسبي أن لحظات المحنة دومًا بألوان زاهية ورائحة نافذة لا تترك الذاكرة، ولا تتملص من بين أيدينا كلحظات الرضا. لزوجتي حكاية، في الماضي قالوا سندس أجمل البنات، تمت العاشرة، ولم يزل جسدها جسد طفلة، تندفع بين الحقول، وتنتصر على أشجار النارنج في كل الحروب، تحاور النمل في الجحور، وتلتهم الورود الممتزجة بالعسل. سندس. أصبحت في الرابعة عشرة، تقدم للزواج منها الرجل تلو الآخر. وقلبها مع رجل واحد: محمود جارها. كلما رآها يرتجف خجلًا، فتطأطئ رأسها، وتجري إلى بيتها. تمتم يومًا أنها أجمل بنت رأتها عيناه، وأنه يتمنى الزواج منها. أحبته بقلب صغير يندفع بلا رادع ولا خوف. طلب من والدها الزواج.. ثم حدث كل شيء. تغير العمر كما يفعل دومًا في عشية وضحاها.. شعلة نيران قاسية قضت على ما خططته لها الأم منذ زمن. هذا كان كل ما أعرفه عن سندس. لم أعرف حينها كيف أصابتها النيران.

تقول إنها تتذكر، وكيف لها أن تنسى؟! اللون والرائحة، ملمس النار على خدها ثم رائحة الشواء، ثم نغزات خنجر بارد، افترشتها النيران، اتخذت جسدها بيتًا ومقرًّا، انتشرت وتوغلت في تلقائية ومعرفة كأن الجسد مستقر لها ومتاع. من الوجه إلى الذراع، ومن الذراع إلى الفخذ، ومن الفخذ إلى الرجل، ثم علت الصرخات. لم تكن صرخاتها. لا تتذكر أنها صرخت. لا تتذكر سوى آه تخرج من الأضلع لتصل إلى النخاع. كانت صرخات الأم.. دفعت بها إلى الأرض، وضربت النيران بيديها كما يضرب كف الطفل الطوفان. التف الناس حولهما، يدعون، يضربون كفًّا بكف، ثم يلقون بالأغطية على جسدها. نصف الجسد، ونصف الوجه، ونصف الذراع، ونصف الصدر، ونصف الفخذ.. أصبحت تملك نصف حياة.. ولكن الحياة لا تقبل القسمة، ولا ترضى بالتفاوض.. فلم تعط سندس أي شيء. بنصف جسد اختفت سندس عن الأنظار، وبكت في حجرتها أعوامًا وسط عجز الأم وحزنها. وتلاشى محمود ولم يظهر مرة أخرى. تخلى عنها في سلاسة كالماء المنهمر وقت الفيضان. دارت بها الأم من شيخ إلى شيخ، ومن راهب إلى راهب حتى نصحوها بالذهاب إلى ساحرة الهرم. يقولون منذ ألف عام أو يزيد تسكن الساحرة الهرم. لا أحد يعرف هل تموت الساحرة، وتأتي بعدها أخرى؟ هل تدرب يتيمة غيرها على السحر؟ تربيها وتعطيها اسمها هي؟ أم أن الساحرة لا تموت؟ حتى الساحرة لا بد أن تموت. تدعى «بحنس». دومًا تُدعَى بحنس منذ مائة عام.. الجدة والبنت والحفيدة.. تستطيع الساحرة أن تفهم اللعنات والحزن. لديها بصيرة من ترك، وشجاعة من أيقن بوجود الله. هرولت إليها أم سندس، وتركت ابنتها مع الساحرة عامًا بعد أن حاولت البنت قتل نفسها مرة ومرات.

عرفت بعد أعوام حوارًا دار بين سندس والساحرة عندما رأتها أول مرة.

قالت لها الساحرة: يا سندس.

فرفعت خمارها، ونظرت إليها مليًّا، ثم قالت في عدوانية: أتشفقين عليَّ أم تخافين من آثار النيران يا ساحرة؟ حتى أنت تخافين النيران؟! يقولون إن الحرق عقاب.. ماذا فعلت ليعاقبني الله؟

قالت الساحرة في هدوء: أخاف من نيران حقيقية لا تشبه النيران التي غيرت ملامحك يا بنت. فهذه النيران سراب، وهذا الجسد يتغير شئنا أم أبينا. ربك لا يعاقب من يحب. بل يخفي عنه بعض الجمال ليظهر له جمالًا أكثر وهجًا وفيضًا.

- لا تعرفين معاناتي فلا تعطيني الدروس..

- كل من هو جميل يعاني.

- عن أي جمال تتحدثين؟ كل من هو يجرح بقبحه الناس يعاني..

- من يُرد إرضاء الناس يعش أبد الدهر ذليلًا لهم. ابحثي بداخلك عن قوة أعطاها هو لك لتواجهي المحنة. عند حدوث الابتلاء يأتي العطاء، وإياك أن تظني أن العطاء مال وولد وزينة وتفاخر وجمال، فالجسد مهما تجمل يخون، وينقلب على صاحبه. العطاء ثبات وصلابة. العطاء كرامة وبذل واكتفاء. ابحثي بداخلك عن عطائه، ثم سلمي بابتلائه وتقبليه، عند القبول تتضاعف القدرة. عند القبول يعطيك نفحة من نفحات كرمه، ويمن عليك برحمته.

- ولِمَ يبتليني أنا؟ لِمَ اختارني أنا؟

- هذا بينك وبينه، ليس للساحرة أن تكشف ما لا يتبدى لها.

- هل سأستيقظ لأجد نفسي بلا حرق في جسدي؟

- ربما تستيقظين لتدركي أن الجسد راحل، راحل اليوم أو غدًا، وحلاوته ممزوجة بغدر العيش، ونضارته ممزوجة بتقلبات الأيام. ربما تدركين أن الجمال يكمن فيما هو باق، ليس في الجلد واللحم. اصبري يومًا تدركين مدى قوتك وقدرتك.

أبقتها الساحرة عامًا معها داخل ظلام الهرم.

ثم طلبتها أنا للزواج. تكلمت معها أمها. اعترضت كما قالت، وتمنت ألا تخدعني، ولكن الأم كانت تحتضر وأصرت على زواجها مني.

- سيلفظني عندما يعرف. هل تريدين خداعه؟ كيف أنزع الخمار عني؟ كيف؟

- هذه دنيا كلها جنون. والحاذق من يلهو بها كما تلهو بنا. اصبري..

كيف تزوجت سندس مني؟ لا أحد يعرف يقينًا. البعض ظن أنها معجزة بعد معرفة الحقيقة، وآخرون قالوا إنه عقاب من الله لحفيد جوهر الصقلي الشيعي الذي أدخل بني عبيد مصر. ولكن عندما هاجرت الأم إلى دسوق في دلتا مصر أبقت حالة ابنتها سرًّا. وادعت أن ابنتها أجمل بنت في مصر، تعرفت

على لمياء أمي وعرفت حكايتنا، وكيف نفرٌ من بطش الخليفة، أخبرتها أم سندس أن سندس أجمل فتاة في كل الديار المصرية. رفضت أن يرى ابنتها أحد، وسقطت أنا في خدعة أم سندس كما الغبي.

ثم عرفت.. ليلة زواجي.. رفعت عنها خمارها..

تسمرت مكاني ولم أنطق. قالت هي في صوت مرتجف: كانت حماقة سامحني عليها.

- أي حماقة في الخداع؟

- لا تفضحني..

قلت في حسم: كيف تجرئين؟ جوهر بن الحسين يتزوج من مثلك؟

ابتلعت الكلمات، ثم قالت: ابن الأكرمين لن يفضحني، ليس بيدي..

- بل خدعتني وخدعت أمي..

خرجت من الحجرة ولم أعد. مرَّ عام بعد عام.. أربعة أعوام، لا رأيتها ولا سألت عنها. كنت أترك مع والدتي بعض المال لها وأنسى أمرها.

ازداد الحزن، وتوالت أيام الأمل. رحلت أمها بعد عامين وهي لم تزل مصممة أن ما حدث كان هو الصواب وأن من يتزوج ابنتها فقد فاز بكل نعيم الدنيا.

لم تبرح حجرتها إلا في أوقات قليلة. مكثت بين أشعارها ترددها حتى لا تفقد عقلها. حتى قالت لمياء ابنة حمدون إنهم سيرحلون إلى القاهرة.

لم تكذب سندس ولم تحلم بالفارس قط. أحلامها كانت لهيبًا وأنينًا. لا تمنت لمسات رجل ولا صحوة جسد. فهذا الجسد هو اللعنة الأبدية. بل تكره كل اللمسات ونظرات الشفقة والفزع. كل ما تمنت مني على ما يبدو هو الصحبة. بالنسبة إليها الأجساد خائنة لعينة كلها آلام. تكره جسدها وكل الأجساد واللمسات والقبلات. تهاب التقاء الأجساد كما يهاب الراهب الخطيئة.

أرادت رؤيتي.. ذهبت تستبق خطواتي. ما يدفعها للبحث عني هو صداقة تمنتها، ازداد حماسها لليلى الجارية التي اختارتها، بدأت تفكر في كيفية تأديبها وتدريبها. لو كانت تتقن الشعر فهذا أفضل كثيرًا. هي جميلة ولكنها تحتاج إلى بعض الزينة والاهتمام. ستزينها لي اليوم. بالغت في حبها لليلى، وتشجيعها على عشقي حتى بدأت أشك في أمرها وأنتبه لوجودها. من يدري؟ ربما كل هذه القصص خرافات، ربما سندس جاسوسة أتت للقضاء علي.

- نظرت إلى عينيها وهي تشرب من العشب الأخضر حتى الامتلاء، شهقت سندس من روعة القصر. ربما أشفقت عليَّ حينها، وأدركت حجم انهزامي. كيف لمن عاش وسط هذه الحدائق أن يرضى بالعيش في الفسطاط أو حتى في (دسوق)؟ كيف لمن ولد أميرًا أن يرضى بأن يكون من الغوغاء والعامة؟ عند الغروب جرت بأقصى سرعتها حول أشجار النارنج، ثم غاصت برأسها داخل الأرض كالطيور التي تبحث عن حشا الأرض، استنشقت رائحة الحياة بين الورود والطمي الأسود.

خلعت خمارها.. هنا حول الأرض لن يخاف منها طفل، ولن تشفق عليها امرأة. هنا لن يخدش منظرها عيون الناس، ولن تصطدم بنظرات اللوم لأنها لم تزل حية.

قلت في حدة: ماذا تفعلين هنا؟

وضعت خمارها بسرعة ثم قالت: كنت أستمتع بالحديقة يا مولاي.

نظرت إليها، ثم قلت: أمي أخبرتني بكل ما فعلته. ولكني لا أصدق ادعاءاتك. أنت كالثعبان بل أخطر. كلما كانت الكلمات ناعمة كان القلب سيفًا مجردًا.

- حكمتك تفوق حكمتي.

- أمي تقول إنك تريدين الصحبة؟ ولِمَ أصاحب امرأة لا أريدها؟

- كما يصاحب الأخ أخته.

- لست أختي، ولم أتربَّ معك. اخلعي عنك خمارك وأنت معي. لا حرق يفزعني.

خلعت الخمار بلا مقاومة. نظرت إلى موضع الحرق في تمعن ثم قلت: ليلى..

قالت سندس في حماس: بها تلقائية وعلم لم أرهما في جارية من قبل. جميلة يا مولاي.

- هي جميلة.

- أهي ما كنت تتمناه؟ هل أعجبتك؟ أشبعت جسدك؟ أعرف أنك تتمنى الكثير. يومًا ما ستحصل على كل ما تتمنى.

ثَبَّتُّ عيني على عينيها، ثم قلت: هي ما أتمناه. أشبعت الجسد والنفس.

ابتسمت في رضا. فقلت: وأنت؟

- أنا ماذا يا مولاي؟

- ماذا أردت بالزواج مني؟ من المؤكد أنك لم تتوقعي أن أعاشرك. ولا أن أريدك. فماذا أردت؟ أعرف أنك كنت مخطوبة لرجل من قبلي تركك بعد حادثة الحرق. ولكني لا أعرف كيف احترقت.

لم تنطق.

أمسكتُ بيدها، ثم فتحتُ كفها ومررتُ بأصابعي عليها وهي ساكنة، ثم قلت: هل تشعرين؟

هزت رأسها بالنفي. فوضعت يدي على كتفها، أزحت القميص، ومررت بيدي على كتفها العارية التي لم تمسسها النار قائلًا: بم تشعرين؟

قالت في ثبات: لا شيء.

غصت بيدي أكثر حتى لامست صدرها، وعيناها لا تتركان عيني ثم قلت: والآن؟

هزت رأسها بالنفي. فقلت في ذهول: لا أعرف الكثير عن الحروق، ولكن الجسد باق. لا بد أنك تشعرين، أم أنك لا تهتمين بالرجال؟ أم أغلقت جسدك عمن سوى حبيبك القديم؟

قالت في حسم وهي تتجاهل يدي: لا أهتم بالأجساد.

خرجت مني ضحكة، ثم قلت: لا يوجد ما هو أهم من الأجساد. تحكمنا الأجساد. تسيطر علينا، نريد إشباعها بالنساء والأموال، بالطعام والماء والفاكهة، تطلب العين الخضرة، ويطلب البطن اللحم، ويطلب الأنف الروائح الجميلة التي تعد باللذة، حتى اليد والأصابع تطلب الذهب والفضة. كل ما يحكمنا هو الجوارح يا سندس. الجسد يا سندس هو ما يحكم هذا العالم. بعضنا يود أن يؤدبه، وبعضنا يدللـه، والكثير منا عبد له.

- هذا لأن جسدك كامل وجميل، أما أنا فعرفت ما لم يعرفه غيري.

- حكيمة أنت يا سندس.

نزعتُ يدي من داخل قميصها، ثم قلت: ستكونين بمثابة أخ لي أم أخت يا ترى، هل تهوين النساء دون الرجال؟

قالت: لا أهوى الرجال، ولا النساء، ولا الأجساد.

- هوى القلب يبدأ بالجسد. فالقلوب لا تتكلم، ولا تعانق، ولا تنهمر دموعها، أما الجسد فيفعل كل هذا. ثم أنت تكذبين. قلت لي إنك تحبينني؟ لا بد أن الغيرة داخلك تكتمينها كزوجات الأمراء. تقولين لنفسك: ليلى جارية وأنا حرة.

قالت في دهشة: أحبك، بالطبع أحبك. معذرة يا مولاي لم تفهم قصدي بالكلمات. قلتُ إني أحبك أي أريد أن أبقى معك في نفس البيت، أتكلم معك أحيانًا، وأراك لا أكثر من ذلك. أعرف مكاني، عرفته منذ زمن، واعتدت عليه.

- الحب بالنسبة إليك هو مصاحبة المحبوب؟

- هو البقاء حوله لا أكثر. أما ليلى فهي أخت لي، أحبها أيضًا، وأتمنى من قلبي أن تُرزَق بولد منك.

ضربت كفًّا بكف، ثم قلت: هل تعرفين الخليفة؟ قلبه متقلب كقلبك، يحب ويكره، يُغير ثم يعطي، يبني المدارس ثم يهدمها، يرفع مكانة المسيحي ثم يرغمه على الذل.. ثم يعلق المسلم من رأسه، ويعفو عنه بعد الموت. نعم قلبه متقلب كقلبك. ولكنه الخليفة، والخليفة يعرف كل شيء.

ثم همستُ في لامبالاة: أحيانًا أظن أن عقله تائه، جدي يقول: «لكل زمان دولة ورجال»، وأنا أقول: لكل زمان مجاذيب وقُواد.

نظرتْ إليَّ في فزع، فتزعمت الجدية ثم قلت: ماذا بك؟ ستقولين للخليفة إني أتهمه بالجنون؟ أم أنك تعتقدين أن رضاه من رضا الله؟

- لديك مرارة لا تأتي من جسد بل من نفس حائرة.

- وما أدراكِ أنتِ بالنفوس؟

لم تجب. ابتسمَت، ثم قالت وهي تضع خمارها: أيامك القادمة كلها انتصارات.

الحروب كالنار بلا صوت مسموع، ولا هيئة مألوفة. ولكن من استنشق رائحة النار يعرفها عن بعد. كانت تطاردني بعينيها وأنا أدرب جنودي، وتوقعتُ خيانتها. ولاؤها للفسطاط، لموضع الحرق. وليس لي. أو ربما لحبيب تخشى موته. الفسطاط عاشت بها وهي طفلة ذات أربعة عشر عامًا، ثم حدث ما حدث، وانتقلت مع أمها لدسوق.

ولكن ما فعله أهل الفسطاط بالخليفة الحاكم بأمر الله لن يمر بسهولة. هي أيام كلها فوضى، وخزي، والكثير من الخوف والفزع. ماذا ينوي الخليفة الزاهد بالرعية؟ لا بد وأن جاءها النبأ، انتقلت الكلمات والهمسات في الحرم. يقولون: طفح الكيل بأهل الفسطاط، حبس نساءهم، ومنع صناعة الخف، ومنع العنب، ومنع العسل، أغرق كل عسل مصر، ألقى به إلى النهر حتى لا يتحول إلى خمر. تارة يطلب من الناس العمل ليلًا فقط، وتارة يطلب من المسيحيين واليهود ارتداء الملابس المختلفة. تارة يقتل عالمًا، وتارة يعطيه العطايا. منع الملوخية والقلقاس. ومنع صلاة التراويح، ثم سمح بها. لديه قلب طيب هذا أكيد.. فبعد المنع يأتي السماح. ولكن ما حدث في الفسطاط مختلف. عندما خرج الخليفة بحماره وهو يرتدي الخيش الأبيض ليتفقد أحوال الرعية رأى أمامه امرأة غاية في الجمال تزينت بالحلي والكحل، تمسك في يدها ورقة لتعطيها للخليفة. اقترب الخليفة في غضب، وبَّخ المرأة لأنها خرجت من بيتها، وأظهرت وجهها، ثم أمسك بالورقة ليقرأها فقرأ السب له ولأهله، بل قرأ ما هو أفظع، وكأن أهل مصر يتهمونه بالجنون والطغيان. صاح بأعلى صوته، وأخرج سيفه، وضربه في صدر المرأة، فانهار التمثال، وكان مصنوعًا بإتقان ومهارة. تحطم تمثال المرأة أمامه، ولم يتوقف ضحك الأطفال حتى اختبأ الكبار في منازلهم. ضغط على الورقة بين أنامله، ثم أمر قائده مسعود بالعودة إلى القاهرة، وقال وهو في الطريق: ماذا أفعل بمن يغش في الميزان؟ وكم بائعًا في الفسطاط يغش في الميزان؟ أتتذكر أزمة القمح؟

- نعم يا مولاي.

- العقاب على قدر الذنب. لولا الحسم كانت المجاعة ستحل بالبلاد. أنا أنقذتهم من المجاعة، ولكنهم جاحدون، لا يقدرون الخلفاء ولا الصادقين. افتقدوا الخمر والبغاء.

قال مسعود وهو يرتجف: مولاي.. لو أمرتني..

- سآمرك. عندما يحين الوقت.

لا أعرف لماذا تصورت رد فعلها وخوفها، ولا أعرف لِمَ يشغلني أمرها أصلًا. لاحت أمام عينيها الفسطاط محترقة كما احترقت هي. هكذا رأيتها يومها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الانتصار في حرب الفسطاط يسير، لا قلاع سنخترقها، ولا أبواب سنقتلعها من جذورها، لا سهام ستتفاداها سواعدنا، ولا فرسان تتقن غرس الصوارم في الأفئدة. أوامر الأمير واضحة... أصبحت من الأمراء أرباب القضب، وقريبًا أصبح من الآمرية قواد الحاكم نفسه...

الأسفهسلار مسعود بن ثابت، لم يبلغني متى تنتهي الحرب، ولكنه أمرني بإعمال السيف في الجموع، وحرق الفسطاط بلا تردد ولا رحمة. فلا رحمة مع مَنْ يفقأ عيني والده ولا من يسخر من حكمة خليفته.

كنت أعرف الفسطاط، فلطالما سرت في شوارعها حزينًا تارة ومخمورًا كثيرًا. رأيتها في مخيلتي اليوم مظلمة، ورثَّة بأظافر محشوة بالصراصير والبق، تخترق جسدي وتنهشني، هنا الفقر والعوز، هنا الشقاء واللعنة، هنا المغضوب عليهم والمجاذيب. يا أهل الفسطاط جاءت نهايتكم حرقًا، تُحرَقون على الأرض وفي السماء. وجاءت نهاية أيامكم الحزينة، وضحكاتكم الجافة، وحوانيتكم السوداء، ونسائكم السافرات. فلتضحكوا يا رجال قبل البكاء، فلتغلقوا أبواب بيوتكم عن ضوء الشمس، فستجدون الزمهرير أضعافًا مضاعفة. أقسم الجنود أن يحرقوا كل شيء، وأن يشعلوا النيران في الأخشاب والغلة وبقايا الطعام وألسنة الماكرين. وهؤلاء يغرزون سيوفهم في كل من يرفع يده طالبًا السلم أو الحرب، اليوم النساء نساء الجنود، كل البنات سبايا، وكل البلاد تحتاج إلى التأديب. وقفت بعيدًا، رأيت النار الصامتة يمتزج صوتها بهدير الثعابين وصرخات الرجال قبل النساء. رفع رجلٌ سكينًا، وآخر مطرقة، وآخر عصًا، خرجوا على الجنود في هجمة واحدة، وصرخوا بكلمات لم أسمعها، رفعت يدي للجنود آمرهم بالقتال، ضربوا صاحب العصا، واخترقوا أحشاء رافع السكين، ثم أحرقوا صاحب المطرقة، جرُّوا البنات جرًّا، أحيانًا يلقون بهن إلى النار، وكثيرًا ما يخطفونهن ويؤجلون لحظات المتعة المنتظرة. ثمة متعة في رائحة النيران، تشي بالمحو والنقاء، بعد أن تخمد النيران لا يبقى شارع متسخ، ولا عباءة ملوثة بروث البهائم، ولا فضلات البشر. ما أجمل النيران وما أسرعها! صارمة هي كجدي، شجاعة كوالدي، حادة كأمي، وقاسية مثلي. كنت أحادث خفقات قلبي في جفاء.

يا جوهر! أين أنت مِمَّنْ بنى وشيد؟ رحلوا يا صديقي، لا أحد يتذكر تاريخهم، يقولون إنَّ الخليفة بنى القاهرة، والخليفة أنشأ الأزهر، الخليفة.. من يتذكر جوهر الصقلي؟! حتى أهل صقلية لم تعد تعرفه، دُفن في مصر، ولم تُنصفه الذاكرة.

جن الليل، اليوم حارب أهل مصر بشجاعة، ولكن الجنود انتصرت كما توقعتُ، جاء وقت لملمة الغنائم والاستمتاع بالحسناوات، أمرت جنودي بالراحة، غدًا يواصلون القتال، هذه نصرة قوية تشبه نصرة جنود بني عبيد في إفريقيا. ما أصعب حروب العامة! وما أقسى غدر من لا يتقن القتال! طلبت من جنودي الحذر، شيدوا خيامهم خارج المدينة، ولكن الهجوم سيأتي من أهل مصر اليوم أو غدًا. انقسم جيش الفاطميين بيني وبين الأمراء والأسفهسلار نفسه. معي مئات الجنود تحت إمرتي. من يقتل يعرف أنه انتصر على الخوف. وأنا قتلت، ولكني لم أقتل قاتل أبي، ولم أرد ذلك.

اجتمعت النساء في البيت ينتظرن الأمير، سمعن عن حرب الفسطاط وحرقها، لا أحد يعلم متى تنتهي، ولا لِمَ بدأت. قيل إن الخليفة أمر جنوده بحرق الفسطاط بعد سخرية أهل مصر منه، وقيل إن الحاكم بأمر الله يتسلق الجبل، وينظر إلى الفسطاط وتدمع عيناه، ويسأل الناسَ من حوله: من فعل هذا؟ ومن يقاتل من؟ فيشرحون له فيضرب كفًّا بكف ويقول ودموعه تنهمر: لا حول ولا قوة إلا بالله! ارفع البلاء عن البلاد يا رب!

ولكن النار أكثر سرعة من جن سليمان، تأتي على البيوت قبل أن يرتد إليك طرفك.

دخلت بيتي والدماء تملأ قميصي الأبيض وسروالي، ونقاط الدم لم تزل تتساقط من سيفي. أمسكتْ ليلى برقبتها، وشهقت في فزع، ثم هرولت ناحيتي واحتضنتني وهي تقول: حمدًا لله على سلامتك يا مولاي. لا حياة لي بدونك.

بقيت أمي ساكنة. تحدق في عيني، تحاشيت عينيها، ونظرت إلى سندس، طأطأت رأسها، ثم قالت في رفق: ليلى، جهزي المياه للأمير، ورافقيه، اليوم يحتاجك.

انحنت ليلى، وقبلت يدي، وقالت: قلبي يرافقه كل يوم.

تمددت على مخدعي، والجواري تأتي بالطعام وأواني المياه والحلوى. جلست ليلى خلفي تمر بيدها على كتفي، تضغط على أضلعي، وتهمس بكم تحبني. أغمضت عيني في إرهاق.

قالت أمي في صوت جاف: أشفق عليك يا أمير. الذبح متعب، والحرق يأخذ من النفس.

تجاهلت كلماتها، ثم قلت لليلى: اضغطي هنا حيث الجرح القديم. منذ أعوام..

- وكيف أصبت به يا مولاي؟ لن أتركك اليوم حتى لو طلبت مني ذلك، فقد عدت سالمًا.

نظرتُ إلى سندس، ثم قلت: هيا ألقي علينا بعض الشعر. هيا.

قالت وعيناها تنظران ليد ليلى التي تضغط على كتفي في رقة:

أراني في الثَّلاثَة من سُجوني

فَلَا تَسأل عن الخَبَرِ النَّبيثِ

لِفَقْدي ناظِري وَلُزومِ بيتي

وَكَونِ النفسِ في الجسد الخبيثِ

- لِمَ تذكرين الشاعر البائس الآن؟ اتركي العباسيين وشعراءهم، لا يتكلمون إلا عن الهموم، ولا يرتدون سوى لون الموت.

قالت سندس وهي تنظر إلى والدتي: اعذرني يا مولاي.. أحب شعره، وأراني مثله سجينة. وسجني أشد من سجنه، فالعين لا ترتوي من الرؤية، والسجن لا خروج منه إلا بالموت، والجسد الخائن لا يكف عن الخبث.

- لا أفهم كلماتك، ولا أحب الشعر. أردت شعرًا عن الحب والمرح فأصبتني بالغم.

قالت مسرعة: أردت الصدق معك يا مولاي.. أحيانًا الشعر الصادق يصيب القلب بالرضا حتى ولو كان حزينًا.

مرت ليلى بأناملها على شعري، وذقني، ثم قبلت وجنتي، وهمست: اصرفهم جميعًا. أشتاق إليك.

كنت أشتهيها لحظتها، أريد أن أغوص داخل جمالها. ولكن سندس تقف كالذنب أمامي، لا لوم في عينيها بل حسرة تنهش الكبد. همست في أذنها: وأنا أشتاق إليك أكثر. سيحدث.. بعد هنيهة.

نظرت إلى سندس ثم قلت في استياء: هل تظنين أني سجينٌ مثلك؟

- وأكثر مني.

- إياكِ.. سحرتِ لي منذ عدة أيام.. أخذتِ أثرًا مني، وسحرتِ لي.. ماذا أخذتِ؟ أخذتِ رمش عين أم نَفَسًا من غبار يحشرج الصدور؟

- وجدت بك بضعة مني.

ابتسمتُ في جفاء، ثم قلت وأنا أخاطب ليلى: ترى أتظنين أن زوجتي لديها قلب مثلنا؟ تغار؟ هل تغار منك يا ليلى أم عليَّ؟

قالت سندس في هدوء: ليلى أختي، أوصيها بك كل يوم، وليس للجسد الخبيث أن يتكلم أو ينتفض يا مولاي.

- أصبحت تبادلينني الحديث والكلمة بالكلمة..

قبلت ليلى أذني، وهمست: اصرف الحضور.. شوقي لك لا تحيطه البحور..

رفعت يدي أصرفهم، ثم رفعت كفي آمر سندس أن تبقى. نظرت إلى عينيها، ثم اقتربت أنا من ليلى وقبلتها في قوة، ولهيب النار ينتشر ويسيطر، والراحة تقترب وتراوغ.

همست ليلى: لِمَ تبقي عليها هنا معنا؟

- لأعذبها.

- ولم تعذبها يا حبيبي؟ هي طيبة.

- هي أخبث البشر وأشرهم. انتزعت من قلبي الراحة منذ وضعت يدها على صدري.

- لا أفهم يا مولاي.

عانقتها في قوة، وسندس تنظر إليَّ في ثبات بلا أي تأثر. ثم قلت وأنا أبتعد عن ليلى: أريدك أن تأتي إلي بعد برهة.

هزت رأسها، ثم خرجت في هدوء.

بعد ساعات وقبل بزوغ الفجر طلبت من ليلى أن تناديها، قالت في شفقة: هي ملاك يا مولاي، صدقني أريدك أن ترق لحالها، تشفق عليها، فأنا أحبها كالأخت.

دخلتْ عليَّ الحجرة، كنت أرتدي سروالي فقط، واقفًا في الشرفة، لم ألتفت إليها. قلت آمرًا: اخلعي عنك خمارك. قلت لك من قبل لا نار تؤثر فيَّ.

خلعت خمارها في بطء، وعيناها تتفحصان ظهري، وتشهد على علامات ليلة عشق بيني وبين ليلى. ابتسمت ربما لأنها عرفت وحدها الفرق بين علامات العشق وعلامات السيف مع أنها لا رأت السيف يعمل، ولا تعرف شيئًا عن العشق.

قالت في حماس: ليلى تحبك.

قلت وأنا لم أزل أنظر إلى النجوم: قلبي تعلق بها. بها تلقائية الأطفال واندفاع الحمقى كأنها خلقت لهذا الزمن. اليوم أحرقت الفسطاط.. أوامر من الخليفة، ولكن حدث شيء لم أتوقعه.. وكأن أهل الفسطاط كانوا يعرفون بقدوم الجنود. ترى من يستطيع أن يعرف شيئًا كهذا سوى إحدى نساء بيوت الأمراء؟ ولنقل إن إحدى نساء الأمراء عرفت بذلك، فلِمَ تُخبر أهل الفسطاط؟ نساء الأمراء لسن من أهل مصر، وجواريهن لسن من الأقباط. القاهرة بها القليل من المصريين.. أقل القليل.. بائع حلوى، بائع فول وعدس، بائع لحم، صاحب دكان أقمشة.. يتم اختيارهم بعناية فائقة، ولا بد من قربهم من الخليفة نفسه؛ لذا فلن يعرفوا شيئًا عن قدوم الحرب، ولو عرفوا فلن يتكلموا. ولكن...

بقيتْ صامتة، فنظرتُ إليها في بطء، تفحصتُ كل الحروق في خدها، ثم قلتُ: اخلعي رداءك أريد أن أرى موضع الحرق، لا أتذكره.

نظرت إلي برهة بلا كلمة، فقلت في تحدٍّ: تخافين؟

أمسكتْ بردائها بيد مرتجفة، ثم نزعَتْه من على جسدها نزعًا، ووقفت أمامي بنصف جسد سليم، ونصف جسد ذاب من النيران. أغمضتْ عينيها، ثم قالت: هل اكتفيت يا مولاي؟

قلت في صوت حتمي: اليوم في الفسطاط.. احترقت الكثير من الأجساد. كيف احترقتِ يا سندس؟

ارتجفت، وفتحت عينيها، ثم قالت: وما شعورك اليوم يا مولاي وأنت تحرق الأجساد؟ أتمنى أن تتذكر أن الحرق غير الجروح، فلا هو يقتل، ولا هو يتلاشى، بل يبقى في البدن، والقلب يعذب كجهنم، ولا يفرق بين الصالح والخبيث. ليس أقسى من الحرق يا مولاي.

- وأنت تتعذبين؟

بلعت ريقها، وقالت: في الماضي البعيد نعم، الآن لا.

- ماذا علَّمتك الساحرة؟ تبدين مختلفة عن كل البشر، لا ضعف يتسلل إلى الحشا، ولا شوق يذيب البدن.

قالت: الإنسان بطبعه ضعيف. وهناك لحظات يفقد فيها جأشه، ويتصرف بلا وعي.

ردد وهو ينظر إليها: يتصرف بلا وعي. أتعرفين عقاب الخيانة؟

- الحرق.

- لا ليس الحرق، الموت.

- راحة وهناء.

- تظنين أن ماضيك جعلك صلبة كالحديد أو أشد قسوة؟

- لا أحد في صلابتي في كل مصر.

- ساعديني أنت على ارتداء ملابس القتال، وهاتي السيوف بنفسك. سيوف ستقتل كل من سخر من الخليفة، وكل من فكر أنه قادر على أي شيء.

- هل ستفعلين؟

- أطيع أوامرك يا مولاي.

أمسكتْ بالقميص، واقتربتْ مني، ففتحتُ ذراعي، ووضعتُها داخل القميص.

أمسكتُ بيدها، والتفتُّ إليها، وقربت أنفي من رقبتها، ثم قلت: لروحك رائحة مختلفة. هل تبقى رائحة الحروق طوال العمر؟

قالت وكأنها لا تتأثر بلمساتي: تبقى طوال العمر.

اقتربتُ أكثر، وقبلت كتفها، ثم قلت: هل تشعرين اليوم؟

هزت رأسها بالنفي.

- هذا أفضل كثيرًا.

لو استطعت أن أدس يدي في الحشا فأخرج السحر من جوفها أو من أطرافها أشفى. ولكنني لا أستطيع.

اليوم الثاني كان أكثر ضراوة وقسوة، كرات اللهب لا تخمدها المياه، تلقي بها المجانيق على المحال والبيوت، لم يعد للمصريين الكثير ليخافوا عليه أو منه، علت صيحات الحزن على ما فُقد والغضب مما هو آتٍ. حفت عيناي أروقة المدينة، دخلت بفرسي الشوارع الضيقة والبيوت المختبئة حول الأحجار، رأيت الأطراف تتناثر والدماء لا تسيل كالمياه بل تتسكب كالكتل الحجرية من فتحات الرخام والطوب اللبن، رأس يضل طريقه، وآخر يجري صديق وراءه يحاول التقاطه، امرأة تشد شعرها، وتمرغ رأسها في الرمال، وأخرى تركع باكيةً أمام الجنود، ترى هل تأدب أهل مصر أم لا؟ النار تعمل في بيوتهم، لا تتبع الأوامر، نيران الخليفة تسير في طريقها بسرعة وإتقان، وتمحو كل تمرد وسخرية. فليضحك المصريون اليوم. لِمَ لا يضحكون؟ ابتسم لنفسه في لامبالاة، يا للعبث واللهو! منذ بضعة أعوام رأى رأس والده بين يدي الجندي، يحاول أن يفصل آخر عرق عن الجسد.

تمنى أن ينتهي الجندي سريعًا، دعا الله أن ينتهي الجندي سريعًا. فلتبتر كل الرءوس اليوم، فلم يعد هناك عزيز يخاف عليه.

ما بال المصريين يحاربون بسيوف من حجر تخترق، وتفتك بجنود الخليفة اليوم بلا رحمة؟ أي جحود أن يعتدوا على الجنود؟! ويتطاولوا على الخليفة؟ أرادوا العيش في الرذيلة، وأحبوا بيوت الزنا ومقابلات العشاق، حنقوا على من منع الخمر ومن صان النساء. أي رعاع هؤلاء؟! وأي عقاب يستحقون؟!

اليوم أمرت الجنود بألا يبقوا على موضع قائمًا في الفسطاط، أردت أن يُستنشَق الرماد في الهواء لعام أو عامين. لا أدري ما الذي أصابني، ولِمَ أستسيغ طعم الدماء ورائحة الموت؟

ومرت اللحظات كالسنين والدهر الرتيب. فقدَتْ الدنيا ألوانها، وتمنيت أن تستقر الروح في الجسد من جديد، روحي هي التي هامت بلا طريق ولا نجاة وسط الجمر المضيء.

اليوم سأطمئن بنفسي على خضوع العامة ومعاقبة الرعاع. هي دنيا كحسام لحظ فاتنة تقتل قبل أن تمزق الأجساد. وتقطع وهي تداعب الفاه وتقبل الشفتين، ليت أمي تعرف.. ليتها تعرف قسوة القتل ومجهود الحروب. ها أنا أرفع يدي لآمر الجنود بالذبح! أليس في هذا جهاد؟ ها أنا أواجه تطاول جثث المصريين على جنود الخليفة بالحيلة والمكر، أليس في هذا تعب وعناء؟ لم أنم سوى ساعات قليلة، أنتظر العطايا، وأعرف أن نهايتي ليست بالبعيدة. لا عهد اليوم لأحد، ولا أمان سوى بالحرق.

دخلت الزقاق الضيق أبحث عن رجل يرمي الجنود بالنار، ويجري منذ يومين، سريع الخطوات، ضئيل، بشعر خفيف ووجه أسمر، وعينين جاحظتين كما الثعلب. أحطت نفسي بالجنود ثم قلت: أريده حيًّا.

تخففت من أحمال الدروع، وأمسكت بسيفي، وجريت بين البيوت، وطيف الأسمر يظهر ويختفي، ثم يظهر ويختفي.. يلقي بشعلة النار على الجنود من أسطح البيوت والحوانيت، يسب ويلعن بلا رادع ولا خوف.. سمعت صوته، وعرفت رائحته.. صحت في غل لم أعرف مداه: أريده حيًّا.. أريد العَيَّار اللص حيًّا.

تسلقت سطح البيت الرث، فانتفضتْ الطيور من مكانها، وصاحت في فزع. سأبقى هنا حتى يظهر الرجل، لا بد سيظهر فهو يريدني أنا، يريد الأمير جوهر. تذكرت أبي وهو يعلمني الرماية والخيل والضرب بالسيوف. قال لي في فخر: جوهر لا يفرق عن جده. أنت أفضل إخوتك في ضرب السيف ورمي الرماح. أنت الفارس الأمير. تذكَّرْ نسبك وجدك. لولاك لما كان مجد بني عبيد. جدك بنى المدينة وجامع الأزهر. جدك الصقلي أتى من مدينته بتكليف من القدر أن يستقر هنا ويدفن في القاهرة.

كنت في الرابعة عشرة حينها. لا أدري متى نسيت كلمات أبي، ولا لم تذكرتها فجأة اليوم؟ يومًا في الماضي البعيد شربت الخمر حتى الثمالة في بولاق، واستقبلني أبي عند الفجر، ونظر إليّ بعينين حزينتين. قلت بلا تفكير وأنا أترنح يمينًا وشمالًا: سامحني يا أبي.

فقال وهو يطأطئ رأسه: لا تطلب السماح، أنت ابن الصقلي ربما تحتاج بعض الوقت، ولكنك ستدرك من تكون.

قلت في تأكيد: إخوتي يصلحون للحكم، اعتبرني مثل تميم بن المعز لدين الله. يعجبني شعره..

- قابلته يا بني وأعرفه. زين الرجال حتى لو ضللته الدنيا بعض الوقت.

«لا تصبر ولا تسامح».

رددت حينها في قسوة لنفسي وليس لأبي: لا تصبر ولا تسامح. هذا ماض. اليوم أنتظر الرجل الضئيل، السلمندر، هكذا أطلقت عليه، يتجول وسط النيران ولا يحترق.

شعرت به، يقترب، يتسرب كالدماء من بين أضلعي، ابتسمت لنفسي ورددت: لا تصبر ولا تسامح.

كنت أعرف أنه ورائي، مَنْ أبحث عنه. صاحب الجسد الضئيل والعينين الجاحظتين، من يتحرك كالثعبان ويهرب كالفأر، «السلمندر». بقيت ساكنًا، أرسم بسيفي على الرمال، وأنظر إلى الفسطاط وهي تنتفض، تشتعل وتصرخ.

رفع الرجل الأسمر سيفه، فالتفت إليه ودفعت به في ثوانٍ، وطرحته أرضًا وأنا أصوب سيفي على نحره. سمعت شهقته، ورأيت الفزع في عينيه الجاحظتين الكبيرتين، رمى الرجل سيفه، وصاح يستغيث: أيها الأمير.. لا تقتلني، أتوسل إليك.

تصلب السيف في يدي، وأقسم أني لم أتردد قط في القتل من قبل. فتحت فمي لأسب الرجل وأهله، ولكن الرجل أمسك بحجارة من جانبي وضرب بها يدي بكل قوته، ثم التوى بجسده كالأفعى وصاح بأعلى صوته فارتبكت الفراخ، ودار البط والإوز حول أنفسهم وعمت الفوضى، وقبل أن يرتد إليّ طرفي فقدت أثر الرجل السلمندر. يتلوى، ويتحرك بسرعة فائقة. هو الرجل الذي جرح يد الأمير جوهر بن حسين بن جوهر الصقلي. لا مفر من قتله.

أصابني الرجل بهوس. أمسكت بكف يدي الجريح، نفذ طرف الطوبة إلى عظامي، نزلت من سطح البيت وأنا أوبخ نفسي كيف يفر مني الرجل؟ وكيف أكون ابن القائد حسين ويهزمني السلمندر، الرجل الضئيل؟ هي ثوانٍ هرب فيها، هي لحظة وكنت سأقتله.

أصابني أمر الرجل بهم ثقيل، طلبت من الجنود تقصي حقيقته، جاءني النبأ اليقين بعد برهة، يقولون إنه حلواني في الفسطاط، اشتهر بالقطايف المحشوة بما لذ وطاب من الجبن والفستق. سألت عن موقع دكانه، عن ما يملك وما لا يملك؟ عن حياته واسمه. لا أحد يعرف اسمه من الجنود. ولكن كل الجنود تعرف محله في سوق الحلاويين في الفسطاط. لم يزل قائمًا، لم يحترق ولم يهدم. ابتسمت لنفسي. غدًا أحرق المحل، ثم الحلوى ثم الحلواني. انتابني حقد دفين على أهل الفسطاط، وعلى سندس. تأكد ظني أنها هي من أخبرت المصريين بالهجوم. هي الجاسوس الخائن. وهل للقتل عذر بعد الحرق؟ ماذا بيدي أن أفعل بها؟ أهجرها؟ هجرتها. أسجنها؟ سجنت نفسها. أقتلها؟ قتلت النيران الجسد. ليس بيدي سوى أن أكرهها فقط، وحتى هذا لا أقوى عليه. قالت: «شققت صدرك فلا مفر»!

هل حكيت لكم عن أمي «لمياء»؟ لم أحك لكم عن لمياء، وعن قوتها التي تكاد تقترب من شراسة النسر وهو يفترس الفأر. تحملت موت الابن والزوج في جلد ولم تشك، ولم تسكب الألم. كانت أقوى مني بكثير وأقسى. قالت: أي دماء تلوث ملابسك يا بني؟

نظرت إليها مليًّا، ولم أنطق.

قالت مستغيثة: لا أعرف لو قتلوك مع والدك، وذبحوك أمام عيني هل كان قلبي سيهدأ أم يشتعل؟

ابتسمت في مرارة، ثم قلت: الذبح قادم لا محالة. انتظريه بعض الوقت.

قالت بلا تفكير، وعيناها لا تتركان عيني: لن يأتي ما دمت تركع وتسجد للحاكم بأمر الله. كم رجلًا قتلت في الفسطاط؟

تنهدت حينها وأنا أنظر للدماء على إصبعي الذي حطم الرجل الضئيل عظامه، ثم قلت في شفقة على عظامي: كل أهل الفسطاط خونة. الجحود من شيمهم. انظري ماذا فعلوا بابنك. هذا الإصبع لن يصلح بعد الآن.

نغزت بيدها صدري، وقالت في حسم: هذا القلب لا يصلح بعد الآن.

قلت في استياء: لم ينصرك أهل مصر يا لمياء.

فقالت في حتمية: من يتوقع النصر من البشر فهو أخرق.

طبقت شفتي، وأنا أنظر إلى زوجتي التي تنظر إلى الأرض في شرود، ثم تركت الحجرة، وأمرت الجواري بتحضير الماء. الذبح قادم يا أمي، مكتوب عليك أن تري الزوج والابن مذبوحين أمام عينيك.

قلتها لنفسي، ورأيت دموعها التي لم تتساقط قط.

هناك نصرة في التفاف الجواري حولي، أختار منهن من تحلو لي كأنني دخلت الجنة واستقررت. يُردن إرضائي، ينظرن إلي في هيام، يتمنين ساعة وصل معي لا أكثر. استلقيت على ظهري، وأغمضت عيني. ما يحدث لا بد أن ننساه في التو واللحظة. لا يمكن تحليله ولا توقعه. مرت الجارية بيدها على ظهري، وهمست بكلمات الحب. تشابكت الصور داخل عقلي، سندس تتبدى بوجه مضيء لا يشوبه نسبة غبار، ثم يظهر الحلواني، يستغيث، ثم يغرز خنجره داخل أضلع الصدر، تتناثر الدماء، ويبقى وجه سندس يضيء بضوء الجنة الخالي من الخوف والطمع. كيف للجنة أن تبدو في مخيلتي بلا جوارٍ ولا خمر؟ ولِمَ يغرز الحلواني الضئيل السيف في صدري؟

أمسكت الجارية بيدي، وغسلت الجرح، ثم قالت وهي تقبل يدي: هل تؤلمك يا مولاي؟

لم أجب. هذه هي القاهرة. مدينة تعوض ما فقد، طردت منها، ثم عدت منتصرًا. ترى لو قابلت الخليفة الحاكم هل أهابه؟ ولو أطعت كل أوامره هل أنجو؟ أهو الخوف ما يفقد الأشجار ألوانها؟ أهو الخوف ما يجعل الأفرع أفاعي بأنياب تلفظ السم داخل كل أواني العسل؟ أهو الخوف ما يجعل يد الجارية الحانية لا تشبع ولا تضمد جرحًا؟

ما فعلت اليوم جنون، وبداية الهلاك لا محالة، لن أفكر، سأنام، أحتاج إلى النوم.

اليوم أمرت جنودي ألا يُبقوا على بيت قائمًا. غيظي تفشى وسيطر. تقدم الجنود إلى الأزقة وعقلي يفكر في الحلواني. سألت عن المحل وجدته أخيرًا، مرتبًا بعناية، حدقت فيه هنيهة قبل أن آمر جنودي بهدمه وحرقه. اصطف البسندود ملتصقًا بعضه ببعض على شكل حلقات مجوفة، من الصعب أن تكتفي بواحدة أو تفصل إحداهما عن الأخرى. رائحة اللوز والفستق تمتزج بالألوان القوية التي تزينه. وفي الناحية اليمنى كانت حلوى خشكنانج تقف كما الهلال الشامخ الواحد فوق الآخر، لا أدري كيف لا يسقطون أو ينهارون. مزج الزبد بالسكر واللوز بالفستق حتى تبدى لي مائة عيد ومائة شهر حرام في كل هلال منتصب. ولكني سأقتله لا محالة حتى لو لجأ إلى الأشهر الحرم. اتجهت عيناي إلى داخل الدكان حيث وضع حلوى الفنايد حتى لا تفسدها شمس الفسطاط، صنعها من السكر والبيض والورد واللوز فأصبحت تذوب بين الأصابع قبل أن تصل إلى الثغر. تدفئ الأنف بروائحتها، وتشعل الشوق إلى المزيد. ثم وقعت عيني على النيدة.. كنت أعرف أنه لص. النيدة حلوى مقصورة على أهل القاهرة، لا يصنعها أهل الفسطاط، ولا يسمح لهم بصنعها. ولكنها داخل دكانه، أكاد أشم رائحتها، قمح بالزبد والسكر ممزوج بعناية كفوارات القصور. رأيت أصابع زينب ولقيمات القاضي، رأيت العلاليق لأشكال الحيوانات والورود. أي إتقان يملك هذا الحلواني؟ وأي مصير ينتظر هذه الحلوى؟

أمرت الجنود بأن يأخذوها أولًا ثم يحرقوا الدكان. هذه قطع من الأثر كالبرابي. كلها إبداع ودقة تشبه تماثيل القدماء ورسومات مقابرهم. لا بد من الحفاظ عليها. لا أحب الحلوى، ولكن الجنود تشتهيها أكثر من شهوتهم للنساء.

بعد أن نهبوا الحلوى كلها، بدءوا في حرق الدكان. فألقوا شعلة النيران عليه، ثم أمسكوا بالنساء، كل يختار أجملهن لنفسه، دفعت بسيفي في الجموع، قتلت، وفتكت، وفجوة القلب لا تضمر ولا تستقر. سيظهر الحلواني.. لا بد من ظهوره، فمن يرتب محله بهذه العناية، ثم يبني بيته ملاصقًا له لن يبقى ساكنًا عند الهدم. اليوم علت صيحات البكاء، ولم تكن من النساء فحسب. لم يُسمع بكاء الرجال من قبل.. له نغمة من في جيده حبل من مسد. مزعج بعض الشيء. اختلطت الدماء، ثم سار ركب من الرجال من الجبل بجلابيب بيض وهم يرفعون المصاحف، ويبكون بصوت عالٍ. ويستغيثون بآيات القرآن، رأيت أنهم من الأشراف: سلام قولًا من رب رحيم.. سلام قولًا من رب رحيم.

ابتعد الجنود، وخافوا من قتلهم وهم يحملون المصاحف، توقف المصريون عن القتال، جلس بعضهم، ووقف بعضهم، حملوا المصاحف في وجه الجنود وبكوا.

تردد الجنود، شعرت بغصة وضيق.. لا أدري مصدرهما. ثم رأيته.. كان هو.. الحلواني، السلمندر. اليوم جاء من أقصى الشارع يهرول وفي يده المصحف، رفع مصحفه، وقال في صوت مستغيث: توقفوا.. برحمة ربي توقفوا.

رفعت سيفي، ثم صوبته على رقبة الحلواني، فارتجفت يده، وكاد المصحف يسقط منها وهمس: أستحلفك بالله أن تتوقف، أستحلفك بكتاب الله أن تتوقف.

مررت بسيفي على رقبته، ثم صدره، وغرزت طرف السيف في حرص على عظام صدر الحلواني حتى تساقطت الدماء، وتأوه الرجل من الألم، وهو لم يزل متشبثًا بالمصحف. ثم أزحت سيفي، وقلت: لا عهد لأهل مصر.

فردد المصريون بلا توقف: سلام قولًا من رب رحيم.

أنزل الجنود سيوفهم، ثم اقترب جندي مني، وقال: أيها الأمير.. لِمَ نحارب المصريين؟

قلت في استياء: أي سؤال هذا؟ هي أوامر الخليفة.

فقال: نعم أعرف، ولكنهم يبغون السلام.

التقت عيني بعيني الحلواني، عيناه الجاحظتان بهما لمعة السحر وبهتان الفقد. أعرف هذه النظرة، ولا أعرف لِمَ نطقت حينها بتلك الكلمات؟ قلت بصوت قوي: أوقفوا القتال. توقفوا.

ما إن سمعها الناس حتى خروا سجدًا لله. اقترب مني سرب الشرفاء الآتين من أعلى الجبل بالمصاحف، ثم قال أحدهم في صوت قوي: مولاي الأمير، هؤلاء أهل مصر بينهم وبين الجنود صهرٌ ونسبٌ. ارفق بهم، واعف عنهم يرحمك الله.

بلعت ريقي، ثم قلت بلا تفكير: يا شيخ يا شريف «علي». لا تتوسط لمن تمرد على الخليفة فربما يصيبك غضبه.

قال الشيخ الشريف علي بن الحسن: بالذي جعل الأرض فراشًا والسماء بناء، لا تدمر ما أمرنا الله ببنائه. أنت في سن ابني يا أمير.

قلت في امتعاض: هي أوامر الخليفة.

- لا أظن الخليفة يأمر بهذا. فلو أحرق الرعية ماذا يتبقى له؟ هؤلاء المصريون جنوده وقت الضيق والحرب يا أمير وليس أنتم فقط. هي أهواء الوزراء والقادة.

قلت في إصرار: بل أوامر الخليفة.

هز الشيخ رأسه بالإيجاب، ثم قال في صوته الهادئ: أنا أتكلم معه، وحتى أفعل أعط الأمان لأهل مصر. فجدك بنى ولم يهدم.

قلت في قوة: جدي بنى، ثم ضاع في غيابات الجب ووالدي...

- من يبني لا يضيع حتى لو نسينا سيرته بعض الوقت. الجندي يحمي ولا يعتدي.

قلت في صرامة: لا تتدخل في عملي يا شيخ. لك عملك ولي عملي.

قبل أن يتكلم الشيخ صاح الحلواني بأعلى صوته: العبيد تحارب يا شيخ.. العبيد لا تتوقف عن القتل.. نساؤنا بين أيديهم.

ثم سقط على قدميه، وأمسك بيدي وقال: لو أردت قتلي فلتفعل، ولكن مر العبيد بالتوقف عن القتال.

نزعت يدي من يد الحلواني، ثم قلت: تتغير كالحرباء. أردت قتلي أمس، واليوم تستغيث بي لأساعدك!

قال الحلواني مسرعًا ودموعه لا تتوقف: أستغيث بالشيطان لو استطعت، العبيد يفتكون بأهل مصر.

رفعت يدي، وصفعت الحلواني قائلًا: تأدب عندما تتكلم مع أميرك. عن أي شيطان تتكلم؟

رأيت الضغينة في عين الحلواني، ثم قال الحلواني وهو يكتم كرهه: أطلب عفوك يا أمير ومساعدتك. أنتم أهل يا أبناء القائد العظيم.

قلت وأنا أخاطب الشريف «علي»: أمرت جنودي بالتوقف عن القتال، ولكن قطيع جيش العبيد ليس تحت إمرتي، هم تحت إمرة القائد مسعود بن ثابت.

رفعت يدي لجنودي، وقلت في حسم: لا تحاربوا أهل مصر. توقفوا والزموا مكانكم. هذا أمر من الأمير.

فقال الشريف علي مسرعًا: الأمير جوهر ابن القائد الذي أحبه أهل مصر حسين بن الصقلي.

- وماذا فعل أهل مصر لإنقاذه؟ ما الذي نفعه في حب أهل مصر يا شيخ؟ الحب عجَّل بنهايته.

قال في رفق: يا بني. الخليفة لم يأمر بقتل المصريين. رأيته بنفسي أعلى الجبل ينظر إلى الفسطاط في حسرة والدموع في عينيه.

ابتسمت في تهكم ثم قلت: لا تطلب مني ما لا أستطيع.

فقال الشيخ: بل أطلب منك ما تستطيع، وأرى في عينيك تيه الرحيم، وتردد التقي أمام الظلم.

قلت في إصرار: سأنسحب بجنودي من الفسطاط. هذا كل ما أستطيع. وعندما أنسحب أكون قد خالفت أوامر القادة والخليفة نفسه.

قبل أن يكمل الشيخ كنت أمتطي حصاني، وأبتعد بالجنود. ضحكت ضحكة من القلب، وأنا أتذكر كلماته.. تردد التقي وتيه الرحيم! هؤلاء الشرفاء يعيشون داخل صومعة لم يدخلها البشر! فلتبق في جبلك يا شريف «علي» حتى لا تلوث جلبابك الأبيض بصنن الخائفين من الخازوق.

نظرت إلى الجارية التي يغطي شعرها كل جسدها العاري مستلقية ما بين النشوى والتعب. ما بين النوم والصحوة. تغفل عن كل العالم ما عدا ما يقع في مخدع الأمير. ولم أكن أراها، كنت أرى وجه سندس المحروق. ناديتها بأعلى صوتي، أمرت الجارية أن تأتي بها.

جاءت، نظرت إليّ كالأم التي تلوم ابنها الذي لم يصل صلاة الجمعة. طبقت شفتيها في حسرة. لم تتوقع أن أعاشر جارية جديدة، وأنسى أمر ليلى من يوم إلى يوم ومن ساعة إلى ساعة.

قلت: أريدك أن تلقي عليّ أشعارك. أو تحكي لي عن السجين..

قالت وعيناها تنظران إلى الجارية: ليلى..

- ما شأن ليلى بما يحدث في حجرتي؟

- ليلى تحبك.

- هذا خطؤها. لا طلبت منها الحب، ولا وعدتها بشيء سوى بضع ساعات من المتعة.

قالت: اصرف الجارية حتى أتكلم معك.

- الجارية ستبقى. مكانها معي، وأنت ستتكلمين.

ثم أكملت: اخلعي خمارك، أخبرتك من قبل أن الحرق لا يخيفني، ولا يثير شفقتي.

- لا أريد أن أجرح جاريتك، وأفزع قلبها الرقيق كالعصفور.

التفت إلى جاريتي ثم قلت: هل يخيفك الحرق؟ وجه زوجتي مشوه من النار.

قالت وهي نصف واعية: لو لا يخيفك لا يخيفني يا مولاي.

اقتربت من سندس، وانتزعت الخمار، ثم قلت: خنتِ زوجك، وأنذرتِ أهل الفسطاط. مَنْ يدري ربما أنت تعرفين الحلواني. هل تعرفين الحلواني؟

استقرت عيناها على كتفي، ثم نظرت إلى الجرح في يدي، وقالت: أحيانًا يسجننا القدر عنوة، وأحيانًا نختار السجن عن طيب خاطر.

- ومتى يختار الرجل أن يفقد حريته؟

- عندما يعرف أن في الحرية هزيمته وذله.

- ومتى يستطيع الهرب من السجن؟

- عندما يتحول إلى نسر. النسر لا يصاحب سوى نفسه، ولا يثق في طيور ولا بشر.

- كل كلامك طلاسم وسحر. تعالي هنا..

اقتربت مني، فقلت فجأة: يمكنني أن أصرف الجارية، وتنامي بين ذراعي.

نظرت إليَّ في فزع، فأكملت: لا تسيئي فهمي، ولا تجعلي الأمل يعبث بصدرك. تملكتني شفقة غريبة نحوك اليوم. لا أعرف مصدرها. كأنك طفل فقد أهله في الصحراء، وارتمى بين أحضاني يبغي الأمان.

قبل أن تنطق، دفعت بالجارية بيدي قائلًا: هيا إلى حجرتك.

فقامت مسرعة، وخرجت في ثوانٍ. ثم أمسكت بذراعها وقلت: تعالي إلى صدري.

لم تتحرك، فعانقتها في قوة ثم ضغطت على خصرها، وحككت خدي بخدها المحروق، وقلت: كل البشر تحتاج اللمسات الحانية. كل البشر.

- ماذا يعرف مولاي عن الحنان وقد حرق كل أهل مصر؟

- هل تحتاجين أن تنامي على صدري يا سندس؟ قولي الحقيقة؟ أن أريدك كما يريد الرجل المرأة فهذا مستحيل. أما أن أجعلك تنامين بين ذراعي فهذا ممكن. أنا لا أعافك، ولا تفزعني تشوهات جسدك. ولكنْ لي شرطٌ واحدٌ.

- ما هو؟

- أن تبطلي سحرك. منذ لمست صدري والدنيا ليست هي الدنيا، ما كان يفرحني أصبح يفزعني، وما كان يرويني أصبح يبتلع الماء من جوفي، اختلط عليَّ الأمر.

- لا سحر لديَّ.

- قلت إنك بضعة مني.

- قلت الحق.

- أنتم تتقنون السحر في مصر. وأنا «صقلي» لا معرفة لي بعلمكم القديم. احكي لي عن سجن الروح.

- لا فرار منه.

- وسجن النفس؟

- نتحرر منه بالمغفرة وتصفية الطمع من الأحشاء.

- وسجن القلب؟

- نبقى فيه مقيدين أبد الدهر في رضا، لا نثور ولا نطلب الحرية. فالعشق داء نرتضيه ونسلم له.

- وسجن العين؟

- ينتهي بانتهاء السحر، وفك رموز الحقد، فتنفتح كل أبواب الرؤية أمامنا.

- كلماتك كلها عمق.

- ليس لمثلي أن تتباهى سوى بعقلها.

تمددت على مخدعي، وحملتها معي، ثم قلت وأنا أقترب من أذنها بفمي: أنت خائنة. تريدين موتي. تفضلين أهل الفسطاط على زوجك.

تحررت من ذراعي في هدوء، ثم قامت قائلة: مولاي يحتاج أن ينام، لديه الكثير من القتل غدًا.

تكلمي معي، كلماتك مختلفة تسرني. احكي لي عن الشعراء، وعن أنغام عودك والقانون في يدك. كيف يصدر هذا الجمال من...

ابتسمت في فهم، ثم جلست بجانبي، وعيناها لا تتركان علامات الحب على جسدي، وبدأت في الحكي، عن الحب وعن الفخر، وعن حروب الأجداد، عن المدن والأسوار..

أغمضت عيني كالطفل، فأمسكت بالعود، وبدأت تعزف وهي تلقي عليَّ الشعر. تكلمت على ما يبدو.. حكيت لها من بين غفواتي الكثير.. عن أمي، عن أبي، عن الجواري والخمر.. عن الذبح والحرق وأوامر القادة.

قلت: يمكنني أن أحكي لك أي شيء. فأنت لا شيء بالنسبة لي. رأيك لا يعنيني و..

لم تنطق. وجدت نفسي أشك في قلب سندس، أتمنى نزعه من بين أضلعها لأطلع عليه، وأعرف كل ذرات دمائه وكل توق يسيطر عليه. قلت في غيظ: لو كنت تشتاقين لغيري أذبحك بيدي. ثم أضع رأسك أمامي وألقي عليه الأشعار. ألا تقولين إن الجسد وعاء صدئ لا يصدق؟ لا بد إذن أن أغوص بسيفي داخل قلبك. أخبريني بما به، واشرحي لي كيف أراك بهذا الجمال؟ ما بال الجسد بالقلب يا سندس؟

نظرت إليَّ، ثم قالت: الجسد عبد للقلب يا أمير، يطوعه ويحركه كما تحرك أنت سنان رمحك.

- الجسد مهم إذن كالقلب.

- الجسد مثل الرمح دونه لا تظفر بالنصر، ولكن القلب هو سنان الرمح، دونه تعجز عن كل شيء.

- كيف تتكلمين بكل هذه الحكمة؟ أنت امرأة لا أكثر!

ليت صفائح الدم تغني القلب السقيم، وليت الجواري الحسان تُشبِع الجسد المقيم، لو خلعت عني عشق الحياة واحتضنت الموت أنجو. ألفته وعاشرته، قتلت، وذبحت، وفي كل مرة رأيت رأس أبي يأبى أن يتحرر من نحره. وأصبحت أناجيه ليلًا، وأفتقده نهارًا، الموت. هي ضربة سيف تنحر أو زفرة من هواء الخيانة تخنق. يا ملاك الموت لِمَ أبقيت عليَّ ولَم تُبقني؟ حفظت الجسد، وقبضت الروح، لو كنت رفيقًا صالحًا ما غشيت البصر، ولا خلعت عن الأشجار كل أوراقها. لِمَ لا تأتي وتنهي ما بدأت؟ أتخشى النهايات مثلي؟ أم تُبغض البدايات العقيمة التي تنشأ وسط أحشاء الوحوش، ويلفظها الثعالب أوقات السحر؟ آه من أيام كلها سجون، شح فيها الهواء وتناحرت الأنفس، وتبدى يوم القيامة ولم يقترب، ففر المرء من أخيه، ولم يُحاسب ولم يُبعث. لِمَ تقبض أرواح الطاهرين وتُبقي على أرواح الشياطين؟ لِمَ تُريح البعض وتُعذب البعض؟ خُذني إليك، لا آبه بنار ولا أخاف سوى مقت الحكام.

«تَغيَّر عليه». كلمة بل كلمتان هل تعرفهما؟ تَغيَّر عليه الحاكم بأمر الله؟ ثم قتله! أضحك منك وعليك، أسخر من عجزك أمام الحكام، وترددك أمام الطغاة، استمر في قبض أرواح الأبرياء يا ملك، وسأستمر في مواجهتك ولومك كل يوم، وكل ساعة، وكل ضحى، وشفق، سألومك كلما شاهدت حرقًا بلا جهنم، وعذابًا بلا سعيرها. أين أنت اليوم يا ملك؟ تعال إليّ.. رافقني، بل عانقني عناقًا قويًّا، وذكرني بأن قلبي انشق لحظة موت أبي، وأن عجزي لم يزل ينخر في جسدي كالوباء. عانقني يا ملك، وأنه مهمتك. لِمَ تتردد؟ عهدتك قادرًا عالمًا.. أم أنك تفضل أن تعانق المخلصين؟ لو كنت تفضل الإخلاص فلا مكان لك في هذا البلد ولا هذا الزمان. اغرز سهمك في أحشائي، ولا تتردد، فروحي معلقة بين السماء والأرض، تنتظر رحمته وتخشى مقابلته. آه من زمن اختفى فيه النور، والألوان، وكل روائح العطر، ومذاق السكر، وروعة المنظر الحسن.

لِمَ يستمر الملك في تعذيبي ليلًا نهارًا؟ هل يرحم ويقبض روحي؟ هل يرحم ويحرر جسدي السجين بين ظلمات لا تنتهي، ولا تتركني أنتهي؟

ها أنا معلق من أقدامي، أهيم بين السحاب، تارة إلى الفضاء، وكثيرًا إلى أعماق الأرض. آه.. من عذاب لا تعرفه أمي ولا تفهمه. ترى الدنيا بلونين وهي بلا ألوان، وترى الأشجار بأجنحة وهي راسخة في الأرض عليلة مربوطة من قدميها مثلي، ولكنها لا تهيم في الفضاء، ولا تترك الطين الأسود. آه يا لمياء.. لِمَ لا تعرفين ولا تشعرين.. أين أنت من هذه المرأة التي مسحت دموع الطفل وهي تعبس في وجهه، ثم قالت في حزم: الرجال لا تبكي، ولا تطلب العطف. الرجال لا تخاف ولا ترجو. قل ما تريد، وخذه بلا كلمة. كيف أردتني أن أتكلم ولا أتكلم، أن أريد ولا أنطق؟ أن آخذ ويداي مكتوفتان، وقدماي مربوطتان. ما لك يا لمياء؟! ألا تعرفين ملك الموت؟ أم أن الخيانة لا تمسك ولا تعرف لك طريقًا؟ فلتبكي أو لا تبكي.. ستشهدين موتي وتعرفين الدموع. وما دمت أردت أن أرى دموعك، تمنيت دموع شوق أو حنو. وليس دموع تحدٍّ ومعرفة. آه يا لمياء، سأطل عليك من السماء، وأبتسم عندما تبكين من فقد، ويتعلق قلبك بالملك، وترجينه مثلي أن تقابلي الأحباب. لا بد من يوم تشعرين وتعرفين.. كنت هنا ولم تكوني. أحببتك ولمت عليك.. سامحيني يا أمي، لم أرق لمرتبة الابن قط. كنت دومًا خزيًا وعارًا. عندما نفترق ستتكشف لك الحقيقة، فالحياة دومًا تضل وتخدع. هو الموت الذي يكشف الغطاء، ويجعل الصخور تنشق نصفين أو أكثر. اصبري بعض الشيء يا ابنة حمدون، ألم يعلمك والدك أن القائد لا يخاف، يصاحب الملك ويسامره. ها أنا أسامره وأتمناه، ها أنا أصاحبه ولا أخشاه.

سمعت طرقًا على الباب. انتصف الليل أو كاد. ارتديت ملابسي، وخرجت من الحجرة. أمرت الجواري ألا يفتحن الأبواب. العامة لا أمان لهم.

سألت من بالباب. وكان هو.. الحلواني. توقعت وعرفت لا أدري لماذا؟

قلت في حدة: ما الذي جاء بك؟

- اليأس يا مولاي يجعل الأنبياء تشق البحر، وأنا عبد فقير، كل ما أستطيع هو التشبث بك.

- أنقذت حياتك نعم. كنت أستطيع قتلك ولم أفعل. ولكن لا تختبر صبري وإلا قتلتك في التو واللحظة. إياك أن تتسلل إلى بيتي مرة أخرى.

- جئت بهدية يا مولاي. أريد أن أعبر عن امتناني وشكري.

نظرت إليه ولم أنبس بكلمة. دخل وأغلق الباب.

امتزج ضوء المصباح بلون وجهه الشاحب فتجلى لي كالجان الآتي من جهنم تحيط برأسه شواظ النار. فيتصلب شعره الخفيف ثم يتهاوى. أقسم أن شعره ملأ غرفتي ولم أعرف كيف أتخلص منه بقية عمري.

فأخرج الحلواني من ملابسه تمثالًا من السكر الملون على هيئة ثعلب وفأر معًا، بعينين حمراوين وذيل أصفر وجسد رمادي. مد الحلواني يده وقال: هو لك يا مولاي. هدية لتحلية فمك وأيامك. السكر

يحلي الأيام العصيبة، ويفك الطلاسم، ويرفع اللعنات، خدعوك من قالوا إن الملح بركة، لا بركة سوى السكر، هو كالحور العين وفاكهة الجنة، هو بطعم العسل المصفى وزبد البحر. هو لك عرفانًا وامتنانًا.

أمسكت به ثم قلبته بين كفي وقلت: أي حيوان هذا؟

- هو ما تراه يا مولاي.

- أراه فأرًا.

- وأنا أراه ثعلبًا.

- جئت تمزح معي، أنت مجنون هذا أكيد. اخرج من بيتي، وخذ معك فأرك.

ارتجف الحلواني، وأجهش في بكاء مفاجئ ثم انتزع الحلوى من يدي، وقضم رأس الحيوان في فمه، وصوت بكائه يصل إلى الفسطاط.

نظرت إليه في ذهول والكثير من الفضول.

فقال من بين دموعه: قضيت عليَّ يا صقلي. أخذت كل شيء. تنام في بيتك بين جواريك آمنًا بعد أن قضيت عليَّ.

أمسكت بسيفي ولم أتحرك.

فأكمل الحلواني، وهو يأكل ذراع الحيوان الآن، ويمضغها بفم مفتوح، والمياه تنبثق من كل جوانحه، أنفه وفمه وعينيه: لو قتلتني أستريح. اقتلني هيا.. جئتك لتنهي مهمتك.. الأمير الصقلي.. جئت إلى بلادي لتحرق لا لتبني. حرقت محلي بعد أن بنيته بأحلامي، وما يُبنى بالحلم يصعب إصلاحه لو هُدم، ولكني جئتك ببعض الرماد.

دس يده في جيبه، وأخرج بعض الرماد، ونشره بأصابعه في المكان ثم قال: تظن أني أخاف سيفك؟ تظن أني جئت أشكرك لأنك أبقيت على حياتي؟ أردت قتلك نعم. ولم أفعل.. أتعرف لماذا يا صقلي؟ لأني وجدت بك بعضًا مني.

فتحت فمي حينها لأنهي هذا الجنون، وأشهرت سيفي. فأكمل الحلواني: كلانا يتمنى الموت. اقتلني وأقتلك وينتهي الأمر.

- أي مجنون أنت؟!

أمسك الحلواني ببطن الحيوان، وفركها بين يديه، ثم لحسها بلسانه من كفه، ودموعه لم تزل تتساقط وأكمل: لو كنت قضيت على حلمي فقط كنت سأسامحك. ولكنك قضيت على كل عشق لي في هذه الأرض. أخذت مني كل عرض وشرف. زوجتي وابني.

- أي هراء هذا؟! أنا لا أعرف لا زوجتك ولا ابنك.

انفجر الحلواني في الضحك ثم قال وهو يلفظ السكر من فمه: يا صقلي.. عهدتك ذكيًّا.. أمرت جنودك بالاستمتاع بالمصريات.. خطفوا زوجتي وابني يا رجل. أخذوا ابني الرضيع مع أمه. ماذا يتبقى للرجل بعد أن ينكحوا بناته وزوجته؟ هل تعرف؟ هل فكرت حينها؟

- أوامر الخليفة.

- لا أعرفه. يتغير حاله كالأيام. يومًا يعطف، ويومًا يمنع، يومًا يقسو، ويومًا يرحم. يومًا يبني المدرسة، ويومًا يهدمها، يقتل الشيخ، ثم يبكي على قبره. لا أعرفه. ولا أعرف تلك الأيام. أعرفك أنت.. أنت قضيت عليّ. قضيت على الرجل بداخلي، والحلواني المتمثل في جسدي. لم يعد لي شيء. صنعت هذا الحيوان بين رماد بيتي ومحلي. أي متعة لك اليوم من الهدم وخطف النساء؟

- اخرج من بيتي حتى لا أقتلك.

- لن تفعل. فقد وجدت بعضًا مني بداخلك. جئت لأبرم معك اتفاقًا يا صقلي.

- قل يا مولاي الأمير..

- أتكلم مع الصقلي وليس الأمير. أقتلك..

- ماذا قلت؟

- أقتلك وتقتلني.. لو أردت..

- أفقدت عقلك؟

- تحب الموت كما أحبه، ولا تقوى على قتل نفسك. أقتلك وتقتلني.

قبل أن أنطق، انقض عليَّ الحلواني، وأمسك بيدي، ثم قال في توسل والحلوى تتساقط من فمه على ذراعي: أريد زوجتي وابني، لا يمكن أن أتركهما في يد العساكر. أخذوهما أمام عيني، ولم أقو على المقاومة. رفعوا ذراعي، ووضعوا الخنجر على رقبتي ولم يقتلوني، ليتهم فعلوا، جروا زوجتي أمام عيني، وانتزعوا الثياب من على جسدها، ثم حملوها وسط صراخها ورحلوا. انتزعوا الملابس من على صدرها، وأنا أقف عاجزًا كالفأر. لن تسمح لهم بلمسها. أعرفها، مريم لن تسمح لهم. لا بد أنهم قتلوها عندما تمنعت عنهم. عرَّوها أمام عيني جنود الخليفة.. بل جنودك يا أمير.. هل تعرف حجم حنقي عليك؟ ولكني أتوسل إليك أن تعيد إليّ ابني وزوجتي..

- اترك بيتي قبل أن أذبحك.

-لن تذبحني. أبدًا لن تذبحني. لأنني بضعة منك.. فكر في كلماتي.. اعذرني في غمرة حزني، أكلت الثعلب والفأر. جئت به هدية لك يا قائد يا أمير، يا من حرق الفسطاط، وأمر جنوده بخطف نساء مصر.. لم يزل العبيد يفتكون بأهل مصر يا أمير، انسحب جنودك، وجنود مسعود بن ثابت لم تزل تعيث في الأرض فسادًا.

- إياك.. هي أوامر الخليفة.

- أمر بقتل أبيك.. فأطعت كل أوامره، ترى أظننت أنه يستطيع أن يعيد أباك إلى الحياة لو رضي عنك؟ هو يُميت ولا يُحيي يا أمير.

ردد وهو يتلاشى من أمامي في ثوانٍ: هو يُميت ولا يُحيي...

صحت حينها بلا وعي: انتظر.. أنا لم آمر الجنود بخطف النساء.. من خطف زوجتك؟

لم يجب، ولم أره وهو يرحل.

أمسكت برقبتي كأن الحلواني ذبحني ولم يتقن الذبح، رأيت والدي والجندي يحرر آخر عرق من الجسد. تُرى هل ظلت العيون تحلق في الفراغ الدائم. دنيا جوفاء كالأوعية القديمة التي يجدها الأطفال في صحراء الفسطاط. أيشفق عليّ الحلواني؟ بالطبع لا. من يستطيع القسوة يقسو، ومن يريق الدماء ليس قادرًا على غير ذلك. ما يقلقني هو بيعي كل أطرافي عمدًا فلم أعد أشعر بنشوى ولا ألم. ليلى لم تعد تُشبع الجسد. ولا الجارية الأعجمية ولا أي جارية. عندما أفرغ طاقتي بها، يلعب بي عقلي الألعاب. لا يخفق قلب ولا يهدأ بدن. كأني أقضي حاجتي لا أكثر. تحول هذا الفعل الذي ساعدني من قبل على اجتياز العمر الرخيم إلى مجرد فعل بلا تأثير. لا جمال يريحني، ولا الغوص في جسد كل جميلات الأرض استطاع أن يريح الأنين الذي يتسلل داخل الجلد كالحشرة ويتغذى من الدماء العفنة. دمائي لا بد عفنة. من في هذه الأرض يشهد موت والده بلا أن يثور أو حتى يعترض؟ ها هو الجسد يشبع ولا يحمد، يأكل، ولا يعرف طعم اللحم، ولا لين العظام، ولا حفاوة اللبن الصافي. ثم ماذا؟ ما الذي يجعل الأرض محتملة؟ ها هي معاشرة النساء تصبح بلا طعم. الخمر هي ما تبقى. سأشرب حتى تتقلب عليَّ أحشائي، سأشرب حتى تجف المياه من كبدي. سأشرب حتى يتوسل الكأس إليَّ أن أرحمه. ولكن الخمر أيضًا لم تعد تُنسي، ولا تساعد على السلوى. أصبحت تدق على الرأس، وتوقظ الحنين. الموت بعيد، والعمر طويل والأيام كالخليفة تغدر كل حين.

خرجت عند الفجر. لا تسألني لِمَ ولا كيف فكرت، فأنا لا أفكر. ولم أتعلم أن أُحلل أفعالي. هو القلب يحرك ويأمر. جمعت كل جنودي، وأمرتهم بمحاربة جنود قائدي مسعود بن ثابت في الفسطاط. كل جنود الترك والصقليين تحت إمرتي سيحاربون جنود العبيد، وسيتمرد الأمير جوهر على قائده. سيحاربون جنود العبيد حتى يتوقفوا عن أذى أهل مصر. هذا هو ما سأفعله بلا تفكير. ينجلي أمامي الشريف «علي» وهو يحمل المصحف وكلمات المصريين تزعجني حتى وأنا نصف ميت. سلام قولًا من رب رحيم. رب رحيم. يا رب.. أين رحمتك معي أنا؟ لِمَ لا تساعدني أنا؟ فلتنه ما تبقى، فلتنزع العرق الثائر من رقبتي، وتُعجل بالنحر. امتزجت الدنيا بالنجوم والكواكب. فأصبح العيش إبحارًا في السماء، والموت نهوضًا من عبث الحكام. يا رب! اعطف على عبدك العاصي، فرحمتك وسعت كل شيء. لا أطلب عفوك فأنا لم أذنب قط.. ربما أذنبت قليلًا.. ولكن اليوم أريد عطفك.

لم يتناقش معي الجنود، انطلقت بفرسي من القاهرة إلى الفسطاط والجنود ورائي، سمعنا الصرخات قادمة من أبواب القاهرة، فأسرع الفرس الخطى حتى هجم الجنود على جنود الأمير مسعود، سيف أمام سيف، ورمح أمام رمح. تجمد كل أهل مصر، توقفوا عن الاستغاثة، وبدءوا في إطفاء الحرائق فقط. لم يلتفتوا إلى الجيوش التي تحارب بعضها.

يقولون إن الخليفة تسلق الجبل، ونظر إلى الفسطاط وهي تحترق، وسأل عن ما يحدث. فقال له أتباعه إن الجيش انقسم عليه. جنود الترك بقيادة جوهر بن حسين الصقلي تحارب جنود مسعود بن ثابت ليكفوا الأذى عن أهل مصر. سأل عن قواد الجيوش. ثم استدعى مسعود، وأثنى عليه، وطلب منه الاستمرار في حرب الجيش المتمرد. وطلب لقاء أحد قادة الترك. لم أذهب إليه، ولم أكن أثق به. ربما كنت خائفًا، وربما لم أقو على مواجهته لمرارة في نفسي. لا أعرف بالضبط. بعثت أحد رجالي للقاء الخليفة فوق جبل المقطم. هرول إليَّ بعد حين وهو يدعو للخليفة، ويقول إن الخليفة أمره بمحاربة جيش مسعود. نظرت حولي، والتففت حول نفسي. لو قابل الخليفة «مسعود» لِمَ لم يأمره بكف الأذى؟ وهل أمره بمحاربة الترك؟ وأمرنا بمحاربة جيش مسعود؟ هل أراد للجيش أن يحارب بعضه بعضًا، أم أننا لم نفهم رسالة الخليفة؟ أم أنه ليس معنا ولا يسمعنا؟ ربما لا يدرك ما يحدث ولا يعرف. ولكن القائد أقسم أنه رأى الدموع في عينيه، وهو يشفق على أهل الفسطاط مما عانوا. هل أمر أم لم يأمر؟ لا يعنيني سوى أني لا أعرفه، ولا أهتم بسوى ما يحدث في الفسطاط. أصبح شاغلي الشاغل هو إنقاذ أهلها من قائدي وجيشه. وحاربت بكل ما أوتيت من قوة.

ثم رأيته.. الحلواني.. كان يسير ورائي، يرافقني طوال الوقت. يردد بلا توقف: وعدتني أن تجد زوجتي. وعدتني أن تساعدني. وعدتني..

قاطعته في حدة: اغرب عن وجهي، نحن نحارب.

- أنت تدافع عنا أعرف. ولكن هذا لا يكفي. وعدتني..

- لم أعدك بشيء، ولا أريد أن أعرفك.

تلاشى من أمامي، ولم يتركني.

هرولت إلى بيتي في القاهرة، وتركت الجنود تحارب جند قائدي. أمرتهم ألا يتوقفوا مهما حدث. طوال الطريق وحوافر الفرس تدفع بالتراب إلى عيني، وأنا أرى الحلواني في مخيلتي. كرهه لي كنشر الصبا يسعدني بعض الشيء، ويربكني بعض الشيء. ولكني أفكر فيه طوال اليوم. أرى السكر المنسكب من فمه والدموع التي يذرفها كالحيوان المبتور. أتعجب من قدرتي على إصابة إنسي بكل هذا الغم. كنت أظن أني أتبع الأوامر ولا أبدع في التعذيب والكي. ولكن بدا أنني أستطيع أن أتفوق على الخليفة نفسه في حرق العظام وبتر الجوارح. يا حلواني.. لكم أشعر بالفخر وأنا أنظر إلى محنتك، ولكم يصيبني الأسى. لا اخترت أن أدمر حياتك، ولا اخترت أنت أن أصبح أنا محور أيامك كلها.

توقفت عند الباب، ونزلت من على فرسي وأنا ألهث وأتجه إلى الداخل، ولكنني توقفت.. فما رأيته لم يكن ما تصورته.

رأيت زوجتي غارقة في وعاء العجين. سندس. ولا تسألني لِمَ لجأت اليوم لغرفة العجين؟ لا أدري بالضبط. ولكنها قررت المبيت بها. فقد نسيت مع الأيام كيف هو وجهها، اعتادت نظرات الفزع والشفقة وكأنها هي الطبيعية، وأي شيء آخر خروج على الخليفة. أدركت السجن الذي أحاطت نفسها به، وأدركت أن أيامه معدودة كالعمر. تقبلت وصبرت. ولكنها اليوم احترقت من جديد. ولا تسألني لِمَ

اليوم؟ رأيتها أمام عيني تنظر إلى الوعاء العملاق الممتلئ بعجين الخبز ثم فتحت عنه الغطاء. كان العجين طازجًا متأهبًا بحماس للحرق عند الفجر. دست يدها في العجين، وأخرجت بعضًا منه، ثم وضعته على خدها الأيسر حيث موضع الحرق. ثم اتجهت إلى قدح ممتلئ بالماء تنظر إلى وجهها، أخفى العجين الأثر الظاهر، ولكن يبقى القلب جافًّا كما المشمش والتمر. ابتسمت، لو مكثت هنا طوال عمرها الباقي تسكن وتستقر. سمعتها تتمتم لنفسها: جاء ليطبق عليَّ أبواب السجن، ويخفي ما تبقى من الضوء. من يُعطَ الابتلاء يُعطَ القدرة على تحمله. وما يمس الجلد لا بد ألا يتوغل إلى الأعماق، ولا ينخر في الأضلع.

مسحت بيدها العجين، ثم عاودت النظر إلى وجهها في قدح الماء. ترقرقت دموع ولم تتساقط. بلا إرادة وضعت العجين على خدها من جديد، ثم استلقت بجانب وعاء العجين، ملاذها ومنقذها، وأغمضت عينيها، وصرخت لنفسها ولكنني سمعتها: أفيقي يا سندس.. تعرفين من تكونين.. ما الذي أضلك وأثملك؟

- كنت تتكلمين مع نفسك.

نظرت حيث منبع الصوت، وحدقت دون أن تتحرك رموشها. رفعت يدي، وضعتها على خدها، ثم قلت في رقة: ما الذي أتى بك إلى هنا؟ لا لا تجيبي. لا أريد إجابة، ولا تخبريني لِمَ نشرت العجين على خدك؟ أتعرفين أن الخليفة منع المصريين من عجن الخبز بأرجلهم. خليفتنا صافي النية. أرأيته يا سندس؟

اعتدلت في جلستها، ثم قامت متجهة إلى الباب، فأمسكت بيدها قائلًا: أين أنت ذاهبة؟

قالت في خجل: لا أعرف. اعذرني.. كنت متعبة ولا بد أني وضعت عجينًا على خدي دون قصد. مسحت بيدي على..

قاطعتها: اجلسي. اليوم نتكلم بصدق. الصدق لا يخرج إلا ليلًا، والخوف لا يخرج إلا ليلًا. احكي لي يا سندس.. هل بدأت تشعرين كما البشر؟ هل تتمنين؟ تشتاقين؟ نظن أن الجسد خائن، ولكنه القلب هو الذي يخون دومًا. الفسطاط تحترق.

بدا عليها الارتباك، ثم همت بالقيام، فقلت وأنا أدفع بها إلى صدري: هل ضمك رجلٌ من قبل؟ بالطبع لم يحدث. ولن يحدث. تعرفين لذا طوعت الألم بداخلك، وأصبح الحرمان متوقعًا، ننتظره في ثبات ورضًا. ماذا حدث للرضا بداخلك؟

ما إن وضعت رأسها على صدري حتى أغمضت عينيها في ألم. طوقت خصرها، ثم مررت بيدي على ظهرها وكتفها وهمست: أتريدين أن تضميني؟ ضعي يدك على رقبتي، على صدري.. افعلي ما تريدين.

نبض جسدها بالحياة والثورة. ترددت، ثم دارت بأصابعها على رقبتي، فقلت في رقة وأنا أمسك بأصابعها وأقبلها في بطء: أنت خائنة. أعرف. أخبريني ماذا تريدين؟ هل تريدين أن ألمسك؟ تريدين معرفة ضمة الرجل ولمسته؟

فتحت فمها في فزع، فأكملت، وكنت قد نسيت أمر الحلواني برهة: أنت من أنذرت أهل الفسطاط بقدوم الجيش. تكلمتِ مع مَنْ؟ هل لك أهل في الفسطاط؟ لا تخافي لن أعاقبك. قررت ألا أعاقبك.

حاولت أن تتحرك، فضممتها في قوة حتى ذاب صدرها داخل صدري، وانتفض كل الجسد، وارتعشت الأطراف، وتحرك الوجدان. أغمضت عينيها، وطوقت رقبتي. ثم حركت يدها في بطء، مرت بها على كتفي، على ذراعي، أمسكت بكفي، وضغطت على أصابعي، ثم تنفست في عمق وهي تقرب فاها من رقبتي، وتحكه في صدغي، ثم أذني. لبست ثوب العابد التقي، وجدت بحرًا من الرحمة في قلبي، ونهرًا من الشفقة الممتزجة بالحنو. أكنت أتعمد إيلامها في الماضي أم عقابها؟ واليوم ماذا جرى؟ ألأنها تهاوت أمامي بإنسانيتها وضعفها فأدركت حجم جريمتي وعقابي؟

قربت فمي من خدها الممتلئ بالعجين، ومسحت بعضًا منه بأصبعي، ثم قلت: هكذا.

- لا أفهم.

- لا شيء يدعو للفهم. أنت تعرفين أن لا شيء يدعو للفهم.

سكنت بين ذراعي برهة كالعمر الطويل، والأيام الصادمة الحزينة، برهة كالأماني البائسة وجنون الفؤاد والعسل المصفى اللزج الذي يمكث بين الأصابع هنيهة، ثم يتسرب ببطء إلى الفضاء.

قلت: لا أعرف لماذا لا يمكن أن يكون هناك أي شيء بيننا، أنت تعرفين ذلك. ما أعجبني فيك أنك تعرفين وتتقبلين.

لم أكن أتوقع أن تنفذ كلماتي إلى القلب فتشطره نصفين، ألا يموت القلب ميتة واحدة كما الجسد؟ ألم تكن تعرف هذا منذ زمن؟ لِمَ التمني القاتل، وكيف يصبح الحب ضلالًا وحيرة؟ كانت قد كتمت الأمل وخنقته، ثم امتزج الأمل بالحمق والسذاجة. ولكنها تعرف هذا أكيد «الأمير.. لا يريدها. وكيف يريدها وهي..»!

لملمت نفسها المبعثرة، ثم قالت: أشكرك يا مولاي.

حاولت الفرار من ذراعي، فقلت مسرعًا: لا تتحركي. ليس الآن وليس اليوم.

قالت في قوة: ولكني أختنق.

- في تسارع الأنفاس يقظة أحيانًا. أريد أن أتكلم معك.. لا ولاءَ لك يا سندس. ولا حبَّ في قلبك.

- بل عز عليَّ أن أرى النار تطمس المعالم، وتنخر في القلوب. أخاف عليك من النار، فهي لا تكتفي بمن أحرقت يا مولاي. في يدك جيش ورجال وأسلحة وعتاد، أما أهل الفسطاط فلا يملكون سوى السكين والمطرقة. لم يعتادوا القتل، ولا يعرفونه.

- بل لا تعرفين شيئًا عنهم. لا بأس. قلت إني أسامحك.

تركتها، ونظرت إلى وجهها، فقالت: لم تنظر إليَّ هكذا؟ لكم أشعر بالذنب، وأنا أخدش جمال الكون من حولي. ولكنه قضاء الله، وقضاء الله جميل حتى لو تبدى للعين أنه بقبح نار جهنم. يا مولاي.. تُرى

أتراني بالنسبة لك حساء مغطى بالطين، تريد أن تتذوقه لأنه موجود منذ زمن، هو الفضول ما أدى بآدم إلى الخروج من الجنة. ولكنك بالنسبة لي روح وليس جسد، تعلمت أن أسبر الأغوار، وأرى ما وراء اللحم والجلد الرقيق.

اقتربت منها، وأحطت وجهها بيدي، ثم قلت في رقة: ماذا ترين؟

- أراك بحلاوة أشجار الجنة، وعذوبة مياه الأنهار المتدفقة، ورقة أصابع الطفل الوليد. أراك.. يا جوهر...

قبلت رقبتها، وتنهدت، ثم امتدت قبلتي، وانتشرت: ماذا ترين؟

- تضفي الجمال على كل ما حولك يا صقلي.

- لديك عين واحدة لتريني بها، أضلها العشق، فأغشاك ولم تعودي تبصرين.

- لم أعد أرى، لكني دومًا أبصر.

قبلت شفتيها في رقة، ثم همست: أشفق عليك، وأعرف أني محترق مثلك. أنت أفضل ربما، فلم يحترق قلبك.

قالت وكأنها لم تسمعني: شدة التعلق من الشيطان. هي ابتلاء كالمال والقوة. تفتن وتضل.

- لقبلاتك طعم مختلف.. كيف هذا؟

- لأنني بضعة منك ربما..

- لا تتكلمي هكذا.. لا أفهمك.. تقولين: إني أضفي الجمال على كل ما حولي أليس كذلك؟

ابتعدت قليلًا، ثم قالت: هو كذلك.

- أحرقت الفسطاط، قتلت الرجال والنساء، شردت الأطفال.. أي جمال ترين يا سندس؟ لا لا تنطقي ستقولين إنني كنت مرغمًا، أوامر الخليفة، كنت أريد إنقاذ نفسي، وإعادة مجدي القديم.. ستقولين..

وضعت إصبعها على فمي، ثم قالت: أراك ولا ترى نفسك.

قبلت فمها في تصميم، وغصت بقبلتي إلى الأعماق، مررت بيدي على آثار الحرق على وجهها وكتفها، ثم ذراعيها. خلعت عنها رداءَها، ومررت بيدي على آثار الحرق على بطنها، وقبلتي لا تنتهي. حتى دفعت بي، وقالت ودموعها تلمع في عينيها: أتوسل إليك..

- مم تخافين؟

- من نفسي.. من سجن الشوق الذي يمحص القلوب.

ثم قالت وأنفاسها تتصارع: ليس لمثلي أن تعاشر مثلك.

قلت في تلقائية: عندما وضعت يدك على قلبي ماذا فعلت بي؟

نظرت إلي في براءة قائلة: بحثت عن نفسك، ولا أدري لو كنت وجدتها.

- يا امرأة. أي شيطان يسيطر عليك؟!

أغمضت عيني لعلي لا أرى ما يؤذيني، ولكن تبدت لمخيلتي زهور من الثعابين تدنو ثم تبتعد، تلدغ أصابعي ثم ينتشر السم بين أركان الكون، ويتسلل بلونه الرمادي وملمسه اللزج ليغطي وجهي ورقبتي. فتحت فمي لأتنفس فلم أستطع، فتحت عيني لعلي أتنفس فتلاشى القبح. رفعت يدي، ومررت بها على وجهها حيث موضع الحرق. تنفست في سلاسة، وتوقف عقلي أو كاد. لا أدري ما الذي حل بي. استنشقت رائحة النار بين حنايا روحها. لملمت رداءها، واتجهت إلى الباب.

همست: تعرفين.. سحرك لن يجدي. ولكن.. انتظري.. سندس..

التفتت ونظرت إلي، امتزجت دموعها بالعجين، فغدت تشبه عجينًا رأيته في مطبخ أمي منذ زمن وهي تصنع لقيمات القاضي. قلت بلا تفكير: لو أردت أن تجربي الشوق لرجل، وارتواء الأجساد، فتعالي إليَّ.. سأنتظرك.. مرة واحدة.. نتفق من اليوم. لا تتوقعي أكثر من متعة الجسد وإشباعه. تستحقين هذا مرة.

نظرت إلي وهي تفتح فمها في فزع، ثم خرجت تجري.

استمرت حرب الفسطاط. وعدت كل ليلة في الغسق. أنتظر ولم تأت.

توقعت أن ترتمي بين ذراعي، تقبل قدمي، وترجوني أن أذيقها عسل الجنة، ولكنها لم تفعل. يومًا وراء يوم اختفت عن عيني تمامًا. اغتظت ويئست. قلت لنفسي: ما الذي يشغلني في أمر مثلها؟ وأقنعت نفسي حينها أنه السحر الذي يجعل كل أيامي بلون واحد، وكل بصري لا يرى سوى سدائل الليل وبين الأحبة. طلبت من ليلى أن تناديها، ولكنها لم تستجب. وجدت نفسي أذهب إلى حجرتها، وأفتحها، وأنا أجاهد حنقي، وقلت في حدة: توقعت أن تأتي.

نظرت إليَّ برهة، ثم قالت: ربما أسأت فهمي يا مولاي الأمير. لا تعرف ما أحتاج.

قلت في استهزاء: أعرف. النساء تحب تجميل شهوة الجسد بكلمات الشوق ولمسات العطف. ماذا تريدين أن تسمعي مني؟

همت بأن تقوم من مخدعها، فأشرت إليها ألا تفعل، ثم قلت: لا تكذبي. هل تحتاجين إلى الحكي. أخبريني من حرقك؟

حملقت في زخرفة السجاد أمامها، ثم قالت: ولم تظن أن الحرق كان عمدًا؟

- كل شر عمد، وكل أذًى عمد. اليوم أنا ملك لك. تحكين، تطلبين.. تلمسين، تستمتعين.. تحبين..

قالت: وماذا ستأخذ في المقابل يا مولاي؟

- لي منك جهد المقل.. ما تجودين به..

- وما سبب هذا الكرم يا أمير؟

- لكل منا لحظات جود. فكري في الأمر..

فتحت أنا عيني، ونظرت إليها بلا توقف، كأنني طفل فقد السمع والبصر، ثم عاد إليه البصر حديدًا. نظرت إلى تفصيلة حروقها، وتجعيدة رقبتها، وعينها المغمضة التي ربما لا ترى بها جيدًا، وعينها الأخرى المفتوحة بديعة الجمال التي تحدق في وجهي بلا تردد. رفعت يدي ومررت بها على مكان الحرق، على وجهها ثم رقبتها، ثم أزحت عنها عباءتها بعض الشيء، ومررت بيدي على ذراعها.

ثم قلت: ترى أظننت أن جوهر بن حسين الصقلي سيتزوج منك أنت؟ سيختار من شكلت ملامحها النار؟ وماذا عن بياض اللؤلؤ ورائحة الياسمين؟ كل نساء القاهرة تحت إمرتي اليوم.

قالت في صوت مبحوح: أعرف.

- فيم طمعت يا صاحبة الشياطين يا ساحرة؟ أمسَّك الشيطان قبل الحرق أم بعده؟

اختنقت الدموع في الحلق، ولكنها لم تتساقط. لم ألحظ ولم أهتم، أو هكذا شبه لي.

أكملت: خداعك وخداع والدتك يستحق الموت. ولكنك ميتة بعقابي أو بدونه. تعرفين أني رأيت أبي يُذبح أمام عيني.

همست في صوت سمعه: وذبحوا قلبك فلم تعد تشعر أو تندم. كلماتك تذبح وتحرق كسيوفك ورجالك.

شددت ذراعها وقلت: لم أعد أعرف نفسي.. ولا أرى الأشياء حولي.. قولي لي ماذا فعلت؟

قالت في هدوء: شققت صدرك، وبحثت عنك بداخلك.

- وهل وجدتني؟

- لم أزل أبحث.

- ما لي أراك كبدر التمام؟

- لا تسألني عما ترى، فعيناي ليست عينيك.

- كأنني أتعلق بك وأريدك. هل يجوز هذا؟

- لا تسألني عن قلبك، فقلبي ليس قلبك.

- ماذا وجدت داخل صدري بعدما شققته؟

- وجدت بعضًا مني، وبعضًا منك.

- قابلت رجلًا أزعجني.. أراد قتلي ولم أستطع قتله. تُرى أفقدت عقلي؟ حلواني ضئيل بعينين جاحظتين، كان يمكن أن أقتله وعجزت عن هذا. يؤرقني أني عجزت عن قتله مع أنني أستطيع. قولي لشياطينك إن العبث بعقل جوهر جُرم، وانتقامه سيأتي.

اقتربت منها، وأحطت رأسها بيدي، ثم قبلت وجنتها المحترقة في رقة وهمست: ما لي لا أراك سوى ضوء من السماء. تلاشى الجمال من حولي، ولم أعد أراه سوى في وجهك. سندس.. هل تحبينني؟

لم تجب، ولم يتبدَّ في عينيها أي شوق. أغضبني جمودها. كتمت سأمي.

قلت: أين الجمال من حولي؟

فهمست وهي تقترب مني:

اعبر بعينيك ألوان الدنيا.

وسوف ترى الجمال في حبات الرمال الهاربة.

وزبد البحر المتوهج.

وصيحات البين وآلام الفراق.....

هي أيام تتملص من بين أصابعنا كالمجد والفرس الجامح..

تتقلب، تتلاشى.

تتقلب، ثم تفنى.

تتملص من بين يديك كالسمكة في يد الصياد.

هي أيام كالجسد وحلاوة السكر في فم الطفل.

وبريق العشق في عيون الرجال.

وابتسامة الرضا في أجفان العاجزين.

ونظرة التسليم في وجه القدر.

تريد أن تعرف الجمال، ابحث بعيدًا عن كل ما يتسرب من بين يديك.... كالماء.... أو اجعل حلاوة الفناء تغمرك ولا تبتئس فما السكر إلا ذرة من ذرات الجنة.....

تذوق واستنشق واعبر بعينيك.... فما سيبقى لم يخلق للدنيا.

التقت أعيننا، ثم قلت: هذه كلمات مختلفة لم أسمع مثلها من قبل. ليست شعرًا ولا نثرًا. ولا أفهمها.. ماذا تقصدين بحلاوة السكر والأيام القليلة التي تهرب منا؟ ما بال الأيام والسكر يا سندس؟

- وهل يبقى طعم السكر في فمك يا أمير سوى لحظات، ومع ذلك كلنا نحبه؟

مددت يدي، وأمسكت بزندها، وقلت في رقة: أريدك أن تتذوقي نوعًا آخر من الحلوى.. اتركيني أعطيك بعض السكر..

أمسكت بيدي، ونظرت إلي برهة، ثم أزاحت يدي، وقالت: أشكر كرمك، ولكنك أزعجت السكينة بداخلي، وأشعلت الحروب داخل النفس السالمة المستسلمة. أخاف أن أكره نفسي لو ذقت الحب على يديك. وقد تقبلتها واعتدت جروحها. تعرف؟ حرق الجسد رحلة كرحلات الفقد والموت. تبدأ بعدم تصديق مقترن بغضب وكره للذات، ثم كره لكل من يحبنا. ثم..

- ثم ماذا؟

- أصعب من الحرق العيش به؛ لأن وجهي تلاشى ولكنني أتذكره. هل تفهم ما أعني؟

- من هو؟ من تسبب في هذا؟ هل ما زال حيًّا؟

- ما زال حيًّا.

- لِمَ لم يقتله والدك؟

ضحكت في حزن مزعج، ثم قالت: ليس كل الأنام مثلك يا أمير، السيف لا ينهي كل المعارك، بل ينهي أسهلها وأبسطها.

مررت بيدي على خدها المحترق، لا أعرف لو كانت تشعر بيدي أم لا، ولكنها أغلقت عينيها، ثم همست: أنت قاسٍ. كنت قد بنيت أبوابًا كأبواب جدك حول قلبي، وتقبلت مصيري، وجاهدت أعوامًا لأرضى، ثم جعلتني ألجأ إلى العجين لأخفي العلامات كأنني خرفة.

حركت أصابعي على رقبتها، ثم همست: هل انجذبت إلي؟ أردت أن تعرفي ما تحكي لك عنه ليلى؟ هذا طبع كل البشر. لا داعي للوم نفسك.

أمسكت بأصابعي، ثم قربتها من فمها، وقبلتها في بطء، وقالت في حسم: عندما تعاشر ليلى، ثم تنساها آخر اليوم، وتختار غيرها في اليوم التالي، تحزن المسكينة، ولكنها تتخطى الحزن، أما لو عاشرتني، ثم نسيت أمري فستكون قد فرطت في روحي التي حافظت عليها أعوامًا. في يوم من الأيام رمى بي خطيبي دون كلمة، وفي يوم آخر لفظني الناس، وشهقوا في وجهي، وفي يوم خبأتني أمي عن الأنظار، وفي يوم آخر عالجتني ساحرة الهرم بكلماتها ودوائها.. ويوم قابلتك قرر قلبي أن يبتليني الابتلاء الأخير وأعشق الأمير.. هو يوم انتهائي.

- فتحت قلبك لي..

- وكأنني أراك وحيدًا وحدة التائه وسط الأحراش، وكأنني أراك تمنع المياه عن لسانك فيحترق مثل جسدي.

اقتربت بفمي من ذقنها، قبلتها، وكنت أريدها كما لم أرد امرأة من قبل. أشتهيها كالصبي، لا أعرف لماذا؟

قامت في بطء، وأبعدتني، ثم قالت وهي تفتح الباب: هل أنادي لك ليلى يا مولاي أم تفضل جارية أخرى؟ سندس لا شأن لها بالرجال.

قلت في غضب: قلت إنك تعشقينني الآن.

رددت: لو أراد مولاي البقاء في الحجرة أخرج أنا.

ضغطت على فمي في غيظ. حاولت الاقتراب، فأبعدتني في حدة. قلت: ستأتين.. الليلة.. أو غدًا. الفضول أخرج آدم من الجنة.

هزت رأسها بالنفي في قوة، ثم خرجت هي من الحجرة، وتركتني معلقًا بين السماء والأرض.. أراها كالنجمة المحلقة حولي تمشي بجواري كل ليلة، وتتبع خطواتي ولا تقترب.

ويبدو أنني أعرفها كما تعرفني. فقبل الفجر كانت تطرق بابي. ابتسمت لنفسي في انتصار، ثم قمت، وفتحت الباب ونظرت إليها. هوت أمامي، وغطت وجهها بيديها. لم تبك، ولكنها كانت تنشج في ألم. قالت في انهزام متلعثمة: أطفئ الأنوار.

ضحكت حينها، وشددت يدها، وألقيت بجسدها بجانب جسدي ثم قلت: اخلعي ملابسك. لا داعي أن تبقي عليها وأنت معي. واهدئي. ما الذي يخيفك؟ لن أفعل أي شيء سوى ما تطلبين مني. الأمير اليوم تحت إمرتك يا سندس. ماذا تريدين؟

قالت وهي تلهث وتغطي وجهها: نتفق اليوم. هذا سيحدث اليوم فقط. ننسى كل شيء غدًا، ولا نتكلم فيه أبدًا.

غمر قلبي شفقة لم أشعر بها حتى ناحية أبي المذبوح أو أمي المكلومة. امتزجت الشفقة بصبابة وحنو. أغمضت عيني، ثم أطفأت الشمعة، وقلت: في الظلام تتلاشى حروق جسدك وكل معاناتك، أما أنا فالظلام ينكأ جروحي ويؤججها.

دفعت بها حتى استقرت تحت جسدي، ثم قلت في شوق وأنا أقبلها: قولي لشيطانك يبطل هذا الشوق. وهذا الوهن وهذا...

ارتجفت، بل انتفضت من مكانها، ثم قالت: من فعل هذا بي.. لم أسامحه. حاولت ولم أستطع. تُرى أهذا ذنب؟

لم أكن أستمع جيدًا لتأملاتها ولا إفضائها إلي، قلت: ما رأيك لو قبلت كل قطعة منك؟ أتوافقين؟

- أكره نفسي اليوم، ولا أتقبلها. أتمنى الموت.

- ما هذه الكلمات الخرقاء؟

مررت بيدي على كتفها، فارتعدت فزعًا.

- تشعرين مثلنا.. كفي عن لوم النفس، واتركي جسدك اليوم يسيطر.

لم تعترض، ولم تناقش. ولكن ارتجافها وخوفها كانا عائقًا أعرفه وأعرف كيف أتغلب عليه.

قلت في ثبات: اهدئي. سندس.. في الظلام لا أراك. لا أعرف أي شيء عنك.

قالت في عدم صبر: هيا.. قبلني.. افعل ما تريد.

فابتسمت، وأنا أمسك بيدها، وقلت: لن أفعل سوى ما تريدين أنت. بل لن أفعل أي شيء حتى تهدئي. سأمسك بيدك فقط.

مكثنا ساعة أو أكثر. لا أعرف من أعطاني الصبر، ولا لِمَ أردت أن أهدئها. توقفت عن الارتجاف. اقتربت منها، وامتزجت أنفاسنا، فهمَّتْ بتقبيلي، فابتعدت عنها بعض الشيء، وهمست: لم تزل يدك ترتجف.

بلعت ريقها، وقالت في يأس: لا تكرهني.

قبلتها في قوة، وقلت بعد برهة: أكرهك! لا لن يحدث.

أغمضت عينيها، ونبضت الحياة بين جوانبها. ولكني سأحكي عما حدث لي يومها. بعد أن سمعت آهات العشق من بين ثنايا روحها مع أنها لم تنبس بكلمة، وبعد أن رجتني أن أتوقف ولم أفعل حتى تناثرت حولي كما الجثث وعظام البشر. فإنَّ ما حدث لي يومها لم يكن مجرد متعة بين رجل وامرأة، ولا لحظات نشوى تنتهي مهما بقيت.

أمسكت بقلبي، ونظرت إليها، ولم أعد أرى الحرق في وجهها، بل لم أعد أرى وجهها أصلًا. رأيت براحًا وخلوة.. علت دقات قلبي حتى كادت حشرجة الموت تعبث بي. نفخت ثم تنهدت، وأغمضت عيني، وابتعدت عنها. انتفضت من مكاني، وهببت واقفًا. لم تتحرك. قربت الغطاء من صدرها، وغطت جسدها، وطأطأت رأسها، ثم قالت: معك حق. أعرف كل ما ستقول. أرجوك ألا تقوله. لو أردتني أن أخرج من البيت ولا أعود إليه فسأفعل، ولو أردتني أن أختفي من وجهك بقية عمري فسأفعل.. ولو...

أشرت إليها بالصمت. ثم جلست على طرف السرير، وغطيت وجهي. عاشرتها.. زوجتي، مررت بأصابعي على آثار الألم، كانت كثيرة، محت ما قبلها من جمال. الألم يمحو الجمال يا ترى أم يبرزه؟

ثمة شيء تغير في بقية أيامي. سحر هذا أكيد. ولكني أكاد أقسم إني طوال عمري منذ بدأت معاشرة النساء وأنا في الخامسة عشرة وحتى اليوم ما اختلجت بين ذراعي امرأة، ولا هرولت أطرافي لتناجي روعة الدجى وسطوع القمر. توقف قلبي أو كاد. حدث لحظة الالتحام. تمنيت لو أصرخ، وكتمت صرختي. ماذا في سندس؟ ساحرة يا ترى؟ هذه سجية الساحرة. ترددت، وتمنعت، وتجمدت أطرافها، ولكن نفحات الرغبة أضاءت كالقناديل. تركتني أفعل ما أريد، وأغمضت عينيها، وهمسَتْ: أرجوك ألا تسخر من جسدي، أتوسل إليك أن ترأف بي.

تقهقرت بعيدًا في بطء، وهي تحاول أن ترتدي ملابسها. نظرت إليها فجأة، وقلت في فزع: ماذا تفعلين؟

- أتركك لحالك يا سيدي لتنسى القبح الذي رأيته.

- والله الذي أعبده ما رأيت هذا الجمال على إنسيٍّ. أقسم لك لو تحركت من مخدعي لأقتلنك بيدي. أنت تبقين هنا بين ذراعي ليل نهار. أتفهمين؟!

- لا أفهم. يا مولاي..

أمسكت بمعصمها في عنف، وقربتها إلي، ثم قلت: قبليني يا سندس.

فتحت فمها في ذهول. فقلت: قبليني..

- أتوسل إليك ألا تسخر مني.

- كفي عن الهراء، ونفذي أوامري كلها. قبليني..

اقتربت منها، ثم لامست شفتيها في بطء كأنني أتذوق من حلوى يخشى نفادها، ثم تعمقت أكثر داخل نفسها، ولم أستطع سوى أن أفترس الحلوى دفعة واحدة. أمسكت بذراعها لأضعها على كتفي، ثم قلت من بين قبلاتي: ما بك؟ أتنفرين مني؟

- بل أخاف.

- ما الذي يخيفك؟

- ما سيحدث بعد انقضاء الليلة.

- ما لنا وما للنهار.

- أنت تخترق الجراح القديمة، وتنكأ فيما طمرت أعوامًا.

-هذا ليس وقت الكلام. تعالي إلى ذراعي.. أتريدينني؟ تحبين لمساتي؟

قالت وهي تلهث وتدفن رأسها في صدري: أنت جميل يا أمير. لا تحتاج لمثلي لتخبرك.

- أريد أن أسمعها منك..

- أيقظت ما كان طي النسيان. يحزنني أني انهزمت اليوم، وفقدت كل ما حققته من انتصار على جسدي الخبيث.

- جسدك ليس خبيثًا.

- هو خائن. صدقني.

- هو حي. ينبض بالشوق. كفي عن الكلام. غدًا أعود للقتل واليوم لا أحتاج الخمر ما دمت أنت بين ذراعي. غدًا أموت يا سندس ربما، واليوم أحيا لأول مرة.

- هكذا هم الرجال يكذبون لحظات الشهوة.

- بل لا يخرج منهم إلا الصدق.

قاطعتها وأنا أقبل فمها في قوة، وانتهى الكلام بيننا ساعات. ما حدث وما شعرت به أربك الجروح، وطمس العقل. همست من بين قبلاتي:.تسحبين الأنفاس والألباب يا سندس.. لم أكن أحيا قبل هذا.

لا تأوهَتْ ولا همسَتْ بحبها وشوقها، ولكني كنت أشعر بها داخل أعماق الكبد.

وعندما انتهيت، ضمت ركبتيها إلى بطنها كما الجنين، ثم قالت: هل يمكن أن تتركني الآن؟

دفعت بها إلى صدري، ثم قلت: لا لا يمكن.

قبلت وجنتها المحترقة، ومررت بيدي على ذراعها المطموسة وكأن النار اشتعلت أمس أو اليوم. صاحت في ألم: آه..

- ما الذي يؤلمك؟

- وجودك..

- لا مفر من وجودي.

- قلت لكَ إنكَ تخترق عالمي كجيوش الروم.

- بل أفتح بلادك، وأبقى بها.

- لا أريد أن أكرهكَ.

- المحب لا يكره قط.

- لا تعرف شيئًا عن الحب.

- علميني إذن.. ماذا يقول الشعراء عن الحب؟

- لا قوة في الحب، ولا شفاعة في الفراق.

قلت وأنا أغرقها بالقبلات: هناك لهيب يخترق الجلد، ولهيب يخترق النفس. ليت كل لهيب يقف عند اختراق الجلود. ليته لا يعبر كالجحيم إلى تعذيب النفس. ماذا في قلبك مني، وماذا في قلبي منك؟ أجيبي.. من اليوم أنت فقط من يمكث في حجرتي. وإياك أن تعارضيني. إياك.

قمت بعد حين، وارتديت ملابسي، ثم اتجهت إلى الباب، فقالت مسرعة: لن أغضب لو ذهبت إلى ليلى.

نظرتُ إليها في تهكم، ثم قلت: كنت أنتظر أن تسمحي لي.. أشكرك على كرمك.. وكذبك.

ولكن سندس لم تسمح لي بلمسها بعد ذلك مع كل محاولاتي وتهديداتي يومًا وراء يوم، كانت تغلق حجرتها أمامي. وكانت نفسي أنا قد عافت كل النساء دونها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استمر جيشي يحارب جيش مسعود. مسلم أمام مسلم، ورجل أمام رجل، قائد أمام قائد.. لا مصاحف ارتفعت بينهما، ولا أشراف تدخلوا لوقف القتال. حروب الجيوش كلها أطماع، وليتها أطماع في مال ونساء بل في دم ورقاب. ولِمَ الغضب؟ هل أخاف الدماء؟ رجالي تموت لا بأس.. ورجال جيش مسعود أيضًا تموت. عم أدافع؟ عن أهل مصر؟ ولِمَ أدافع عنهم؟ لا آبه بهم، أحرقتهم وأذللتهم. لِمَ أتصرف بلا وعي هذه الأيام. منذ رأيت الحلواني والدنيا لم تعد هي الدنيا. أصبحت يدي تتصرف بلا إشارة من عقلي، وعيني ترى ما لا أتوقع، والذاكرة تعبث بما تبقى من الزمن. أصبحت أوبخ نفسي كل يوم على أني لا أعرف نفسي. ظننت أن يوم القيامة ستشهد عليَّ رجلاي وذراعاي، وسيتكلم لساني بما لا أريد أن أسمع، هل جاء يوم القيامة إذن؟ أم أنها أوامر الخليفة؟ ما الذي يحدث لي؟ وما نهاية هذا العبث؟

فالألم نفسي بعد حين.. أما الآن فسيشهد علي لساني. كلمة أو اثنتان ثم يقتلني الخليفة. نظرت إلى الجندي الذي يدفع عني السهام، ثم قلت وأنا أمتطي جوادي متجهًا إلى القاهرة: لا تتوقف عن قتال جيش مسعود.

أخذت نصف رجالي، واتجهت إلى القاهرة!

كنت أطيع أوامر الخليفة.. أحارب من أجل الخليفة، واليوم أحارب من أجل أهل مصر. أحارب جيش الخليفة بجيش الخليفة. عندما تنشق الجبال، ويتكور القمر نعرف أنها النهاية. أربعة أيام والحرب تحرق وجه مصر. أربعة أيام.. مرت كأربع سنوات.. كالسنين التي هجرت فيها زوجتي المخادعة. ضغطت على بطن الفرس بقدمي. توقفت عند باب القاهرة.. باب البحر.. هنا وضعت يدها على قلبي. هنا كانت البداية، جاء الجد.. بنى بحماس، وعمل بضمير لمن لا يُقدِّر ولا يهتم سوى بمصلحته وغرور نفسه. هيا يا خليفة.. يا منصور، يا حاكم، اذبح. لم أعد أخاف.. عذب كما تشاء، فلكم أتمنى أن تقطع أطرافي ليخرج أنين القلب وآهات الروح. هذه أفضل لحظة في كل عمري الباقي والماضي. أين أنت يا لمياء؟ يا بنة حمدون، فلتشهدي على شجاعة ولدك وانتحاره. جاء اليوم الذي تمنيته.

فتحت القاهرة أبوابها لي، ابتسمت في وجهي وهابتني: «يا جوهر، تعال لترى ما يفعله الصقلي اليوم! هو أكثر منك جرأة، وربما أقل شجاعة». اتجهت إلى قصر الخليفة. كنت أعرف أن بعض الدروب طويلة بطول الحزن وهرمة كمَن لم يعلم مِن بعد علمه شيئًا. الطريق من الفسطاط إلى القاهرة..

التقت عيناي بعيني مسعود. رأى مسعود في عيني الجنون. أدرك وخاف. قال في قوة: الخليفة لا وقت لديه لك يا جوهر.

قلت في إصرار: أدك القاهرة على رأسك.. مع جنودي.. سأقابل الخليفة في اللحظة والتو.

لم أنتظر. سمح لي الجنود بمقابلته.

دخلت عليه... المنصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله.. الخليفة الحاكم بأمر الله! كان يرتدي الصوف، ويهيم في دنيا غير دنيانا.. عيناه تبحثان في النجوم، وتدوران حول الجدران. لم يلتفت إليَّ.

ثبت مقلتي على رأس الخليفة، لا لثمت الأرض بين يديه، ولا أظهرت الخشوع في حضرته. رأيت في مخيلتي جسد والدي، ورأسه الملقى حول الجسد. كان لا بد أن أشكر الجندي، فقد أمسك برأس الأب في وجل وحرص، وضعه في منديل كبير، حمله كالذهب الثمين أو اللؤلؤ المكنون. كنت أضحك حينها، دمعت عيناي من الضحك. ما ثمن الرأس؟

قلت في عزم: السلام على خليفة المؤمنين.

قال الحاكم بصوت هادئ وهو لا ينظر إلي: تكلم يا بن حسين.

- مولاي يتذكرني؟

- الخليفة يعرف كل شيء. جئت تشفع لأهل مصر أم لجيش كتامة والأتراك أم لجيش العبيد؟ لكم يؤلمني ما يحدث!

قلت في ثبات: تركت من ورائي خمسمائة رجل، ومن ورائهم ألفين، ومن وراء الألفين عشرة. جيش كبير من المسلمين يا مولاي لا يعرف بالضبط لِمَ يحارب منذ أربعة أيام. بدأ حربه مع أهل مصر، ثم أصبح يحارب جيش العبيد، جيش مسعود.

نظر الخليفة إلى مسعود ثم قال: لكم يحزنني هذا يا مسعود!

قال مسعود سريعًا، وهو يرتجف: قلبك الرحيم وكرمك العظيم يا مولاي. يستحق من يقاتل أن..

قاطعته، وقلت في قوة: المسلم يحارب المسلم، ويفضح الحريم، ويسرق ويحرق. لا أعرف أن أهل مصر قد أتوا بخطيئة تستحق كل هذا. ولو فعلوا يا مولاي..

قال مسعود: تأدب.. أفقدت عقلك يا رجل؟!.. أنت تكلم..

رفع الحاكم يده لمسعود في إشارة منه أن يلتزم الصمت، ثم أشار لي أن أتكلم. فأكملت بلا تفكير في العواقب: لو لم توقف قتال الجيشين يدخل رجالي من الأتراك وكتامة القاهرة ويحرقونها. هذا دمار لكل البلاد لا قِبل لنا به. تحترق القاهرة كما احترقت الفسطاط. يعم الخراب على قصر الخليفة كما غمر أهل البلاد.

كاد جوهر يقسم إن كل من في القصر فقد النطق، وابتلت سراويل كل الحراس رعبًا مما هو آتٍ. حتى الخليفة نفسه بدا مأخوذًا بكل حواسه. جلس الخليفة في بطء فانحنى مسعود، ولثم الأرض بين يديه، وقال في صوت لاهث: كلنا نستحق الموت. اذبحني أنا قبل أن تذبحه. لم أكن أعرف أنه مجنون. مولاي.. كنت أنفذ أوامرك.. طلبت مني أن أضمه للجيش.. اغفر لي وأنت غفور. وارحمني وأنت رحيم.

قلت ونشوة الاندفاع تثمل، وتعطي نشوة تفوق نشوة الحياة والموت مجتمعة: هو الله من يرحم ويغفر، وهو الله من يحيي قبل أن يميت.

عندئذ اتجهت الحراس إليَّ، لكمني أحدهم، وضربني آخر في بطني، وهم ثالث أن يذبحني.

رفع الحاكم يده يشير إليهم بالتوقف. ثم أشار بيده إلي أن أقترب.

تساقطت الدماء من أنفي. ابتسمت في انتصار. يا حلواني، انتصرت عليك اليوم. لا أحتاجك لأقتل نفسي.

قال الحاكم في صوت هادئ: أتريد حرق القاهرة يا بن حسين؟ وحرق قصري؟

قلت في إصرار وثمالة المجازفة تصاحبني: لا قصر بلا جيش، ولا خليفة بلا أسوار. ألف رجل بل عشرون ألف، مائة ألف.. ينتظرون الآن أن أعود أو لا أعود. ولو لم أعد.. يعرفون ماذا سيفعلون.

قال مسعود مسرعًا: سأقطع لسانه.. وسيفعل الرجال معه الفاحشة. يستحق التعذيب سنة قبل الموت. الآن أمام أعين الجالسين و..

قال الحاكم بصوت هادئ: جوهر بن الحسين بن جوهر الصقلي. ابن القائد المخلص والأخ. جاء يتبارك بسلامه مع الخليفة لا أكثر. لِمَ تعاقبه؟

قال مسعود مسرعًا: على ما قال يا مولاي..

نظر إليه الحاكم في عدم فهم، ثم حملق في عينيه، وقال في اندهاش: هل قال شيئًا؟ هل قال شيئًا يغضب الخليفة أو يغيره عليه؟

فتح مسعود فمه في ذهول، ولم يجب.

فنظر الحاكم حوله ثم قال: هل سمعتم شيئًا يا رجال؟ هل قال جوهر شيئًا؟ ألم يقبل الأرض بين يدينا، ويطلب البركة والأمان؟

قال الرجال في قول واحد: فعل يا مولاي.

فقال الحاكم: هل سمعت شيئًا آخر يا مسعود؟

قال مسعود بسرعة وتلعثم: لا يا مولاي.

- ماذا قال جوهر؟

- كان يطلب البركة والأمان.

- هذا أفضل. كنت سأظن أنك فقدت عقلك يا مسعود، ولو فقدت عقلك كنت سأضطر أن أعذبك حتى يعود إليك أو أخرجه أنا من حلقك.

قال مسعود مسرعًا في رجاء: أتمنى رضاك يا مولاي.

- مر الحراس أن يأتوا بحماري، أريد الذهاب إلى الفسطاط الآن.

وقف الخليفة بعمامته البيضاء وردائه المصنوع من الخيش لم ينزل عن حماره. توقف الفريقان عن القتال. رفع يده لجنود مسعود، وأمرهم بأن يتوقفوا عن القتال، ثم رفع يده لجنود الترك وكتامة، وأمرهم بالتوقف عن القتال، ثم قال في صوت قوي: يا أهل مصر..

التف العامة حوله، بعضهم يرتجف، وبعضهم ينظر بعيون كلها حزن وانكسار، وكثيرون ببقايا جسد أو قلب، قبلوا الأرض بين يديه، فأقسم إنه لم يأمر بحرق مصر. طأطأ الجنود رءوسهم، فوعد المصريين بالأمان. اقترب منه الأشراف وبينهم الشيخ «علي»، ثم قال الشيخ علي: الجنود ابتاعوا النساء جواري يا مولاي. هم أهلك وبنات عمومتك. أترضى بهذا لبنات أهل مصر؟

قال الحاكم في تأثر: أيها الشريف، تعرفني وتعرف أن هذا لا يرضيني. لقد خفت على النساء من الرذيلة فألزمتهن بيوتهن. ولكنهن اندفعن إلى الخطيئة بكل حماس. ماذا يفعل الخليفة في ناس لا يرضيهم سوى الغش في الميزان والسخرية مما حرم الله وما حلل. ولكن بالطبع لا أريد لهن الفضيحة.

قال الشيخ علي: أعرف يا مولاي؛ لذا أطلب منك أمام الجموع أن تأمر الجنود بأن تطلق سراح النساء.

جرى الحلواني من أول الفسطاط إلى حيث يقف الخليفة، صاح بأعلى صوته: ابني وزوجتي.. ابني وزوجتي.. مولاي الحاكم بأمر الله.. أنقذهما من بين أيدي الجنود..

نظر الحاكم حوله ثم قال: وكأنني أسمع صوت أحد العامة.. هل سمع أحدكم صوتًا.. هل يستغيث العامة بالخليفة اليوم؟

ساد صمت مخيف حتى الحلواني توقف عن الكلام.

قال الخليفة لقائده مسعود: أخبرني يا قائد ماذا حدث لمصر؟

- أكلت النار ثلث الفسطاط، وخربت نصفها.

قال الشيخ علي: أرجو يا مولاي أن تعيد النساء إلى أهلهن.

قال الحاكم في براءة: يا شريف.. أعرف ما بك من حرج. هذا أمر هين.. فليشترهن أهلهن من الجنود.

- يا مولاي.. الجنود اتخذت بنات مصر جواري.

- فليشتر كل زوج زوجته وكل أب ابنته.. هل تسمعون يا أهل الفسطاط.. اشتروا نساءكم من الجنود..

ساد الصمت فاستدار الخليفة، وتحرك بحماره.

تمتم الشريف بصوت مسموع لي: فليكتب لك الله ما كتبته على أهل مصر. إن الله لا يضيع أجر المؤمنين. فلتعرف نار الخزي يومًا.

ثم طأطأ الشريف رأسه، واتجه إلى الجبل. توقف القتال، ولم تزل القلوب محترقة.

رأيته، الحلواني الذي يحوم حولي، سمعت كلماته، قال وهو ينظر إلي: الخليفة الحاكم بأمر الله رضخ أمام حفيد جوهر الصقلي. رضخ أمام الصقلي، ولكن لا أحد في مصر سيصدق هذا، ولا أحد في مصر يجرؤ على أن يقول الحقيقة. أنا فقط أعرف؛ لأن الصدق في اليأس ليس بعده صدق. أعد إليّ زوجتي وابني. أنت تستطيع. يقولون: أحد أنصار الخليفة ادعى أنه ظل الله على الأرض، قتله

الحضور في مسجد عمرو بن العاص. أتدري لِمَ يرهبه الرعية؟ لأن الحاكم قادر. يفعل ما يشاء بلا تفكير في العواقب، لا خوف يدخل قلبه، مثلك أنت.. أنا أعرف ما حدث بينكما.

ابتسمت في انتصار وفخر.

هناك في الأفق رأيت وجه الأمير مسعود. كنت أعرف أن ما فعلته، وما تجرأت عليه له عقاب. لا أحد يفلت من العقاب سوى عند محاكمة العادل الرحيم. ولكني لم أتوقع ما يحاك لي. رفع الأمير مسعود يده إليَّ لآتي إليه. تقدمت بفرسي في بطء، وورائي جنودي، فقال: تحديت أميرك، ولم تنفذ أوامره.

لم يتكلم عن الجرم الأكبر وكأنه لا يجرؤ حتى على التفوه باسم الخليفة. رأيت في عينيه بريقًا أزرق كبريق حبس الأنفاس، واحتضار الجسد. قال في رفق: تدافع عن أهل الفسطاط يا صقلي؟ تتحدى أوامر قائدك من أجل أهل الفسطاط. لا بأس. أتمنى أن يتذكر لك أهل الفسطاط نبلك وشجاعتك. عفوت عنك يا جوهر.

ثم ضحك، ورفع يده للجنود لتتبعه. نظرت حولي. كان الحلواني قد تلاشى. ولا أدري متى؟ ولا أين تلاشى الجنود أيضًا؟ هرولت إلى قصري وأنا لا أدري أأبقى في القاهرة أنتظر العقاب أم أرحل مرة أخرى؟ كُتب عليَّ الهروب لأن أبي قائد وجدي قائد. لو كنت أنا الحلواني مثلًا كانت الدنيا تعتدل حتى لو فقدت كل أحبائي، فقد حدث بالفعل وفقدتهم.

دخلت البيت أبحث عن أمي، فرأيت غمزات الجواري ونظراتهن، توقفت أمام الحرم أستمع. سندس تتعرض للسخرية. هذا يحدث كل يوم منذ الصغر أتوقع هذا وأعرفه عن البشر. ولكني رأيت مشهدًا أيقظ بداخلي الرحمة التي ظننت أني لا أعرفها. تحول جوهر البائس بين ليلة وضحاها إلى منقذ أهل مصر والمدافع عن زوجته المحترقة. لا تسألني كيف تغيرت لأني لا أعرف.

اعتادت منذ الصغر قسوة الأنام وظلمة الأنفس، ولكن عندما تأتي القسوة من بيت تسكن فيه وهي حائرة ذليلة فهذا أكبر عقاب لذنب لم تقترفه. ابتسمت ليلى للجواري، ثم اقتربت من سندس، وأمسكت بطرف خمارها لتنزعه من على وجهها، ولكن سندس تمسكت به، فصاحت ليلى: اتركيهن يرين حقيقتك..

جذبت ليلى، ولم تفلح في انتزاعه، فأشارت لإحدى الجواري، فجذبت معها وتجلى وجه سندس أمامهن لأول مرة. خرجت الشهقات، ثم قالت ليلى: هذه اللئيمة تثير البغضاء بيني وبين الأمير.. هل تصدقن؟ الشر يخرج من..

قالت سندس في قوة: تتكلمين مع سيدتك..

- كيف لسيدة أن تكون بوجه مثل وجهك؟ أنت شيطان في صورة بشر.

- بل الشيطان هو من يسخر من خلق الله وإرادته.

قالت ليلى مسرعة: الله لا يحرق إلا شر الناس. هذا عقاب لك على شيء اقترفته.

فقالت سندس: لو كان كل ابتلاء عقابًا فلم ابتلى الله أنبياءه وماذا فعل أيوب ليبتليه الله؟

اتجهت إلى الباب، فرأتني أمامها. توقفت، ولكن ليلى أكملت: رأينا وجهك يا مولاتي كلنا.. اذهبي إلى الأمير وقولي له: إن كل الجواري يعرفن أني لا أصلح زوجة لك.

أمسكت بلا تفكير يد زوجتي التي كانت تضع الخمار في ارتباك، ثم خلعت عنها الخمار، وقلت لليلى آمرًا: هذه زوجتي سيدة هذا البيت، وسيدة كل الجواري، هي تأمركن وأنتن تطعنها، ولو سمعت منها شكوى من واحدة منكن فسوف تجلد على الفور.

التفت إلى ليلى، ثم قلت: ماذا ترين؟

ارتجفت ثم قالت: مولاي..

- انحني أمامي، وقبلي يد سيدتك، وأخبريها أن وجهها أجمل وجه..

انحنت بلا تفكير، وحاولت أن تقبل يد سندس، فنزعت سندس يدها بسرعة، وقالت: لا داعي لـ..

قاطعتها: لا تخالفي أوامري.. انحني يا ليلى، وقبلي يد سيدتك، وأخبريها أن وجهها أجمل وجه لأنه وجه زوجة الأمير.

قبلت يدها، وقالت: أطلب الصفح يا سيدتي. وجهك أجمل وجه.

- اليوم تنقل سيدتكم أغراضها إلى حجرتي، وتكنَّ كلكن تحت إمرتها من هذه اللحظة، لو شكت من إحداكن فسترى ما لا يسر مني.

ثم أمسكت بيدها، وخرجت من الحجرة.

قالت في ارتباك: لم يكن هناك داعٍ لهذا. لقد اعتدت هذا من زمن، لا تدخل كلماتهن قلبي ولا تؤثر فيَّ.

- تؤثر فيَّ أنا إذن.

- لأنك لم تُحرق بالنار يا مولاي.

قلت وأنا أبحث عن أمي: غدًا أُحرق بالنار لا تقلقي.

فقالت في إصرار: ولكنني لن أنتقل إلى حجرتك. كلماتك لم تترك أذني، قلت لي: إنني لا أصلح زوجة لك. وقلت: ألا أتمنى أكثر من ليلة.. أنا أنفذ كلامك فقط.

نظرت إليها في غضب، ورفعت يدي أهم بأن أصفعها، ثم توقفت عندما نظرت إلي في قوة، وقلت: إياك أن تتحديني.

قالت في ثبات: لن يحدث.

- أن تتحديني؟

- أن أنتقل إلى حجرتك.

قبضت يدي حتى لا أصفعها. وأغمضت عيني وأنا أتمنى أن أسيطر على غضبي وخرجت.

سرت هائمًا في الجيزة أنظر إلى العشب تارة، وإلى الصحراء تارة، وتمتزج عيناي بلون مياه النيل المبارك وأنا أبحث عنها. يذهب لها كل حائر في مصر. بحنس ساحرة الهرم. كلنا نعرف، تأتي الساحرة تلو الأخرى. تتخذ اسم الجدة وملامحها. هي بعينين واسعتين، ووجه مضيء يبهر الناظرين.

طرقت بابها داخل الهرم الأكبر. دخلت وسط الظلام أبحث عنها، كانت ورائي، قالت وهي تبتسم: كنت أنتظرك يا صقلي. كيف حالك؟

توقفت أنفاسي لحظة وأنا أنظر إليها، ثم قلت: كيف تعرفينني؟

- اطلب ولا تسأل.

- جئتك لتبطلي سحرًا أصابني من بنت تدعى سندس وحلواني.

- لا تأمر ساحرة الهرم يا صقلي. قدم التحية للأجداد... واشكرهم على الحفاظ على الأرض والذهب أولًا...

- هم ليسوا أجدادي يا ساحرة.

- ضحكت في تهكم، ثم قالت: قدم التحية للأجداد. هم أجدادك شئت أم أبيت. أجدادك يا صقلي ما دام جسدك سيغذي ترابها بعد حين كوالدك وجدك. يرتبط البحر بالقمر، فتارة تنخفض مياهه، وتارة ترتفع، تارة يبدو هادئًا مطيعًا، وتارة يتسلل إلى الأعماق، هكذا نحن على تلك الأرض.. كالبحر للقمر. ننجذب إليها، ونطيع أوامرها. مصر تتحكم فيك يا بني، منذ تأتي إليها محاربًا وحتى تغمرك رمالها وأنت تثبت نسلك داخل أعماقها.

- اختلطت علي الأمور كأنني أصبت بجنون لا شفاء منه. حتى إنني تحديت الخليفة مع أنني لا أحب أهل مصر. وبالطبع لا أحب سندس. لِمَ أتوق إلى بنت مثلها، وأمامي كل نساء الأرض؟ والحلواني.. يا إلهي.. هو اللعنة بعينها. كلهم سحرة. تعرفين أهل مصر يتقنون السحر منذ الأزل.

- وأنت من؟

- أنا ابن لمياء المغربية وحسين الصقلي.

- وأين مات حسين الصقلي؟

- هنا.. خذله أهل مصر.

- تُحمِّلهم ما لا يطيقون.

- جُبناء.

- ومع ذلك تحديت الخليفة من أجلهم.

- لأنهم سحروا لي، ففقدت عقلي.

- تذكر..

- ماذا تريدين مني أن أتذكر..

- أقسى نوبات الجنون لا تأتي إلا من الحكماء. وأعظم ظلم لا يبتلى به سوى الأنبياء والأولياء.

- يا ساحرة..

- قل يا بحنس، أصبحنا عشرة وصحبة.

- ما بالي أنا والأولياء! لقد قتلت رجالًا لم أحص عددهم، قتلتهم ظلمًا.

- تعرف إذن؟

- أعرف ماذا؟

- الفرق بين الظالم والمظلوم. أحيانًا يا صقلي يُلقي القدر على عاتق العابرين حملًا ثقيلًا، وبطولة كالتي تسمع عنها في الحكايات. لا تسأل القدر عن أفعاله، الله يعرف ما لا نعرف.

- لا أفهم كلماتك.

- رجل يقتل مئات وفي قلبه رحمة، وآخر يصلي ويصوم وقلبه صلب كالحجارة أو أشد قسوة. ما تراه العين لا يحاسب عليه البشر بل ما يكمن في القلوب.

- جئتك لتبطلي السحر، ولك ما تريدين.

- أريدك أن تعرف أن في وسط الجنون والغدر تتبدى الشجاعة أحيانًا، فيصبح بريقها أثمن من كل ذهب وزمرد. الشجاعة لحظة، يختار فيها الإنسان أن يناطح شياطين السماء والأرض وحده، بلا تردد ولا وسواس، ملقيًا بكل الحذر إلى قاع النهر، متشبثًا فقط بسنا البرق. اتبع الحلواني.. لتعرف كل شيء.

- كنت أقول..

- اتبع الحلواني.. ستعرف كل شيء..

- يا ساحرة..

- تبحث عن جمال يذوب في الفم كالسكر. لا يوجد في مصر من هي أجمل من سندس. بها بضعة منك.

- تتكلمين مثلها.

- بل هي تتكلم مثلي يا أحمق.

- جئتك أبغي الدواء.

- فلتعرف أولًا ما هو الداء.

- ماذا أفعل؟

- اتبع الحلواني تصل.

- أصل إلى ماذا؟

- إلى نفسك.

- أنا الصقلي.

- نتقابل بعد حين ونتكلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الباب الثانـي:

من رآني رأى لهيبًا وماءً

وعجيبٌ لـقـاءُ مـاءٍ ونـارِ

تميم بن المعز لدين الله الفاطمي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكنني لم أحتج أن أنتظر كثيرًا عقاب مسعود وانتقامه، قبل مرور يومين رأيت الجنود على بابي. جردني مسعود من رتبتي وجندي عقابًا على تحديه. ثم أمر بطردي من مدينة الملوك القاهرة إلى الفسطاط. لم تسأل أمي ولم تفزع. حتى عندما أعطاها مسعود الأمان لم تفرح ولم تعترض. ودعتها، وودعت سندس، ولكنها قالت في حسم: سآتي معك.

نظرت إليها نظرة الحائر ولم أعترض. أمسكت بزوجتي، وامتطيت جوادي. ثم أمرت الجواري بأن يبقين أو يرحلن ولكني حررتهن. لا داعي لأن يُعاقبوا معي. سرت حتى باب القاهرة، باب النصر، نظرت إليه مليًّا ووراءه حياة غير الحياة التي تمنيتها، كل القصور والحدائق ونباتات الزينة وكل أشجار الليمون التي حلمت بها وأنا طفل أصبحت ورائي. ها أنا ذاهب إلى حيث يعيش الرعاع. بل إلى حيث يموتون. فقد أحرقتهم منذ بضعة أيام بيدي. أليس هذا زمن الجنون؟ أحرقتهم، ثم ساعدتهم، ثم تحديت الخليفة من أجلهم. أراني لا أدري من أكون. يحكي لي أبي عن جدي، كان جوهر الصقلي يتذكر بلاده وأشجار الليمون والجبال التي تطمر البحر وتؤزره، ثم ترتفع وتترفع عنه. تذكرت جوهر الجد، أمسك جدي بحصان خشبي عليه أشكال دقيقة من الخزف، أعطاه له والده يومًا وهو لا يدري أن الأب سيرحل ولن يتبقى له من وطنه الأول صقلية سوى الحصان الخشبي والخزف الذي يحف بطنه ورأسه. لم أر الحصان قط. سمعت القصة من والدي. حسين يحكي كثيرًا عن والده جوهر، يراه فارسًا عملاقًا يروض الوحوش ويقضي على العنقاء. أما أنا فلم أر جدي، ولا شهدت حروبه وانتصاراته. ولكني أفكر اليوم في الحصان الخشبي. ترى أين هو؟ هل تعرف أمي شيئًا عنه؟ يا قاهرة.. يا مدينة القصور وأهل البيت.. ها أنا راحل عنك مرة أخرى. ها أنا هارب طريد بلا مأوى. يا مدينة ألا تشعرين؟ لم تفضلين الأغنياء وترقين لحال الأمراء، ولا تشعرين بعذابات نفس حفيد من بناك؟ ألا تشعرين بأي امتنان؟ وأنت يا جوهر الصقلي، تُرى أعرفت أن أسوارك التي بنيتها من الطوب اللبن وأبوابك المحكمة ستصبح مغلقة أمام أهل مصر وأمام حفيدك قبلهم؟ عُد يا صقلي.. عُد وأخبر الناس أني أستحق العيش بها. بُنيت من دمي ونسبي.

دخلت أطراف الفسطاط وأنا لا أرى أمامي.. الدنيا حكايات من الماضي وبعض محاولات الحاضر التي نقف أمامها عاجزين عن الفهم. وليتني أعرف من أكون. لا بأس. وكأنني أسمع همسات ليلى وسخريتها من سندس من جديد، سمعتها.. ثم تحولت إلى صرخات.. التفت حولي ورأيت جموع الناس ملتفة حول حصاني ومحاطة بالخراب. حملوا الحصان حملًا، لا أدري ليحتفلوا بي أم لماذا. ربما عرفوا أنني من أنقذتهم. ولكن صرخات سندس جعلتني أحاول المقاومة بلا جدوى. ألقوا بالحصان على الأرض، وارتطم رأسي بأحجار الفسطاط، فسقطت الدماء على وجهي، تذوقتها في فمي. ثم سمعت الصيحات: هذا هو الأمير الذي أمر بحرق الفسطاط. هو من شرد أولادنا وسبا نساءنا. هو.. جوهر.. جوهر.. اسمه جوهر.. القتل لا يكفي..

نشر حقده في المدينة، مسعود! ليتني أقطع لسانه بيدي. أسمع مسعود يكلمني في مخيلتي، يقول مسعود: تتحدى الخليفة يا صقلي من أجل هؤلاء! انظر ماذا سيفعلون بك! وماذا سأفعل أنا بك.. كلمات قليلة ويفتكون بك، كأنك محطم الدار وقاتل الولد.

سمعت نَوْح النساء من حولي، وضاع من أمامي الأفق. فلا رأيت سندس ولا الحصان. ولم أكن أفكر سوى في مسعود والحلواني. انتقام مسعود جاء أكثر ابتكارًا وعبقرية. بث السم في الأذن، وقلب الحقائق كلها، والعامة مجروحة محترقة لا تفكر سوى في من تلوم. فأصبحت أنا.. الجاني وليس الضحية. أقسم لكم إن هذا حدث. جرى جنود مسعود يختلقون حكايات غير الحكايات، عن الأمير الذي أمر الجنود بحرق الفسطاط. سأل البعض، وشككوا، قالوا إنهم رأوا جوهر يحارب جنود مسعود ويتحداه. ولكن الرد جاء: ما رأيته كان حلمًا.. صور لكم خيالكم هذه الأشياء. ضلال الشيطان. من جاء وأوقف القتال؟ الخليفة. ولم حارب الجيش بعضه بعضًا؟ من أجل الغنائم لا أكثر. لا أحد يأبه بالفسطاط ولا أهلها. الخليفة فقط من رق لحال أهلها، وبكى من أجلهم. هو من أوقف الطامعين عن نهب المدينة.

كان هناك.. الحلواني.. فوق الجبل، كأنني أراه يضحك في سخرية من مصيري. حاولت القيام من مكاني فانقض عليَّ مائة رجل أو أكثر، وبدءوا يجرونني ويربطون أطرافي بالأحبال استعدادًا لسحلي حول المدينة حتى الموت. حتى الأطفال ترمي الأحجار عليّ. كنت نصف واع. سأحكي ما سمعت، وليس ما رأيت لأني لم أر شيئًا. اقتربت النيران مني، عجوز قربت النيران من رأسي، ثم أمرها أحدهم بالصبر حتى يطوفوا بي كل الفسطاط قبل أن يمزقوني إربًا. السحل أجمل طرق الموت لمثلي. سمعتهم يقولون ذلك. أما السحل فتعال أحك لك عنه، دخل التراب إلى صدري، وفقدت عيني القدرة على تمييز الألوان، أغمضتها خوفًا مما رأيت وما لم أر. تشقق جلدي، وتسللت إليه أتربة الفسطاط. لم يبق في جسدي موضع لم ينشق وتتدفق منه الدماء. دمائي سالت من ورائي كسرب النمل المنظم.

ثم توقف الحصان الذي يجري بي. وقلبني أحدهم على وجهي. ورفع يده، ولكم أنفي في قوة مرة ومرتين وعشرة. سمعت صياحها. وعرفت ما حدث.

سندس، خلعت عنها خمارها. فتوقف الناس برهة فزعًا أو اهتمامًا، ونظروا إليها ثم قالت وهي تنظر إلى الحلواني الذي بقي بعيدًا يشاهد في فرح: يا حلواني.. أنقذ زوجي. تعرف الآن من أكون. انظر إلي يا عبد الله لتعرف من أكون..

اقترب الحلواني، واستمر الناس في ضربي وسحلي حتى نظر إليها، ثم فتح عينيه في فزع وخوف، فقالت هي: أنقذ زوجي.

بلع ريقه، ثم قال في صوت مرتجف: هو يستحق الموت.

- أنقذ زوجي. هذا طلبي.

لم يتردد، ولم يجادل. صاح في الناس أن يتوقفوا. وجرى وراء الفرس الذي يجرني بسكين، وحاول قطع الرباط، فمنعه رجل، فصفعه، وقال إنه لا بد أن ينقذ الصقلي؛ لأن ثأره معه، وهو من يريد قتله بيده، ولكن ليس الآن.

بعد ساعة من المقاومة أصيب فيها الحلواني بالضرب أيضًا، استطاع أن يحرر جسدي من العامة. ثم حمله على حماره وقال: أنا سأقتل الصقلي. أنا لي شرف قتله. اتركوه لي.

التقت عيناه بعيني زوجتي ولم ينطق أي منهما.

استيقظت بعد عدة أيام على ما يبدو، لا أعرف بالضبط ما حدث، كل ما أتذكره هو أنني كنت أئن من جروح في كل جسدي، وكأن النار تكوي أضلعي وعظامي، تحسست أنفي بيدي ورأيته في موضع غير موضعه أو هكذا شُبه لي. يدها كانت تمسح على شعري، وهي تغمغم غمغمات رقيقة، لم تكن أمي، لمياء لا تغني، ولا تظهر الحنان كالعامة. كانت سندس. فتحت عيني ونظرت إليها وأنا لا أراها، تفتت كل وجهها أمام عيني، وحل محله نور كالملائكة. رأيت ضي القناديل الأصفر الواهي يحيط بها، فقلت بلا تفكير: جسدي يؤلمني.

مرت بيديها على ذراعي ثم بطني، وقالت: عندما تنساه يتلاشى الألم. فكر أنك حي.

فقلت في صوت ضعيف: الحلواني..

لم تتكلم. أغمضت عيني، وقلت في حسم: هو من تسبب في حرقك منذ زمن. لم تخبريني، ولكنني عرفت. احكي لي، لعل حكاياتك تنسيني الألم. وتعالي هنا ألصقي جسدك بظهري لتمديني ببعض سحرك.

فعلت ما أمرت بلا جدال. أحاطت بطني بذراعيها، فتأوهت، فترددت، وابتعدت ولكني قربتها، ووضعت يدي على يدها لتستقر مكانها ولا تتحرك أبدًا. رددت: أنقذتني.. مرة أخرى.

- ومتى كانت أول مرة؟

- عندما وضعت يدك على قلبي.

- أتهذي يا أمير؟

- لم أعد أميرًا. قولي يا زوجي.. قولي يا صقلي. هذا البلد يلفظني كما الفأر المتعفن. أهل مصر لا أمان لهم، تحركهم القوة، ويطمس بصرهم الخوف.

- عانوا يا أمير، وفي المعاناة بعض التيه.

- لا أعرفهم. سأبحث عن وطن جديد. في صقلية ربما حيث منبع جدي.

- قتلتهم وقتلوك. أحرقتهم وأحرقوك. هكذا المحبون أحيانًا يؤذي بعضهم بعضًا أكثر من ألدِّ الأعداء. ولكن الحب يبقى حتى لو فتت الأحبة بعضهم بعضًا. ارتق وأنقذ نفسك أولًا.

- أنت مجنونة. لا حب يبقى في هذا البلد. احترق كالحطب في الفسطاط. لو رحلت ستأتين معي؟

- وما الذي ينفعك في وجود مثلي معك؟

- هل تحطم أنفي؟

- بعض الشيء. فقدت بعض جمال وجهك يا صقلي. كان أنفًا كتماثيل الرومان التي نجدها تحت بيوتنا. مستقيم وقوي. تحرك من مكانه، ولكنك لم تفقد وسامتك.

ابتسمتَ في مرارة، ثم قربتَ يدها من فمي، وقبلتَها، وأبقيتَها على شفتي، وقلت: أنت أخبرت الحلواني أني سأحارب في الفسطاط مع أنه أحرقك. كنت تدورين حوله كما تدور الذبابة حول العنكبوت في حيرة من يبحث عن الخلاص ومحو الذاكرة. كيف أحرقك الحلواني. ستحكين لي.

قربت فمها من أذني، وهمست وهي تقبل خدي: أشفقت عليّ، وأيقظت ما حبسته أعوامًا. ولا أدري هل سأتعذب بقية عمري بعشقك أم سأموت وأستريح؟

- أين أنا؟

- على الجبل، في بيت خرب على الجبل بعيدًا عن العامة.

- أريد الرحيل إلى بلادي.

- هذه بلادك.

- هذه بلاد الخليفة لا شأن لي بها.

- الخلفاء يأتون ثم يذهبون سريعًا كليالي الشتاء. ويبقى الناس دومًا كالهرمين في الصحراء.

- أو يقتلهم الخلفاء.

- حتى لو قتلوا الآلاف سيبقى الآلاف. من يبقى هو من يملك. الملك لله ثم لأهل البلاد.

- تتكلمين كالساحرة. احكي لي. كل جسدي يؤلمني..

مرت بيديها على كل جسدي لتمحو كل ألم وكل لحظة قسوة وهوان.

أغمضت عيني وهمست: لا تتوقفي.

- كنت مع والدي ووالدتي في الرابعة عشرة، جئنا من دسوق لزيارة صديق أبي المقرب عبد الله الحلواني. نشأ معًا في القاهرة قبل انتقال أبي إلى دسوق. سمعت عن أحوال عبد الله، كان يحب الخمر ولا يسلوها، عانت زوجته وفقدت الأمل في هدايته. ولكن أبي كان يقدره ويحترمه، لم أعرف لماذا، ربما لأن والده كان حلواني قائد القواد جوهر الصقلي. لم أسأل أبي يومًا. أفضل من يصنع الحلوى هو عبد الله. قدمت لنا زوجته حينها الكنافة، وقلت بلا تفكير: أنا لا آكل الحلوى.

نظرت إلي زوجته في رجاء، وقالت: حلوى عبد الله غير كل الحلوى، جربي الكنافة..

ألحت، ورفضتُ. قلت في حسم: لا أحب الحلوى.

لسبب ما سمعني، أو أخبرته زوجته أني لم أحب الحلوى التي صنعها ولم آكل منها.

خرج الحلواني ليلًا كعادته لبولاق ليشرب الخمر ويتمتع بالبغايا. اشتكت زوجته وبكت لأمي. ثم ذهبت لتنام. ونامت أمي في حجرة بجانبها، وكان بطني يؤلمني، فابتعدت عن أمي حتى لا أوقظها، وخرجت إلى حجرة الفرن ونمت هناك. جاء عبد الله عند الفجر أو قبله، وكان مخمورًا، أخذ يتكلم معي بسرعة، يسألني لو أعجبتني الحلوى، كنت نصف نائمة، وقمت وأنا أريد أن أنتقل إلى حجرة

أمي مرة أخرى. بدأ يشعل الفرن ويتباهى بصناعته وفنه، استأذنته أن أعود إلى حجرتي. ولكني أظن أنه لم يكن يعرف من أكون حينها، أو ربما كان يعرف. ربما استاء من ازدرائي لحلواه. نظر إلي وقال: أنت ابنة الخليفة أعرف. انتظري لتتذوقي الحلوى.

عرفت أنه فقد عقله من الخمر.

جلست في إحراج، وأنا لا أعرف ماذا أفعل. كنت أشعر بالخجل من الخروج أو البقاء. أشعل الفرن في عصبية وهو يلعن الفرن، ثم أشعل النيران أكثر وأكثر، بدأت أخاف من جنونه، فقمت فقال وهو يتجه إلي: ابقي لتتذوقي الحلوى.

أمسكت بالباب، فأمسك بيدي قائلًا في تصميم: ابقي.

بكيت، وقلت إني أريد الذهاب إلى أمي. كانت يده الأخرى تمسك بشعلة النار، ترك الخشبة من يده، وقال وهو يحاول إقناعي: هل تذوقت قطائف عبد الله من قبل؟

ثم فقد توازنه، فوقعت الخشبة المشتعلة من يده، وشد يدي، فتعثرت قدمي، واستقرت النيران على وجهي و....

صمتت. كانت تتكلم بسرعة. فقلت في تصميم: ثم ماذا حدث؟

بلعت ريقها، وتساقطت الدموع، وقالت: لا أتذكر.

- هل أراد أن يعتدي عليك؟

- لا. كان مخمورًا ومهووسًا بالحلوى، ولم يكن يعرف من أكون. كنت خائفة. ولكنه لم يحاول الاعتداء علي. أماتني في لحظات، وترك الروح هائمة في الدنيا بلا مأوى.

- ماذا فعل والدك؟

- لا أتذكر. رأيته يبكي، ويطلب المغفرة. كانت حادثة لم يقصدها. حادثة هكذا قال ولم أسامحه. أصبحت أنتظر أخباره، وأتتبعه كما يتتبع الكلب الأعرج صاحب المزرعة. حتى وأنا بعيدة. بعثت له بورقة بأنك ستهجم على الفسطاط. لا أدري لماذا.

- هل سامحته؟

- لا أستطيع.

- تمنيت الانتقام؟

- لا أحب الانتقام. سجن الروح أم أطلقها تائهة! لا أدري. أماتني يا أمير.

التفتُّ إليها في صعوبة، وأنا أتألم، ثم عانقتها في قوة، وقلت: تملَّك حبك كل أحشائي.

- هأنت تهذي.

- رأيتك بعين غير كل العيون.

بكت في صمت ساعة أو أكثر. ثم قلت: ولكنه يعاني. فقد كل شيء.

- لا أشمت به، ولا أفرح لحزنه.

- ومع ذلك لا تسامحينه.

- أدور حوله ويدور حولي. عندما كشفت وجهي عرفني. كنت أعرف أنه سيعرفني. وعندما طلبت منه أن ينقذك كان لا بد أن يطيع أوامري. فلا هو نسي، ولا استطاع أن يحيا في هناء. ولا أنا نسيت، ولا استطعت أن أحيا أصلًا. نعم بعثت له رسالة بما سيحدث للفسطاط. لم أكن أعرف غيره. خشيت على المدينة من مصيري.

اعتدلت في جلستي، وأبقيت رأسها على صدري. ثم همست: نذهب معًا إلى صقلية. ننسى الحلواني والفسطاط والقاهرة ونبدأ من جديد.

- لا عمر لي يا أمير.

- لو قلت إني لا أريد غيرك.

- أقول إنك تتفوه بسكرات الموت.

- كيف أثبت لك؟

- لا أريدك أن تثبت لي. لننجو أولًا أو لتنجو أنت.

- هل أحببتني من أجل وسامتي؟

- لا أدري.

- ولكني أحببتك لأني وجدت بك بضعة مني.

- الرجل لا يرى سوى القشور. المرأة هي التي تبحث عن المنبع.

- وهذا رجل غير كل الرجال. لا تتحركي من جانبي الليلة.

ليلًا نأت الجراح وترعرعت الآهات، أغمضت عيني، وأنا أحاول النوم وهي تعانق ظهري، ثم أمسكت بيدها وتمتمت من بين آهاتي: من أين يأتي كل هذا الألم؟ سندس..

قبلت كتفي وهمست: حبيبي..

ابتسمت وأنا أقبل يدها وقلت: لم تنطقيها من قبل. خففي عني آلامي.. سأموت يا سندس.. تعرفين..

قبلت ظهري، ثم احتضنت بطني كأنها تعتصرني وتحولت كالساحرة.. التفت حولي بالتعاويذ ونفثت في العقد، وحاصرت الجراح، كأنها تستغل وهن الجسد فتستأثر به، رأيتها تحرك جسدي واستلقيت على ظهري في استسلام، والألم يتلاشى في بطء. وأنا أشتهيها كأن الجسد لم يزل يقظًا صحيحًا، ولكنها هي من سيطرت علي، هي من غاصت بجسدي داخل جسدها، وهي من ارتجفت وتأوهت وقالت في قوة: أشتاق لك..

أغمضت عيني، وآلام الجروح تمتزج بنشوى غير كل ما انكشف لي. وتمتمت: تكذبين..

قبلت رقبتي وقالت في رقة: لا أكذب.

وضعت بنفسها يدي على قلبها الذي يخفق كالمنجنيق لحظة الانطلاق. ثم تأوهت وتسارعت الأنفاس، تآزرنا بجمر الغضا الذي لا يحرق ولا يترك أثرًا. دخلتُ الجنة قبل موتي، ثم عدت إلى الدنيا. ولحظة أن أمسكت بكتفي كأنها تتشبث بشوقها حتى لا يتسرب من بين أطرافها قلت: أحبك.

- أنت تهذي..

أغمضت عيني. هوت إلى جانبي تلهث، وأمسكت بيدي، وقالت وهي تقبلها: أشكرك يا أمير، على متعة الجسد.

ورحت في نوم عميق أو غبت عن الدنيا لا أعرف. كيف استيقظ جسدي بين يديها؟! لا أعرف، وكيف أحببتها وتلاقينا في الجنة وأنا على هذه الحالة؟! لا أدري. ولكنني أعرف أننا تواصلنا مع النجوم، والتحمنا، ثم عدنا إلى الأرض. وأعرف عن يقين أنها هذه المرة نبضت بالحياة والرضا والنشوى بين ذراعي.

فتحت عيني في الصباح، تمطيت وناديتها، ولكنها لم تجب. قمت من مضجعي في بطء وأنا أقاوم آلامي، وصحت باسمها ولم تجب. خرجت من البيت الصغير، نظرت حولي في كل مكان، كنت كالطفل التائه داخل جبل من نار. ناديت الحلواني لم يجب. ترنحت، واستندت بيدي على حائط البيت، وعدت وأنا أبحث عن خنجر أو سلاح لأخرج من هذا السجن. ثم رأيته...

فنظرت إليه في تحدٍّ، وقلت: الجاني ذات نفسه. هل هناك عوض يا حلواني، أم أن حياة هذه البنت ضاعت هباء من أجل عبث رجل مخمور؟

نظر إلي ثم قال: لست أفضل مني بل أسوأ. جُرم ارتكبته بالخطأ خير من جُرم ارتكبته أنت عمدًا. ترى أتدري كم امرأة حرقت؟ وكم طفلًا شردت وكم....؟

قاطعته في حدة: دع عنك لومي يا رجل. لست أفضل مني بل أسوأ. أين هي؟ ماذا فعلت بها؟

ابتسم في استهزاء ثم قال: رحلت.

أمسكت بتلابيبه في يأس، ودفعت به إلى الأرض، وهويت فوقه وقوتي تنهار، ولهثت قائلًا: سأقتلك. أين زوجتي؟

- لا تسألني. رحلت. أخذت أغراضها ورحلت.

أمسكت برقبته وقلت: سأقتلك لو لم تخبرني أين خبأتها.

- أقسم بحياة ابني إني لا أعرف أين هي. ولكنني أنقذت حياتك، ولا بد أن تساعدني. لو خرجت بك إلى أهل الفسطاط فسوف يمزقون أحشاءك. ولو بقيت هنا في الجبل مختبئًا في بيت قديم فلن أجد مالًا

لأطعمك به.

خرجت مني ضحكة، ثم قلت: تريدني أن أساعدك في العجين أم في شرب الخمر والخلوة بالنساء؟ أنا معك في الأمر الثاني وليس الأول.

- لا تسخر مني يا صقلي.

- لن أبقى هنا. لا تقلق، سأرحل بعد يوم أو أقل. بعد أن أعرف أين خبأتها.

- وأين ستذهب؟

- هذا ليس من شأنك.

- قالوا للذئب اترك ديارك فالتف حول نفسه، ثم ارتد خائبًا، وقال: هذه ديار جديدة، فسخرت منه حيوانات الغابة.

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى

وحنينـه أبـدًا لأول منزل

- القاهرة هي أول منزل، وقد أصبح وجودي بها مستحيلًا. لست من أهل الفسطاط ولا من العامة والغوغاء.

نظر إلي، وسبر أغواري، ثم قال: لديك اختياران: تبقى معي، وتساعدني على أن أجد زوجتي وابني، والاختيار الثاني أن تهرب من جديد، كما فعلت من قبل.

- لم أهرب يا أحمق. لولاي لما بقيت أنت أو غيرك على قيد الحياة. أنا من تحديت الخليفة.

- أتكلم عن الماضي. عندما هربت مع أمك إلى دسوق، وعشت كالصعاليك.

- أنت تعرف أني سأرحل.

- بل ستبقى.

- سأجدها، ثم أرحل معها.

اقترب مني، وقال في سخرية: تركتك عن عمد يا أمير. لملمت أغراضها، ورحلت لأنها لا تريدك أن تجدها.

قمت في بطء ثم لكمته، ووجدت أنني حتى وأنا مريض أستطيع أن أتغلب عليه، بل أخنقه في التو. أمسكت برقبته، وضغطت بكل قوتي حتى خرج اللسان من الفم وهو يرجو ويحاول أن يصرخ.

وقلت: أخبرني أين هي؟

كادت الروح تقفز في هواء الجبل، نظرت إلى عينيه، وأدركت أنه لا يعرف. أصابني الغم. نظرت حولي أبحث عن مخرج ولم أجد. هويت إلى الأرض وأنا أتوعدها، وأشتاق إليها، ولا أدري أين هي. هل رحلت بإرادتها أم رغمًا عنها؟

خرجت ملثمًا، وسرت على قدمي المتهالكتين حول الفسطاط ثم الجيزة، يومًا وراء يوم أبحث عنها. أنادي عليها. حتى ساحرة الهرم ذهبت إليها. ولكنها ابتسمت، وقالت: كل العاشقين يأتون بملابس مهلهلة وقلوب مفطورة هذه الأيام. يقولون إنك أحرقت الفسطاط يا صقلي.

- وأنقذتها يا بحنس.

- ولكنني لا أعرف من تكون. هل تعرف أنت من تكون؟

- أبحث..

- أين تبحث؟

- في كل مكان.

- عندما يضيع منا شيء نبحث في كل الأماكن الغريبة، بينما ما نظنه بعيدًا هو في الواقع بين حنايا الأضلع المألوفة.

- ها أنت تتكلمين بالألغاز. وأنا لا أفهم هذه اللغة.

- ظننتك لا تعرف سوى لغة الحواس، ولكنك صدمتني بمعرفة لغة الجمال.

- لا أمل لي إذن. سأفقد عقلي لو لم أجدها.

ولكني لم أجدها. سرت في أزقة دسوق والفسطاط، بحثت عند أقاربها وجيرانها بلا نتيجة. لو كان أحد خطفها كنت سأعرف. ذهبت إلى القاهرة متخفيًا، وشكوت إلى أمي ما فعلت. سمعتني، وربتت على كتفي، وقالت: سيعوضك الله. عدت إلى الجبل متعبًا كأنني درت حول العالم. وضعت جسدي اليائس على الأرض ونمت.

تسلل إلى حجرتي ليلًا، وهمس في أذني أنه يكرهني، ولا يغفر لي أنني حطمت كل عمره. قال إنه يستطيع أن يغير قلوب الناس ويخبرهم بالحقيقة، فكل العوام تعرفه، وتذوقَت حلواه، وتعرف مأساته مع جنود الخليفة، ولكنه أبدًا لن يفعل. تصنعت النوم حتى لا أقتله. ولكنه استمر. حكى لي كيف تغير المصريون علي. أصبحت أنا مصدر عنائهم ومأساتهم. بث مسعود السم مع الحلويات التي صنعها الحلواني الخاص به، وزعها على أهل مصر ليسري عنهم عوضًا عن فقد الابن والبيت والمدينة. كأنه بريء من دمهم وعرضهم. أخبرهم أنه بكى ورجاني أن أتوقف عن حرق المدينة، وأنني تحديت أوامر قائدي، ونهبت وحرقت وخطفت النساء. بدأ رجاله يرددون القصص عن جوهر الذي يخطف النساء، ويهم بهن في الطريق أمام أهلهن. قالوا: جوهر فكر ودبر، ولا علاقة للخليفة بحرق الفسطاط. قالوا: جوهر ممتلئ بالحقد لأن أهل مصر لم ينصفوا والده، فأراد الانتقام منهم. بدأت الحقائق تتوه في

مجرى النهر وتتفرع، حتى من شاهد شك في عينيه. توسد العوام المرارة، والتحفوا باليأس، وأصبح مقتل جوهر هو تمام المراد والبدر المكتمل الذي لا يتجلى لهم أبدًا. ما حدث بين الخليفة وجوهر لم ينبس به أحد، حتى الطيور لم تغرد به بعضها للبعض، ولكن عبد الله الحلواني عرف.

همس في أذني: ابحث عن زوجتي، لو وجدتها أساعدك.

انتفضت من مكاني، فارتجف الحلواني وابتعد. حدجت فيه، وقلت: كأنك بريء يا رجل. ترى هل ذاكرة العوام تمحو كل أخطائهم؟ من المؤكد أن زوجتك في أحسن حال من زوجتي. من تشكله النار يتعذب أبد الدهر يا مخمور.. يا من تعبث بمصير البراءة وتخلط الحلو بالعفن.

رأيته أمامي بوجه أبيض كأن الدماء كلها تسربت من جسده. فتح فمه، ورأيت المياه تتساقط من بين أسنانه، أو ربما من عينيه لا أعرف. ظننته سيموت في اللحظة. ثم تلاشى من أمامي.

خرجت أبحث عنه، فوجدته يصنع الحلوى في صمت. بدا لي أنه كلما حزن صنع الحلوى، وكلما تاه صنع الحلوى. شاهدته في صمت. يفرك بين يديه حلاوة العجوة، يضيف لوزًا وسميطًا، ويصبغها بالزعفران، ثم يضيف خشخاشًا، وسكرًا، ويلقي عليه مسكًا وماء ورد. ثم أشعل النيران، ووضع زيت الشيرج في وعاء وألقى فيه لقيمات القاضي. عجن نشا وفستقًا مقشرًا مدقوقًا مع العجين، ثم شكلها على شكل الدنانير. بعد أن انتهى، نثر على اللقيمات القرنفل والزعفران والعود والمسك.

قال الكلمات التي لم أنسها طوال عمري. جحظت عيناه أكثر حتى ظننت أنهما ضفدعتان ستقفزان إلى المياه أمامي لتنتشر حولي ثم قال لي: لكل نبات معنى وروح، ولكل حيوان رائحة تشي بحياته، أكان سعيدًا أم تعيسًا، محرومًا أم ثريًّا، أقُتل غدرًا أم بكرامة. للزبد رائحة تأتي من بقرة لو كانت محبطة أو حزينة تتذوق حزنها في حلقك. ولكن الحلوى لا مذاق لها دون زيت الشيرج، حبات السمسم الصغيرة هل يبدو مظهرها عظيمًا كمظهر الخلفاء؟ بالطبع لا. ولكنها أهم من الخلفاء والأمراء. بدونها لا وجود للفاطميين في مصر. نهاية بني عبيد تكون بتوقف المصريين عن زرع السمسم وتذكر كلماتي هذه. يا أمير، النبات كالبشر عندما تسبر أغواره إما أن تخرج ما هو حسن أو ما هو خبيث. لو عصرت السمسم يخرج لك زيتٌ يصلح لكل الأغراض. كالمرأة الصالحة بداخلها عطاء لا ينقطع في وقت العسر قبل اليسر. ولكنْ لكل نوع حلوى مقادير وقدر وإناء وميعاد كالناس، تجتمع بها كل الخصال: السيئ والحميد، ولكن بعضنا عند اجتماع الخصال يبدو حلوًا كبدر السماء، وبعضنا باجتماع الخصال يبدو كشيطان أحمر بطعم مر وسم يعذب ولا يقتل. الحلوى كما النفس تمتزج بها النباتات كل بمقدار وقدر. زوجتك يا أمير بشقاء مريم العذراء وبقلبها الممزوج بالخير. أمرها الله أن تأكل التمر وهي تستغيث من ألم وخوف ورجاء. التمر وحده يعطي طاقة وشجاعة، ولكن لو مزجته ببعض النباتات الصالحة يصبح أكثر تأثيرًا وألذ طعمًا. كما تطحن القمح أطحن أنا الفستق واللوز مع السكر. لبعض النفوس ألوان زاهية لا تمل الجلوس معها حتى إن انقضى الدهر. عندما تمزج السكر بالفستق واللوز لا تسلو طعمه ولا تنساه. ثم سأضيف له التمر المطحون وماء الورد. وعندئذ يأتي الأمير.. أمير التوابل كلها، بدونه لا طعام يؤكل، ولا نفس تزدهر وتنتصر، لا حلوى دون الزعفران، يعطي لونًا وعظمة لكل الحلوى. انظر إلى حلاوة العجوة الآن يا مولاي. ماذا ترى؟

- عجوة..

- بل نفسٌ بفجورها وتقواها. كلنا من أربعة عناصر لا غير: ماء ونار وتراب وهواء. كل بمقدار لو زاد مقدار الماء غرقت النفس في وسواسها، ولو زاد مقدار النار احترقت النفس بحقدها وطمعها، ولو زاد مقدار الهواء تردد البشر وخافوا العواقب، أما التراب فمثل زيت الشيرج بدونه لا حلوى تؤكل ولا حياة على الأرض، ولكن كثرته تغمر النفس وتسقطها في بئر الحزن. ها هي أمامك حلوى العجوة كما لم تأكلها من قبل، ولكن قبل أن أعطيها لك سأضيف إليها بعض المسك، فالأنف يستنشق الروائح، والفم يتذوق قبل أن ترى العين وتسمع الأذن. عندما تأكل حلوى العجوة ستدعو لي.

هذه الحلوى كما البشر تصنعها في ساعات طويلة، ثم تأكلها في لحظات. كما البناء والهدم، تحتاج أعوامًا لتبني الفارس، ثم تأتي الحرب وتقضي عليه في عشية وضحاها. ولكن لا تيئس، في ساعات الصنع كل المتعة وعند الانتهاء من صنع الحلوى لا بد أن تأكلها، فلكل روح قدر ومقدار. أتعرف ما الذي يميز حلوى عبد الله الحلواني؟ أنه صنعها وهو يدرك معنى الروح التي تسكن كل الكائنات.

وضعت يدي على خصري في تحدٍّ، ثم قلت: هل انتهيت؟

فقال وهو لا ينظر إلي: كنت أراك يا أمير. أردتك أن تسمع الكلمات. الآن أحكي لك عن أبي وجدِّك.

سمعت عن قصة جدي والحلوى ولكني لا أعرف تفاصيلها. امتزج جدي في مخيلتي ما بين الطوب اللبن وجامع الأزهر والقطايف. تارة أراه يقلي القطائف في سوق الحلاويين، وتارة أراه يحمل بيده الطوب ليبني مدينة وجامعًا، وتارة أراه يدخل بسيفه مصر في شموخ العظماء. سمعت عن الحلوى وأهميتها عند بني عبيد. كل عيد وكل رمضان يأكل كل أهل مصر من حلوى الخليفة. أعرف هذا. ولم أهتم بمعرفة المصدر. حتى بدأ يحكي وكأن العالم في انتظار لقيمات القاضي ليس إلا. وكل الناس في سكون يستمتعون بالسمر في ضوء الدجى. نظرتُ إليه في تحدٍّ فقال في حماس: أعرف والدك وجدك. بيننا ميثاق وعهد. هذا غير العهد الذي أعطاه جدك لأهل مصر. جدك رجل غير عادي، تعرف هذا أليس كذلك؟

قلت في مرارة: ولكنه مات ميتة رجل عادي.

- كل الأموات سواسية يا مولاي الأمير. المهم هو الحكايات التي نحكيها عن العظماء، هذا ما يعيش. القائد كان عظيمًا، أتعرف أنه كان صديقًا لوالدي؟

رفعت حاجبي في استهزاء، فأكمل الحلواني في حماس: ألا تصدقني.. حكى لي والدي عن القائد جوهر.. نحن من نعرف الحكاية أولها وآخرها، لا تسمع الحكايات في قصور الملوك بل اسمعها من فم الرعاع والعامة، فلا صدق يخرج من الوزراء والسلاطين. اعذرني أتكلم معك بصراحة. جوهر كان كقطعة الذهب المسحورة التي كلما فركتها بين يديك تضاعفت وكثرت. والدي يقول إن الأجداد القدماء يقدسون الذهب، ويرسمون كل ما يريدون بقاءه: الناس والملابس والطعام، وحتى أعداؤهم يرسمونهم. يحبون الرسم والذهب. جدك كان كالذهب المسحور، هو محارب وجندي، منذ قدم من صقلية وهو يتدرب فقط على القتال. للجندي أخلاق وعهود يا أمير، خاصة عندما يتدرب صغيرًا. والدي ردد كلمات تناثرت كحبات الهواء في كل أنحاء الديار المصرية قالها الخليفة الذي ترك جوهر يؤسس دولته بينما مكث هو في المغرب مطمئنًّا. قال الخليفة المعز لدين الله منذ أعوام: «والله لو

خرج جوهر وحده لفتح مصر، وليدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب، ولينزلن في خرابات ابن طولون ويبني مدينة تقهر الدنيا». جاء جوهر، فتح مصر، ثم دمشق، وبنى المدينة لخليفته، وليس لنا، لا بأس. ولكن يا أمير، الجندي غير الخليفة، أتعرف لماذا؟ لأنه يتعامل مع الناس كل يوم ويعرفهم. القائد المحنك يدخل البلد فيدرس أهله كما يدرس علوم اللغة. جوهر عرف كل شيء عن أهل مصر قبل المجيء، ثم بعد الدخول. جمع العامة والعلماء وأعطاهم ميثاق أمان، لهم حرية العقيدة والعيش، أتعرف يا أمير؟ المصري يُقدر حريته حق تقدير. ولكن للقادة بعض الألاعيب. تغير الأذان وعندما بنى القائد جوهر الجامع الأزهر بناه للشيعة حتى وإن كان صرحًا هائلًا قد بُني في وقت قصير. مدينة وجامع للأمراء الفاطميين وليس لنا. قلت لك جدك ليس أي قائد، يعرف أن المصريين يُقدرون الحرية، نعم، ولكنهم يُبصرون أيضًا حتى وإن بدت أعينهم حالمة تائهة. جاء إلى أبي في الخان. نعم القائد الذي لا يُقهر، زار أبي الحلواني في محله، أتذكر.. كنت حينها في الثامنة من عمري، ولكني أتذكر. جاء مفاجأة. مع بضعة رجال يرتدي الملابس البيضاء الخفيفة، لم يصدق أبي حينها أن من دخل الخان هو جوهر، فتح عينيه في ذهول والقائد يتكلم. أتعرف ماذا قال جدك حينها يا أمير؟ أنا أعرف مع أنني لم أسمع، ولكن أبي حكى لي مرة ومرات، مائة مرة كل يوم. قال: «يا حلواني، أنا جئت بالخير لأهل مصر, ربما لا يُقدِّرون ما أبني بعد لأنه ليس لهم، ولكن ربما في المستقبل يصبح لهم، من يدري؟ أريد أن أعبر لهم عن التقدير وأوثق العهد الذي بيني وبينهم، سأقيم السِّماط مائة يوم، في كل يوم يأكل المصريون اللحم والخبز، ستزيد ثقتهم في ويعرفون الفرق بين أحفاد فاطمة الزهراء والإخشيديين. ولكن اليوم جئت لأنقش على قلوبهم اسمي يا حلواني. أريدك أن تصنع لي حلوى لم يأكل أحد حلوى أخرى في جمالها. حلوى غير حلوى بني عباس، أريد نوعًا من الحلوى يصلح للأمير والفقير، حلوى كحلوى الجنة لا تفرق بين العبد والسلطان، أريدها برائحة المسك ومذاق الفردوس الأعلى. وعندما أدعو إليها كل أهل مصر، سيتأكدون من صدق نيتي ولين قلبي. الحلوى هي زينة الحياة يا حلواني كالرزق والولد، بدونها يصبح العمر بلا ألوان، والصبر على الابتلاء لا يأتي إلا بتناول السكر. لو ابتكرت لي نوعًا مختلفًا لهذا الشهر الكريم أعطيك العطايا حتى قدوم الخليفة.

فقال والدي: وعند قدوم الخليفة؟

فأجاب القائد: يكون اسمك قد تردد في القصور كلها. وتنتقل إلى القاهرة وتصبح حلواني الخليفة.

- ليس لي ترك الفسطاط يا مولاي. اتركني أفكر في أمر الحلوى، وسوف أبتكر لك ما هو بديع.

لم ينم أبي ليلته، سار في الحدائق ليلًا يناجي الأزهار والنحل. ابتلع بعض العسل كما يفعل دومًا، ثم أغمض عينيه، قطف زهرة حمراء تسر الناظرين، قال لنفسه: أريد للحلوى أن تكون مثل هذه الزهرة، يقطفها الناس ليتمتعوا بلونها وملمسها ورحيقها، ثم يبتلعونها فتصيبهم النشوى كما بين العشاق عند اللقاء.

وكانت القطائف، ما لا يفرق بين الفقير والأمير هو السكر والقمح. لو مزجت بينهما تشبع جوع الفقير، وتشبع طموح الأمير. وعندما تطبق عجين القمح على جائزة من السكر والفستق واللوز تزرع الابتسامة في وجه البائس مهما كان مصيره، فالمفاجأة داخل حشوة القطائف هي سر الوجود يا أمير. قطائف والدي غير كل القطائف، تقطفها الزهور في يد المحبين، وتلتهمها كما يلتهم الطفل الجائع

خبز الحياة. لحشوة القطائف سر لا يعرفه غير أبي. تطحن السكر بعسل النحل والفستق والبندق، ثم تضيف المسك، وتبخر العجين بالعود والعنبر، ثم تغوص به داخل القطائف، وتقلي القطائف في زيت الشيرج، ولزيت الشيرج المصنوع من السمسم قصة طويلة أحكيها لك لاحقًا. تذوق القائد القطائف، فانشرح صدره، وأعطى والدي العطايا، وطلب منه أن يجهز آلاف الأوعية الممتلئة من هذه الحلوى الجديدة، أمده برجال كثيرين، وسكر أكثر، وفرح كل أهل مصر، ورحبوا بجوهر الصقلي بقلب صادق.

أصبحت أنا والحلواني معًا طوال اليوم.. يضحك في سخرية، ويقول: أنا وأنت بلا زوجة. أنا وأنت انتهينا معًا. الأسد والظبي. الفريسة والصياد. من نصب لي شركًا وقع فيه. آه يا ابن قائد القُواد من مصيرك!! اصنع معي الحلوى.

قلت لكم لم أترك موطئ قدم في مصر لم أبحث عنها فيه، حتى القاهرة، دخلتها متنكرًا، مرة ومرتين. طالت لحيتي وشعري، وأضفى الكسر في أنفي الخشونة والعناء على وجهي، فتعاطف معي كل المصريين، بعضهم تقزز من ملبسي، والآخرون طلبوا مني الدعاء لهم بالرحمة. نسوا أمر جوهر سبب كل المهالك. سمعت في أطراف المدينة عن مصير أحد القُواد المقربين من الخليفة يدعى «غبن». يقولون إن الخليفة أمر بقطع يده اليسرى، وكان قد قطع يده اليمنى قبل ثلاث سنوات. ولكنه بعد أن قطع يده اليسرى واليمنى، بعث له الذهب والأطباء والثياب الثمينة. وبعد ثلاثة أسابيع أمر بقطع لسانه، وكان قد بلغه عنه أنه أساء القول والفعل. ولا أدري لماذا انفجرت في الضحك يومها وأنا أجلس على جانب باب البحر، وأسمع عن القائد سيئ الحظ هذا. ضرب الرجال كفًّا بكف، وظنوا أني فقدت عقلي. كنت أريد زيارة أمي، لم يتسن لي زيارتها سوى مرة واحدة منذ سحلني أهل مصر وفتكوا بي.

وقفت أمام باب القصر، وغطيت وجهي، ونظرت إلى الأزهار المحيطة بالأسوار، ولون الخضرة الأخضر الفاتح تسللت داخل الحديقة دون عناء. لا حراسة على قصر أمي وأبي. بحثت عن أمي، خرجتْ لي، ونظرتْ إلي مليًّا وعرفتني بالطبع دون أن أخلع اللثام عن وجهي. قالت في شوق لأول مرة منذ مولدي: ابني، كيف حالك؟

اقتربت، ثم قلت في تردد: أخاف الاقتراب منك بهذه الملابس.

فأمسكتْ بيدي، وقربتني إلى صدرها وقالت: والله ما شعرت بك نظيفًا طاهرًا كاليوم. وما افتخرت بولادتك مثل اليوم.

كيف لإطراء لمياء أن يدفئ القلب في هذه السن؟ لا أدري. جلست على الأرض، والتفتُّ حولي ثم قلت: تعرفين أني لا أستطيع أن أجد سندس.

نظرت إلي في فزع، ثم قالت: أعرف يا بني. أخبرتني المرة الماضية.

- لا أعرف هل ذهبتْ رغمًا عنها أم برضاها. لم أستطع أن أجدها، ولا أعرف أين أبحث.

قالت في تأثر: وكأنني أرى التيه في عينيك والعجز. اثبتْ وقِفْ أمامي كالرجال. هي امرأة لا أكثر. لو تركتك بإرادتها، فلتنس أمرها. لا تستحقك.

فتحت فمي لأشرح لها، ثم أغلقته. ربَّتّ على يدها، وقلت وأنا أقوم: أحمد الله أنك بخير، وسوف آتي لزيارتك قريبًا إن استطعت وإن بقيت حيًّا.

قالت مسرعة: لا تجازف من أجلها، عدني بهذا.

قامت من مكانها، ذهبتْ إلى حجرتها، ثم عادت بلفافة قديمة، فتحَتْها وكان هو، الحصان الخشبي الذي أخذه أبي من والده جوهر الصقلي.. كل ما تبقى من طفولته وصباه وصقلية. أخرجَتْه في حرص، ونظرَتْ إلى الزخارف المتقنة عليه، وقالت: لم أر في جماله يا جوهر. أعطاه لي والدك ولم يعطه لزوجته الثانية ولا جواريه. ائتمنني عليه. والدك يقول إن جوهر الصقلي أخذه من والده هدية قبل أن يتم أسره وبيعه وانتقاله إلى الخليفة المنصور بالله الفاطمي. يقول والدك إن جدك كان ينام بجوار هذا الحصان طيلة حياته حتى وهو هرم. عندما شعر حسين بالخطر أعطاه لي لأحافظ عليه، قال: إن هذا ما تبقى من أبي. فقلت له معترضة: إن هذه المدينة كلها هي ما تبقى من والدك والجامع الأزهر وأسوار القاهرة. فردَّ حينها: هذا ما تبقى من القائد، ولكن ما تبقى من الطفل هو هذا الحصان. أريد أن أحتفظ بالأب والطفل وليس القائد، فالتاريخ سيحتفظ به. واليوم يا جوهر أعطيك أنت الحصان لتحتفظ به. ولتتذكر أن قلب جدك الطفل كان في صقلية مع والديه، ولكن الرجل عشق المدينة التي صنعها بنفسه، ولم يرد يومًا أن يتركها. عاش بها، ومات بها، وتوارى عن الأنظار سنين، ولكن أحدًا لم ينسه. أتفهمني يا بني؟

ابتسمتُ في مرارة، وقلت: واليوم تظنين أنني أستحقها يا أم جوهر؟

- اليوم تستحقها لأنك أشجع رجل في الديار المصرية يا بني..

- قلبك سُنِّي.. لم تتحولي، أليس كذلك؟

- فلنترك المذاهب التي فرقتنا، ونتذكر أن عناء الدنيا للانتهاء، وقُبح البشر للزوال.

- عانيت كثيرًا يا أمي..

- ليس أكثر من أهل مصر.

- لا يعرفونك.. ولا يأبهون بمصيرنا.

- يعرفون الحزن في العيون، ويلتقون به بحرارةِ مَنْ فقدَ الحبيب ثم عاد إليه.

- لا أفهمك.

- ابق حيًّا. لم يعد لي غيرك. ولا تظلم من عانى وفقدَ. هم ضحايا مثلنا وأكثر.

هززت رأسي ثم خرجت من باب القصر وسرت بين أزقة القاهرة العامرة. لا روث بهائم في القاهرة ولا قاذورات، لا حائط متسخ ولا بيت افترسته النيران. كل قصر تحيطه أشجار الرمان والسفرجل والنارنج. الفواكه متوافرة والسكر يدعو المحب للتذوق. المباني شاهقة تذكر من يدخل بأنها أرض الخلفاء الأشراف. والشوارع مريحة، السير بها يهدئ القلوب التي تعاني من نار الجوى. القاهرة تبعد عن النيل المبارك، ولكن فوارتها تكاد تصل إلى إفريقيا. ما أروعك مدينة! ولكنني أخافك! لا مكان

لي بك! أنا اليوم الصقلي.. المصري.. المجذوب.. من فقد ومن عجز.. ومن ضحك من نوائب الدهر وصاحب غدر الأيام. أنا اليوم المصري الذي لا يدخل بابك إلا بعد عناء، يعاني من ظلم لا يعرف مصدره، وقلة حيلة وقلة معرفة.. ترى من يأمر بقطع الأيدي؛ أهو الخليفة أم أتباعه؟ ومن يقسو ويخون؟ من يجعل الأيام غادرة كالثعبان تبث السم بلا سبب ولا خطر؟ أي جنون أصابك يا مدينة؟ وأي مصير ينتظر أهلك؟ أحن إليك وإلى طفولتي بك، وأخاف تقلبك وجمودك. لا ذنب في عينيك ولا شفقة! حتى الحيوانات المفترسة تفترس وقت الجوع والخطر. وأنت يا قاهرة تفترسين بلا سبب! تذبحين عابثة وتداوين خادعة ماكرة. آه يا مدينة كالذنوب.. تتمسك بي وتلتصق. كنت حلمًا وعظة، تعلمت على يديك أننا نحب ما هو شر لنا، ونكره كل الخير. لم يعد لي مكان هنا. ولا في الفسطاط.. اليوم أسير بين الأزقة هنا وهناك ولا أحد ينظر إليَّ لأنني عاجز مثلهم جميعًا. عندما حرقت كنت عاجزًا، وعندما طمعت كنت عاجزًا. تختلط علي الساعات واللحظات. وقد عشت دهرًا أستمتع بما هو آتٍ بلا عقل يدبر ولا قلب يتوق. هذا يكفي يا مدينة الخلفاء. يكفي ويفيض.

لم يزل الحلواني أيضًا يبحث عن زوجته. سأل في كل قطيع جنود، وبين كل حنايا المدينة. عرف أن زوجته بين يد جندي تركي.. أحد الجنود الذين كانوا تحت إمرتي. فعاد إلي فرحًا. قلت له في حسم: اذهب إليه، وأخبره أني آمره أن يعطيك الجارية، أقصد زوجتك. وأني سأدفع فيها ألف دينار. سيوافق.

- ولكنك لم تعد أميره.

- هو يعرف أني أميره حتى لو أبى مسعود. اذهب.

ذهب الحلواني إلى الجندي، وعاد وحكى لي ما حدث. طلب أن يقابل مريم، يراها مرة واحدة. وافق الجندي ووافق أن يبيعها له. سأله الحلواني في تردد: هل لمستها؟

نظر إليه الجندي في غضب وأجاب: هي جاريتي ولكني لم ألمسها، لديها طفل رضيع ولا تروق لي.

تنفس الحلواني الصعداء ثم رجاه أن يراها. دخلت مريم مطأطأة الرأس ومعها طفلها. ومما حكاه لي الحلواني أنها بكت ولامته ساعة أو أكثر. قالت إنه أسوأ زوج في كل البلاد، وإنه هو السبب فيما حدث. حاول أن يشرح لها أنْ لا ذنب له لو أحرق الجنود الفسطاط، لم تفهم. رجاها أن تمهله يومًا واحدًا. فقالت في فراسة: اطمأننتَ أنه لم يلمسني. ليته لمسني يا عبد الله. ليتني بقيت جارية لديه حتى لا أعود لعربدتك وعبثك بعمرك وبي.

قال في ترجٍّ وهو يهوي أمام قدميها: أقسم..

قاطعته: لا تقسم يا رجل. لا قسم لك.

قبَّل طفله، ثم تركها وهو يتأرجح بين السماء والأرض. جاء إلي وحكى لي كل شيء. ثم قال: ماذا تقصد؟ هل تكرهني حقًّا مريم؟ هل تريد الجندي الشاب؟

ابتسمتُ، ثم قلتُ: لا تصدق النساء، لديهنَّ لسان كالعقرب يلدغ بلا تمييز. أرادت إذلالك بعد أن أذللتها طوال العمر الماضي.

ذهبت متخفيًا إلى أمي. أعطيته المال الذي أخذته من قصري، وبعض الذهب وقلت في ثقة: أعطه للجندي ليعطيك زوجتك. ثم لا أريد أن أرى وجهك بعد ذلك.

بعد ساعتين أخذ الأموال، ثم خرج وهو يرتعش خوفًا من تغير الجندي وتغير مريم وغدر الأيام. وكان خوفه في محله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 6 -

ساحرة الهرم تقول: لا تستطيع أن ترغم النفس على رؤية نشر الصبا، ولا الاستماع إلى صوت السحاب. هذه أشياء لا بد أن تفتح قلبك لتجربها. سندس أصبحت كل الآمال، لا أدري متى ولا كيف. كانت الدنيا بحلاوة لقيمات القاضي والبدر كالخشكنانج محشو بالفستق والعسل. أصبح الأمل ضئيلًا كحبيبات الملبس. بذلت الأضلع في سبيل أن أجدها، ولكنني لم أستطع. قالت بحنس: عندما تكون على استعداد لاستقبالها ستأتي إليك. لا تأتي إلا لمن نزعنا ما في صدره من شر وطمع. صِحْتُ مؤنبًا، أقسمت أن أعاقبها، ثم استسلمت وتكلمت معها أناجيها كما الشعراء. اقترب المولد.. مكثت أنظر إلى الحصان الخشبي، وأرى جدي الفارس يروضه ويجري به في أنحاء العمر.

المولد حدث كبير.. جهز الناس الحلوى..

وتكلمت أنا مع الحصان الخشبي أو مع جدي لا أعرف. قلت: لو رأيتَ سندس ستعرفها، ليس من أجل الحرق في وجهها، ولكن لأنها بروح الطير وخفة الهواء ومذاق العسل. ستعرفها..

قلبت الحصان بين يدي، وتذكرت كلام أبي: في صقلية البحر مرافق للجبل، ولكنها جبال غير جبال مصر، هناك تنمو الحشائش، وتتسع الأودية حول البحر، ووراء الجبل وحوله. يقولون إن هناك نارًا تشتعل كل وقت كاللعنات، ولكنها دومًا تفيض بالخيرات. في صقلية..

وكيف لي أن أعود إلى مكان لم أولد فيه؟ سيبقى في قلبي نعم. ولكنني واأسفاه! لا أعرف سوى هذه الأرض التي لفظتني، وأذلتني، ثم مكثت أناديها كالمكلوم لعلها تعطف علي. هي هذه الأرض.

على الحصان زخارف دقيقة صنعها نجار ماهر. أخذتُ الخشبة بين يدي، وحاولتُ أن أصنع حصانًا فارغًا لأحشوه بالحلوى. أغمضت عيني، ورأيتها عروسًا بألوان زاهية كما الملك والأميرة. وهذا هو حصانها، بل فوق الحصان فارس يتزوجها. سندس، أجمل من رأت عيني، من نفذت إلى نفسي، بضعة مني، رأت ما لم أر من صفات قائد القواد الذي مات منذ زمن. شجاعة لا تضاهيها شجاعة، هكذا قالت..

صنعت من الأخشاب قالبًا للفارس وآخر للحصان، وآخر لعروس ترتدي الثياب البهية. نحتُّ داخل الأخشاب أشكالًا وأشكالًا.. ترى كيف أنت يا سندس؟

هل كانت وهمًا؟ هل ماتت؟ ربما.. دمعت عيني، ثم استمررت في صناعة القوالب الخشبية، وما إن انتهيت حتى مزجت السكر والماء والنشا ووضعتها داخل القوالب لتستقر.

عندما جاء الحلواني، نظر إلي برهة، ثم قام ليزين العروس بالألوان والأوراق المزركشة.

عروسة من الحلاوة، وحصان وفارس من الحلاوة... صنعتهما لك أنتِ.. قبل المولد بيومين أو ثلاث.

أمي.. وصلت إلى باب البحر.. كدت أن أعبره ولم أفعل. دوَّت كلمات أمي في أذني، ليس كلماتها عن الحصان؛ ما دوَّى في أذني هو كلماتها عن زوجتي. لأول مرة تتكلم عنها ببعض السوء. كانت تشفق

عليها، وتحبها، فكيف تتكلم عنها بسوء اليوم بعد أن أنقذت حياتي؟ إلا لو.. عرفت عنها ما لا أعرف! أو أرادت أن تخفي عني شيئًا، فادعت كرهها لها، وأنها تقف معي ضدها.. أن تخفي عني..

ماذا قالت ساحرة الهرم؟ «عندما يضيع منا شيء نبحث في كل الأماكن الغريبة بينما ما نظنه بعيدًا هو بين حنايا الأضلع المألوفة».. عدت مهرولًا إلى القصر، وفتحت الباب، فشهقت أمي. قلت في حدة: أين هي؟

نظرتْ إلي في فزع، ثم قالت: ماذا بك يا بني؟

قلت وأنا أكتم جمرًا يكفي لإشعال الفسطاط مرة أخرى: سأذبحها بيدي، وسأبحث عنها في كل حجرة، ولو لم تخبريني فستشهدين على هلاكها.

قالت وهي تبلع ريقها: يا بني.. وعدتها.. أقسمت لها..

- كيف تكذبين علي؟

- يا بني؟

- أين هي؟

ثم تركتها، واتجهت إلى داخل القصر، قالت مسرعة: جوهر ارفق بها.. جاءت إلي ولم تهرب. أرادت أن أحميها وأن تبقى معي. وعدتها ألا أخبرك. لم..

قاطعتها وجريت على حجرات القصر، وأنا أشهر السيف الذي خبأته تحت الملابس المخرقة. فتحت بابًا وراء باب حتى وجدت بابًا مغلقًا بالمفاتيح.

طرقت الباب قائلًا: افتحي.. الآن وإلا حطمته على رأسك.

انتظرتُ هنيهة، ثم أخرجت سيفي، وهممت بغرسه في صدر الباب حتى لا أغرزه في صدرها هي أو صدري ولكنها فتحتْ. نظرتْ إلى السيف المصوب ناحيتها، وابتسمتْ في هدوء قائلة: مرحبًا بالزوج.

ألقيت بسيفي، ودفعت بها داخل الحجرة، وقلت في حنق: كيف تجرئين؟ من تظنين نفسك؟ أنت..

قالت وهي تجلس على الأرض أمامي: أنا لا أستحق الأمير.

تنفست لأمتص كل غضبي حتى لا ترى الضعف والوهن ثم قلت: لن أسألك عن السبب، ولن نتكلم عن الماضي. ستأتين معي الآن. بلا كلمة.

غطت رأسها بيديها، وثبتت مكانها. هويت إلى الأرض أمامها، ثم قلت في حنو لا أدري متى ستر الحنق ولا كيف تفشى في الروح: لم تركتني؟ كنت أخاف عليك، عبثتْ بي الظنون وعذبتني.

قالت في صوت هادئ وهي تمسك بخمارها لترتديه: لا عذاب يضاهي عذابي الذي تسببت أنت به.

أمسكتَ بالخمار من بين يديها، ثم قلت: إياك أن تغطي وجهك أمامي.

ناحت، وبكت حتى ارتجت الحجرة بنا وكادت تتهدم. غطت وجهها بيديها وهي تقول: كنت أرضى عن نفسي، تعلمت أن أرضى بقدري وأتعايش معه، ولكنك أبيت إلا أن تنكأ الجروح وتفجر الألم من القلب! لا أحد بقسوتك في مصر كلها يا صقلي. لن أعود معك حتى لو ذبحتني. أصبحت أكره نفسي، وأحقد على جسدي. أصبحت أريد أن أغير القدر وأراجعه، أعود بالزمن فلا أقابل الحلواني ولا أقابلك. اتركني لحالي وارحل. عندما تعاشر إحدى جواريك ستحرق ما تبقى من جسدي، وأنا لن أستطيع تحمل الحرق من جديد.

لو كانت قد غرست السيف في أحشائي لما شعرت بهذا الفزع، ولكنني رأيت في عينيها يقينًا أرعبني. لم تكن تريد العودة إلي، ولم أكن أنا ممن يتقن الكلام مثلها. قلت في يقين: ستعودين معي في اللحظة والتو. سآخذك عنوة ولن تستطيعي الهرب مرة أخرى.

أمسكتُ بيدها، وقمت معها وقلت وأنا أضمر الهوان: تعالي معي..

ثبتتْ جسدها على الأرض، فشددتُ يدها وأنا أقول: قلت سآخذكِ شئتِ أم أبيتِ.

قالت في ثبات: لو أرغمتني فسأقتل نفسي.

التفتُّ حولي في حيرة، ثم قلت: ولو كنت تخافين المغامرة فأنت جبانة. لا قوة بداخلك كما تدعين. تخافين أن أجرحك، فجرحك مضاعف أعرف. لا أعرف نفسي، ولا أعرف كيف ستتصرف، فلا توقعت أن أعشقك ولا أن أساعد الحلواني، ولا أن أقف أمام الخليفة، ولا أن يتفتت قلبي أمامك ويثبت كالوتد أمام الموت. ليتني أعلم وليتني أستطيع أن أعدك بشيء. لا أدري سوى أن حياتي لا جدوى منها، ولكنني أصبحت أريد أن أعيش لأحميك من كل شر. هل تفهمين؟

طأطأت رأسها، فاقتربت منها، ومسحت أصابعي الدموع من على وجهها، ثم قبلت وجنتها قبلة بطيئة طويلة، ثم هامت شفتاي على وجهها تقبل الفم تارة، والأنف والعين تارة.. أغمضت عينيها ثم قالت: هذا لن يجدي.

عانقتها بكل قوتي وهمست: افتقدتك.

فقالت في يأس: قسوتك يا صقلي..

- أعطيني فرصة واحدة..

- كيف تغيرتَ؟

- لأنكِ بضعة مني.. شققتِ قلبي فلا مفر. رأيت ما لم أر. لن أستطيع العيش بدونك.

ترددتْ، وارتجفتْ، خارت قواها لحظة، وبادلتني قبلة في شوق، ثم ابتعدت، وقالت في يقين: أقسم.. إنك لو أخذتني عنوة سأقتل نفسي.

نظرت إليها في غضب، ثم حملتها بين ذراعي وهي تقاوم بلا جدوى، وخرجت بها من الحجرة، ثم من القصر وأمي تناديني بألا ألقي بنفسي إلى التهلكة.

قلت وأنا أسير بها في حدائق القاهرة: سيقولون الفقير سرق الأميرة من القصر.. هلا مشيت بجانبي حتى لا يقتلوني؟

قالت: حسنًا.. سآتي معك، ولكنك لن تراني. تترك لي مكانًا أبقى فيه وحدي. تعدني ألا ترغمني.

قلت في حسم: لك ما تريدين.

مشت بجانبي، ثم قالت بعد برهة: إلى أين؟ هذا ليس طريق الجبل.

قلت: الجبل لن يجدي. نحتاج إلى مكان أبعد. الأيام القادمة كلها تقلبات كما قلب الخليفة..

لم تنطق. أخذنا معًا عربة كارو إلى الإسكندرية. لم تتكلم معي طوال الطريق. لديها قوة وعزيمة تجعل الشاب يشتعل شيبًا. تخيفني بقوتها، وتخيفني بجمالها الذي يكمن بداخلها.

عند وصولي إلى الإسكندرية لم تحنث بالقسم. دخلت حجرة في البيت الخشبي الصغير، وأغلقت الباب. حاولتُ مرارًا مرة بالحنان، ومرة بالقسوة، ولكنها لم تفتح لي القلب، ولا نظرتْ إلى عيني. أصابني غم بعد غم. فكرت أن أزور الساحرة، ولكنني آثرت الكلام مع الحلواني ومساعدته. ربما أموت كما تمنيت، من يدري؟

***

عندما مد الحلواني يده بالأموال للجندي نظر إليه في حسرة ثم قال: ليس لدي جارية أعطيها لك.

قال الحلواني: ابني.

- لا أعرف شيئًا عنهما.

أمسك بتلابيب الجندي، فدفع به ثم قال: قلت لك لا أعرف شيئًا عنهما. اذهب إلى حال سبيلك قبل أن أذبحك.

هام في الأرض كما الملعون. نظر حوله يسأل الناس.. ثم يدق أبواب القصور، يرجو المارة أن يساعدوه. لم يساعده أحد. نظر إليه أهل القاهرة في شفقة واشمئزاز، وطلبوا منه الرحيل. عاد إلي مترنحًا، وكنت قد استعدت عافيتي كاملة، ثم أخبرني بما حدث. وقال في عنف: الحقيرة، مريم، أغوته.. طلبت منه البقاء..

قلت في بطء: ولكنها لو أرادت البقاء من قبل كانت ستبقى، ولم يكن سيوافق على أن يعطيها لك.

- هي السبب.

- ربما تُحمِّلها كل أخطاء القُواد وذنوبهم. ليتك تلتمس لها العذر أحيانًا.

- ما أرحمك يا صقلي!

- اجلس، وأخبرني ماذا قال لك بالتفصيل.

أخبرَني. وأعدت الكلمات مرة ومرتين، ثم قلت: ربما هناك من حثه ألا يعطيك إياها، أو من أخذها منه. ربما من هو أقوى منه... ربما... من يعرفك؟

- كل أهل مصر.

- ومن يعرف أنك أنقذتني؟

- كل أهل مصر.

- ولكنهم لا يعرفون مكاني.

- لم يسأل أحد عن مصيرك، نسوا أمرك بعد أيام.

- ولكن مصيري يهم البعض..

- لا أعرف ماذا تبغي..

- مسعود بن ثابت.. بث السم في أذن أهل مصر، أراد موتي، وأنت أنقذتني.. أنت عدوه الأول..

قال في حسرة: لا أعداء لي. أريد زوجتي وابني فقط. أنقذتك من أجل سنـ..

توقف فأكملت: انطق اسمها.. لم توقفت؟

قال في يأس: أصبح كلانا بلا زوجة. حتى أنت زوجتك أيضًا لا تطيقك.

- وكلانا سيستعيد زوجته. زوجتي تركتني عن عمد وعادت وهي لا تريدني. وزوجتك تركتك رغمًا عنها، أنت أحسن حالًا. ابعث امرأة إلى قصر مسعود ببعض الأقمشة. ماشطة مشهورة، وأعطها نصف الذهب، واطلب منها أن تعرف لو كانت مريم بين حريم مسعود بن ثابت. لو أخبرتك بالحقيقة فأعطها أكثر.

قال في ألم: ولو كانت هناك كيف لي أن أخطفها من قصر الأسفهسلار؟

- تترك هذا لي.

- أنت هارب ضعيف.

- أنا جوهر بن حسين يا أحمق!

كل شيء يحدث بسرعة. قراري وخطتي كلها تنضج كلقيمات القاضي تنمو على النار وتنضج فلا تعرف ولا تتوقع شكلها الأخير.

كان توقعي في محله، عرفنا بعد بعض يوم. مسعود بن ثابت أخذ مريم انتقامًا من الحلواني؛ بل مني أنا. من يساعد الصقلي فسيهلك. رسالة يبعث بها مسعود إلى أهل مصر، سيعرفونها جميعًا عندما يفقد الحلواني عقله ويعرف أن زوجته بين أحضان القائد.

لا أمان لإنسي في الديار المصرية. حتى من يمشي مُكبًّا على وجهه يهلك، ومن يمشي على صراط مستقيم يخذله الأحبة. بعثت برسالة إلى أمي أن تأتي في غيهب الليل وحدها، وسوف ينتظرها الحلواني على أبواب القاهرة. بقاؤها هناك خطر. البحر كبير والرمال تضمر كل لاجئ، وكل من يروم الاختفاء. استقررنا في بيت خشبي على الشاطئ قريب من كوم الناضورة ومسجد الألف عمود، وقريب من البحر حتى إن أمواج الشتاء تكاد تفتك به، ولكنها أرحم من الحكام وأتباعهم. تركت زوجتي وأمي هناك في رعاية الله، ورحلت مع الحلواني كما وعدته. أخذتا اسمين جديدين، أمي أصبحت «زينب» وزوجتي أصبحت «جميلة». وجدتا بعض القلوب التي تهفو إليهما وبدأتا في صنع الحلوى وبيعها.

وعَدتُ الحلواني أن أخلص زوجته وابنه، ثم ألا أرى وجهه بقية عمري. وجوده يزعجني، أحيانًا يذكرني بذنبي، وأحيانًا بعجزي، وكثيرًا يذكرني بألفة الرفيق والدار، وبأنني باقٍ هنا فليس لي دار غير مصر حتى وإن اختفيت تارة داخل الرمال وتارة في زبد البحر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 7 -

قال الحلواني في حيرة: هل تظن أنها تريده؟ تريد العيش مع مسعود بن ثابت؟ هل تظن أنها نسيت ما كان بيننا؟

قلت في تهكم: وماذا كان بينكما يا رجل؟

- أنت لا تعرف.. الحب يغفر ما كان بعده وما جاء قبله.

- فلتغفر لها أنت إذا أحبت مسعود!

نظر إليَّ في غيظ ثم قال: إلا هذا!

- الحب يا حلواني كما السيف لا عودة في قراره ولا شفاعة في نحره، ولكنه لا يغفر أبدًا.

- كيف ستدخل قصر الأسفهسلار؟ وحتى لو فعلت كيف ستحرر زوجتي وابني؟ من تظن نفسك؟

- حفيد جوهر الصقلي، اتركني أفكر في الخطة، أحتاج منك صنعتك، تصنع لي حيوانًا؛ ثعلبًا مثلًا أو السلمندر من السكر يملأ صينية، ويغطي بداخله سيف أبي الذهبي، نحمل الصينية معًا، ونذهب إلى القصر يوم المولد والله معنا.

- لم تساعدني؟

- لا تسألني؛ لأنني لا أعرف، ولكني أشفق عليك وعلى نفسي.

- حتى لو ساعدتني فلن أغفر لك.

- ربما لا تعرف نفسك يا حلواني. انتظر.. هل يمكن أن تصنع بعض الأحصنة والعرائس من الحلوى.. لنبيعها في المولد.. فيتأكد الناس أننا حلوانيان؟

- هذه عادة جديدة يا صقلي. نبيع العلاليق، ولكننا أبدًا لم نصنع من قبل الحصان من الحلوى، ولا عروسة مزينة كالتي صنعتها لزوجتك.

- هي عادة جديدة ابتكرها الصقلي.

ابتسم لي الحلواني، ثم قال في تهكم: ماذا فعلت زوجتك عندما أعطيتها إياهما؟

- نظرتْ إليهما، ثم أخذَتْهما وابتسمتْ وأغلقتْ بابها.

- توكلنا على الله! نبيع عروسة المولد لأول مرة في الديار المصرية.

خرج الخليفة بدراعة صوف بيضاء، وعمامة فوطة، وحذاء عربي متواضع، سار بمظلته البيضاء، فلثم القُواد الأرض أمام قدميه، وتوقف عند مسجد أحمد ابن طولون يتكلم مع العامة، ويمزح معهم، ويستمع إلى شكواهم، تكلم معه الناس حتى الغروب وهو صابر متسامح زاهد في كل ما حوله، يرأف بهم ويحنو عليهم. نسوا ما كان. اليوم يوم عيد. ولا بد أن شفاعة النبي ساعدت على مرور الغمة

واستقرار الأمان. كنت أقف أمام أبواب القاهرة، أمسك بصينية كبيرة بها ثعلب مصنوع من السكر بألوان زاهية، يعج بالمسك والفستق. رائحته تجعل النبيذ بلا بائع والجواري بلا شارٍ.

وقفت أمام الأبواب حتى تكدس العامة، ينتظرون الحلوى والدنانير، أشار الحراس إلى خارج الأبواب، فانطلق الناس كيوم الحشر. انتشرت الصواني الذهب، وعليها المناديل المذهبة من التمر المحشو والخوارشنات بأنواع الطيب واللفائف المذهبة ودنانير العزة.

وبقيت أنا والحلواني أمام باب القاهرة، قال الحلواني في رفق: جئنا بهدية للقائد.

نظر إلينا الحارس في ريبة. فأكد الحلواني أنه حلواني القصور، وأخرج الكنافة الساخنة وعروسة المولد، وطلب من الحراس أن يتذوقوها. أكلوا، وغمغموا، وتنهدوا، ثم رافقونا إلى قصر القائد.

ثم تذوق حراس قصر مسعود حلوى عبد الله حتى جلس الحلواني وقال: احك لي عن الحرم..

نظر إليه الحارس في ريبة، ولكن عبد الله قال مسرعًا: سمعت أن هناك جارية جديدة من أهل مصر اختارها الأسفهسلار لنفسه تدعى مريم.

بلع الحارس ريقه، ثم قال في صرامة: اترك الحلوى وارحل.

- أنت تعرفني. لكَمْ جئتك من قبل..

- ولكني لا أعرف مساعدك.

- هذا رجل غريب يحتاج إلى عمل لا سلاح معه.

- هيئته هيئة جندي.

- سأصرفه لو أردت.

تردد الحارس، ثم قال: كيف عرفت حكاية مريم؟ لا أحد يعرف حكايتها.

رأيت الرجفة في عيني الحلواني. التقت أعيننا. فكر حينها أن مريم تعيش في هناء في قصر الأسفهسلار، نسيت الزوج الذي لا يسلو الشراب، ولا يبقي على عِشْرة. كم مرة ضربها، وكم مرة هزأ منها، وكم مرة تحملت في صبر. كم مرة لم يشعر بحزنها على طفل مات لهما! ولكنه كان يضمها أيضًا، ويبكي بين ذراعيها. سترته كثيرًا، وصبرت كالأنبياء. عَشقها وملكت تلابيب أحشائه. مريم لا تخون.

طلب منا الحارس الخروج، ولكنني قلت في تأكيد: ننتظر الأسفهسلار لنعطيه الهدية.

صممنا وصمم. ولكننا جلسنا أمام القصر حتى تغير الحارس، وظهرت إحدى الجواري في الحديقة ليلًا. هرولت إليها أناديها بين الأشجار، التفتت حولها، ثم اقتربت مني. وضعتُ في يديها الذهب، وقلت: مريم. أين هي؟ هل تأخذينني إلى الحرم؟

بدا على عينيها التأثر، ثم اقتربت مني، ودفعت بكتفي حتى أختفي بين الأشجار، وهمست: ماتت. ألا تعرف؟

بلعت ريقي، ثم قلت: كيف ماتت؟

- رفضت معاشرة مولاي مرة ومرتين، وعندما أرغمها استعملت الخنجر لتقضي على نفسها. قالت إنها لا تعيش مع هذه المصيبة وهذا الخزي.

لم أسأل كيف استعملت الخنجر، ولم أشك في صحة القصة. كنت أعرف الصدق من الكذب. ولكنني لم أكره الصدق كما كرهته اليوم.

همست: ابنها. أريده، وأعطيك أي شيء.

-لا أحد يريده هنا. هو مريض على وشك الموت. سيموت الليلة، ولكنني لا أستطيع أن أحمله، يذبحونني.

تركتها تعود إلى الحرم، وعدت أنا إلى الحلواني، جلست بجانبه وأنا أسند يدي على خدي، فقال: هل وجدت طريقة لدخول الحرم؟

همست: ننتظر قدوم مسعود. هو ما نريد.

ردد: أريد زوجتي وابني. لا شأن لي بمسعود.

قلت آمرًا: عندما تراه أعطه الصينية، واترك لي ما بعد ذلك. ثم خذ ابنك وارحل، لا تنتظر زوجتك لن تأتي.

قال في أسًى: مريم لا تريدني!

- نتكلم لاحقًا. خذ ابنك، واذهب إلى الإسكندرية، لو عشتُ فسألحق بك، ولو لم أحيَ ترعى أمي وسندس. بل ترعى أمي وسندس لأنني لن أعيش. هل تفهم؟

- زوجتي.

- لو قلت لك إنها ماتت هل ستنهمر في البكاء، وتترك ابنك حتى يموت هو الآخر؟

بلع دموعه، وصمت. ولم يسأل خشية ما سيسمع.

عند انتصاف الليل عاد الأسفهسلار إلى القصر راكبًا وحوله جنوده. ما إن نزل عن فرسه حتى اقترب الحلواني ورجاه أن يتقبل هديته. ارتبك الجنود، اقترب مسعود من تمثال الحلوى العملاق ونظر إليه في إعجاب. كنت متكومًا بجانب الأسفهسلار، لم يلتفت إليَّ. تسللت من ورائه في ثوانٍ وأنا ملثم، وأمسكت بالتمثال فنهاني، وضربني حارس على رأسي، ألقيت بكل جسدي على التمثال فتحطم، وأخرجت السيف الذي خبأته. سيف أبي الذهبي، والجنود مرتبكة، والأسفهسلار يهم بالهرب، ولكنني أمسكت بردائه، وقربته مني بكل ما أوتيت من قوة. ثم دفعت به فوقع على الأرض، فوضعت طرف سيفي على رقبته، وصحت بأعلى صوتي: ابتعدوا كلكم وإلا قتلته.

همس في صوت مرتجف: الصقلي! ليتني قتلتك بيدي، ولم أتركك لأهل مصر.

قلت وأنا أُقرب طرف السيف من رقبته أكثر: ولو قتلتك أنا الآن أموت مطمئنًّا على أهل مصر.

- وتموت معي.

قلت آمرًا: هات ابن الحلواني في هذه اللحظة.

حاول أن يتحرك، فضغطت بسيفي على رقبته. أمر الجنود بالإتيان بابن الحلواني.

قلت في قوة: اتركه يرحل مع ابنه.

فقال وهو يضغط على شفتيه في غيظ: ليس قبل أن أخبره بشوق زوجته وهي بين أحضاني..

طأطأ الحلواني رأسه، فقلت وأنا أنظر للجنود: عشقت ذراعيك لدرجة أنها قتلت نفسها لتتخلص منهما يا مسعود..

قال: كل ما تفعله هباء. أنا وأنت ننفذ أمر الخليفة. لا رحمة في قلوبنا، لا تزعم أنك أفضل مني، ولا أهل مصر يستحقون أي تضحية. ماذا فعلوا بك؟ هل تتذكر؟

لأصدقك القول لم أكن أفعل أي شيء من أجل أهل مصر ولا من أجل الحلواني، كنت أفعل كل هذا من أجل بضعة مني في قلبي تأمرني بهذا. لا أعرف ما الذي يدفعني، ولا ما الذي يعطيني الشجاعة.

أمسك الحلواني بطفله، وفتح الجنود الأبواب فقلت: سأعرف.. لو لم يخرج الحلواني من القاهرة فلن ينجو القائد!

انتظرت بعض الوقت. من يدري؟ ربما لحق به الجنود وقتلوه. وربما وربما.. ولكنني كنت مدلجًا يمشي في ظلام الليل، ويتمنى أن تضيء له النجوم.

قال مسعود في حسم: اتركني يا جبان، لو آذيتني أقطع أطرافك، وأربطك حول الجبل.

قلت في كره: فلتبارزني رجلًا لرجل..

- لن يحدث.

فقلت في سخرية: قائدكم لا يقوى على مبارزة جوهر! استمعوا يا جنود..

تحرك، ثم قال في غيظ وهو ينظر إلى الجنود في سخرية: أبارزك بالطبع.

رميت له سيفًا من جندي، وأمسكت بيده ليقوم، وصارعته بكل قوتي. كان عنيفًا مخضرمًا، وكنت مدفوعًا بقلبي الذي لا أفهمه. لهثت ولهث، أيقنت نهايتي فلو قتلته سيقتلني الجنود، ولو قتلني أموت بخزيي وعاري. ولكن مسعود لا بد أن يموت. وقد أعطيته الشرف أن يموت محاربًا. هذا لا يستحقه. اقترب الجنود، أشار إليهم بالتدخل، لم يبقَ لدي الكثير من الوقت، يبدو أنه عرف أنني سأتغلب عليه بين لحظة وأخرى، غرزت سيفي في أحشائه. تأكدت أنه سيموت. صاح بأعلى صوته. اقترب كل جنوده، ورفعوا سيوفهم وصوبوها ناحية جسدي.

رأيت ضوءًا من بعيد. أبي يبتسم لي، ويرفع سيفه الذهبي. ما أجمل ابتسامة أبي وحلمه وصبره عليَّ! تلاشى أبي. وبقيت أنا في هذا البلاء!

ولكن أحدهم صاح: اتركوه حتى يحكم الخليفة، ويبت في أمره.

ألقوا بي في سجن مظلم بعد أن خلفوني طريحًا من الضرب المبرح. ظننت أني لن أعيش للصباح. وفي الصباح وجدت طبيبًا يدخل علي يسألني إن كنت بخير، يضمد جراحي، ويرفق بي. قال في هدوء: أنت حر. الخليفة عفا عنك. يقول إن مسعود يستحق القتل.

بلعت ريقي، وقلت في صوت متقطع: لِمَ عفا عني؟

- الخليفة لا يُسأل عن أفعاله. وجد فيك الخير.

- يعرفني؟

- يعرفك. أنت جوهر بن الصقلي.

لم أكن متأكدًا لو كنت أحلم أم أنني مت وبعثت.

اختلطت علي كل الأمور. وبعد مرور شهر تحسنت حالتي، وأمرني الجنود بالخروج. خرجت من السجن وأنا أضرب كفًّا بكف وأردد: لا حول ولا قوة إلا بالله! لا حول ولا قوة إلا بالله!

هربت إلى البيت الخشبي على شاطئ البحر في الإسكندرية، عقلي كان مهووسًا بمصير الحلواني وسندس وأمي. ترى عندما اكتشف موت زوجته ماذا فعل؟ وهل اكتفى بولده؟ هل هدأت نفسه أم أقسم على قتلي؟ ألم أتسبب له في كل المصائب؟ ولكني كنت بلا إرادة، تحركني يد القُواد كالبيدق على رقعة الشطرنج أو هكذا أتمنى. نسيت أني حرقت دكانه عمدًا، وأن الكره له غمر قلبي في يوم ليس ببعيد. كانت لحظات قصيرة انتهت. ولكنني كنت قد خلعت على دنياه عباءة سوداء يختنق بداخلها ولا تزهق روحه.

دقت يدي الباب في وهن. كنت متعبًا من الحكام والقُواد، وتقلب العامة، وإزهاق الأرواح، وغربتي أمام زوجة لم أعشق غيرها. لا لجوء إليها اليوم، ولا قدرة على وجود مدخل إلى قلبها.

فتحت أمي، وضمتني في يأس وبكت. لمياء بكت. قالت إنني نعم الولد، وإنني ما تبقى لها في الدنيا. ثم التقت عيناي بعينيها، سندس بلا خمار، كانت تمسك بباب حجرتها في قوة. حدقت في وجهي كأنها تتأكد أنني حي. ثم بلعت ريقها، واقتربت في حذر، وطأطأت رأسها، ثم قالت: حمدًا لله أنك بخير.

كنت غاضبًا منها، ومن جفائها. قلت في اقتضاب: نعم بخير. أين الحلواني؟

نظرت إلي، وأُقسم إنني رأيتها تحتضنني بين عينيها، وإن الحب كان يفيض من جوانحها، ولكنها لم تتحرك.

عرفت أن روح الحلواني على وشك أن تُزهق. كان معزولًا في حجرة وحده، وأمي تضع الطعام أمام حجرته خوفًا من مرض مخيف كاد يودي بحياة ابنه الرضيع، ولكن الطفل شفي والأب لم يُشْفَ.

ورغم أني قتلت نفرًا من الناس منذ عدت أميرًا، إلا أنني لا أدري حقًا ما إن كان الخليفة قد أمرني بقتلهم أم أنه لا يعرف شيئًا عنهم؟

ولكن إصابة الحلواني مزقت قلبي كما لو كان كل إخوتي وأبي المذبوح. هويت إلى الأرض أمامه، وقلت في حماس: زوجتك.. أخلصت حد الموت، وعشقت روحك حد التفريط في روحها. وابنك بخير. وهي لا بد بخير، من المؤكد أنها بخير بعيدًا عن المؤامرات والدسائس وهبَّات العامة وتغيرات الحكام. لا جفاف يؤثر عليها اليوم ولا خوف يحكم جسدها. أتسمعني؟

رأيت عينيه تبحثان، ولم أكن أعرف عمَّ تبحثان. ولكنني خمنت. وجدت نفسي أبحث عن سندس، أناديها بأعلى صوتي. دخلتْ وهي ترتجف، نظرتْ إليه بلا كلمة، وبكت. قلت في قوة: سامحيه.

طأطأت رأسها، ولم تنطق. أمسكتُ بكتفها، وقلت: الرجل يموت! أي قلب لديك؟! من يقتل خطأ يدفع الدية، وأنت حية يا امرأة.. سامحيه..

همستْ في يقين: أشفق عليك يا حلواني.. أعرف عذاب الفقد ورهبة الفراق. ولكني لا أسامحك. أبدًا لا أسامحك. وأدعو الله أن يسامحك. فهو رحيم وأنا لست كذلك. الرحمة قليلة على الأرض، وطعم السكر يتلاشى أمام قُبح النفوس وفجورها.

نظرت إليها في خوف. ثباتها يجعل الجبال تهتز احترامًا، والأنهار تخر أمام قوتها. قلت في عتاب: سندس..

فقالت وهي تمسح الدموع الصامتة: سندس لا تكذب على نفسها أبدًا، ولا تنافق.

وكنت قد ادخرت حكايات وحكايات لأقصها على الحلواني. كنت أريد أن أسمع منه كيف راعى ابنه فأنقذ حياته ومات هو. وما رأيه في إخلاص زوجة لم يعطها من عمره إلا قطرات من الحنان، وأعطته كل عمرها. أردت الكلام معه، أردت أن أشكو من قوة سندس وهيبتها، كأن المعاناة أضفت على بقية عمرها وجَلَ الملائكة وثبات الجان أمام سليمان حتى وهو ميت. كنت أحيانًا أخاف من غضبها، فهي لا تصفو سريعًا، بل لا تصفو أبدًا.

قلت: مريم أحبتك. هذا انتصار. مسعود مات.

ابتسم لي، ومد أصابعه، ثم أمسك بيدي وهمس: وأنا أسامحك.. بل أكثر..

قلت في حيرة: أكثر؟

ثم أكملت وهو يغمض عينيه: تظن أنك تصادقني؟ ربما. تجد فيَّ بضعة منك.. يا حلواني، يا سلمندر، يا من أعيا الحكام والقواد.. إياك أن تموت الآن.. ليس قبل أن نتكلم.. يا حلواني..

خرجت من الحجرة، وقلبي ممتلئ بغضب من كل شيء. نظرت إليَّ سندس وهي تحمل الطفل بين يديها، ثم قالت: هل لي أن أتكلم معك يا أمير؟

نظرت إليها مليًّا، ثم دخلت الحجرة وهي ورائي، وضعت الطفل على مخدعها، ثم همست: سأراعيه. لو سمحت لي.

قلت في إحباط: هل هذا ما أردتِ؟

اقتربتْ بعض الشيء، ثم تسللتْ من ورائي، واحتضنت ظهري، وقبلت عنقي، وهمست في صوت ممتلئ بالأسى: لم يعد يجدي.. البعد لا يجدي.. والخوف لا يجدي.. لا بد أن أصوم وأصلي وأدعو بالمغفرة. فلم أراعِ قَسَمي.

أغمضت عيني، وكنت أفتقد رائحتها. لم أتحرك. فقالت وهي تمسح بوجهها عنقي: عندما وجدت العروس والحصان ووجدتك قد رحلت، كاد قلبي يركض وراءك من داخل جسدي.. أحبك حبًّا يجعلني أود المغامرة حتى بنفسي. كنت أظن أني لن أراك مرة أخرى، وأن..

التفتُّ إليها، وعانقتها في قوة حتى شَكَتْ أضلعها، ولم أتفوه بكلمة. كانت لي اليوم تعطي وتشتاق، وتشعر بوخز الولع وعذابات الوجد. تنهدت بعد وقت طويل وأنا أحتضنها، وأهمس: لكَم افتقدتك!..

فقالت: ليس بقدر ما افتقدتك.

- هل كان يلزم علي صنع العروس والحصان لترضي؟

- صنعتهما بقلبك يا أمير يا صقلي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 8 -

ما حدث بعد ذلك أتمنى أن أنساه أو أتذكره، لا أعرف. ولكنني أنا من عاش أبد الدهر يركب الخيل بالأسرج الذهبية أصبحت أمزج الطحين بالسكر، وأفرز حبات الفستق واللوز، وأقلد الحلواني. نعم. حدث كل هذا رغمًا عني. كنت أشعل الحطب، وأنتظر قدوم زوجتي بالشيرج.

أصبحت أعمل طوال اليوم حول الحطب، ثم عند غروب الشمس أنطلق حول البحر كالأسد الحبيس أزأر في عذاب، وأطوح سيفًا بيدي وألوم الأيام. كان سيفًا من الذهب الخالص أعطاه الحاكم بأمر الله لأبي حسين بن جوهر عندما أطلق عليه اسم قائد القُواد، وألبسه عباءة حمراء من الديباج، وعمامة زرقاء يحفها الذهب واللؤلؤ؛ هذا قبل أن يذبحه بعدة شهور. كنت أضحك على نفسي وأهلي وأنا أبحث عن فرس وسط الرمال ولا أجد. يا لهذا البحر! يجلس بين المدن التي تعج بالمعاناة ولكنه لا يخر ولا يحن. يذكرني بساحرة الهرم. يا بحنس! أين أنتِ اليوم؟ قلتِ لي أن أتبع الحلواني. واليوم لا أعرف لو كنت تعلمت منه صنع الحلوى أم جمال الحياة وحلاوة القلوب وبصيرة الحكماء. عجبت أن أتمسك بالحياة من أجل سندس، وأن أشفق عليها حد الحنو. كنت أتمنى ألا تكون رقة القلب وهفافة الأضلع دليلًا على كلفي بها. ولكنني كنت أنتظر الظلام لآخذها بين ذراعي كل يوم، وأحكي لها عن معاناتي، ودومًا تستمع في تركيز. ثم تربت على قلبي كأنها تسبر تلابيب روحي. لم أر في جمالها. أقسم.

تتغير أيام الديار المصرية بتغير شهور العام القبطي. كل يوم نحن في حال. نحن؟ نسيت أن أخبرك يا رفيق أنني نسيت في غمرة حربي مع نفسي، ثم حربي لأبقى حيًّا، ثم حربي لأنقذ من أحب ومن لا أحب أن أرحل خارج مصر. نعم نسيت. لا حبيب يمكن نسيانه حتى في ضرام تغير الأيام. يقول العرب: الحب للحبيب الأول. وأنا أقول الحب لدار حاولت فيها النسيان، وكنت أروم إلى الملذات فأيقظني عمق الجمال بداخلها. لا تسألني كيف؟ فأنا لا أعرف ولا أحلل أفعالي. أنا جندي ومهاجر كالصحابة من أرض لا أعرفها لأرض بالكاد أعرفها. خلاصة القول أنني آثرت البقاء حيث دفن أبي وجدي في مصر. كنت أحكي عن شهور العام، مر علي توت بحكمته وسط زوابع أمشير وبرد طوبة، ولم ألحق بالحصاد بعد فلا يمر علي برمودة بخيره حتى الآن. ولكنني مررت ببئونة، وهاجرت من الغرب إلى الشرق، وانتظرت الوادي وملكة النهر.

لم تزل زوجتي تعد الأيام بالقبطية، وتشير إلى الشهور بالقبطية، ولا تعرف عن هذه اللغة أكثر من هذا. ولكنني أعرف أن ساحرة الهرم معها سر اللغة والقدماء؛ لذا معرفتها غير معرفتنا.

الخليفة الحاكم بأمر الله يبحث عن جوهر، يريد أن يقطع يديه ولسانه. ولكنه سيعالجه ويهتم بأمره. ارتكب جرمًا لا يغتفر. هل رأى أحدكم جوهر بن حسين ابن جوهر الصقلي؟ أين أمه؟ أمر الخليفة بزواجها من قائده إكرامًا لزوجها الراحل. وعندما يقطع يدَيْ جوهر ولسانه سوف يلتحق بأمه لترعاه. يا أهل مصر.. من يجد جوهر فله مكافأة. كان يرافق حلوانيًّا.. أين الحلواني؟

ضحكت، لا تسأل لماذا. وعدت إلى سندس أسألها نحن في أي شهر في السنة. لم يعد هناك جوهر، لم يتبق إلا الحلواني. من مات كان التائه الطامع، من أراد أن يرافق القواد ويحيا في بذخ مدينة الخلفاء. مات ولم يُبعث. ترك روحه للحلواني الماجن الخاطئ. ماجن قابل ماجنًا ومخطئ قابل مخطئًا التحما

معًا. توارى واحد وبقي الثاني يطلب المغفرة. ويحيا بالعجين بعد أن ترك السيف، ويرفق بالحطب بعد أن حرق المدينة. قلت لسندس وأنا أنام بجانبها: ليس أمامنا سوى هذا.

هزت رأسها بالإيجاب.

فهمست: أتحبين الجندي أكثر من الحلواني؟

قالت في يقين: أحب الصقلي.

فقلت: ابن عبد الله الحلواني أمانة بين يدي.

- هو ابني أنا أيضًا.

- هذا ما توقعت منك.

بدت متوترة، ثم قالت في تلعثم: هو سُنِّي يا جوهر..

ابتسمت وقلت: هو سني وأنت سنية.

- هل يغضبك هذا يا صقلي؟

- لا. لا يغضبني. ما دمنا نعبد الإله نفسه، فلندع ما لا نتفق عليه جانبًا. التاريخ ممتلئ بالغدر. والغدر لا يفرق بين المذاهب والأديان.

مرت الشهور. ولم يجدني الخليفة. ولا وجد أمي. وجد زوجة أبي، وزوَّجها أحد قواده. نما الحلواني بداخل أحشائي كما ينمو الصبار بلا ماء ولا عناية. فوجدت نفسي أبرع في تزيين الحلوى والنظر إليها. سمعت أن الخليفة أصبح يختلي في الجبل ليخاطب الكواكب، وأنه خلع على نفسه صفة رجل العلم فأصبح يسير ووراءه غلام يحمل الدواة والسيف والورق في كيس معلق في كتفه. يقولون: اكتفى الخليفة من رفاهية الخلفاء، وأصبح يحيا كما الراهب. لا يقابل جيشه إلا في الأعياد. وفي يوم خرج من أبواب القاهرة، وتأملها على غير عادته ثم أطال نظره إلى مسجد أحمد بن طولون من أعلى الجبل، بنى الحاكم مسجده في القاهرة ليحاكي مسجد ابن طولون.. ولكن أهل مصر لم تزل تفضل مسجد ابن طولون. يقولون إنه أطال نظره إلى مسجد أحمد بن طولون ثم اختفى. قالوا: قُتل، وقالوا: آثر الزهد والعبادة فتملكته روح الصوفي كما تملكتني روح الحلواني. ولكنه انتهى كالشهر القبطي. وجاء الشهر الجديد. خرجت أمي فرحة تقول لي: لنا اليوم أن نعود إلى ديارنا وإلى القاهرة. مات الخليفة، وخلفه ابنه الظاهر لإعزاز دين الله. سمعت أن أخته قتلته، أو أحد القواد المغاربة يدعى سيف الدين حسين بن علي ابن دواس. لا أحد يعرف بالتفصيل.

قلت في حسم: هذا ماضٍ وانتهى. ولم أَزد. ولم تسأل.

في بداية شهر أبيب وجدوني..

التف الحراس حول دكان الحلوى، وطلبوا لقاء الحلواني. خرجت إليهم في فتور انتابني مؤخرًا من كل الحراس والحكام والحروب والصراعات. نظر إلي رجل بدا قائدًا من قواد المغرب أو من قبائل

كتامة ربما، اقترب مني ثم همس: أنت الحلواني؟

قلت في هدوء: أنا هو.

نظر إلى ذراعي وكتفي، ثم قال: هيئتك هيئة جندي، وليست هيئة حلواني.

ابتسمت وقلت: لا تنخدع بالمظاهر يا مولاي. تعلمنا من الخليفة أن من يبدو ورعًا هو الشيطان نفسه، ومن يرتدي ثوب الإثم ربما بقلبه بعض التقوى.

- هل تسخر من الخليفة؟

- لا أجرؤ.

بقيت ساكنًا، وتسللت سندس من ورائي، وأمسكت بيدي، واستنشقتُ رائحة الخوف في جسدها لأول مرة في حياتي. فابتسمت.. سندس التي لا تخاف ولا تهتز.. كنت أود أن أضحك، ولكنني عدلت عن هذا احترامًا للقائد.

حدَّج فيَّ ثم قال: جئتك برسالة يا جوهر، من سيف الدين حسين بن علي بن دواس. أعرف من تكون. وليس من العدل أن يصبح ابن قائد القواد حلوانيًّا، ولا أن تتلاشى سيرة من بنى القاهرة والجامع الأزهر.

لم أنطق. ضغطت سندس على ذراعي، فنظرت إليها، وقلت: اذهبي إلى حجرتك.

ولكنها لم تذهب. سمعت أنفاسها المتقطعة، وكانت على وشك الوضع، حاملًا في شهرها الأخير، ولم أدر هل شعر الطفل في أحشائها بما دار حينها أم لا.

قال الرجل: خرج الحاكم بأمر الله إلى الجبل ولم يعد. اليوم يعم العدل. فالخليفة الجديد يصحح أخطاء والده.. وهي كثيرة...

- لا أعرف شيئًا.

- عم الغلاء، ومات المصريون.

- أنا أصنع الحلوى..

- جدك مَنْ بنى مصر..

- كان يصنع الحلوى..

- جدك لم يكن يصنع الحلوى. أتهذي يا رجل؟ أقول لك: انتهى عهد الحاكم.. وجئت إليك اليوم لأطلب منك أن تفصح عن نسبك واسمك وتعود رافعًا الرأس إلى القاهرة، وهناك سيحتاجك سيف الدين حسين بن علي بن دواس. انتهى عهد الحاكم بأمر الله. لم يعد لديك ما تخاف منه، لا على نفسك ولا على أمك.

ساد الصمت هنيهة، ثم قلت في هدوء: عد إلى القائد، وأخبره أنك لم تجد سوى الحلواني.

- ما تفعله حماقة تكاد تصل إلى الجنون. أعرفك..

- هذه بلد الحلواني..

- يا صقلي..

- الصقلي حلواني يا قائد.. لا شأن له بالحكم والحكام.

- هذا زمن الاستقرار.. انس الماضي، الماضي كله أخطاء سيصححها الخليفة الجديد.

- لا استقرار مع الحكام، ولا عيش بدون الماضي. ولكنني أستطيع أن أوفر الحلوى للقائد، وللخليفة، ولكل أهل مصر.

ضرب القائد كفًّا بكف ثم قال: ستندم.

- هل تريد أن تتذوق زلابية الصقلي؟

- الجنون مرض تفشى في هذا البلد!

- المصريون ينتظرون ما لذ وطاب في الأعياد. لا تقطع هذه العادات.. عروس المولد والفارس على حصانه.. عادة ابتكرتها أنا.. الحلواني.

- فكر في الأمر.. أعرض عليك مجد أبويك..

- هو بين يدي..

- في الطحين والسكر يا رجل؟!

- في الطحين والسكر يا قائد..

نظر إلي في حسرة، ثم قال: أنت حفيد من بنى المدينة يا رجل! القاهرة العامرة..

قلت في يقين: كان في الأصل حلوانيًّا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2016 م - 1437 هـ:

وكنت قد قصدت عم عبده الحلواني قبل زفاف ابنتي بشهور. طلبت من الحلوى أصنافًا وأصنافًا بأسماء أجنبية، ولكن ابنتي صممت على أن يكون زفافها زفافًا تراثيًّا، وبحثت عن أنواع حلوى لا أعرف عنها شيئًا، تقول إنها من العهد الفاطمي. فأشفقت عليها من الجنون، وأشفقت على نفسي من الفضيحة، ولكنني وجدت نفسي أتجه إلى حلواني لديه حكاية أو أكثر لأفهم ما الذي يجذبها في الحلوى الشعبية، ثم حزنت ولم يكن الحزن في الحسبان. وعرفت ولم تكن المعرفة في الحسبان، وتراكم علي الشجن ولم أكن مِمَّن يذرف دمعًا. ربما أدركت ابنتي ما لم أدرك، وما أصعب على الآباء من أن يدرك الأبناء قبلهم!

قلت في عدم صبر: وماذا حدث للصقلي؟

فقال عم عبده الحلواني: يقولون إن من بنى مصر كان في الأصل حلوانيًّا، ولو سألت الناس ربما لا يعرفون أصل هذا الكلام، ولو كانوا يعرفون فسيقولون إن الحلواني هو الذي بنى مصر، وسيدعون أنه جوهر الصقلي الذي أنشأ القاهرة. يظن الناس خطأ أن جوهر الصقلي قبل أن يبني القاهرة كان حلوانيًّا، ترسخ في عقلهم حلوى بعينها، عروس مزدهرة، وفارس على حصان. ولكن جوهر الصقلي لم يكن حلوانيًّا، ولا كان والده حلوانيًّا، كان محاربًا، وخُطف من صقلية قبل أن يقرر مصيره. أتفهمين يا ابنتي.. لا بد أنك لا تفهمين.. من اخترع حلوى المولد، ومن استطاع أن ينتصر على الحزن بإبداعه وصناعته هو جوهر بن حسين ابن جوهر الصقلي، حفيد جوهر الصقلي. صنع الحلوى كما حكيت لك في عهد اختلطت فيه الأمور، وتفشى الفقد والحزن. راح العهد وولى، بقيت القاهرة وتهدمت حوائطها التي بناها جده، ولكن الحلوى بالسكر عاشت جيلًا وراء جيل، أعطت إحساسًا بالنصر وسط الهزائم والرضا وسط العجز. ما صنع الحلواني الذي كان في الأصل أميرًا وقائدًا؟ عاش وبقي، وبطش الحكام يزول اليوم أو غدًا، ويبقى السكر بطعمه الحلو ليذكرنا أن في هذا الكون ما يستحق البقاء حتى عندما ينتشر الظلم: وأن لحظات الانبهار في عيون الأطفال تستحق الصبر عامًا وراء عام. أتفهمين؟ لا بد أنك لا تفهمين.. من بنى مصر كان حلوانيًّا، ولكن مصر لم يبنها جوهر الصقلي بحوائطه التي تعزل العامة عن الفاطميين، مصر بناها صانع العروس والفارس. ربما تبقى بعض من السُّور الذي يفصل ويحمي، وما تبقى أيضًا هو طعم السكر في فمك، أم أنكِ لا تأكلين السكر؟ إياك أن تكوني كبنات اليوم يَخَفْنَ السكر أو يلهثن وراء الحلوى الغربية. من لم يكسر أسنانه وهو يقضم رأس الفرس لم يأكل حلوى.

أخفيت أسفي وقلة حيلتي، فقد سبر أغواري.

قال في يقين: تأتين غدًا وترين بعينيك الحصان الخشبي، ورثته عن جدي..

- أي جد؟

- لدي جد أرمني، وآخر صقلي والكثير من الأجداد المصريين. شيعي وسني ومسيحي و و.. لو كنت تحبين فطيرة الجبن الأمريكية فلا تأتي غدًا.

قلت في يقين: بل سآتي.. هل ستحكي لي عن صلاح الدين؟

- الصبر مفتاح الفرج. أولًا أحكي لكِ عن الأرمني.

الحكاية الثانية: الأرمنـــي

أراني وقومي فرقتنا مذاهبُ

وإن جمعتنا في الأصول المَنَاسبُ

غريب وأهلي حيث ما كانَ ناظري

وَحيدٌ وحولي من رجالي عَصائِبُ

لقد زِدتُ بالأيام والناسِ خبرةً

وَجَرَّبت حتى هذبتني التجاربُ

أبو فراس الحمداني

شاعر عباسي

2016 م - 1437 هـ:

قلت لعم عبده المجنون في عدم صبر: لقد وعدتني أن تريني الحصان الخشبي، وأن تحكي لي عن الأرمني، ولكنك تصنع أنواعًا من الحلوى لا أعرف شيئًا عنها، منذ سبعة أيام ولم تحكِ لي.

قال وهو يمزج الزعفران بالدقيق والسكر: كنت أتمنى أن تتعلمي، ولكنك لا تفتحين قلبك للبسندود ولا للزلابية.

تنهدتُ ثم قلتُ: إنها قطع حلوى لا أكثر.

فقال: ماذا قال الحلواني للصقلي يا سيدتي؟ هل تتذكرين؟ قال: «هذه الحلوى كالبشر تصنعها في ساعات طويلة ثم تأكلها في لحظات. كالبناء والهدم، تحتاج إلى أعوام لتبني الفارس، ثم تأتي الحرب وتقضي عليه في عشية وضحاها. ولكن لا تيئس، في ساعات الصنع كل المتعة، وعند الانتهاء من صنع الحلوى لا بد أن تأكلها، فلكل روح قدر ومقدار. أتعرف ما الذي يميز حلوى عبد الله الحلواني؟ أنه صنعها وهو يدرك معنى الروح التي تسكن كل الكائنات».

قلت مسرعة: هل تظن أن «عبد الله» الحلواني جدك؟

- هو جدي بلا ظنون. عندما تملكتني الظنون فقدت عقلي. في الحكي الشفاء، وفي سماعك للحكاية شفاؤك أنت أيضًا من داء الغفلة.

- احك لي عن الأرمني. وطمئنِّي على حال الصقلي.

فقال عم عبده: أما زلتِ تسألين عن حال الصقلي؟ يصنع الحلوى في الفسطاط لأهل القاهرة وكل مصر. أهم ما يميز حلوى الفاطميين المسك والزعفران والسكر الممزوج بالدقيق بعناية وزيت الشيرج. هذه حلوى لا تصلح سوى بالمزج بين كل المقادير.. كما مصر كلما أضفت إليها الغريب يمتزج داخل دقيقها ويعطي لحلواها طعمًا ولونًا بهيًّا. فهذا هو الصقلي كما زيت الشيرج يضيف الدسم، ويحث على النهم. ها هو يصنع من حصانه الخشبي الذي ورثه عن جده الصقلي حصانًا مصريًّا، وفارسًا لا يُقهر، وعروسًا كتماثيل القدماء بملامح القمر ونور الشمس. هنا يا ابنتي ترين الكمال في الصنع والعناءَ في العيش. هي بلاد غير البلاد.. تمزجين زيت الشيرج مع السكر والدقيق، ثم تضيفين الزعفران فيعطيها اللون الأصفر الزاهي، الأرمني كالزعفران جاء من بلاد بعيدة مثله مثل الصقلي، وامتزج في وعاء العمر، فصفت النفس، وتفتت القلب من هرولة الجسد ألف عام. الأرمني كالزعفران لا تصلح الحلوى دونه، وإن أكلتها بلا لون عرفت ما خسرت، وما لم تتذوقي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الباب الأول:

دمشق 1067 ميلاديًّا - 460 هجريًّا

أحيانًا يا صقلي يلقي القدر على عاتق العابرين حملًا ثقيلًا وبطولة كالتي تسمع عنها في الحكايات. لا تسأل القدر عن أفعاله، الله يعرف ما لا نعرف.

بحنس ساحرة الهرم

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 1 -

منذ استضافهم صاحب دمشق في قصره، والحياة ليست كالحياة. هذا قصر قليل الذهب، كله لون واحد بلا زخرفة ولا أروقة ولا أعمدة. أي والٍ يبقى في هذا المكان؟ تشتاق إلى الفسطاط وأيام الثراء والحلوى الممتلئة بالعسل وزيت السمسم والفستق واللوز معًا. وأكثر ما تشتاق إليه هو عروس المولد. غدًا المولد واليوم ستصنع عروستها بنفسها وحدها، وتزينها بالألوان وتضع عليها تاجًا من الأوراق الملونة.. ولَكم تفتقد الألوان! تلاشت كل الألوان منذ تركوا مصر. سهرت حتى الفجر تصنع عروستها كما علمها والدها وهي صغيرة. ثم امتصت بقية العجين من على أصابعها، وجلست تنظر إلى صنع يدها في فخر. سيحسدها كل الأقارب وكل أخواتها، وسوف يقولون «فرون» تصنع الحلوى وأهل مصر يموتون جوعًا. ها هو والدها قد هرب بأمواله إلى دمشق وترك خالها وبقية عائلته للأوبئة والجفاف وآكلي لحوم البشر. ازدادت الشدة وتأصلت حتى أصبح العيش رفاهية والموت لا مفر منه. ألم يكن الموت دومًا لا مفر منه؟ هو العيش الذي أصبح رفاهية بعد أن كان العمر محتملًا على مضض. ستخبئ عروستها من كل الناس، فلا أحد يجد السكر اليوم ولا الماء ولا حتى الألوان والأدوات. فرون دومًا حساسة وتخاف على مشاعر الجميع، خاصة إذا كانت قد سرقت السكر من مطبخ الأمير. ستفكر فيما سيقوله الأب والأخت والأخ والخال.. لَكم تشتاق إلى مصر ونيلها المبارك! ولَكم تخاف أن تعود، فلا هي تعرف مصر الآن، ولا هي تجرؤ على أن تواجه الحسرة والفقد والحزن. دومًا لا تجرؤ على مواجهة الحزن. وضعت عروستها بعيدًا عن القنديل، جو الشام البارد سيساعد على بقاء العروس أطول وقت ممكن. نامت ساعة أو ساعتين، ثم استيقظت على همس وضحكات.. نظرت حولها كمن تم القبض عليه في التو وهو على وشك القتل. وجدت العروس في يد أختها تدفع بها إلى أختها الثانية لتلقفها.. صرخت بأعلى صوتها، مدت يدها ترجو: أرجوك لا تكسريها.

فقالت الأخت وهي تقصد مضايقتها: ماذا بك يا فرون.. فرون الرقيقة، صاحبة القلب الطيب التي تفكر في كل أهلها، التي تكره الظلم والموت.. ولكنها تأكل الحلوى سرًّا وتلعب بها وتصنع العروس وقت الجفاف والشدة.

بقيت صامتة تستجمع شجاعتها، وطأطأت رأسها في خجل. فأكملت أختها: سأخبر والدك، وسأخبر كل البيت.. أنت طماعة، من أين أتيت بالسكر؟ سرقته؟ أهلك في مصر يموتون جوعًا.. فرون الطيبة الكريمة التي بكت عندما جئنا إلى هنا؛ لأنها ستترك أهل مصر في ضيق، تأكل الحلوى وتصنعها وقت الموت!

قالت مسرعة: لم أصنعها لنفسي.. لم أفعل.

فقالت أختها: تكذبين.. كنت ستأكلينها اليوم.. وحدك..

- أقسم إني لم أصنعها لنفسي..

تمتمت بالاستغفار، ولكن الله رحيم، أما أختاها الاثنتان اللتان تكبرانها بأعوام كثيرة فهما القسوة مجتمعة.

قلبت أختها العروس في يدها، ثم قالت: صنعتها لمن؟ من يستحق أن تصنعيها له؟

نظرت حولها تطلب الإغاثة من عقلها المرتبك.. أعادت أختها السؤال، ثم قالت هي مسرعة: صنعتها لوالي دمشق.. للأمير.. الذي استضافنا.. لا تحطميها.. أعطيها لأبي ليعطيها له.

خرجت ضحكة ساخرة من أختها، ثم قالت: والدك.. بالطبع والدك.. دومًا يفضلك علينا.. ستتفقين معه ثم تأكلين العروس وحدك.. لا نعرف الوالي، ولا رأينا وجهه طوال عمرنا.

استغفرت من جديد، ثم قالت: أقسم إني صنعتها من أجله.

صاحت أختها: أنت كاذبة. أنت المنافقة أخت الشيطان التي ستذهب إلى جهنم. تدعين البراءة وكلك شر. لو كنت صنعتها من أجل الأمير فاذهبي، وأعطيها له أمامنا الآن. ثم أقسمي إنك لم تذوقي السكر؟ أقسمي..

طبقت شفتيها، ثم قالت في ضيق: سأذهب، وأعطيها له.. تظنين أني أخاف! أنا لا أخاف..

- ولكنه لن يستقبلك يا مسكينة. أنت لا شيء.. أعطيني أنا العروس لكي أعطيها له.. أو أطلب من زوجي أن يعطيها له..

قالت فرون في تصميم: لا.. قلت إني صنعتها من أجله، وسأعطيها له.. هاتي العروس وإلا أخبرت أبي وأخبرت الوالي..

نظرت الأختان إليها في ذهول ثم قالتا: حسنًا.. فلتتحدينا يا فرون.. اذهبي إليه هيا، ونحن نتتبع خطاك.. ولو أكلتها في الطريق فانتظري الضرب كما كنا نفعل وأنت صغيرة. أتتذكرين؟

قالت وهي تداري خوفها: اخرجا حتى أرتدي ملابسي..

سارت فرون في الممر الطويل، وخلفها أختاها كما توقعت كأنها دخلت السجن بالفعل، وسوف تُقتل أو تُذبح. وقفت على باب الأمير تطلب من الحراس أن تلقاه لتعطيه هدية من عائلة الصقلي. من «علي» الحلواني والدها الذي استضافه الأمير هو وعائلته. «علي» والدها هو ابن عبد الله الحلواني الذي صادق جوهر بن حسين الصقلي وأنقذ حياته، فربى جوهر بن حسين ابنه «علي» ثم زوجه من ابنته عزيزة. عزيزة ابنة سندس وحفيدة جوهر الصقلي. لا بد أن الأمير يعرف هذا. اندهش الحارس، وطلب منها الانصراف، ولكنها أصرت أن تقابل الأمير بنفسها.

قالت أختها هامسة: أتعرفين! عندما يراك سيذبحك.. تزعجينه في يوم عمل لتعطيه عروسًا.. لو كنت أنا الأمير لسلخت جلدك.

كتمت الرعب الذي سيطر عليها، وانتظرت قدوم الحارس. أشار إليها بالدخول. احمرت وجنتاها، وارتعشت يداها حتى خافت أن تتحطم العروس حتى قبل أن تعطيها له. لا بد من اليأس، فلو عرفت أختاها أنها سرقت السكر أمس من بيت الأمير.. يا إلهي.. لو عرف الأمير.. أنها لصة لا أكثر.. وأنها في لحظة طائشة تمنت أن تعود الأيام الخوالي.. وأنها.. الآن أمام الأمير.. مدت يدها المرتجفة بالعروس.. ورفعت عينيها..

رفع حاجبًا ينتظر كلماتها.. تقسم الآن قسمًا ليس كاذبًا إنها لم تر في عمرها كله رجلًا أجمل من هذا الرجل، وجهه المربع، أنفه المدبب، فمه الصارم وعيناه.. عيناه بلون العسل، بحر من العسل، والعسل أنواع، تفضل دومًا عسل البرسيم الصافي كعينيه، غاصت فيهما قبل أن تتذكر لِمَ جاءت، وماذا تريد.. يبدو في الأربعين ربما أواخر الثلاثين..

قال وهو يقطب حاجبيه: هل جئت لتحملقي فيَّ يا جارية؟

مدت يدها ثم قالت وهي تلتف حولها لتتأكد أن أختيها لا تريانها، تلاشتا قبل أن تدخل.. بل بدا أن الكون كله تلاشى.. قالت: جئت لأعطيك هدية يا مولاي، لأشكرك على كرمك معنا.. أنا ابنة علي الصقلي الحلواني المصري يا مولاي.. جئت..

قبل أن تكمل، سقطت العروس من يدها، تناثرت أمام عينيها لقطع صغيرة في أرض القصر.. انحنت، وهي تقول في حسرة: اغفر لي.. كانت عروسًا للمولد.. جئت..

توقفت، أمسكت بقطعة منها، ودون أن تدري وضعتها داخل فمها ابتلعتها، ثم قامت ومسحت فمها وقالت: أنا مستعدة لعقابك يا مولاي.. جئت لك بهدية ثم..

أشار إليها بالجلوس، وهو يتفحصها كأنها فرس فقد وطنه وأهله اليوم، ثم قال: أنت ابنة «علي» زوج الصقلية من الفسطاط؟

- نعم..

- وما الذي صنعته لي؟

- عروسًا..

- أتصنعون الناس، ثم تأكلونهم في مصر؟

- من.. من الحلوى يا مولاي من الحلوى فقط..

- وقت الثراء من الحلوى، ووقت الفقر تأكلون الأموات والأحياء.. ما اسمك؟

- فرون.

- أي اسم هذا؟

تلعثمت وعيناها لا تتركان وجهه، ثم قالت: لا أدري.. كنت أصغر إخوتي وولدتني أمي وهي تضع الحلوى في الفرن، فأطلقت علي فرون..

- جمع فرن أفران.. لِمَ لم تطلق عليك أفران؟

ابتسمت في تلقائية، ثم قالت: لم تكن تفكر بوضوح وقتها. و..ستعرف لا بد أنك ستعرف.. سرقت السكر من مطبخك أمس.. وصنعت العروس.. لك.. صنعتها لك وليس لنفسي.. نفتقد الحلوى يا مولاي.. أنت تعرف منذ جئنا إلى دمشق، ووالدي يمنع عنا الحلوى تعاطفًا مع أهلنا في مصر و..

قال في عبوس: تتكلمين كثيرًا.. اخلعي خمارك..

خلعته بيد مرتجفة، وطأطأت رأسها، ثم قالت: لا تعذبني.. لا أطيق العذاب.. ولا تقطع يدي.. صنعتها من أجلك..

- هل لديك أي أوامر أخرى للوالي؟

هزت رأسها بالنفي.. نظرت إليه، وفتحت فمها في ريبة من قلبها الذي يخفق، ومن رموشها التي لا تتوقف عن الحركة، ومن الفزع الذي لا تعرف مصدره.

- أتحبين الحلوى يا فرون؟

قبل أن تجيب، أشار إلى الحرس، فجاءوا بطبق ممتلئ بلقيمات القاضي والكنافة الطازجة. رفع يده مرة أخرى ثم أمرهم بالانصراف جميعًا. ولم يبق في الحجرة غيره هو وهي. قال حينها: للضيف واجب الضيافة.. هيا كلي..

نظرت لصينية الحلوى بعينين مفتوحتين ولم تفكر، غرست يدها فيها، وتحركت يدها من الصينية إلى فمها دون توقف، ساعة ربما وهو يشاهدها في صمت. آخر مرة تذوقت الحلوى كان منذ ثلاثة أعوام وهي اليوم في الثامنة عشرة من عمرها، ثلاثة أعوام بلا ذرة من السكر.

أسند ذقنه بيده وهو ينظر إليها في صمت، وعندما انتهت انهمرت في البكاء، وهي تمتص السكر من أصابعها وتقول: سامحني يا أبي.. سامحوني يا أهلي في مصر.. أنا أعرف أني لا أستحق العيش.. أعرف.. يا مولاي...

قال في تهكم: نعم.. تكلمي يا فرون.. أريد أن أقضي ساعتين من وقتي أستمع لمأساتك مع السكر، وأترك الرعية والجيش بالخارج..

قالت في خجل: مولاي.. اعذرني.. نسيت من أكون.. و..

صمتت، فقال في حسم: هل اكتفيت من الحلوى؟

هزت رأسها في حماس.

فقال: أما أنا فلا أنسى حقي.. سرقت السكر، ثم ادعيت أنك صنعتِ من أجلي عروسًا لآكلها لأنكم في مصر تأكلون النساء كما يبدو.. لا أخذت العروس، ولا دفعتِ ثمن السكر.

- أنا طوع إرادتك يا مولاي..

قامت من مكانها، وهي تحاول أن تدير عينيها عن وجهه ولا تستطيع..

قال آمرًا: تذهبين اليوم إلى المطبخ، تصنعين عروسًا جديدة لي.. وسأنتظرك..

قالت مسرعة: متى..

- متى ماذا؟

- متى ستراني من جديد؟

- عندما تنتهين من العروس..

- اليوم.. أنتهي منها..

- اليوم لا أستطيع. ربما غدًا أو بعد غد.. ستعرفين..

- كيف سأعرف..

قال في عدم صبر: هيا يا ابنة «علي» الحلواني، اخرجي من أمامي.. أي جرأة لديك! هل كل بنات مصر مثلك؟

تمتمت: ولكن لم أر في جمالك طوال عمري..

كانت تقول الكلمات لنفسها قال: ماذا قلت؟

جرت إلى الباب وقالت: أطلب الصفح يا مولاي.. سأبدأ في صنع العروس.. لتأكلها..

للعشق أحوال وتقلبات وإحساس خفي بالذنب في حق النفس، فإعطاؤها هبة لنفس أخرى ليس بالأمر السهل. علم الله أن النفس لوامة، تظلم وتبطش، وليس مثل بطش العشق. غاصت برأسها في الوسادة وهي تراه، حولها في ضوء القمر، في حجر البيت القديم، في رائحة السكر المحروق والعسل المغلي، وفي مقلتيه يكمن كل العالم، كل ما لم تعرف وكل ما أرادت معرفته. لا استطاعت أن تستيقظ، ولا أرادت أن تواجه دنياها.

فرون، لم تتزوج مع أنها في الثامنة عشرة، في بلدها يأكل الناس أطفالهم، ويتصارعون على الجثث والحيوانات الميتة، في بلدها حروب ودمار وطاعون ووباء ينخر الأحياء، ثم يلتفت إلى الأموات فيمحو سيرتهم وتاريخهم. مصر.. لَكم تفتقدها! ولكنها تعرف أن العودة ربما مستحيلة. وها هي تحب.. وتختار ما لا تستطيع الوصول إليه فذراعاها قصيرتان وهو بدر في السماء، كم امرأة تتمناه؟ وكم زوجة لديه؟ رجل بهذا الحسن لا بد أنه أمات عشاقًا وقتل عذارى بنظراته. ها هي تتغزل في حسنه، مثلها مثل غيرها، أن تحبه أمر عادي، فلكم أحبته البنات! لو لم تحبه من أجل حسنه ستحبه من أجل صرامته وسيفه ومنصبه وهيبته. آه يا بدر.. على ما فعلته في قلبي. لو تعرف ما يجيش في صدري بعد لقاء واحد؟

نادتها زوجة أخيها حفصة ومربيتها على الدين والعلم. قالت في دهشة: لا قرأت اليوم القرآن، ولا ذهبت إلى الدرس، ما الذي حل بك يا فرون. أنسيت من تكونين؟

التفتت إلى حفصة، وقالت في خجل: أخاف من غضب الله.

- رحمته وسعت كل شيء. يتقبل المذنب والعاصي أنت تعرفين.

ارتجفت، وترقرقت الدموع في عينيها، ثم فتحت ذراعيها وقالت: حفصة، ضميني إليك..

ضمتها السيدة في قلق ثم قالت: ما الذي حل بك؟

قالت في رجاء: أخبريني أولًا، بصدق هل أنا جميلة؟

قالت وهي تنظر إليها: والله ما رأيت في جمالك في كل مصر والشام، لديك وجه كالملائكة، ولو لم تكن المجاعة لتزوجت قبل أن تتمي الثالثة عشرة. أمك سندس جدتنا جميعًا كانت بهذا الجمال قبل الحروق. لو رآك البحر لخفض أمواجه احترامًا لبهائك. منذ كنت طفلة وحسنك يبهر الناس.

وضعت يدها على قلبها، ثم قالت: هل العشق ذنب؟

- ربك رب قلوب يا ابنتي.. كنت دومًا كابنتي التي لم أنجبها. ليس في العشق ذنب.

- ولكنه لرجل مختلف.

- مختلف كيف؟

- أعتقد أني أحب بدر بن عبد الله الجمالي، صاحب هذا القصر.

تجمدت حفصة في مكانها، وابتعدت عن فرون ثم قالت: هل فقدت عقلك؟

- قلت إن القلب من صنع الله هو يعرف أنه لا حيلة لي فيمن أحب.

- ربما أعجبك حسنه. هذا ليس حبًّا.

- لقد أصبحت أتتبع خطواته، أخرج ليلًا، أنظر إلى القمر، وأتمنى أن يصبح بدرًا ليذكرني به، أتسلل من وراء الأشجار، ربما رأيت خياله في السَّحَر. وعندما أراه يا حفصة يختلج كل جسدي وتتفتح كل أضلعي..

- هذا أمر جم. ومصيبة علينا. جاهدي نفسك يا فرون. فلا أمل لك. الأمير بدر الجمالي ليس من مذهبنا، ولا يعرف شيئًا عن بلدنا. ولأصدقك القول رأيت حماي يتكلم عنه بسوء. لا يثق به.

- ولكنه أكرمنا، وفتح لنا بيته.

- في أمور الحكم الكثير من الجنون والأفعال اللامعقولة. الحكم كالسحر لا يمكن أن تتوقعيه، ولا تدركي خطورته.

- حفصة.. لم أتعذب هكذا منذ ولدت، ولم أشعر بهذه السعادة منذ ولدت.. لو حلمت به.. لو.. أتظنين أن أحلامي حرام؟

- تذكري.. كنت أعلمك الحديث والفقه لأنك طلبت مني هذا. أردت أن تُعلِّمي النساء، وترفعي من شأنهن. هذا أسمى من الحب، وأجلُّ وأبقى. اكتمي هذا العشق في قلبك فلا أمل فيه. لبدر الجمالي سبعون جارية يا فرون من كل لون وبلد وله بدل الولد ثلاثة. لن ينظر إليك أو يهتم بأمرك. أسمع عنه هنا أنه بلا رحمة ولا لين. يبطش بالعدو في ثوانٍ ويريق الدماء، انسي أمره. لو أردت الزواج ففي رجال الشام من يصلح لك. سأتكلم مع أخيك اليوم.

- أتوسل إليك ألا تفعلي، لا أريد الزواج. سأذهب إلى الدرس وأكتم الحب في صدري.

لا تتذكر فرون والدتها، ولكنها تعرف رائحة حفصة وحضن حفصة، عندما ماتت أمها عزيزة وهي في السادسة أخذتها حفصة إلى حجرتها وضمتها وقالت لها إنها ابنتها من اليوم. لم تنجب حفصة ولم يحاول أخوها الزواج من أخرى، خاف من الظلم. حفصة ابنة شيخ فقيه، تعرف الحديث وتحفظ كتاب الله، لن يجد امرأة في إخلاصها. حث «علي» ابنه على الزواج بأخرى فرفض، أما «علي» والد فرون فلم يتزوج بعد وفاة والدتها، وضع نصب عينيه مصانع جوهر من رباه، ودكاكين الحلوى التي عاهد جوهر أنها ستكون أهم عنده من أولاده، وسيبقي على سيرة الصقلي وتاريخ عائلته، سيحكي لأولاده عن جدهم جوهر الصقلي من بنى القاهرة وفتح مصر وبنى الأزهر. ثم سيحكي عن جوهر الحفيد ابن الشهيد حسين بن جوهر الصقلي الذي قُتل غدرًا. جوهر الذي صنع لزوجته عروسًا من الحلوى، وفارسًا على حصانه يرتدي السيف والعمامة، صنعهما لها ليخبرها أن الدنيا لم تزل بها بعض الحلاوة، وأن طعم السكر حتى ولو كان قليلًا في الفم يساعد على تحمل الألم والقُبح الذي يخرج دومًا من النفس وليس من الجسد. رحل «علي» ببناته وأزواجهن وابنته الصغيرة فرون فرارًا من موت محقق، ولكنه لم ينس العهد الذي أخذه على نفسه بأن يحافظ على صناعة الحلوى في مصر. كان «علي» يومًا صانع الحلوى للخليفة، ثم أصبح صانع الحلوى لابن حمدان وزير الخليفة، وعند استحكام الشدة نصحه ابن حمدان الوزير بالفرار بأمواله، ونصحه أيضًا بالبقاء في قصر صاحب دمشق بدر الجمالي. مع أن بدرًا الجمالي كان عدوًّا لابن حمدان، منذ زمن، والرجلان في تنافس وتسابق. لم يفهم «علي» في البداية لِمَ نصحه صديقه الوزير بالبقاء في بيت صاحب دمشق ولم يفهم لِمَ وافق صاحب دمشق على بقائه في بيته مع أنه يعرف صداقته لابن حمدان. «علي» حلواني لا يعرف عبث الحكام وجبروتهم. بعد حين عرف أن حمدان أراد عينًا داخل قصر بدر الجمالي، وبدر الجمالي أراد عينًا داخل بيته على ابن حمدان. وأصبح هو بين الرجلين الاثنين يراقبان حركاته في حذر. بدر الجمالي لم يقابله قط حتى بعد أن فتح له بيته. لم يقابل من بيت الحلواني سوى فرون.

من عظمة الله أنه يستمع دون لوم حتى وإن خرجت الكلمات كسكرات الموت خرقاء أو صادقة أو جارحة. همست له: يا رب.. هل حُبه عقاب لي على أني سرقت السكر؟ ولكن لِمَ تعاقبني عقابًا قاسيًا على فعل فعلته وقت غفلة؟ بل ربما هو عقاب من جنس العمل. سرقت السكر فضاع قلبي. ولكنه سامحني على سرقة السكر. ألن تسامحني أنت وتنزع حبه من قلبي. لِمَ عليّ أن أجاهد بقية عمري؟ أتفتن عبدة من عبادك لم تتمن غير الخير لمن حولها؟ لو كان فيه خير لي فاجعله يقترب مني ويغير مذهبه ويضحي بكل شيء من أجلي. اجعله يعرف قيمة العلم والعلماء، ويتقي الله في الرعية ويبتعد عن الحروب والمؤامرات. لا تجعله مثل أبي.. أنت تعرف يا ربي، أبي طامع في الدنيا لا يرى سوى مصانع الحلوى واسم عائلة الصقلي، لا ينظر إلى ما هو أهم وأبعد. هي دنيا قصيرة، والمال فتنة كالنسب والولد، ولكنه لا يعرف. لا تجعله مثله يا رب. غيِّره حتى أستطيع أن أتزوجه أو أبعده عني. لِمَ علي أن أقع في حب جندي كان مملوكًا أرمنيًّا، وأصبح أميرًا من أتباع الخليفة الإمام؟ من كل رجال الأرض لِمَ اخترت لي بدرًا الشيعي؟ ولِمَ جعلته بهذا الجمال.. عيناه، مقلتاه تحثان على الخطيئة.. أبعده عني يا رب.. لا مفر من الجهاد.

لقد أنقذتني يا رب، أعرف، كنت على شفا حفرة من النار فالتقطتني بعد وفاة أمي، لم تتركني، بل بعثت لي من السماء زوجة أخ مثل الأم، ابنة شيخ تقي تعرف الرحمة وتعمل بكتاب الله. بعثت لي أخًا بمثابة أب يرعاني كابنته التي لم ينجبها. أعرف أنك جعلتهما يضماني إلى كنفهما لتنقذني من أختيَّ

الكبيرتين اللتين لا تهتمان بي. أعطيتني أمًّا كحفصة، وخالاً حنونًا شجاعًا ابن جوهر الصقلي في الإسكندرية، يصنع الحلوى ويرعى أول دكان لجوهر. آه من أبي؛ أحبه وألومه. أحبه وأفهم أنه يهتم بنا، ولكني ألومه على الهروب، كنت أتمنى أن أموت في مصر حتى لو مت جوعًا. خالي أبو القاسم لم يهرب. أبي يقول إني ساذجة وخبرتي قليلة وعقلي ضعيف لا أعرف الجوع، ولا مررت بالضيق. يا رب.. أخاف أبي أحيانًا أكثر مما أخافك. أنت حبيبي وونسي، عقابك هين ومعرفتك عظيمة. أتدري ما بقلبي؟ هل أخجل من هذا الشوق الجديد أم أحتويه؟ وكيف أتوسد لهيبًا يكوي الجباه كالنار؟ ساعدني لأرى وأعرف. وسامحني لو قصرت أو اتبعت أهوائي.

صنعت العروس بشغف وإتقان في ثلاثة أيام، وطلبت أن تراه لتعطيها له، ولم تستطع أن تراه. أخبرها الحارس أنه مشغول وأنه هو سيعطيها له. رفضت وأصرت أن يخبره الحارس أن فرون تريد أن تعطيها له بنفسها كما وعدت. ذهب الحارس ثم عاد وقال إنه مشغول. جاءت بعد يوم، وحدث نفس الشيء. ثم يومين ثم ثلاثة. قالت للحارس في عدم صبر: لِمَ لم تخبره؟ من الأمانة أن تخبره.

قال في ضيق: بل أخبرته، وليس لديه وقت قلت لك.

مدت يدها في يأس بالعروس وأعطتها للحارس، وذهبت إلى حجرتها وهي تناجي ربها... هل أبعدته عني يا رب؟... بهذه السرعة؟... هل يمكن أن أراه مرة أو مرتين، ثم تبعده عني؟

كل يوم تتسلل ليلًا لتراه، يجلس في حديقة قصره وحده بعد منتصف الليل تختبئ وراء الشجرة، وما إن تراه حتى يشفى الفؤاد ويتحمل.

بدر بن عبد الله الجمالي، حكت لها حفصة زوجة أخيها وسرها ومربيتها كل شيء عنه. قالت إنه أرمني اشتراه جمال الدولة بن عمار وهو طفل صغير، يقولون إنه خُطف من تجار النخاسة في إحدى الغارات. رباه على الإسلام والجندية، فكان شجاعًا صادقًا، ولكنه قاسٍ حاسم، لا أحد يعرف ما يدور برأسه يا فرون. تزوج من سيدة اختارها له جمال الدولة وهو لم يتم الثامنة عشرة بعد أن أطلق سراحه وأصبح من أقرب الناس إليه. آمنة خاتون زوجته السابقة كانت ابنة أحد الجنود، دام زواجهما عشر سنوات أنجبت له ثلاثة أولاد وابنة ثم قررا الطلاق. هذا لا يحدث كثيرًا يا فرون، لا بد أنه رجل قاسٍ. الناس تقول إن علاقته بزوجته كانت فاترة باردة، لا أحبته ولا أحبها، ولكن هذا مألوف في وسطهم، الزواج دومًا زواج مصلحة، فلِمَ لم يتزوج غيرها ويبقها على ذمته؟ يقولون إنه نشأ في بيئة مختلفة في طفولته، ربما أثرت فيه، هناك يتزوج الرجل واحدة. ولكنه يدعي أنه صادق مع نفسه، ولا يريد أن يربط مصيرها بمصيره، تزوجت غيره ثم مات، فبقيت دون زواج، بيتها لا يبعد كثيرًا عن القصر. ولكن الصدق الذي يدعيه لم يمنعه من اقتناء الجواري الحسان، الواحدة تلو الأخرى يا فرون. والدك لا يحبه يا فرون. أنت تعرفين.. والدك حليف للوزير ابن حمدان وللشريف أبي طاهر، هما على مذهبنا يا فرون، يدعوان للخليفة العباسي وليس للإمام الفاطمي الذي أدى بنا إلى هذه الكارثة وترك الديار والأهل. والدك على حق.

قالت فرون في تحدٍّ: ولكنه يأكل من بيت بدر الجمالي، وينام في قصره.

- هذا مختلف يا ابنتي.. افهمي أنت صغيرة ولا تعرفين.. هل تلاحظين أن بدرًا لم يقابل والدك ولا مرة؟ دعاه إلى قصره عندما علم أنه حليف للوزير ابن حمدان ليراقبه، لأنه يعرف أن عائلة الصقلي من أهم عائلات مصر والفسطاط، ولو هاجر أهلها إلى الشام فلا بد أن يُبقي عليهم في بيته خوفًا لا إحسانًا. بدر يا فرون فقد منصبه في دمشق منذ عام أو أكثر، تكاثر عليه الأمراء لأنه قاسٍ كما قلت لك، يعاملهم بشدة لا تليق بأمير، لا يفهم طبيعة أهل الشام، ولا ميلهم إلى الحرية والاندفاع. هو غريب يا فرون، طبعه غريب لا أحد يفهمه. كما أن له بدل الولد ثلاثةُ يبقيهم حوله طوال الوقت. أتفهمين لِمَ يستحيل أن يكون هناك أي شيء بينكما؟ كل هذا يحول بينكما يا ابنتي.

- حفصة.. والدي.. ماذا ينوي..

- والدك يريد الإبقاء على بلاده، ومصانعه، واسم عائلته أهم عنده من كل الحكام.

- أعني لو كان حليفًا للشريف أبي طاهر والوزير ابن حمدان فهو ينوي إيذاء الأمير..

وضعت حفصة يدها على فم فرون، ثم قالت: إياك أن تنطقي بهذا أمام أحد. ثقي أن بدرًا يستطيع قتل أبيك اليوم بلا رحمة، ولا تحلمي يا ابنتي، لا تحلمي أن ينظر إليك لأنك عدو له وهو يعرف هذا. بدر هو من الرجال القلائل التي تبقي على إخلاصها للإمام والخليفة المستنصر بالشام، حتى في مصر قطعت الخطبة له في كثير من الأحيان، وأصبحت للخليفة العباسي. هو يراهن على الخاسر، ووالدك يراهن على الفائز، أتفهمين؟

- يا حفصة علمتني أن الحياة متاع الغرور، وأن الميسر حرام ورجس من الشيطان. فلِمَ يشغل أبي خاطره بمكسب أو هزيمة؟

- ربما كما تشغلين أنت خاطرك بعشق بائس، وتهملين دروسك.

- أقسم لك لم أهملها. حفظت الأحاديث العشرة. هل تريدين سماعها؟

ابتسمت ثم قالت: يا ابنتي، أنت بمثابة ابنتي تعرفين ذلك، أرى فيك عالمة تُدرِّس لغيرها، وتساعد النساء من حولها لا تُخيبي ظني. كيف هي صلاتك؟ هل تفكرين في غير الله.

بلعت ريقها، ثم قالت: أعرف أنه رحيم، وأحاول جهدي.

- النفس أمارة بالسوء.. احمي نفسك يا فرون.

تمنت فرون أن تتجرد، تمنت أن تكون بقوة حفصة ولم تستطع. فهي تعشق السكر وتُكثر منه لو استطاعت، والآن تعشق بدرًا الأرمني، وتتمنى لو غرقت في هواه حتى ينقضي الدهر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 2 -

لا أحد يعرف لو كان بدر الجمالي على دراية بما يحاك له من مؤامرات. طلب منه صديقه المقرب وكاتبه عبد الوهاب اللين مع الجنود، والجود في عطاياهم، فقد اعتادوا العطايا الوفيرة منذ حدوث المجاعة في مصر، ولكنه رفض. أحاط نفسه ببعض الجنود المخلصين ليحمي قصره هذه المرة من أي هجوم كما حدث من قبل. وهو يعرف أن علي بن الصقلي عدو كامن داخل القصر. كل يوم يفتش كل أغراضه بحثًا عن الرسائل، ويتجسس على أحاديثه، ولا يجد في نفسه الرغبة في لقائه.

تحالف ابن حمدان وأبو طاهر حيدرة وبعض قبائل عرب الشام وعلي الحلواني، وهدفهم القضاء على بدر الجمالي إما بالقتل أو بقطع الأطراف، وقطع الأطراف دومًا أقوى. لملم ابن حمدان كل ما تبقى في خزانة مصر أربعين ألف دينار، وبعث بها إلى أبي طاهر، وطلب منه شراء الرجال، فالحرب قادمة، وبدر لا بد أن يترك دمشق بلا رجعة.

علي بن الصقلي الحلواني كان صانع الحلوى للقصور والوزراء وللخليفة نفسه. كنافة الصقلي، وقطايف الصقلي، وعرائس الحلوى لا تضاهيها كنوز كل الفاطميين. سر الحلوى يذيب العقول أكثر من الخمر، ومعرفة المقادير تجعل صانعها أكبر متحكم في المصائر والأنفس. منذ بداية عهد عائلة الصقلي وشغفهم بالحلوى يجعلهم يتدخلون في حكم مصر ويصاهرون حكامها. و«علي» يطمع طوال عمره في البقاء سيد الحلوى في كل دول الإسلام. ثم جاءت الشدة وانتهى عهد الدقيق، أصبح يُباع برطل ذهب، ولهث الناس وراء فتات الخبز ونسوا طعم السكر. في بداية الأزمة هَرَّب كل أمواله وذهبه إلى الشام، ثم تقابل مع ابن حمدان في مصر وهو هارب من بطش بدر الجمالي. خططا معًا وقت يأس ورجاء. يومًا سيعود علي الحلواني إلى مصر، ويصنع الحلوى للملوك، ولكن عند عودته لن يكون الخليفة المستنصر هو الإمام. فمن يتأكد من نسب بني عبيد؟ لطالما شكك العباسيون في نسبهم، هكذا أقنع علي نفسه. عندما يعود علي الحلواني إلى مصر سيجد الشريف أبا طاهر حيدرة الإمام والخليفة، فنسبه موثق ومعروف، وأهل دمشق تلقبه بأمير المؤمنين، ولكم عانى من بطش بدر الجمالي وغيرته. هناك صفقات تغير المصائر لا تعقد إلا ليلًا ووقت الشدة.

أصبح هدف الحلواني مرتبطًا بهدف ابن حمدان ومعه الشريف أبو طاهر وهو التخلص من الخليفة ومعه رجله القوي بدر الجمالي. هذا ليس بالأمر السهل. بدر يبطش بلا رحمة، ويحيط مكاسبه كالعقرب قبل اللدغ. سيذهب الحلواني إلى قصر بدر الجمالي فهو لم يزل حلواني المستنصر وصديقه. وهناك سيبعث لابن حمدان في مصر ولأبي طاهر في دمشق عمَّا يحدث بين جدران القصر، وربما يحاول التقرب من بدر ومعرفة نواياه فلا أحد يتقرب من بدر، ولا أحد يفهم أطماعه وأغراضه.

لم تعرف فرون شيئًا عن أبيها، لا عرفت أنه جمع ماله وكنوزه وترك مصر قبل أن يعم الخراب، ولا هي تعرف أنه ينوي الغدر بالرجل الذي تحبه. لا تعرف فرون عن ابن حمدان سوى أنه سبب كل مصائب مصر، حاصر أهلها وفرض عليهم المكوس ليدفع لجنوده وحاشيته، اعتصرهم حتى بدأ يأكل بعضهم بعضًا، ويطلب بعضهم قدوم الوباء لينتهي نهاية طيبة، ولا يضطر إلى بيع ابنته في الأسواق في مقابل رغيف خبز واحد. لا، فرون لا تعرف الكثير.

سمعت عن الأهوال والجفاف وعرفت أن شربة الماء في مصر تساوي الدنيا وما فيها في هذه الأيام، وأن النساء ترمي بالحلي فلا قيمة لها أمام شربة الماء، وأن الرجال يبيعون الجثث القديمة في الأسواق كأنها عجل سمين. لا تعرف حجم الكارثة والأهوال التي يعانيها من بقي. ولكن «علي» في أمان، يخطط ليصبح الذراع اليمنى للخليفة الجديد ويطمع في ملك سليمان، ولكن في بلاد بها سبع سنين عجاف بلا حكمة يوسف ولا إدراك ملك مصر. قرأت فرون وعرفت ولم تفهم ما يدور حولها؛ ربما لقلة خبرتها أو نقاء نفسها. أما بدر الجمالي فقد عرف وأبصر، ثم ادعى الغفلة، وترك والدها يبعث بالرسائل بل بدأ يُملي على جنوده ما يقولون في حضرة علي. إذا أراد ابن حمدان اللعب فليبدأ اللعبة وينهيها بدر.. هكذا هي السلطة لعبة الطامع والخائف. وهكذا هي الدنيا دائرة في يد الطامع والخائف، هناك من يطمع في لطفه وستره ويخاف عذابه، وهناك من يطمع في مُلك يفنى وأرض فانية، ويخاف قوة ملك منافس سيبطش في أي لحظة.

جاءت فرون فأربكت اللعبة، بدر يعرف الصدق كما يعرف الكذب، والبنت تعشقه عشقًا مختلفًا. يا لقسوة الزمن على «علي» الحلواني! أن تعشق ابنته عدوه دون أن تدري. يبصر ويفهم ويرى عينيها اللتين تطاردانه حتى ولو لم يقابلها. لم يشك في نواياها هي بالذات. فقد تعلم منذ الصغر أن نظرات العينين تنفذ إلى الأعماق فتخرج ما بجوف الأرض. وعيناها صادقتان بريئتان كعيني الظبي المرتبك.

سمع جارية تشدو من حجرة ليست ببعيدة:

لا السيفُ يفعلُ بي ما أنتِ فاعلةٌ

ولا لقاءُ عدوِّي مثلُ لُقياكِ

لو باتَ سهمٌ من الأعداءِ في كَبدي

ما نالَ مِنِّيَ ما نالتْهُ عيناكِ

قال لفتاه: من يغني هذه الأبيات؟

- إحدى الجواري يا مولاي.

- ومن الشاعر؟

سكت الفتى في ارتباك. ثم قال: المتنبي، أحد شعراء بني عباس، كان شاعرًا في بلاط سيف الدولة في حلب في الماضي، مات منذ زمن.

قال في حسم: لا أريد أن أسمع شعره في قصري، اطلب منها التوقف. شاعر في بلاط سيف الدولة لا يمكن أن تستشهد بشعره في بيت مقدم جيوش الخليفة الإمام.

- أمرك يا مولاي.

ولكن الأبيات لم تترك أذنيه، يسمع صداها طوال ليلته.

في ضوء القمر رددت الشعر وحفظته:

ليالِيَّ بعد الظاعنين شكول

طِوالٌ وليلُ العاشقين طويلُ

يُبِنَّ ليَ البدرَ الذي لا أريدهُ

ويُخْفينَ بدرًا ما إليهِ سبيلُ

للشعر مفعول السحر ربما، فقد ظهر البدر حتى لو تاه السبيل إليه، ظهر ككل ليلة ينظر إلى النجوم لا تدري أيناجي الله أم يتمنى الوصول إلى علوها. أبداخله غرور البدر الذي يوقن أنه سيصبح قمرًا، أم بداخله زهد العابد الذي لا يناجي سوى ربه؟ كيف للمملوك الأرمني أن يسيطر على الليالي والأيام هكذا؟ أهذه سحابة الصبا التي تمر ببطء ولكنها تختفي؟ أم هذا يقين العاشق أن القلب قد وجد الملتقى والسكن؟ اليوم غير كل يوم سمعت صوته.. لم يزل ينظر إلى النجوم، ولكنه قال في صوت عالٍ مسموع: فرون... لِمَ لا تظهرين لي؟ هل ستختبئين وراء الأشجار إلى الأبد؟

شهقت، لم تكن تدرك هل طغى الخيال أم تقلب الواقع كالأيام. بقيت مكانها خائفة من أن تجري إلى حجرتها فيلحق بها، ولو ظهرت له يعرف كل شيء. بقيت بلا حراك حتى ولو كان قلبها يختلج، ووجنتاها بلون قرمزي.

نادى مرة أخرى. هذه المرة تأكدت أنه هو. لم يكن حلمًا، قال وهو ينظر تجاه الشجرة: هيا اخرجي..

أغمضت عينيها، وهي تحاول أن تفكر فيما ستقول الآن، ثم تحركت ببطء، وظهرت له.

قال: كيف حالك؟

تنهدت في ارتياح. خافت أن يسألها عن سبب وجودها، أو عن تتبعها لخطواته، ولكنه لم يفعل. قالت مسرعة: أنا بخير يا أمير.. أشكرك على كرمك معنا. أردت فقط يا مولاي أن أتأكد لو وصلتك العروس التي صنعتها من أجلك.

نظر إلى عينيها مباشرة، فأدارت عينيها في خجل، ثم قال: سؤالك هذا لأنك لا تثقين في رجالي أم لأنك أردت أن تعطيني العروس بنفسك؟ ربما أردت أن تشرحي لي شيئًا عنها لا أعرفه.. ربما أردت أن تخبريني لِمَ تضع يديها على خصرها في تحدٍّ، ولِمَ تتزين بالألوان.. أو ربما أردت أن تحذريني من أن أضعف أمامها فآكلها قبل الميعاد..

قالت بلا تفكير: مولاي.. تمهل فلا قدرة لي على أن أبرع في الحديث مثلك، ولا أن أجيب عن أسئلتك.

قال في صوت هادئ وعيناه لا تتركان عينيها: لن آكل العروس، اعذريني.. أشفق عليها من هذا المصير.

- أتعجب يا مولاي فأنت أمير ومحارب، ومع ذلك تشفق على عروس من الحلوى!

- أحارب وأقتل وقت القتال المعتدي والظالم، ولكن ماذا فعلت المسكينة سوى أنها وقعت بين يديك فشكلتها ثم أعطيتها قربانًا لأمير؟ كنتم تضحون بعذراء كل عام ليعتدل النهر ويعطي.. تُرى ألم يعط

النهر من أجل هذا؟

- مولاي يعرف الكثير عن مصر.

- زرتها منذ أعوام ولكني أقرأ عنها. بدأت أقرأ عنها منذ جاء الحلواني إلى بيتي.. أنت تتتبعين خطاي كل ليلة.. لو كنت بلا بصيرة كنت سأقول إن والدك طلب منك التجسس على الأمير لصالح الوزير ابن حمدان. ولكني أزعم أني أمتلك بعض المعرفة.

طأطأت رأسها، وهي تتمنى ألا يُكمل. ولكنه قال: أنت بريئة من تهمة التجسس يا فرون. ما للقلب خليفة ولا سلطان. أخافه لأنه بلا رادع ولا قائد ولا أستاذ. أتعرفين؟ تعلمت على يد أستاذي أن أحارب وأسيطر، ولكنه لم يخبرني شيئًا عن هوى النفس وطمعها. هذا تعلمته بعد حين..

قالت وهي تتمنى أن تغير الموضوع: مولاي حكيم، ويعرف كل شيء.

- ليس كل شيء.. بعض الأشياء فقط. أخبريني يا فرون هل أعجبتك الحلوى في بيتنا؟

صمتت.

فقال في تعجب: ألم تعجبك؟

- لا تعجبني الحلوى إلا لو صنعتها أمام عيني.... ولكنني افتقدتها.... مثل أن تأكل بعد سفر طويل، وأن تأكل على مهل فتفرز الطعام الحلو والرائع والسيئ.

- علاقتك بالحلوى غريبة.. كعلاقة المحب بالمحبوب.. ربما لأنك بنت الحلواني.

ثبتت نظرها على الأرض، ثم قالت فجأة: اعذرني يا مولاي فقد أخذت من وقتك الثمين. هل تسمح لي بالانصراف؟

قال: أسمح لك، على أن أراك غدًا؛ لتخبريني لِمَ تفضلين حلوى مصر مع أنك في الشام. لا حلوى تضاهي حلوى الشام، أم أنك تفضلين أكل العرائس فقط؟

كتمت ابتسامتها ورفرفة قلبها ولم تجب. فقال من جديد: ستأتين غدًا لتختبئي وراء الشجرة؟

ارتجفت، ثم قالت: مولاي، اسمح لي بالانصراف.

- لن أسمح لك.. أضعت وقتي، وانتهى الأمر.. أريد أن أعرف أكثر عن العروس وعنك.

- ولِمَ يهتم صاحب دمشق بابنة الحلواني؟

- ربما لأن العروس غير كل العرائس، لديها ألوان زاهية ونظرة متحدية وقلب صافٍ.. صفاء القلوب غريب عليَّ، أتعرفين؟ ... لا شر بداخله ولا حنق، ولا غيرة، ولا حسد.... ولا.... كأن قلبك يتدلى من خلف صدرك للمارِّين، للعامة وللرعاع وللقادة على حد السواء. لم أر أحدًا هكذا... كيف أصبحت هكذا؟

أغمضت عينيها لتمنعه من رؤية فرحة القلب بكلماته. لو كان هذا حلمًا فلا بد أن تبقيه في الذاكرة، وتلملم ألوانه في خبايا النفس وحشا الصدر.

قال في صوت هادئ: فرون..

- لا أعرف يا أمير.. أنت ترى ما لا نرى.. وتعرف ما لا نعرف.. ربما العروس من الحلوى كانت دومًا في خزانة لا تخرج منها فلا لوثها الهواء ولا لمستها الأيدي؛ لذا تبدو مختلفة. من يدري.. الصفاء لا بد أن يُختبر بتلوث المياه أولًا، والصدق لا بد أن يُختبر بتفشي المنافقين.. هذه أشياء صعبة المراس يا مولاي.

- تعرفين كيف تبادلينني الكلمة بالكلمة. تدرسين الفقه والحديث لتصبحي ماذا؟ كالشيوخ والدعاة؟

- أتمنى أن أفيد النساء من حولي. فكم يجهل البعض أساس الدين.

- وما أساس الدين يا فرون؟

- أساس الدين التقوى.

- وما التقوى؟

- كف النفس عن الهوى يا مولاي..

ابتسم حينها. كانت أول مرة تراه يبتسم. أذابت ابتسامته ما تبقى من إرادتها، فقالت مسرعة: هل تسمح لي بالرحيل؟

قال وكأنه لم يسمعها: التقوى صعبة يا فرون.. لا بد أن يصاحبها تواضع وبذل.

- معك حق يا مولاي.. تعرف عن الدين مثلي وأكثر.

- هل هذه الكلمات من تواضعك؟

قالت في صوت مبحوح وهي تهرول إلى حجرتها: لو سمح لي مولاي..

وجود السكر في قصر أمير دمشق أضفى على البيت الدفء، وعلى وجودها الغاية والسكون. دخلت مطبخ الأمير، وطلبت أن تصنع له حلوى وردية. لأوراق الورد ملمس مختلف وهي في قصره. هيبة الرجل ليست في الحاشية والقصر، ولا السيف الذي يحمله، والرداء اللامع المطرز، هيبته في عينيه، في نظراته الواثقة واطمئنانه لمكنونته وذاته. قطعت أوراق الورد بين أصابعها في بطء، ثم وضعت الورد في قدح ممتلئ بالماء، وأضافت له النشا، وتركته يغلي وهي تنتظر أن تضيف إليه المسك والشيرج في النهاية. عندما اتخذ اللون الأحمر الفاقع وضعت الشيرج، ثم جلست أمام القدح ليبرد، ويدها تسند خدها، وقلبها في مقلتي الأمير وشعره ولحيته المهندمة. لم تلتفت إلى دخول من سيطر على أيامها إلى المطبخ حتى سمعت تحرك كل الطهاة وانحناءهم أمامه، في ثوانٍ وقفت تنظر إليه دون أن تلاحظ أو تدرك ما تفعله كأنها تحت تأثير سحر أو جان. بادلها النظرات ثم قال: ماذا تصنعين؟

أبقى كل الحضور رءوسهم منحنية، فقالت هي: حلوى الورد. أتمنى أن تتذوقها يا مولاي.

قال وهو ينظر إليها: عندما تنتهين من صنعها.. أريد أن أشهد على صنع ابنة الحلواني.. هيا أكملي..

أمسكت بالقدح بيد مرتعشة. تلتهب وجنتاها وترتجف يداها وتزداد دقات القلب وهو معها.

بعد هنيهة رفع يده حتى ينصرف كل الحضور. فانصرفوا في دقائق. وهي تمسك بزيت الشيرج، وتضعه داخل القدح مرة أخرى.

قال مسرعًا: وضعت الشيرج يا فرون لم يتبق إلا المسك. تحتاجين أوقيتين من المسك.

ثم اقترب وأمسك بالمسك بين راحتيه، وألقى به على الحلوى في بطء، ثم قال: من تصنع الحلوى تتذكر الصفة ولا تضع مقدارين من أي شيء. تحتاج الحلوى إلى الإتقان كالحكم.

قالت وهي تتحاشى عينيه: مولاي يعرف حلوى الورد ويعرف مقدار المسك بالتفصيل.

ابتسم ثم قال: مولاك يحفظ مقدار كل شيء. ليس لمثلي أن يضع المقدار مقدارين، يفقد رأسه حينها يا فرون.

أمسك بالقدح ووضعه أمامها ثم قال في رقة: أنت تجربين أولًا..

قالت: فرون لا يمكن أن تؤذي الأمير. لو كنت تشك فيَّ يا مولاي..

ابتسم ثم قال: ولم لا أشك بك يا بنة الحلواني؟

وضعت الحلوى في فمها، ثم قالت متلعثمة: ليتني بإتقان مولاي وقدرته على الحساب والتذكر.

- لا تحتاجين يا فرون. القدرة لمن لا ملجأ عنده سواها.

انحنى ثم غمر كفيها بكفيه، وهو يأخذ منها القدح فكاد يقع من يدها لولا أنه أمسك به وقال في رقة: اتركي القدح، وانظري إليَّ.

بلعت ريقها، ونزعت كفها من على القدح، ثم نظرت إلى عينيه بلا كلمة. ساد صمت متوتر ممتلئ بمشاعر يصعب وصفها، فقال فجأة: ماذا تريد ابنة الحلواني من صاحب دمشق؟

فاجأها سؤاله المباشر ولم تعرف كيف تجيب. بقيت صامتة ثم قالت: اعذرني أزعجتك وأخذت من وقتك.

قال وهو يتذوق الحلوى: لِمَ لم تتزوجي حتى الآن يا فرون؟ بنت في جمالك لا بد أن طلبها الكثير من الرجال للزواج.

طأطأت رأسها والارتباك يأكل الفؤاد وقالت: المجاعة والجفاف جعلا والدي يخاف أن أتزوج في مصر.

- أو ربما والدك يريد أن يزوجك رجلًا لا يعمل حلوانيًّا. علي الحلواني يهتم بالحكم. ولكن مصير البنت التي يتطلع والدها للسلطة مصير مظلم وكئيب.

نظرت إليه وتلاقت أعينهما ولم تعرف ما يقصد، ولكنها كانت أسعد إنسان في الوجود. اعتصرت عقلها لتقول شيئًا مفيدًا ثم قالت: مولاي.. يمكنني أن أعلِّم إحدى جواريك كيف تصنع الحلوى أو أُعلِّم زوجتك. يكون لي الشرف لو علمت زوجتك أو ابنتك..

ابتسم ثم قال: ابنتي لا تحب الحلوى، ولا زوجة لي.. ولكني سأفكر.

- تفكر في ماذا؟

- في أمر الجواري. سأختار لك جارية أو اثنتين تعلمينهما الحلوى.

عبس وجهها ثم قالت: أنا رهن أوامرك يا مولاي.

اقترب بوجهه منها ثم قال: أنت جريئة يا فرون.

- يسبق قلبي عقلي أحيانًا.

- ولكنك تجيدين صنع الحلوى حتى وإن نسيت المقادير. اعتني بنفسك. هذا عصر القسوة والأنانية.

- سأفعل يا مولاي.

مد يده فترددت فقال: أترفضين يد الأمير.

أمسكت بيده مسرعة وانحنت، وقربتها من فمها وقبلتها وهي تقول: فليحفظ الله أمير دمشق.

لم ينزع يده من يدها، تركتها هي في بطء، فنظر إلى حيث قبلتها برهة، ثم قال: تكلمنا كثيرًا ولم تخبريني بما تريدين. تتبعين خطواتي وتسهرين ليلًا تتحدثين مع كل الكواكب، ثم تصنعين الحلوى في قصري. تُرى ماذا تريدين؟

قالت: لو كان وجودي يضايق مولاي..

قاطعها: وجودك أجمل ما حدث في هذا القصر منذ زمن.

نظرت إليه في ارتباك وهي تحاول أن تجمع كلماته في مكان آمن داخل القلب، ثم قالت: مولاي هل قلت منذ برهة إني جميلة؟

قال في تأكيد وهو ينظر إلى عينيها: نعم قلت إنك جميلة.

قالت: ثم قلت إنك تحب وجودي في القصر؟

- هل ستعيدين عليَّ كل كلماتي، لو عملت كاتبًا لصاحب دمشق ستتقنين عملك بالتأكيد.

- هي فقط كلمات لم أتوقعها.

ابتسم مرة أخرى ثم قال: أجمل ما في الدنيا هو ما تجلبه إلينا دون أن ننتظره أو نتوقعه. سأراك غدًا يا فرون يا جميلة..

أصبح لليل لون أبيض يسطع فيفيق، ويلمع فيغوي بريقه صاحب الدرب وسلطان البلاد. تنتظر الليل حتى يظهر البدر ويطفئ بعض نار الشوق. لا يظهر كل يوم. ولكنه عندما يظهر يضمر القبح والجفاف وحروب الأمراء وعفن الجثث المأكولة ورائحة القمح الممزوج بالموت. كيف لرجل أن يكون بهذا البهاء وهذه البراءة وهو قائد جيوش وصاحب ولاية. رأت فيه صدقًا كما رأى فيها الصدق، ولو كان رأى عفوية وجمالًا فقد رأت قوة وعدلًا وقدرة على التحمل وانتصارًا وقت الشدائد.

قال يومًا وهو ينظر إلى الأفق: تكلمي معي عن مصر يا فرون..

اغتمت وتلاشت الابتسامة، ثم قالت: هناك مِصران؛ مصر التي رأيتها في طفولتي ببهاء العروس وألوان التاج الضخم الذي يزين رأسها، ومصر التي تركتها ولا أعرفها يا مولاي. أمراء وجيش يتناحر ويتقاتل حتى محا كل ما وجد وسط الدمار، وجفاف ووباء، ونفوس كلها شر وكره. رأيت بلادًا في شدة، ووقت الشدة لا يخرج أفضل ما في البشر بل هيهات، أتمنى أن لا أرى مصر مرة ثانية لو كنت سأشهد على كل هذا الدمار. فلتبقَ مصر في قلبي عروسًا من الحلوى أفضل من أن أرى سواد العفن يحفر وجهها كالصراصير والجراد. آه يا مولاي! لِمَ ذكرتني؟ لو وجد الأمراء من يؤلف بين قلوبهم ربما اهتموا بما هو أهم من القتال.. جنود ترك تقتل جنود العبيد، وجنود المغاربة تقتل الجنود الترك والمصريين.. لم أعد أعرفهم، يتقاتلون على الذهب والقمح بلا رحمة. يا مولاي..

قال وهو ينظر إليها: فلنكف عن الكلام الذي يبعث بالحزن إلى قلبك. لقد اعتدت وجودك هنا يا ابنة الحلواني.. ترى هل لو تزوجتك أقضي عليك وعلى سعادتك؟

فتحت عينيها وقلبها يخفق بغناء كله فرح ولم تنطق. أمسك بيدها بين يديه. نظرت إلى عينيه اللتين تعشقهما وهي لا تستطيع النطق. قال في رقة وهو يضع يده على العمامة المطرزة التي ترتديها ويزيحها: أريد أن أرى شعرك..

أزاح العمامة وهي واقفة عاجزة عن التحرك، ثم مر بأصابعه على شعرها المموج وقال: ترى هل ترينني كافرًا أم مدعيًا في مذهبك؟

قالت مسرعة: أعوذ بالله أن أقول هذا يا مولاي.. أنت مسلم مثلي.

ابتسم ثم أمسك بيدها مرة أخرى، وقربها إليه فترجرج الوجدان حتى ظنت أن رياح الشمال قد أتت بالبَرَدِ والثلوج، خلع عباءته ووضعها على ظهرها.

بقيت صامدة تستجمع شجاعتها، فوضع كفه على خدها ثم قال: أنت صغيرة ولكنك عنيدة... أتحبين الأمير صاحب القصر؟ أم الجندي صاحب السيف؟ الحب دومًا كالسحاب يمر في بطء ثم يختفي.

ارتبكت ثم أزاحت يده في بطء، وقالت: بل الحب كالبدر لا يلبث أن يختفي إلا ليظهر وينمو.

اقترب منها أكثر حتى شعرت بأنفاسه على شفتيها، وأغمضت عينيها في خوف وارتجفت، ثم قالت: لو سمح لي مولاي أن أذهب إلى حجرتي..

همس وهو يشدها إليه ويضع رأسها على صدره: تعرفين عن الحب أكثر مني يا بنة الحلواني.

طوق خصرها ولكنه لم يقربها منه، ولا نسي لحظة أنه الأمير. قبل رأسها في رقة، ثم قال: اعتدت أن أراك كل ليلة وعندما أراك أنسى الهم والفتن والقتال. كيف تفعلين هذا يا تُرى؟

لم تكن تعرف كيف تجيب ولا هل تجيب. كانت تائهة في نشوى ويقين. يقين أن ما تشعر به لم يكن وهمًا، وأنه يعرف ويبصر.. وأن الأمير ربما.. ربما فقط ينظر إلى ابنة الحلواني. هذا عصر المعجزات، فلو أصبحت مصر التي كانت جنة بين ضفاف النيل المبارك قطعة حلوى عفنة، لو حدث هذا فربما أراد الله أن يجبر المصرية أيضًا مرة.. ربما، ويعوضها عن فقدان الأهل والوطن. أرادت أن تجري، أن تحوم في شوارع دمشق تُقبِّل كل المارة، وتحتضن كل مريض ومسكين، فقد اعتدلت الأيام وصدق القلب. ابتعدت عنه في خجل، واستندت إلى سور القصر حتى لا تقع، ثم قالت: اعذرني يا مولاي..

قال وهو ينظر إلى عينيها: تُرى أتحبينني يا فرون؟ ألهذا تتبعين خطواتي؟

اشتعل خدها نارًا من الخجل ولم تنطق. فقال في حسم: أجيبي عندما يسألك الأمير يا فرون.

بلعت ريقها، ثم قالت في صوت مبحوح: جدتي سندس تقول: الحب هو شعور بالطمأنينة والراحة، كأنك تناجي روحك بلا حواجز ولا غدر.

ردد وهو يمسك بيدها: بلا حواجز ولا غدر.. جدتك لا تعرف الكثير عن دنيانا يا فرون. فكل الدنيا قلاع شيدت كحواجز من الغدر. لم تخبرك أن تشيدي القلاع حول قلبك حتى تحمي نفسك من الغدر.

قالت وآلام الحب ممتزجة بسعادة مخيفة بل مرعبة: أحبك. وأعرف أنني قضيت على نفسي بهذا الحب.

ضغط على يدها، ثم قال: ولِمَ تقضين على نفسك في حب رجل مثلي؟

- لا أستطيع أن أصل إليك.

- لو حملتك تكونين أكثر مني طولًا.

- لديك كل بنات الأرض ولي قلب واحد.

- كل البشر لديهم قلب واحد حتى لو امتلكوا كل الأرض. زواجنا لن يكون بالأمر الهين. لو ظننت أنه سهل فقد أخطأت... الفتن تحاك، والاختلاف هو وسيلة للهدم.

قالت في شجن: لقد استخرت الله مرة ومرات. طلبت منه الطريق، وأعرف أن الحب شعور من مشاعر الجنة.

- ونحن لسنا في الجنة. ولكننا نحاول أن نحمي أنفسنا من الغدر.

ليلًا استنشقت الرداء في شوق ثم عانقته، همت بأن تضعه على مخدعها ليلًا وتنام وهي تعتصره، ولكنها عدلت عن هذا ربما يكون في هذا ذنب. قبلته في وجل وخبأته عن الناظرين.

أفضت لحفصة بسرها وبكل ما حدث بينها وبين بدر ما عدا حضنه وقبلته على جبينها.

قالت حفصة في رفق: لِمَ تلقين بنفسك إلى التهلكة؟ لو تزوجت رجلًا مثل أخيك تكونين أنت فقط المسيطرة على قلبه. تريدين أن تصبحي واحدة من نساء الأمير يا فرون؟ تعرفين أن الأمراء لا يكتفون بواحدة أبدًا. غدًا يقضي لياليه مع الجواري ويتزوج غيرك وتبقين وحيدة في غرفتك تنتظرين أن ينظر إليك أو يتذكرك. ثم إن لديه أربعة أولاد.. بالطبع يسيطرون على قلبه. سمعت أن ابنه الأكبر شعبان الذي أنجبه وهو لم يتم العشرين هو كل حياته. من ستكونين أنت يا بنة الحلواني أمام شعبان ابن الأمير؟ ومن أدراك أنه لن يحن لزوجة من أصله؟ ثم تذكري يا بنتي أنه ليس مثلنا، اعتاد الحروب وترك الأهل والوطن. لا أمان لمثله. افهمي يا فرون أن القلب يضل كثيرًا. ثم فكري لِمَ يُبقي آمنة خاتون زوجته السابقة في بيت بجانب بيته؟ هل تظنين أنه يفعل هذا فقط من أجل أولاده أم من أجل حنان لحب قديم؟ هذه مغامرة وقضاء على قلبك يا ابنتي. لو كان في يدك أن تتزوجي رجلًا يخلص لك وحدك لِمَ تختارين من يملك الجواري؟

بقيت صامتة. فقالت حفصة: هل سيستغني عن كل جواريه من أجلك؟ هل طلبت منه هذا؟

- لا.

- تقبلين أن تبقي في الحرم حتى يتذكر وجودك يومًا.. ربما؟

بقيت صامتة.

فقالت حفصة: ما لنا والأمراء؟! أنت ابنتي، وأنا لا أرضى لك بهذا. وماذا لو سئم عشرتك بعد حين؟ هل فكرت في هذا؟ بعد عام أو عشرين سيجد من تصغرك وسيقع في الحب مرة أخرى. أنت بريئة لا خبرة لك وهو محارب عاشر المئات ويعرف عن النساء ما لا تعرفين. يا فرون، لا تمدي عينيك إلى أطراف النهر فتغرقي. لو كنت تحبين قوة الأمير وجاهه فسوف تشقين.

- أقسم لك إني أحبه هو.

- هذا وهم سيطر عليك. أفيقي يا بنتي قبل أن تموتي بحسرتك. أنا لا أقبل هذه الزيجة. لا أثق في بدر الجمالي.

قالت في حسم: وأنا لا أريد غير بدر الجمالي.

بدر بن عبد الله.. عندما حملوه خارج بلاده لم يتذمر ولا بكى كبقية الأطفال. كان في الحادية عشرة حينها، ثبت عينيه على الجبال المغطاة بالثلج الأبيض لعله لن يراها مرة أخرى، وأبقى داخل الذاكرة على من تبقَّى من عائلته في هذه الغارة. يتذكر.. يلعب بسيف من الخشب مع أخته الصغيرة في فناء ضيق ويسمع صرخات أمه فيسقط السيف من يده، ويهرول داخل البيت ليجدها ملقاة على الأرض بلا حراك. كيف ماتت بهذه السرعة؟! رأى عينيها المغمضتين والدماء تتناثر حول وجهها، ثم سمع صرخات أخته والرجل يحملها إلى خارج البيت، مد يده إليها ولكن نغزه سيف من حديد وليس من خشب في بطنه ولم يُجرح، أنذر فقط بما هو قادم. تلاشت من أمامه. كان هذا أول لقاء له مع العجز وأقسم أن يكون آخر لقاء. لم يتملكه الحزن، بل سيطر الغضب، ولم يحنق على القاتل بقدر ما حنق على والده الذي تركهم منذ أعوام. ما تبقى من بلاده هو الجبال والخبز الذي تدفنه أمه داخل الأرض كالساحرات فيخرج كورقة رقيقة مشتعلة ممتلئة بالدخان. أحيانًا يفتقد الخبز ويطلب من الجواري أن

يخبزنه، ولكنه أبدًا لا يكون مثل خبز الجبال، لا هو بنفس الرقة ولا الجواري ساحرات كأمه. أحيانًا عندما يحترق القلب يلبد الألم ويتأقلم فلا يعترض ولا يستغيث. كان كمن فقد ذراعه، لا يبكي لأنه لا يشعر بها. عام وراء عام يُقسم أن يجد أخته وينقذها.. عندما تدرب على السلاح، ثم عندما أعتقه سيده، ثم عندما حكم وأمر.. يبحث عنها.. عن كل ما تبقى من ماضيه وعجزه. بعث الجنود حول الأرض هباء. هي أقدار لا مفر منها. تُرى أتخدم أميرًا أم رجلًا فقيرًا؟ أتعمل في بيت بغاء أم تغني في الحانات؟ أبقى على العجز أمامه ثم نحته كأحرف الكتابة بالخط الكوفي حتى يتذكر. بدر أبدًا لن يعجز مرة أخرى. نعم.. عندما اشتراه جمال الدولة بن عمار كان يفكر في سوسي أخته، سينقذها كالفرسان، ثم يبقيها سيدة في قصره تحكم وتنهى. ألم يتمنَّ منذ الصغر أن يكون جنديًّا، ينفذ ما يطلب منه جمال الدولة أستاذه بحرفية وإتقان حتى لو قضى أيامًا في تدريبات شاقة أو عمل مستمر؟ قال له رفيقه يومًا وهو ينظر للجندي الذي يدربهم: يومًا سأصبح مثل الجندي. فأجاب بدر: ويومًا سأصبح مثل صاحب طرابلس. نظر إليه رفيقه في فزع وجرى على جمال الدولة يشكو بدرًا ويشي به. جاء جمال الدولة ببدر فطأطأ الولد رأسه ولم ينطق. قال جمال الدولة: تريد أن تصبح مثلي يا بدر، مع أنك اليوم مملوك لا أكثر.. كيف هذا؟!

- مولاي ليس للأحلام غطاء ولا حدود. هو شخص عزيز علي، أقسمت أن أنقذه من الوهن. ولا بد أن أملك القدرة لأنقذه.

- ومن هذا الشخص؟

- أخت لي.

قال أستاذه في حسم: بدر، لا ترهق عقلك في أحلام مستحيلة. أختك لن تجدها. وتذكر أن المصائر ليست أبدًا آمنة. ما حدث لأختك من الممكن أن يحدث لأختي لو هزمني العباسيون، هي دنيا تتأرجح بين فوز وخسارة. ومن يخسر يدفع الثمن، ومن يفز يجمع كل الغنائم. ثم تدور الأيام وتنقلب النهايات. أتفهم؟ والآن فكر في أن النساء من حولك زينة من زينة الدنيا، راحة من بعد تعب، غنيمة. لا تضع عمرك بين راحتي امرأة فينسكب من بين أصابعها كالمياه من بين أصابع الصياد. أصبحت في السابعة عشرة لا بد أنك تشتاق لجارية حسناء. مَنْ مِن الجواري تريد؟

بقي ساكنًا فقال جمال الدولة: أختار أنا لك صاحبة صوت عذب وأهديها لك يا بدر. ولكن كيف أهدي لك جارية وأنت عبد؟ أولًا أطلق سراحك، ثم أهديها لك.

ابتسم في ارتياح وهو ينتظر هذا اليوم منذ أصبح من مماليك جمال الدولة، ثم قال: أنت مولاي حتى لو أطلقت سراحي. أضحي من أجلك بكل عمري.

- لم أكن لأطلق سراحك لولا معرفتي بإخلاصك وطموحك. الأخطار تحيط ببني عبيد ودولتهم إلى الزوال اليوم أو غدًا، وأول من سينهزم حينها أنا وأنت.

- أعوذ بالله من الهزيمة.

- تخاف الهزيمة؟

- لا أخاف غيرها.

- الموت لا يخيفك.. ولا فقد الأهل.. أفهم.. ولكن ما تخاف منه دومًا يحدث. احذر من حب يذل لامرأة أو منصب، تحرر من خوفك حتى لا تسجد أمام الدنيا يا بني.

- سمعًا وطاعة يا مولاي وأستاذي.

ولكن المملوك الأرمني أحب رغمًا عن قَسَمه وحسمه مع نفسه قبل الغير، والإفراط دومًا يرافق الحب، الإفراط في اللين، وفي التمني، وفي الخوف، وفي نزاع النفس على الهوى. فرون صدقها ينسكب فيغرق كل النفاق الذي يحاصره، وتلقائيتها تفوق تقلبات أرواح الأجنة في السماء وقت الشفق. ما أجمل هذه البنت! وما أصعب الرضوخ لسكرة العشق الممزوجة بنبيذ لا بماء! إما أن تذهب العقل أو تفتت الكبد. لم تدرك تأثيرها عليه، ولم ينبس بكلمة بما يكمن في كينونته.

أصبح ينتظر مقابلتها كل يوم ليلًا في حديقة قصره. لم يعد يتمتع مع أي جارية، توقف عن دعوة الجميلات إلى حجرته، فمعاشرة الجارية الشهية أصبحت لا تعطي النشوة، ولا تطفئ لهيب الشوق. المتعة في أن يمسك يد فرون في براءة كالصبي الذي بلغ للتو، لا هو يملك الخبرة، ولا هو يجرؤ على المزيد. لمس يد فرون يعطيه ما لم تعطه معاشرة الجارية، إحساس جديد بالفرح. لم يفرح قط ولم يضحك على تعثر قطة في حديقته، ولا كسل فراشة ونومها على الزهرة ليلًا، أصبح يضحك ويرى فيما حوله دنيا غير الدنيا كلها خير وبهجة. يوم وراء يوم يقابلها فتنظر إليه بعينيها المستغيثتين، وتتمنى أن تقضي بقية أيامها بين أحضانه.

عندما قابلته اليوم بعينين لامعتين، ووجه أحمر من شدة الخجل تمنت أن تلقي بنفسها بين ذراعيه، ولم تفعل. أمسكت بالسور حتى لا تقع، وحدقت إلى البدر النافذ في السماء المائلة إلى السواد حتى مع وجود البدر، اقترب منها، وقف بجانبها وعيناه ترافقان البدر في السماء، ثم رفع يده ووضعها على كتفها، وقال: والدك يريد أن يترك القصر غدًا.

اختلج جسدها ولم تعرف هل تزيح يده أم تبقي عليها إلى أبد الآبدين، أغمضت عينيها ثم قالت: مولاي الأمير..

- قولي بدر..

قالت في تردد: لو سمحت لي.. أنت قادر على كل شيء، وأنا عاجزة عن أي شيء.

- ستكونين لي، لا تقلقي. أعرف ما يدور بخلدك. والدك سيوافق مع أنه يكرهني.

- أعوذ بالله، لا أعتقد أن والدي يكره مَنْ أكرمه واستضافه.

قال في حتمية: أنت يا فرون ربما لا تعرفين الكثير عن الدنيا، ولكنك ذكية. هناك رجلان في هذه الخلافة. هما اثنان ولا يمكن لخلافة أن تعتمد على رجلين، فالخلافة كالعذراء لا تتزوج إلا من واحد فقط. وهذان الرجلان أتعرفينهما؟

قالت في تردد: الوزير ناصر بن حمدان والخليفة المستنصر.

ابتسم ولم يجب. فقالت مرة أخرى: أقصد.. أفهم ما تقصد.. والدي يقول..

صمتت. فقال هو: والدك يقول إن هناك رجلين حول بني عبيد يتنافسان على السطوة والنفوذ، أحدهما ناصر الدولة بن حمدان التركي، والثاني بدر الجمالي الأرمني. بدر ليس في مصر ولكنه قريب، قاب قوسين أو أدنى من مصر، وناصر الدولة بن حمدان في مصر، يعبث بها كما يعبث خفيف العقل بالقطط الوليدة، خربها ولم يزل عليها حتى يأتي على آخر مصري. ومع ذلك والدك يفضله ويتعاون معه. تُرى أيهتم والدك بمصلحته هو ومصلحة مذهبه ودكانه ومصنعه أكثر من مصلحة مصر كلها؟ يقولون: الحلواني يصنع الحلوى لبيت ابن حمدان حتى وهو هنا في دمشق.

بقيت صامتة تداري ضيقها من صدقه، وخجلها من ولاء والدها. فقال: ولكن ما لنا وما للحكام؟ لنتكلم عنك يا فرون.. كيف لا تخافين مقدم الجيوش؟ أي قلب جريء لديك؟

أغمضت عينيها واستنشقت الهواء الطازج، ثم وضعت كفها على يده التي استقرت على كتفها وقالت: ليتني لا أعرف ما سأقاسي وأنا أنتظرك.. وأنا أتمنى في ريبة ويأس.. وأنا أتوسد الليل بحثًا عنك كأنك كل عمري بينما عمرك أنت بين يديك.. بدر ليس أميري ولكنه ملك قلبي يا أمير.

- تنشدين الأشعار، سمعت الشعر من النساء عشرين عامًا أو يزيد ولكن عندما تنطقين أنت به يكون له لون مختلف لا أعرفه، ينفذ إلى الكبد بلا هوادة. عندما نتزوج.. ماذا تتوقعين؟

قالت مسرعة: لا شيء. أتعرف مجرد وجودي بجانبك وحولك يكفيني ثم عبادتي لله. أريد أن أقضي أيامي في مساعدة الناس وتوزيع المال وإقامة السماط ثم..

قال وهو يمر بيده على شعرها: ثم ماذا؟

قالت فجأة: أتريد مصر يا بدر؟

أدهشه سؤالها وجرأتها، كانت منذ لحظات تبدي الولاء والطاعة. قال في جدة: لِمَ تسألين؟

- أحيانًا أشعر بك.. كأنك تراها فيّ، تستمع إلى لهجتي، تنظر إلى عيني..

- وهل هناك من لا يريد مصر؟ كأنك تسألين الرجل أتريد المجد والذهب. ولكني لا أطمع فيها يا فرون، ليس وابن حمدان وزيرًا بها.

- ليس وابن حمدان وزيرًا بها.. ما معنى هذا؟! هل ستزيحه عن الوزارة أم..

قاطعها قائلًا: لو لم أكن أعرفك لظننت أن والدك وظفك للتجسس لصالحه.

نظرت إليه ثم قالت: لا أقسم لك.. ولكني.. اعذرني على جرأتي.. أحيانًا أنسى من تكون وأراك فقط ك..

قال في رقة وهو يقترب منها: كحبيبك.

رددت: حبيبي.

أحاط رأسها بين يديه ثم قبل جبهتها قائلا: وزوجك قريبًا. وعندما نتزوج يمكنك أن تسأليني مرة ومرتين لو كنت أريد مصر ولو كنت أراها فيك يا ابنة الحلواني.

مصر.. زارها وهو في الثالثة عشرة لأول مرة مع أستاذه. وتعلقت روحه بها ليس من أجل ثرائها والزمرد الأخضر والأزرق الزاهي في حنايا جبالها فقط، بل من أجل البرابي والأهرامات. لمس بأصابعه الكتابة على جدران البرابي، ثم قال في وجل: هذه هي لغة الطير. كنت أحلم أن أتعلمها.

قال صديقه حينها: يقولون في هذه البلاد تنمو الجواهر بين الأحجار، تحطم الصخور القديمة فتجد الذهب، ثم تحفر داخل الأرض بين الأحجار فتجد الزمرد.

قال وهو ينظر إلى قطعة الزمرد في يد رفيقه: أين وجدتها؟

- هنا بين الجدران.

مد يده قائلًا: أعطها لي وأعطيك ما تريد. أريد الاحتفاظ بها.

نظر إليه رفيقه في ريبة ثم قال: أتعلق قلبك بالذهب؟ أم بالزمرد؟ تشتريها مني إذن بخمسة دنانير.

أطرق بدر برهة ثم قال: اتفقنا.

نظر إليه الولد في ذهول ثم قال: هذا أكثر مما تملك.

- لا فقد ادخرت كل أموالي العام الماضي، أعطني فرصة نذهب إلى بيتنا، وأعطيها لك اليوم.

عندما عادا أعطاه الأموال وهو يعد كل درهم بدقة، ثم أخذ منه الزمردة، وضمها إلى قلبه في فخر.

ثم قال لصديقه: هذا بلد يثوي به المرء، ولا يسكن فقط.

- مصر دومًا تغري بكنوزها الرجال، ولكنها كالأيام متقلبة.

- هذا ثراء لا يفنى. وجنة تحاكي الفردوس الأعلى. نيل يفيض وواد كثيف بأشجار لا حصر لها وقمح يكفي وجه الأرض ويزيد. أعرف لِمَ اختارها الإمام.

- انتظر لتشاهد جمال قصور القاهرة.

قَلَّبَ قطعة الزمرد الخام بين كفيه، غدًا ينظفها ويصنع منها قلادة أو خاتمًا أو يبقيها بين ذراعيه. انجذب إليها وكأنها تملك دفء أمه وبراءة أخته سوسي، تُرى أين أنت؟ لو كنت مت أمامي كنت استرحت، ولكني أسمع آهات وأشعر بعذاب من ذَلَّ بعد عزة. يا ابنة أمي اغفري لي عجزي فقد تَوَلَّد وسط تكاثر البشر وامتداد الأرض، كيف لي أن أجدك؟ تتبعت خطى التاجر بلا جدوى.

سمع طرقًا على بابه فهب واقفًا.. كان أستاذه. طأطأ رأسه ثم قال الأستاذ: كيف كان يومك في مصر؟

قال وهو ينحني له: رائع يا أستاذ.

مد جمال الدولة يده ثم قال: أعطني الزمردة.

نظر إليه بدر بلا كلمة ثم أعطاها له فقال جمال الدولة في حدة: لو كنت ترددت كنت قطعت رقبتك. المملوك لا يملك شيئًا، ولا يهتم بأمر شيء سوى القتال. أتفهم هذا؟

- أفهم.

- أريدك أن تنظف كل خيل القافلة اليوم وتجهزها، ولا تنام سوى بعد أن تنتهي من عملك وحدك. وغدًا لن تزور معنا القاهرة. أنت ستبقى هنا حتى نرحل، لا تخرج من البيت. هل تسمعني؟

قال: أسمعك.

ما حدث حينها لم يفهمه بدر طوال عمره. فقد الزمردة نعم. ولِمَ الأسى؟ ألم يفقد أمه وأخته ووطنه؟ ترقرقت الدموع في عينيه لأول مرة بلا إرادة. ثم خانته دمعة وسقطت على وجنته وهو مطأطئ الرأس.

نظر إليه جمال الدولة ثم قال في غضب: أتبكي كالنساء يا بدر؟ من أجل زمردة؟ أم من أجل القاهرة؟ ربما لا تصلح أن تكون مقاتلًا.

مسح بكف يده الدمعة وقال مسرعًا: لا أبكي يا مولاي. هو غبار مصر أتعب عيني.

هوى جمال الدولة بكفه على وجه بدر وقال: وتكذب أيضًا؟!

ثم ضم يده ولكمه في بطنه في قوة وقال: هذا يعطيك سببًا للبكاء يا ولد، بل يا طفل.

احترقت أحشاؤه، ولكنه وقف كالسيف وقال: أطلب عفوك يا مولاي.

- ما تريده بشدة ستفقده بقسوة. وما تتوق إليه ستُحرم منه عُنوة. تخل عن أهوائك يا فتى. لا أهواء للمحارب. في بريق الزمرد ولونه الفاقع سحر يُذهب النظر والبصيرة، فتبقى هائمًا كالمجذوبين وراء مال وولد وامرأة وسلطان. ضح بأغلى ما تملك حتى توتد للرجل بداخلك خيمة ومسكنًا.

- أمرك مولاي.

لم يعرف بالضبط ما الذي يعاقبه جمال الدولة عليه، ولكنه نفذ الأمر بلا تردد، وعمل ثماني ساعات متواصلة، وعندما انتهى ذهب إليه ليخبره فقال جمال الدولة: هذه هي الإرادة التي أريدها منك.

عاد إلى حجرته وبكى. لم يزل يريد الزمردة فقط، سيطرت عليه ونسي كل شيء آخر. لم يعرف قط هل كان كالفرس الذي تتلقفه السيوف وهو ثابت ثم يتعثر في ذرات رمال ضعيفة فينهار، أم أن الزمردة تلمع بألوان لم يرها ولم يشهد على نقائها.

أيام البراءة لم تستمر طويلًا، فلا براءة تصاحب أمير دمشق. اليوم دخل عليه ابنه شعبان فنظر إليه في فخر. حدق في عينيه ورأى عيني أمه هو، ما دام الولد قطعة منه فأهله هنا، ووطنه معه يحمله في جيبه. ثم قال شيئًا بلغته فنظر إليه ابنه قائلًا: أبي ومولاي.. لا أفهم..

- أعرف. كنت أقول إنني فخور بك وبشجاعتك.

- كان لا بد أن أتعلم لغتك.

- لن تحتاجها.

- أتفتقدها يا أبي؟

- أتكلمها مع بعض الجنود.

- وبلادك.. هل تفتقدها؟

ابتسم بدر قائلًا: بلد الجندي التي يدافع عنها، وليس التي وُلد بها.

- أين بلادك أنت إذن يا أبي؟ دمشق؟ الشام؟

لم يجب. قال في جدة: تمرد الجنود أمر خطير.

قال شعبان مسرعًا: أنا أتعامل معهم يا مولاي.

- كيف تتعامل معهم؟

- باللين والشدة.

قال بدر في حسم: التمرد لا نتعامل معه باللين.

- مولاي..

- لا لين مع الجنود. الشدة والحسم والقتل لكل خائن. المتمرد والطامع خائن. الجندي الذي يتمرد من أجل المال لا يعرف معنى الجندية، ولا بد من قتله على الفور. تذكر يا شعبان الخيانة حولك.. لا تثق بأحد. يومًا تركنا دمشق هاربين من السلاجقة والثورة. اليوم نتعامل بقسوة وبلا رحمة مع كل من يفكر حتى في الخيانة.

لم تستمر أيام الصفاء لفرون، وقبل أن يطلب بدر من والدها الزواج أو يأمره به ربما، كان والدها قد قرر ترك بيت بدر الجمالي هو وكل أسرته، والانتقال لخارج دمشق كلها. أخافها القرار ليس فقط لأنها ستبعد عن الرجل الوحيد الذي تريده، ولكن لأنها لا تثق فيما سيفعل والدها وفي الخطر القادم على روحها. انتقلت بلا كلمة ولا وداع. ولكنها انتظرت أيضًا أن يفاتحها والدها في طلب بدر. وقد فعل ذلك بعد أسبوعين من الانتقال. جلس بجانبها ثم قال في عبوس: لِمَ يطلب مقدم الجيوش الزواج من ابنة الحلواني؟! هل رآك؟

بلعت ريقها وهي لا تحب الكذب وبقيت صامتة. فقال الأب وهو يسيطر على نفسه: ربما رآك.. ربما شجعته وربما تريدينه. هذا البلاء غير كل ما مضى. هل تريدينه يا فرون؟

احتضنت نفسها وبقيت صامتة. فقال الأب: العبد المملوك الأرمني من الممكن أن يكون تاج الأمراء ومقدم الجيوش ولكنه لن يتزوج من ابنتي. بالطبع هو يأمرني لا يطلب مني. ولكنه لا يعرف عائلة الصقلي، ولا يعرف من هو علي ابن الحلواني والصقلي.

قالت في استغاثة: أبي.. هو ليس عدوًّا هو من فتح لنا قصره.

- فتحه رغمًا عنه لأن الخليفة طلب هذا منه. والدك حلواني الخليفة المستنصر نفسه. ربما يستطيع الخليفة أن يغير وزراءه وأمراءه، ولكن من الصعب أن يغير الحلواني. بدر لا يحب ناصر الدولة بن حمدان وزير المستنصر. بينهما عداء منذ زمن، اليوم أو غدًا تقع دمشق في يد السلاجقة.

قالت: أبي أنا لا أعرف شيئًا عن الحروب.

- تعرفين عن العشق فقط؟ لو كان علي الاختيار بين أبنائي أو الحفاظ على ما ترك لي جوهر بن حسين من إرث سأختار الصقلي والحلواني. لو أردت الزواج من بدر أتبرأ منك ليوم الدين. هل تريدين هذا؟

قالت مسرعة: لا.

- تتزوجين ممَّن يختاره والدك. الأمير حمزة مولى «الشريف أبي طاهر حيدرة». على مذهبك يا من تدعين المعرفة والتدين، ثم تحبين هذا الرجل الرافضي الشيعي.

صرخت بلا إرادة ثم قالت: أبي.. أتوسل إليك.. لا أريد الزواج، ولكن أموت قبل أن أتزوج من هذا الرجل.

- لماذا؟ لأنه عدو حبيبك؟

أمسك برقبتها كأنه ينوي خنقها ثم قال: بدر يأمرني أن أُزوجك منه. ولكن لو احترقت دمشق لن يحدث. سأقضي عليه قبل أن يلمسك.

كتبت الرسالة قالت: والدي لن يقبل بزواجنا. أريدك أن تعرف لو تقلبت الأيام، لو انكشف الشمس والقمر، لو باعدت بيننا البلاد، أن حبك كامن في كبدي كالأنفاس وقطرات الدماء، ليس لأنك أمير ولا أجمل من رأت عيني، ولا أعرف للحب سببًا ولا مذهبًا، أحبك يا أمير وكنت أتمنى أن تضع رأسي على صدرك مرة ربما قبل الرحيل، ربما تظن أني طفلة تلهو أغراها بريق الذهب والسيف، ولكنك يومًا ستعرف أن فرون تحب مرة واحدة فقط. ولكن يا أمير ليس للحب وزنٌ في هذا العالم، هو أخف من الريشة، كالهواء والريح.

أغلقت فرون باب حجرتها وتوقفت عن الطعام والشراب، وأصبحت تقضي الليالي في الصلاة والمناجاة. «يا رب لو كنت تغضب علي لأني أحبه فقد زرعت حبه في قلبي. لا تتركني أضيع بين الكره والحروب».

تدخل عليها حفصة كل يوم تحثها على الأكل فترفض. تخبرها أن دنيانا ليست لتحقيق الأماني بل لتحمل المحن فتستمع في صبر، ثم تقول: أقنعي أبي ألا يزوجني من حليف أبي طاهر، وسوف آكل.

- فرون..

- تبت عن الحب. قولي له إني لا أريد بدرًا الجمالي، ولكن يتركني لحالي أتوسل إليك. هذا ليس من الدين أن يُكره ابنته على الزواج.

جاءها رد بدر الجمالي بعد يوم أو اثنين، جاء مع إحدى الجواري، دخلت عليها كأنها أتت لها من قبل صديقةٍ، تسللت إلى حجرتها، وسمحت لها حفصة وهي تعرف من تكون. جلست في إعياء وتسلمت الرسالة وقرأتها. قال إنه يستطيع أن يأخذها اليوم رغمًا عن والدها وعن كل العالم، لو وافقت. سيترك لها فرصة للتفكير ولا بد أن تقرر بعد يوم أو اثنين وسيأتي ويأخذها.

تذكرت كلمات والدها. «أنت لست ابنتي. تريدين الذل لأبيك. يعجبك أن يخضع لصاحب دمشق كما تخضع مصر لإمام ليس بمذهبها ولا يعرف عنها شيئًا. ولكن الوزير ابن حمدان ومعه الشريف أبو طاهر سيخلصانها من يدهم بأمر الله».

نظرت إليَّ الجارية وقالت: كيف سيخلصني الأمير.

فقالت في قوة: هو قادر على كل شيء. يريد فقط أن يعرف أنك على العهد. اتركيه هو يتصرف.

فكرت بعض الشيء. رحلوا عن دمشق تحت الحراسة التي وفرها أتباع الشريف أبي طاهر كأنهم أعداء الجمالي. ولو أراد الجمالي أن يخلصها فإما سيخطفها أو ماذا؟ يذل والدها؟ يقبض عليه؟ قوة بدر ربما توازي قدرة الوزير حمدان، وهي اليوم بين الرجال يفتكون بها وبأبيها. لا قوة لفرون. وهل سترضى بالذل لوالدها؟

كتبت بيد مرتعشة ثلاث أو أربع كلمات: لا أستطيع ستبقى معي، ولكني لست بشجاعتك يا بدر.

أعطت الورقة للجارية، ثم استلقت على مخدعها دون بكاء ودون كلمة. وكتبت لوالدها أيضًا: الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وأنت تريد أن تكلفني ما لا أطيق. لن أتزوج من الأمير حمزة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يصدق بدر الجمالي رسالتها، أو ربما في البداية حاول ألا يصدقها، ولم يخطر بباله أن من كانت تتبع خطواته في ثبات وإصرار لا تقوى على مواجهة أبيها. أيحتقرها اليوم أم يشفق عليها؟ لم تتم العشرين بعد وحولها الكثيرون الذين يكرهون بدرًا الجمالي، وهل هذا عذر يا بنة الحلواني؟ قلب بدر لم يخفق سوى لفرون. اشتهى النساء وتمتع بهن كلهن، ثم جاءت ابنة الحلواني بلهجتها المختلفة، وتلعثمها وبراءتها وصدقها المتناهي لتخترق الأضلع، هو يعرف أن العشق ليس له سبب، يأتي كالموت بدون مقدمات ولا إنذار. وهو كالموت يغير الأيام ويربك الخطط ويبعثر الأمان من بين حنايا الحصون، نظر إليه كاتبه عبد الوهاب في بعض الشفقة لأول مرة، ثم قال: الحب يمر على العين فيعطيها بريقًا كبريق النجوم، ولكن ألم تجد غير ابنة الحلواني؟ سيقولون: صاحب دمشق مقدم جيوش الإمام والخليفة أحب بنتًا لا تتبع مذهب الإمام، أتكلم معك كأخي يا مولاي كما علمتني.

- ومنذ متى يهتم بدر الجمالي بما يقول العامة والأمراء؟ أنت تعرفني منذ الصغر، أنت تعرف أني لم أختر قدري، لا اخترت الحروب ولا الإمارة حتى لو تمنيتها، ولكني اخترتها هي.. فرون.

- أعرفك وأعرف أن إرادتك من حديد يا مولاي، ولكن الحب هو الوحيد الذي يذيب الحديد، لو لم تصبح لك فلا تحزن ولا تجعل المرارة تستقر في قلبك. فالدنيا أبدًا لا تعطينا ما نريد. ولكني أعرف أنك لن تستسلم فلو كنت طُردت من دمشق وعدت إليها بعد عامين، فسوف تقتلع من بين أضلع السلاجقة مكانك، فلا شيء يقف أمامك. عهدتك أكبر من الزمن، بك شدة على نفسك قبل الغير. أتمنى فقط يا مولاي ألا تُخرج شدتك أمام البنت فتهابك، ولا تجعل شدتك عقابًا لها لو لم تستطع أن تكون بشجاعتك. فليس الذكر مثل الأنثى.

قال وكأنه لا يسمعه: الشريف أبو طاهر حيدرة يريد القضاء عليَّ على مهل. أولًا يُحرض السلاجقة علي، ثم يريد أن يزوج ابنة الحلواني من أمير مُوالٍ له. لا أثق في جنودنا يا عبد الوهاب. عددها قليل وإرادتها ضعيفة.

- رجالك أشداء مثلك.

- لا علاقة لهم بالشدة. رجالي يقاتلون من أجل المال، وأنا بالنسبة إليهم لست بسخاء أبي طاهر حيدرة ولا سخاء ابن حمدان.

- لو كنت بسخاء ابن حمدان لهلك أهل دمشق كما هلك أهل مصر، يقولون: الناس تموت فلا تجد مكانًا ولا مأوًى لتُوارَى الثرى. ابن حمدان خرب مصر بطمعه وحروبه. حرض الأمراء على الفتنة. ولم يعد وزير المستنصر فقط بل الحاكم الفعلي للبلاد. يا مولاي لي رجاء واحد.

- تكلم.

- لو تساهلت بعض الشيء مع الجنود يكون أفضل بالنسبة لنا. المال كالتراب يدفن الفتن قبل ولادتها.

- لا أشتري الولاء مثل ابن حمدان.

- الحُكم ليس كله صدقًا يا مولاي، أنت تعلم.

- لو اشتريت ولاء جندي فمن الأفضل أن أموت على يدهم. سأحارب لو ثار الجند، أُفضل المواجهة على شراء الإخلاص. سأحارب مع ابني شعبان، بدر لا يخضع للأمراء ولا يشتري الأمان بل يعطيه. أقسم أن أحارب الجنود بنفسي، وأن يخرج ابني شعبان بجنوده ليجد الشريف أبا طاهر، ويقضي عليه، ثم يقضي على ابن حمدان حتى لو اضطر إلى الذهاب إلى مصر.

قال عبد الوهاب: أمرك يا مولاي، أنت تعرف أكثر.

لم يستطع أن يصدق رسالة فرون، ربما كتبتها لأنها لا تثق بالجارية، وربما هددها أبوها بالموت. بعث العيون والعديد من الجواري وجاءه الرد نفسه في كل مرة: «لست بشجاعتك يا بدر».

وصلته رسالة الإمام والخليفة المستنصر وهو يحاول أن يقضي على الفتنة في دمشق، في دمشق ثورة جيش وليست ثورة رعية، سيف يواجه سيفًا، وفارس يواجه فارسًا، ومذهب يواجه مذهبًا، وطمع يواجه طمعًا. قرأ الرسالة: كان الخليفة يشكو من الحجر عليه من قبل وزيره ابن حمدان، أخذ منه كل شيء، كل ذهبه وخيله ورجاله، وليته ساعد أهل مصر بل ساعد على هلاكهم. كتب الخليفة:

«أصبحت لا أرجو ولا أتقي إلا إلهي، له الفضل،

جدي نبي، وإمامي أبي، وقولي التوحيد والعدل».

نادى على عبد الوهاب ثم قال: ابعث للخليفة أن بدرًا الجمالي رجله وسنده، وأن دمشق في خطر ولكنه سيحارب مع ابنه حتى يؤمنها للخليفة.

بدأت مأساة مصر منذ بضعة أعوام ولا يبدو أنها ستنتهي قريبًا. بدا أن مصر ستمر بالسبع العجاف وستزيد عليها سبعًا أخرى. بدأت الحرب أيضًا بين طوائف الجيش، طائفة ما أطلقوا هم عليها العبيد وطائفة الترك، ووالدة الخليفة من طائفة العبيد، ففضلت أهلها على الترك، فخرج الجنود الترك بالسيوف يقتلون جنود العبيد في كل مكان في مصر، استمرت الحرب بين رجال الجيش، ودخل فيها الجنود المغاربة، وقبيلة كتامة، ثم استفاد منها المفسدون والطامعون من التجار والأعراب والمصريين، فاختفى القمح من الأسواق وشحت البضائع وأصبح من يتحكم في مصائر الناس في الصعيد والدلتا هم قطاع الطرق والعيارين، فرضوا الإتاوات وخربوا الأراضي والطرق وانتشروا كالجراد فقضوا على كل المحاصيل. هرب الفلاحون إلى الصحراء وذَلَّت النساء وجاع الأطفال. ثم جاء ابن حمدان هاربًا من بدر الجمالي، وكان من الأمراء الترك ومن أهل السنة، لجأ إلى الخليفة المستنصر ليحميه من بدر الجمالي، وبدأ يستميل إليه الجنود ويبذل المال والذهب في سبيل التخلص من بدر الجمالي، وعد الشريف أبا طاهر أنه سيصبح هو الخليفة، ووعد الخليفة السني في بغداد بأنه سيدعو له من على المنابر في أنحاء مصر، واشترك مع اللصوص في النهب وأغدق على جنوده بأموال أهل مصر. شاعت الفوضى، ووسط الفوضى تفشى الخوف وغمر كل شيء. فمن يملك القمح قرر أن يخبئه، ومن يملك المواشي قرر أن يخبئها، ومن يملك الذهب دفنه تحت الأرض فجاع كل أهل مصر، لا القمح خرج من مخبئه، ولا الذهب أصبح يساوي شيئًا. وعند انتشار الفوضى ينخر الفساد في النفوس ويتوه الطريق، أصبح من لا يضحي بشرفه أو ماله أو كرامته كمن لا سند له ولا

ظهر. خربت كل الترع ورُدِمت وتحطمت الجسور وتهدمت الطرق. وفي ليلة وضحاها أصبحت مصر بلد العجائب تستغيث ويأكل الناس بعضهم بعضًا. خليفة عباسي بين حيطان قصره يسمع أن أحد أمراء الترك يدعو له في مصر، وخليفة فاطمي بين أركان ما تبقى في قصره يعرف أن الرجال حوله قليلون وأن من يدعو له في مصر اليوم أقل، وأنه خسر أجزاء من الشام للسلاجقة وللأمراء. لم يعد هناك سوى بدر الجمالي يُخلص له، لا يعرف لماذا وكأنه ليس من هذا العالم. المملوك تربى على الإخلاص. يستغيث به كل حين وحين وكثيرًا ما يستغيث بربه وهو متمسك بخلافة تنهار وتتسرب من بين يديه.

لا أحد يعرف بالضبط لو كان بدر قد أدرك مدى الخطر في دمشق وظن أنه يستطيع مواجهته، أم أنه لم يدرك قدرة الشريف أبي طاهر على تحريك القبائل ضد صاحب دمشق. ولكن الثورات دومًا تأتي مُفاجئة وبلا مقدمات. وهذه لم تكن ثورة بين رجال دمشق فحسب، ولكنها كانت فتنة ونيرانًا مستعرة.

يوم احتراق دمشق كان يوم تغيير المصائر وكيِّ الأفئدة. تمرد أهل دمشق وجنودها على بدر الجمالي، ادَّعَوْا أن شدته لا تساعدهم بل تُكبلهم. وعدم سخائه مع الجند يدل على عدم ولائه للإمام. قالوا: الأرمني لا يريد سوى مصلحته هو وجنوده الأرمن، يريد أن يحتل بلاد المسلمين. قالوا الكثير.. من قال: إن بدرًا مسلم أصلًا؟ ألم يُخطَف وهو في الثانية عشرة؟ دينه الذي ولد به لم يكن الإسلام. يدعي الإيمان ليُقلِّب القلوب ويُشعل الفتن. بدر هو سبب كل المصائب وهو الوالي الوحيد الذي لم يهزم حتى الآن ولا طلب التحالف مع أمراء الترك. لو كان ولاؤه للخليفة المستنصر فقد ضل. من السبب في الفتن؟ الخليفة ترك أُمَّه «رصد» تتدخل في شئون الدولة فتعيِّن القضاة والوزراء من بني جنسها وتحتقر الترك. هي سبب الحرب بين العبيد والأتراك والمغاربة وكل الطوائف داخل مصر، حرب بين أجساد المصريين وداخل شرايينهم. هذا لم يحدث قط أن يحارب الأهل أهلهم، ولكنه حدث في مصر. وعندما فني العبيد والمغاربة وأمسك الترك بزمام الأمور أرادت رصد أم الخليفة أن تحطم كل البلاد. من هو الإمام؟ خليفة ضعيف لا يملك بغلة ليركبها! خليفة بلا رهبة. وكيف للإمام أن يملك الرهبة لو كان لا يُطعم العامة ولا يحكم بينهم؟ قالوا: بدر الجمالي سبب كل المصائب. من أدخل الأرمن في هذا الأمر؟ ولِمَ يعُطي شأنًا لهذا الرجل؟ أيوثق في ولائه؟ بدر جاء ليبقى هو وأبناؤه، يدرب الولد على القتال كأنها بلاده. شعبان الذي لم يتم العشرين أصبح من أكفأ القواد، وابنه الأوحد أحمد يمشي في الدرب نفسه. بدر يُرسخ لدولة داخل الدولة. القضاء على بدر أهم من القضاء على الخليفة. والقضاء على بدر يكون بعجزه لا بموته. العجز داء ليس له دواء بينما الموت له دواء؛ فدواء الموت البعث والخلود ودواء العجز ليس بيد إنسي.

يوم احترقت دمشق.. واشتبكت قوات بدر الجمالي بقوات السلاجقة من ناحية ومؤيدي الشريف أبي طاهر من ناحية كانت الهزيمة واجبة، لا هو يملك رجالًا بشجاعة جيوش السلاجقة، ولا هو يستطيع أن يزحزح الفتنة من بين أطناب الخيام. آه يا بدر من العجز.. عشرات آلاف الرجال تحيط بقصرك اليوم. لو لم تهرب تموت حرقًا. تهرب كالجبناء وتترك دمشق هذه المرة للأبد. طالت النار المسجد الأموي، خرج يقاوم ويحارب.. يبحث عن جنود أشداء القلب فلم يجد سوى الخزي.

قال عبد الوهاب في شفقة: الهزيمة يا مولاي ليست دومًا لمن لا يملك الحق فكثيرًا ما تكون لمن يريد العدل.

فقال بدر: لن أترك دمشق سوى وأنا جثة هامدة، جئت بأمر خليفة المسلمين.

- للمسلمين خليفتان وليس واحدًا. لا نحن نستطيع محاربة السلاجقة، ولا الجند تريد أن تدافع عن أفكار لا تسمن من جوع.

- لم أعرف الهزيمة طوال عمري ولن أعرفها اليوم. عُدت إلى دمشق لأبقى. أين شعبان؟ لِمَ لم يأت معك؟

طأطأ عبد الوهاب رأسه، ثم قال في خشوع: لولا أني أعرف قدري عندك ما جئت إليك. كنت أخًا لي حتى ولو كنت أعمل تحت إمرتك.

نظر إلى عينيه، شحب وجه بدر، ثم مال إلى الزرقة، توقفت أنفاس روحه برهة حتى لو استمرت أنفاس جسده. ارتجفت عيناه وقال: هل أصيب ابني؟ إصابته خطرة؟ أخبرني بالحقيقة، أين هو؟

ولم ينتظر الإجابة، هرول خارج القصر إلى شوارع دمشق الممتلئة بالعطور وروائح البخور، استمر الباعة يلوحون ببضاعتهم، واستمرت النساء تسير بحثًا عن ذهب وحرير، واستمر الأمير يجري وكأنه لن يجد طريقه منذ اليوم وحتى نهاية الدهر. انشق القلب وتجمدت العروق، قال عبد الوهاب وهو يلهث وراءه: مولاي الأمير شعبان استشهد اليوم..

- أصيب تقصد؟

- بل استشهد.. هو في القصر لو سمحت لي.. لو عدنا..

احتبست الأضلع وتوقفت الأقدام، لا هو قادر على العودة ولا على الاستمرار. بقي ساكنًا ولأول مرة كان خائفًا. العجز يُفزع كالوحش الكاسر، والعجز يشل كلعنة القدماء، والعجز يُوهن العظام كسني العمر الطويلة. ليت الدموع تتساقط فندرك الحقيقة ونسلم بها ولكنها لم تتساقط.

وضع عبد الوهاب يده على كتفه، ثم قال: أتوسل إليك يا مولاي أن نعود إلى القصر.. كل أهلك في خطر. هذه المرة لن تترك دمشق سالمًا كما حدث من قبل.

قال بدر: لا سلام يصاحبني منذ ولدت.

- بقية أولادك يا مولاي..

- أين شعبان؟

- لو لملمنا ما غلا ثمنه وهربنا من هنا..

- أين ابني؟

- لو..

- أنت قلت إنه بالقصر..

- نعم..

- أين كانت إصابته؟ أريد أن أراه..

صرخات آمنة خاتون أم شعبان وطليقته لم يسمعها ولا أثرت فيه. مر بيده على وجه ابنه وقبَّل فاه. كان ساكنًا مستريحًا، وترك للأب الهم الأبدي كهم آدم بعد الخروج من الجنة، وكعجز قابيل وويلته بعد قتل أخيه. سمع صوتها، خاتون.. لم تحبه يومًا ولم تكرهه، ولكنها اليوم كرهته.. قالت وهي تضرب وجهها بكفيها، ثم تضع التراب على رأسها: ابني.. أول فرحة لي في عمري.. أنت السبب في موته. ستقتل الباقين بغرورك.. فليذهب خليفتك إلى الجحيم، فليذهب قصرك إلى الجحيم.. استسلم للسلاجقة لو كنت ضعيفًا، ولا تُلق بالشاب الذي لم يبلغ العشرين إلى الموت. يموت هو وتعيش أنت يا بدر.. يموت هو وتعيش أنت!!

صرخت بأعلى صوتها فجرَّتها النساء خارج الحجرة. لم يُجب ولم يتركه إحساس الذنب طوال عمره الباقي، فهو لا يزال حيًّا حتى لو كانت حياته بؤسًا وهمومًا.

رائحة النيران تحتاج إلى أنف نظيف لا يشم رائحة الموت. لا استنشق رائحة اللهيب ولا أخمد نيران الفراق التي تفترش قلبه وتستقر. أمسك به عبد الوهاب وقال: كل الأولاد بخير، تركوا القصر.. هيا يا مولاي.. الجنود الموالية للشريف أبي طاهر ورجاله يحرقون القصر الآن.. ستموت بالداخل.. مرت ساعات وأنت هنا.. هل تسمعني.. يا أخي ومولاي..

احتضن ولده ثم قال: نأخذه بعيدًا عن النيران.. وجهه الجميل لا بد أن يبقى كضوء الشمس صافيًا ومشرقًا.

خرج بولده، وحمله داخل قلبه على فرسه وجرى إلى حدود دمشق مع بقية أهل بيته.

مر يومان ربما قبل أن يدرك ما حدث ومصيره الجديد. لم يعد معه سوى بضعة رجال وولديه وابنته، صاحبته آمنة خاتون ربما لتُذكره بذنبه أو تحثه على الموت لا يدري.

لاحت كلمات فرون بذاكرته سريعًا، ثم اختفى أثرها، ضحك حينها على نفسه وعلى الدنيا.. قالت: «لست بشجاعتك يا بدر». عن أي شجاعة تتكلم ابنة الحلواني؟ ألم يترك دمشق منهزمًا؟ ألم يحترق قصره ومعه جزء من المسجد الأموي؟ ألم يدمر كل من أحب؟ فعلت الصواب ابنة الحلواني، اختارت الفائز. هكذا هن النساء مثل الدنيا يلتصقن بالفائز حتى ينهزم، ثم يحتقرنه كالبعوضة.

لِمَ ضاع الضوء وتلاشت الألوان؟ وكيف أصبح النوم مستحيلًا؟ ما بين غضب وحزن وصورة ولده وهو مغمض العينين أصبح يقضي أيامه. دعا ربه كل يوم أن يموت في معركة، يموت كما مات شعبان، يخترق سيف صدره فيمزق القلب النابض الذي يطلع عليه فقط ليلومه ويوبخه على أنه لم يدرك حجم الخطر، ولم ينتصر في معركته، على أنه لم يبعد كل أولاده عن الحروب والخيانة، على أنه تجرأ على الحب، ونسي أنه عبد مملوك للخليفة ولذهبه ولأولاده ولمركزه ولمذهبه. لا حيلة له في شيء، ولد باسم غير الاسم، ومصير غير المصير.. آه يا أختاه سوسي الجميلة أين أنت؟! لا بد أن مصيرك أفضل من مصيري. كان اسمي آرام.. أتذكر وكيف أنسى؟ أصبح بدر ونسيت الجبال والثلوج. ثم جاء شعبان فأعطى للعمر لون الزمرد الذي حُرم منه. يتذكر اسمه اليوم، اسم لم يستعمله أحد، أطلق عليه جمال الدولة اسم «بدر بن عبد الله». ولكنه يفتقد آرام، فقد كان آرام بلا ذنب يطارده

كما يطارد الضبع ذيله الممتلئ بالروث المتعفن. آه من الذنب ورائحته الفائحة. هل يجرؤ على العيش؟ على الاستمرار؟ لِمَ بكى عندما أخذ منه أستاذه قطعة الزمرد ولم يستطع البكاء على ابنه؟ أجفت كل دموعه أم تملكته لعنة الأسماء المتباينة كالأقدار؟ شعبان جاء من صلبه حتى لو لم يتكلم لغته ولا سمع عن اسمه الأول. تُرى عند الموت هل ستناديه الملائكة ببدر أم آرام؟ يتذكر أمه وهي أيضًا غارقة في الدماء. لِمَ يراها تتكلم معه والدماء حولها؟ سألها يومًا عن معنى اسمه فقالت: يعني الأمان والراحة.

اليوم يحمد الله أن جمال الدولة غَيَّر اسمه، فهو لا يليق بأيامه ولا لياليه.

منذ شهرين ظن أن الدنيا ستعطيه الراحة. عشق الأرمني كالصبيان بلا مقدمات ولا تفكير في شأنه ومنصبه. أحب ابنة الحلواني وتمناها بين ذراعيه، ضحك معها وهو يروم السكينة، أضرمت نيران الشوق في أضلعه فاشتهاها كالفتى البريء الذي لم يقتل ولم يعاشر المئات. كان لا بد أن يعرف حينها أن مصيره منذ ولادته لم يكن بين يديه، وأنه عندما وقف عاجزًا أمام من قتل أمه، وسرق أخته كان يرى أمامه بقية أيامه، كلها دماء وعجز وحسرة.

جاءه النبأ بعد شهور، تزوجت فرون من الأمير حمزة حليف الشريف أبي طاهر وابن حمدان. وماذا توقع غير ذلك؟ لم يلتفت للخبر كثيرًا وأيقن أن النار لن تترك القلب يتنفس سوى عند موت من قتل ابنه. ولكن الموت يريح، كل الموتى في طمأنينة وسكينة. سيفكر في الأمر.. والأهم هو التفكير في رجال مخلصين لا يفرون وقت المعارك، ولا يتركون قائدهم لضباع السلاجقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 4 -

وصلت صرخاتها إلى عكا ربما حتى ظن الناس أنها فقدت عقلها، بكت وضربت على خدودها وحفصة تحاول أن تمسك بيدها وتقول في رفق: هذا حرام يا ابنتي.. تضربين نفسك!!

قالت فرون: قلت له لن أتزوج من حمزة. فزوجني رغمًا عني، هذا حرام، سأشكوه وسأهرب و..

- هو والدك يا فرون، أتريدين له الفضيحة؟ هذا قدرك يا ابنتي، كلنا نستسلم للقدر ونصبر. اصبري على ابتلائك فربما يكون نعم الزوج لك.

- صرخت: لا لن أصبر.

- لو أردت أن تفضحي والدك فافعلي لن أُوقفك، ولكنك متدينة وطاعة الأب واجبة.

- تكذبين، طاعة الأب فيما لا يغُضب الله، ولكن أن يرغمني فهذا ظلم. أنت لا تعرفين شيئًا، كلكم لا تعرفون شيئًا، لو كنت ذهبت معه، لو كنت تركت كل هذا الجحيم، أكرهكم جميعًا، حياتي معكم شقاء منذ ولدت.

الأمير حمزة كان يكبرها بخمسة وعشرين عامًا على الأقل ولديه ثلاث زوجات وبنتان وولد. لِمَ يريدها؟

استمعت إليها حفصة في صبر، ثم أعطتها الثياب الجديدة لترتديها وقالت: عندما تهدئين اخرجي لزوجك. سأترك الباب مفتوحًا، لو أردت الهرب واللحاق ببدر فافعلي. سأساعدك ولكن تذكري حينها وجه أبيك أمام الرجال.

خرجت حفصة بعد أن أشعلت اللهب في القلب، فلملمت فرون أغراضها وذهبها واتجهت إلى الباب وهي تهمس: حبيبي وليس لي حبيب سواك.

تسللت واسترقت السمع، سمعت والدها يتكلم مع الشريف أبي طاهر عنها. كان يقول: هي نعم البنات عوضني بها الله. ستكون زوجة تطيع زوجها وتحفظ العهد.

اغتاظت أكثر ونظرت إليه من وراء الباب، كانت عيناه مرتبكتين ضعيفتين وكأنه لا يثق فيها. أثلج هذا صدرها بعض الشيء. ثم قالت لنفسها: أنت تستحق يا أبي، أنا لا أحبك.. قسوتك وأنانيتك.. أنت لا تأبه بي.. أنت..

غرزت أظفارها في وجهها وألقت بلفافة الملابس وهي تصرخ صرخة مكتومة: ولكني لا أستطيع أن أفعل هذا بك.

أخرجت رداء بدر بيدها المرتعشة وقبلته وقربته من صدرها وأجهشت بالبكاء. ثم مسحت دموعها ووضعت الخمار على وجهها لتداري الجروح التي تغطيه وخرجت لوالدها.

عندما اختلت بزوجها الذي لا ترى وجهه حتى وهو أمامها. خلع ثيابه وقال: مرحبًا بك يا فرون في بيت زوجك.

خلعت خمارها في بطء فاقترب منها في فزع ووضع يده على خدها قائلًا: من فعل هذا بك؟ هذه الجروح؟ هل جرحت أنت نفسك؟

أزاحت يده ثم قالت: لا بد أن نتكلم يا أمير.

- ولِمَ نتكلم يوم زواجنا؟! لا بأس، نؤجل الجروح إلى ما بعد إتمام الزواج، أما الآن فيمكنني أن أقول: إني لم أر في جمالك قط. هاتان العينان اللتان تضربان بسهام العشق، هاتان الشفتان، وضع يده على شفتيها، فقالت في حسم: لا بد أن نتكلم.

نظر لها في ريبة فقالت: هذا من أجلك أنت يا أمير. نتكلم من أجلك أنت.. تستمع إليَّ.. ثم لك الطاعة لأنك زوجي.

كذبت أو صدقت لا تدري، ولكنها قالت لزوجها إن معاشرته مستحيلة، فقد وقع في حبها جن سفلي وسيطر عليها ومن يلمسها يُقتل أو يفقد قدرته كرجل. أخبرته بالتفصيل عن شكل الجن وما رأت، وأنه إذا أراد المخاطرة فربما يفقد ما لا يعود. صرخت وبكت كالمجنونة. أخافته وأربكته. لم يصدقها في البداية ولكنها وضعت أمامه كل ذهبها وقالت في حسم: لك كل هذا ولكن لا تلمسني. كل ما ورثته عن أمي وكل الذهب الذي أعطيته أنت لأبي. سأكون هنا في بيتك أرعى أولادك وأرعاك ولكن لا تعرض حياتنا للخطر.

كان قد سمع عن حبها لبدر وأن رغبتها فيه هو فقط. رفع يده وصفعها في قوة، وقال: زانية لا أكثر. تخافين أن أفضحك أمام والدك. ولكني سأفضحك.

حاول الاقتراب منها فاستغاثت بالجن، ثم قالت كلمات قبطية ورثتها عن جدتها. أخافته الكلمات والاستغاثة. سحر المصريين معروف من الأزل، ولو فقد رجولته من أجل ابنة الحلواني لفقد كل شيء. حكت له في هستيرية عن ساحرة الهرم، وكيف قابلتها مع جدتها، وطلبت منها دواء لحب الجني، وكيف قالت الساحرة إن أي رجل سيلمسها له الموت أو الفقد. تركها ليلتها وذهب لإحدى زوجاته. أصبحت تشتري له كل شهر جارية بأموالها التي يعطيها لها والدها. تعمل في بيته كخادمة لبناته، تطيع كل أوامره حتى لا يطلب منها ما لا تستطيع. أحيانًا كان يدخل عليها فجأة فتصرخ وتضرب نفسها، ثم تجرح وجهها وتصيح طالبة مساعدة الجني. لم يتأكد حمزة من صحة جنونها ولم يتأكد من قصة الجني، ولكنه خاف أن يتكلم مع والدها عن هذا الأمر. للسحر وقع مختلف على البشر. يخشون الساحرات حتى لو هاموا بهن شوقًا. بعد عام تساءل الناس لِمَ لم تنجب فرون وزعموا أنها عقيم. كرهها كل من حولها، حاولت أن تقضي معظم وقتها مع حفصة وأخيها فأصبحت تعيش معهما. بعد عام انفصلت عن زوجها ولكنها استمرت تعطيه المال كل شهر، كل ما يعطيها أخوها أو أبوها وكل ما تبيع من الحلوى. أما بدر ففقدت الأمل أن تراه. حاولت أن تستمر في حياتها، وأملها الوحيد أن تُبقي على جسدها ملكًا لها هي وليس لحمزة ولا أي رجل. كانت كالأم التي فقدت كل شيء وليس أمامها سوى العمل ليل نهار، تدفع لابنها ثمن معيشته وكان حمزة كالابن. أول كل شهر يأتي إلى أخيها ولو لم تدفع له مبلغًا يرضيه يُمسك بها ويجرها ويحاول ضربها فيمنعه أخوها ويعطيه المزيد. وجدت كل غايتها في البقاء على نفسها لبدر فقط. تصنع الحلوى وتعمل ليل نهار من أجل أن تبقي على نفسها.

أخبرت حفصة بما كان، قالت في مرارة: إنها لم تعط زوجها نفسها، وإن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها. ثم سألت حفصة لو كانت أذنبت بفعلتها هذه. صمتت حفصة هنيهة ثم قالت: لا أدري يا ابنتي، ولكن الله يعرف ويسمع ويرى. لا يكلفنا فوق طاقتنا، رحمته وسعت كل شيء.

هدأت واستقرت نفسها وكرهت حمزة بقسوته، وربما كرهت قدرته على أن يُكرهها على معاشرته، فأصبح وجوده يهدد النفس ويقلقها.

ليلًا وهي في بيت حفصة اقتربت من الخزانة بيد مترددة، وأخرجت رداء بدر الذي احتفظت به، أمسكت به وهي تهمس لنفسها: هل أغضبك يا رب لو قبَّلت رداءه فقط؟ لو توسدته؟ لا بد أني أسوأ النساء ولكني لا أستطيع، لا إرادة لي على قلبي، ولا قدرة لي على جمح الريح في صدري.

عانقت الرداء في شغف وهي تهمس: بدر، لم أحب سواك.

ثم أبعدت الرداء عنها ووضعته في الخزانة مرة أخرى. في الصباح دق حمزة بابها وجرها إلى بيته وهو يصيح في وجهها: ليس حمزة من تتحكم فيه امرأة. لا بد أن يعرف حقيقتك كل من في البيت.

جمع نساءه وأولاده، ثم قال: أريدكم أن تعرفوا يا أهل بيت حمزة أن فرون خائنة لا تستحق العيش وأني أبقي عليها زوجة لأذِلها لا أكثر.

لم تنطق، نكست رأسها وهي تدعو الله أن يبتعد، ولكنه لم يبتعد، دفع بها إلى الحجرة، ثم أغلق الباب وخلع عباءته، نظرت إلى عينيه في فزع، ثم قالت في قوة: لو ذبحتني الآن لن يحدث.

أغمضت عينيها وقشعريرة تسري في كل جسدها فقال هو: أعطيك فرصة أخيرة قبل أن أقتلك بيدي.

قالت في صوت لاهث: أتمنى أن تتركني أعود لبيت أخي ولك كل ما تريد.

- لم أعد أريد سواك. اليوم أعرف لو كنت تكذبين، جئت بمن ستكشف كذبك وعندما تفعل سأذبحك أمام أبيك.

لم تفهم ما يقصد حتى فتح الباب، ونادى سيدة عجوزًا، دخلت في بطء، ثم قالت: اتركني معها.

كانت تمسك بعصًا غليظة، قالت في صوت رتيب: جئت لأخرج الجن من جسدك.

بدأت السيدة العجوز تضربها بالعصا ساعة أو أكثر وهي تصرخ بلا كلمة ولا رجاء، تحملت في صبر وعند الانتهاء مصمصت شفتيها ونظرت إلى فرون قائلة: أنت تكذبين على زوجك. الجن في قلبك وليس في جسدك.

صمتت فرون، ثم قالت: لك ما تريدين وقولي له إنك فشلت.

ابتسمت في انتصار وقالت: أنا لا أفشل، ولكني مستعدة أن أفشل هذه المرة.

خلعت فرون قرطها ووضعته في كف السيدة فخرجت وأخبرت حمزة أن الجن احتل الجسد كاملًا، ولا بد من موت فرون ليخرج، فتمتم: اقتليها إذن ننتهي منها.

ثم اقترب من فرون ونظر إلى عينيها وقال: أنا أعرف حتى قبل أن أتزوجك، كنت أعرف. أتدرين ما الذي أعجبني فيك يا بنة الحلواني؟ أن بدرًا يريدك وأنه لن يحصل عليك ما حييت. بدر كان سيحترق بنار الفتنة التي أشعلها. وأنت شيطانة.. من تعشق الأرمني شيطانة.

ثم ضرب كفًّا بكف وخرج. فتسللت خارج البيت إلى بيت حفصة وبكت بين ذراعيها وقالت: حفصة أنا لا أصلح أن أكون ابنتك. قلبي كله شر أنا أكره حمزة كرهًا كبيرًا ولا أستطيع الصفح عن أبي الذي أنجبني. لدي مرارة تصل إلى آخر بلاد الهند.

ربتت على كتفها وقالت: استغفري وصلي. الله أعلم بقلبك.

- يؤلمني أني لن أقابل الله بقلب سليم يا حفصة. قلبي كله غل وحقد.

- ما دمت تشعرين بالذنب فأنت بخير. قلبك يقاوم الغضب الذي بداخلك.

ولكن ذنب الكره كان أهون من ذنب الخيال الجامح الذي كان يصور لها بدرًا كل يوم بين أحضانها. تتوق إلى أحضانه كالغواني وهي زوجة آخر. تُذكر نفسها أنها زوجة لرجل آخر. تستيقظ في منتصف الليل لأنها حلمت بأنها تقبل بدرًا، فتستغفر الله وتصلي وتبكي وهي تسجد تناجي ربها: يا رب سامحني على أحلامي أو عاقبني عليها في الدنيا وليس في الآخرة. نفسي ضعيفة لا خير فيها. يا رب هو الشيطان يصور لي الشوق كالجنة والحب كالوصول. يا رب رحمتك وسعت كل شيء.

بحثت عن ردائه في الخزانة.. لن تخجل، ستتوسده اليوم، ولم تجده. أخذت تبحث في هستيرية وعدم صبر، ثم نادت على حفصة في عصبية قائلة: هل فتح أحد الخزانة؟

قالت حفصة: عمَّ تبحثين يا ابنتي؟

أشارت إلى الخزانة ولم تنطق. فقالت حفصة في حسم: أحرقته يا فرون. هذا لا يجوز يا بنتي. سيعذبك أكثر وجود الرداء وأنت زوجة رجل غيره.

صاحت بلا وعي: أنا لست زوجة أحد. كيف تفعلين هذا؟ لِمَ فعلت هذا؟ لِمَ تكرهينني كل هذا الكره؟! ليتني أموت وأستريح منكم كلكم. فلتذهب هذه العائلة إلى الجحيم. أكرهكم جميعًا. أبي، وأنت، وزوجي، كلكم. تأخذين مني كل ما تبقى.. لماذا؟ أين تعلمت هذه القسوة؟

لم تجب حفصة، عبس وجهها، وتحملت الكلمات في صبر. فشهقت فرون، ومسحت دموعها، وغاصت برأسها في مخدعها وهي تقول: لم لا أموت؟ هذا العمر طال بي. طال بي.

ثم التفتت إلى حفصة وقالت: سامحيني لم أعد أعرف نفسي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الباب الثاني:

عكا 1073 ميلاديًّا - 466 هجريًّا

قالت وعبرتها مخلوطة بدم

تجري وأنفاسها مرفوعة صعدا

لا تطلب النطق مني بالسلام فما

أبقى فراقك لي روحًا ولا جسدا

تميم بن المعز

شاعر فاطمي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ربما الخير كله في نزع شغاف القلب، فبعد أن يعتاد الألم تصبح الدنيا بهمها وفرحها سواء. نُفي إلى عكا أو تحصن بها، ولكن الوقت أصبح طويلًا، لا هو مشغول بثورة جنود طامعة لا يملأ عيونها الذهب، لا تُشبع ولا تُسمن، ولا بقبائل لا تقبل نظامه الصارم ولا سيطرته على الأمور، ولا بجواسيس ومؤامرات تحاك ضده. قضى في دمشق أيامه يصد الهجوم ويحاول البقاء واقفًا، وهنا في عكا الكثير من الوقت للخطط وإعادة الحق لصاحبه. هنا يعيد إدراك ما كان وما حدث. فقد الولد والحبيبة. الولد عند ربه راحة له من أن يرى كم القسوة التي رآها والده في عالم لا يسامح الصادق ولا يشفق على الطاهر. راحة له من أيام يدير فيها رأسه ويتساءل لو كان قلبه هو من غدر أم والده أم زوجته أم جارية وغلام؟ راحة له من التعلق بزينة تضيء ثم تحرق في آنٍ واحد. يا شعبان.. لك مني كل سلام، ولكني أطلب لنفسي الرحمة وليس لك. فالآه تخرج من قلبي فتكاد تُغرق الأفق بالدموع. ولكن مثلي لا يبكي، خُلق للفتك بالعدو مثل السيف الصلب، يوم أن ينثني نتخلص منه. قل لله عندما تقابله إن بدرًا لا يستطيع أن ينثني، ولكنَّ قلبه بين كفيه ميتٌ. الله رحيم سيستمع إليك ولا أدري لو كان سيتقبل مني. ولكني أحاول.. ما أتفه الحب وما أسخفه! فهو كالمياه الفاترة عند شدة الحرِّ. كانت قصة مثل قصص الغواني في مراكب النيل قبل قدوم الحاكم بأمر الله. فالغواني يقلن: البنت عشقت. ليحللن الدراهم بين أيديهن ويدعين الشوق ليُحسنَّ عملهن. كيف للقلب المحترق أن يحب؟ وماذا توقع من البنت؟ أن تحارب أباها من أجل الأرمني؟ فليضحك على سذاجته لحظات القرب، وليتعفف عن هذه الحماقات في المستقبل؛ حتى لا ينظر إلى نفسه كما يفعل اليوم في خجل من عجزه وحماقته. تزوجت حمزة حليف أبي طاهر. ضحك بصوت عالٍ برهة، ثم توقف وقام من مكانه وخرج.

دخل عليه أحمد، كان في الثانية عشرة، ومعه أخوه محمد في الخامسة أو السادسة، جلس في وجوم بعد أن قبل يد والده، ثم قال: هل سأُقتَل كأخي يا أبي؟

قال بدر مسرعًا: لن يحدث. أقسم لك إنني سأموت قبل أن يلمسك أحد.

قال في خوف: والدتي تقول إني سأُقتَل ما دامت الحروب مستمرة.

أطرق برهة، ثم قال: أتثق في والدك؟

قال أحمد في تردد: شعبان كان صديقي ورفيقي، أفتقده بشدة ولا أريد أن أموت.

مد بدر يده، كان ينوي أن يعانق ابنه، ويخبره أنه سيموت هو أولًا، ثم تراجع عن هذا وقال في حسم: الجندي لا يتفوه بهذه الكلمة. الموت ليس بإرادتنا. هو مكتوب علينا كالحياة. ارفع رأسك، أنت قوي كوالدك، ويومًا ما ستصبح أمير جيوش.

هز رأسه وأطاع والده، ثم أمسك بيد أخيه، وخرج من الحجرة.

أطال النظر إلى الجنود، الملابس نفسها والهيئة نفسها، عيون ثابتة على الأفق ونظرة حادة إلى المجهول. هم لا يعرفون وجهتهم ولا يأبهون. هؤلاء جنود غير جنود المستنصر، هم من أهله يتكلمون لغته ويعرفون خُبْزه وجباله. خمس سنوات يدربهم، يذكرهم بالهدف والأستاذ. والأستاذ ليس

الإمام بل هو بدر بن عبد الله الذي جاء مثلهم لمهمة لا يعرفها إلا الله. هؤلاء رجال لا يخافون أبا طاهر ولا حمدان. يعرف لِمَ يخشاه حمدان، ولِمَ أطلق عليه أبا طاهر والسلاجقة ليذكره بالعجز. يعرف أن رجلين قويين في خلافة واحدة غير جائز وغير معقول كوجود العنقاء برأس إنسان بالضبط. ولكن ابن حمدان قُتل في مصر. حدق إلى جنوده، تطارده عينا ولده بين الجنود، يراه متحمسًا ببريق المجاهد الصادق الشجاع، يراه ممتلئًا بالحياة دومًا، عندما يلتفت أحيانًا يرى وجهه في أوجه هؤلاء الشباب، أو نظراته أو إيماءاته أو حركاته، يسمع صوته الفَرِحَ حوله. ردد في حسرة كلمات ابن الرومي:

ألا قــاتــل الله المنايـا ورميهـا

من القوم حبات القلوب على عَمْدِ

عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له

ولو أنه أقسى من الحجر الصَّلْدِ

ثَكِلتُ سروري كله إذ ثَكِلْتُه

وأصبحت في لذات عيشي أخا زُهدِ

ومن كان يستهدي حبيبًا هديَّةً

فطيف خيالٍ منك في النوم أَسْتَهْدي

عــليك سـلامُ الله منــي تحيــةً

ومن كل غيثٍ صادق البرقِ والرَّعدِ

قال عبد الوهاب في رفق: مولاي..

- كأنك تقرأ عقلي يا صديق.

- لا يعرفك مثلي.

- أحيانًا يصدق الشعراء عندما يتذوقون الغدر مثلنا. ولكنَّ الشعراء العباسيين لا يصدقون إلا عندما يتذوقون الألم. أخبرني كيف حال مصر؟

- تسألني أم تشكو لي؟

- ننتظر رسالة من الخليفة. ولكن الأيام ليست كالأيام.. فقدت ألوانها، أصبحت جافة كنهر مصر في هذا الزمان، برائحة كريهة كرائحة جثثها، وبطعم الوباء الذي ينهش في بطنها.

- من يراك يظنك أشد الرجال، ولكن شدتك في الكُرْه كما في الحُب.

- من قتل ابني لا بد أن يُعاقب.

- لم تقل لا بد أن يُقتل.

- لم يكن القتل عقابًا بالنسبة لي قط. كله رحمة يا عبد الوهاب.

أطرق عبد الوهاب، ثم قال في تردد: لم تعد تذكر ابنة الحلواني. أيأتي طيفها على بالك يا بني؟

صمت هنيهة، ثم قال: بدر لا يغفر الخيانة. لا أتذكرها.

قال عبد الوهاب: وبدر يدرك أنه كان والي دمشق حينها، وكان على مشارف الأربعين، والبنت في الثامنة عشرة لا رأت حربًا ولا تحدت جنودًا. كيف لطفلة أن تقف أمام أهلها وتغير مذهبها يا بدر؟ لا تطلب من البشر ما لا يطيقون. لا رحمة في هذا.

قال بلا تفكير: لا رحمة عندي. لم أتعلمها. هذا عصر القوة والعدل وليس الرحمة والغفران.

- كيف محوت حبها من قلبك؟ لك إرادة من حديد.

- هي لا تستحق الكلام عليها.

تفحصه عبد الوهاب، ثم قال: هناك شيءٌ أريد الكلام عنه. وجود المسيحيين من الأرمن في جيش ربما يثير الفتن، سيقولون بدر يحن إلى دين أجداده. لا بد أن أصدقك القول يا بني. الفتنة في البلاد أعظم من جمر الغضا. هذه سابقة لم...

قاطعه بدر: لم أنكر يومًا أن أبويَّ مسيحيان يا عبد الوهاب وأهلي أجمعين. هذا أنا ولن أكون سوى نفسي. أنا أفتح يدي لكل مخلص في جيشي، ولا أهتم بمذهبه أو دينه. أليس هذا ما يدعو له الإسلام؟ العدل بين البشر أجمعين؟ سيتخذني القُواد مثالًا يحتذى به يا رجل.

- أفهمك يا مولاي، ولكني أخاف كلام العامة.

- لا تخف. العامة أعقل من القُواد وأصحاب السلطة لو تدري.

طاف أمامه آرام، بعث بالرجال يبحث عن ابن العم، وعن مكان بيته القديم، وجد بعض الأهل، ولكنه لم يعرف شيئًا عن سوسي. لو ماتت يكون المصير أرحم من الأسر والاستعباد. وجد بعض الأهل ما عداها، ولم يبق أثر بيته القديم ما عدا من يسكنه؟ ولكنه لم يعد يعرف آرام. ويحاول أن ينسى سوسي.

استقرت آمنة خاتون في قصر طليقها، أرادها بجانبه حماية لها ولابنته ولابنيه: الأوحد والأفضل، فهم يحتاجون إلى رعاية الأم. لم يرها منذ خمس سنوات، ولا يريد أن يراها، كلماتها ربما كانت حقيقة، وأحيانًا تصبح كلمات الحق أكثر إيلامًا من موت الأبناء. فلتمكث آمنة خاتون حيث هي في سلام بعيدًا عنه. خمس سنوات وهو يتتبع خطوات أبي طاهر وخطوات السلاجقة. يومًا سيعيد دمشق. ولكن التحصن بعكا أعطاه فرصة لجمع الرجال. خمس سنوات وهو يحلم ولم يكن يحلم بطيف شعبان، كان يحلم بأبي طاهر قاتل ابنه. كيف سيهجم عليه؟ كيف سيتأكد من عدم موته؟ هم سبعة أمراء تآمروا عليه منذ خمس سنوات، منهم أبو طاهر وحمزة.. زوج فرون. أليس من عبث الزمان أن تتزوج البنت الوحيدة التي أرادها من عدوه؟ تُرى أتخطط معه اليوم للقضاء على بدر؟ هل أنجبت له البنات والبنين

ليحاربوا بدرًا؟ هكذا هي قلوب النساء أصغر من قلوب الحمام الطواف في البلاد، هن بلا ولاء ولا إحسان. هذا أفضل فالحب لمثله عجز آخر وهزيمة أخرى. لديه مهمة أو مهمات يقوم بها وينهيها لا أكثر ولا أقل. ثم ينتهي العمر بلا ندم على قلب عَشِقَ فضحَّى أو ضعُفَ فباحَ. ليصمت الشوق ويتقهقر كما تقهقر الأمير من دمشق. لتحترق كل الأحبة في عصر الخيانة والغدر. شدته على قلبه قبل قلبها. وجد غيرها الكثيرات. قصره ممتلئ بالحسناوات يُتقِنَّ الشعر والقراءة والغناء والموسيقى والعشق نفسه. ولكنْ بينه وبين كل النساء حصن من الحجر كأحجار الأهرامات لا ينقرض ولا يتفتت. بينه وبين البشر الحصن نفسه منذ أعوام، منذ شاهد موت الأهل وترك البيت تصلبت الشرايين وتوقفت الدماء البريئة عن التدفق. ولم يزل في العمر ملذات لا تعطي الرضا ولكنها تبعث على الاستمرار. يوم وراء يوم.. وعام وراء عام. وحان وقت الوصول لأبي طاهر وأعوانه. اليوم يقضي ليلته في تدبير أمر الانتقام، وبعد الانتقام يهدأ وينام، ثم يقابل آمنة خاتون.

هذه جارية غير كل الجواري، جمالها نافذ وذكاؤها يضمر كل مكر الأمراء. هي من يبغي. أغدق عليها الأموال ولم يلمسها. عاملها معاملة الأمراء، ثم طلب منها طلبًا لو نفذته يكون لها مع حريتها عشرة آلاف دينار. فقد استمر في العمل عامًا بعد عام يجمع الأموال ويرتب لهذا اليوم. يريدها أن تذهب إلى حيث يختبئ أبو طاهر خارج دمشق في عمان البلقاء. هناك ستعطي أبا حازم شيخ القبيلة رسالة واثني عشر ألف دينار. في الرسالة ستطلب منه شيئًا واحدًا هو تسليم أبي طاهر للجنود التي تصاحبها. لا أكثر ولا أقل. ولكن على الجارية أن تتأكد أولًا من إخلاص أبي حازم لها هي، فلو لم يعشقها ربما يغدر بها، من يدري؟ لو لم ينقذها ذكاؤها تهلك ويهلك معها.

سيصطاد العدو واحدًا تلو الآخر. هكذا قرر ولهذا عمل خمس سنوات. سيبدأ بقاتل ولده، ثم ابن حمدان، ثم علي الحلواني. يريد لعلي الحلواني أن يكون آخر الرجال فبينهما الكثير من الكلام.

نفذت الجارية ما طلبه منها بالضبط وبعد شهر جاءته البشرى، الجنود أتوا بأبي طاهر، والجارية نجحت في مهمتها. لو كان هناك لحظة رضًا دخلت قلبه منذ وُلد فقد كانت اليوم والآن. ذهب إلى حجرة آمنة خاتون وطلب منها أن تأتي معه بلا كلمة.

نزل درجات سلم سجنه في عكا، كان مظلمًا متآكلًا لم يُستعمل منذ زمن، يدخل الرجال إليه ليُفْنَوْا، لم يُفن هو الكثير هنا ولكن غيره فعل. تهدم الدرج من كثرة الصراخ، فقد تراكمت الدموع كما يتراكم الماء العفن على صخور الكهوف. طلب إضاءة السجن اليوم. يريد الكثير من الضوء وسيطلق سراح الكثيرين. لم تفهم آمنة طليقها يومًا ولم تحبه، ولكنها تتبع خطاه في استطلاع لما هو قادم. وتمنى أن يكون ما في بالها صحيحًا. خلع بدر عباءته وفتح باب السجن على أبي طاهر.. التقت الأعين فرفع بدر رأسه قائلًا في هدوء: كيف هو أمير المؤمنين؟

قال أبو طاهر وهو يرتجف: لو لمستني تكون نهايتك. سيثور عليك أهل عكا كما ثار عليك أهل دمشق. لا أمل لك يا بدر.

نظر إلى آمنة ثم قال ساخرًا: ما رأيك أنت يا أم شعبان؟ أمير المؤمنين من قتل ابنك يا خاتون يهددني. ترى أيقف جيشه وراء الباب منتظرًا أن ينقض عليَّ أم سيحرق عكا كما حرق دمشق؟

وقفت آمنة صامتة والدموع في عينيها، فقال بدر في صدق: عندما أبعث بك إلى النار إن شاء الله سيلحق بك ابن حمدان، ثم تتطهر كل بلاد المسلمين من الطمع والفساد.

قال أبو طاهر: وكأنك يا مملوك يا رافضي مسلم مثلنا.

- لك شجاعة حتى وقت الأسر. لنترك الله يقرر من منا المسلم، ولكني أؤكد لك أني قادر على أن أبعث بك إلى النار.

قال فجأة في رجاء: لنبدأ من جديد. لا ذنب لي في قتل ابنك. هي حرب..

- ومن بدأها؟

- لا أدري.. بدأت وانتهى الأمر. لنبدأ من جديد.. لا تقتلني حتى لا تثير العامة، سيكرهونك أكثر مما يكرهونك يا بدر. لا صديق لك، اعتبرني الصديق و..

اقترب منه بدر، ثم أمسك بتلابيبه وقال: أتعرف يا أبا طاهر.. عندما أسلخ جلدك ستموت بعد عدة أيام من شدة الألم؟! ولكن لن أكون قد وفيتك حقك من العقاب. فالجلد بارد وخائن كالجسد، أما القلب فسلخه لا يُخرج آهات ودماء بل أنينًا ولهيبًا.

رجاه أبو طاهر لثم الأرض أمامه وهو يعد ويبكي. ولكن بدر تجاهله.

ثم نظر إلى الجنود وأمرهم: أريده أن يُسلخ حيًّا هنا أمام أم شعبان.

قالت آمنة مسرعة: يا مولاي..

- اشفي قلبك لو استطعت.

- لا شفاء للقلب يا بدر، أنت تعرف.

بدأ الجنود في سلخ رجله وعلت الصرخات، فقالت آمنة مسرعة: أريد أن أخرج من هنا. توقف يا بدر..

التقت أعينهما ثم قال وهو يفتح الباب: يمكنك الخروج.

ارتجفت ثم قالت: وكأنني لا أعرفك.

- بلى ربما لم تفهمي قدر عجزي وموت روحي.

نام بعد أعوام من القلق. نام في هدوء وسكينة، وهو ينتظر الغد عندما تأتي نهاية ابن حمدان. ليس من الصعب فهم البشر، فالطمع والخوف يسيطران دومًا. والخيانة من سمات الطمع وآفة الخوف. لن يقضي على ابن حمدان سوى أقرب الناس إليه. راسل زوج ابنته الأمير التركي ألدكز، بعث إليه رسالة كلها استغاثة، قال إن المستنصر يتمنى منه أن يخلص مصر من ابن حمدان، فقد خرب البلاد كل الخراب، وأشعل الفتن وأقام الحروب في القاهرة والإسكندرية والفسطاط ودمياط. لم يسلم أحد من ابن حمدان حتى الصعيد. وهو لا يتوقف حتى بعد أن ترك الناس بيوتهم، وأصبحوا يبيعون البيت

بالخبز والماء، لا يتوقف ولا يشعر بحجم الخراب الذي تسبب به. عم الفساد وخربت الأراضي، مصر التي رآها العرب قطعة من الجنة بلونها الأخضر أصبحت اليوم أرضًا قفرًا، لا الفلاح يزرع ولا حتى يبقى بجانب أرضه، خربت البلاد. بدأ بدر خطته منذ زمن. صادق ألدكز التركي زوج ابنة حمدان وبعث إليه الهدايا والرسائل. قال له في رسائله: في يد ألدكز التركي إنقاذ مصر من بطش ابن حمدان.. هذا أمر من الخليفة. لو قُتل ابن حمدان يصبح هو الوزير ويحبه أهلها ويقدرونه. بدر يعرف أنه زوج ابنته ولكن الحق فوق المصاهرة. ألم يطلب منا الله أن نقول الحق ولو ضد مصلحة ذي قربى؟ ثم إن خزائن ابن حمدان لم تزل ممتلئة يرثها زوج ابنته، ويرث ملك مصر، وربما يصبح كيوسف النبي عزيز مصر فينقذها من الوباء والمجاعة والشدة.

كان ينتظر الرد وهو يعرف الإجابة. بعد شهر قُتل ابن حمدان في داره على يد زوج ابنته ألدكز وهو يجلس مطمئنًّا في بيته وأهل مصر يموتون جوعًا. ذهب الأمير ألدكز إلى الخليفة يزف إليه الخبر ويطلب الأموال، فدُهش الخليفة المستنصر وأخبره أنه لم يطلب منه قتل ابن حمدان ولا يريد سفك الدماء، يكفي القتل في هذا البلد. ولكن ألدكز لم يقتنع فدخل بجنوده يأخذ ما تبقى للمستنصر من ياقوت وذهب ولم يكن بالكثير، ثم أخذ منه آخر فرس كان يركبه ورحل وقد أصبح وزير مصر كما وعده بدر وكما تمنى من قبل طوال عمره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في دمشق أتى حمزة مهرولًا إلى بيت حفصة، جر زوجته بلا كلمة ثم جمع كل أبنائه الرجال قبل النساء وقال في وجوم: الأرمني الحقير بعد أن قتل أبا طاهر وابن حمدان يريد القضاء علي.

بلعت ريقها ولم تنطق. نظر إلى عينيها ثم قال أمام أولاده: تُرى لو جاء إلى بيتي من سيخون ومن سيقاوم الخيانة؟

قال أولاده بسرعة: نفديك بأنفسنا يا أبي.

قال وهو يهزها: وأنت يا فرون؟

قالت في صوت خافت: نفديك يا حمزة كلنا.

- قولي: يا زوجي سأُخلص لك مهما كان.. هيا قولي.

نظرت لنظرات أولاده وهي تعرف حنقهم وعدم ثقتهم بها ثم قالت: لن أفعل إلا ما يُرضي الله..

- يا زوجي..

- يا زوجي.

صاح وهو يصفع وجهها: ولكنك خائنة. لا بد لأولادي أن يعرفوا حقيقتك. هل أبلغت عشيقك بمكاني؟

بقيت صامتة. فأمسك بسيفه ورفعه ووضعه على رقبتها قائلًا: لو قُتلتِ الآن أحرق قلبه وقلبك. ولكني سأنتظر بعض الوقت..

خرج من البيت هاربًا بعد أن تكلم مع أبنائه ساعة أو أكثر.

القبض على حمزة بعد موت ابن حمدان كان أسهل مما توقع بدر، بعث الجنود إلى دمشق وأتى به، بل لم يبذل الكثير حتى وجده أمامه مُكبلًا يطلب الرحمة. نظر إليه مليًّا. زوج فرون.. تُرى هل تبحث عنه بعينيها الرقيقتين وتدعو الله في صلاتها أن يكون بدر رحيمًا معه؟ ابتسم وهو ينظر إليه ثم قال آمرًا جنوده: اقطعوا رأسه في الحال ثم أريدكم أن تبيعوا بناته وزوجاته بدينار في سوق عكا أمام العامة. قولوا للناس: هذا مصير من يتآمر على بدر الجمالي. أما أحصنته فبيعوا الواحد بدينار ونصف. لا تنسوا زوجته تباع بدينار وفرسه يباع بدينار ونصف.

بقي حمزة صامتًا يطأطئ رأسه.. فقال بدر في هدوء: ترى أيُؤلمك بيع الخيول، أم بيع النساء يا خائن؟

انتظر هذه اللحظة خمسة أعوام. وجاءت ككل انتصاراته بسلاسة ويُسر.

حمزة غير كل الرجال، حمزة من عاشر فرون وعاش معها، من تزوجها غصبًا وهو يعرف أنها تريد «بدر». أين الانتصار اليوم؟ اقترب منه بدر ثم قال: لكَم أحزن عليك يا رجل! تموت وأنت تعرف أن

زوجاتك بين أحضان العامة، لا يستحققن سوى رجال العامة، من يدفع دينارًا واحدًا. تَرى من سيشتري فرون؟ هل تفكر في هذا؟

نظر إليه حمزة برهة ثم قال: ربما عليك أن تسألها اليوم من تحب؟ هل فكرت أنها ستحزن على زوجها؟ تريد إيلامها لأن الحقد لا يترك قلب الأعجمي.

- وكأن قلب العربي كله حنان. ما رأيك يا رجل في مبارزة بين رجلين؟ ولو فزت تعيش وتهنأ بزوجتك.

نظر إليه وكأنه لا يفهم فخلع عباءته وأمسك بسيفه ثم نظر إلى السيف، وقال: الرجل لا يخشى أن يهرم ولكنه يخشى أن تضيع قوته. كل يوم أتدرب على السلاح فعندما أفقد قدرتي على الحرب أموت.

رفع السيف، ووجَّهه إلى حمزة قائلًا: نبارز كالرجال.

اقترب منه حمزة ثم قال: أريد أن أخبرك بشيء عن عشيقتك ربما لا تعرفه. خانتني كانت بين أحضان رجل مختلف كل يوم. ابنة الحلواني لا تحتاج إلى المبارزة، هي زانية تتأوه بين ذراعي رجال دمشق كلها.

لم يبد على بدر أي تعبير ولكنه رفع سيفه. لم يكن بدر يبارز حينها حمزة، بل كان يبارز حزنًا يلبد في الأعماق بلا أمل في شفاء، يبارز دنيا لا تعطيه ما يريد إلا عندما يغض الطرف وينسى. يبارز غيرته على لحظات شغف ربما مرت بهما معًا. فرون عندما تبتسم يكف الأسد عن الزئير، ويخضع الضبع لقواعد العدل والرأفة؛ هذا كان. اليوم لا هو يريدها ولا يعرفها. سمع لهثات حمزة ثم رجاءه، لا يُتقن القتال تُرى أيتقن العشق إذن؟ هل قبلته في شوق وهي تعرف أنه سيموت؟ هل سترجو بدر أن يُبقي على حياته؟ ماذا ستفعل فرون؟

غرس السيف في صدر حمزة ثم أدار وجهه وقال في لامبالاة: بدر لم يزل قويًّا، وسيبقى إلى يوم موته. احملوا جثة حمزة خارج القصر وائتوني بأهل بيته كلهم.

صوت صراخ الابنة على أبيها لم يتوقف، وضعت فرون يديها على أذنيها، وأغمضت عينيها، قُتل زوجها منذ أربعة أشهر وكانت هي وأولاده أسرى عند الأمير. أي أمير؟ بدر الجمالي. هزتها ابنة حمزة وصاحت: هذا الشيطان قتل أبي بدم بارد واليوم يذلنا جميعًا. قتل زوجك!

قالت في ضعف: لنا الله.

قالت ابنته في فزع: ماذا سنفعل يا فرون؟

قالت مسرعة: نحاول الوصول إلى أبي وأخي نستجير بهما.

كيف خطفهن جنود بدر إلى عكا؟ لا تعرف. وكيف انتهى بها الأمر هنا؟ لا تتذكر.

لم تر وجه بدر ولم تحلل مشاعرها، الدماء أحاطت بها والصرخات أصمت أذنيها والحبس في قصر الأمير مع بنات زوجها وأخريات من أهالي أعداء بدر الجمالي كان جديدًا عليها.. لا توقعته يومًا ولا عرفت كيف تتعامل معه. لكَمْ دعت أن تراه ولو مرة قبل أن ينتهي عمرها! ولكَمْ يئست من أن تراه!

واليوم لا تعرف كيف ستواجهه لو طلب رؤيتها وربما لا يفعل. طلبت من الحارس أن ترى أخاها مرة واحدة، رجته وعرضت عليه الأموال ولكنه رفض. بعد شهر من السجن زارتها حفصة فقط. دخلت عليها وهي ملهوفة ثم قالت: ابنتي، ماذا فعلوا بك؟

لم تُجب ولم تبكِ. فقالت حفصة بصوت خافت: اطلبي الكلام معه، سيستمع إليك، لا أتصور أن يبيعك في الأسواق. أي والٍ يفعل هذا؟!

قالت وهي تثبت نظرها على الأرض: فعل هذا من قبل، يُنكل بنساء أعدائه. يجعلهن عبرة لكل خائن وعدو. هذه حياتهم يا حفصة، نحن لا نعرف شيئًا عن حياتهم. ألهتنا الحلوى عن فهم قسوة الزمان.

قالت حفصة: ولكنك أنت لست أي بنت. تفهمين ما أعني؟

نظرت إليها في دهشة، فقالت حفصة: لو لم يزل لديه أي مشاعر تجاهك حتى مجرد شفقة فلن يفعل هذا بك.

بلعت ريقها وهي تكاد تختنق وأغمضت عينيها ولم تنبس بكلمة. فقالت حفصة: اطلبي رؤيته و...

قاطعتها في قوة: لن أرجوه!

- فرون، هذا ليس وقت التعنت. تُرى هل سيبيعك في الأسواق؟ والدك يكاد يفقد عقله. حاول مقابلة بدر الجمالي ولم يوافق على مقابلته. استمعي إليَّ.. هذا عصر الجنون..

- فعلها من قبل مع غيري. لِمَ لا يفعلها معي؟!

قالت حفصة في إحباط: لا أفهمك.

- لن أرجوه.

- أتفضلين أن تصبحي جارية وأنت أفضل الناس؟!

احتضنت نفسها وتمتمت بآيات من القرآن ولم تُجب.

لم تطلب رؤيته ولا مقابلته طوال الأربعة أشهر. ولكنه هو من استدعاها هي وابنتَيْ حمزة إلى الحضور لمجلسه.

بقيت صامتة تنتظر أوامر الحرس بدخولهن على الأمير.

أتهاب بدر؟ ترتجف في جُبْن.. وتعيد على مسامعها دفاعها.. مرة ومرات.

ما إن دخل حتى أغمضت عينيها وتذكرت رائحة عباءته المُعبقة بالمسك وكيف بكت وناحت عندما أحرقتها حفصة. أبقت عينيها مغمضتين برهة ثم فتحتهما وهي لا تعرف هل سيغمرها شوق أم يأس أم جوًى.

التقت أعينهما.. يعرف هاتين العينين، يعرفهما في غضبهما وفي حنانهما ويعرفهما في لحظات اليأس والصبابة. اليوم ربما لم يعد متأكدًا مما يجيش بالأعماق ولا يأبه بما كان.

انحنت أمامه وهي لم تزل تغطي وجهها، فانحنى معها كل الحضور. أشار إليها بالنهوض ثم جلس ولم يسمح لهما بالجلوس. قال في يقين: حمزة أراد أن يتحدى الأمير بدرًا الجمالي. لا بد أن يكون عبرة لغيره. تعرفن ما يحدث لنساء بيت المتمرد الخائن. اليوم يتم بيع نسائه بدينار واحد، وأحصنته بدينار ونصف في أسواق عكا. تُرى كم رجلًا سيريد شراءك يا فرون؟ زوجة حمزة تُباع بدينار في أسواق عكا. لن أسمح ببيعها بأكثر من ذلك.

بلعت دموعًا لم تتساقط ثم قالت في صوت مبحوح سمعه في أذنه كل يوم، كل لحظة وكل ليلة لا تركه يفيق ولا قضى عليه: الأمير بدر الجمالي قادر على كل شيء. السيف في يده والجيش تحت إمرته. ولكني أرجو منه الرحمة. حمزة.. قُتل يا مولاي وبناته لا يستحققن العقاب. لا تزر وازرة وزر أخرى.

- العقاب ليس لمن جنى يا جارية، العقاب لمن يجرؤ. العقاب ليوضح أن القدرة في يدي، أرحم أو أعفو أو أعاقب. زوجك قُتل لأنه جاء بالبلاء لهذا البلد. القضاء عليه وعلى غيره من الخونة سيستمر هدفي وواجبي. أما أنت فعبرة لغيرك..

قالت: أتريد أن تبيع بنت الصقلي في أسواق عكا؟

قال دون أن ينظر إليها: اليوم.. في هذه اللحظة.. هي وكل أهل بيت حمزة. لن أعامل أهل بيته برأفة لم تكن عندي مع غيره.

انحنى ليقرب وجهه من وجهها ثم قال: أما الصقلي وأهل الصقلي فلا أعرف عنهم شيئًا سوى أنهم يريدون العزة لأنفسهم والذل لأهل مصر.

بقيت صامتة.

فنظر إليها وقال: فرون لا ترجو؟ لن تطلب عفوي؟

قالت ابنتا حمزة في سرعة: نحن نطلب عفوك يا مولاي. نرجوك ونستحلفك.

ابتسم ثم قال: أسمعها من زوجة حمزة.. ثم أفكر..

حنت رأسها ولم تنطق. ضربت ابنة حمزة كتف فرون بأصابعها وهي تقول في حقد: توسلي إليه هيا.. ماذا تنتظرين؟!

أطبقت شفتيها ثم نظرت إليه وقالت: الأمير سيفعل ما يريد سواء توسلنا أو لم نتوسل.

قالت الابنة: أنت خراب علينا. يا أمير بعها هي، هي من أتت بالخراب، أما نحن فأبناء حمزة القائد. أتوسل إليك أن ترحمنا.

التقت أعينهما وشعرت بوخز في القلب ثم قالت في تلعثم: أتمنى من الأمير أن يرحم بنات حمزة حتى لو قرر ألا يرحم زوجته.

ردد: زوجته..

اقترب منها ثم قال: من تتزوج أميرًا في الجيش تعرف أن مصيرها محكوم بمصيره. ألم يُخبرك والدك بهذا قبل أن تتزوجي من حمزة؟

لم تُجب.

قال فجأة: ربما أرفق بحالك لو تكلمت.. أنت أو هما.. أريد معرفة كل شيء عن حمزة: رجاله، من هرب، ومن بقي.. أمواله أين هي؟

بلعت ريقها وأخفت كفها وراء ظهرها حتى لا يرى ارتجافتها ولم تنطق.

- لا تعرفين أم تتعمدين حماية ما تبقى؟ خوفك يدل على أنك تعرفين.. ولا بد أنك تعرفين أني أستطيع أن أجعلك تتكلمين، أليس كذلك؟

رفع يده للجنود فشدوا البنتين وهما تتذمران وتتوسلان ولم يَشُدوا فرون.

أبقت رأسها منحنيًا ويدها وراء ظهرها، فقال وهو يقترب منها: فرون.. من تصنع عروسًا من الحلوى ثم تأكلها بلا رأفة. تُرى هل ستحكين لي كل شيء عن حمزة؟ كم دينارًا في خزانته؟

بلعت ريقها وتحاشت النظر إليه ثم قالت: لا أعرف يا مولاي.

- أنت أعطيته الذهب. ماذا أعطيته؟

قالت بلا تفكير: لا أتذكر.

صمت برهة ثم قال في صوت ثعباني: أنت لا تعرفين الأمير. هل حكوا لك عن سلخ أبي طاهر؟ هل تعرفين السلخ يا فرون؟ تشعرين بنزع الجلد عن الجسد. الإنسان غير البهيمة يا فرون، جلده يلتصق بالقلب وانتزاعه نار جهنم.

رددت وهي تخفي كفها المرتجفة: نار جهنم.

أمسك بكفها من وراء ظهرها ونظر إليها ثم قال في جفاء: ابنة الحلواني تخاف؟!

لو كان يفكر في سلخ الجلد فقد حدث منذ زمن، ولو أراد أن يقتلع القلب فقد فعل. لم تُجِب.. نظرت إليه في تحدٍّ ونزعت يدها.

فقال: أعطيتِ حمزة سبعة أرطال من الذهب ونصف رطل.

قالت: مولاي يُتقن عمله ويعرف أني لا أُتقن الحساب ولا أعرف شيئًا عن الأرقام.

قال في جمود: هذا عشق غير كل عشق. الزوجة التي تعطي زوجها الذهب تستحق حبه ولكنه لم يُحبك، اتهمك بالبغاء والزنا.

لم تنطق. أطبقت شفتيها وهي تدعو الله أن يتركها بدر ولا يستمر في حرقها، فقد تسعر الجلد وانتهى الأمر.

قال في حسم: سأبيعك لرجل بدينار. لا تستحقين أكثر من ذلك.

لم تنطق.

قال في قوة: تكلمي وإلا ذبحت ابنتيه أمامك.

قالت في تلعثم: مولاي عادل دومًا.

قال وهو ينظر إليها: ترجِّيني يا فرون كما رجاني أبو طاهر.. ربما أغفر لهما، ولكنني لن أغفر لك.

عبس وجهها ثم انحنت وأمسكت بثوبه ولثمته وقالت في صوت مبحوح: أرجوك يا مولاي أن ترحم أولاد حمزة وزوجاته ما عدا أنا.

ها هي تلثم رداءه كما فعل أبو طاهر ولكن شتان بين قبلتها وقبلته! تُحرك القلب الميت أو تفطره لا يدري. ولا يود أن يعرف.

قال في حسم: انهضي يا فرون.

قالت وهي تنهض في بطء: طلبت مني أن أرجوك.

- ولكنكِ لم ترجيني. أنت تطلبين رحمتي لغيرك وليس لك. أهذا من أجل كبريائك أم شجاعتك؟

قالت بعد هنيهة: من أجل يقيني.

- يقينك بمن؟

لم تنطق فصاح في غيظ: أنت أخبث مما ظننت. اغربي عن وجهي حتى لا أقتلك بدلًا من بيعك.

أمر جنوده فشدوا فرون فذهبت معهم في صمت.

ثم أمر جنوده بتنفيذ كل ما قرر.

كان متخفيًا في السوق اليوم يشاهد في حماسِ طفلٍ بيعَ فرون وبنات حمزة. هرب عامر بن حمزة خارج البلاد، ولكنه سيجده عاجلًا أم آجلًا. نظر إلى عينيها، ودَّ لو رأى الانكسار فيهما، يريد أن يرى الذل والعجز. نعم العجز خاصة. يريدها أن تتذوق طعم الفراق ولوعة البين وظلام اليأس. للخيانة ثمن. هذا أكيد. لا طلب حبها في الماضي ولا توقعه، ثم اخترقت عالمه كنباتات الجنة، تفتح أزهارها داخل الأضلع وعند مداخل الروح. هذا ماضٍ. لا رجته لنفسها ولا حاولت أن تعيد العهد القديم. يعرف كبرياءها وإخلاصها. الحزن في عينيها من الشوق للزوج أم من فقد حريتها وهوانها بين الناس؟ تقدم رجلٌ يريد أن يشتري فرون. أغمضت عينيها وكأنها تغلق الحواس عما هو قادم، دفع الدينار وطلب منها أن تسير وراءه. تتبَّعها بعينيه كانت منحنية بعض الشيء تمشي وجسدها كله قد انهزم. لا صرخت ولا دعت على بدر الجمالي كما فعلت بنات حمزة. انفضَّ السوق وبيعت النساء، وسار هو إلى قصره وهو يبتسم في بعض الرضا ولكن الحزن لا يتزحزح.

وسط صخب السوق والصيحات والرجال والنساء أغمضت عينيها، وراحت في عالم غير العالم. لم تنظر حتى لمن اشتراها ولم تأبه بشيء. تذكرت فقط لحظة فتحت خزانتها فوجدت رداء بدر قد

اختفى، كيف فزعت كطفل فقد أمه؟ كيف كرهت كل من أحبت؟ وضعت يدها على قلبها، وهمست لا تعرف في غضب حزن أم عتاب: بدر.

لهثت بعد المشي ساعة أو أكثر خلف من اشتراها، ثم قالت: متى نصل؟

لم يُجبها أحد. تمتمت لنفسها: هو بدر.

فقال الرجل الذي يمشي بجانبها: ماذا قلت؟

لم تُجب. توقفت فجأة ونظرت إليه برهة ثم قالت: من أنت؟

فقال في لامبالاة: من اشتراك بدينار.

- وإلى أين نحن ذاهبون؟

لم يُجب، قال في حدة: سيري بلا كلمة ولا تتوقفي. لا صحة لديك كيف ستخدمين بيتًا بأكمله؟! هيا.. أنت حقًّا لا تستحقين أكثر من دينار.

سارت معه في لامبالاة وهي تلهث من التعب حتى وصلا أخيرًا.

أسبلت جفنيها وهي تقف في انتظار.. لم تكن في انتظار من اشتراها. قلبها لم يكذب عليها من قبل. فتح الباب ثم جلس على السرير وقال: ارفعي رأسك واخلعي خمارك.. أريد أن أرى وجهك..

رفعت رأسها وقلبها على مسمع منها ثم خلعت خمارها ونظرت إليه، ذبُلت عيناها هذا أكيد. الوهج في ملامحها انطفأ كالنار بعد أن تخمدها الرياح. تمتمت بلا تفكير: قتلت زوجي.. يا بدر، ثم أذللتني. لِمَ لم تتركني لرجل آخر؟

قال في حدة: قتلت من تحالف ضدي. لا تعطي لنفسك أهمية لا تستحقينها. ولا تنطقي اسمي دون أمير. ولِمَ أتركك لرجل آخر ما دام يمكنك أن تكوني ملكًا لي؟!

نفذ خطته كما أراد بالضبط. تعرف الآن من هو بدر الجمالي. ستعرف أنها بالنسبة إليه لا شيء، جسد بلا روح، جارية اشتراها في السوق بدينار فقط. لا تساوي أكثر من هذا الفرس أغلى منها وأهم. سيثبت لها اليوم أنه تغلب على حبها منذ أعوام وأنه لا يغفر الخيانة والجبن.. فالجبن أعتى من الخيانة وأكبر خطيئة على الأرض. سيعاشرها ثم يلقي بها إلى حيث لا يراها مرة أخرى. ولِمَ يعاشرها؟ لأنه أرادها ربما. نعم هو اشتهاء لا أكثر. سينتهي الاشتهاء عندما يعاشرها، لن تؤثر فيه كما فعلت في الماضي. الماضي انتهى وفرون لا شيء. ردد لنفسه وهو ينظر إليها: هي لا شيء.. جسد يشتهيه سيرتوي منه ثم ينتهي الأمر، سينتهي الأمر، كيف يتركها تُباع لغيره لو كان يستطيع أن يجعلها جاريته؟ تُرى هل عرفتْ؟ أم أنها طوال الطريق تنتظر مصيرها مع رجل جديد؟

ولكنها عرفت. منذ اللحظة الأولى لا تعرف كيف ولا لماذا أيقنت أنه هو من سيشتريها. حتى لو وسوس لها الشك في لحظات.

خلع قميصه وجلس على مخدعه وأشار إليها بالجلوس فجلست وهي ترمش بعينيها وتحاول ألا تنظر إليه. قبضت كفيها وشعرت بدوار في الكبد وفي العقل، توقف الزمن ثم قالت في تلعثم: أردت أن تذلني يا بدر؟

قال في حسم: نعم.

لم تستطع أن تمنع عينيها من أن تتفحصه، ترى آثار الطعنات على ذراعه، شعره الأسود امتزج بالشعر الأبيض، ولكن حاجبيه لم يزالا يشيان بقوة وحزم يذيبان الصخر. قبضت على يديها أكثر، لا تدري أتريد أن تحتضنه أم تلكمه. في الماضي تصورته عاري الصدر بين أحضانها، وكم مرت على أضلعه بيديها! وكم قبلت كل قطعة منه في أحلامها! تمتمت بالاستغفار فلم تستطع أن توقف الأحلام حتى وهي زوجة غيره. الذنب يفني النفس لا عذاب كعذابه. تذكرت الأحلام وأمسكت برقبتها كأنها تختنق.

قال في جفائه نفسه: أخبريني يا فرون هل حقًّا خُنت زوجك؟ فكرتِ في غيره وأنت معه كما ادعى؟ أم زنيتِ مع غيره؟

قالت وهي تعبث بالغطاء بأصابع مرتبكة: خُنته في خيالي وأعرف أن هذا ذنب.

ضحك في سخرية ثم قال: في خيالك يا ابنة الحلواني؟! لا مجال للخيال في حياة الأمراء. كيف خُنته في خيالك يا جارية؟

تشبثتْ بالغطاء ثم قالت: كنت أحلم.. برجل غيره.. أعانقه، أمر بيدي على صدره هو بضعة مني وأنا بضعة منه. أعرف إثمي وأتوب إلى ربي هو رحيم عليم.

وضع يده على خدها ثم قال: تُرى من سيئ الحظ هذا الذي لعب به خيالك؟

فتحت فمها ثم نطقت الكلمات: أنت.

تجمدت يده على خدها تطايرت شظايا النار من عينيه ثم قال: إياك! أذبحك الآن. لا تحاولي استمالتي ولا اللعب معي. نحن لسنا متساويين أنت هنا جارية. تذكري.

ثم نزع يده من على خدها وتنفس في بطء كأنه يستجمع نفسه من أن يقتلها ربما أو شيء آخر لا تدري، ولم تعد تخاف منه.

بعد برهة وضع يده على ذقنها ثم مر بيده على رقبتها، أمسكت بيده وقبلتها مسرعة وهمست باسمه. انتزع يده من يدها وصاح في وجهها: توقفي.

قالت وهي تحتضن جسدها: ماذا فعلت يا مولاي؟

قال في عدم صبر: قلت لك حيلك لا تُفلح معي. أريدك هنا على مخدعي.. اشتريتك اليوم.. استلقي على ظهرك وانتظري أوامري.. جاريتي.. بنت الصقلي، يا فرون أصبحت جاريتي. تحت إمرتي.

لم يستطع أن يرى ما وراء نظرتها، دفع بها ثم اقترب منها.

قال وهو يلمس الخطوط بين حاجبيها: متى ظهرت هذه الخطوط؟ أكنت تعبسين كثيرًا في السنوات الماضية؟

قالت في صوت بائس: أنت دومًا تمتاز بالدقة والإتقان. لا تنسى أي تفاصيل..

- دعي عنك دور الضحية.. مصيرك أفضل من مصير غيرك.

قالت وهي تحتضن نفسها مرة أخرى: لا أعرف مصيري بعد.

مر بيده على شعرها فأغمضت عينيها وسقطت دمعة حاربتها أعوامًا. همست: بدر..

اقترب منها أكثر وقبل زاوية شفتيها في بطء ثم قال: ما كان في الماضي انسيه. اليوم أنت جاريتي قلت لك. اليوم تدفعين ثمن الخيانة والتخلي. ستعرفين الفرق بين العشق والتجارة يا ابنة الحلواني. أعدك أنك لا شيء بالنسبة إلي. جسد مثل أجساد الجاريات، لا سأتذكره ولا سأعرف من تكونين. وأعدك أن بدرًا لا ينسى الغدر قط مهما حدث. عندما تنتهي هذه الليلة لن تريني مرة أخرى. وستكونين قد انتهيت بالنسبة إلي.

نظرت إليه هنيهة والعذاب يغمر عينيها، ثم قالت عاتبة وكأنها لا تسمعه: إلا الخيانة. اتهمني بالجبن ولا تتهمني بالخيانة... ليتك تعلم أنني تمنيت أن أحيا معك كجاريتك كل يوم وكل لحظة وأنا بدونك. لا ذُل في هذا يا بدر.

أصابته الحيرة.. لا توقَّع هذا الاستقبال، ولا هذا الضعف والشوق في عينيها. لو كان مستعدًّا أن يواجه لومها فربما لم يكن مستعدًّا لمواجهة هذا الحنان.

قال وهو يمر بيده على شعرها: لا تتكلمي انسي ألاعيب النساء قلت لك.

أغمض عينيه وقبل شعرها في بطء ثم أعاد سيطرته على نفسه وقال في حدة: اخلعي ملابسك أريد أن أراك.

اعتدلت في جلستها ثم وضعت كفها على خده ومرت عليه في وجل وهي تقول: أنت.. معي.. ظننت أني لن أراك حتى الموت. عقابًا على خوفي ربما. كنت أستحق ألا أراك، ولكن الله رحيم بي.

لم يعد يعرف هل يستطيع أن يسيطر على الحنو الذي تملكه أم الشوق أم الشغف. فليتذكر ما كان. هي لعبة من ابنة الصقلي لا أكثر. لم يعد أمامها سوى إرضائه. هي من تخلت عنه، هي من اختارت حمزة. بدر لا يغفر. عندما يروي ظمأه سيخرج من حجرتها، ولن يعود مهما حدث. بعد ساعة من الآن.. نعم. عاهد نفسه ألا يبقى معها أكثر من هذا. إرادته من حديد وكثيرًا ما منع نفسه مما يريد وعزفت نفسه عن كل الملذات. استرجع صفعة أستاذه منذ أعوام، انتزع قطعة الزمرد من بين أصابعه وعاقبه على التمني.

أزاح يدها ثم قال: افعلي ما آمرك به فقط، لا أريد أن أسمع منك أي كلمة. ولا أن تلمسيني دون إذن. هل تسمعين؟

هزت رأسها قائلة: أسمع.

اقترب منها وهمس في أذنها: طلبت منك أن تخلعي ملابسك.

لم تُجب.

أمسك بردائها ليزيحه عن كتفها، فأمسكت بيده لتمنعه دون إرادة، أبعد يدها وشعر برعشة في كل جسدها. فقال في تهكم: ماذا بك يا فرون؟ خائفة؟ أم تخجلين مني؟

هزت رأسها بالإيجاب. ثم همست: ارفُق بي.

- ها أنت ترجينني. ظننتك لن تتوسلي.

اقترب منها فقالت في رقة: الآن أتوسل لأنني مع روحي. أنت بضعة مني كما قالت جدتي لجدي.

حاول ألا يفهم كلماتها وألا تؤثر فيه.

أزاح عنها الرداء في بطء، فهرولت تمسك بالغطاء لتغطي نفسها في خجل. وعضت على شفتيها في حسرة ولوم على أحلام ماضية لم تستطع فيها أن تحفظ عهد زوج فُرض عليها. كان بدر يحتلها كلها.

وضع كفه على وجنتها ورفع حاجبه في استهزاء ثم قال: من يلمس وجنتيك الساخنتين ويرَ ارتعاد أطرافك يظنك عذراء. ألم تخلعي ملابسك لزوجك يا فرون؟

تمتمت بشيء لم يسمعه. قال في جفاء وهو يمر بكفه على رقبتها وكتفها: أنت جميلة.. هذه حقيقة لا يمكن إنكارها. الجواري لا خجل لديهن يا فرون.

لو أراد أن يجرحها فلن ينجح. كان الجسد ينتفض ويتذكر التمني. أمسك بيدها التي تتشبث بالغطاء وانتزع الغطاء ثم قال وهو ينظر إليها: افتحي عينيك.. لا تدَّعي الغفلة.. أريدك مستيقظة متذكرة من أكون..

قالت في ألم من وجدٍ لا ينتهي: أعرف من تكون..

قال وهو يقترب منها ويمر بيده على جسدها: أنا من مَلَكَكِ.

رددت وهو لا يعرف ما تعني: أنت من ملكني منذ زمن..

لو كان يظن أنه يعاقبها فلا بد أنه لا يعرفها. أقسم ألا يُقبلها وألا يذوب داخل صدرها كما كان يحلم، أقسم أن يعاشرها كجارية ثم ينساها. وكلما حاول يجد شفتيه تبحثان عن شفتيها وعن وجهها وعن كل قطعة منها. هي الأيام عندما تتكاثر تُربك. نعم لم يتقابل معها منذ زمن وتركها وهما عاشقان، هذا كل ما في الأمر. ولكنها خائنة لا أكثر، الخوف والولع يتقاسمان الرجفة الواحدة. ليُذكر نفسه الأمارة بالسوء بأن فرون خانت وتخلت. فرون قالت: لست بقوتك وشجاعتك يا بدر.. فرون.. لِمَ يغيب العقل في براح الفجر الذي لم يأت؟

كان يعاقب نفسه، يحاول الفصل بين جسده وروحه، يقطع بسيفه شغاف قلبه. لا اعترضت ولا طلبت منه شيئًا. كلما شعرت بيده أو قبلته أغمضت عينيها وتنفست وكأنها تريد أن تلملم اللحظة بين راحتيها إلى أبد الآبدين فربما لا تدوم.

لو كانت تشعر بالذنب لأن حبيبها قد قتَل زوجها، فوجودها معه قد جعل كل شعور آخر يتلاشى من حولها. تمتمت وهي تشعر به بداخلها: اشتقت إليك عمرًا.

لم تتمنَّ في حياتها سوى هذه اللحظة. طوال عمرها وهي تحلم به وتطلب المغفرة، ولكنها له اليوم، هي ملك له. ربما يحاول ألا يعاملها برقة، ربما يبخل في قبلاته ويعبس وجهه كلما رقت عيناه، ربما يقاوم ما لا تعرف، ولكنها لا تهتم بهذا. لا تريد سوى قُربه. قُربه وهو غاضب، قُربه وهو حانق، قُربه وهو بداخلها.

تجمد مكانه، شحب وجهه. فزع ربما أو فرح لا تدري. همس في ذهول: كيف؟

قالت بلا تفكير: لم أستطع. أقسم إنك أول من يراني وأول من يلمسني.. لا تتركني ولا تبتعد.

كتمت آلامها وهامت في دنيا غير الدنيا، هذه لمسات غير كل العمر، وهذا حُب لم يكتب عنه أحد من قبل.

ها هي خطته كلها تتهدم أمامه، ثم تتبخر في الهواء كالغبار. فلا فرون خائنة، ولا فرون ابنة علي الحلواني سوى حفنة من الصدق والعشق. فليُبق على عقله. لا بد أن يُبقي على عقله. بعد أن انتهى من معاشرتها كانت هي أيضًا قد أنهته. استلقى على ظهره ثم شدها إلى صدره وقال: زوجك لم يلمسك خمس سنوات؟ كنت عذراء.. كيف؟

همست وكأنها لا تسمعه: هل تسمح لي؟

نظر إليها في نفس ذهوله: أسمح لك بماذا؟

- بأن أقبلك. أن ألمسك.

بلع ريقه، ثم قال وهو يتظاهر بالشدة ولا يستطيع: أسمح لك.

قبلت صدره في لهفة ثم أحاطت صدره بذراعها ووضعت رأسها على بطنه. هزمته، شلت يده التي تحمل السيف في لحظة. ضاع عتاب أعوام وحقد أيام متناثرة. وضع يده على شعرها ثم همس: كان يمكن أن تأتي معي. رفضتِ. هل تتذكرين؟

قالت وقلبها يخفق بشدة: كنت تريد أن تسمع توسلي. أتوسل إليك سامحني لأني لست بشجاعتك، ندمت كل يوم، كل لحظة كنت فيها بعيدة عنك وأنا أعرف أني ربما لا أراك طوال عمري، كنت أندم وأتمنى الموت. لم أستطع فضح أبي ولم أستطع أن أكون لغيرك. لولا إيماني كنت قتلت نفسي. أنت روحي وكل وجودي.. أنت..

أغمض عينيه ثم قال في حسم: لا تتكلمي. لا تقولي كلمات الحب، لا أحب سماعها.

قالت مسرعة والدموع تتساقط بلا توقف: ولكني أحبك وأُقسم ما استطعت أن أكون لغيرك حتى لو قطعوا جسدي. هل تعرف ما تحملت؟

خفقت يده وهي تمسح دموعها، انفرط عقد السيطرة من بين أضلعه، قال في رقة: لا تبكي.

إياك أن تبكي..

طأطأت رأسها وقالت في صوت مبحوح: خمس سنوات أموت كل يوم وأنا أعرف أني لن أراك بقية عمري. ينوح الفؤاد في صمت، ويتشقق كالأرض القفر. ثم تظن أنك تعاقبني اليوم؟ مجرد ظهور وجهك أمامي جائزة يا مولاي. العقاب هو البعد عنك. ربما تريد أن تبتعد لتعاقبني.. أتمنى ألا تفعل..

أحاط وجهها وقبلها في قوة كما كان يحلم منذ أعوام، قبلة كادت أن تذيب الأرواح وتصل القلب بالقلب. من لهفتهما معًا أصبحت الأنفاس حملًا وسط كل سكرات العشق. هذه المرة كانت غير أول مرة، أحبها كما كان يحلم بإتقان ورفق ورقَّة، سمع آهات شوقها في أذنيه واسمه بين شفتيها، شعر بيديها تمران على جروحه فتُلقي عليها سائلًا سحريًّا يحمي من كل الخيانة والغدر. هذه المرة فقد عقله من شدة شغفه. وانهارت حصونه من عطائها الذي لم يتوقعه ولم يعرفه. أكان يحلُم؟ هل تزوجت فرون؟ كيف.. لم يلمسها حمزة؟ كيف؟ أي رجل يترك امرأة كهذه دون أن يلمسها؟! لها إرادة من حديد. هذه بنت غير كل نساء الأرض. وماذا تحملت حتى تُبقي على نفسها بعيدة عن حمزة؟ لو كان هناك شخص واحد باستطاعته أن يُفقده عقله فهي فرون. ربما فقده، ربما آثار الحب محت ذاكرته فلا هو يعرف لِمَ يبقى في عكا، ولا ماذا سيحدث غدًا. وليته اكتفى أو أطفأ شوقه، بل ازداد الشوق كأنين الجروح العميقة. استكانت بين ذراعيه فرون في استسلام تام وهي تقبض بكفها على ذراعه كأنها تخاف أن يفر منها مرة أخرى. لم يناما. لا نوم اليوم، والبدر يبرق ثم يراوغ في السماء الكاحلة. وعند الفجر غطاها بالغطاء وحملها إلى الشرفة وجلس وأجلسها فوق ركبتيه فضمته ووضعت رأسها على كتفه وأغمضت عينيها. فالحب مُدام، وسُكْره غير كل سُكْر. ها هي الجنة جاءت بلا مقدمات. أراد الانتقام، تمنى أن يُذلها، فأنهته وأنهت كل غضبه بين عشية وضحاها.

نظرت إلى القمر في السماء، أكان بدرًا أم قمرًا مكتملًا؟ كيف اكتمل في ساعة؟ ثم نظرت إلى وجهه وقالت وهي تضع قبلة على رأسه: أنت يا بدر في السماء وفي الأرض.

لم ينطق فطوقت رقبته واختلجت بين أضلعه وهمست: آه من الفقد والولع! آه من البين بين جسدين والروحان معًا! انتزعوا عمري وأنا بعيدة عنك. كرهت الحياة كلها، وخفت على تشوه القلب وحقده. افتقدتك.. كم افتقدتك!

ثم أحاطت كتفه بيديها في قوة وقبلت صدره ثم رقبته وحكَّت خدها بمكان النحر.

هل ارتجفت أطرافه؟ هل تهدمت كل حصونه أمام غزارة صدقها وتوقها؟ همست: اشتقت إليك.. تمنيتك كالجواري، وكنت أُوبخ نفسي، أُعاقبها فتزداد عنادًا. تحكمت يا بدر وملكت منذ أعوام. كنت أتخيلك كل ليلة أتصور نفسي بين ذراعيك وأستغفر من ذنبي.

لم يستطع النطق حينها. خاف من كلماته. قبَّل وجنتها قبلات متناثرة وقال: سيكون هناك وقت لتحكي لي وأحكي لك.. ليس اليوم.

همست وهي تقبل ذقنه: اليوم ستبقى معي، عدني أن تبقى معي. ننسى كل العالم ونبقى هنا. هل تستطيع؟

قال في حسم: أستطيع. ننسى كل العالم وأمامنا كل الأيام، كل السنين، كل الدهر. هذه المرة لن يأخذك مني أحد.

أمسكت بيده وقبلت كفه وقالت: الدنيا لا تُعطي.. الدنيا تبتلي وتأخذ. أنا لم أعتد منها الجود.

لم يُجب ولم يستطع، راح في دنيا غير الدنيا، خطفته لعالمها، ثم أيقظت جراحًا وآمالًا، للحب مذاق مختلف يبقى في الأطراف، يُنعش النفس العليلة، يُبقي على الروح وسط الشياطين ونيران الجحيم. آه يا فرون! لو تعرفين.. ولكنه أيقن.. فاجأته.. وزلزلت كل ما تبقى من أيامه. فتح فمه ثم قال والكلمات لا تخرج: أربكتني يا فرون، لم أعد أعرف من أكون وأنت بين ذراعي.

قالت في بعض الحيرة: أنت غاضب مني؟ لم تزل غاضبًا مني. أقسم إني ندمت على كل يوم قضيته بدونك. وإني مستعدة أن أبقى جاريتك لو أبقيتني معك، ولكن..

قال في بعض الخوف: لا يوجد لكن. ستبقين معي.

- يقولون قتلت زوجها لتبقى مع عشيقها. لِمَ قتلته يا بدر؟

- لأنه ساعد على قتل ابني! ألا يكفي هذا السبب بالنسبة إليك؟ بدر الجمالي ليس بالعشيق.

تنفست الصعداء وكأنها كانت تنتظر كلماته. نعم هو على حق بدر لا يُخطئ. هو الحبيب.

- والدي وإخوتي وكل مصر والشام... لن يسمح أحد بأن...

- كل البلاد لي.. وأنت لي قبل كل شيء. أنت ملكي.

- لا تُلق بنفسك إلى التهلكة.

- زوجك.. كيف تركك خمسة أعوام عذراء؟

تلعثمت وابتعدت، احتضنت جسدها ثم قالت: لم أستطع.. قلت لك. هل تغضب مني من أجل هذا؟ هل تظن مثلهم أني مخطئة؟

قربها إليه ثم قال: هل فقدت عقلك؟ إنه أسعد يوم في كل عمري. أغضب منك؟ لا أغضب منك. أغضب من نفسي ربما. ألم يُرغمك؟ حمزة ليس بالرحيم.

- كان بيننا اتفاق..

- ماذا أعطيته في المقابل؟

- كل شيء ما عدا نفسي، لم أستطع.

- فهمت.. لهذا أعطيته ذهبك.

لو أرادت تعذيبه فلا بد أنها نجحت. احتضنها أكثر حتى كادت تتوقف عن التنفس. غاص بداخلها مرة أخرى، أرادها قطعة منه لا تتزحزح من بين خلجاته. تأوهت، لا يدري ألمًا أم من فرط الشوق أم

بسبب الاثنين معًا. بعد حين همست: أتريدني كما أريدك؟ أتحبني كما أحبك؟ لا لا تنطق. أخاف مما ستقول. كنت جبانة ولكني أبدًا لم أكن كاذبة. حاسبني على جبني، لا تحاسبني على الخيانة. فلم أخُن.

لم يستطع الإجابة كان عقله في حيرة وارتباك ونفسه في فرح، ظن أنه غير موجود على الأرض. أكملت وهي تمسح شفتيها بخده: حتى رداؤك الذي احتفظتُ به، كنت أحتضنه في عذاب فأخذوه مني، لحظتها وددت قتل نفسي يا بدر. كأنك أنت الرداء، تعلقت بأي شيء له علاقة بك، أي شيء حتى أطمئن إلى هذا العالم. كنت غريبة وحيدة بدونك. أريد أن أحكي لك.. أعرف أني واحدة من المئات في قصرك وأكتفي بهذا وأستحقه.

قال دون إرادة: لك أي شيء وكل شيء. من اليوم.. أنت سيدة هذا القصر وسيدة عكا كلها.. فرون..

- الرجل لا يصبر على الشوق، لست مثلي أعرف. أنا إحدى جواريك اليوم. أُحبك. وأُقسم إني لا أعرف ما الذي تملكني اليوم، وجعلني أتصرف هكذا، فأبادلك القبلات وأبادرك بها كالجواري، مع أنني لم أقبلك سوى في خيالي من قبل ولم أقبل غيرك قط.

قال في حسم فجأة: هل تثقين بي؟

قالت دون أدنى تردد: أثق بك وأرى فيك بضعة مني.

قال لنفسه وليس لها: خمس سنوات.. من العجز.. أتدرين.. أتعرفين ما العجز؟ العجز يا فرون هو أن أحمل السلاح وأسيطر على الجيوش وأقف حائرًا أمام امرأة أحبها، لا استطعت أن أتزوجها، ولا أصبحت لي. منذ ولادتي.. منذ التقطت أنفاسي والقضاء نفذ، أعوامًا من العذاب أنتظر هذه اللحظة.. أحيانًا لم أكن أريد سواها. لا خمد الشوق ولا رضيت بالقضاء.

لا أفاقت ولا استطاعت أن تطلب أي شيء منه. انصهرت أضلعها داخل أضلعه كما تمنت عمرًا، ذاب كل العذاب ثم تسرب من بين ثنايا الأيام، حتى الغدر احترق كما الشيطان. وجدت موضعًا هنا في أعماق صدره حيث كل الكواكب المضيئة والنجوم الثابتة. جاء ليل وانقضى. لا هي تعرف ما سيأتي ولا ما كان. توقف الزمن وتجمدت الأشياء. كيف للأشياء ألا تتجمد والقلب يختلج، والثغر يستقر على الثغر، والجلد يألف توءمه. والروح التائهة تجد الملاذ والمكان؟ أسند ظهره إلى حائط الشرفة ينظر إلى النجوم ورأسها في موضعه في أمان، مرت بأصابعها على كل جروح صدره، ثم همست: لو أستطيع أن أبقى هكذا للأبد!

قال في حسم: ستبقين هنا معي..

فتحت فمها فقال وهو يضغط على خصرها بذراعه: إياك.. أريدك قوية.. كفاك ضعفًا.. لا أنت فرون التي لم تبلغ الثامنة عشرة بعد، ولا أنت تحت حكم أبيك. أنت هنا في قصري أنت ملك لي.. اليوم أنت ملكي، غدًا تصبحين زوجتي..

خمسة أيام مرت لتعوض خمسة أعوام عجاف. هذه أيام كلها خير. لم يخرج من حجرة فرون، يأتي الطعام إلى حجرتهما. قال للجنود إنه مشغول، لا يريد مقابلة أحد ولا رؤية إنسي. لا يتذكر أنه افترق

عنها طوال الخمسة أيام، كانا كطفلين لا يملان من صحبة أحدهما للآخر. ولا يريدان سوى بعضهما بعضًا في دنيا واسعة شاهقة أكبر من كل قدراتهما.

قالت مسرعة: أخاف عليك يا حبيبي..

ردد: حبيبي..

أمسكت بيده وقبلتها وقالت: لو اشتريتني فهذا ممكن، أما أن تتزوجني فلا بد لأبي أن يوافق، ولا بد للخليفة أن يوافق، ولا بد.. هل ستتزوج من امرأة على مذهب غير مذهبك يا أمير؟

قاطعها: لا بد لبدر أن يفعل ما يحلو له. نعم سأفعل.

ساد الصمت برهة، ثم قالت وهي لم تزل تغوص برأسها داخل صدره: أتعرف العذاب؟ هل تذوقته؟ هل مرت عليك ليلة تجرعت فيها سُمًّا لا يميت ولا يزول؟ أم مر عليك صُبح يكوي الأطراف؟ في فراقك انتهائي وفنائي. ليلة وراء ليلة أسترجع وجهك أمامي، أتذكر لمساتك.. أغمض عينيَّ لتريا وجهك يا بدر..

عانقها بكل قوته حتى تأوهت من الألم ثم قالت: هل نسيتني؟ اصدقني القول..

أخذ نفسًا طويلًا ثم قال في أذنيها: هل نسيتك؟ هل مرَّ علي يوم لا أكرهك، وأحبك، وأريدك، وأتمنى قتلك.. كسرتني عندما عجز الكون عن القضاء علي.. أضعفتني، وقوتي تمتد لتحيط السماء والأرض.. أنت فقط من استقر سهمها داخل صدري ولم أقو حتى على نزعه خشية فقدها. أنت من أضاءت أمامي كل الأرض. هل عاشرت النساء قبلك؟ ربما. كنت مملوكًا اشتراني والي طرابلس، كنت مقيدًا بشهوة ومُلك، ثم جاء عشقك فجعلني أثور على كل الملوك والقيود. عشقك غير أي عشق، ولمسة الرجل لامرأة يحبها تعطي الحرية والقوة. أحبك.

كاد يغشى عليها من فرط النشوة، قالت في حسم: اتركني أعشقك اليوم كما تمنيتك في أحلامي يا أجمل ما في كل الوجود.

استلقت على مخدعهما تتوسد بملاءته الونس من رائحته ووجوده. وعدها ألا يتأخر. وعدها أن يبقى معها بقية ليالي العمر. ابتسمت، وآثار قبلاته ولمساته على جسدها تحييه وتمجده. تمطت ثم غاصت برأسها داخل الوسادة مرة أخرى. اليوم ستصنع له الكنافة بالفستق بيديها. تريده أن يتذوق كل أنواع الحلوى. حكت له كل ما حدث بصدقها المعهود. منذ جرحت وجهها يوم زواجها بأظافرها وهي تتمنى أن تحرق أيامها كلها حتى اختلت بزوجها. استمع إليها ثم عانقها في قوة وأبقى رأسها على صدره حتى الصباح لا ينامان ولا يتحركان.

- بدر.. أنا لم أعد أكره أي إنسان ولا أغضب من أبي. أحب كل نفس وأغفر لكل من آذاني وأتمنى أن يغفر لي من آذيته وأترحم على حمزة وأدعو له.

نظر إليها في عتاب، فقالت: أنت.. أعدت لي روحي.

انتفض قصر الأمير مقدم الجيوش بدر الجمالي فلم يكن من عادة الأمير أن تلمع عيناه في رضا، ولا أن يسأل عن كل من في القصر في حماس. لم يكن من عادة الأمير أن يُنهي عمله مسرعًا ليعود إلى حجرته. حكايته مع فرون معروفة للجميع حتى لآمنة خاتون. لم تكن تغار عليه ولكنه أذهلها. فلم تدرك يومًا أن بدرًا قادر على الحب. بدر الجمالي أصبح يبتسم بل يضحك، يمزح مع حراسه فينظرون إليه في رُعب، ثم يسمعون ضحكاته فيدعون الله أن تبقى معه فرون بقية عمره. هذا رجل يترك العنان للمشاعر تداعبه وتغازله. ضحكاته شجعت الجواري أن يحاولن التقرب منه بعد أن كُن يخشينه، ولكنه لم يكن يراهن. كان يرى فرون فقط. أمامها تهدمت الحصون وفتحت المدن أبوابها.

سمعت آمنة خاتون همسات الجواري ورأت بنفسها فرون، شاهدتها عن بعد وهي تصنع الحلوى له بإتقان وتدندن نغمات الحب. ثم شهدتها وهي تمشي في الحديقة تبحث عن الحيوانات لتضع لها الطعام. نظرت إلى فرون في فزع وهي تُمسك بقطة صغيرة فقدت أمها، أمسكت بها في حرص ثم وضعت فمها على فم القطة وهي تهمس لها بأنها ستكون معها دومًا. ضربت آمنة كفًّا بكف وهي ترى جنون بدر المؤكد، وشكت في عقل هذه الجارية التي لا تعامل مثل الجواري بل كسيدة القصر. تأمر وتنهى وكل من حولها يستمع ويُنصت. ليلًا وضعت اللبن أمام القطة، ولكن القطة رفضت أن تشرب بلا مساعدة من فرون، فساعدتها فرون ثم وضعتها على مخدعها وغطتها، وعندما دخل عليها بدر اتجهت إليه بشوقها المعتاد، وساعدته في خلع عباءته، ثم عانقته بشده. توقف أمام القطة التي تحتل مخدعه، ونظر إلى فرون فقالت في حنان: قطة يتيمة وجدتها في حديقة قصرك يا أمير، وأردت أن أربيها بنفسي. انظر إليها.. صغيرة ضعيفة تحتاج إلى حمايتك.

نظر إلى عينيها وكأنه لا يفهم ثم قال: فرون.. أخرجي القطة من الحجرة، أعطيها لإحدى الجواري تعتني بها.

قبلت فمه وقالت: أخاف عليها سيتركنها تموت. لا أحب الموت يا بدر. خاصة موت الضعفاء. أنت تحمي البلاد فاحم أيضًا الحيوانات. اتركها معي اليوم فقط.

ربت على وجهها، ثم قال: فرون.. هذه حجرة الأمير..

أمسكت بالقطة وقالت في أسًى: انظر إليها وهي ترتجف. ستموت بردًا خارج الحجرة. أريد أن أدفئها بعض الوقت. أعرف إحساس الخوف وعدم الأمان.

قلب كفيه ولم يستطع أن يعارضها. يعرف ما مرت به وما كان.

في الصباح قال عبد الوهاب مازحًا: سمعت أن الأمير بدرًا الجمالي يربي في حجرته قطة يتيمة.

قال بدر وهو يضحك: بعض الجنون مطلوب يا رجل.

فقال عبد الوهاب في فهم: ما أعذب جنون العشق وما أمتعه! ليته لا ينتهي! أقسم إنني منذ عرفتك لم أرك في هذه السعادة، ولا رأيت عينيك تلمعان كالشباب هكذا.

قال بدر وهو يدعي الغضب: أنا لم أزل شابًّا يا رجل حتى لو تسلل الأبيض إلى شعري. بدر لا يشيخ.

قال عبد الوهاب في مكر: بدر الجمالي لا يشيخ. ولكنْ بدر العاشق أكثر صدقًا وابتسامًا.

حاول بدر تغيير الموضوع في إحراج، وتصنع العبوس فقال كاتبه: تستحق يا مولاي.. أن تعشق فهذا ضعف، أما أن تعشق ويبادلك العشق معشوقك فهذه معجزة من معجزات الله لنا في الدنيا.

قال في يقين: هي معجزة.

توقع زيارة والدها، كان ينتظر زيارة الحلواني. تركه يومًا كاملًا خارج القصر، ولم يُخبر ابنته بقدومه ثم سمح له بالدخول. جاء معه محمد ابنه، كان مطأطئ الرأس ذليلًا. تبادلا النظرات برهة ثم قال الأب: ابنة الصقلي لا يمكن يا أمير أن تكون جارية. جئت أطلب الشفاعة.

ابتسم بدر ثم قال: تطلب الشفاعة كيف؟

قال في رفق: يا مولاي لو أردت أن تتزوج من فرون يكون ذلك شرفًا كبيرًا لنا، ولكن لا تُبقِ عليها باعتبارها جارية.

- لو أردت أن أتزوج من ابنتك فسأتزوجها يا حلواني. ولكني لا أريد.

قال أخوها في رفق: أعرف عنك العدل يا أمير. لِمَ تعاقب أختي ولا علاقة لها بما فعله زوجها؟

- وما العقاب في أن تكون جارية الأمير؟ هذا شرف كبير.

قال محمد مُسرعًا: كنت تريد الزواج منها يا مولاي ولم تكن الظروف تسمح حينها.

نظر إلى والدها ثم قال: كنت في الماضي، اليوم هي ملك يميني.

قال علي: ليس من شيم الأمراء ذل الرعية يا مولاي. عهدتك أميرًا ومقدم جيوش يعرف قيمة أهل مصر.

- أنا أعرف قيمة أهل مصر.

- لِمَ تستعبدهم؟

- أنت من استعبدتهم يا علي وليس أنا. أنت من تركت بلادك هاربًا طامعًا لا تأبه إلا بمصلحتك أنت. أنت من ساعدت الفساد والمفسدين كأن الماء الـمُتسخ سيتوقف ولن يُغرق بيتك. لم تدرك حينها أن من يترك الماء الـمُتسخ يُلوث بيت جاره سيطوله العفن وسيحيا بين الأخشاب الـمُنفرة بقية عمره. أنت يا علي من دخلت قصري لتتجسس علي. أين حليفك اليوم؟ مات. وها أنت تأتي إليَّ تطلب وترجو أن أتزوج ابنتك. كنت أتمنى أن أقبض عليك منذ زمن.. وجئت إلي بنفسك..

ساد الصمت والخوف حتى قال محمد: نطلب الصفح من الأمير. ربما أساء أبي التصرف، ولكن لعائلتنا بعض العادات والأعراف وقد عاهدنا أنفسنا أن نبقي على صناعة جدنا مهما حدث.

- أين صناعة جدك اليوم يا محمد؟

- لم نستطع أن نَبقي عليها. هي أيام ربما تَفقد البعض الطريق إلى الحقيقة. ضللنا كما ضل غيرنا، في لحظات الموت يُمسك كل رجل بقمحه وأنفاسه.

- ثم يضيع القمح، وتضيع الأنفاس.

قال محمد: مولاي جئت أبغي الشفاعة لأبي وأختي والاطمئنان عليها.

قال في حدة: هي بخير. لن أسجن والدك لأنه والدها. ولكني لا أريد أن أراه أمامي مرة أخرى.

- يا أمير.. جئنا حتى لا تُذلنا أمام الناس. فرون ليست جارية.

- أصبحت اليوم جاريتي. قلت لك وأذكرك الآن لقد أردتها زوجة، ولكنك رفضت. ليس مُرحَّبًا بك في قصري، ولو أردت رؤية فرون فسيكون ذلك بإذن مني. سمحت لك بالخروج دون سجن اليوم فقط.

لم يُخبرها عن زيارة والدها، وعندما سألته عن أخيها وأبيها أخبرها أنه تأكد أنهما بخير، كانت مشغولة بأمر القطة وأمر آخر. تكلمت معه عنه بعد شهر من قدومها إلى قصره واستقرار أمرها. قالت في رفق: لقد أهديتني الذهب والمال.

فقال: تستحقين كل شيء.

- ماذا أفعل بهما؟

- أجُننت يا فرون؟ لم أسمع هذا السؤال من أحد طوال عمري. الناس تتساءل ماذا تفعل دون المال، وليس بالمال!

- سأطلب منك طلبًا واحدًا، وأتمنى أن تسمح لي به. أريد الخروج غدًا.

نظر إليها يريد أن يفهم، فأكملت: أريد أن أشتري بنات حمزة يا بدر بمالي لو سمحت لي. بأي مبلغ. لا أريد أن أراهن في الذل وأنا أتمتع معك هنا.

قال في حسم: لن يحدث هؤلاء عبرة لغيرهن. إياك أن تتدخلي في عملي أبدًا. ولا تطلبي مني شيئًا يخص الإمارة.

قالت وهي تمسك بيده: أُقسم إني لن أفعل. لا أريدهن أن يقلن: قتلت أبانا لتنفرد بحبيبها، لا أريدهن أن يدعون عليَّ يا بدر. كل ليلة أنام بإحساس بالذنب. أريد لكل العالم أن يكون سعيدًا مثلي.

قال في حسم: أبقي أفكارك عن العالم لنفسك يا فرون.

- لقد بعتَهن وأنا أريد شراءهن هذا لا علاقة لك به. أعطيتني المال أريد فقط شراءهن. هذا عدل يا أمير، فلو اشتراهن غيري ثم أطلق سراحهن فهذا جائز أليس كذلك؟

ألحت عليه كل ليلة، وضعت الأموال أمامه، قبلته في شوق، ذكرته بأيام الفراق والحزن حتى وافق. لم يأخذ منها المال ولكنه اشتراهن وأطلق سراحهن من أجلها، فعل هذا في امتعاض وعدم اقتناع.

خاف أن تؤثر عليه بلينها وسذاجتها، ولكنه عرف حجم الشعور بالذنب الذي لا يفارقها. عندما رأى لمعة عينيها وفرحتها كالأطفال لم يندم. ابتسم ثم قال: ولن تطلبي مني أنا أن أطلق سراحك؟

طوقت رقبته ثم قالت: هذا مستحيل.

- ولن تطلبي أن أتزوجك؟ كيف لم تطلبي أن أتزوجك؟

لم تُجب. نظرت إلى عينيه ثم قالت: أثق بك يا بدر. افعل ما تراه صوابًا وما لا يُسبب لك أي ضرر. أردت فقط أن أكون معك.

- أنتِ لستِ ككل البشر. كيف أصبحتِ هكذا؟

- حُبكَ هو أجمل ما حدث لي في كل وجودي، وبقائي حولك رزق من ربي.

أمسك بكفها وقبَّلها قائلًا: لا أعرف لو كان حبك لي هو الرزق أم حبي لك.

ولكن نشوة الحب لم تؤثر على حفصة، ولا نظرات الرضا والاكتفاء في عيني فرون. عندما زارت فرون بيت أخيها ووالدها بعد إذن بدر جاءت بالكثير من الهدايا، لم يتكلم معها والدها كثيرًا، ولم تعرف هل يلومها أم يشفق عليها، ولكن حفصة تكلمت دون انقطاع. قالت: أفيقي.. تذوبين في وجوده وعندما تذوب البنت في رجل تكون نهايتها وفناؤها. افهمي.

قالت: أنا لا أفعل ما يغضب الله. لو أن الله ليس غاضبًا عليَّ لا أبالي. هي حرب وبدر فاز فيها.

- وأنت غنيمة الحرب يا فرون. أنت ابنة حلواني الخلفاء كيف تصبحين جارية عند الرافضي؟ اعقلي. هل أخذ منك عقلك؟

لم تُجب. فقالت حفصة: هو لا يريد الزواج من صاحبة المذهب السني حتى لا يفقد قيمته أمام الخليفة وأمام قومه. هم هكذا منذ البداية يعيشون في أسوار مدينتهم لا نعرف عنهم شيئًا. يعدون ولا يُوفون، فرضوا علينا الأذان الجديد بعد أن وعدونا حرية العقيدة. حمدًا لله أن بعض مدن مصر قد عادت للأذان القديم. بدر.. إما سيرغمك على اتباع مذهبه أو يبقيك جارية. ولو أنجبت يا فرون؛ هل تظنين أنه سيجعل ابنه على مذهب السنة؟ لِمَ كل هذه السذاجة؟ اطلبي حريتك واتركيه.

قالت في حسم: مستحيل.

- إذن اطلبي منه الزواج وأنت على مذهبك. ولو لم يفعل فاطلبي أن يطلق سراحك. أفيقي يا ابنتي أيام الحب قصيرة كأيام الشباب والجمال.

بقيت صامتة تحمل الهم ولكنها عزمت أمرها ألا يفرقهما شيء بقية عمرها مهما حدث. فحفصة لا تعرف، لا تعرف ليالي قضتها تتمنى فقط أن تلمسه، أن تضمه إلى صدرها ولو مرة. ليالي تخاف أن يهجم عليها زوج تكرهه فيأسر جسدها. ليالي تدعو الله أن يخفف عنها وطأة الفراق والفقد. تصلي ليلًا ونهارًا وهي تطلب رحمته، فلينزع حبه من قلبها أو يضع مكان النار ماء. حفصة لا تعرف. ما بال فرون والمذاهب؟ وما بال فرون والخلفاء؟

دخل عليها والدها تتمنى أن تسامحه، تسامحه على الحرمان والذل. غفرت ربما لا تعرف ولكنها افتقدته. نظر إلى عينيها فلم تبادله النظرة، قالت في بطء: أحمد الله أنك بخير يا أبي.

أطرق برهة ثم التقت أعينهما، أدارت عينيها فقال: تغضبين مني. تظنين أني تخليت عنك وبعتك إلى حمزة، ولكنك لا تعرفين أنني كنت أضحي من أجل هذه العائلة. مات أبي ولم أره ولكن الصقلي رباني وزوجني ابنته وحكى لي عن الحلواني، عن أبي، كنت أضع هذه العائلة نصب عيني أريد لها النجاة من الشدة والغم. لم أفكر حينها في نفسي بل فيما هو أسمى. هل تفهمين؟ من أتى لنا بالشدة؟ حروب جيش الإمام المستنصر. ومن تابع للإمام؟ بدر الجمالي؛ من اتخذ ابنتي جارية من جواريه.

بقيت صامتة فقال في حدة: هل تفهمين ما أقول؟

ولم تنطق.

فقال والدها في قوة: اهربي. ابنتي ليست جارية. أرضيتِ أن تكوني جارية عند الأرمني؟

بلعت ريقها وقالت وهي تطأطئ رأسها: هو قدر. هو أخذ كل زوجات المتآمرين عليه، وباعهن في الأسواق والحمد لله أنه لم يعطني إلى رجل لا أعرفه. هو قدر يا أبي. ما دمت لا أفعل ما يغضب الله فلا أبالي.

قال والدها وهو ينظر إلى الجندي الذي يصاحبها: أتخافين من بدر؟ أخبريني بالحقيقة.

بقيت صامتة فقال في حزم: أنت ابنة الصقلي حفيدة القائد جوهر الصقلي من بنى القاهرة والأزهر. هل فقدت عقلك؟ اليوم تبقين هنا ولا تعودين، لو أخذك يأخذك غصبًا، ولا تكوني جاريته إلا رغمًا عنك.

قالت في صوت مبحوح: أنا..

- أنت ماذا؟

- أنا لن أترك بدرًا طوال عمري.

رفع يده وصفعها في قوة وسط فزع الجندي، تدخل قائلًا: مولاي لن يرضى بهذا.

فقال علي: مولاك لن يتدخل بين الأب وابنته.

أمسكت بخدها الملتهب ولم تنطق. فقال والدها: غدًا يشبع منك ويلقي بك مع الخدم، فتغسلين لزوجته رجليها، وتنظفين روث البهائم يا ابنة الحلواني.

لم تنطق. قال من جديد: أعرف أنك ستذهبين إليه ولكن لا تعطيه نفسك. لو فعلت تخونين عائلتك وأصلك.

عندما عادت من سفرها كان ينتظرها. رأى الهم في عينيها وتوقعه. حكى له الجندي كل شيء. اليوم لا يدري ماذا يتوقع منها. ولا يعرف لو كانت ستطيع والدها، ولم يعد متأكدًا أنه يستطيع أن يلومها لو فعلت. اقترب منها ورفع ذقنها فنظرت إليه بعينين حزينتين فقال وهو يقبلها: افتقدتك.

قالت بلا تردد: وأنا أيضًا.

أعطته نفسها بنفس الصدق والكرم، ربما شعر بحزنها المكتوم، ولكنها لم تزل بجود الملائكة وصفاء أهل الجنة. عندما نامت بين ذراعيه قال: أتريدين أن تطلبي مني شيئًا؟

قالت في قوة وهي تخبئ رأسها داخل صدره: لا معي كل شيء.

ثم دقت بيدها على موضع قلبه وقالت: صدرك هذا هو كل ما أحتاج إليه.

طعنته بخنجر في صميم الفؤاد. أغمض عينيه ولأول مرة يفقد قدرته على التركيز. هام حائرًا في عالم غير العالم، عالم بريء كله اطمئنان. لا عاصر هذا الإخلاص ولا سمع عنه من قبل. هو من تذوق الخيانة مع الفِطام، واستمتع بطعم الدم وارتاح إلى إراقته. عبس وجهه ثم قال: والدك ضربك.

أخفت خجلها وقالت: هو أبي يا بدر.

- لن أسمح له بفعل هذا مرة أخرى لن تقابليه إلا معي.

عند حفصة جاءت ابنتا زوجها لتشكراها. هربت من نظراتهما لا تدري لماذا، وطأطأت رأسها وانتظرت أن تتكلما. قالت إحدى بناته وهي تنظر لها في عدم ثقة: غريب يا زوجة أبي أن يشتريك مقدم الجيوش، وقد كنا أمامه ولكنه اختارك أنت وكأنه يعرفك منذ زمن أو تعرفينه.

بقيت صامتة. فقالت حفصة في إحراج: الحمد لله أنكما بخير وأن عامر بن حمزة قد هرب خارج الشام. لم نكن نريد أن نرى أي مكروه لبيتكم يا ابنتي.

نظرت ابنة حمزة إلى فرون ثم قالت لحفصة وعيناها تتجهان إلى فرون: تُرى أيكون سبب قتل أبي أن زوجته قد تآمرت عليه؟ ولو كان هذا حقيقة هل سيترك أخي ثأره؟ لا بد من أنه سينتقم لأبيه. لو وجد مقدم الجيوش أخي لقتله. نحن لا ندري أين هو ونريد العيش في سلام، ولكن يؤسفني أن تدعي زوجة أبي التدين والإيمان، وأن تقرأ القرآن كل ليلة، وتقيم الليل وهي زوجة لأبي وقلبها مع غيره. ما حكم الشرع في هذا يا حفصة؟

- اتقي الله يا ابنتي هذا الكلام لا يجوز.

بقيت فرون صامتة، ولكن الذنب بدأ يعتصر الشرايين. تُرى أي جرم ارتكبت بأن تتزوج رجلًا وقلبها مع غيره؟ أن تتزوج رجلًا ولا تعطيه حقه الشرعي، ها هي تتبع الهوى فقط. يسيطر عليها حب بدر كما سيطر عليها حب الحلوى من قبل فجعلها تفضل الهرب من مصر.

طلبت منهما حفصة في لطف الذهاب، فكلامهما ليست له فائدة. بدا الخوف عليهما فجأة وخرجتا، وكانتا قد قررتا الهروب من عكا اليوم ولكنهما لم تستطيعا ألا تخبرا فرون بما يجول بخاطرهما.

قالت فرون لحفصة في أسًى: هما على صواب يا حفصة.

فقالت حفصة في فزع: أنت لم تقتلي زوجك يا فرون.

- ولكني لم أحزن لقتله. ليتني حزنت، ليتني أشفقت عليه. طغى وجودي مع بدر على كل المشاعر.

- هذا الحب سيدمرك يا فرون. قلت لك من قبل كنت أفضل أن تضعي الشريعة والتعلم فقط نصب عينيك. ولكنك تتبعين قلبك فقط، ترى عن ماذا ستتنازلين أيضًا من أجل بدر؟ هل ستقتلين من أجل بدر؟

- لا تقولي هذا. بدر ملاك صدقيني أنا فقط أعرفه. يبدو حادًّا ولكنه حنون وكريم.

- أنت ترينه بعينيك، بدر في السماء وهو جندي على الأرض.

لاحظ عبد الوهاب ترقب مولاه وحماسه. لاحظ عودة الحياة إلى أطرافه واستطعامه للأكل واستنشاقه الزهور. فقال يومًا وهو يضع أمامه رسالة الخليفة: أهل مصر يُنسون الغريب غربته، ويملئون الخراب ونسًا وصحبة.

ابتسم ولم يجب. فقال عبد الوهاب: يا بني.. مَن غيَّرتك تصاحب الطير والحيوانات، تتكلم معها وتترقبها، وتعطيها الطعام كل فجر. تجمع الحبوب بيدها وتتبع خطى الحمام والعصافير.

قال: أعرف.

- لو كنت جئت بجنس من الكواكب إلى قصرنا أو بملك كنت صدقت. ما أكثر الاختلاف بينكما يا بدر! ولكنها تسعدك.

ابتسم ولم ينطق. قال عبد الوهاب معاتبًا: أين هو بدر الذي لا يغفر ولا يرحم؟ الذي انتزع حبها من قلبه؟ أتعرفه؟

قال في حنو: البنت كانت في الثامنة عشرة، أقسم لو كنت مكانها لما تحملتُ ما تحملَتْ.. هي كالملائكة. براءتها تبعث على الندم على كل المعاصي. هي..

ضحك عبد الوهاب في تهكم ثم قال: يقولون جوهر الصقلي يقول: لكل زمان دولة ورجال، وأنا أقول: لكل زمان امرأة تبدل حال الرجل، وتخرج منه رأفة لم يكن يدرك مداها. هنيئًا لك السعادة التي تستحقها! كنت تنتظر رسالة وجاءت اليوم.

نظر إليه في ترقب ثم قال: من الخليفة المستنصر؟

قال عبد الوهاب: منه.

- اقرأها لي..

قال عبد الوهاب: كتب الخليفة والإمام المستنصر:

«فإن كنتُ مأكولًا فكن أنت آكلي

وإلا فأدركني ولما أمزق»

المستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر.

ابتسم وقال لعبد الوهاب: لا بد أن ندرك مصر قبل نهاية العام.

- هذا ما كنت تبغي من البداية.

- لكل شيء ميعاد، والصبر مفتاح الفرج. ابعث رسالة للخليفة بأن بدرًا الجمالي لا يأتي إلى مصر إلا ومعه جيشه، وأنه قبل أن تطأ قدمه أرض مصر لا بد للخليفة أن يلقي القبض على ألدكز.

- يا بني.. هذا مستحيل هو خليفة تجرد من كل ما يملك.

- لا أريد أن أدخل مصر لأعاقب بل لأبني. يقولون: بدر دخل ليأخذ مكان الوزير أسد الدولة ألدكز، وبدر أهم من كل وزراء الدول. لو ألقيت أنا القبض على ألدكز أثير الفتن بين الأمراء حتى قبل أن أدخل مصر، ومصر خلية من الفتن كالنحل لا تحتاج إلى فتنة جديدة. ساعده ببعض الجنود، وقل له أن يقبض هو على الوزير؛ لأن بدرًا يأتي ليساعد ويطلب السلام والأمن لكل الأمراء والجنود. لا يطمح في منصب ولا يحتاج لوزارة.

فاجأها قدومه مبكرًا، ولكنه طلب منها أن تتجهز، وأمسك بيدها، وخرج بها من الحجرة. جلسا أمام القاضي الموجود في القصر، ثم قال لها فجأة: هل ستقبلين الزواج مني يا فرون؟ أم سأضطر إلى أن أبقي عليك رغم إرادتك؟

قالت في عدم فهم بصوت خافت: بدر.. لماذا؟

التفت إلى القاضي وأعطاه اسمها بالتفصيل، سأل القاضي عن المذهب، بقيت ساكنة خائفة مما سيقول حبيبها. ترى سيغير مذهبها حتى يستطيع الزواج منها؟ ولكنه لم يفعل. أخبر القاضي بمذهبها، وبعد أن انتهى القاضي من المراسم، أمسك بيدها وخرج معها إلى حديقة القصر، تشبثت بذراعه ثم قالت: أحبك.

- لم تطلبي وكأنك تثقين بي مع أنني لم أثق بأحد طوال عمري. كنت أنتظر لغرض في نفسي.

لم يخبرها بالغرض؛ فحتى الحب له حدود. هل سيخبرها بأنه أراد أن يُذل والدها أولًا ويراه يرجو ويطلب؟ صعب أن تسامحه لو فعل. تركت يده، ونظرت إلى الطيور التي تصنع العش أعلى الشجرة، ثم قالت: كيف سنضع لها الطعام؟ أريد أن أخبرك عن أصدقائي اليوم.. هنا في الحديقة، تعرف؟ عندما كنت صغيرة وأفتقد أمي كنت أتكلم مع الطير فيقف مكانه ويسمعني. مع من كنت تتكلم يا بدر عندما تفتقد أمك؟

نظر إلى عينيها ثم قال: كنت أتكلم مع سيفي، وأقسم أن أقتل من قتلها أمامي.

- القتل ليس دومًا الحل.

- أعرف، تعلمت هذا بعد حين. أريد أن أخبركِ بشيء..

نظرت إليه في قلق، فقال: سأسافر إلى مصر عن قريب.

اختلج قلبها ثم قالت: وأنا معك.

-لا. أنت تبقين هنا. لا أعرف كيف سيستقبلني الأمراء، ولا ما تبقى من الجنود، ولا حتى أهل مصر.

قالت في حسم: أنا معك.

- فرون؛ أحيانًا لا بد أن تتذكري من أكون.

- أنت أميري وزوجي وكل ما أملك. أموت قبل أن أتركك مرة أخرى. أتوسل إليك ألا تتركني. هل تخاف علي؟

التقت أعينهما ثم قال: بدر الجمالي لا يخاف. لو لم أكن قادرًا على حمايتك فكيف لي أن أنقذ مُلك الخليفة وبلاد مصر كلها؟

تشبثت بذراعه من جديد ووضعت رأسها على كتفه، وقالت: مصر.. كل أحلامي تتحقق، الرجل الذي أحبه والوطن الذي حُرمت منه. لو سمحت لي سأصطحب معي حفصة؛ أمي التي ربتني، تُرى أهي الجنة التي أحيا فيها؟ أم أن الله يعوض أعوام عذاب وهَمٍّ؟ هو رحيم.

ردد: هو رحيم.

- ولكننا لسنا برحمته.

- لا أبدًا لسنا برحمته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الباب الثالث:

مصر 1073 ميلاديًّا - 466 هجريًّا

تـأمـل بنيـة الهـرمين وانظُرْ

وبينهما أبو الهولِ العجيبُ

كَعمَّارِيَّتَيـْنِ علـى رحيــل

لمحبـوبيـن بينـهمــا رقيــبُ

ومـاء النيل تحتهما دموعٌ

وصوتُ الريح عندهما نَحيب

ظافر الحداد السكندري

شاعر فاطمي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 7 -

لا نعرف متى تعاكسنا أقدارنا أو متى تصاحبنا بالمعروف، ربما يعطينا القدر الحلم نقمة ونعمة، لا يدري بالضبط بدر الجمالي، ولكنه كان على يقين أنه لو لم يتحرك إلى مصر بأسرع وقت فسوف تضيع الفرصة التي ربما انتظرها طوال عمره. نصحه البحارة بالانتظار، رياح الشتاء قوية، وهذا ليس وقت سفر، ولكنه أصر، فتطويع الرياح أسهل من تطويع الطامعين في مصر الآن. طلب من فرون أن تبقى في عكا ولكن دون جدوى. قالت لو أخذ على نفسه عهدًا بالمجازفة فسوف تصحبه في البأساء والضراء فهي بالكاد قد وجدته. لم يخبر أحدًا بوجهته، أخذ الجنود الأرمن في المراكب دون أن يعرف أحد إلى أين يتجه. قبل سفره بعث الرجال قبله إلى دمياط يحث كبارها على لقائه. جاء صديقًا لا يريد أذى أحد ولا يطمع في منصب. جاء ليؤلف بين القلوب حتى يقضي على الفتنة، وتأليف القلوب أصعب من ضرب الأعناق وأكثر مخاطرة. ولكنه سوف يصبر، أهم شيء الصبر والتحكم في الغضب والرأفة. الرأفة من سمة العظماء. عند الوصول إلى دمياط كان معه بضعة آلاف من رجاله، استقبله سليمان اللواتي كبير قبيلة لواتة بالترحاب والحذر، فما الذي جاء بالأرمني وقت الخراب؟ وماذا يريد بقدومه مع رجال جيشه لو لم يكن يريد منصبًا؟ لا أحد يزور البلاد بجنود ترتدي سيوفها ورماحها. ولكن بدر دخل عليه وطلب من الجنود أن تترك السلاح خارج خيمته، أعطاه الكثير من الهدايا وسأله عن حال مصر. قال إنه كان قد زارها صغيرًا وإن الله قد وهبه صديقًا وأخًا هو سليمان اللواتي. قال إنه يعرف ضعف الخليفة وفساد الأمور ويشفق على أهل مصر جميعًا من شدة أدت إلى كل هذا الدمار. استمع إليه سليمان في ريبة ثم قال: جئت تساعد الخليفة أم أمَّه؟ في بلدنا يا أمير تحكم المرأة بدهائها وأهوائها. أتعرف أن لرصد أم الخليفة ديوانًا خاصًا. هي تعيِّن الوزراء وتزيحهم. لا بد أن تحظى بقبول أم الخليفة أولًا. هل قابلتها؟

قال بدر في بطء: لا لم أقابلها.

- لا تصدق ما تسمع عن مصر. حالنا هنا في دمياط وفي الدلتا بخير. مات البعض نعم، وترك الفلاحون أرضهم وفروا. هذا حدث، ولكن هناك شيئًا لا تعرفه عن أهل مصر.

- وما هو؟

قال سليمان: هم نيل لا ينضب، تعتصرهم فتُخرج كنزًا من الأموال. يأتي إليَّ الفلاح يُقْسم ويرجو ويتوسل ويقبِّل قدمي ويقول إنه لا يملك قوت يومه، وعندما أهدده بأن آخذ زوجته جارية يُخرج الذهب في سلاسة. هم كاذبون لا تصدقهم. يموتون جوعًا، وهم ينامون على كنزهم. أنا هنا حاكم كل البلاد. خليفتك الذي لا يستطيع حُكم أمه لا حُكم له عليَّ.

ساد الصمت في الخيمة، توقع سليمان غضب «الرافضي» بدر الذي يتبع الخليفة باعتباره إمامه، ولكن بدر قال في هدوء: معك حق.

- ألست من أتباعه؟ اليوم تذم فيه؟

- لا أذم فيه يا أخي ولكنك تقول الصدق. أريد أن أسير في الطرقات وأرى الحدائق والنخيل الذي يحيط البحر والنهر. يقولون الجنة ستكون مثل دمياط ببحور وأنهار ونخيل وورود.

- قال سليمان: لا تبحث عن الورود هنا يا أمير.

ضحك ضحكة عالية ثم أكمل: ستُحب بقاءك هنا يا أمير.

- قل يا بدر. أكرمتني أنا وزوجتي ورجالي. أنت نعم الرجل، أتمنى أن تزورني في عكا عن قريب كي أرد لك كل هذا.

- لو بقيت في عكا ولم يدخلها السلاجقة أزورك. يسعدنا بقاؤك معنا يا بدر ما دمت لم تأت جاسوسًا ولا غازيًا، فاعتبر أن دمياط بلادك. كم يومًا ستبقى هنا؟

- لا أريد أن أُثقل عليك يا أخي، سأبقى شهرًا ربما، ولكننا نقيم خيامنا ونصنع أكلنا.

في دمياط رأى ما لم يتوقع، سار في الحقول فوجدها خرابًا، وعندما سأل غلام سليمان الذي يسير معه قال: فر الفلاحون، يخافون سيدي سليمان، يختبئون في الجحور كالفئران، ولكنه يجدهم.. دومًا يجدهم.

- وكيف يأكل الناس؟

- في القاهرة والفسطاط لا يأكلون، وفي الدلتا يأكلون بالكاد، نحن لا نحتاج إلى الأكل، نحتاج إلى الذهب، ثم نشتري به الأكل حتى لو من خارج مصر كلها. سيدي سليمان هو من يسيطر على كل البلاد. هؤلاء الفلاحون يحتاجون إلى من يحكمهم. نخرج عليهم ليلًا فيخرجون مالًا لا حصر له ثم يدَّعون الجوع. لديهم أبقار ودجاج ومواشي يخبئونها من رجالنا ولكننا نجدها. لا بد من الحزم مع الفلاح، الفلاح دون سيد كالماشية دون راع، لا تذبحها ولا تستفيد بصوفها.

نظر إلى الجامع نصف المهدم ثم قال: أتصلون في هذا المسجد؟

- نعم ولكن من يأتي ليُصلِّي يدفع ما عليه أولًا.

- من يقرر المكوس؟

- سيدي سليمان.

- الخليفة لم يُعين أحدًا هنا؟

- الأمراء الأتراك تتعاون معنا يا أمير.

غمز الرجل بعينه.. فقال بدر: نعم فهمت.

- هم مثلك يا أمير يريدون الخير لنا نحن أصحاب البلد.

- إلى أين يفر الفلاحون؟

- إلى الصحراء يأكلون السحالي هناك، ثم عندما يفنى أكثرهم يأتون ليقدموا فروض الطاعة لسيدي سليمان. يعرفون أنهم دون حمايته لا شيء. إياك أن تصدق أن مصر بها صاحب شرطة. هل تعرف حتى اسمه؟ أنا لا أتذكر أسماء الوزراء. مصر بها رجال أقوياء فقط، وهم يحمون الضعفاء ولكن بثمن.

- معك حق لم أر من سيدك سوى الخير. وماذا عن السمك؟

- السمك كله لنا. الصيادون يخرجون بإذننا ويعودون بالأسماك.

- وماذا تعطونهم في المقابل؟

- الحماية، قلت لك.

- ولكن ألا يجوعون؟

- يشترون الأسماك منا، وإذا خبئوا بعض الصيد نعرف، والعقاب قطع الأطراف وبيع النساء.

عند نزوله القاهرة ترك بدر جنوده وزوجته، وأخذ معه سيفه وارتدى عمامة وغطى وجهه، وسار مع عبد الوهاب كاتبه متجهًا إلى الفسطاط، تعمد ألا ينظر إليها في الطريق، وتعمد أن يسير على قدميه بين خرائب القطائع والفسطاط والقاهرة. ما رآه كان مختلفًا عن كل وصف، وأبشع من كل قتل وذبح مر عليه. حتى بدر تأثر، ذكرته الفسطاط بأمه وهي تحاول أن تبقى واقفة بعد أن طعنها الجندي في قلبها، أمسكت بطرف السور ثم تأوهت أمام عينيه وهي تتمتم بكلمات من الإنجيل. لم يسمع كلماتها ولكنه رأى عينيها متحجرتين كلهما تراب.. كيف للعيون أن تمتلئ بالغبار هكذا؟ وكيف لبلاد عاصرها يومًا كالحلم الجميل أن تتحول لعيني أمه الزائغتين؟ بينما يسير هو بين أنقاض البيوت الخربة بلا ساكن ولا سائل، كان يرى آثار حياة مليئة بالدفء، ثياب طفل ممزقة، قدح طعام محروق من كثرة الاستعمال، قِنِّينَة شراب، وسادة سوداء اتسخت من دم ثم نار ثم وباء ثم جفت، فمسح بها كهل قطعة عيش عفنة ليأكلها على مضض. عند مروره على مدينة أحمد بن طولون القطائع، نظر إلى الحاجب الذي بعثه السلطان ليرافقه وقال: أين المدينة التي بناها أحمد بن طولون؟

فقال الحاجب وهو يشير إليها: كانت هنا ولكننا بنينا سورًا بينها وبين القاهرة حتى نحمي عيني الخليفة من القبح. لم يتبق منها سوى الخراب.

ثم أشار الحاجب إلى الفسطاط، حدق بدر في بعض الساكنين الباقين بعد الشدة، كانوا شبابًا في الغالب، الرجال أكثر من النساء، بعضهم يعمل في صمت. يُكسِّر الأحجار أو يبيع الأنقاض. يسير باحثًا عن مأكل ويمد يده للمارة. كان هناك ركن للتجار الذين كانوا يومًا أثرياء، يغلقون المحال بالحديد خوفًا من السرقة، ويحتفظون بداخلها بالذهب واللؤلؤ، ويتاجرون سرًّا في الدقيق والحبوب والمواشي والدجاج. بيوتهم مغلقة بالأقفال التي تنوء بالعصبة، لا يظهرون للعامة ولا الرعاع. لفت نظره رجلٌ كبير يرتدي الخرق الممزقة، ويجلس على أنقاض بيتٍ مهدم، يشرب مشروبًا مصريًّا مصنوعًا من الليمون والسفرجل. لا يدري بدر من أين أتى به في هذه المجّاعة. حافي القدمين متسخ الملابس على يديه آثار جروح قديمة متعفنة، اقترب بدر منه ثم قال: يا شيخ، لِمَ تجلس هنا؟

قال الرجل وهو لا ينظر إليه: أحب الجلوس في الهواء ورؤية هذا العبث.

- هل هذا بيتك؟

- ربما.

- بيتك أم لا؟

- لا تسألني أسئلة بلا إجابة. من أنت؟

- عابر سبيل ربما.

- ماذا تقصد بربما؟

- لا تسألني أنت أيضًا أسئلة بلا إجابة يا شيخ. أعطني يدك أريد أن أساعدك.

نفض الشيخ يديه ثم قال: ابتعد عني لا خير يأتي من الحكام. ولا مساعدة من رجالهم.

- ومن أدراك أني منهم؟

- كل يوم يأتي إليَّ أمير يقول أريد أن أساعدك، ثم أمد يدي فيلقي بي في السجن، يقول السجن أفضل لك، تأكل وتشرب ولا تحتاج إلى هواء ولا تسأل الناس الطعام. أتريد أن تضعني في السجن حتى لا أزعج بمنظري الخليفة؟

- بل أريد أن أصاحبك بعض الوقت.

مدَّ بدر يده قائلًا: أريدك أن تسير معي وتحكي لي ما حدث في المدينة وأعطيك دينارًا.

نظر إليه الحاجب في فزع ثم قال: مولاي.. هذا لا يجوز. المجنون سيكذب عليك.

تجاهله بدر ثم قال: هيا..

ثم أخرج الدينار من جيبه ووضعه نصب عينيه، قفز الرجل من مكانه وسار وراء بدر في حذر ثم قال: ماذا تريد أن تعرف؟ أنا أخبرك..

- أسير معك في الطرقات كلها اليوم وغدًا..

قال الرجل:خلف الأسوار أم أمامها؟

- أي أسوار؟

- الأسوار التي صنعها الوزراء حتى لا يجرحوا بها نظر الخليفة. انظر هنا سور عند جامع أحمد بن طولون يخفي الخراب في مدينته، كانت تدعى القطائع، مكانها منكوب على ما يبدو، من دمار إلى دمار. وراء السور حياة لا تعرفها. وسور آخر هنا يحمي عيني الخليفة من رؤية الفسطاط، وأناسها الميتين الأحياء. وتبقى القاهرة خرابًا بلا القطائع والفسطاط. أتعرف يا رجل ما يُحزنني؟ هو غباء رجال الخليفة، فلو منعوا عينيه من رؤية الأنقاض في الفسطاط كيف سيمنعون عينيه من رؤية

الأنقاض في عقب داره، هجرها أهلها هربًا. أما عاصمته التي أغلقها على أهله.. القاهرة.. فهي حزينة مثل الفسطاط وأكثر. أتعرف كم مصريًّا هرب بأمواله، وكم مصريًّا قرر البقاء فهلك؟

- أريد أن أرى ما وراء السور.

فتح عينيه وأغلق أنفه بمنديل، رائحة العفن جعلت عينيه تدمعان. لم ير هذا اللون القاتم طوال عمره، أسود ملوث بالرمادي يسيطر على المكان وراء السور حيث الفسطاط والقطائع التي لا يريد الحاجب لأحد أن يراها. الجثث تملأ الشوارع، بعضها نصفه مأكول والبعض الآخر قُطعت أطرافه أو تفككت. هنا يحيا الدود حياة رغدة، الطعام موفور والصحبة رائعة. رأى أمامه فتيات لم يبلغن أكثر من ثلاثة عشر عامًا يبعن أجسادهن على الأنقاض. رأى أمام عينيه، لم يحك له أحد، البنت عارية تمامًا يطؤها كهل، تزيح قطع الزجاج من على التراب حتى تستلقي بلا جروح إلا في الروح. شدت يده بنت أخرى، نظر إليها ولم ينطق. فخلعت خرقة رثة من على جسدها وبدا صدرها أمامه، ثم جاء غلام ينافسها يشد هو الآخر يده. دفع بهما الحاجب في خجل ثم قال: الآن تعرف لِمَ حل البلاء بهذا البلد. هل ترى كل هذا الفُجر؟ نتكلم مع الشيوخ كل يوم بلا فائدة.

لم ير الجحور من قبل طوال عمره. لم يعرف أن بعض الناس تعيش تحت الأرض، تحفر الحفر لتختبئ من قسوة وطمع، ثم تجملها بالتمر الممتلئ بالسوس، وفروع الأشجار الصفراء، والبول الطازج، وروث البهائم. بدر لم يشعر بالغثيان منذ ولادته حتى حين رأى أمه تموت أمامه. ولكنه ألقى ما في معدته في حرج. ثم نظر إلى المسجد وكأنه النجاة وقال: هذا مسجد أحمد بن طولون؟

قال الحاجب: هو كذلك يا مولاي. ولكن جدرانه تصدعت، وبابه يكاد يتهدم. هو مسجد أهل السنة.

- لنتجه إليه.

وجد في المسجد ملاذًا. كأنه الجنة بعد جهنم التي كان بها. بدا مهجورًا لا صلاة تقام فيه ولا شيخ يهتم به. نظر إلى العرائس على جدران السور. هاله منظرها، لا يفهم مغزاها ولكنها تجعل صدره يختلج وتضفي الوجل إلى قلبه. سار إلى الصحن المكشوف كأنه مسير وليس مخيرًا. كم بابًا لهذا المسجد؟ كأنه لا ينتهي، بُنِي ليبقى، وشُيِّد ليُذكِّر القادم بأن السعة أمل وأن الضوء هو الحياة وأن البدر في السماء لا بد أن يهيم حرًّا بين الكواكب حتى يصل إلى الغاية. نظر إلى المعابر الخشبية في الأبواب بزخارفها المورقة، أين سيعبر السائل والطالب من هذا الباب؟ وأين سترقد روحه الهائمة؟ اتجه إلى المحراب ثم خر ساجدًا فجأة وغطى وجهه بيديه. نظر إليه الحاجب في فزع، وضحك الشيخ وقال: أهلًا بك يا أخي في مصر.

استمر الشيخ المجذوب في الضحك، واستمر بدر في الصلاة وكأنه لا يرى ولا يسمع. قال الحاجب للجندي: هل ستترك أستاذك بلا سجادة صلاة؟ يصلي على الحجر؟

اقترب منه الجندي وقال: هل آتي لك بسجادة يا مولاي.

لم يُجِب. كان راكعًا على ركبتيه يصلي وعندما انتهى أشار بيده إلى الجندي فاقترب منه، فهمس في أذنه: الحاجب..

قال الجندي: نعم يا مولاي.. ماذا تريد من الحاجب؟

- اطلب منه العودة للخليفة لقد رأينا ما يكفي اليوم. أنا سأبقى هنا بعض الوقت.

- أمرك مولاي. وماذا عن الشيخ المجذوب؟

- اتركه معي بعض الوقت في صحبته فائدة.

يطارده أحمد بن طولون.. منذ زمن، لكم يشفق على مدينته، ولكنها العرائس في الشرفات التي لا تترك مخيلته. انجذب لمسجده كما تنجذب المياه للقمر. وحزن على حال الباب الذي دخل منه والحوائط المتصدعة. أول ما سيفعل هو ترميم ما بنى أحمد، وبناء محراب داخل مسجده لبدر الجمالي. فهذا من ذاك وذاك من هذا. كل العرائس تتشابك في صف لا ينتهي، وكل من تمنى يأتي هنا، وكل من ازداد همه يأتي هنا، وكل من ضاع عمره يأتي هنا، وكل من أحب نفسه يأتي هنا. يا أحمد.. ترى هل تسمعني؟ أراك في المحراب وأراك جالسًا تستمع إلى الخطيب وأراك تسير في طرقات مدينتك وتقيم الولائم والسماط للفقراء. أراك.. بل أشعر بك كأنك أخي أو من دمي. أنت.. أستمع إلى دعاء المصريين لك من أعلى جبل المقطم وقت مرضك، كل بكتابه، المسلم صعد بالمصحف، والمسيحي بالإنجيل، واليهودي بالتوراة، فهم وَحَّدهم حُبك يا رجل. ماذا فعلت بأهل مصر؟ وما علاقتك بالأجداد؟ هذه بلاد تُربكك وتُفقدك السيطرة على أهوائك، فتهيم كالمجذوب وتدافع عنها كالأسد. آه يا مصر.. كل من جاء وقع في الغواية، لم أعد أعرف هل أحبك أم أخافك أم الاثنان معًا؟

قال الجندي: مولاي؟

نظر إليه ثم قال: هذا ما كنا نبغي. رأينا ما أريد. اليوم ليلًا نذهب إلى سفح الهرم.

- ولكن سفح الهرم ليلًا خطر يا مولاي. يخرج الجن، والساحرات يرقصن ليلًا.

- مرحبًا بهم معنا إذن.

نظر إلى الهرم هنيهة ثم إلى الفتحة الصغيرة، دق على الحجر ثم اتجه إلى الداخل في حذر وحده. قال في صوت واثق: يا ساحرة الهرم.. أنا هنا قد جئت..

تجلت له بشعرها الأسود الكاحل، وعينيها الكبيرتين المستديرتين اللامعتين، لم يخف ولكنه انبهر. قالت في صوت عذب: مرحبًا بالأرمني.. جئت تبحث عن وطن هنا يا رجل؟ هذا وطن أصعب من كل الأوطان، لا يعطي إلا لمن يهبه نفسه كالكهنة القدماء.

- أتعرفين أصلي؟

- كنت أنتظرك بحنس تعرف كل شيء.

- لِمَ تنتظرينني؟

- لأُحذرك من لعنة العظماء..

- إياك أن تتنبئي بحزن آخر فقد سئمت الأحزان.

ابتسمت ثم قالت: عند مجيئك لم تزر الهرم في البداية، زُرت مسجد أحمد..

- من أحمد؟

- أحمد بن طولون.. لِمَ زرت مسجده؟

نظر إليها ولم يُجب. فقالت: لا بأس ابن طولون حافظ على الأرض والذهب فأصبح من الملوك القدماء.

- جئت إليك أبغي السكينة.

- لو كنت تريدني أن أطمئنك على المستقبل فهذا ليس بيدي، ولو كنت تريدني أن أخبرك لو أن هذا البلد وطنك أم أنك عابر سبيل فيمكنني أن أخبرك بعد حين..

- تعرفين لغة الطير وتقرئين ما نجهل.. أخبريني أي لعنة حلت على هذا البلد؟

- القدماء يقولون هذه أرض لا تعطي إلا لمن عشق، وهذا وطن لا يضم إلا من بذل. البذل أصعب الجهاد.. كله عناء. فليساعدك الله. هناك رجال تولد على هذه الأرض وهم ليسوا منها، وهناك رجال تجذبهم الأرض كما يجذب القمر البحر ليلًا فيصبحون منها. هي تفرز الخبيث من الطيب، وتعرف من يصدق ممن ينافق.

- كنت أفكر في القمر والبحر. كيف تكلمت عنهم الآن كأنك تقرئين أفكاري.

- سألتني يا أرمني ماذا حل بها، هذا عصر الفتن وكثرة المذاهب.. أنت تعرف، بداخلك تفهم يا بدر، أتمنى أن ينير الله وجهك لترى ضآلة الإنسان وتفاهته. يظن دومًا أنه امتلك الحق، ومعه مفاتيح الخلود. أتعرف لماذا؟ لأنه عاجز.. عجز البعوضة أو أقل. مفاتيح الخلود مع الخالد، ومفاتيح الحق مع الحق، ما نعرفه هو قشور. معرفتنا بالدنيا كمعرفتنا بلغة الطير، نحاول أن نفك رمز الأسماء، وننطق الحروف لعلنا نفتح بها باب الجنة، ولكن الوصول إلى الجنة يحتاج تخطي اثني عشر حاجزًا أو يزيد، هكذا قال القدماء. أدركوا عناء الدنيا فلم يُكتب الخلود لكل البشر، لبعضهم فقط. البعض يا بدر يُخلَّد ذكره في الدنيا والآخرة، والبعض يَفْنَى في الاثنتين.. تُرى مع أي فريق ستكون؟

- ماذا قال القدماء عن الفتنة؟

- للفتنة قدرة تفوق كل قدرات البشر، الفتنة تولد الفوضى، والفوضى لا دواء لها كنار جهنم تأكل بلا هوادة وتمحو حضارات وأبنية. للقدماء إله للفوضى يدعى سِتْ، أتعرف لماذا؟ لأنها كالخير قوية ومؤثرة، ولكن الخير لونه شفاف كلون الهواء، بينما الفتنة زاهية كالياقوت الأحمر. أتعرف ماذا قال الملك الذي بنى هذا الهرم؟ قال: «أنا الملك بنيت الأهرام، وأتممت بناءها في ست سنين، فمن أتى بعدي وزعم أنه مثلي فليهدمها في ستمائة سنة، وقد علم أن الهدم أيسر من البناء». جدتي قالت هذه الكلمات لأحمد بن طولون وأنا أقولها لك. ولكن ليست كل الأبنية كالهرم يا بدر. حتى المسجد الأموي كان سيضيع في الحريق. وكم من أبنية تهدم من أجل هوى حاكم أو ثائر.

- كيف عرفت بحريق المسجد وأنت هنا في الهرم؟

- أحزن على الهدم لأن به هزيمة وموتًا. الموت الذي يتبعه بعث هو انتصار، ولكن موت الفتنة بلا بعث. يعجبك أحمد؟

- أحمد بن طولون؟ يعجبني مسجده فهو غير كل المساجد، وسيرته غريبة كلها انتصارات ولكنْ بها هم ربما لا قِبَلَ لي به.

- أنا أعرف أحمد بن طولون وسيرته من جدتي. لو أعجبك فهنيئًا لك مصيره.

- أهذا تهديد أم بُشرى؟

- القادة مع من أحبوا كما يُبعث المرء مع من يُحب.

- أنت مسلمة؟

- إياك أن تسألني عن ديني يا بدر. أنت أعظم شأنًا من أن تقع في الهاوية وأذكى من أقرانك. توخَّ الحذر وأنت تسير، فلا أحد يعرف من أين تدخل الفتنة ومن سيبدأ بالغدر. هذه أوطان فرقتها المذاهب وفتكت بها الطوائف.

- يا ساحرة الهرم...

- قل يا بحنس فقد أصبحنا ونسًا وصحبة.

اتجه إلى الباب في بطء فنادته في حسم: آرام!

التفت إليها والتقت أعينهما، تذكر الطفل الآمن ولم يعد يعرف هل يتمنى موته أم بعثه. قال في وجل: كيف عرفت اسمي؟

- وهل هذا اسمك؟ ظننتك تُدعى بدرًا.

- لا أفهمك.

- ابحث عنه لعلك تجده.

- من؟ بدر أم آرام؟

- الاثنان.. تحتاج إلى الاثنين. ولكنك ربما لا تجد لا هذا ولا ذاك. توخَّ الحذر في رحلتك.. فهي شاقة وطويلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أبهرها زوجها بهدوئه وسعة صدره. يسمع من الأمراء، يتكلم معهم ويحكي لهم. لم تر رجلًا بسحره طوال حياتها. تتبع عينيه وهي تبتسم أحيانًا أو تركز في شيء مهم. كلامه مثل العسل وأحلى من عرائس السكر. كلامه كله حكمة ومعرفة. جمع الأمراء وأخبرهم أنه جاء ليساعد على تأليف القلوب، اشتكوا له من الخليفة وضعفه، استمع وفهم ولم ينكر. طلب منهم أن يجتمعوا على الخير كما يدعونا الدين، فلو اجتمعوا على الخير أصبح لمصر جيش قوي، مائتا أمير لكل أمير آلاف الجنود لو اتّحدوا تنتهي كل الفتن. اشتكوا ضيق الحال ومراوغة الخليفة وأمه. قال إنه جاء ليُهدئ حِدَّة الكُره بينهم وبين المصريين، وبينهم وبين الخليفة. لكل مشكلة حل ولكل وباء علاج. استمعوا إليه في حذر في البداية، فهم لا يعرفون بدرًا، ومن يعرفه سمع عن فتكه بأبي طاهر. ولكنه أقسم أنه صادق معهم، وحكى لهم ما حدث من أبي طاهر وكيف قتل ابنه الكبير وكيف حرق قلبه وتآمر عليه. قال إنه لا يطمع سوى في اتحادهم معًا، فالخطر على أبواب مصر كما كان على أبواب الشام، وعندما تسقط الشام لا بد أن تليها مصر. السلاجقة تريد مصر، هذا أكيد، ولو لم يتحدوا مع بدر الجمالي ستكون نهايتهم قبل نهايته. أدهشهم أن بدرًا لم يقابل الخليفة بعد ولا زاره ولا مكث في قصره. قرر أن يعيد بناء أحد القصور الخربة في القاهرة ويبقى فيها. بدأ رجاله مساعدته في الانتقال إلى البيت الجديد الذي أصبح جاهزًا في أقل من شهر. أخبرهم أنه لا يرى الشرطة في الطرقات ولا يعرف أين هي. أخبرهم أنه جاء بالسلام يمد يده لينصر البلاد.

تستمع إليه فرون وينشرح صدرها. هذا ما تحتاجه مصر، تحتاج إلى رجل بهذه الحكمة. حبيبها لم يكن لديه أي وقت لها في الأيام الماضية، ولم يزر حتى حجرتها ولكنها تتفهم وتراه من بعيد وتسمع كلماته وتُمنِّي نفسها بأحضانه عندما يفرغ من أعماله.

استأجر أمهر الطهاة والحلوانية، من بقي منهم في مصر، من أجل وليمة الأمراء. اليوم يُقسمون معًا ويأخذ منهم العهد على درء الفتن وتوحيد الكلمة. اليوم هو اليوم الحاسم. دعاهم بنفسه كل واحد على حدة، فبعضهم أعداء ربما لن يقبلوا المواجهة ولا اللقاء، ولكنه أراد للأعداء أن يلتقوا قبل الأصدقاء. سوف يكونون في حمايته جميعًا، لن يتشاجر أمير مع آخر على قطعة أرض أو فرض الضرائب. اليوم هم أصدقاء، يوم واحد يتحدون فيه فترى البلاد النور.

هرولت فرون إليه، تعرف أنه مشغول، ولكنها تريد المساعدة وتريد أن تراه. طلبت من الحارس مقابلته فسمح لها.

دخلت عليه اليوم والرهبة تملؤها، كان وجهه عابسًا، ينظر إلى أوراق، التفت إليها، ينتظر أن تتكلم، فقالت في ارتباك: اعذرني أعرف مشاغلك يا أمير.

هز رأسه وانتظر.

فقالت: سمعت أنك دعوت أمراء الجيش للحديث معهم.

قال وهو ينظر إلى الديباج في ثوبه: نعم غدًا..

قالت: أعتقد أنها فكرة رائعة يا بدر، السلام دومًا يؤدي إلى الفوز. عندما تَكرمهم وتصالحهم تنتهي الحروب وينعم الشعب. مصر تحتاج إلى رجل بحكمتك، يعرف كيف يؤلف القلوب.

ابتسم وهو يربت على يدها: لا تشغلي بالك بأمور الحكم.

- هي أمورك أنت وأنت زوجي..

ثم أكملت في رفق: هناك شيء أريد أن أتكلم معك عنه.

تنهد وقال وهو يضع سيفه في الجب: تفضلي أسمعك..

- هل يمكنني أن أصنع الحلوى مع الطباخين؟ أعدك أنك لن تأكل في حلاوتها.

قال: لو كانت الحلوى ستوقف الفتن فلنجربها يا فرون. هل أنت متأكدة من أنهم لو تذوقوا الحلوى يتصالحون؟

قالت في تأكيد: نعم.

- حسنًا افعلي ما تريدين.

- لا تغضب مني يا بدر.. ولكني سأقول ما يجول بخاطري.

- لا أعرف لو كنت سأغضب أم لا..

- هذا بيت أُصلي فيه وأقرأ من كتاب الله. لا يعجبني وجود الخمر، ولا أن تدعو الأمراء اليوم بعد العشاء إلى احتساء الخمر.

نظر إليها في ذهول ثم قال: يُعجبك؟ من أنت ليُعجبك أو لا يعْجبك.. لا تنسي مع من تتكلمين يا فرون، إياك أن تنسي..

قالت في صوت مبحوح: أتكلم مع زوجي..

- تتكلمين مع الأمير وأنت هنا تحت أمر الأمير تطيعين أوامري في صمت.

بقيت صامتة فقال: هل تسمعين؟

- أسمع.

- تسمعين وتنفذين بلا امتعاض ولا ضيق. عندما أريد تقديم الخمر للأمراء أقدم الخمر. هل كان والدك يحتسي الخمر يا فرون؟ أخبريني؟

بقيت صامتة فقال: إياك.. إياك أن تتدخلي في ما لا يعنيك مرة أخرى قط. أنا أحاول إنقاذ هذا البلد، فلا تُغيري عليَّ مزاجي قبل مقابلتهم، صدقيني مقابلتهم وإقناعهم أصعب من فتح دمشق. هيا اخرجي.

صدمها بحدته ولكنها خرجت في صمت.

راقبت قدوم الأمراء في قلق وبعض الشعور بالذنب. أليس بدر هو حبيب عمرها؟ ألم تحارب العالم من أجله؟ لِمَ تُغضبه؟ بعد هذا العشاء ستعتذر إليه وتتمنى أن يقبل اعتذارها، فالأمراء تشرب الخمر سواء قدمه أو لم يقدمه. ثم إن مصائب الأمراء أكبر من الخمر. راقبت من النافذة حديث الأمراء وعيني زوجها اللتين تتحركان من أمير إلى أمير بسرعة وكلماته الرزينة. كم تحبه وتفتخر به. لم تسمع كل الكلام ولكنها سمعت بعض الكلمات: الأمراء يشكو بعضهم بعضًا، ثم يشكون من الخليفة ومن الأوضاع ومن الأرض ومن المصريين. بدر يهدئهم ويؤكد أنه جاء للمساعدة ولمصلحة الأمراء أولًا، فخراج مصر لا يزيد على خراج أصغر قُطر في الأمة الإسلامية، مصر التي كانت ممتلئة بالذهب، كلما مر فيها حاكم خر فرسه ساجدًا ثم تعثر في كنز من كنوز القدماء، تحولت إلى كورة قفراء بلا طعام وفي أيديهم تغيير كل هذا. وضع رجاله الطعام والشراب واستمر هو في الحديث. بدا متأثرًا، رأت في عينيه أنه يريد حقًّا أن يقنعهم، وبدأ بعضهم يقتنع. ساعد الشراب على تهدئة نفوسهم على ما يبدو، فضحكوا أكثر وبدوا أكثر فرحًا. كانت في أثناء وقوفها خلف النافذة قد نسيت أن تضع الطعام لطيورها كما تفعل كل يوم. الحمام في مصر خجول وخائف كالناس لا يثق في الصديق ولا الأخ. تسللت إلى الحديقة في هدوء ومعها حبات من الحبوب، ونظرت إلى الحبوب في لوم لنفسها. أتطعمين الطيور يا فرون وأهل مصر لا يجدون الطعام؟ أتظنين أنك رحيمة يا بنة الحلواني؟ قالت للطيور بصوت هامس: لم أخرج من هنا بعد، عندما أخرج سأطعم الناس وليس الطيور. أريدكم أن تعرفوا أنني لن آتي كل يوم.

نظرت إلى الحمامة وهي تقترب ثم تطير كلما تحركت يد فرون، ثم تقترب من جديد وفرون لا تتحرك، تبدأ الحمامة في التقاط الحبات في توتر وسرعة، ثم تأتي حمامة ثانية وثالثة.. يكثر الحمام حولها فتبتسم في رضا عن العالم، وفجأة يطير كل الحمام فزعًا فتشهق من وَهَل المفاجأة وتنظر إلى أبواب الحديقة، جنود زوجها تقف حول الأبواب بالسيوف والرماح. اختبأت وراء الجدار من الخوف لا تدري لماذا؛ فهم جنود بدر زوجها. منذ متى تخشى الجنود؟ ثم نظرت بطرف عينيها إلى الجندي وهو يخنق الأمير، ثم يكتم فمه بيده ويغرز السيف في بطنه فيخرج طرف السيف من ظهره. ارتجفت ربما ولكنها لم تقو على الصراخ. حدث كل شيء بسرعة. وضعت يدها على فمها وكأنها تحاول أن تمنع تدفق الدماء ورائحة الذبح. وكلما خرج أمير من عند زوجها بدر الجمالي ليقضي حاجته بعد الأكل والشرب قتله بعض الجنود.. واحد، اثنان، ثلاثة.. أغمضت عينيها وصرخت صرخة صامتة ولم تستطع أن تتحرك ولا أن تبقي عينيها مغمضتين. عشرة، عشرون، ثلاثون، الجنود تتصرف في إتقان وسرعة وهدوء تام. تكومت جثث مائتي أمير في حديقة القصر. بدأ الجنود يقطعون الرءوس من الجثث ويجمعونها لأميرهم، زوجها بدر الجمالي، دعا كل أمراء مصر اليوم وقدم لهم الطعام ثم الحلوى والخمر ثم قتلهم جميعًا بعد أن أعطوا له الأمان ووثقوا في نيته. ادعى أنه يريد التقرب منهم والصلح بينهم. ادعى الكثير حتى صدقته هي. بدر الذي يُقبِّلها في حنان ليلًا ويفرد لها ذراعه لتنام على صدره. ألم يقتل زوجها؟ ألم يقتل أبا طاهر؟ سفاك للدماء لا أكثر. جاء ليذبح، جاء طامعًا، ولكن لِمَ يطمع؟ لا يوجد ما تبقى ليطمع فيه. أيستحق الحكم كل هذه الدماء؟ ما فوق التراب تراب. ارتبكت الأفكار. رائحة الدماء الطازجة أصابتها بالغثيان، ألقت ما في بطنها كما فعل بدر عندما رأى حال مصر. وحاولت أن تغلق أنفها أو تجري إلى حجرتها لتستوعب على مهل نهاية العمر وكل الآمال.

أدارت وجهها لتتجه إلى حجرتها وكان بدر أمامها، قال في وجوم: ماذا تفعلين هنا؟

طأطأت رأسها وصوتها يغدر بها كما غدر هو بالأمراء. لم تستطع أن تتكلم. أشارت إليه فنظر إلى عينيها وقال: سألتك ماذا تفعلين يا فرون؟

سمعت صوته يصيح للجنود: اجمعوا كل الرءوس، أريد تقديمها للخليفة الليلة قبل طلوع الفجر.

كانت آخر جملة تسمعها ثم فقدت الوعي. حملها إلى حجرتها ووضع بعض الماء على وجهها ثم قال في عدم صبر: فرون، أفيقي، ليس لدي وقت..

بدا أن عقلها يهابه أيضًا، فتحت عينيها ثم رددت آيات قرآنية في عقلها الباطن ولكنه يسمعها: من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا.. الناس جميعًا.

توقعت أن يضرب عنقها الآن. سيفعل، القتل عنده أسهل من خلع ردائه، أو السلام على أولاده، فليقتلها. عندما فقدت وعيها ازدادت الشجاعة ونَمت. قالت فجأة: لم يكن عليك قتلهم. كانوا سيقتنعون.. كانوا سيُخلصون..

قال في هدوء وكأن قتلهم لم يحرك فيه شيئًا على الإطلاق: أكملي الآية.. ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا. عندما تضعين الأكل للطير يا بنة الحلواني تذكري أنك تركت بلدك هاربة من مجاعة ووباء وفساد وجفاف لتنعمي بالعيش في الشام، لا فكرت في من يموت في مصر، ولا اكترثت بهم. تذكري يا صاحبة الدين والخُلق أن الفساد كالوباء لا يفرق بين الطيب والشرير، يصيب كلًّا على حدة، أصاب والدك وأميرك وقاضيك وشيخك. أنت تحيين في دنيا غير الدنيا، تحيين داخل ذاتك ولا يهمك إلا أن تكوني بخير وصدق وطيبة، ولكن لو ذهب الجميع إلى الجحيم فلن تبالي، ستبكين ببعض الدموع ثم تنسين وتتزوجين وتنجبين. الله يعلم يا فرون من الأفضل أنا أم أنت. وهو يعلم من قتل النفس، ومن يحاول إحياءها ومن لا يهتم إلا بنفسه فقط.

لم تنطق. قام من أمامها وخرج ووراءه جنوده برءوس الأمراء كلهم.

لو كان بتر الرءوس اليوم، فكلماته لها كانت كسلخ الجلد بالضبط.

لم يقف بدر في انتظار الخليفة. دخل عليه المستنصر بوجه شاحب وعينين منكسرتين، ونظر إليه وهو يربت على يديه وقال: جئت لإنقاذي يا بدر.

قال بدر: جئتُ عندما أمرني الخليفة والإمام. لم أبغ الدخول عندك بلا هدية. مع رجالي مائتا رأس.. كل أمراء مصر.. الآن يا مولاي يدخل جنودي بيوتهم ويستحوذون على كل ما هو ثمين فيها من أجل بذله في البلاد. يا مولاي..

قال في انبهار: كيف فعلتها؟

- القتل سهل، أما ما هو قادم فهو أصعب. لم يعد لديك رجل نظيف في هذا البلد. الفساد طال الغني والفقير. وصل إلى العلماء والقضاة والتجار والصناع والقبائل ورجال الشرطة والجيش. ما تبقى من جيشك لا أريده فهو لا يصلح. من عاصر هذا الفساد لا بد من التخلص منه. نريد من يبدأ معنا أن يتعلم من جديد ويعتاد على نظام مختلف، أما من اعتاد على نظام جلب الفقر والجفاف فلا بد من التخلص منه.

- هل ستقتل جيشي يا بدر؟ ستستبدل رجالي برجالك يا أمير؟

قال بدر في ثقة: لقد حدث هذا بالفعل يا مولاي. كل أمير قتلته استبدلت به أحد رجالي، أخذ بيته وجواريه وكل ما يملك. أما الجنود فلا أريد إيذاءهم، فقد نتركهم لحال سبيلهم بعد أن نأخذ منهم السلاح ونعطيهم حاجتهم. لا أمان لهم بعد موت الأمراء.

- جيشك ليس أكثر من بضعة آلاف يا بدر. أنت تعرف.

- هل سمعت عن أمير جاء منذ مائتي عام أو يزيد يُدعى ابن طولون؟

نظر إليه المستنصر بلا كلمة. فقال بدر: تعرفه.. أليس كذلك؟

- وما لنا وآل طولون. نحن لا نتبع الخليفة العباسي، دولته لم تدم أكثر من أربعين عامًا أو أقل.

- كان له جيش.. استعان بالمصريين.

- ما الذي يدور بخلدك يا بدر؟

- التاريخ مهم لرجال الجيش يا مولاي وأهم لأمير الجيوش. رجالي من جنسي أثق بهم، ورجال مصر من أرضها يريدون مصلحتها حتى لو ضلوا بعض الوقت وراء ثروة أو ذهب، في النهاية ليس لهم سواها.

- أهل مصر ليسوا كلهم من مذهبنا. لم يحدث من قبل في دولتنا أن استعملنا المصري في الجيش.

- وجنودي ليسوا كلهم على دين الإسلام أصلًا يا مولاي. في جنودي المسيحي والمسلم، وفي جيشي المصري. فعلها قبلنا ابن طولون وانتصر على الخليفة العباسي وهذا ما نبغي.

- ما تفعله مغامرة. أن تستعمل أهل مصر وهم على مذهب غير مذهبنا خطر، وأن تستعمل المسيحيين من الأرمن في جيشك خطر مضاعف.

- ليس أمامنا سوى المغامرة، فما الذي ستفقده أكثر مما فقدت بالفعل؟ إما أن أُعيد هذا البلد إلى ما كان عليه، وإما أن أموت في سجنك وأُدفن وينتهي الأمر، أو أعيدها إلى ما كانت عليه ثم أموت بها وأدفن. تعلمنا منذ الصغر أن الجرح الملوث لا بد من تنظيفه بالسكين، ثم كيِّه، وإن لم يفلح هذا فلا بد من بتر مكانه بلا هوادة. هكذا تعيش بلا أحد الأطراف ولكن تعيش. في تطهير الجرح إنقاذ للبشر.

- ماذا تنوي؟

- الصعب آتٍ. كل ما مر كان سهلًا. يُحزنني أن أرى عاصمة الخليفة وهي خراب بمبانٍ مهدمة وبقايا أشلاء أموات من وباء وجوع. لِمَ نُبقي القاهرة حكرًا على الفاطميين؟

قال في ذهول: بدر.. هذه مدينة الفاطميين بُنيت لهم وليس لأحد غيرهم. أسوارها تحمي من القُبح والعامة وليس فقط من الغازي.

قال بدر: كيف للخليفة وأهل حُكمه أن يسجنوا أنفسهم داخل مدينة؟ لم أسمع بهذا من قبل. الأسوار تهدمت والمدينة نصفها خراب. نطلب من أهل مصر الأثرياء أن يقتطعوا أي أرض خراب يجدونها ويبنوا بيوتهم داخل القاهرة. ثم نطلب مِمَّنْ رحل خائفًا أن يعود ويعمر البلاد، كل البلاد، وسيبقى سور القاهرة للغازي وليس لأهل البلد.

نظر إليه ولم يجب.

فأكمل: وجاء وقت قتل وزيرك الذي في السجن.

- أخاف ثورة أتباعه.

- الوقت أهم شيء. لكل شيء وقته. الأمراء أمامك وهناك رءوس مقطوعة، أما الوزير فلن يجد أميرًا ليدافع عنه لا تقلق.

- الوزارة لك يا بدر.

- لا أريدها ولكني أريد أن أكون داعي الدعاة وقاضي القضاة. لا ثقة لي في قُضاة المذاهب كلها.

- ولكنك مُقدم الجيوش يا بدر. لم أسمع من قبل عن رجل جيش يصبح داعية وقاضيًا وشيخًا.

- بدر قاضٍ وداعية وشيخ وأمير الجيوش يا مولاي إذا سمحت لي.

- لك ما تريد دومًا، أنت تأمر وأنا أنفذ، ولكني أخاف إغضاب القضاة.

- من سيتبقى منهم تقصد.

- بدر.. هل تنوي ذبح القضاة؟

ابتسم ثم قال: ليس كلهم، من شارك في فساد فقط وهم كثيرون. لا وجل في قلبي من رجل دين شهد على الخراب، ولم يتحرك ولم تنتفض عروقه. سيعاقب كل من فسد وأولهم من ادعى الفضيلة.

- كثرة الدماء تلوث الخلافة يا بدر. كن رحيمًا.

- الرحمة يا مولاي لله وأنا بشر. أفعل ما أستطيع لأنقذ بلادًا رأيتها عزيزة زاهرة، ثم مسكينة فقيرة مريضة مرض أيوب بلا أمل في معجزة.

قال المستنصر في تردد: جاءنا نبأ لا نعرف صحته. ويكأن الجمالي تزوج من سنية لا تتبع الإمام.

ابتسم بدر ثم قال: بدر الجمالي قاضي القضاة وداعي الدعاة له ما يشاء، ويفعل ما يشاء يا مولاي ما دام لا يُدْخِل النساء في الحكم. اسمح لي بأن آخذ أول قرار منذ قدومي.. نلغي معًا ديوان أم الخليفة.

نظر إليه المستنصر، لا يدري أيثق به أم يخافه.. ثم قال: لا تحجر عليَّ يا بدر. أردت مساعدتك، فلا تأكلني كما أكلني غيرك.

- بدر لا يخون ولن يخون الإمام. ما دمت أنا على قيد الحياة فهذه الدولة في أمان. من اليوم لا يوجد ديوان لأم الخليفة. يكفينا فتن الرجال يا مولاي، لنغلق بابًا لا رجاء فيه.

ضمت كل جسدها ونامت على جنبها الأيسر وهي تحاول أن تمحو صورة الرءوس المقطوعة أو رائحة الدماء المنبثقة بسرعة مياه النيل وقت الفيضان. لم تستطع مواجهته اليوم ولا غدًا ولا بعد غد. يومًا وراء يوم يطلبها إلى حجرته فترفض. ضغطت على جفنيها لعل الألوان تتغير ولكنها استمرت بلون الياقوت وببريق النزف والأنفاس المستعرة. رأت العيون تستغيث، تندم، تتمنى فرصة واحدة للعيش. ولِمَ تفزع؟ ربما هي من لا تملك لا بصيرة ولا معرفة. ربما هي بجهلها وسذاجتها لم تر الحقيقة منذ البداية، ليست فرون إلا قطعة شطرنج داخل لعبة، من يخسرها يمت ذبحًا، ومن يكسبها يمتها هي موتًا بطيئًا. وكسبها من تحب، ولكنه ليس من فريقها على ما يبدو. عندما قتل زوجها وباع نساءه بدم بارد لم تنتفض لأن قلبها كان يشتاق ويتمنى ويريد لأنها عشقته دون أن تسأل عمن يكون ولا ماذا يفعل. عشقت عينيه ووجهه ورأت فيهما ملاذًا وسندًا. عشقت روحًا ليس لها وجود إلا في خيالها البائس. وربما هي من ليس لها وجود. ربما هي من لا تعرف شيئًا على هذه الدنيا ولا عن الإنسان ولا الحيوان. تردد صدى كلماته: فرون، القطة الصغيرة التي تحمينها أكلت فرخ الحمامة بلا أي ندم. والجارية التي بكت تحت قدميك ودعت الله ورتلت آياته لم تكن تريد أن ترى أمها المريضة بل أرادت أن تهرب مع عشيقها بعد أن سرقت ذهبك. ما فعلتِه وأنت تظنين أنك تفعلين الخير انقلب إلى شر كبير. لو لم تنقذي القطة كنت أنقذت فرخ الحمام.

أكملت الكلمات في نفسها: أنت السبب يا فرون، أنت تقضين على كل خير. تشاهدين زوجك يذبح ويقتل وأنت صامتة صمت الجبناء. لا منعت القتل ولا ساعدت الضعيف. وحتى لو منعت القتل فالأمير الذي ستنقذينه سيكون غدًا قاتل رجل آخر. هي عجلة كالعجلات الحربية ولكنها بأطراف مدببة حادة تخترق كل ما تسير عليه قبل أن تفنى أو تنعدم. هي شر هذه الدنيا وهي فجور هذه النفس. فرون في غفلة وضلال منذ ولدت، لا تفكر في أحد. تدعي الدين وهي لا تعرف عنه شيئًا. كان على حق. ماذا فعلت؟ وهل لو أنقذت رجلًا أو امرأة من يضمن لها أنه سينقذ غيره؟ ربما يقتل ويعربد في الأرض. هذه أرض لا تستحق العناء. قتل فيها الأخ أخاه عندما رأى حوله الحيوانات يقتل بعضها بعضًا. كلما حاولت أن تُجمِّل الحياة اقترب وجهها القبيح أكثر وتكشف لها. هي حياة بأسنان أفعى ولدغة عقرب وعيني تمساح وأنف ضبع. هي قبيحة بلا أمل في نجاة، أو خلاص إلا بالموت. وبدر؟ هل تستطيع أن تواجهه مرة أخرى؟ بعد عام؟ بعد عامين؟ متى؟ هل سترى وجهه دون أن تتذكر الذبح وبحر الدماء؟ هل تخافه؟ ليتها تخافه. هي تخجل من سذاجتها ربما. أمسكت ببطنها، وهذا الطفل في أحشائها الذي لا يعرف عنه شيئًا ماذا سيكون؟ قطعة شطرنج يُقتل في حرب المقصود فيها والده كالعسكر الصغار؟ أم يذبح هو كل المحاربين؟ من سيكون ابنها؟ آه يا حفصة أين أنت الآن؟ تريد أن تتكلم معك في مصير لا تعرفه. يومًا ستقرر أن تواجهه ثم تطلب منه الرحيل إلى عكا. فقد أبقى هناك آمنة خاتون فليُبقها هي أيضًا هناك. ويومًا تتمنى أن تعانقه وتطلب منه أن ينسيها ما رأت، أن يمحو ذكرى الغدر والقبح، فهي لا تستطيع أن تمحوها بنفسها. ويوم تحلل لنفسها القتل فتصبح شخصًا لا تعرفه، بل لم تعد تعرف من تكون ولِمَ أحبت بدرًا؟ لِمَ هو بالذات؟

بعد مرور أسبوعين لم يعد يطلب منها أن تأتي إلى حجرته ولا أتى هو إلى حجرتها. لم تزل تشعر بالغثيان كلما استنشقت رائحة الدماء أو حلمت بالنهر يتحول إلى شرايين جارية بلا توقف ولا منع. وكان بدر هو كل شيء بالنسبة إليها منذ رأته أول مرة. لا هي تهتم بالحلي ولا الثياب ولا تريد من الدنيا غير رضا الله وبقائها حول الرجل الوحيد الذي أحبته. قالت حفصة إن هذا النوع من الحب

يعذب ولا يثمر، عندما تفني نفسها فيه تضيع بلا فرصة للندم، ولكنها لا تستطيع التحكم في القلب. ترى النور من بين راحتيه، والحنو في ثغره وبريق أسنانه. تدعو الله يوميًّا: يا رب لو كان حبه ذنبًا فاغفر لي. ربما لو لم تتزوج غيره لكانت أقوى معه، ولكنها خذلته من قبل ولن تخذله مرة أخرى. ثم لِمَ لا نضع الأعذار لمن نحب؟ فلو أحببنا فلا بد أننا وجدنا رأفة ورحمة في قلب من أحببنا. ربما لم يكن بدر يعرف أن رجاله ستقتل الأمراء. وربما كان هذا أمرًا من الخليفة ولم يكن لديه اختيار. من يعرف؟ لِمَ تحكم على زوجها وتنفذ الأحكام؟ لا بد أن تفصل بين مشهد الدم وبدر. بدر كان دومًا لينًا هينًا معها وهي لم تره يقتل بيده. نعم لم يقتل بيده. ستستغفر الله كل يوم وستتصدق وتدعو له بالبصيرة والمغفرة. لن تقف أمامه كأنها الحاكم والقاضي. ترى أتغير قلبها لأنها تفتقده؟ لو كانت الأهواء هي ما يحركها فكل ما تعلمت ضاع هباء.

عودة حفصة إلى مصر كانت إنقاذًا لفرون من ألم الفقد وصبابة العشق. احتضنت حفصة في قوة ويأس وحكت لها وهي تلهث، كلما لامته في حكايتها عادت فشكرت في أفعاله. استمعت حفصة في صبر ثم قالت: هل تكلمت معه يا فرون؟

شعرت بالغثيان مرة أخرى ثم قالت: لا أستطيع ولا أجرؤ.

- أتخافين منه يا فرون؟ هو زوجك.

صمتت لا تعرف أتخاف من غضبه أم من عزوفه عنها أم من نفسها معه. قالت لحفصة في يأس: أريد أن أسألك لو مثلًا كنت لا أوافق على بعض أفعاله ولكني لم أتركه ولا لمته، فهل في هذا ذنب؟

أطرقت حفصة برهة ثم قالت: الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وأنا لا أعرف ما الذي تتحمله نفسك. تكلمي مع زوجك. يبدو لي والله أعلم أن ما بينكما كأطناب الخيام يقيم المسكن ويؤنس الوحيد.

قالت في حسرة: أنا أفتقده يا حفصة وأخافه.

طلبت مقابلته بعد عدة أيام ولكنه رفض. ألحت على الحاجب أن تقابله ولكنه تجاهلها. قال الحاجب إنه مشغول. وضعت يدها على بطنها تتذكر أنه حتى لو كان غاضبًا منها فلن يستطيع أن يغضب إلى الأبد. ستصبر. يومًا وراء يوم تنام وحدها. أحيانًا تتصوره مع غيرها فينفطر القلب. هي من دفعت به بعيدًا وحاكمته كالقضاة. بعد مرور شهر فقدت الأمل أن يأتي. لا هو يستقبلها ولا يريد أن يراها. أغمضت عينيها مع طفلها الوحيد الذي يؤنس وحدتها.

جلست على ركبتيها تقرأ من كتاب الله قبل صلاة العشاء كعادتها، لم تزل الدموع مستقرة في عينيها اليوم، تدعو الله أن تحيط رحمته جنينها وزوجها ونفسها. فالله لا يكلف نفسها إلا وسعها. هو رحيم دومًا هي تعرف. نفسها ليست برحمة الرب ولا عطائه. لامت نفسها من جديد، ألم تحلم بأن ترى وجهه؟ ألم تنم ليالي في حزن الطفل التائه وسط القفر والجفاف؟ ألم تحارب الكون لتقترب؟

لم تشعر به وهو يدخل ولكنها سمعت صوته، فالتفتت إليه وهو يقول: أتدعين عليَّ أم تدعين لي يا فرون؟

ثبتت عينيها على مقلتيه فمد يده يريد أن يساعدها على النهوض، أخذت يده بلا كلمة، فقلب كفها بين يديه، ثم قال في تأمل: كنت أفكر.. أننا لم نُصلِّ العشاء معًا قط منذ زواجنا. ألا يشرفك يا بنة الحلواني أن تصلي مع كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المسلمين سيف الإسلام وناصر الإمام بدر الجمالي؟

قالت مسرعة: بلى يشرفني ويسعدني يا أمير..

قال في بطء وعيناه لا تتركان عينيها: يساورني الشك أحيانًا أنك لست مقتنعة أنني من دينك، تُرى أترينني مسلمًا ولكن على ضلال يا فرون؟

قالت في تأكيد وهي تمنع الدموع من أن تتساقط: لا لم أفعل يومًا، ومن أنا لأحكم على إسلامك يا أمير. أتعرف ما يقوله الشافعي؟

- ماذا قال الشافعي يا شيخة؟

قال:

«لئن كان ذنبي حب آل محمد

فذلك ذنب لست منه أتوب

هُمُ شُفعائي يوم حشري وموقفي

إذا ما بدَتْ للناظرين خُطوبُ

قــالــوا ترفَّضتَ قلتُ كــلا

مــا الرفـض ديني ولا اعتقادي

لكن تَــوَلَّيتُ دون شَــكٍّ

خـيرَ إمــامٍ وخــيرَ هــادي

إن كــان حُـبُّ الولــيِّ رفضًــا

فــإنَّ رفضــي إلــى العبــادِ»

- تستحضرك الكلمات بسرعة كالفقهاء. أشعر أنه ربما يكون لك مهمة يا فرون.

نظرت إلى عينيه تريد أن تقول الكثير ولكن الكلام عن الشافعي وعن الدين أسهل من الكلام عن المشاعر واللوم والغضب.

ابتسم في بعض الحزن الذي لا تعرف منبعه ثم قال: أؤم بك الصلاة وكأننا نصلي في مسجد عمرو بن العاص والأزهر معًا بلا فوارق ولا تفاصيل.

حنت رأسها وقالت: شرف لي.

تقهقرت وراءه تنتظر كلماته وحركاته، أذابها صوته وهو يقرأ القرآن، قرأ الفاتحة ثم سورة المُلك، ركعت وراءه ثم سجدت، صوته مليء بالشجن، تساقطت الدموع من عينيها عند السجود. أبقت رأسها داخل الأرض.. «ما فوق التراب تراب». نهض وقرأ الفاتحة ثم سورة الضحى.. «ما ودعك ربك وما قلى.. ولسوف يعطيك ربك فترضى». لم تتأكد أهو جن أم ملك.. شيطان ثائر بكبرياء على كل الملائكة التي تجهل الأسماء؟ أم روح أتاها الله رحمة من لدنه؟ عندما انتهى تأكدت.. هو منها هي.. قطعة من نفسها، كان هكذا منذ رأته ولم يزل. لا يمكن أن يكون إلا من تحب.. صاحب العينين الصافيتين كالعسل يضيء الدنيا ولا يحرق، هو عشقها والله لا يرضى لها بالعذاب. قام فنظرت إليه وهي تقوم وعيناها تستغيث به ألا يرحل. همست وحمى التوق تلهب الأيام كلها: بدر..

أمسك بذراعها وقربها إليه. ضمها في بطء وكأنه متردد أو خائف، لا تدري من نفسه أم من مشاعره. وضعت كفها على قلبه وقالت: جدتي وضعت يدها على قلب جدي هكذا فظن أنها سحرت له، وجدت شيئًا من نفسها بداخل قلبه. لا تغضب مني..

أحاط رأسها بيديه ثم قال: وماذا بداخل قلب الجندي يشبه قلب الصوفي يا فرون؟

قالت بلا تفكير: المجاهدة. هل ستبقى معي الليلة؟

- جئت إليك..

- بعد وقت طويل.. ألم يكفك العذاب الذي عانيته أعوامًا؟ لا تتركني أتعذب من جديد.

- لم أكن أريد عذابك.. أنت من تعذبين نفسك وتُحملين قلبك كل ذنوب البشر. أنا لست شيئًا.

- ولكنك السيد الأجل.

- أعرف؛ لذا عليَّ أن أدافع لا أن أصوم وأعتكف. لا أعرف سوى السيف.. وإنقاذ هذا البلد لو استطعت.. هل ستساعدينني؟

- كيف للسيد الأجل أن يحتاج إلى مساعدة بنت مثلي..

- تثقين بي..

طوقت رقبته ثم قبلت خده وكتفه وهمست: أحبك..

- لا حب دون ثقة..

- أخاف عليك من نفسك..

- قلت لك ما أريد..

- أعطني بعض الوقت..

- هو قسم تعطينيه الآن..

- أو ماذا؟

بقي ساكنًا فقالت وهي تقبل فمه قبلات متقطعة: هل جئت لتبقى معي؟

- هل ستصلين معي كل يوم؟

- دون أن تطلب مني أن أغير مذهبي.

- لم أطلب منك هذا. طلبت منك أن تثقي بي..

قالت وهي تضع رأسها على كتفه: أثق بك دومًا.

- بلا أسئلة وبلا لوم وبلا نظرات عتاب..

- سأفعل كل ما تريد.

حملها بين ذراعيه إلى مخدعهما فأغمضت عينيها.

معاشرته بعد قطع الرءوس كانت مختلفة. لم تتدفق الدماء ككل مرة فقد انسحبت من جسدها. حتى وهي تصل إلى نشوة تمحو الذاكرة لم يفارقها خروج الروح من الجسد. كان جسدها يتمناه وقلبها يبني سورًا ليمنع الاستسلام. عرف وفهم. عندما انتهى همس في أذنها: ماذا بك؟

قالت مسرعة: لا شيء.

ثم حاولت أن تقبل صدره فأبعدها قائلًا: نتكلم أولًا.. عقلك تائه بعيدًا.

ارتجفت خائفة من غضبه ومن فقده. استمرت في الارتجاف فأبعدها عنه ونظر إليها وهي لا تستطيع أن تتحكم في الأطراف ولا انتفاضة الجسد. هاجمها الرعب كما تهاجم الرياح حقول الشتاء. استمرت في هذه الحالة ولم تستطع أن تنطق. احتضنت نفسها وحاولت بلا جدوى أن تتكلم: اغفر.. لي..

للنفس أحوال مرعبة.. تمزج بين الهول والعشق والرضا التام واللوم المستمر. شهقت شهقات متصلة وهو لم يزل يحدق بها ولا يلمسها. ثم وضع عليها الغطاء وقال: أغمضي عينيك، ومددي جسدك.

فعلت ما أمرها به. بعد برهة هدأت دقات القلب والشهقات، انكمشت كالجنين مكانها في خجل مما رأى منها.

قال: أعرف هذه الحالة، رأيتها في الجنود من قبل. بعد أول قتل أو أول إصابة، ستعتادين الدنيا وتعرفينها.

أمسكت بيده وقالت في بؤس: أليس التأليف بين القلوب أفضل يا بدر؟ في الاتحاد قوة.

- القلب العفن لا يقيم جسدًا، والعفن لا علاج له سوى الاقتلاع مثل الشجر التالف. لو فسد ولدي الذي من صلبي لقتلته.

كلماته أخافتها أكثر. وكادت تعود إلى ما كانت عليه ولكنه قال في حسم: أنت.. تتعذبين بسببي. ربما لو ابتعدت.. عنك بعض الوقت..

قاطعته وهي تلقي بنفسها بين ذراعيه: أموت لو ابتعدت عني.

قال في حسم: إذن تكلمي معي وقولي ما يغور في نفسك. أسمعك. انسي من أكون وتكلمي.

فتحت فمها ولم تستطع أن تتحدث. الدماء دومًا تخدش وجهها، أصبحت دماء حادة كقطع الزجاج المكسور تحول دون التحرك. أغمضت عينيها، ثم قالت: السيد الأجل سيف الإسلام هو زوجي أيضًا.

بقي صامتًا. استجمعت كل قواها ثم قالت: أنا أخاف الدماء يا مولاي الأمير.

ابتسم في تهكم ثم قال: لم يكن عليك أن تتزوجي من أمير جيوش إذن. عندما مات ثلث الناس في هذا البلد سالت الكثير من الدماء. تخافين دماء سيفي ولا تخافين دماء سيوف الأمراء؟

قالت في توسل: بدر، لن أستطيع أن أتكلم معك كأننا متساويان فنحن لسنا كذلك، ولا أن أبادلك الكلمة بالكلمة. ستفوز في كل المعارك، ولكني أتعذب.

نظر إلى عينيها ثم قال: تعذبين نفسك، لا تتدخلي في عملي يا فرون. فلا أنت تفهمين ما يدور في القصور ولا تعرفين شيئًا عن الفتن والغدر.

قالت دون تفكير: لا تقتل أمامي إذن. لا تذبح الناس وتقطع الرءوس في بيتي. لا أستطيع تحمل هذا يا أمير.

توقعت أن يضربها كما فعل زوجها وأبوها من قبل، أن يوبخها ربما لأنها تأمره وهو الآمر الناهي في هذا البلد. لم يفعل ولكنه قال في هدوء: تأمرينني يا فرون؟ عجبًا لك أتعرفين أن الخليفة لا يجرؤ على أن يأمرني كما تأمرينني أنت؟ استمعي إليَّ مرة أخيرة.

تلعثمت وارتجفت وجلست أمامه وطأطأت رأسها، فقال: المُحب لا يُغيِّر من يحب، بل يتقبله كما هو، يحب فيه كل شيء. هذا أعرفه دون أن أستمع إلى الشعراء ولا أدرس مثلك.

التقت أعينهما، هو بدر من تشتاق إليه حتى في حضوره، هو الحبيب الذي قاست دونه، ضغطت على جفنيها كأنها تبعد ذكرى الذبح، لم تستطع ولكنها اقتربت منه، وضعت رأسها على صدره وطوقت كتفه وهمست: افتقدتك. تمنيت كل يوم أن تأتي.

قال وهو يستنشق شعرها ويقبله: أنت من ابتعدت.

- حماقة مني لا أستطيع الابتعاد عنك بعد الآن. لن يحدث مهما جرى.

ضمها في رفق وبقي صامتًا فقالت: هل غضبت مني لهذا الحد؟ ليتني بحسمك وحدتك أستطيع أن أمنع قلبي أن يفكر فيك، ويتمنى ذراعيك ويود فقط أن يستمع إلى أنفاسك. بين ذراعيك أجد السكينة كأنهما قطعة من الجنة. كيف لذراعيك أن تفعلا هذا؟ أنت على حق يا بدر، أنا لم أفعل شيئًا لمساعدة الناس هنا. هربت مع أبي، كنت صغيرة حينها، ولكن ربما لديَّ واجب الآن ناحية كل من يعاني، وكل من يحتاج إلى المساعدة. هل ستسمح لي؟

- سأسمح لك ولكن ليس الآن. بعد بعض الوقت عندما يعود الأمان.

ثم أحاطت وجهه بيدها وقبلته في قوة، وكلماته التي لا تدري هل يعنيها أم قالها في لحظة يأس وحزن وحيرة ممَّا يحدث لها، هذه الكلمات كانت كفيلة أن تعيد إليها روحها، فدفعت به إلى مخدعهما، وحاصرته بذراعيها وقالت: ليس لي سواك. أنت زوجي. أحبك.

أحبته مرة أخرى. ولو كانت أول مرة ممتلئة بالحيرة والخوف والتردد فهذه المرة كانت مزيجًا من الخوف على أن تفقده وانتصار إرادة الحب على كل شيء آخر. عندما انتهيا كانت تلهث وكان ينظر إليها في ذهول، فقد سكبت شغف سنين ولوعة عاشق لم ينل محبوبة منذ أبد الدهر. همست: تعرف الآن أني أحبك؟

ضمها إلى صدره وأنفاسه تتصاعد وقال: أعرف.

قالت وهي تدور بأصابعها على صدره: أقسم لك..

- تقسمين بماذا؟

- أني لا أعرف مع من تقضي لياليك، وأني لا أغار كالنساء، ولا أتكلم مع أحد هنا، ولا أعرف شيئًا عن الجواري.

ابتسم.. أحاط وجهها ثم قال: لا تغارين؟ لِمَ لا أصدقك؟ هل يمكن لفرون الداعية أن تكذب؟

- يمكن لفرون أن تجاهد نفسها.

ساد الصمت برهة ثم قالت هي: بدر، من تروق لك منهن؟ اصدقني القول. أريد أن أعرف فقط.

كيف يجيبها دون أن يبدو كفتى هائم. كيف يخبرها أنه لم يذق طعم الحب طوال عمره، وأنه عاشر الكثير من النساء، مئات ربما، دون أن تنفذ واحدة إلى نفسه، كن يمررن على جسده كالهواء يرطبن الجلد برهة ثم يختفين. ربما لو أخبرها لن تفهم. سمع في الماضي عن قواد وأمراء وخلفاء يحبون واحدة حتى إن كثرت حولهم النساء. بعضهم يترك العالم من أجل بضع ساعات مع واحدة فقط. سمع وضحك حينها. أنجب وتزوج وبقيت معه الجارية أحيانًا أسبوعًا بأكمله قبل أن يملها ويجرب غيرها. كان كغيره يرى النساء كالموسيقى تنعش القلب بعد عناء القتل وقُبح الخيانات. يحتاج الرجل إلى لحظات صفاء بين أحضان جميلة تتقن الغناء والعشق. يحتاج إليها لأنه يعرف أن السيف سيذبحه اليوم أو غدًا من أقرب الناس قبل الغريب، وأن الغدر من طبع الحكام وحاشيتهم. سيأتي الغدر ربما من عبد الوهاب، ربما من أحد جنوده، لا يعرف بعد. يسلط على كل جندي جنديًّا آخر، وعلى كل قريب غريبًا. لا يثق في أحد في هذا الكون سواها. هي فقط فرون كالزاهدين، تُذكره بجعفر المجذوب، تجلس فوق أكوام الخراب، ولا تطمع في جاه ولا مال ولا سلطة. تعشق بإخلاص وتتعبد بإخلاص وتعطي بلا مقابل. منذ وجدها لا طلبت منه شيئًا ولا أرادت سواه. ترى هل حنق عليها لأنها لا تحب الدماء؟ لِمَ لم يفعل؟ غضب نعم، جرحت كبرياءه، هذا حدث. قرر ألا يراها حتى لو ألحت، نعم، ولكنه في باطن القلب كان مسرورًا لأنه استطاع أن يلملم بين راحتيه حفنة من الصدق ولو إلى حين. تمنى أن تبقى كما هي لا تغيرها الأيام، ولا يدخل إلى قلبها طمع الجواري ولا شراهة الحكام. هناك شيءٌ ما في الحكم يُذهب العقل. هو إحساس دفين بالقدرة لا يضاهيه إحساس آخر، لا الغنى ولا الأولاد. يأمر فيطاع، يدخل على الناس فتنحني الجموع في وجل وطاعة. كأنه في الجنة لولا أن الجنة

بلا أسوار ولا حدود، ولكن القدرة على الأرض كلها عجز، لا أنت ترى الحقيقة ولا أنت تدرك ما في النفوس، كلما زادت القدرة شُيدت القلاع حول البصر واختل الميزان.

دقت على صدره بأصابعها قائلةً: بدر.. لن أغضب، أخبرني من تعجبك؟

- لم أنظر إليهن يا فرون.. لا وقت لدي.

- وعندما يكون لديك الوقت؟

قال في حسم: لن أنظر إليهن.

قالت في تردد: أنا حامل.

ربت على ذراعها ولم يجب.

فهمست: أيسعدك هذا؟ لديك الأبناء.. لست بحاجة لابن آخر.

قال وهو يضمها أكثر: يسعدني طفل منك.

كان رقيقًا ولكن مستعدًّا لمواجهتها، أعطاها الأمان لتتكلم، ولكنه حجب عنها القدرة على عصيانه. يغويها كالألوان الزاهية التي تربك البصر، ولكنه أيضًا يفيقها كالمياه المثلجة. لا أخبرها أنه سيبقى معها كل يوم، ولا وعدها ألا يغضب مرة أخرى.

قالت: أتمنى لو أمكن أن تقضي لياليك معي. أن تكون حجرتي هي حجرتنا.

ابتسم وهو يقبل كفها قائلًا: ويقولون أمير الجيوش يحب السلطة والتملك، لا يعرفون شيئًا عن النساء. أعدك أن آتي إليك كلما استطعت، ولكني كثيرًا ما أقضي الليالي في العمل يا أم جعفر.

- لِمَ اخترت اسم جعفر؟

- قابلت شيخًا اسمه جعفر لم أر مثله من قبل فأعجبني الاسم.

- لو كنت تعمل طوال الليالي أريد أن أكون حولك فقط.

- لا أستطيع أن أعمل وأنت حولي. أفقد التركيز، هيا نامي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الشام كان عامر بن حمزة بن عبد الله يتذكر ثأر والده من بدر الجمالي، ويتذكر زوجة والده فرون التي اتخذها بدر جارية ثم تزوجها. عاهد نفسه على القضاء على بدر وفرون ونسلهما، فقد حانت لحظة الانتهاء من حكم بني عبيد في مصر كما انتهوا تقريبًا في الشام، وعند هزيمتهم في مصر يحكم السلاجقة سيطرتهم، ويعود الدعاء في الخطبة إلى بني عباس. مصير بدر الجمالي سيكون مثل مصير أبي طاهر على يد بدر.. سيسلخه حمزة بيديه. يتمنى هذا كل يوم. انضم لحمزة رجل آخر قتل بدر والده، تركان ابن ألدكز الوزير الذي قتله بدر في سجنه في مصر وتمكن ابنه من الهرب إلى الشام. ما أسهل الصداقة النابعة من الرغبة في الانتقام! وما أجمل العصبة التي تتمنى المحو! ذهبا إلى أتسز السلجوقي يطلبان منه غزو مصر. مصر اليوم ضعيفة بلا جيش ولا وزير، ثلث سكانها قد ماتوا، والباقون يعانون آثار الشدة والجفاف والمجاعة. بل إن بدرًا سفاك الدماء قد قَتَل أمراء الجيش وسرَّح الجنود الفاطمية ولم يعد عنده سوى عدة آلاف من الجنود الأرمن. هذه هي لحظة الهجوم. قال تركان: من ملك ريف مصر ملكها، فليدخل السلاجقة بقيادة أتسز إلى الريف يغزون وينتصرون. سينتظرون الفرصة ولا بد من أنها ستأتي. بدر يقود الحروب بنفسه ويسافر إلى الدلتا والصعيد بجنوده. إما قتله وإما الانتصار عليه.

سينتهزان فرصة انشغال بدر بحربه ويدخلان إلى الريف. وعند الهزيمة سيبيع حمزة فرون إلى تركان ويسلخ بدرًا ويقتل كل نسله. ولكنه يريد أن يطلب من تركان أن يذبح فرون بعد حين فهي خائنة، امرأة تسببت في مقتل زوجها لا أمان لها ولا عهد، هي من المنافقين الذين توعدهم الله في كتابه. تدعي الفضيلة وجسدها مغطى بالعار.

فرون لم تعلم عن الحقد في القلوب. ظنت أن أولاد زوجها غفروا. ألا يعرفون الحب؟ ألا يدركون حجم معاناتها مع حمزة؟ تغفر له وتغفر لوالدها ولكل البشر. فمن السهل أن تغفر عند الوصول إلى الهدف، أما وقت التيه فالمغفرة صعبة. تمنت لو استطاعت أن تغفر وهي تتعذب، ولكنها أدركت حجم إنسانيتها ونقصان نفسها في الشهور الماضية.

راقبت زوجها من النافذة وهو يقرأ عن مصر، عن كل «كورة» وكل بلد. جلس بجانب رجاله ثم رسم خريطة مصر وقال: كيف لنا أن نسيطر على بلد بها ألفا كورة أو يزيد؟

فقال المصري: يا مولاي هذا عُرْفُنا منذ أيام القدماء.

- لسنا في أيام القدماء ولا قدرتهم. نقسم مصر إلى إحدى وعشرين منطقة، ونعين على كل منطقة رجلًا نثق به، نظيف الضمير وربما يكون مصريًّا.

قال عبد الوهاب في رفق: يا مولاي، الصعيد والدلتا في يد الترك والأعراب، والخراب يعم.

- أعرف.. ننظف ثم نبني. لا بد أن ننظف أولًا. من لا يعرف كيف يحمي الناس لا يستحق أن يحكم هذا البلد. أريد أن أقابل نائب الشرطة، كان قد وعد بملاحقة كل التجار الفاسدين.

- نعم، وأتى بهم كلهم اليوم ويريد إقامة الحد عليهم.

طلب منه الخليفة أن يعين الرافع نائبًا للشرطة. وافق على طلب الخليفة إكرامًا له لأنه الإمام، ولكنه لا يثق في رجال الخليفة ولا في اختياراته.

- هذا هو النائب الجديد الذي عينته على القاهرة ومصر، هل وجد المفسدين كلهم؟ ألا يصعب هذا؟

قال عبد الوهاب في فرح: نعم، هذا الرجل غير كل الرجال.

عندما دخل عليه نائب الشرطة كان وراءه خمسون رجلًا مقيدون بالحبال ورءوسهم منتكسة. قال نائب الشرطة الجديد بقوة إنه وجد من يخبئون الغلة والقمح لبيعها بأسعار باهظة، وإنه أمر بقتلهم في الحال. تكلم بحماس عن محاربة الفساد وعن عظمة الأمير وعن قدرته وشفافيته. سمعه بدر وعيناه على التجار، ثم قال النائب: يا مولاي، لا تأخذك بهم شفقة ولا رحمة في دين الله، هم يستحقون الموت.

ابتسم بدر ثم قال: أعرف.

ثم رفع يده يأمر نائب الشرطة بالانصراف مع المقبوض عليهم من التجار، ونادى على عبد الوهاب، ثم قال: أريدك أن تقتل نائب الشرطة.

فتح عبد الوهاب فمه في فزع وقال: نحن عيَّنَّاه.

- الخليفة هو الذي اختاره لأنه يثق به.

- مولاي.. لو قتلناه سيكون ذلك تحديًا للخليفة.

- من جاء بهم ليسوا تجارًا. من جاء بهم سجناء هددهم، وعذبهم ليلعبوا دور التجار.

أبقى عبد الوهاب فمه مفتوحًا فقال بدر: الأمير يعرف الفرق بين التاجر والسجين، اذهب إلى السجن وتأكد، وعندما تتأكد اذبح نائب الشرطة واحمل رأسه في أسواق القاهرة ومصر وأنت تحكي حكايته.

- والخليفة؟

- بدر الجمالي السيد الأجل وأمير الجيوش هو من يعين النواب وكل رجال الدولة.

همَّ بالسيطرة على مصر. اليوم أصبح يسيطر على الفسطاط والقاهرة. وغدًا ينظف الدلتا ثم الصعيد. سيمحو أثر كل من خرب وفسد. سوف يبدأ حربه بقبيلة لواتة. يعرفها ويعرف سليمان اللواتي. توقع أن الحرب ستكون أكثر ضراوة من حروب السلاجقة، فهي حرب وجود له وفناء لغيره. جمع من الشباب المصري عشرة آلاف عسكري وعدهم بالعطايا، وكان معه سبعة آلاف أرمني من رجاله المخلصين، بينهم المسيحي والمسلم، وعدهم بالكثير من العطايا والذهب والجواهر. ما يحتفظ به سليمان اللواتي يكفي ليفيض على كل أهل مصر بالخير. والموت في سبيل مساعدة المظلوم واجب. أعلن ذهابه إلى دمياط هذه المرة محاربًا ومنها إلى بقية الدلتا، نفخ الرجال البوق إعلانًا للحرب. وخرج هو على رأس الجيش يهتف في الرجال لو مات أحد سيموت هو أولهم، ولو انتصروا سينتصرون جميعًا. سليمان اللواتي يحارب كالجبناء.. يخنق الضعفاء. ويسبي النساء. من يسرق فحربه كلها خسة، لذا لا بد من الحسم في المعركة. خرج سليمان اللواتي للقاء بدر بأربعين ألف رجل؛

بعضهم من اللصوص الذين استأجرهم، وبعضهم من رجال قبيلته، وبعضهم أرهبهم وأخافهم وهددهم للحرب معه. بعضهم هرب في البداية، وبعضهم حارب بضراوة، استمرت الحرب أسبوعًا أو أكثر، وقيل إن الدماء أغرقت النهر، ولم تنته إلا عندما قتل عسكر بدر كل رجال سليمان اللواتي، عشرين ألف رجل، ثم قتلوا سليمان نفسه وابنه. وأخذ جنود بدر آلاف السبايا من نساء القبيلة. صاح القواد إن هذا مصير نساء اللصوص سيُبَعن في الأسواق. من يفسد سيدفع الثمن اليوم أو غدًا. ما كان عهدٌ قد انتهى، وما هو آت عهد به هواء طازج بلا غبار، ومعيشة آمنة بلا قطاع طرق، ولا ظلم ولا سرقات.

طوال الحرب والفلاحون يختبئون في البيوت، لا يعرفون من يحارب من، وهل من جاء ليقضي على سليمان اللواتي منقذ أم غادر وغازٍ. لا ثقة لهم في أحد. كل من يأتي ينتزع الخير من بين أسنانهم، ثم يكسرها جميعًا ويهرب. قالوا: لا خير في الآتي، هذا أكيد. كل عائلة أغلقت بابًا أو وضعت أفرع الشجر على فتحات الكهوف في الصحراء، أو اجتمعت داخل مسجد نصف مهدم، تسمع صوت الموت وتشم رائحة الآهات.

غسل يديه ووجهه وهو يردد أسماء «كور الدلتا»، أكثر من ألفي «كورة» لا يستطيع أن يحفظ أسماءها حتى لو حاول.

قال عبد الوهاب في رفق: مولاي يحتاج إلى بعض الراحة. هل تريد العودة إلى القاهرة؟ قضينا عليهم والحمد لله.

- بل بدأ عملي الآن.

وغيض الدم من الترع والنهر، ولم ينته صمت الصابر ولا صرخات المنهزم. قرأ بدر عن الكور وعدد سكانها. ثم قال آمرًا عبد الوهاب: ابعث لي بحكم من الفلاحين يتكلم معي.

قال عبد الوهاب: وكيف أختار رجلًا واحدًا يا مولاي؟

- هو سيختارك. اطلب منهم رجلًا من بينهم يتكلم بلسانهم جميعًا.

خرج عبد الوهاب وصاح في الفلاحين المنتظرين في صمت ليعرفوا مصيرهم اليوم بعد كل الدماء التي اخترقت الصحراء والأودية.

جر عبد الوهاب الشيخ جرًّا إلى بدر الجمالي. كان يرتجف وينظر إليه في ريبة. أمره بدر بالجلوس ثم قال: يا شيخ، هل أنت تتكلم باسم الفلاحين؟

- أنا منهم يا مولاي ولكني لا أتكلم باسم أحد.

- يقدرونك هنا ويعرفونك.

- يعرفونني ولكنهم لا يقدرون سوى القوي، وأنا عجزت عن درء الأذى عنهم.

صمت بدر برهة وقال: أراك ترتجف، لِمَ الخوف؟

- أتسألني يا مولاي؟ الدماء ملأت النهر وجيشك قضى على القبيلة كلها.

- ظننت أن القبيلة كانت تسرق أموالكم وتَرهبكم أم أنني لم أفهم؟

بقي الشيخ صامتًا. فقال بدر وهو يشير إليه ليجلس بجانبه: تعال هنا..

- لا يجوز.

- لِمَ لا يجوز؟

- اسمح لي يا مولاي، أنا لا أعرفك، ولا أعرف من بعث بك، ولِمَ يهتم أحد بأمرنا؟ وماذا نملك ليطمع فيه جيش سوى نسائنا وأطفالنا؟

- فلنقل إني هنا لأساعدك. جئت بأمر الخليفة.

- فليحفظ الله الخليفة.

ساد الصمت، ثم قال بدر: لِمَ بارت هذه الأراضي؟

- مات أصحابها أو هربوا.

- لم أعهد المصريين يهربون من أراضيهم عند الخطر.

- وكأنك تعرف أهل مصر مع أن أهل مصر لا يعرفونك.

- أعرفهم حتى يعرفوني. أجب سؤالي.

- هذه ليست أرضهم يا مولاي.

- أتعني أنها أرض قبيلة؟

- أرض الأمراء وشيوخ القبائل. يزرعها الفلاح بلا أجر خوفًا من الجوع أو القتل. وعندما تزرع الأرض خوفًا فهي ليست أرضك.

- نعم، معك حق.

- مولاي يريدنا أن نزرع أرضه ويعطينا الأمان؟

قال في يقين: بل أريدك أن تزرع أرضك أنت ولك الأمان دومًا.

نظر إليه الرجل في حيرة ثم قال في صوت خافت: لَمْ نر الخير من الجنود، يذبحون كالأعراب وأسوأ.

- جنودي ليست جنود الأمراء. ها أنت تتكلم بصدق، استمع إليَّ يا شيخ.. أريدك أن تقدم عرضًا إلى الفلاحين، ولو وافقوا تخبرني بجوابهم.

انتظر الرجل والريبة لا تتركه. ثم قال: أولًا أريد أن أطلب الصفح عن كلماتي، أنا لم أقصد جنودك يا مولاي قصدت...

قاطعه بدر: استمع إلى عرضي ولا تطلب الصفح.

قال بدر في يقين: هذه الأراضي.. بعض أهلها هلكوا بلا وريث، وبعض أهلها فروا من موت وفضيحة على يد سليمان. كل أراضي الدلتا للفلاحين، كل رجل يبني بيتًا داخل أرض، ويستقر فيها يصبح عندي «فلاح قرار» أكتب اسمه في سجلاتي وتصبح هذه أرضه بالنسبة لي. يزرعها ويحصدها بلا ضرائب عامًا واثنين وثلاثة، ويبيع المحصول لنفسه وعائلته.

فتح الشيخ فمه في ذهول، فأكمل بدر: في العام الرابع يدفع لي نصف أموال الضرائب فقط لا أكثر. وبعد ذلك لا يحتاج إلى المساعدة، يكون قد قر واستقر وباع واشترى. ثلاثة أعوام يزرع ويحصد ويبيع دون أن آخذ منه درهمًا ولا دينارًا. وهذه الأراضي لكل من يستقر بها ولا يهرب. ليست للأمراء ولا للقبيلة وقطاع الطرق. ولك مني الحماية. لا قاطع طريق يخرب زرعك ولا يسرق مواشيك. لا فساد ولا إتاوات لذوي القوة والنفوذ. فالقوة اليوم لي، والنفوذ لي، وأنا لن أسمح بالفساد. أخبر الفلاحين أن بدرًا الجمالي جاء ليبقى كفلاح القرار، وأن بدرًا الجمالي يذبح بلا رحمة من يسرق أو يشيع الفساد في الأرض، وأن السنين العجاف قد انتهت وجاء عصر الخير.

بلع الشيخ ريقه ثم أغمض عينيه وفتحهما وكأنه لا يصدق أذنيه ثم قال: مولاي..

- هيا اخرج لهم وتكلم معهم كلهم. لا نفرق بين صبي وشيخ، ولا أبيض ولا أسود، ولا غني ولا فقير، ولا مسيحي ولا مسلم ولا يهودي، كل الفلاحين عندي سواء إلا من يهرب ويترك أرضه، فهو لا يصلح لشيء. ومن لا ينفع الناس فبدونه تستوي الأرض. جنودي سيتأكدون أن الأراضي ستوزع بالعدل بين الفلاحين، ولن يستولي عليها القوي ويعطي الضعيف الفتات.

تقهقر الرجل إلى الوراء وهو يرفع يديه إلى رأسه تحية إلى بدر وخرج وأخبر الناس بما سمع بالضبط، علت الهمسات والشهقات، البعض يقول: هذا لا يمكن، إنه فخ من الأمراء، والبعض يقول: من بدر؟ لا نعرف عنه شيئًا إلا أنه ذبح الأمراء في القاهرة. لِمَ يساعدنا؟ منذ متى يأتي الأعجمي ليساعدنا؟! من بدر؟

أكد الرجل الكلام ولكن الريبة لم تترك قلوبهم.

خرج بدر من خيمته فساد الصمت، فقال: كل ما قاله لكم الشيخ حق وصدق. ننتظر الحصاد لنأكل فاذهبوا إلى حقولكم بسرعة.

رفع الشيخ يده وصاح: فليحفظ الله بدرًا الجمالي، فليبارك لنا فيه..

ابتسم، ثم قال: فليحفظ الله مولى الخليفة المستنصر بدر الجمالي، أمير الجيوش والسيد الأجل..

ولكنهم استمروا في الدعاء له وحده.. النساء تزغرد، والرجال تقبل بعضها بعضًا وتتبادل التهاني.

نظر إليه عبد الوهاب ثم قال: مولاي.. ألا تخاف غيرة الخليفة؟

قال وكأنه لا يسمعه: الأصعب قادم، الدلتا دومًا أسهل من الصعيد.

- نرتاح يا مولاي.

- لا راحة والجوع في الهواء حولنا. نبدأ في بناء الطرق الخربة والجسور والترع حتى يصل الطعام إلى كل أنحاء مصر.

-أذاع الخبر لكل أهل مصر والشام. ستفتح القاهرة أبوابها لأهل مصر. وستتحصن بأبواب غير أبواب جوهر الصقلي، أبواب من الحجر تعيش ألفي عام أو يزيد. ستتسع لكل من يستطيع تعميرها بالخير والمال الحلال. لا مكوس على التجار من اليوم. يتاجرون في طريق آمن وسريع. «من اليوم أدعو أنا سيف الإسلام بدر الجمالي كل تجار مصر وأثريائها الذين لجئوا إلى الشام وقت الشدة أن يعودوا ولهم الأمان والرعاية. من أغلق دكانه يفتحه، ومن خاف بطش اللصوص يعرف أني سأوفر الأمان بلا ثمن ولا رعب وخوف مثل بني لواتة. السيد الأجل يدعو أهل مصر للتجارة بلا طمع ولا فساد. كل الأعراف تختفي اليوم، من كان يدفع الإتاوات لرجال الشرطة ليغضوا البصر، ومن كان يدفع المال ليتسنى له البيع بسعر أغلى لا مكان له عندنا. لا احتكار في التجارة ولا فساد. بدر الجمالي ذبح عشرين ألف فاسد وسيذبح أكثر منهم، سيبطش بكل من يحتكر من التجار ورجال الشرطة من كل لون، التركي، المغربي، الأرمني والمصري. من يريد العمل بعدل وتقوى فمكانه مصر، ومن أراد بأهلها السوء فليرحل بلا رجعة قبل أن يُقتل. لن تأخذني شفقة ولا رحمة مع من يضر بمصر. مصر تستحق أفضل من هذا، وكف الأذى عن الناس من أصول ديننا. أعطي الأمان لكل من يعمر القاهرة. بيوتها الخربة غنيمة لمن يعود إلى مصر أو يريد عمارتها. للتجار الأمان ولكن بلا احتكار. واعلموا يا أهل مصر أني سأقضي كل أيامي أراقب أحوال البلاد ليلًا نهارًا، لا أسوار حول قصري، ولا حاجب يمنع دخول المظلوم. سأسير في الأسواق بنفسي وسأتأكد من أن أحدًا لا يبخس الناس أشياءهم. انتهى عهد العبث بأرزاق الناس وعهد تعنت الحكام والقضاة. اليوم أذبح وزيرًا وقاضيًا حكم سبعة أعوام أمام أعين المصريين بلا هوادة ولا رحمة».

علت صيحات الهتاف لبدر الجمالي حتى وصل صداها إلى قصر الخليفة نفسه، وقبل مرور شهر عاد الهاربون من الخارج لتعمير القاهرة. وكلما غفا تاجر وعاد إلى عاداته القديمة تذكر مشهد ذبح الوزير والقاضي ابن أبي كدينة. وبدا بدر رجلًا لا يهاب الشيوخ الظالمة ولا يعتمد على القضاة. كلما تذكر هذا تاجر عاد إلى أدراجه واستغفر الله ودعا لبدر الجمالي.

- احتضنته وعيناها ممتلئتان بالبؤس، ولكن وجوده حولها سوف يطغى على ما سمعت. زوجها قتل عشرين ألف رجل وسبى نساءهم وباعهن في الأسواق بأبخس الأسعار ليكون ذلك مثلًا لكل من يجرؤ ويعيث في الأرض فسادًا. وهل كان عليه أن يسرف في القتل؟ ألم يكن يستطيع أن يعفو عن النساء؟ أقسمت أن تثق به وتعرف أنها لا تستطيع أن تتدخل فيما يفعل. كيف ترى ما لا يرى هو؟ كيف تجد اللين والرحمة في أعماقه وهو يتصرف كالوحوش التي تدافع عن أرضها. تعرف ما سيقول، سيقول إنه يدافع عن المظلوم ويرهب الظالم. سيقول إنه وضع نصب عينيه مصر لا يريد أن يراها خرابًا مهما كلفه الأمر. تراه يعمل ليلًا ونهارًا. لم تعرف هذا الإتقان في العمل من قبل، يقرأ ويفهم ويتكلم مع الشيوخ، ثم ينفي، ويقتل بعضهم، ويرفع شأن القليلين. تعرف الشك في عينيه، تتحسس خطواته المحسوبة، وكأن الفشل ليس خيارًا. فلو غفل أو نسي يجد نفسه مذبوحًا وأولاده عبيدًا. وزوجته جارية لألد أعدائه. حملت ابنها على كتفها وأعطته له فقال: جعفر.. المظفر.

قالت: أتمنى أن أعرف صديقك الذي يدعى جعفر يا بدر.

- هو غير كل البشر، لا يطمع، والأهم لا يخاف.

قالت وهي تريح رأسها على صدره: أريد أن أصنع الحلوى لكل أهل مصر. ما رأيك؟

أطرق قليلًا ثم قال: سأشرع في بناء قصر في حارة برجوان، وأطلق عليه اسم جعفر، قصر المظفر ومن هذا القصر سيأكل كل أهل مصر في كل موسم وعيد، لن أوزع اللحم فقط كأحمد بن طولون، ولكني سأوزع الحلوى أيضًا. أنت تشرفين على صناعتها. مصر ستعود أغنى البلاد.. بلاد العجائب والسحر كما كانت. هذا عهد أخذته على نفسي.

قالت في بعض القلق: أولادك يا بدر.. ربما يغضبون، لا تطلق اسم جعفر على القصر.

- هو أصغر أولادي وابنك أنت.

- أتوسل إليك ألا تفتح النار علينا، المُلك يُذهب العقول، والغيرة أول الطرق إلى النار.

- فرون.. لدي ثلاثة أولاد. أحمد الأوحد هو من سيخلفني، ومن سيساعده هو محمد أبو القاسم الأفضل، وجعفر سيعمل في الجيش. هذا أمر مني لأولادي.

- أتفكر فيمن سيخلفك على حكم مصر يا بدر وهي لخليفة بني عبيد؟

- الكنز ليس لمن يجده، بل لمن يحافظ عليه.

خلع عليه الخليفة العقد المنظوم بالجوهر، وبدل الذهب عنبرًا لأن الذهب شح في مصر، وألبسه طيلسان قاضي القضاة، وألغى ديوان أم المستنصر كما أشار عليه بدر. وأصبح اسم الجمالي يتردد في الحارات من الفسطاط إلى أقاصي الصعيد. كلما تلقب بلقب ازداد قلقه. أن يؤتى المُلك شيء، وأن يحافظ عليه شيء آخر. ما دام عامر بن حمزة موجودًا على قيد الحياة فالدنيا لا تستقيم. كيف لرجل واحد أن يقلق منامه هكذا؟ سيتذكر وجوده كل يوم، ويبحث عنه حتى يفتك به.

ألح بدر في طلب الشيخ جعفر. بحث عنه الجنود في كل أركان مصر حتى عرفوا أنه يقطن المقطم، يتخذ من أحد الكهوف مكانًا للعبادة ولا يبرح المكان مهما حدث. ولكن الأمير ألحَّ في طلبه، فحملوه عنوة إلى قصر الأمير. دخل على الأمير وهو محمول من خمسة رجال، وما إن دخل حتى صرف بدر الرجال وطلب من جعفر أن يجلس بجانبه. كان رجلًا ضئيلًا هزيلًا، فأمر بدر بإحضار الطعام.

قال الشيخ جعفر: أنا لا آكل طعام الملوك. أشرب ليمونًا بالسفرجل فقط. أتريد أن تحبسني يا أمير؟

- بل أريد أن أرفع من شأنك.

- لا شأن لي مع الحكام، من يحب نفسه ولا يرى غيرها يغدر كالأسد الملك بالضبط عندما يشعر بأي ضجر.

- لن أغدر بك يا جعفر.

- لأنك تظن أني بلا قدرة. ومع ذلك تحب فيَّ شجاعتي وجنوني.

- يعجبني الصدق دومًا. أريد أن أتعلم منك.

- تجرني إلى قصرك محمولًا رغمًا عني، ثم تطلب مني أن أعلمك؟ كأنك ترغم الملائكة أن تدخلك الجنة وإلا قتلتها.

- أترى نفسك كالملائكة يا جعفر وتقول عني إني مغرور؟!

- لا، كنت أعطي لك مثلًا. سيفك لا يخيفني يا بدر.

- أفقدت عقلك؟ لا تنطق اسمي حتى لو كنا أصدقاء. قل السيد الأجل.

نظر إليه جعفر في ذهول ثم قال: إياك أن تكون قد صدقت نفسك يا أرمني، وظننت أنك حقًّا السيد الأجل؟

- من السيِّد غيري؟

رفع جعفر إصبعه ثم قال: لا سيد غيره هو. ولا جلال أقوى من جلاله.

- أعرف.. أعني من السيد الأجل هنا على الأرض؟

- هو أيضًا يا بدر. لو أردت أن تتعلم فأتِ إليَّ في جبل المقطم. من فوق الجبل ترى كل مصر. أنصحك أن تتسلق الجبل وحدك، فطلوع الجبال يحتاج إلى ضبط النفس والصبر. وعندما تصل إلى قمته تذكر أنك صغير كالبعوضة أو أصغر.

- ها أنت تثير أعصابي. لو ضربت عنقك الآن أستريح.

- ألم أقل لك لا طاقة لي بحياة الأمراء؟ أنت يا بدر لست بالرجل العادي.

- هذا صحيح.

- ولكن الغرور يتبعه مصير فرعون موسى.

- لست مغرورًا، أعرف قدر نفسي وجهدي، وما أعطي من روحي من أجل هذا البلد.

قال جعفر وكأنه لم يسمعه: يقولون إن رمال المقطم مباركة تشفي المرضى وتشي برائحة الجنة. هل استنشقتها من قبل أو وضعتها على قلبك لتهدئ لهيبك؟ أترى الدنيا خيرًا أم شرًّا؟

- الشر غالب دومًا.

- لأن الخير لا لون له ولكنه يفتح كل الأبواب.

- احك لي عن الحب.

- يؤرقك حبك لامرأة واحدة.

- لا أرى غيرها، يؤرقني أنها تتحكم دون أن تدري.

- وبدر يتمنى أن يبقى هو المتحكم دومًا. ألم أقل لك إن الغرور آفة.

قال بدر وكأنه يكلم نفسه: كلما أعطت شعرت بالوهن أكثر وأكثر. وكلما رأيت الخير يفيض من بين أضلعها خارت كل قواي.

- أترى فيها ما تريد أن تكون؟ أم ما تحلم بوجوده حولك. أترى فيها أختًا وأمًّا وطفلًا؟

- لا أعرف، ولكن يزعجني الإحساس الذي أشعر به حولها.

ابتسم جعفر قائلًا: تدرك حجمك حينها، وتعرف أنك لا تسيطر على قلبك. هذه أول خطوة للوصول. في الحب دومًا وصول. أَحِبَّ عباده لتحبه هو، هو مهيمن دون أن يطلب الكثير، هو يحمي دون جباية، ويعطي دون طلب في المقابل، هو يعلمنا أن الرحمة دومًا أقصر الطرق إليه. أن تجد امرأة صادقة فقد أصبت الهدف يا رجل. هذه منحة لا يقابلها الكثيرون.

ساد الصمت ثم قال جعفر: ما اسمك يا بدر؟

- يا أحمق، ها أنت تقول اسمي.

- آرام.. هل تتذكره؟

- كيف عرفت هذا الاسم؟ أنت وساحرة الهرم سواء!

- الله يذهلنا بعطائه وبأقداره. الأقدار منه يا أرمني. لكل نفس هدف. بعضنا يأتي إلى الأرض ثم يرحل كالذباب ليزعج من حوله ولا يتذكره أحد، وبعضنا يأتي كالضباع ليتذكره الناس بالخوف والاشمئزاز، وبعضنا يأتي إليها بتكليف مكتوب قبل الولادة.

- كلمات المجاذيب كلها جنون.

- ولكن المجذوب عرف اسمك.

مد جعفر يده ووضعها على قلب بدر ثم قال: ستبحث عن وطن وعن السكينة ولن تجدها سوى فوق سفح جبل المقطم، وسيتساءل الناس في حيرة: لِمَ يبني بدر الجمالي مسجدًا فوق الجبل؟ أهو ضريح أم مكان عبادة أم مكان مراقبة للعدو؟ ولن يعرف الإجابة سواي يا بدر.

- أنت خرف.. من يبني مسجده بعيدًا عن الناس؟ ولِمَ أبني مسجدًا لا يصل إليه المصلي إلا بشق الأنفس.

- لأنك بدر. هل أنت بدر؟ لو أدركت أنك مُكلَّف تصبح مهمتك أسهل. يختار الله من بين كل العالم طفلًا أرمنيًّا يدعى آرام، وماذا يفعل هذا الطفل؟ ينقذ أهل مصر! هل تتصور هذا؟ يذكرنا الجليل أننا كلنا مرتبطون ومعلقون برحمته من أقصى الشرق لأقصى الغرب، ومن أقصى الشمال لأقصى الجنوب. ولكننا لا نتعلم. ها نحن نقسم البشر إلى مذاهب وخلفاء، خليفة عباسي وآخر فاطمي، سلاجقة وفرنج، أبيض وأسود، بينما لو نظرت للأحجار تعرف أن بداخلها دومًا رمالًا مهما كان موطنها. ألم تزل تحب الزمرد؟

نظر إليه بدر بلا كلمة.

فأكمل جعفر: الخلفاء لا أهتم بهم، والمذاهب لا تعنيني هي زينة وتفاخر، وأنا أتجرد من كل هذا. بداخلك الزاهد والطامع، العارف والجاهل، المغرور والمتواضع، وبداخلك هم ثقيل، وكلما ثقل الهم خف القلب وتخلى. تُرى أمكلف أنت يا آرام أن تبني ما يبقى إلى أبد الآبدين، أم مكلف أنت أن تنقذ من يستحق الإنقاذ؟ يومًا ما لن يتذكر الخلق مذهبك فهو لا يهم، من يبني يبقى ومن يعمر لا ينساه الأنام بعد ألف عام أو يزيد. ابق معنا.

- أنا معك.

- ابق معنا.

- هل فقدت عقلك؟ أنا معك.

- ابق معنا.

- معك أين؟

ردد جعفر وهو يجري بعيدًا: لو أردت رؤيتي فأتِ إليَّ. وإلا لن تسمع صوتي. ابق معنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحرب في الصعيد كانت أشد ضراوة، فهو يحارب القبائل المستأثرة بالمال، ويحارب الأمراء الفارين منه. هذه حرب وجود غير حرب الدلتا، ولو انهزم بدر الجمالي فلا أمل لبني عبيد. قبائل لا حصر لها تحاربه: جهينة، الثعالبة، الجعافرة، غير اللصوص والجنود التي تريد استعادة قوتها. جنوده من المصريين عشرة آلاف جندي وعدهم بالعطايا، أكثرهم من المشاة، لا وقت لديه ليدربهم على الخيل. عند حدود طوخ وقف بجيشه يترقب، وعرف من البصاصين أن الجيش الذي ينتظره قوامه أربعون ألف رجل. نصب خيمته ثم وضع الخطة في إحكام وهدوء مع الجنود. سيضرب ليلًا، وقبل الضرب سيشعل عيدان القصب ليرهب المقاتلين، وينتقم للمزارعين مِمَّن أخذ حقهم من قبل. وقبل كل شيء أراد أن يضيء الطريق لجنوده. سيعيد فتح الصعيد مرة أخرى، ويبدأ بطوخ حتى الجنوب. هو يعرف أن استتباب الأمن في أسوان سيكون صعب المراس مع وجود كنز الدولة هناك. يتوقع ثورته ويتوقع أن يجرب كل من في مصر شدته، وأن يسبروا أغواره ويمتحنوا صبره وقدرته. هكذا هو الحال مع كل من يأتي جديدًا، ولكن بدر ليس جديدًا على مصر حتى ولو لم يحكمها إلا من شهور.

كان في مقدمة الجيش يمتطي جواده، يرفع سيفه ويضرب برمحه.. استمرت الحرب أيامًا. اصطحب معه ولديه أحمد ومحمد. أحمد قد قارب العشرين، ومحمد في حوالي الثانية عشرة، أمرهما أن يبقيا معه في خيمته ويتعلما القتال، فهو يريدهما هنا طوال العمر في مصر، يحكمانها ويديران شأنها من بعده.

في اليوم العاشر كان قد وصل إلى أسوان، وثار كنز الدولة كما توقع وخرج له وهو يطلب من المصريين عدم التدخل، خطب في كل كورة وكل بلد، قال إنه لم يأت ليحارب أهل مصر بل ليحميهم، وإن هذه حرب لا دخل لهم بها. ووعدهم بما وعد به أهل الدلتا. ذاع صيته في الصعيد قبل أن يأتي، ومنَّى المزارعون أنفسهم بأراض بلا احتكار يزرعونها في أمان. سمعوا عن قوة الأمير وعدل الأمير، ولم يصدقوا أن هناك أميرًا من العجم أو العرب سيمنع الاحتكار. ولكنه فعل ذلك في الوجه البحري فلا بد أن هذا حقيقي. هذا ليس فارسًا من حلوى كالذي صنعه أحفاد جوهر الصقلي، هذا رجل مثلهم يهتم بأمرهم، ولم يعتادوا أن يهتم أحد بأمرهم. قبل أن يخرج من خيمته للقاء المخربين وقاطعي الطرق في أسوان قال لولديه: عندما تصبحان قائدين يا أحمد أنت ومحمد تهجمان قبل جنودكما، فما فائدة القائد الذي يبقى في خيمته ويحث الجنود على القتال؟

هز الولدان رأسيهما، وخرج هو. هذه حرب قاطعي طرق، يأتون من كل الجوانب ويختبئون وسط الأشجار ويخرجون من البيوت. أنهكت الحرب الجنود، ولكنهم استمروا. صاح فيهم بدر: إنها بلدهم وإنهم يحاربون من أجل أهلهم. بث فيهم الحماس وخرج ليلًا مع السرايا.

عامر بن حمزة كان يتتبع خطواته. يعرف أسلوب بدر في القتال ومتى يخرج ومتى يتخفى. سلط اللصوص ووعدهم بأن من يأتي برقبة بدر له كل خراج مصر. تتبع اللص الملثم خطى القائد، ثم رمى برمحه من أعلى الجبل فأصاب كتف بدر في سرعة وحرفية، وتلاشى من الأفق. صرخ الجنود فأشار إليهم بدر بالصمت، ثم عاد إلى خيمته في انتظار الطبيب. جاء الطبيب مرتجفًا، وأذيعت أخبار

إصابة بدر الجمالي في أنحاء مصر كلها. فرح البعض بالخبر وحزن كثيرون، كانوا ينتظرون المنقذ والفارس الشجاع الذي لم يعاصروه إلا في أحلامهم. كان كالفارس المعلق على دكاكين الحلوى، فارس بالطيلسان والحصان القوي، يرتدي تاج الملوك، وينتهي به الأمر في معدة الأطفال. ها هو الفارس ذو الطعم اللذيذ يذوب في فم الطامع واللص، ها هو بطعمه العذب لا يبقى ليشهد على نهوض أو انتصار. بكت بعض النساء، وازداد هم بعض الرجال خاصة الفقراء والمحتاجين. بدر الجمالي أصيب وإصابته خطيرة. ضاع الحلم قبل أن يبدأ الفرح.

احتضنت ابنها الوليد وأغلقت عليها باب حجرتها هنيهة، والدنيا فقدت الضوء، وكل الطرق ضلال. دخلت عليها حفصة قائلة: فرون، كلي يا ابنتي من أجل ابنك ولا تخافي، الجنود هنا يحموننا، بدر لم يتركك هنا بلا حماية.

همست في حسرة: أعشقه يا حفصة. كيف غضبت منه يومًا؟ لو عاد أقسم أن أنفذ له كل ما يريد. ربما لم أخبره كم أحبه. هل أخبرته؟

قالت حفصة: أخبرته.. كل يوم.. صدقيني هو يعرف يا ابنتي وسيعود. الجنود دومًا تصاب في الحروب.

- أشعر بالذنب.

- أنت دومًا تشعرين بالذنب. مع أن الإيمان يقوي العزيمة والثقة. جاهدي نفسك اللوامة.

- أريد أن أذهب إليه.

- هل فقدت عقلك؟ تذهبين إلى أين؟

- أينما يوجد هو.

وبينما بدر يحارب في الصعيد كان جيش إتسز، وحليفه تركان ابن الأمير إتكز الذي قتله بدر، وعامر بن حمزة قد وصلوا إلى الدلتا. هذا أنسب وقت لاحتلال مصر، والسلاجقة قد تمكنوا من أغلب الشام، وعندما يأخذون مصر يكونون قد انتصروا انتصارًا أكبر من كل التوقعات. عاثوا في الأرض فسادًا، قتلوا الفلاحين وسبوا نساءهم، سرقوا ما تبقى للفلاحين من غلة وقمح وأي جواهر أو ذهب، كرههم الناس بعد يومين. وبلغ بدرًا الأنباء وهو جريح، بلغته الأنباء، والطبيب ينزع الرمح من بين أضلع كتفه. عض على شفتيه وسط دموع أولاده وهو يفكر في انتهاء عصره قبل البدء. لا رجاله تكفي لمحاربة السلاجقة ولا سلاحه وعتاده. لا بد أن يثني على عامر فقد عرف كيف يختار الوقت. قال للطبيب: هذا ليس رمحًا مسمومًا.

فقال الطبيب: لا يا مولاي حمدًا لله.

نظر إلى عبد الوهاب ثم قال: هذا موسم الحج والرجال بدءوا الطريق. كم رجلًا في طريقهم إلى الحج هذا العام؟

نظر إليه عبد الوهاب في ذهول، لم يتوقع هذا السؤال في هذا الوقت اللعين. قال: سأعرف يا مولاي.

- أريدك أن تعرف اليوم وتخبرني.

كان جالسًا يأكل عندما دخل عليه عبد الوهاب قائلًا: ثلاثة آلاف رجل يا مولاي. هم في الصعيد في الطريق إلى الحجاز.

- فلتأت بهم.

- مولاي..

- ائتني بهم.. قل لهم أن يجاهدوا في سبيل الله ويمنعوا دخول السلاجقة مصر، هذا خير من الحج هذا العام. كيف يذهبون إلى بيت الله وبيوتهم وزوجاتهم بين يدي السلاجقة؟ أخبرهم أن هذا أمر الأمير، وأن بدرًا الجمالي يعدهم بالعطايا والغنائم.

- مولاي، هذه سابقة لم نسمع عنها من قبل.

- هي أيام مختلفة تحتاج إلى تفكير مختلف. أريدهم قبل مرور أسبوع، وأعلن النفير العام، أريد مصريين أكثر في الجيش في هذا الأسبوع. انتظر.. عند وصول الرجال ننهي ما بدأنا هنا ونذهب للقاء أتسز وجيشه في الدلتا. هناك قبائل عربية أقسمت الولاء لنا وهي تساعدنا منذ البداية. أريدك أن تبحث عن القبائل التي ساعدت السلاجقة، لا بد أن تراجعهم فسوف يندم البعض الآن وينضمون إلينا. هذا أمر جلل يحتاج إلى رجل محنك.

ثم قام وهو يمسك بجرحه وقال: بعد الانتصار لا بد من البناء. أريد أن يقترن اسمي دومًا بنصر وبناء معًا. نبدأ بهذا البلد.. نبني مسجدًا هنا ونسميه مسجد النصر؛ ليتذكرنا كل من يصلي إلى أبد الآبدين.

شرع بدر في بناء مسجد النصر في إسنا حتى قبل الذهاب لمواجهة السلاجقة في الدلتا، وتحالف مع بعض القبائل العربية هناك، وأعطى القاضي أبا الحسيني بن نصر مسئولية تكملة المسجد، فهو أحد أعيان البلاد وله هيبته واحترامه.

نظر إليه أولاده في انبهار. انحنى محمد ولثم ثيابه وهو يقول: مولاي لا يخسر معركة.

- لأني أدخلها بصدق. الصدق يُنجي.

- انتصرت على جيشين في نفس الوقت. جيش في الصعيد وآخر في الدلتا.

الانتصار على السلاجقة كان بمساعدة القبائل التي انقلبت على السلاجقة وبمساعدة أهل مصر من الجنود والحجاج. انتصار لمصر ومن مصر. ثبَّت أطناب خيام بدر في مصر وفي قلوب المصريين. هذا أصعب لو تعلمون.

بكت النساء فرحًا، ودعت الرجال باسمه بعد الصلاة. أصبح كل أهل مصر يعرفون الأمير، لا يعرفون من يكون ولا ماذا سيصبح في مصر. تمنوا ألا يُقتل وألا يرحل. فليبق الرجل الذي يعمل من أجلهم. فليبق نصير أهل مصر.

منذ عرفت بإصابته وهي تغلق حجرتها عليها ولا تأكل ولا تتكلم مع أحد، عشرة أيام مرت، وهي على هذا الحال، حتى بعثت حفصة إلى بدر الجمالي بما حدث. حثته أن يطمئن زوجته. لم يجب.. كان قد نصب الخيام على أطراف الفسطاط، وفي طريقه للعودة إلى القاهرة جاء النبأ إلى فرون، فأمرت الجنود بأن يأخذوها إليه. تردد الجنود ولكنها ألحت، فاصطحبوها إلى خيمة الأمير. كان يتكلم مع جنوده عندما دخلت عليه فجأة وانحنت ولثمت رداءه.

قال في استياء وذهول: كيف جئت إلى هنا؟ هل فقدت عقلك؟

نكست رأسها وبقيت ساكنة.

صرف الحضور فقالت في شموخ: هو خطئي أنا، لا تعاقب الجنود، عاقبني أنا، أنا من صممت على المجيء إليك يا مولاي، والاطمئنان عليك بنفسي.

صاح في وجهها: لا بد أن تنفذي أوامري هل تسمعين؟ ليس لدي وقت للقلق عليك ولا البحث عنك وعن مكان ذهابك. هذا لن يحدث مرة أخرى. والآن ستذهبين إلى حيث جئت حالًا.

هزت رأسها بالنفي وهي تنظر إليه وقالت: ليس قبل أن أرى إصابتك.

أمسك بيدها ليخرجها من الخيمة فهمست: أتوسل إليك أن أبقى معك دقائق لا أكثر، أطمئن عليك ثم أعود.

- لا.

قاومته بكل قوتها ولكنها لم تستطع أن تمنعه من جرها خارج الخيمة، نادى على الجنود قائلًا:

- عودوا بها ولا تستمعوا لأحد غيري حتى لا أقطع رقابكم جميعًا.

...عندما عاد كانت تعرف غضبه وتنتظره. فتح الباب في قوة وقال: هذا لن يحدث مرة أخرى ما دمت حيًّا. هل تسمعين؟

نظرت إليه قائلة: أسمع.

اقتربت، فرفع يده يأمرها بالابتعاد، ثم خلع رداءه. رأت الجرح في كتفه، كان مغطًّى بالأعشاب والكتان، وضعت يدها على فمها لتمنع الصرخة واتجهت إليه في تلقائية وطوقت ظهره وهي تقبل موضع الجرح وتقول: حمدًا لله على سلامتك. لِمَ ذهبت بنفسك؟ لِمَ عليك أن تذهب بنفسك. ولو فقدتك، فماذا أفعل؟ ولو..

قاطعها: هذا جنون. أفيقي يا فرون، لا يمكن أن تستمري هكذا، تتصرفين بلا حساب.

أحكمت ذراعيها على بطنه وقالت: فلتحاسبني ولكن ليس الآن. كدت أموت دونك.

وضع يديه على ذراعيها، مر بهما عليهما، والغضب يتلاشى بلا إرادة، ثم استدار لها قائلًا وهو يتصنع الحسم: سأحاسبك على فعلتك وعلى مجيئك وعلى..

قبلته في قوة حتى كادت تتوقف أنفاسها ثم قالت وهي تلهث: حاسبني بعد حين ليس الآن.

دفع بها إلى مخدعهما وغاص في لهيب شغفها. كان متعبًا.. متعبًا من التفكير، ومن الأخطار، ومن الحسابات المعقدة، كيف لصدرها أن يمتص كل هذا البُغض الذي يحيط به وكل القُبح الذي يحوم حوله؟! كيف لصدر امرأة أن يمتد فيحيط العقارب المختبئة وراء الأحجار والنباتات الشيطانية التي تمتص الدماء؟! الوحوش دومًا بفم مفتوح يريد المزيد. القدرة تأتي بالهمِّ، والهمُّ ثقيل كالأحجار على ظهر طفل لم يبلغ بعد. الطفل يلهث، والحمل لا يقل ولا يختفي قط. كرمها من الصعب شرحه، تعطي نفسها بلا تردد ولا مفاوضات. تردد كلمات الحب واللهفة حتى لو بقي ساكنًا. ارتعشت عيناها لحظات الوصول، عندما تترك نفسها معه تصبح بضعة من رقائق الحلوى الرقيقة؛ إما أن يحطمها بين يديه، وإما أن يبقي عليها، تعرف سيطرته عليها ولا حيلة لها فيها. أغمض عينيه فابتعدت عنه ونظرت إليه ومرت بأصابعها على وجهه ثم رقبته وصدره وهمست: أحبك.

ابتسم وهو لم يزل مغمض العينين ثم قال: هذا لا يعفيك من العقاب. كل ما فعلته.....

قاطعته: أعرف، كنت فقط أريد أن أخبرك بكم أحبك. خفت عليك، فربما لا تعرف.

ابتسم قائلًا: ولكني أعرف.

شدها إليه وحبسها بذراعيه وقال: عقاب طويل بيننا اليوم وغدًا وبعد غد.. كانت أيامًا طويلة بدونك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في دمشق كانت حرب بدر الجمالي الأشرس. لم تكن بالسيوف. أراد القضاء على الأعداء الذين يعرفهم، وكان هناك الأعداء الذين لا يعرفهم. تركان كان أسهل الأعداء، يمكنه الوصول إليه، هو عدو واضح وصادق. ما يقلقه هم الأعداء الذين يملكون عَطْبَ الأفاعي مثل عامر بن حمزة.. لم يدرك قدر مرارته، ولا السم الذي يلبد بداخله قبل هجوم جيش السلاجقة.

عامر بن حمزة منذ قرر والده الزواج من فرون، وهو يعرف أن البؤس قد وصل إلى بيته. نوحت أمه يومها، قالت إن فرون تعشق الأرمني، كل دمشق تعرف حكايتها معه. فقد طلب الأرمني الزواج من والدها، ورفض لأنه يعرف أن ابن حمدان في صفه، وطمع فيها حمزة، قالت لابنها إن فرون شيطانة وفاجرة، وسوف تقضي على والده. وصدقت أمه. لم يصدق مشاهد بيعها في الأسواق، وأدرك أن الهدف هو ذل أختيه وليس ذل فرون. ألقت بنفسها بين ذراعي عشيقها ونسيت والده وذل أختيه، ثم ادعت الفضيلة وأنقذت أختيه. أقسم وأخذ عهدًا على نفسه أن يُذل بدرًا الجمالي. لا يكفي قتل الأرمني، الذل أوفى من أي قتل. الجندي يعانق القتل ويتمناه ولكنه يخشى الذل خشيته نار جهنم. تقرب من السلاجقة، تزوج ابنة أخي الأمير تتش السلجوقي ووعده أن الانتصار دومًا حليفهم. واليوم انهزم جيش السلاجقة هزيمة الذليل في مصر بجنود من المصريين، بعضهم رجال كانوا في طريقهم إلى الحج؛ لذا لزم عليه تغيير الخطط والمسار، ولكن القضاء على بدر الجمالي أصبح هدفًا يستحق العيش من أجله. ولو دمر مصر ودولة بني عبيد فلن يبالي، فلتذهب كل البلاد إلى الجحيم، وليخمد لهيب النفس. لو استمرت الشدة في مصر كان أفضل وأسهل عليه القضاء على بدر، ولكن الأرمني الذي لا بد أنه يتقن سحر الجان السفلي استطاع القضاء عليها في شهور. لا بأس، لم يزل في العمر الكثير، والصبر يؤدي إلى المعجزات. لا نوم ولا راحة لعامر بن حمزة إلا بعد الانتقام.

رفض بدر الجمالي الوزارة مرة واثنتين، فأمير الجيوش لا يحتاج إلى أن يكون وزيرًا، ولكنه لم يكن يستطيع تحمل فكرة أن يأخذ وزارة السيف والقلم غيره. هو من يستطيع، هو من تخلى، هو من لا يطمع ولا يتقبل العطايا، هو من تملكته مصر، فلِمَ لا يتملك أيضًا زمامها؟ نصبه الخليفة وزيرًا للسيف والقلم، وأصبح أول وزير بمنصب كافل قضاة المسلمين، ارتدى الطيلسان والعقد الذي كان من المفروض أن يكون مرصعًا بالذهب، ولكنه كان محشوًّا بالعنبر لخلو مصر من الذهب. منذ عامين جاء بدر إلى مصر سرًّا وهو يبسط سيطرته عليها، واليوم أقر الخليفة أن مصر كلها بين يدي أمير الجيوش، هو من يعين الدعاة والقضاة. قرأ الشيوخ آيات القرآن الكريم في حضرته، ونظر إليه أحدهم وبدأ يقرأ من سورة آل عمران (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ) رفع أمير الجيوش يده يطلب منه أن يتوقف عن تكملة الآية وقال: صدق الله العظيم، لقد جاءت في مكانها، وجاء سكوتك عن تمام الآية أحسن، ولكن كل الجلوس يعرفون الآية ويرددون بقيتها حتى ولو دون الجهر (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ). قال بدر الجمالي: ما مضى كان سهلًا، اليوم يبدأ بناء مصر وتحصينها. هذا أصعب كثيرًا من الحروب، فليُعنَّا الله.

فردد الرجال وأفراد جيشه: كل مصر تقف معك يا مولاي. يقولون إنك تنصر الفقراء والضعفاء.

- فليفعل الله الخير لنا.

كان يومًا عظيمًا في كل أنحاء مصر. جاء الأرمني ليبقى اليوم. تمصَّر ومزج دمه بالرمال، ونفسه بمصيرها، وروحه بأشجار القصب ومياه النيل العذبة. عرف وأدرك. وعندما قام من مكانه كان كل أهل مصر في انتظار رؤيته وتهنئته. وضعوا كل آمالهم بين راحتيه، كل ما ضاع وكل ما بقي، كل ما هو آت وما سيكون. كل أم تبقى لها ولد، وكل رجل تمنى أن يستر ابنته كانوا يتطلعون لبدر اليوم. جمعوا حبات السكر وألقوا بها في طريقه وهم يهتفون: أمير الجيوش.. فليحفظ الله أمير الجيوش.

ابتسم في رضًا وعيناه على جبل المقطم، اليوم يرى نفسه في قوة الجبل وصلابته حتى ولو لم يبلغ طوله. للفوز طعم العسل وهشاشة القطائف المقلية في زيت السمسم. انحنى له من انحنى، ودعا له من دعا، والأطفال تجري لترى وجهه وسط الزحام وتهتف باسمه. بنى قصره في حارة برجوان وقرر أن يرسم لمصر خريطة جديدة كلها ورود وعمائر وذهب وزمرد، الكثير من الزمرد. «ما تريده بشدة ستفقده بقسوة، وما تتوق إليه ستحرم منه عنوة». عبس وجهه وهو يتذكر أستاذه. تعلم من جمال الدولة القوة، ولكنه كذب وقسا بكلماته. سيثبت لأستاذه أنه سيحصل على كل ما يريد. لا أحد يستطيع أن يحرم أمير الجيوش من أي شيء عنوة. ومن اليوم سيجمع الزمرد من كل العالم. يريد أن يحصل على آلاف القطع من الزمرد. «أترى يا أستاذ؟ ما أخذته أنت ظلمًا سأرده أنا بيدي».

أن تتزوج والي عكا ممكن، أما أن تتزوج ملك مصر فهذا يصعب عليها. لا تدري لِمَ لم تشعر بالراحة حتى مع رغبتها في فوزه ونصرته والأمان لمصر. خشيت على نفسها من القادم. لن تسأل مع من سيقضي لياليه، ولن تبحث عن من تهيم بزوجها ومن تتمناه. لا بد أن تقنع نفسها بهذا ولا تستطيع. منذ عشقته والأنانية دومًا تنتصر، وهوى النفس يغمر كل الجسد والروح. من تكون هي؟ لا هي ابنة ملك ولا أخت خليفة. إذا كان بدر قد زوج ابنته من الخليفة المستنصر فكيف لن يتزوج هو من إحدى بنات عائلة الخليفة؟ ومن تكون هي؟ زوجة بدر الجمالي؟ لِمَ لا يكفيها هذا؟ بل لِمَ يُرعبها اللقب؟ سمح لها بالتدريس في جامع أحمد ابن طولون على ألا تخبر أحدًا من تكون وسوف يحيط بها الجنود بملابس العامة طوال الوقت. في ساعات تدريسها في الجامع تهدأ النفس وتشعر أنها تستحق العيش، ولكن الأنانية داء لا بد أن تعالجه. هرولت إلى حفصة معلمتها، أخبرتها بما يجيش في صدرها، فقالت في صبرها المعتاد: أنت تكرهين نجاحه؟

- لا بل أتمناه. أنا أخاف سطوته وتملكه.

- تخافين على الرعية؟

- بل على نفسي.

- اخرجي من نفسك يا فرون. أعرف أن هذا صعب ولكن حاولي.

- لا أستطيع. أتعرفين يا حفصة؟ هو يحب نفسه وأنا أحب نفسي، هو يتملكه الطموح، وأنا.. لا أعرف ماذا يتملكني..

- حبه وحب التدريس وحب عائلتك. أنت حفيدة جوهر الصقلي لا تنسي هذا. لو كان بدر الجمالي أمير الجيوش فجدك كان أيضًا أمير الجيوش، ولو كان بدر الجمالي قائدًا أحبه أهل مصر فجوهر الصقلي هو مَنْ بنى القاهرة والأزهر ودخل مصر، لولاه لما كان لبني عبيد شأن في هذا البلد.

قالت وكأنها لا تسمعها: يقولون إن بدرًا أمر بسب الصحابة في المساجد.

- وهل تصدقينهم؟

- لا، كيف يسب الصحابة إذا كانت زوجته على مذهب السنة. هو أفضل مني يا حفصة. هو يساعد الناس، أما أنا..

- لا توجد منافسة بين الزوج وزوجته يا فرون. أنتما روح واحدة.

- هو روحي لكن سيكون عنده الكثير من الأرواح حوله.

- ألا تعرفين زوجك؟ لا يوجد قائد يضع مصر نصب عينيه ويغوص في حب النساء. لم أسمع عن ذلك من قبل. القائد يزهد في النساء والخمر وكل ما هو إسراف.

- يجمع الزمرد لمن؟ لا أعرف.

- لِمَ لا تسألينه؟

- لا أجرؤ.

- احذري يا فرون أن تجعلي خوفك يشيد الحواجز بينك وبينه.

صنعت له اليوم الكنافة، أخذت السميد ومزجته بيديها، ثم فركته بأصابعها بالسمن، ثم أضافت إليه عسل النحل وكورته على شكل أقراص ووضعتها جانبًا. أخذت بعض الدقيق وفركته بالشيرج والماء ثم كورته في شكل أقراص، ثم وضعت الأقراص الأولى فوق الثانية، ولفَّت أطرافهما بمختم منقاش، ثم خبزتها. قرأت الكثير من القرآن وتمنت أن تُسكن النفس. طغى الشوق على كل شيء آخر. أصبحت لا تتكلم معه سوى يومين في الأسبوع. أحيانًا يكون خارج القاهرة وأحيانًا لا ينتهي من عمله سوى بعد الفجر. ولكن ما يهدئ نفسها هو أنه دومًا يأتي إلى حجرتها حتى ولو بعد الفجر، ولو كانت نائمة يأخذها بين ذراعيه وينام ويخرج قبل أن تراه. وأحيانًا يأتي في منتصف الليل ويغرقها في عشقه بلا كلمة، ثم يأخذها بين ذراعيه وينام. تشعر حينها أنه متعب يلوذ بداخلها ولا يريدها أن تتكلم ولا أن تضيع صفو النشوة ولحظات الوصول، فتزيد قبضتها على كتفه وتتنهد من فرط الحب بداخلها وتنام. ولكن اليوم قال إنه يريد أن يأكل العشاء معها. تذكرت الليالي التي قضياها معًا في عكا في شرفة قصره يناجيان البدر والكواكب والنجوم. ما أجمل وجوده حولها! وضعت الحلوى ثم توقفت فجأة. أمسكت بقلبها. لِمَ قال إنه يريد الحديث معها؟ ربما يريد أن يخبرها أنه سيتزوج. نعم، لا بد أنه سيتزوج. أمسكت برقبتها واختنقت وخرجت إلى الشرفة لتتنفس، ولكنها لم تستطع التنفس.. شهقت وهي تدعو الله: يا رب، اجعلني أصبر وأتحمل. أعرف أنه حقه ولكني لا أستطيع الصبر. يا رب، أبعد عني الغيرة والحقد.. اجعل قلبي سليمًا عند لقائك.

لم تدر به وهو ينظر إليها حتى قال وهو يطبق ذراعيه ويقف وراءها: كلما دخلت عليك يا ابنة الحلواني أراك تدعين الله. أتمنى ألا تكوني تطلبين منه الصبر عليَّ وتحمل معاشرتي.

نظرت إليه في فزع ثم أحنت رأسها وانحنت وقبلت رداءه قائلة: لا يا مولاي، هذا مستحيل. اعذرني، كنت مستغرقة في الصلاة، ثم..

أمسك بذراعها وشدها قائلًا: مولاي.. تعجبني منك يا فرون. ولكني أفضل بدر.

نظرت إلي عينيه بعينين بائستين ثم أمسكت بكفه وقربتها إلى فمها وقالت: بدر حبيبي.

قبَّلت كفه في بطء وهو لم يزل ينظر إلى عينيها، ثم قالت: كل ما تفعله أدعمك فيه يا زوجي. كل شيء. أعرف أنك لم تأت لتخبرني فلك مُطلق الحرية، ولكن أريدك أن تعرف أني لن أغضب، ولن أحزن ما دمت أنت سعيدًا.

ابتسم في تهكم ثم جلس وقال وهو ينتزع يده من يدها: تكذبين، اعتدتك صادقة. عيناك كلهما غضب وحزن. تُرى ماذا يدور في عقلك يا فرون؟ دومًا تفاجئينني بأفكارك.. هل ظننت أني جئت أخبرك أني سأتزوج من بيت الخليفة مثلًا؟

وضعت يدها على قلبها وسقطت دمعة بلا إرادة.. فضحك قائلًا: ها هي سعادتك تتبدى أمامي وتظهر بوضوح القمر المستدير المكتمل.

نظرت إليه قائلة: بدر..

اقترب منها ثم قال في رقة: كنت أفكر، منذ أمس..

بلعت ريقها، وكان قربه يربكها كما أول مرة وأكثر: فِيمَ تفكر؟

مر بأصابعه على شفتيها قائلًا: إنني لم أقبلك كما أريد منذ فترة.

امتزجت الأنفاس ثم مر بأصبعه على شفتها السفلى وكأنه يكتشفها من جديد، وقبلها قبلة غير كل القبل، سكب بداخلها فرحة الفوز والقدرة والانتصار والطمأنينة والتملك. قال في رقة بعد حين: أجمل ما في القدرة هو الاختيار. للسيد الأجل القدرة وهو اختار منذ زمن، منذ وقعت عيناه على بنت طمعت في السكر في بيته، ونظرت إليه بصدق وتوق يفيضان كالنهر المبارك. أتعرفينها؟

كانت ضربات قلبها على مسمع منه قالت: لديك القدرة يا سيدي، ماذا ستفعل بها؟ هل ستتزوج يا بدر؟

ضمها إلى صدره قائلًا: لا. عندما أفعل شيئًا أحب أن أتقنه، وعندما أضع هدفًا نصب عيني لا بد من الوصول إليه. أريد أن أبقى أهم شيء لديك، ولا أريدك أن تسلي عني وعن حبي. لو تزوجت أحطم بعض حبك، يعجبني الغرق بين شغاف قلبك.

قالت بصوت مكتوم وهي تقبل كتفه: أتعني أنك لن تتزوج لأنك تريدني أن أحبك بتدفق الأنهار؟ فقط؟

- ولأنني أتقن الحب كالحكم. ومن يتقن الحب يتفنن فيه.

- يا أمير.. كيف لي أن أحبك أكثر؟

- عندما تطمئن المرأة تحب. أفهم هذا. اطمئني يا فرون.

أمسكت بيديه وقبلتها في قوة قائلة: أعدت إليَّ روحي لو تعرف.

- أعرف.

بعد وقت قال: كنت أريد قضاء وقت معك لأنني سأفتقدك.

سقط قلبها من بين أضلعها وقالت: لماذا؟

- حان وقت إعادة دمشق. الشام في يد السلاجقة خطر على مصر. سأسافر بعد يومين. أريدك أن تعتني بنفسك وبجعفر.

فقالت وهي تحك خدها في كتفه: ألا بد أن تذهب بنفسك للحرب كل مرة؟ لديك جيش وقواد مخلصون. ابعث أحدهم وابق أنت.

- أتظنين أنني شخت على الحروب يا فرون؟

- لا. أراك أجمل رجل في الكون.

- نتكلم عن القوة وليس الجمال يا بنة الحلواني.

- وأقوى رجل في الدنيا. ولكني أخاف..

وضع يده على فمها قائلًا: هذه كلمة لا أريد أن أسمعها في بيت السيد الأجل.

عرفت حينها، فهمت ما يخيف زوجها لأول مرة، إنه العمر، هذا جسد خائن، عامًا وراء عام يتغير ويجفو ويزيد الجوى. كان يتدرب كل يوم على السيف كأنه في العشرين لا يمل ولا يتعب. كان يعشقها بقوة وشغف شاب، حربه مع العمر وليس مع الأعداء. ولكم تتمنى أن يفوز به ولا تعرف أحدًا فاز به من قبل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صنعت الحلوى بإتقان، وأمسكت بيد ابنها الصغير لتعطي الحلوى لأخويه أحمد ومحمد، فلقاءاتها معهما دومًا قصيرة وكلها مراسم واضحة وعيون مثبتة على الأرض ورءوس مطأطأة. الآن والأب في الشام تستطيع أن تبني بينهما جسورًا كالتي يبنيها زوجها في مصر. انتظراها في الحجرة، وعندما دخلت انحنيا لها، فوضعت الحلوى أمامهما، ثم قالت في حماس: أتمنى أن تعجبكما.

أحمد كان يشبه أباه، ومحمد يشبه أمه التي قابلتها في عكا. محمد لم يزل في الرابعة عشرة ربما، ولكن أحمد أصبح في العشرين. كان أمل والده، وتعرف أن بدرًا ينوي أن يخلفه أحمد في الحكم. ولم تغر ولم تخف. حمدت الله أن ابنها جعفرًا سيكون بعيدًا عن القتل والذبح والهم الثقيل.

مد محمد يده ليتذوق الحلوى فاستوقفه أحمد. نظرت إليه في دهشة قائلة: ألا تحب الحلوى؟

قال أحمد: اعذريني يا زوجة أبي، لا آكل دون إذن من أمير الجيوش، وهو لم يأمرنا بمقابلتك ولا يقبل الهدايا منك.

قالت في رفق: أنا التي أردت مقابلتكما، وأخوكما جعفر يريد لقاءكما.

لم يلتفت أحمد لجعفر، قال في جفاء: أخونا جعفر غيرنا يا زوجة أبي، أم أقول يا مولاتي؟ هو ابن حلواني ونحن أبناء أمراء.

صمتت برهة ثم قالت في هدوء: جده يا أحمد هو من بنى القاهرة وفتح مصر. لولا جوهر الصقلي ما كان بدر الجمالي.

قال محمد في تلقائية: أنا سآكل من الحلوى.

ثم مد يده فنزع أحمد قطعة الحلوى من يده وألقى بها على الأرض وقال: لا يمكنني أن أتكلم معك يا زوجة أبي ولا أجرؤ على ذلك؛ لأني أعرف أن موتي وحياتي في يدك، ولكني لا أريد الحلوى منك.

قالت مسرعة: أعوذ بالله، موتك وحياتك بيد الله يا أحمد.

- وجودك يا بنة الحلواني يعرقل خطوات أبي ويؤدي به إلى الهزيمة. يقولون كيف يكون داعي الدعاة وزوجته من أهل السنة؟! يقولون كيف يحكم بين الناس وقد قتل زوجها ليتزوجها؟!

أفزعها كلامه وأذهلتها جرأته. قالت: والدك لا يحتاج إلى أحد، هو وزير السيف والقلم، لا أحد في قوته. اعذرني لو سببت لك أي قلق. قرارات أمير الجيوش ليست بيدي.

- لا أصدقك. من أشار عليه بتجديد مسجد أحمد بن طولون؟

- لو فعل فليبارك له الله.

صاح فجأة: لا تدعي المثالية وأنت سبب كل المصائب. وإياك أن تظني أن ابنك سيمحو أثر أولاد أمير الجيوش. أنا وأخي وأختي زوجة الخليفة لنا الحق في القصر وفي والدنا وفي مصر.

- والدك حي يرزق، وأنت على صواب، الحق لكم.

قال محمد في خوف: اصفحي عن أخي يا سيدتي، لا يقصد، أرجوك ألا تخبري أبي.

وضعت يدها على رأس محمد وقالت: أنت مثل ابني، والله يعلم أني أتمنى لكم ما أتمناه لابني، وأني جئت أطلب الصداقة ومعرفة أهلي.

قال محمد: هل ستخبرين أبي؟

هزت رأسها بالنفي. نظر إليه أحمد قائلًا: تخاف منها كما يخاف جنود الخليفة من أبيك. أي أمير أنت؟ بالطبع ستخبر والدك، لا تصدق ما تقول.

حملت جعفرًا واتجهت إلى الباب ثم قالت وهي تسيطر على غضبها: معذرة على إزعاجكما.

خرجت ينتابها إحساس بالانزعاج، ولكنها لم تغضب منهما. قرأت القرآن ودعت لهما بالهداية ولم تنبس بكلمة لأحد عما جرى، ولكنها دعت الله أن يوافق زوجها أن يبتعد جعفر عن أي شيء له علاقة بالحكم.

حفصة تعرف، تعرف كيف يلتقي الغرب والشرق، والشمس والقمر، وكيف تنطبق الجبال على الأودية، ولِمَ يعشق بدر الجمالي بنتًا مثل فرون. فمن قضى عمره يتوقع الخيانة يريد أن يجد أخلص القلوب ويحتفظ بها. ومن رأى في السيف المنقذ والسبيل يود أن يبحث عن أكثر البشر سلامًا وتصالحًا مع النفس والغير. ومن قضى حياته يبحث عن القوة ويحفر اسمه على كل شيء، يود أن يسكن إلى من زهد في متاع الدنيا ولم يُحب قوة ولا جاهًا، ومن يرى في نفسه بطل الأبطال وشهيد الشهداء والسيد الأجل يبحث عن من ترى في نفسها منقذة الضعفاء. هو كل ما لم تكن هي. كيف لرجل بهذا القدر من الجلد والتحمل والإتقان والإرادة أن يبحث عن امرأة تريد الكثير وتطمح في المجد؟ هذا يتلف قلبه ولا يقيم نفسه. بحث عن من تسكن الروح كالملائكة حتى يلجأ إليها عندما يجتمع الشياطين. كانت تردد لحفصة أنها في دنياها لا تكثر إلا في شيئين: حُب بدر والسكر، وتحاول دومًا أن تدعو الله أن يغفر لها إسرافها في أمرها، فخير الأمور الوسط. ومع ذلك تبذل كل ما يعطيه لها للفقراء والمحتاجين، وتود أن تحضر الحلوى لكل بيت بنفسها. أقنعت زوجها ألا يقيم السماط كل يوم جمعة لكل أهل مصر فقط، بل يوزع عليهم الحلوى أيضًا وستشرف هي نفسها على صناعتها لكل الناس. يؤلمها بكاء الطفل والسيد والحيوان والطير. تتبع خطى الجمال كالنحلة في إتقان وصبر. لذا عندما أخذت ابنها بين ذراعيها اليوم قالت له إنها لا تريده محاربًا بل حلوانيًّا. بعد يومين جاءها محمد مهرولًا يطلب منها الصفح، فأجلسته بجانبها وأعطته بعض القطايف، أكل في خجل وهو يقول: أتمنى ألا تخبري أبي بما حدث. أحمد منذ موت أخيه الأكبر وهو تعيس لا سعادة تدخل قلبه.

ربتت على كتفه وقالت: بالطبع لن أخبره ولا غضب في صدري تجاهه. أريد أن أراك كثيرًا.. هل أعجبتك الحلوى؟

- أعجبتني جدًّا، لم أذق في جمالها. هل يمكن أن أزور جعفرًا كل حين؟

- بل أتمنى أن تصاحبه كل يوم وتعتني به، وأثق بك لأنك ابن الحبيب الغالي.

لم يستطع بدر دخول دمشق، حاصرها ولم يتمكن منها، فقرر أن يضع كل طاقته في تحصين الموانى الشامية واستردادها للدولة الفاطمية. لم يزل عامر حيًّا ولم يزل يريد الانتقام لأبيه.

في غضون سنتين كان بدر قد قضى على المجاعة في مصر وعاد إليها التجار، وحلف باسمه كل الفقراء وأصبحوا في أقاصي البلاد يظنون أنه شيخ جاء بسحر ليقضي على الفساد، ولم يعرفوا أنه أعمل السيف في المفسدين، خلق أعداء وأحباء، ولكن الإحساس بالامتنان كان في كل ابتسامة امرأة أصبحت لا تخاف على عرضها، وكل رجل لم يعد يخشى على أطفاله من الغد، وكل فلاح أصبح «فلاحًا قراريًّا» يسكن بجانب أرضه، يزرعها وهو يعرف أن خيرها له. أصبح لكل من يستغيث، صاحب شرطة لن يقبل المال من الأقوى؛ لأنه يخاف السيد الأجل، ويعرف أنه يذبح بلا هوادة. لم يعد القوي يسيطر على الضعيف ولم تعد الطرق الخربة متاعًا للصوص. بنى الجمالي بدلًا منها الجسور والترع، وأصلح الأراضي وعم الرخاء وعادت مصر تلمع ببريق مختلف وتمتلئ بالزمرد. لم يكل ولم يتعب، يسافر بنفسه ويسلك كل الطرق الوعرة ويتأكد من الأمان في أقصى الشمال وأقصى الجنوب، يسير في الطرقات ويتكلم مع الناس فيحكي البعض عن مقابلة السيد الأجل، وكيف أشرق وجهه، وكيف أعطاه من الخيرات وزاد. قالوا إنه في يوم بعيد ستكون هناك قبة الشيخ بدر صديق الضعفاء ونصير الفقراء. استاء بعض التجار فلم يعد الطمع يُجدي، ولم يعد العمر يمر بلا عيون عليهم تتأكد أنهم لا يخبئون البضاعة ولا يحتكرون السلع. ولكن السيد الأجل كان عكس الخليفة على طول الخط. فبينما علت أسوار القاهرة حول الخليفة السجين في عصر وراء عصر وزمن وراء زمن، لا هو يستطيع الخروج ولا حيلة له في البقاء، كان السيد الأجل مطلق اليدين، يباشر أمور الدولة كأن البلاد ليس بها سواه. يقسم الأحياء والشوارع في كل مصر، يراجع حسابات الضرائب لكل منطقة، ويحسب الأرقام في بطء وكأنه كاتب وليس قائدًا. تملكته السيطرة والرغبة في أن يكون ضيفًا على كل بيت في مصر، فأصبحت كل عقود الزواج تمر عليه أولًا ولا بد لاسمه أن يكون بها، لا أحد يرث، ولا أحد يتزوج، ولا أحد يفرح أو يحزن إلا ومعه السيد الأجل. ثم بدأ رحلة البحث عن الزمرد وكلمات أستاذه دومًا تدوي في أذنيه. «ما تريده بشدة ستفقده بقسوة، وما تتوق إليه ستحرم منه عنوة».

«أخطأت يا جمال الدولة. بدر الجمالي اليوم يملك مصر، ومَنْ ملك مصر مَلَك الدنيا وقبسًا من الجنة. لا يدري ما الذي ستحمله الأيام، ولكن أيًّا كان ما ستحمله فاسمه موجود، وما قام به فشل فيه كل من جاء قبله. تعال يا جوهر الصقلي لأحدثك عن بدر الجمالي، فتحت مصر عندما فشل غيرك في فتحها، وها هو الأرمني يعمرها وينقذها ويعيدها لصورتها الأولى. اليوم بدر نسي آرام ولكنه لم ينس أخته سوسي، لم تزل تطل عليه بين الحين والآخر لتُذكِّره بعجزه. لم يخبر أحدًا عنها ولم يعد يبحث».

يوم الجمعة أذن المؤذن بـ «حي على خير العمل» و«محمد وعلي خير البشر» وجاء الخليفة وبرفقته بدر الجمالي يرتدي قلنسوة ووَشْيًا وطيلسانًا. سار الخليفة بجانب بدر وحوله الأمراء والوزراء والقواد والصبيان بالأسلحة. كل أسبوع يصلي في جامع مختلف، مرة في الأزهر، ومرة في المسجد العتيق عمرو بن العاص، ومرة في أحمد بن طولون. وقد اعتاد الخليفة أن يقوم بمراسم بعينها في هذا اليوم المهم. عند وصول الخليفة إلى المسجد يدخل قاضي القضاة ويقول للخليفة: السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضي الخطيب ورحمة الله وبركاته، الصلاة يرحمك الله.

ثم يصعد الخليفة إلى المنبر بينما الوزير يقبل يديه ورجليه إلى أن يراه الناس حينها ويقول الخليفة: «رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي» ثم يبدأ في إلقاء موعظة على الرعية، وينهيها بقوله: «اللهم وأنا عبدك وابن عبدك لا أملك لنفسي ضرًّا ولا نفعًا» ثم يدعو بالنصر للجيوش. ويقول: «اذكروا الله يذكركم». منذ بداية دولة بني عبيد وهذه المراسم لا تتغير سوى مرات قليلة. ولكن ثمة شيء قد تغير اليوم. والخليفة يسير بجانب وزير السيف والقلم، أمير الجيوش، قال بدر في صوت رزين: مولاي أتمنى أن تسمح لي بالصلاة بالناس اليوم. صليت أنت بهم الأسبوع الماضي في الأزهر، فاسمح لي بالصلاة بهم في مسجد أحمد بن طولون؛ فقد عمرت المسجد وقويت بناءه وأبوابه وأسواره.

صمت الخليفة برهة ثم قال: عندك حق يا أمير الجيوش. تصلي بهم اليوم ثم نعود إلى عادات أجدادنا، الخليفة هو من يصلي بالرعية، ولكن يمكننا الاستثناء من أجل فتى الخليفة بدر الجمالي.

قال بدر في هدوء: أصلي بهم مرة ويصلي بهم الخليفة مرة. نتناوب الصلاة بالناس يا مولاي. هذا أفضل لك ولي.

صمت المستنصر في ضجر وساد الصمت المتوتر حتى الوصول إلى مسجد أحمد بن طولون. عند الوصول إلى المسجد صعد بدر الجمالي إلى المنبر ودعا للخليفة وجده، ثم قرأ آيات من سورة المائدة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ). فليكن من شيمة أخلاق المسلم العدل مع العدو والولي على حد السواء. فقد نزلت الآية في يهود خيبر، وإني أحتكم اليوم على العدل ومقاومة الأهواء، وأقدم نفسي أمام أيديكم؛ أنا عبد الله الفقير إلى حكمته الذي يتمنى نهي النفس عن الهوى، والبعد عن الضغينة، والرحمة بالعباد، والمشي في الأرض بلا كبرياء ولا رياء. أنا فتى الخليفة المستنصر، أمير الجيوش بدر الجمالي، أدعو الله أن أصلح ولا أخرِّب، وأن أعطي ولا آخذ، وأن أزهد في أموال غيري ومتاع غيري، وأن أقيم الأحكام بالقسط. ذكروني إن ضللت، وقوموني إن عوج نفسي الهوى.

دعا له الحضور في حماس وعلت الصيحات باسم بدر الجمالي، والخليفة ينظر إليه في وجوم. التقت عيناه بعيني الخليفة فقال: فليبارك الله في السلف الصالح وفي الخليفة وولده وجده، ويعطينا من بركته، ولينصر الله جيوشنا.

عند الوصول إلى قصر الخليفة، قال الخليفة المستنصر في استياء: يعز علي يا بدر أن تصلي بالناس ثم يدعوا لك والخليفة في حضرتك.

ساد الصمت برهة، ثم قال بدر في هدوء: دعوت للخليفة وصليت بهم كعبد من عباد الله وكداعي الدعاة وقاضي القضاة.

- أتعرف؟ يحكي لي أبي أن جوهرًا الصقلي عندما فتح مصر وبنى القاهرة والأزهر، وأعطى أهل مصر الأمان، كان يرفض أن يصلي بالناس خشية أن يتعلقوا به، ولا يتعلقوا بالخليفة عندما يأتي إلى

القاهرة. حتى إنه منع الدعاء له يوم الجمعة. جوهر الصقلي أمير الجيوش يعرف أن لكل رجل دورًا، الخليفة هو الإمام، أما وزير السيف فهو للحماية.

نظر إليه بدر وقال في هدوء يخفي الكثير: مسكين القائد جوهر الصقلي، شاهد صغار الرجال راكبة الأحصنة وهو يمشي على رجليه. ثم قتل الخليفة الحاكم ابنه بلا تردد ولا سبب. يا مولاي، نتعلم من القواد قبلنا. نفذ السيف منذ زمن، مصر كلها تحب بدرًا من أسوان إلى الإسكندرية. فبدون بدر يفقد الخليفة الحامي والمنقذ. أنا ضحيت بالابن من أجل الخليفة، لا خنته ولا غدرت كما غدر الوزراء من قبلي.

- يا بدر.. أنا أعتب عليك لأنك صديقي قبل كل شيء.

- اترك لي أمورًا أقل من الخليفة وتفرغ يا مولاي لما هو أهم.

- تركت لك الدعوة والقضاء ووزارة السيف والقلم ماذا تركت أنت لي؟ لك حكم مصر يا بدر.

- وهي في عيني أحافظ عليها وأراعيها. خراجك هذا العام ثلاثة آلاف ألف ألف دينار ومائة ألف. وعندما استدعيتني كان خراجها ستمائة ألف دينار فقط.

- أعرف يا بدر وأفهم.

- ربما يقلبك على بدر رجالك يا مولاي. لو فعلوا فعاقبهم، فلا يوجد خلافة بلا بدر الجمالي، جئت والخليفة لا يملك بغلًا ليصل إلى مسجد أحمد بن طولون في مصر ليصلي بالناس، سرق ابن حمدان ثم إتكز من بعده المال كله. جئت بالخير فلا تستكثر عليَّ أن أسمع دعاء أهل مصر. هو حقي وأنا لا أتنازل عن حقي، لم أفعلها من قبل. أشفق على جوهر الصقلي من نهايته الحزينة ولكن بدرًا الجمالي لا يشيخ ولا يضعف، تشبث بمصر فأصبحت بين ضلوعه وأوردته،لا مفر من تعانقهما أبد الدهر.

قال المستنصر: ولكني أنا وليتك وأنا استدعيتك إلى مصر. إياك أن تنسى. يقول الله في كتابه (وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ).

ابتسم بدر وانحنى للخليفة وقال: مولاي، أنت وليتني وأنا أبقيت على حكمك وحكم من خلفك مائة عام أو يزيد، نفخت فيه الروح.

- الله فقط من ينفخ الروح في الجسد يا بدر.

- والله يختار من عباده ويصطفي القوي الأمين ليحافظ على الأرواح. كنا نقول إن الخليفة سيكون معي دومًا في كل احتفال وصلاة. وفي صلاة الجمعة سيصلي بالناس في الأزهر، وسأصلي بهم في أحمد بن طولون. خير الأعمال العدل يا مولاي وإعطاء كل ذي حق حقه.

- لك ما تريد يا بدر. لك ما تريد. ولكن.. هناك أمر آخر..

نظر إليه بدر، فقال في تردد: الناس تعتب عليَّ، إنني حفيد علي كرم الله وجهه خير البشر والنبي محمد عليه الصلاة والسلام ومع ذلك يكون داعي الدعاة متزوجًا من سُنية، بل الأدهى يا بدر -ولا

تغضب مني- هو أنك تبني الكنائس للأرمن في جيشك، وقوادك بهم المسيحي والمسلم. كيف لكافل قضاة المسلمين أن يفعل هذا يا أمير؟ وماذا أقول للرعية؟

ابتسم بدر وقال: تذكر ما قاله جدك عندما دخل مصر، وسألوه عن حسبه ونسبه.. المعز لدين الله؟ ماذا قال؟ لوح بسيفه وقال: هذا نسبي. ثم أخرج الذهب وقال: وهذا حسبي.

- يا أمير الجيوش.. لا أريد سخط الرعية.

- الرعية لا تسخط من انضمام المسيحي للدفاع عن أرضه وعرضه، ولا من زوجة أمير الجيوش، الرعية تسخط من الظلم والفساد. مصر تحب بدرًا الجمالي.. وأتمنى أن يحب خليفة بني عبيد من يحبه الرعية.

التقت أعينهما ثم قال بدر: كنا نقول إن العدل هو مفتاح الإيمان، فالجندي المسيحي القوي لا بد من أن ينضم إلى الجيش لأنه يستحق، بعيدًا عن ديانته. وزوجتي لا يجرؤ أحد على الحديث عنها. اطمئن يا مولاي ما دام بدر يسيطر على الأمور فالخلافة بخير. أما لو حيكت المؤامرات ضده فسوف يفوز لأنه يملك قلوب الناس.

لم يجب الخليفة وخرج بدر وهو يكتم غضبه.

لم تزل فرون تحيا في وادٍ غير أودية مصر والقاهرة. عاد والدها إلى مصر مع تجار مصر الذين وعدهم بدر بالرخاء إذا عادوا من الشام. والدها يتكلم معها يطلب منها أن تتوسط عند الأمير ليعفيه من الضرائب فهو والد زوجته، ولكنها لا تفعل. تغدق العطاء على كل أهل القصر ولا تستطيع الحسم في أي عقاب حتى للمخطئ. تشفق على المذنب والمظلوم، وتستسلم لأي دموع، حتى اضطر بدر أن يأتي بامرأة عجوز تدير القصر، فزوجته تعطي بلا مقابل ولكنها لا تعرف كيف تعطي الأمر ولا النهي. أصبحت تُدرِّس للنساء في مسجد أحمد بن طولون مع حفصة، ووافق على أن يحيطها الحراس طوال الوقت. كان يكرس بضع ساعات في الأسبوع لسماع كل شيء عن كل من يحضر دروسها من النساء ليتأكد بنفسه أن أحدًا لا يستغلها، أو يحاول التخلص منها أو خيانتها.

ارتبطت فرون بطالباتها كأنهن بناتها، ومع أن من رزقت بهم بعد جعفر ماتوا أطفالًا إلا أن الأمومة بداخلها كانت تتسع لكل العالم. تأتي إليها البنت خائفة في حيرة، كيف تعبد الله فتقول فرون: اعبدي الله كما تريدين، هو ليس ناقصًا ليحتاج منا معاملة كالبشر، هو الكامل المهيمن، فأينما تكوني فانظري إليه وحدثيه واطلبي منه يستجب. لطالما رأت العذاب والألم في عيون النساء، ولطالما بكت حزنًا عليهن. وارتبطت هذا العام بعزيزة بالذات. رأت فيها خيرًا كثيرًا ووجهًا بريئًا لم يمسسه شر بعد. كانت تستمع إليها في حماس، وأحيانًا تلمع عيناها بالدموع وهي تستمع لمأساتها ومدى معاناتها. عزيزة تحيا مع زوج يعذبها ليس فقط بالضرب بل بالكلمات والأذى. كانت تهمس لها بعد كل درس أنها ربما تستحق العقاب منه، مَنْ يدري، فتحتضنها فرون وتقول: لا تقولي هذا، لا أحد يستحق العذاب. أتريدينني أن أتكلم مع زوجك؟

- لا يا سيدتي، سيلومني أكثر. يكفي أن أكون حولك وأستفيد من علمك.

حكت لزوجها عن عزيزة، استمع وعقله في الزمرد الذي يجمعه، ثم أمسك بقطعة منه ونظر إليه وأعطاه لها قائلًا: ما رأيك؟ نصنع خاتمًا لك أو عقدًا؟

قالت في خشوع: مولاي كريم معي، لا أحتاج سوى حبك.

- عندما تزهدين في كل شيء أشعر بمدى طمعي يا زوجة السيد الأجل.

- لِمَ تحب الزمرد كل هذا الحب؟

- هو من قلب الصخر يتكون بين القسوة والرمال الجافة.

- هو مثلك وبقوتك يا مولاي.

- حُرمت منه وأنا شاب. أريد أن أجمع منه ما أستطيع وأنا رجل. ولكن أحيانًا أخاف أن يتملكني فأتمنى التخلص منه، فأجمع أكثر. فلنتكلم عن البنت التي يسيء زوجها معاملتها. لا أريدك أن تقتربي كثيرًا من أحد. عامر لم يزل يريد الانتقام منا وليس هو فقط، هناك الكثيرون.

- يا أمير، جنودك حولي طوال الوقت. عزيزة وجهها حنون وعيناها ممتلئتان بالشجن.

لم يسمعها.. كان يفكر في الزمرد. لو تخلى، ولو جمع، أيهما أفضل؟

في الصباح طلب من جنوده البحث في تاريخ عزيزة فهو لا يثق بها. ولكنهم قالوا إن كل ما قالته فرون صحيح. لا غبار على البنت، ولا علاقة لها ولا لزوجها بأحد.

ثم أمر جنوده بجمع الزمرد، الكثير من الزمرد... من كل مصر والعالم.

ابتسمت فرون لنفسها في راحة وهي ترى عملها في المسجد يغير حياة النساء، فها هي أُمِّية تتعلم الكتابة وتقرأ كتاب الله، وها هي خائنة تتوب إلى ربها، وحتى عزيزة بعد أن استقرت مع زوجها بفضل فرون أنجبت منه ابنة أطلقت عليها اسم فرون. وأصبحت تشعر بالامتنان لفرون، ولم تزل تحضر كل دروسها حتى إنها أهدتها مصحفًا باهظ الثمن بعد عام، وقالت لها إنها وفرت المال من زوجها لتعطيه لها لأنها غيرت حياتها بعلمها ورحمتها. ثم ضمتها عزيزة وقبلت يدها فنزعت فرون يدها قائلة: لا.. لا تفعلي هذا. أستغفر الله. أنت مثل أختي.

قالت عزيزة في خجل: يا مولاتي، أنت غيرت حياتي كلها. سأصبر على أذى زوجي لأربي ابنتي لأني أعرف أن الدنيا لا تستحق.

- لا تصبري على الأذى. يمكنني أن أتكلم معه.

قالت في رعب: لا يا مولاتي، لا تفعلي. هو أفضل الآن بفضلك. أريد أن أحضر دروسك دومًا.

قالت فرون في ارتباك: هذا المصحف غالٍ يا عزيزة. هل يمكن أن أعطيك...

قالت في رجاء: أرجوك أن تمنحيني الفرصة أن أعبر عن حبي. لا تكسري خاطري، أتوسل إليك، اقبلي هديتي من أجل فرون الصغيرة.

ابتسمت فرون وأخذته فقالت عزيزة: فليحفظك من كل شر يا أفضل من رأيت.

في اليوم التالي اشترت لها فرون عقدًا من الذهب الخالص وأعطته إياها، فبكت عزيزة وقالت إنها طوال حياتها لم تحصل على هدية؛ لا من زوج ولا من أب. نشأت يتيمة وقبلت بالزواج من أي زوج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أصبح سكر مصر يصب السرور في قلوب الضعفاء. حتى إن الولاة في الشام طلبوا من بدر أن يعطيهم من سكر هذا العام ولكنه رفض، فهو يحتاج أن يصنع الحلوى لكل أهل مصر كل شهر وكل مولد وفي كل عيد.

وهل هناك لقب لم يأخذه بدر بن عبد الله الجمالي؟ حتى ألقاب الخليفة نفسه أقل من ألقاب وزيره: السيد الأجل، أمير الجيوش، سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين، وزير السيف والقلم. عندما تسلق جبل المقطم اليوم لم يكن فقط يبحث عن جعفر بل أراد أن ينظر من أعلى الجبل إلى الجبانة وإلى مصر. إلى من مات، ودُفن طمعًا في كرامات الجبل ومعجزاته من أهل البلاد مسلمين ومسيحيين ويهودًا، وإلى من عاش ولم يزل يصارع نفسه وبنيه وصاحبته وعشيرته. من هو آرام اليوم؟ لا وجود له، ذاب أمام قوة بدر الجمالي وصلابته وقدرته قبل كل شيء. صرخ في الجبل: يا مقطم.. أي منا أقوى من الثاني؟ أنا أم أنت؟ أي أحجار تشد العضد وتقيم الجسد؟ أحجاري أم أحجارك؟ وأي فؤاد يرهب النفوس ويبعث فيها الوجل؛ فؤادك أم فؤادي؟ أنت قفر وأنا وادٍ، أنت ضعيف وأنا قوي، أنت لا تعرف من تكون وأين وطنك وأنا اخترت الديار ولن أبرحها.

سمع ضحكات جعفر العالية، كان لا يرتدي سوى خرقة تداري عورته. جاء ووقف أمام بدر ثم قال: أنت بدر اليوم ولست آرام. تركك آرام بلا عودة.

قال في ثقة: لأني وجدت نفسي هنا.

نظر جعفر حوله في حيرة وهو يضع يده كالمظلة على جبهته، ويتظاهر بالبحث بين الصخور: أين نفس بدر؟ هل وجدتها؟ أنا لا أجدها.

قال بدر وهو يخرج سيفه: يا جعفر كفاك ضحكًا. جئت أُنهي حياتك لأريحك منها.

- أم لترتاح أنت مني. المجذوب يزعج الأمير.

رفع بدر سيفه ثم اقترب من جعفر، فتوقف جعفر. وضع بدر نصل السيف على رقبة جعفر ثم قال: أشفق عليك يا أخي من عمر أفنيته في الطرقات. أريد أن أخلصك منه.

قال جعفر في ثبات وعيناه تخترقان عيني بدر: وأنت فيم أفنيت عمرك يا بدر؟ أنا كنت أبحث عن الحقيقة، أما أنت...

قال بدر: كنت أبحث عن الحقيقة أيضًا والعدل والخير..

ضغط بدر بسيفه بعض الشيء، فتساقطت الدماء من عنق جعفر وهو لم يزل ثابتًا ثم قال: ألا تخاف الموت يا مجذوب؟

- وهل أخاف لقاء حبيبي يا أحمق؟ عشت من أجل لقائه، وحاولت البقاء نقيًّا لأحظى بونسه.

- ألا تخاف سيفي؟

- نعم، لا أخافك يا بدر.

- لأنك تعرف أني لن أقتلك.

- نعم، لأني لا أخاف إنسيًّا. تخليت وأدركت.

أبعد بدر سيفه بعض الشيء ثم قال: من أعلى الجبل أشعر براحة ليس بعدها راحة، كأني أمسك بتلابيب الدنيا وأشكلها بين راحتي.

- تشعر براحة لأنك بعيد عن الدنيا وليس لأنك تمسك بها.

- اسكت يا مجذوب.

- لا تعرف نفسك يا أمير. هي تعرفك.

- هي من؟ عمن تتكلم؟

قال جعفر: عمَّن تتحني أمامها كأنها المسكن والوطن.

- وكيف عرفتها؟

- أعرف عنك أكثر ما تعرف عن نفسك.

- أحيانًا أراها تخافني.

- تخاف ما ترى وهي لا ترى إلا قشورًا. ولكنها تعرف ما يمكث داخل الروح.

- تظنني أحد مجاذيبك يا مجنون. اغرب عن وجهي.

قال جعفر: جئت لتراني وتختبر قوتي. عرفت أني أقوى منك.

- ربما.

فقال جعفر: يشغلك أمر المجذوب وأمر الجبل، نصفك يريد التخلي، ونصفك يتمسك بزينة الدنيا. نصف سيشفع لنصف. سأتركك مع الصخور لعلك تعتصر من شغاف قلبك بعض معانيها. بعضك يقاوم بعضك. نفس آرام تتوق إلى النجاة، ونفس السيد الأجل تدرك سجن الجسد وعبث الدنيا. من هنا ترى ضآلتك يا سيد، بدر مجذوب كجعفر.. بدر ينجذب إلى الفناء وإلى الخلود، يريد عرض الدنيا، وحلاوة التخلي عنها. يتمنى أن يحتفظ بالجسد كالقدماء. ولكنه يكره ضعفه. ابحث عن نفسك يا بدر.. فمن تلاشى هو الحاضر، ومن استحوذ هو الغائب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عند حصار دمشق حاول بدر الوصول إلى عامر بن حمزة. تركان لا يهمه، وإتسز قُتل على يد تتش. عامر هو من يستعصي الوصول إليه، أغرى أصدقاءه بالمال فلم تُجدِ محاولته، حاول أن يبعث بجارية جميلة تجده فلم يستطع. حتى إنه بعث الرسل إلى السلاجقة ليسلموا عامرًا مقابل ما يريدون بلا فائدة. قالوا إنهم لا يعرفون طريقه. يتنقل بين الولايات متخفيًا. لم يزل يحاول..

عامر بن حمزة كتم السم والحسرة بداخله ولم ييئس. الحرب المباشرة مع بدر لا تُجدي، ولكن الانتقام واجب من الأرمني. وما أقسى السم لو أصاب الجسد بعض منه! هذا هو الانتقام. يتذكر ما قاله والده عن مقتل شعبان بن بدر الجمالي، فرح حمزة والده يومها وقال لابنه: في قتل الولد عجز للأب لا يضاهيه عجز. الولد يا عامر هو السند والظهر، هو الشباب والعمر البائت.

ردد عامر: الولد.

لم يزل عامر في دمشق، لم يستطع بدر القضاء عليه، وقد أقسم هو أن يُفقد بدرًا القدرة على القضاء عليه. يريد أن يرى بدرًا عاجزًا أمامه بعينين مكسورتين كلهما حسرة وندم. هذا هو الانتقام الحق. وما أسهل إشعال الفتن! وما أعظم أن تستعر نيران الغيرة؛ ليضع خطته في هدوء، وليُمني نفسه بهزيمة بدر الجمالي! لا بد للجسد من مكان به ضعف يسهل اختراقه. أين الضعف في جسد بدر؛ القلب أم الأطراف؟ أن يقتل عامر ولده فهو جائز، ولكنه لا يريد هذا. هناك أقسى من موت الابن وأكثر فتكًا بالروح.

جاء من الشام فتى يدعى مسعودًا، طلب مقابلة أحمد الأوحد ابن بدر الجمالي، جاء ليخدمه بلا مقابل، يريد فقط أن يصاحب البطل والفارس الذي لا ينهزم. من يحكم الإسكندرية ومن يحبه كل أهل الإسكندرية من المذهب السني ليس لأنه ابن بدر الجمالي ولكن لأنه أحمد. استمع إليه أحمد في ريبة ولم يثق به. ولكن مسعودًا أبدى إخلاصه في كل عمل ولم يطلب شيئًا. بدأ يتكلم كثيرًا مع أحمد. وأحمد يستمع، وجد الطريق إلى صدر أحمد مفتوحًا، والأبواب مواربة تنتظر من يدفع بها. هناك طمع، وهناك غضب، وهناك حب الذات، وهناك رغبة في التفوق، وهناك خوف من الموت والهزيمة والأب. حذره أخوه محمد، قال له إن مسعودًا غريب الأطوار، فلِمَ يصاحب أحمد في كل مكان؟ ولم يستمع إليه أحمد. قال محمد في حذر: يا أخي، لوالدك الكثير من الأعداء. احذر الفتنة، فالفتنة أشد من القتل. عامر لم يزل يريد الانتقام من والدك.

قال أحمد في غضب: قل الحق يا محمد ولو على ذي قربى. أليس لعامر حق في رغبته الانتقام من أبيك؟ فكر بعض الشيء.

فتح محمد فمه في فزع ثم قال: أفقدت عقلك يا أحمد؟! لو سمعك والدك تموت في التوِّ.

- هذا ما يخيفني. إن والدي لن يتردد في قتلي أنا ابنه. والدك يهيم بحب ابنة الحلواني، وابنها سيكون له كل شيء. كل ما عملنا من أجله، وكل ما ضحيت أنا من أجله يا محمد. إما أن تقتنص حقك من أبيك، وإما أن تجد نفسك مقتولًا منه غدًا.

قال محمد وهو ينظر حوله: لقد جُننت. والدك جعلك أنت والي الإسكندرية.

- لأن جعفرًا لم يزل صغيرًا، لو استطعت لقتلته، ولكني أعرف أنه سيقتلني حينها، سيقتلني في كل الأحوال.

- أفق يا أحمد قبل فوات الأوان. إما أن تطرد مسعودًا، وإما أن أخبر أبي.

قال أحمد مسرعًا: تريد أن تتحكم فيَّ؟ أنت جبان لا تقدر على شيء. تطيع والدك كالأعمى، كشعبان كان يطيع أبي ثم ماذا؟ رأيته أمام عيني ميتًا غارقًا في دمائه. وها هو أبوك ينجب غيره، ضاع هدرًا. افعل ما شئت لو أردت قتلي أنا أيضًا، ربما تفضل أن تصير عبدًا لابن فرون. هيا اقتلني. ولكن تذكر وأنت تطيع والدك دون نقاش عندما يصبح الرجل متيمًا بامرأة يحب أولاده منها فقط. أخبرني، هل تزوج غيرها؟ بل أخبرني، كم جارية عندك؟ وكم جارية يعاشرها والدك؟ ولا واحدة. ملكته ابنة الحلواني. هي مرض، وباء يا محمد، ستقضي عليك وعليَّ. استمع إليَّ.

ما يقوله أحمد بين جدران حجرته لا يجرؤ على التفوه به أمام السيد الأجل. لم يزل ينحني احترامًا وإجلالًا كلما سمع اسم والده على الملأ. ولم يزل الأب يضع فيه آماله، فهو ابنه الأكبر الآن، وقد ولاه الإسكندرية ويتمنى أن يخلفه في حكم مصر بعد عمر. الإسكندرية غير كل البلاد، لها بريق وبها حرية تأتي مع أمواج البحر، تعطي الإحساس والقدرة على كل شيء. دومًا صعبة المراس، وأهلها أصعب الناس في الحكم. ولكن الأوحد أحمد بن بدر الجمالي استطاع أن يحكمها بنجاح. هو مثل والده حكيم صارم، هكذا قال له مسعود. ردد مسعود في أذنيه: الأوحد لا مثيل له، والدك يعرف يا مولاي. لو كان هناك رجلٌ يستطيع التفوق على السيد الأجل فهو السيد الأوحد.

فتح أحمد فمه في فزع قائلًا: أفقدت عقلك؟ سأذبحك الآن.

- اغفر لي حبي لك وإعجابي بك.

- سأغفر لك هذه المرة فقط.

لم تزل فرون تبني القلوب وتدعو إلى الخير. أصبحت تزور والدها، وحتى والدها لم ينج من حب أمير الجيوش، عاد إلى مصنعه، وعادت تجارته تزدهر كما تمنى، وعند ازدهار تجارته هدأت نفسه، وسامح ابنته على عصيانه، بل بدأ يطلب منها أحيانًا بعض الاستثناءات والوساطة فلم تخبر زوجها قط. ولكنها فرحت بتقبل والدها لها وبتعلقه بجعفر. اليوم أمسكت بيد ابنة عزيزة وسارت معها في مسجد أحمد بن طولون وهي تنظر إليها في إعجاب فقالت عزيزة: كل أمنيتي أن تأخذ منك قبسًا من نورك وتقواك.

فقالت فرون وهي تقبِّل الطفلة: هي ابنتي، معزتها مثل معزة ابني جعفر.

انحنت عزيزة وأمسكت بيدها قائلة: اتركيني أقبل يدك؛ فقد أكرمتني بعد أن أذلني كل البشر، ورفعت من شأني حتى وزوجي يحقر من شأني ويضربني. جعلتني أتحمل بقوة حتى تغير مع الزمن ومع إنجاب البنت.

نزعت فرون يدها وقالت: أعوذ بالله، أنت أختي يا عزيزة.

فتحت عزيزة فمها في فزع ثم قالت: مولاتي.. لا لا أرقى لهذا الشرف.

- أنا أقول لك شعوري. لقد عرفتك منذ أعوام ووجدت فيك روحًا طيبة صادقة. أتمنى لك كل خير.

عبس وجه عزيزة ثم قالت: أتمنى فقط يا مولاتي أن ترعي ابنتي لو حدث لي سوء. أخاف من الزمن وأخاف أن أتركها وحيدة.

قالت فرون مسرعة: لا تقولي هذا. إن شاء الله نشهد زفافها معًا.

ثم بدأت تقرأ من آيات الله والنساء تستمع في وجل وحب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خبر تحصن الأوحد أحمد بالإسكندرية والاستقلال بها عن حكم أبيه لم يكن متوقعًا، ولا حتى من الأفضل شاهنشاه محمد أبو القاسم شقيق أحمد. تصرف الأوحد في سرية تامة وكلف فتاه مسعودًا بكل شيء. حتى بصَّاصو أمير الجيوش لم يستطيعوا معرفة هذه الخطوة. الحرب مفاجأة وخدعة، وهذه حرب غير كل الحروب. مصمصت النساء الشفاه، ونظر الرجال بعضهم إلى بعض في حسرة، ولم يصدقوا خروج الولد على أبيه. متى؟ وكيف؟ وماذا يريد أن يكسب؟ هل يحلم بأن ينتصر؟ ربما. أو أن يحكم كل مصر؟ وماذا عن الخليفة؟ ما رأيه في كل هذا؟ أم أن مصر أصبحت ملكًا لبدر الجمالي وأولاده؟ وماذا عن أهل مصر؟ مع من يقفون؟ أهل الإسكندرية لا يقفون مع أحد، دخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم، ولكن بعض الأعيان كانوا يتبعون الأوحد الآن، وبعض التجار الذين استاءوا من عدل بدر الجمالي واهتمامه بالفقراء، وبعض رجال الزمن البائد الذين فقدوا وظائفهم ومراكزهم بسبب بدر الجمالي، وجنود الجيش الذين يبقون في بيوتهم بعد أن طردهم الجمالي وأنشأ جيشًا جديدًا.. كل هؤلاء أرادوا التخلص من بدر، وعدهم الأوحد بأن يغير كل شيء ويعيد ترتيب خزانة مصر، والاحتكار نظام سائد منذ الأزل، لِمَ يغيره أمير الجيوش الآن فيخرب بيوتًا عامرة بالأموال المنهوبة؟! كان هناك أعداء للجمالي، التفوا حول ابنه، ووعدهم الأوحد بالذهب وكنوز القدماء. أراد الأوحد أن يكون هو السيد الأجل، هو أمير الجيوش، هو سيف الإسلام، هو.. كل شيء.

سقط الخبر على رأس بدر الجمالي من ابنه الأفضل، فلا أحد يجرؤ على نقل خبر كهذا لأمير الجيوش. حتى الأفضل قال ما حدث وهو يرتجف ويطلب الرحمة. بقي بدر ساكنًا. لا أحد يعرف هل صدَّق أم نفى الخبر. وبعد برهة أمر الجنود بالاتجاه معه إلى الإسكندرية. لم ينطق طوال الطريق حتى عندما كان الأفضل يحاول أن يتحدث معه، كان يقول في رجاء: أبي.. أنا أعرف، هو مسعود، غلام جديد للأوحد، غيَّره علينا. نقتل مسعودًا. الأوحد ابنك.. مولاي..

توقف بدر الجمالي خلف أسوار الإسكندرية وقال في حسم: اذهب لأخيك، قل له أن يستسلم وسوف أعفو عنه. لا أريد أن أدخل الإسكندرية وأدمرها فيقول أهلها إن الأب والابن تقاتلا.

قال الأفضل في فرح وراحة: نعم، معك حق يا أبي. أنت رحيم دومًا. سيوافق. بالطبع سيوافق.

قال بدر: ولو وافق أريده أن يسلمني مسعودًا فتاه.

دخل الأفضل وهو لا يعرف لو كان أخوه سيقتله أم سيتركه يعيش. ولكنها محاولة لإنقاذ بيته وعائلته. استقبله أخوه في برود ثم قال: قل لبدر الجمالي إن الأوحد لا يستسلم ولن يسلمه فتاه، بل هذا الفتى سيصبح وزيرًا عندما أمسك بزمام الأمور.

قال الأفضل في رجاء: ما تفعله ضرب من الجنون. ماذا تريد أن تجني؟ كنت خليفة أبي. لِمَ لم تنتظر بعض الوقت ليأتي قضاء الله؟

- قضاء الله لا يأتي يا أخي. بدر الجمالي سيعيش وسنموت جميعًا. أريد أن أنقذ مصر من شره وسوء تصرفه.

حاول معه الأفضل محمد يومين، ثم خرج مطأطئ الرأس فارغ القلب. فهم بدر حينها قرار ابنه. والغريب هو حلم الأب الشديد مع الابن الضال حتى لو قسا مع الجميع. قال في ثبات: نحاصر الإسكندرية. لا طعام يدخل ولا شراب ولا سلاح، وننتظر..

قال الأفضل في ارتياح: نعم معك حق يا مولاي. أنا متأكد أن الأوحد سيستسلم. هو فقط لا يريد إراقة ماء وجهه أمام أعوانه. هو تأثير مسعود صدقني. يوم نقتل مسعودًا سيعود الأوحد إلى عهده القديم.

مرت الأيام، جاءته رسالة من فرون، فتحها في استياء يعرف ما ستقول ولا يريد سماعه: اغفر يا بدر، الولد ضل طريق قومه ولا تؤذه. إنه عامر، يريدك أن تريق دماء أبنائك، لا تتركه يأخذ قلبك يا أمير.

لم يكن يأكل كثيرًا ولا يتكلم مع أحد. لم يبد على وجهه أي مشاعر. أما الأفضل فقد كان قلقًا بائسًا يحاول أن يبعث الرسل بلا فائدة. مَرَّ يوم وراء يوم والأوحد لا يستسلم. شح الطعام في الإسكندرية ونَفَدَ الماء، وأهل الإسكندرية في انتظار نهاية الحرب بين الابن والأب. بعد مرور شهر كان السكان يتوسلون إلى بدر الجمالي أن يفك الحصار حتى لا يموت مرضاهم وأطفالهم.

قال بدر في قوة: أخبر أخاك أني سأهجم بجيشي على الإسكندرية غدًا قبل الظهر لو لم يستسلم، ولو فعلت لن ينجو هو ولا مسعود ولا أي من أعوانه، ولو فتح باب المدينة الآن أتركه وأعفو عنه.

هرول الأفضل إلى داخل الإسكندرية، فوجد الأوحد وراء الباب بجيشه على استعداد لمواجهة والده. أخبره بما قاله الأب. ثم قال: لو دخل والدك لا أمل لك في النصر. أنت تعرف هذا.

قال الأوحد: اتركني أفكر حتى الصباح.

هم الأفضل بالخروج، فقال الأوحد: أنت تبقى هنا. فلو دخل والدك بجيوشه فستكون أول من يُقتل.

- أتريد قتل أخيك يا أحمد؟

- والدك هو من سيقتلك دون أن يعرف. قبل موتي ستموت أنت وجعفر وجارية والدك التي سحرت له. وكل أهل مصر.

تنهد الأفضل ثم قال: لا موت لأحد إن شاء الله لو خرجت مسالمًا والدك.

- هل تصدقه؟ سيذبحني.

- لا، لقد أقسم أمام الناس.

- هو بدر الجمالي من قتل عشرين ألف رجل بدم بارد، وباع النساء في الأسواق. ألا تعرفه؟

- وأنت ابنه.

- لا أثق به ولا بك.

- سأبقى معك، لا تتركني، لو أراد ذبحك ليذبحنا معًا. ما رأيك؟

- سأفكر في الأمر، وأستشير الرجال.

عند شروق الشمس أشار عليه مسعود بالاستسلام على أن يقسم بدر الجمالي ألا يقتل مسعودًا. وافق الأوحد وأخبر أخاه بقراره. أطرق برهة ثم قال: صعب أن أطلب هذا من والدك.

- اطلب منه أن يعفو عن كل من تعاون معي.

- من الأسهل أن يدخل الإسكندرية، ويقتل جيشك كله عن أن يغفر لمن تمرد عليه. لا تطلب المستحيل.

قال الأوحد: هذا هو شرطي. ولو وافق أستسلم. أرسل أحد جنودي بهذه الرسالة إلى والدك.

- هو والدك أنت أيضًا.

- لم يعد والدي. هو عدو.

استمع بدر الجمالي إلى رسالة الجندي، وطأطأ عبد الوهاب رأسه وكأنه يعرف أن أميره وأستاذه سيذبح كل من يقابل اليوم. ثم قال في هدوء: قل للأوحد إني أوافق أن أعفو عن من تعاون معه بشرط أن يدفعوا غرامات لخزانة مصر.

نفخ عبد الوهاب في ارتياح وشيء من الذهول. أحبُّ الابن يؤدي إلى كل هذه التنازلات؟ فكر عبد الوهاب قائلًا في نفسه إن الأوحد لو كان ولده لقتله في الحال. ولكن يبدو أن قلب الأمير أرق مما يجب. لا بأس.

فتحت الإسكندرية أبوابها لبدر الجمالي، فدخل بلا إراقة دماء، وتوقف داخل البلد يبحث عن ولديه، ظهر الأفضل أولًا ووراءه الأوحد مرتجفًا وبوجه عابس. التقت عينا الأب والابن، رأى في عيني والده حزنًا ربما، ولكنه لم يفهمه، ولا حاول أن يعرف مصدره. قال الأفضل مسرعًا: اغفر له يا أبي. يطلب صفحك.

نظر حوله للجنود، ثم قال في قوة: أين يصلي الناس الجمعة هنا؟

فقال عبد الوهاب: في جامع الألف عمود يا مولاي، وفي جامع آخر، بل ضريح مهدم، يصطفون خارجه في حذر في منطقة العطارين.

قال بدر: خذني إلى هناك.

ثم أشار إلى أولاده بالسير وراءه.

نظر بدر إلى الطوب المهدم وبقايا الضريح، ثم قال لعبد الوهاب: أريدك أن تجمع الأموال التي اتفقت أن آخذها غرامة ممَّنْ تعاون على التمرد، وتصلح بها هذا المكان، وتبني مسجدًا جديدًا لأهل الإسكندرية. قل لأهل الإسكندرية إن بدرًا الجمالي عندما يدخل مدينة يعمر ولا يهدم، يبني ولا يخرب. قل لهم إن اسمه سيبقى هنا في العطارين إلى الأبد. والآن لنذهب إلى مسجد الألف عمود، ونصلِّ الجمعة هناك حتى ينتهي إعمار هذا المسجد.

صلى بدر الجمالي الجمعة بولديه، ثم عندما هم بالرحيل من الإسكندرية قال للأفضل: قل لأخيك إنني عزلته من ولايته على الإسكندرية، وإني أريده في القاهرة يبني بيتًا هناك يبقى فيه حتى أبتَّ في أمره. وإلى أن أبتَّ في أمره لا أريد أن أرى وجهه أمامي حتى لا أقتله.

ثم التفت إلى عبد الوهاب وقال: أنت مسئول عن جمع الأموال. ستبقى هنا حتى تنتهي من إعادة إعمار المسجد.

ثم همس بدر في أذن كاتبه عبد الوهاب: قبل أن أخرج من الإسكندرية ابحث عن مسعود وائتني به حيًّا.

دقت بابه، وعندما سمح لها بالدخول، انحنت وقبلت يده وأبقت رأسها منحنيًا وهمست: هل تسمح لي بكلمة يا مولاي؟

هز رأسه، نظرت إلى وجهه، ورأت الخطوط حول شفتيه وعينيه، كيف شاخ بين عشية وضحاها؟ وكيف ظهر كل هذا الشعر الأبيض في شهر؟ لا السنين متساوية ولا الأيام عادلة، يوم يمر بلا حزن كالعمر كله، ويوم يمر بفقد يساوي دهرًا من العذاب. ماذا فقدت اليوم يا بدر؟ ولدًا آخر؟ لِمَ عليك أن تفقد الولد تلو الآخر بعد أن أنقذت أبناء الكثيرين هنا من موت محقق؟ ترى أهي لعنة القدرة أم لعنة الملوك؟ هل كتب عليك أن تملك الأرض، ولا تملك من عليها؟ أكُتب عليك النعيم والبين معًا يا أرمني؟ عندما نظرت إلى عينيه فاض الحنان والجوى، انحنت ثم لثمت رداءه وقدميه قائلة: مولاي.. أتوسل إليك وأنا لم أتوسل إليك قط.

أمسك بيدها ليرفعها عن الأرض ثم قال: ما الأمر؟

أمسكت بيده فجلس وأجلسها معه وانتظر أن تتكلم. قالت: أنا لم أطلب منك شيئًا منذ زواجنا منذ عشرة أعوام.. أي شيء، ولا أريد شيئًا سواك. طوال عمري لا أريد سواك.

- قولي ما تريدين، لا صبر لدي اليوم.

قالت وهي تضع جبهتها على يده: لا تقتله. إلا ابنك. لا تفعلها. الفتنة تضل وتدفع إلى الهاوية، أنت تعرف. كل هذا من عمل عامر. يريد الانتقام مني أنا. أنا السبب في كل ما حدث. لو قتلته أكون أنا قاتلته. مولاي...

قال في حسم: عودي إلى حجرتك. لا شأن لك بهذه الأمور.

قالت في قوة ربما لأول مرة: بل هذه الأمور من شأني. لا أريدك أن تقتله، ولا أريد لجعفر أن يعمل معك، هذا سيهدئ خاطر الأوحد.

نظر إليها في فزع ثم قال: كيف تجرئين؟

- جئت أتوسل إليك. لم أزل أتوسل إليك. لا تقتل أحمد ابنك، وأبعد جعفرًا عن الدماء، هو ابني الوحيد. الحلواني يا مولاي.. الحلواني يحارب أيضًا.

نظر إليها بلا كلمة فأكملت: الحلواني يحارب كل يوم، يصنع من السكر أشكالًا جميلة، وفي قلبه هم لا يوصف. يحارب الدنيا القبيحة ليصنع منها الجمال. كيف تخرج جمالًا من كل الطمع والشراهة والغيرة والحقد؟ كيف؟

أكملت في رفق: كنت تقول لي يا بدر إن الحكم كله فتن. ابنك صغير يحتاج منك إلى التوجيه ليس العقاب.

أشار إليها بالخروج فقالت: لو سمح لي مولاي أن أبقى هنا بلا كلمة أكون ممتنة له بقية عمري. اعذرني لو تكلمت كثيرًا، ولو طمعت في رحمتك، ولكنك القاضي هنا، وأنا أطلب من القاضي أن يسمعني.

- سمعت وانتهى الأمر.

- والآن أطلب من السيد الأجل أن أبقى معه بعض الوقت. فقد أربكتني الحروب وأخاف من البقاء وحدي.

نظر إليها مليًّا كأنه يتوقع أنها تكذب، ولكنَّ عينيها كانتا تائهتين غير مستقرتين، ويديها ترتعشان كأنها فقدت الأبوين.

أمسكت بيده وجلست على الأرض وأراحت رأسها على ركبتيه، ثم قالت: لم أنم أسبوعًا أو أسبوعين.

أحاطت ركبتيه ومرت بيدها على ساقه وكاحله وكأنها تمسح معاناة طويلة، ثم نظرت إليه، إلى وجهه العابس ومرت بيدها على صدره وهمست: لو أستطيع أن أشفي صدرك من كل ألم كنت سأفعل حتى لو دفعت عمري يا بدر.

لم ينطق. مسحت بيدها على رقبته، ثم كتفه ثم صدره وهي تقرأ الآيات وقالت: أتمنى أن يحفظك الله من كل سوء، ومن شر الحكم، وإغراء السلطة.

ابتسم في تهكم ثم قال: تضعين السم في العسل.

- بل أقول لك كل الحق. نحن عباده جميعًا، فلنتركه هو يحكم علينا. هل كنت تنوي عقاب أحمد الأوحد؟ لا تعاقبه. هو ضحية.

بقي صامتًا فقالت: جدتي كانت تقول إن هناك أميرًا غير كل الأمراء هو أحمد ابن طولون، مَن بنى الجامع في مصر أنت تعرفه، ابنه العباس ثار عليه ولكنه لم يقتله ولم يسجنه. الرحمة دومًا في قلوب الآباء وربما ليست في قلوب الأبناء. أتفهمني يا بدر؟

- كنت تقولين يا مولاي. الرحمة تغمر قلبي يا فرون، ولكني أخاف أن يهدم كل ما بنيت، وأن يشيع الفوضى بعد أن ساد الاطمئنان. هذا البلد يستحق التضحيات.

- لن يحدث؛ لأنه لن يتدخل في الحكم. الأفضل محمد أبو القاسم ذراعك اليمنى منذ زمن، اجعله خليفتك لو أردت.

نظر إليها ثم قال: وجعفر؟ تريدين لابن بدر الجمالي أن يصبح حلوانيًّا؟

- هي صناعة كتشييد العمارة وزرع القمح. بدون الحلواني لن يرى الجندي أي جمال. وبدون مشيد العمائر كنت لن تترك ذكراك في الإسكندرية والقاهرة وكل مدن الدنيا يا سيد يا قاضي القضاة ويا سيف الإسلام. الأمر لك يا بدر.

كيف أفضى إليها؟ لا يدري. وكيف تقبل منها كل هذا الكلام؟ لم يعرف يومًا. ولكن بعد أن قرأت له من القرآن هدأ بعض الشيء، وتركها تأخذه بين ذراعيها بلا كلمة طوال الليل. لاح بذاكرته كل فقد، لحظة موت أمه وابنه واليوم، الفقد أبشع وأقبح. ورأى أخته وهي تستغيث والعجز يستره ويضمر أضلعه. رآها واختفى آرام. دومًا يختفي عندما يبحث عنه.

جاء بمسعود مُكبل اليدين، عرف منه تحت وطأة التعذيب أن عامرًا هو من سلطه على غواية الأوحد للانتقام من بدر الجمالي، ووعده بحكم مصر كلها تحت راية السلاجقة. بدر يعرف هذا، ما يريد معرفته هو مكان عامر. أخبره مسعود عن مكانه في مدينة صور. بعث وراءه البصاصين ولكنه رحل منذ أن سمع بتمرد الأوحد. أمر بدر الجمالي بذبح مسعود وتعليق رقبته على سور القاهرة.

عندما عرف الأوحد صاح: خائن.. وعد ألا يقتل رجالي.

فقال الأفضل: هو لم يَعِدْ أنه لن يقتل مسعودًا يا أحمد.

- قال أحمد: دافع عنه فأنت خليفته الآن، ولكنه خائن سفاك للدماء. متى سيقتلني؟

- عفا عنك يا رجل.. عفا عنك يا أخي. لو أثبتَّ إخلاصك تعود إلى عهدك القديم معه.

- ما كان ماضيًا لا يعود. الماضي لا يعود. يريد إذلالي حتى بعفوه وتعليق رقبة رجل من أتباعي.

بعث البصاصين ووعدهم بآلاف الدنانير، يريد أن يعرف كل شيء عن عامر؛ عن ماضيه وحاضره، عما يحب، ونوع الطعام الذي يفضله، الملابس، النساء، يبحث عن رجل في أمة كاملة، ولكنه رجل لا يُقهر حتى الآن، فقد قلب عليه الولد والكبد. أرسل قائدًا من أجلّ قواده يدعى أفظغين يتبع أثر عامر، جلس معه ساعة يقرأ عما وجد عن عامر ويسأله رأيه. كل ما قاله أفظغين ليس به أي دليل يصل به إلى طريق عامر. حتى أخواته البنات لم يَرَيْنه منذ عشرة أعوام. قال أفظغين في صوت خافت: هناك شيء اكتشفته عن عامر يا مولاي لا يعرفه أحد.

نظر إليه بدر منتظرًا فقال القائد: عشقه للنساء ليس بقدر عدد زوجاته.

نظر إليه بدر وهو يفهم ما يعني ثم قال: أيعشق الصبيان؟

- يفضلهم بجلد ناعم وملامح رقيقة. ويُبقي الأمر سرًّا، يُفضِّل من لم يتم البلوغ.

أطرق بدر ثم قال: وزوجاته؟ بالطبع في حماية السلاجقة. ولكن لو كان يفضل الصبيان فـ...

- هذا هو الخيط.

- هناك رجال مثله لا يمكن حصرهم. ماذا تبغي يا أفظغين؟

- نحتاج إلى الصبر يا مولاي.

- بل نحتاج أن نجد ما يُخرج عامرًا من مخبئه. دعني أفكر في الأمر.

انتهى عبد الوهاب من الإشراف على بناء مسجد العطارين، وحفر بدر اسمه كما يفعل دومًا في كل حقل وعلى كل جدار، في كل سور وعلى كل بيت. في عام 477 هـ - 1048 م كتب على لوحة داخل المسجد:

«بسم الله الرحمن الرحيم: (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّه) مما أمر بإنشائه السيد الأجل، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين، أبو النجم بدر المستنصري عند حلول ركابه ثغر الإسكندرية ومشاهدته هذا الجامع خرابًا، فرأى بحسن ولائه ودينه تجديده زلفًا إلى الله تعالى، وذلك في ربيع الأول سنة سبع وسبعين وأربعمائة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أيقنت أن الحزن لن يترك زوجها، ولكنها استطاعت أن تجعله يتقبل حزنه حتى ولو لم تستطع أن تمحو الحزن. كل ليلة يأتي إليها ولا ينطق، ينام فتضع يدها على قلبه، ويدها الأخرى تحت رأسه كأنه صغيرها، وتمسح على شعره وهي تتمتم بكلمات من القرآن وأدعية حتى يغط في النوم فتمسك بيده وتقبلها وتضعها على قلبها حتى الصباح. أصبح يتوق إلى ذراعيها وسط كل الخيانة، وتمكنت من نفسه كلها اليوم كما تمكنت قبل أعوام وأكثر. هذه الأيام أصبح يقضي كل ليلة في أحضانها، فتغمغم بنغمات سمعتها من أمها بالقبطية، لا تفهم معانيها ولكنها تُهدئ القلب العليل. فيهمس في رقة لا تبرح النفس سوى بين ذراعيها: تسحرين لي يا مصرية!

فتقول وهي تمسح بكفها شعره: هناك بدر في السماء وبدر هنا بين راحتي.

يغمض عينيه ويبتسم.

فتقول وهي تقبل رأسه: لن يصدق أهل مصر أن من يمكث بين ذراعي حبيب، هو السيد الأجل.. ملك مصر..

ابتسم حينها قائلًا: «أليس لي ملك مصر.. وهذه الأنهار تجري من تحتي؟». قالها فرعون موسى فهلك..

- ألهذا لم تأخذ لقب الملك؟

- المُلك لله يا فرون، ولكنها لي إلى حين، لن أتركها من قبضة يدي.

كتمت ضحكتها ولكنه فهم فقال: لا تصدقينني! ترى بم تفكرين؟ تقولين بدر يحب نفسه كالطاووس، ويتحكم في كل المصريين كالنهر المبارك.

قالت في تأنٍّ: هذا أيضًا صواب، ولكنني أتعجب أن يختار السيد الأجل من له كل جنات الأرض واحدة مثلي لا تستطيع أن تأمر حتى الجواري، تخاف من أذية القَطَر وجرح الحمام وبكاء الهدهد. لست ببأسك يا أرمني.

- ومع ذلك فهي واحدة استطاعت أن تحمي قلبها من الحقد والكُره خمسة أعوام وهي مع حمزة، وعشرة أعوام وهي مع بدر. وقاومت قدرة حمزة وجبروته وناورته فلم يمسسها مع كل افترائه. هذه واحدة لا يوجد مثلها يا فرون.

في الصباح ذهبت إلى المسجد وسط الحراس، ولكن هالها الألم في عيني عزيزة وأفزعها. تمنت أن تزيح الألم عن الكثيرين ولم تستطع حتى الآن.

هرولت عزيزة وهي تحمل ابنتها إلى فرون وعيناها ممتلئتان بالدموع، قالت في صوت مستغيث: يا سيدتي ومنقذتي.. أنقذيني من زوجي، أرجوك قبل أن يقتل ابنتي، خذيها..

التفتت إليها فرون ومدت يدها، رفع الحراس أسلحتهم في وجه الفتاة فقالت فرون مسرعة: ابتعدوا، هذه صديقة وأخت.

تجمدوا في أماكنهم ولم يبتعدوا، فأوامر أمير الجيوش واضحة، ومن لا ينفذ أمره يقتل على الفور. نظرت إليهم فرون في استياء ثم اتجهت بنظرها إلى عزيزة، كانت تبكي بكاءً غزيرًا ثم انحنت وأمسكت بذيل رداء فرون وقبلته، وقالت: لا حيلة لي يا مولاتي، لم يعد بيدي، أنقذيني منه. لقد ضرب رأسها بالأرض حتى أغشي عليها. أخاف أن تموت.. لا أستطيع أن أتحمل أكثر من هذا.

أمسكت بها فرون ورفعتها قائلة: اهدئي ولا تخافي، الله معك سينصفك. هاتي ابنتك.. لن أتخلى عنك. من اليوم ستبقين معي..

قالت عزيزة وهي تشهق من البكاء: ضربني حتى كسر أضلعي، هددني أنني لو تركته سيحرقني، أنا أخاف.. ربما عليَّ أن أبقى، ربما لو لم أَثُر كنت سأحيا في أمان. ولكنها ابنتي.. سيقتلها..

قالت فرون وهي تمسك بيدها: لا. لا أمان مع الظلم حتى لو استقر الظلم وشيد قلاعه. الأمان في القوة المصاحبة للعدل. اتركي الأمر لي ستأتين معي اليوم إلى بيتي..

ارتجفت عزيزة ثم قبلت يدها التي تمسك بابنتها وقبلت كتفها وهمست: أنت أفضل إنسان عرفته. ليت كل البشر مثلك يا مولاتي، كأنك ملاك يمشي على الأرض.

أحاطت فرون بالطفلة ثم قبلتها وهي تبكي في فزع، وقالت لعزيزة وهي تمد يدها بالطفلة: خذيها يا عزيزة. هي تحتاج إلى أم.

قالت عزيزة في فزع: لو أخذتها يقتلها.

ارتفع بكاء البنت، ولم تزل فرون تمد يدها بها، فاقتربت عزيزة تأخذ الطفلة، وهمست لها فرون: ستكونين بخير.

قالت عزيزة: اغفري لي أني أخرتك عن دخول المسجد وعن درسك. كنت أستغيث بك يا مولاتي.

خرجت الآه مكتومة من الفزع. فالرحمة دومًا في النصل الحاد، وعزيزة شحذت السكين يومين بالحجر قبل أن تغرسه في قلب فرون.

ما حدث لحظتها كلحظات الطوفان الأولى، الكثير من الارتباك والتخبط. في اللحظة التي أعطت فيها فرون الطفلة لأمها كانت عزيزة تخرج السكين من الجيب وتغرزه في فرون. صاح الحراس، أمسكوا بعزيزة، شدوا رقبتها إلى الوراء، تركوا السكين في مكانه، وحملوا فرون بأقصى سرعة. كان كل همهم مَنْ سيخبر السيد الأجل بالخبر؟ وما مصير من سيخبره؟ تمتم كل واحد للثاني: ستعيش إن شاء الله وهي ستشفع لنا. هي السبب وليس نحن. هي من أمرتنا بالابتعاد.

لم يحتج بدر إلى أحد أن يخبره، كان في القصر عند دخولها، تجمد مكانه لحظة، ربما، ثم حملها من الجنود، كانت نصف واعية، ترى بدر محاطًا بسحابة بيضاء تدور حوله، فيلمع ببريق مختلف

همست: بدر، لا ذنب للجنود.

قال: لا تتكلمي.

نادى على أطباء مصر، دخل بها إلى غرفتها ولم يسأل عما حدث. نظر إلى السكين الذي غاص في صدرها وقال في يقين: هذا السكين مسموم.

ارتجفت يد الطبيب وهو يحرك السكين وفرون تصرخ. أمسك بدر بيدها، غرزت أظافرها في يده حتى سالت الدماء وهي ترجوهم أن يبقوا على السكين، فآلام انتزاعه أقسى كثيرًا من آلام غرزه. مسح على جبهتها بيده، وتذوق عرقها بلا وعي كأنه يبقي على طعمها ورائحتها بداخله. انتفضت من مكانها فدفع بها ليبقيها وهو يهمس: افعلي هذا من أجلي.

قالت في صوت ضعيف: لا أستطيع.. هذا الألم..

غطى الطبيب مكان الجرح بالأعشاب، ثم ربطه وعينا بدر على السكين. قال للطبيب: هو سكين مسموم، أليس كذلك؟

تردد الطبيب لحظة رهبة وخوف ثم قال: ربما..

صاح بدر: لا تكذب ولا تخف وإلا ذبحتك هنا.

- هو مسموم يا مولاي.

سقط قلبه، رآه يزحف كالزواحف أمام عينيه، ثم قال في حدة: فلتفعل شيئًا.

قال الطبيب وهو يرتجف: مولاي يعرف أكثر مني. وضعت الأعشاب وسوف أعطيها دواء.

- لا... لا أعرف أكثر منك في الطب. افعل شيئًا وإلا قتلتك في التو.

دفع الطبيب الدواء إلى حلقها. وعندما انتهى كانت تدق على يد زوجها بأصابعها. لم يلحظ ولم يهتم. حتى قال الطبيب في رفق: مولاي، اقتلني لو أردت. إرادة الله أكبر مني ومنك. فعلت كل ما أستطيع. لننتظر..

- بل إرادة عامر بن حمزة.

- هو أداة يا مولاي.

- هي حية يا رجل.

ضغطت على يده بكل قوتها، نظر إليها فجأة وقال في ضيق: انتظري حتى أنتهي من كلامي معه. أنت لن تخرج من هنا سوى عندما توقف السم. هيا.

طأطأ الطبيب رأسه وارتجف بلا كلمة.

حاولت أن تتحرك بلا جدوى. ضغطت على يده من جديد، بدا أنه يتحاشى أن ينظر إليها ويتحاشى أن يصدق ما يحدث. همست: جعفر..

التفت إليها، ثم جلس على ركبتيه، وضع يده على جبهتها ومسح بيده على شعرها وقال في صوت ممتلئ باللوم والمرارة والعجز: ألم أقل لك ألا تثقي في أحد؟ كل خير تفعلينه ينقلب ضدك. لِمَ؟

رفعت كفها، وضعتها على وجنته وقالت: أنت تفعل كل الخير. أنت.. بك بضعة مني.. وجهك دومًا جميلٌ. اقترب مني بعض الشيء.

خارت قواه ولم تتساقط أي دموع، سيطر العجز، وشُيدت القضبان، وأصبح السجن ضيقًا مظلمًا بلا أمل في النجاة. أطبقت الجدران الثقيلة على صدره دون أن تسرق أنفاسه.

رفعها واحتضنها واستنشق رائحتها، ثم انحنى وقبل صدرها وتذوق دماءها، وضع يده على الجرح وقرأ بعض الآيات. همس للطبيب: أحضر جعفرًا إلى هنا.

هرول الطبيب خارج الحجرة ينادي الطفل، كان ينتظر بالخارج وهو يبكي، دخل على أمه ولم يقترب، خاف لو اقترب تموت ولو ابتعد تموت. رفعت يدها تشير إليه فقال والده: تعال..

أمسك الطفل بيدها بل تشبث بها. نظرت بعينيها إلى بدر ثم إلى جعفر، بدأ الجسد في نوم عميق كأن السم يذيب كل الآلام ويطفئ لهيب العذاب. أغمضت عينيها واستمرت يدها مغلقة على يد ابنها، ويدها الأخرى مغلقة على يد زوجها. بدت كأنها تبتسم لهما معًا.

بقي ساكنًا لم يبك ولم يصرخ. رأى القضبان تزداد ضيقًا، والدنيا تزداد غربة ووحشة. من اخترع السجون؟ ومن اكتشف أن السجن قطعة من نار جهنم؟ لِمَ تبتسمين؟ ألأنك هربت من هذا الجحيم؟ ولِمَ تتركينني أنا فيه؟ «أراني في الثلاثة من سجوني..».

أَرانــي في الثلاثَةِ مِن سُجوني

فَلا تَسأَل عَنِ الخَبَرِ النَّبيثِ

لِفَقدِيَ ناظِري وَلُزومِ بَيتي

وَكَونِ النفسِ في الجَسَدِ الخَبيثِ

«فقدت ناظري يا فرون، ولزمت الروح سجن النفس، ولم أزل محاطًا بالجسد الخبيث يا بنة الحلواني! هذا الشاعر يعرف شيئًا أو بعض شيء عن هذه الدنيا».

خرَّ الطبيب راكعًا، ثم قال: هي إرادة الله، لا ذنب لنا بها يا مولاي.

بقي ساكنًا وأغمض عينيه بلا كلمة. رأى وجهها أول يوم رآته، ثم وجهها ليلة دخل عليها غاضبًا يتوقع أن ينتقم، كيف غمرته، وكيف فاضت كالغيث الكريم. نظر إلى يدها في يده، رفع يدها وقبلها في بطء. أخذ نفسًا عميقًا ثم نظر إلى الطبيب وقال في ذهول وهدوء: لِم تقبض يدها على يدي هكذا؟ أمتأكد من موتها؟

بلع الطبيب ريقه ثم قال: هذا يحدث يا مولاي..

تجمد مكانه وقتًا، ثم أحاط يدها بيده الثانية، وقال للحارس الذي يقف واجمًا على باب الحجرة: أين هي؟

- من يا مولاي؟

- من غرزت السكين. أريد أن أراها. ألم تزل حية؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الباب الرابع:

لا تحسبي شيب رأسي كان من كبر

لكنه فيض ما استودعت في كبدي

وليلة مثل عين الظبي داجية

عسفتها ونجوم الصبح لم تقد

ظافر الحداد السكندري ـ شاعر فاطمي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نظر إلى عينيها الثابتتين ويديها اللتين ألقت بهما على ركبتيها في حسم. جلس أمامها، شدها الحارس لتنحني للسيد الأجلِّ، ففعلت عندما أرغمها الحارس. أشار إليه بدر بالتراجع. ثم قال: أنت تعرفين ما ينتظرك، من أرغمك؟

قالت في ثبات: لم يُرغمني أحد.

قال في لامبالاة: هذا سنكتشفه بعد حين. أؤكد لك أني سأعرف. لديك زوج يسيء معاملتك ولكنك نفذت أمره. أهذا لأنك تريدين الموت؟ كانت تساعدكِ وتثق بكِ.

قالت والهدوء لا يتركها: هو لا يسيء معاملتي، هو يعلمني ما لم أتعلم.

التقت أعينهما فقال: مصيره سيشبه مصيرك. ماذا علمك؟

قالت في نفس الثبات: يقول إن أمير الجيوش لا ينهزم. يقول من لم تهزمه جيوش السلاجقة، ولا أمراء الترك والسودان وكتامة مجتمعة، ولا بنو عباس، فلا هزيمة له. ولكن النبي سليمان نخرت عصاه حشرة ضئيلة. من لا تهزمه الجيوش يهزمه قلبه دومًا، وأضعف ما في الرجل الحي قلبه، فلا بد للنخر أن يبدأ من هناك.

هز رأسه وقال: معكِ حق. يُحسنون تعليمكِ هناك. ماذا علموك أيضًا؟

- أنك كافر يا أمير كما أنها كافرة، وموتكما راحة لأهل مصر وكل الدنيا. فأنت سفاك للدماء لا رحمة في قلبك، وهي منافقة تدعي الإيمان وتتزوج مَن قتل زوجها.

همَّ الجندي بأن يضربها، فأشار إليه بدر بالتوقف ثم قال: ألم تخافي؟

- ولِم أخاف؟ لو عذبتني وحرقتني بالنار فقد فعلها زوجي من قبل ليعلمني، ومن تحمل العذاب مرة لا يأبه به.

- وهل رضي عنك زوجك اليوم؟

- أتمنى هذا.

- كيف لم تشفقي على فرون وهي تشفق عليك؟ هل ترددت؟ عامًا بعد عام كانت تساعدك. متى بدأت في خطتك؟

صمتت ثم قالت: كنت قد قررت من البداية منذ أول يوم.. هي تدعي الطيبة، فلا يمكن لإنسان أن يكون بهذه الطيبة، فرون التي رأيتها لم تكن فرون الحقيقية.

قال في مرارة: بل هي بعينها لو تعرفين، هي بها كل هذه الرحمة وهذا الخير.

قالت في إصرار: ولكني أكرهها.

- لطالما كره الحقيرُ العظيمَ، ولطالما خاف القاسي من الرحمة، وارتجف الظالم مِمَّن يسامحه. هذه هي الدنيا التي ربما لم تعرفها فرون أو عرفتها أكثر مني. ماذا عن ابنتك؟ ألم تخافي عليها؟

قالت في قوة: فلتذهب إلى الجحيم! لو رضي عني زوجي فهذا يكفي؛ فقد أرهقته حتى أتعلم، وتعلمت. هو يقول إن هذه البنت لا قيمة لها وأنا أصدقه.

أشار للحارس ثم قال: بعد أن تعرف كل شيء عنها وعن زوجها تدفنهما معًا حيِّين، ويوم يموتان تخبرني، ولا بد أن نجد عامر بنِ حمزة، وضَع ابنتها في دار أيتام. لا بد أن يخبرك زوجها كيف قابل عامرًا، ولو لم يقابله فمن الرسول بينه وبين عامر؟

انحنى الجندي وهو يدعو له.

ثم ماذا؟ قتل عزيزة وانتهى الأمر. ماذا يفعل الآن؟ يجد عامرًا.. يسلخه أيامًا ولياليَ. اخترق عامر مصر إذن. استطاع أن يقنع زوج عزيزة أو يشتريه. كما فعل مع ابنه. لا بد أن ينحني له احترامًا؛ فقد عرف كيف يسلخ الجلد ويقطع الأطراف، استهدف القلب وليس الرأس، ولكن بدرًا لا ينهزم. بدر أبدًا لا ينهزم. ولو انهزم فلا أحد يعرف ولا يشعر. عامر يحارب حربًا قذرة وقد آن له أن يرد الضربة بالضربة.

نظر إلى مكانها على مخدعه وإلى ردائها الممتلئ بالدماء، صمم أن يبقيه معه طوال الوقت. هو آخر شيء بقي منها، تشبث بقطعة من الكتان أو شعرة من شعرها أو رائحة ستتلاشى بعد وقت. كلها أشياء زائلة كالبشر. آه يا فرون! أكان عليك أن تكوني بهذه العظمة وهذا الشموخ؟ وضع الرداء على صدره وكأنه لا يعرف الموت ولم يصادفه. كيف فصل نفسه عن الموت أعوامًا؟ منذ مات شعبان والدنيا ليست هي الدنيا، ولكن الموت يأبى أن يتركه، هو حوله طوال الوقت حتى ولو كان لا يتأثر بموت عدو أو فاسق. لماذا؟

دخل عليه جعفر والدموع تملأ عينيه ووضع رأسه على صدره قائلًا: أمي..

ربَّت على كتفه وتذكر، كان مثله ربما في سنه عندما رأى أمه تُقتل أمامه ولم يَبكِ. لِمَ يبكي جعفر؟ وليته يبكي هو أيضًا لو استطاع. قال في هدوء: المحارب لا يبكي يا جعفر. الموت رفيق لنا حتى لو تأخر أحيانًا أو جاء دون ميعاد.

حاول الطفل أن يمسح دموعه ولكنه انهمر في البكاء وهمس: لا أشعر بها حولي. يقولون إن روحها معنا ولكني لا أشعر بها.

مد الطفل يده ثم قبضها كأنه يحاول أن يمسك بشيء ثم قال: أين هي؟

- أنت تعرف أين هي. هي عند الله. كانت تحبه وتصلي له، أخذها بجانبه.

لا بدر يعرف كيف يهدئ بكاء طفل، ولا هو يستطيع أن يتكلم عن الروح. قام من مكانه ونادى حفصة، كانت تجهش بالبكاء وتنعى فرون: ابنتي، حبيبتي..

عندما نظرت إلى بدر قامت ومسحت دموعها قائلة: مولاي..

قال: أريدكِ أن ترعي جعفرًا وتتكلمي معه. يحتاج إليك.

قالت مسرعة: هو ابن ابنتي. فرون كانت ابنتي يا مولاي.

هز رأسه وهمَّ بالخروج فاستوقفته وهي تنظر إليه قائلة: هل أنت بخير يا مولاي؟

نظر إليها قائلًا: أنا بخير.

- اسمح لي يا مولاي.. أعرف أن ما بينكما كان يصعب علينا فهمه. ولو احتجت إلى أي شيء مني فأنا موجودة دومًا لجعفر ولك.

قال في مرارة: وماذا سأحتاج منك؟ لا لن أحتاج أن أبكي وأن تُهَدئيني.

قالت مسرعة وهي تطأطئ رأسها: اعذرني يا مولاي، هذا ليس قصدي. ليت الحزن يقاس بالبكاء. من يبكي كمن يصرخ من الألم، أما من يكتم صرخاته فقد تمكن منه الداء، فلا مفر له من الهلاك. أتمنى لك الخير يا مولاي بقدر حبها لك، وأقسم إني لا أعرف امرأة أحبت رجلًا كما أحبتك هي.

قال وهو يتحاشى عينيها: أعرف. راعي جعفر، لم يزل علي أن أحصل على عامر وهو في الشام الآن تحت حماية السلاجقة. هناك شيء يستحق العيش من أجله.

عامر بن حمزة يعرف كيف يحارب، فلو حارب بالسيف سينتصر الأرمني، هذا أكيد. ولو أيقظ الفتن سيخمدها الأرمني بسيفه، ولكن لو تكلم عن الدين وألهب المشاعر وأيقظ حب الجهاد فسيستمع الجميع. قال: الأرمني أعجمي لم يسلم، كافر يتبع كفارًا. بنو عُبيد لا انتساب لهم لفاطمة، يدَّعون الشرف ويقتلون الشرفاء.

قال لابن بدر وعيونه كلها دموع: كيف يحكم بلاد المسلمين الكفار؟ يسبون الصحابة على المنابر ويغيرون الأذان. هو بدر الجمالي الذي استعان بالرهبان ليبني أسوار القاهرة، فلتهدم الأسوار وليدخل السلاجقة أسوار كافر بناها كفار، هو بدر الذي بنى الكنائس في مصر وأكرم البابا الأرمني، هو بدر الذي أدخل الجنود المسيحيين في جيش المسلمين وكأنه يدافع عن بلد ووطن وليس عن دين. فلتَمحُ له بلاده يا أوحد. لو أراد مصر وفَهَّمه أهلها أن المسيحي والمسلم سواء فليمت هو وكل مصري يحبه. افهم يا أحمد. أنت الأوحد لأن غيرك لا يدرك. لو كان والدك كافرًا يا أحمد فلتقضِ عليه وتُعِدِ الخطبة للخليفة العباسي. المستقبل لبني عباس حتى لو أنقذ والدك المستنصر. ماذا فعل بدر الجمالي؟ انتشل مصر من المجاعة والفناء؟ وما هي مصر؟ بلد مثل أي بلد، فلتمت مصر وليعش الحق. ما أهمية مصر للأوحد؟ كان سيخلف والده ويحكمها؟ لن يحدث، فوالده فتن بابنة الحلواني، حتى بعد موتها يفضل ولدها. غدًا يقتل الأخ أخاه وغدًا تزداد النار اشتعالًا. الأوحد سينقذ الأرض من سفاك الدماء. الموت لبدر الجمالي حتى لو ماتت معه مصر والشام وكل البلاد.

بعد أن أَمَّ بدر الجمالي المصريين في مسجد أحمد بن طولون عاد إلى قصره في حارة برجوان، وجلس في الحديقة يحدق في أشجار السفرجل، يقولون إن أحمد بن طولون كان يحب السفرجل. ماذا أحب ابن طولون أيضًا؟ ولِمَ تتقاطع مصائرهم إلى هذا الحد؟

السهم الذي حاول ضرب السيد الأجل اليوم كان من داخل حديقته وقصره. شعر به في اللحظة الأخيرة فحاول أن يتلافاه، انحدر إلى الوراء فأصاب السهم كفه إصابة عابرة، ولكن الدماء تساقطت، سمع صوت الشق في كفه مع أنه لم ير أين رسا السهم وأين استقر. في ثوانٍ كان الجنود يحيطون القصر والصيحات تخرج من الأفواه: محاولة قتل السيد الأجل.

هرول إليه محمد ينظر إلى كفه ثم قال في خوف: لو كان السهم مسمومًا يا أبي.. لقد خدش كفك..

فقال الأب وقلبه ليس مع السهم بل مع من أراد قتله: افتح الكف بنفسك بسكين لتسيل الدماء. هذا جرح بسيط.

أخرج محمد خنجره وشق كف والده وضغط عليه لتخرج الدماء. جاء الطبيب ووضع الدواء. سادت الفوضى في القصر حتى أمر السيد الأجل كل الحضور بالانصراف. ثم قال لمحمد ابنه: السهم من داخل القصر يا بن بدر الجمالي..

انحنى أبو القاسم محمد ولثم ثياب والده ثم قال: مولاي السيد الأجل..

بقي الأب ساكنًا ثم قال: جاءتني الأنباء.. تأتيني دومًا قبل أن تصل إليك. أتعرف أني لم أصدقها؟ لو جاءك نبأ مقتل ولدك في اللحظة ستكذبه لأنك تتمنى كذبه. لأول مرة أتصرف بلا حكمة.

قال محمد في وجوم: في بعض الأحيان تكون الفتنة أشد من القتل.

ابتسم بدر في مرارة ثم قال: وما الأشد من قتل الولد لأبيه؟

ارتجف قلب محمد وأبقى رأسه منحنيًا ولم ينبس بكلمة.

رجع بدر بذاكرته إلى السنين الخوالي، عندما كان أحمد يضحك وهو يطارد السحاب ويفزع لو نبح كلب في وجهه. يراه في مخيلته غضًّا أبيض الوجه بشعر يغمر عينيه. يقولون: أحمد بن طولون كان لديه ابن ثار عليه في الإسكندرية كما فعل الأوحد أحمد بالضبط، وعاث في الأرض فسادًا فسجنه أحمد بن طولون ثم عفا عنه. أما بدر الجمالي فقد ثار عليه ابنه في الإسكندرية فحاصره حتى استسلم ثم عفا عنه بلا سجن. هو شاب ملئوا عقله بالخرافات والأكاذيب، قالوا: والدك لا يحبك، والدك سيتخلص منك، والدك لا يحق له أن يبقى في الحكم إلى أبد الآبدين، حكم مصر عشر سنوات، ألا يكفي هذا؟! قالوا: غدًا يكبر ابنه جعفر ويستولي على كل شيء. غدًا يأمر الأب بقتل ابنه الأوحد. قالوا الكثير وسمع وأطاع الأوامر. ثم قالوا: والدك كافر يسب الصحابة على المنابر، ويدعي أنه الداعي والشيخ. خليفته كعرائس الحلوى، لا خلافة بلا خليفة. قالوا وقالوا واستمع الولد وخان. وعفا الأب. وكيف لا يعفو؟ كان يتيمًا بلا أهل، ثم أصبح له ولد من صلبه، بل أصبح له أربعة أولاد، مات الأول غدرًا، ثم جاء الثاني وقرر خيانة والده وعفا الأب. وبعد عام قرر الابن أن الخيانة لا تكفي، وفكر في أن بدر الجمالي حتى لو تعدى الستين فسوف يخرج بجيوشه وينتصر في كل المعارك، جسده لا يشيخ كساحرة الهرم. لا جدوى من الحروب. فليقتل بدر. فليقتل والده وُينهي حكم الظلم وسفك الدماء. هو أب كأبي إبراهيم وكعم النبي، هو أبو لهب يشعل النيران ويذبح بلا هوادة. فليقتل والده ليس فقط ليئول له الحكم ولكن لينقذ مصر من بطش الجمالي. يقولون: إن المصريين يعشقونه كعشق قيس لليلى، لا بد

أنهم في ضلال، أهل مصر دومًا يعشقون القوي بلا تمييز ولا معرفة. تلف عقل الأوحد كما تتلف الكبد من كثرة الخمر. تفتت ما بين غيرة وطمع وكره وضلال. ماذا يقول الأب اليوم؟

نظر بدر إلى يده المربوطة من غرس السيف، هو غلام ابنه يا ترى أم فعلها الأوحد نفسه؟ لا يريد أن يعرف، في المعرفة شقاء لا يطيقه. من رمى عليه السهم المسموم هو ابنه أو أحد رجال ابنه. لِمَ لا يبكي؟ أهناك قدَرٌ أقسى؟ ولد مات والآخر ضل؟ لِمَ تتوق النفس إلى الأوحد، وكأنه لو تقابل معه مرة ربما سيمتص من كبده كل السموم، سيذكره بما كان بأنه نبتة من ضلع الأب، وأنه قطعة من نفس الأب. آه يا فرون! أين أنت لتعرفي البشر؟ تعالي.. ماذا ستقولين اليوم؟ اغفر يا بدر؟ كل الذي فوق التراب تراب؟ أأغفر ذلي وانكساري وعجزي يا ابنة الحلواني؟!

قال الأفضل في خجل: تكلم معه يا أبي، استمع منه.

قال في حسم: أبق عليه في السجن. وتصرف أنت في هذا الأمر. ابحث وافهم كيف تجرأ ومن ساعده.

ماذا سيقول للأفضل؟ هل يخبره أنه لا يقوى على الكلام معه؟ هل يخبر ابنه أن القوة قد خارت، والقلب قد نزف والدماء تتساقط من مقلتيه؟ أيخبره أنه لن ينظر إلى عيني ابنه، فلا يريد أن ينظر إلى الخواء وهو يبحث عن الارتواء. لا ارتواء داخل القفر وفي أعماق الأحجار العفنة، ولكنه يريد أن يراه، يريد أن يسمع بأذنه فالقلب لا يصدق. وربما القلب يشتاق إلى ولد لم يره منذ عام أو أكثر. طلب من الأفضل أن يذهب إلى السجن، سيقف وراء الباب يريد أن يسمع دون أن يتكلم مع الأوحد. يريد أن يفهم.

نظر إلى كف يده المربوطة واستمع وعيناه متحجرتان والزمرد الذي يحيط نفسه به حجر مثل كل حجر حتى ولو أنه لا يعكس ضوء الشمس، ولا تجرحه الأحجار الأخرى. الألم يضرب في العروق الهشة ويعربد. يحب الزمرد. طوال عمره يحب الزمرد. يمتزج الزمرد في مخيلته اليوم بيد أحمد الأوحد وهو طفل لم يتعدَّ الخامسة، مد يده لأبيه يريد أن يرافقه، يتذكر، هي اليد نفسها التي تريد البطش اليوم. واليد نفسها التي غرزت السيف.

قال الأفضل محمد لأخيه: هل حاولت قتل أبيك يا أخي؟ لماذا؟ قل إنك لم تفعل.

قال الأوحد في ثبات: لو قلت إني لم أفعل فستقتلني بنفسك. جئت تقتلني. هذه عائلة ملعونة بلعنة التيه. لا بد لها أن تنتهي.

- هي عائلتك يا أحمق. وهو والدك الذي أعطاك حكم الإسكندرية وأرادك معه.

صاح في جفاء: والدي سفاك للدماء. سيقتلني اليوم أو غدًا. لا رحمة في قلبه إلا لجاريته التي تزوجها. يومًا سيقتلك أنت أيضًا، ويرفع شأن ابنها.

- هو مَن ولَّاك، وهو مَنْ أعطاك الرجال. هو مَن علَّمك..

- علمني لأقضي على ظلمه.

ازدادت قبضة بدر على القضبان، وضغط الحجر الثقيل على صدره، ولكنه لم ينطق ولم يلُمْ.

قال الأفضل: انظر إلى نفسك. طمعك أعمى بصيرتك.

- ورثت الطمع منه إذن. لِمَ لا يموت؟ كأنه عنكبوت هَرِمٌ يقضي على كل الشباب. يكفي ما فعل فليمت كي يريح كل الناس من شره. مات شعبان وبقي هو حيًّا ينعم بالجارية وابنها.

فتح الأفضل فمه في فزع ثم نظر ناحية اختباء والده وقال في همس: ربما يسمعك. قل كلمة تشفع لك.

قال والجنون يسيطر عليه بصوت عالٍ: أنا من قلبك يا بدر الجمالي أنا من عملك، عامر يستحق حكم مصر وتركمان والسلاجقة وكل من يقف ضدك يا أرمني. اقتلني هيا.. سيقولون الجمالي قتل ابنه ودفنه في الرمال لينسى كالضباع. اقتلني حتى يتسنى لك العيش. فلا أنت تسأم العيش، ولا أنا أبغي البقاء في عالم به بدر الجمالي.

لم يخرج بدر من حجرته يومين، أغلق بابه عليه ولم يسمح لأحد بزيارته حتى دق الباب جعفر وطلب الدخول فسمح له. قال في صوت مبحوح: يقولون إن أخي قد مات يا مولاي.

نظر إليه بدر وهو لا يراه ثم قال: أعرف.

فتح الطفل فمه ثم أغلقه. وانحنى يقبل ثوب والده قائلًا: اغفر لي فقد نسيت تقبيل ثوبك.

لم يُجب. كان ينظر إلى الأفق والظلام دامس والسَّحَر لا يأتي.

بقي الطفل صامتًا وعيناه كلهما حيرة. فقال الأب: ماذا قالوا لك؟ إنني قتلت ابني؟ هل قالوا لك هذا؟ لو قالوا هذا فأجبهم بأن ابني هو الذي قتلني.

احتضن جعفر رجلي أبيه وقال وهو يبكي: أبي..

وضع يده على شعره ثم قال: لا بد لمصر أن تبقى آمنة.

قال الطفل: كيف مات أخي؟

ابتسم بدر في مرارة ثم قال: تسأل أسئلة أمك، كأنها معنا اليوم. لا أعرف ولم أسأل. الأفضل أبو القاسم أخوك يقول إنه قتل نفسه في السجن، والبعض يقول إن أصدقاءه قتلوه حتى لا يخبرني بأسمائهم، وربما أتباعي هم من قتلوه. أخوك الأفضل محمد ربما، عبد الوهاب ربما، الجنود. لم يخبرني أحد وكأنهم يعرفون أني لن آمر بقتل ابني، وأنا لم أسأل، ولا أريد أن أعرف. أحيانًا تسوءك المعرفة وتفطر قلبك. هو أمر غريب يا جعفر. لو تعفن قلبي الذي في أحشائي أنتزعه من بين أضلعي.

- والأوحد قلبك يا مولاي؟

- أنت وهو وشعبان والأفضل وابنتي. لا تتردد لحظة الاختيار فتفقد كل شيء. الجندي لا يتردد يضع نصب عينيه الأمان دومًا لبلاده. يقولون إن رأسي اشتعل شيبًا فأصبح الشاب يراني ضعيفًا خرفًا.

قال جعفر مسرعًا: حاشا لله يا أبي.

- كيف تراني يا جعفر؟

نظر إلى والده.. كان يراه شيخًا كبيرًا، ولكنه أيضًا يستشعر قوته في عينيه اللامعتين ووجه يقظ.

قال بدر: الأوحد يريد أن يضعني في ركن كالخبز القديم بعد أن يدهسني بقدميه. وبدر لا يضعف ولا يذل.

1085م - 478 هـ:

تسلق الجبل وحده واستقر على حافته ونظر إلى مقابر القدماء، يبحثون عن البركة حتى وقت الموت كأن الرمال ستشفع والأحجار سترحم. أمسك بحفنة من الرمال بين يديه ثم مدد ظهره على التراب وأغمض عينيه. يجيش في صدره حنين إلى الموت. كلما مات جزء منه تمنى أن يلحق بكل قلبه الذي يقبع هنا داخل الجبل تحت رأسه. تجلت له الرمال في صورة أمير يرتدي اللون الأبيض، لا كذب قط، ولا يخدع ولكنه لا يرحم أعداءه ولا يغفر. كم قنطارًا من الزمرد أصبح يملك أمير الجيوش؟ سطع الأخضر أمام عينيه ثم رأى جعفرًا الذي تلاشى ولم يعد له أثر. ظهر فجأة ولم يتأكد أهو حقيقة أم من خيال، نظر إليه مؤنبًا وقال: يا بدر ماذا فعلت؟ لِمَ لم تمت بعد؟ وماذا ستفعل بكل هذا الزمرد؟

ضحك جعفر ضحكات لا تنتهي. وكلما ضحك سلخ قطعة من كبده، أمسك بالرمال بين أصابعه ثم بعثرها على وجهه ورقبته وشعره في بطء وأغمض عينيه. هيا يا جبل أعطني بركتك إذن، ابتلعني أو اجعلني ترابًا فما للعيش لذة ولا للجواهر بريق. فقدت قدرتي على رؤية الألوان والأزهار، لم أعد أرى سوى رمالك. وعندما أَخرُّ إلى الله متعبدًا أريد التعبد وحدي له وليس للناس. هنا كل أمير وخليفة يبني مسجدًا بين الناس وحول القاهرة، ولكني أريده هنا أعلى جبلك المبارك، لا أريده سوى لمن يتكبد تعب العبادة، ويجاهد وهن العظام ورغد العيش. تجردت اليوم. أمامك أتجرد دومًا من ألقابي وملابسي وكذبي وشقائي. احملني حتى أستمر. حاولت أن أطهر قلبي بتقواك قدر استطاعتي. هل هذا الحزن لذنب اقترفته أم لأني عند حسن ظنك؟ لو أخبرتني أرتاح. في المستقبل سيتساءلون لِمَ يبني بدر مسجده أعلى الجبل؟ ألأن حبيبته مستقرة هنا أم ابنه الخائن؟ اغفر له يا رب خيانته واجمعني به كما ولدته أمه بقلب صاف بلا أحقاد. وهل سيصدق العامة أن بدرًا أراد لقاء ربه وحده وأراد بناء المسجد ابتغاء مرضاته هو فقط. (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) كما للقمر منازل متفرقة أصبحت لي أيام ضعف وقوة، يا رب اجعل الهلال الضعيف في السماء يَقوى بقدرتك وقدر له منازل تغير من حاله. هنا معك أتخلى وأصدق. أنت تسمع وتبصر. كنت بضعة مني يا بنة الحلواني، في صفائك ربما وجدت حبة من خردل من الصفاء داخل نفسي، في صدقك ربما رأيت ما كنت عليه في طفولتي، وفي روحك الهائمة في حب الله كنت أتوق إلى النجاة. فرون كيف يمكن أن تكوني بهذا الجمال؟ أتصدقينني اليوم يا بنة الصقلي؟ لا خير في هذه الأرض، جئنا إليها لأننا لسنا أهلًا للجنة، أُعطيتِ الخير فذبحوكِ. ولو كنتِ حذرة في عطائك كنت ستفقدين روحك. لا مفر من الهم في أرض يسفك فيها الناس الدماء ليأكلوا ويعيشوا ويتكاثروا.

في هذه الرقعة أبني مسجدي. سيقولون: ومن يتسلق جبل المقطم ليصلي هنا؟ هنا يسكن الأموات يتباركون بالرمال وبقصص المعجزات. وهنا يسكن من تخلى وترك وأراد الأنس بصحبة الجمال والنجوم. ما بال السيد الأجل يهتم بأمر الجبل؟ يقولون: دفن حبيبته وابنه هنا فأصبح منصهرًا داخل

أحجاره كالزمرد. هنا على حافة جبل المقطم سيبني مسجدًا بالحجر لأول مرة في مصر. يريده أن يبقى، لا هو يطمع في براح مسجد أحمد بن طولون ولا في العرائس فوق شرفاته، ما بناه أحمد بن طولون سيبقى لأن أمير الجيوش يتمنى أن يبقى، بذل المال لإعمار مسجد أحمد، من المؤكد أنه سيلتقي بأحمد في أحد الأيام المباركة عند رب الجبل. مسجد أمير الجيوش لمن يشقى في سبيل الوصول، هو مسجد ومشهد، يشهد على العشق والغدر، الفوز المبارك والهزيمة المسمومة. هنا يسكن قلبه.. زوجته وابنه. وهنا عجز كالظبي أمام الوحوش، وهنا افترس كالأسود وأصبح الملك والسيد.

سيبني مئذنة غير كل المآذن، في مدخل الواجهة الشمالية الغربية، ستتكون من طابقين، عند تسلق الجبل سيتسلق المئذنة أيضًا، ويشاهد من فوقها القاهرة ومصر، من مات ومن عاش ومن سيأتي ومن سينهزم وينتصر. ترى أي بطل سيأتي من بعده وأي تضحيات؟ من سيتخذها وطنًا، ومن سيموت بأرضها لأنه جاء غازيًا؟ تتكون مئذنته من قاعدة مربعة يعلوها طابق ثانٍ مثمن، ثم قمة المئذنة حيث القبة نصف الكروية كالبدر، سوف يضع المقرنصات الزخرفية على قاعدة المئذنة ليذكِّر من يزوره بمن يكون بدر الجمالي، من أبدع وبنى ومن عمَّر وأنقذ. أما المحراب فسيزينه بالزخارف الجصية، وسيسطر عليه الآيات فوق ستائر على أرضية من الأزهار النباتية. يريد أن يضع الفاتحة، ثم عند المربع الذي تعلوه القبة سيضع الآية 39 من سورة يس (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) وسينقش اسم محمد رسول الله ﷺ، وعلى ثلاث مرات على شكل نجمة ذات ستة رءوس. في تفرعَ النجمة قدرته وفي وحدة النجمة ملكوته وكماله. يرى كل شيء أمامه، في مخيلته كل التفاصيل، عند مدخل المسجد سيضع لوحة من رخام بالخط الكوفي بتاريخ البناء، 478 هـ، وستتكون من خمسة أسطر:

بسم الله الرحمن الرحيم

«مما أمر بعمارة هذا المشهد المبارك فتى مولانا وسيدنا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الأئمة الطاهرين وأبنائه الأكرمين، وسلم تسليمًا إلى يوم الدين السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين عضَّد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته وكيد عدوه وحسدته ابتغاء مرضاة الله».

كلم نفسه اليوم: آه يا بدر! تعشق الجمال والزمرد وتزهد في الدنيا، ساعة ترتدي ثوب المعاصي، وتارة ترتدي ثوب الحكيم المجذوب معًا. لحظة تريد كل كنوز الأرض ومحاسنها وكل ألقاب الدنيا وملكها، ولحظة تتخلى عن كل زينتها ابتغاء مرضاته. من تكون يا جمالي؟ ليتني أعرف..

كان جالسًا يقرأ آيات القرآن على قمة الجبل عندما سمع صوت جعفر.

قال: ماذا يفعل صاحب القدرة في وادي المستضعفين؟

قال بدر: أسكب ضعفي على الأحجار لعلها تربط على قلبي الفارغ.

- شِبْتَ يا بدر وسيطرتْ عليك خطوط الزمن.

- ليت الجسد فقط هو الذي هرم ولكنها الروح أيضًا.

- لِمَ تصلي على الجبل وحدك يا مصري؟

- سئمت الناس ونفاقهم وطمعهم، وامتلأت حتى فاض كأسي من خبث الحكم ولعنة القدرة.

- كنت تشير بعينيك فيلبي البشر، وترفع يديك فتمحو الظلم، وتضرب برجليك فيأتون بكل نفيس.

- اشتاقت روحي لوهن النفس واكتفاء القلب. أبحث عن روحي. هل تعرف مكانها يا رجل؟

ضحك جعفر ضحكة عالية ثم قال: جئت بعد أن خانك جسدك أم قبل؟

- خانني كبدي وقلبي. ضاع الولد بعد الولد، ثم رحلت هي. وبدر واقف كالأهرام لا يضعف ولا يكل.

- ولِمَ تبني مسجدًا هنا في الصحراء وعلى جبل بعيد كله أموات؟! انزل إلى الوادي يا رجل.

- لا أريده رياء للناس ولا أحب الجموع وقت العبادة.

- ماذا ترى في الجبل يا بدر؟

- لا أُتقن الابتهال سوى وحدي، ولا أضعف سوى أمامه. هو يحيط بي.

- الضعف للأنبياء. كلهم ضعفوا وانهزموا لحظات ربما. تذكر قول الله لنوح: (أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) [هود: 46].

- أخاف أن أكون قد قضيت عليه.

- هل قتلته؟

- أقسم إني لم أفعل.

- هل قتله رجالك؟

قال في عنف: بل سأقتلك أنت في اللحظة والتو. لم أقتل ابني يا جعفر. ربما قتلته دون أن أقصد، لا أدري. يضيع مني الواحد تلو الآخر.

- هكذا هي الحرب يا رجل، ألم يعلمك أستاذك أنك مملوك. ليس لك أن تحب ولا أن تتعلق؟! مثلي تمامًا. ولكنك لست مثلي. أنت مملوك للحُكم، وأنا مملوك للحاكم. أنت متعلق بولد وزينة وقوة، وأنا متعلق بمنتهى الجمال وقمة القوة.

- إن كنت تظن أني سأتخلى فقد أصبحت مجنونًا ببقائك هنا يا جعفر.

قال جعفر: بدر لا يتخلى. تعلم أنه يتشبث بالدنيا حتى بعد أن تخونه، ولكنه يبحث هنا في الجبل عن ونس. لن تجده سوى معه.. أنت تعرف.

هوى إلى الأرض ثم سجد، ومسح وجهه بالرمال. لا يتقن الصلاة سوى وحده، فكل صلاة مع الناس محكومة بالبشر، يفكر فيهم حينها وليس فيه. أنا بضعة منك يا فرون، وجدت روحي معك. هنا بين الأموات في وادي المستضعفين وحدي. مسجدي له هو وحده وليس للأنام. سيأتي إليه من ترك ومن يبحث عن الأنس. لن يأتي إليه حاكم ولا سيد. جئتك يا سيد يا أجل يا عالمًا بضعفي وقلة حيلتي وهواني على نفسي. لو كنتُ قد ظلمتُ أولادي فاعف عنهم قبل أن تعفو عني. يعز علي أن أفشل في إصلاح ابني وأنا أصلح كل البلد. أنقذت مصر وهويت به إلى الجحيم. أهو ذنبي يا تُرى؟ وكم ذنبًا اقترفته؟ يا رحيم لا تحاسبني كما أحاسب أمراء مصر، بل حاسبني كما حاسبت الفلاحين، اعف عن أخطائي، وخفض ذنوبي إلى النصف. لن أتناقش معك أنت تعلم ما لا أعلم. لو أردت تأديبي فقد أبصرت، ولو أردت تعليمي فما أقسى هذا الدرس! ولكني لا أستطيع أن أترك ولا أن أضعف. أنت خلقت النفس وتعرف ما يغويها. نهمي يزداد ولا يقل. ولكني أحارب الظلم قدر ما أستطيع. قل لي إني لم أذنب مع من أحب. وإن من ضاع مني لم أدفع به إلى النار.

التفت إلى جعفر ثم قال: أنا.. تسببت في موت كل من أحب؛ شعبان وفرون وأحمد الأوحد.

ضحك جعفر ضحكة عالية ثم أشار بسبابته إلى بدر وقال: أنت أحمق يا مصري. نعم أحمق.

فتح بدر عينيه في فزع، فقال جعفر: أنا من أقول لك الحقيقة لأني لا أخافك. اذبحني هيا. يا بدر يا جمالي هل أعطيت نفسك قدرة الله الذي يقبض الأرواح، ويمهلها يومين أو يزيد؟ أتظن أنك تسيطر على كل شيء؟ ألأنك ظفرت بمن تحب بعد قتل زوجها ظننت أنك تُحيي وتميت؟ هي مواقيت وأيام معدودة لا يعرفها غيره. لا يا جمالي، مات من مات؛ لأن كل نفس ذائقة الموت في يوم معلوم لا يعلمه سواه. لا تسيطر على الحياة يا بدر، ولا يموت فقط من تقتل مع أنك قتلت الكثير. لِمَ قتلت كل هؤلاء؟

- اصمت حتى لا أذبحك.

- ها هو بدر الذي أعرفه. مرحبًا بك في وادي المستضعفين. يا بدر ألا تعرف بعد كل هذا العمر أن وادي المستضعفين ليس على جبل المقطم بل هو حولنا يحيط بالأرض كلها؟ هي دنيانا يا أحمق. هيا أرني قدرتك. لن تقتلني لأني الوحيد الذي أصدقك. هنا في قلبي السيد الأجل وليس أمامي، هو من تَملَّك الفؤاد. ابق يومًا أو اثنين لتغسل روحك المتسخة. يعجبني مسجدك هل تسمح لي بالبقاء بداخله؟

- هل تسألني أنا وهو بيت من بيوت الله؟

- أحسنت القول لأول مرة، ربما هناك أمل، بداخلك روح كالزمرد الثمين الذي تجمعه في جنون، ولكنها مدفونة تحت العفن. لو لم تكن ملك مصر كنت ستصبح مثلي تهيم في الوادي وتتذكر ضعفك وقوته، شوقك وعطاءه، نقصك وهيمنته، استغاثتك واستجابته. ابق هنا. مرحبًا بك في وادي المستضعفين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل يلهث السيد الأجل؟ هل التدريب على السيف مع ابنه محمد الأفضل شاهنشاه أصبح شاقًّا؟ غضبه وإحباطه من جسده لا ينتهي.

قال محمد في خجل وهو يضع السيف على الأرض: يكفي اليوم يا مولاي.

فقال بدر: لا. نُكمل.. هل تشفق عليَّ من المشقة يا ولد؟

كتم جعفر ابتسامه وهو يشاهد والده يجاهد جسده كما يجاهد التَّقي نفسه. لطالما أعجبته هيبة والده والوجل الذي يحيطه، ولكنه لم يقترب منه ولو مرة. كان قليل الكلام عن المشاعر والذكريات. وجعفر قلبه مع الحلوى والفستق واللوز والعسل والمسك والزعفران. يهاب والده ولكنه يحبه، كما يعرف أن والده يحبه بطريقته الخاصة العجيبة المتفردة والمعقدة.

كيف يوقف بدر رئتيه عن اللهث؟ لا يعرف. كتم بدر أنفاسه ثم جلس قائلًا فجأة: حان وقت دخول الموانئ الشامية كلها، حتى ولو لم ننجح في دخول دمشق فلنحاصرها من كل الجوانب حتى تئول إلينا. سأخرج بالجيش بعد أقل من شهر، وأنت يا محمد تكون مسئولًا عن مصر حتى عودتي.

صمت محمد.. يتمنى أن يخبر والده أنه يفضل بقاءه من أجل صحته، فالآن ربما ترهقه الرحلة ويرهقه القتال أكثر من الماضي، ولكنه لا يجرؤ.

نظر إليه بدر معاتبًا وكأنه قرأ أفكاره. فقال محمد بسرعة: يا أبي ومولاي يا سيدي، أتمنى أن تبعث أحد قوادك. مهمتك في مصر أجلُّ وأصعبُ، أخاف..

- مِمَّ يخاف ابن بدر الجمالي يا ولد؟

نظر حوله ثم قال: أخاف من الخليفة ومن ضجره من سيطرتك على كل الأمور وحُب العامة لك. هو بشر والبشر يغار ويطمع.

أشار إليه بدر بالجلوس بجانبه ثم قال: محمد، هذا البلد وطنك، تحارب من أجله وتبقى فيه. بعد عمر أنت تمسك زمام الأمور من بعدي بحكمة وعدل، وبعد عمر طويل عندما يعود الخليفة إلى ربه من يأتي من بعده يا ترى؟

قال محمد: ابنه الكبير نزار.

ابتسم بدر وقال: وماذا عن حفيدي ابن أختك أحمد؟ للخليفة ولدان، أحدهما يصلح والآخر لا يصلح. من يصلح هو ابن أختك أحمد.

- مولاي.. كيف لي أن أتحكم في هذا؟

قال بدر في قوة: عندما تثق أنك تستطيع التحكم تتحكم، وعندما تنزع من صدرك الخوف تسيطر. من اليوم أريدك معي في كل الأمور.

قال محمد في رجاء: أتمنى فقط أن تبعث أحد قوادك يا مولاي.

- سأفكر في الأمر.

تتبع خطوات عامر بن حمزة، كان شغله الشاغل. بعث أفظغين بنفسه إلى دمشق يبحث عن حمزة. لكل رجل بعض الضعف، ولكل رجل مدخل؛ كنوز، نساء، رجال، قوة سلطة، حكم، وهو يعرف الآن مدخل عامر. لم يتبق سوى أن يصيده ويستدرجه إلى حيث يمكن أن يقبض عليه. يحتاج إلى طفل بارع الجمال، شديد البراءة، وسوف يتأكد بنفسه من أن الطفل لا يُمس بسوء. لو مثلًا طلب الطفل اللجوء إلى عامر وبحث هو عنه..

قرر أن يبعث بقائده ناصر الدولة الجيوشي لفتح موانئ صور وصيدا وجبيل، ثم يتجه إلى بعلبك وحمص. ناصر الدولة أحد رجاله المخلصين دربه بنفسه. سيبقى هو في مصر، لديه الكثير من العمل هنا والبناء. لن يفكر أنه لم يعد يقوى على الرحلة والخروج بجيشه في السَّحر والمناورات والجري والقتال، لا، هذا ضلال. هو قادر دومًا. لم يزل يتدرب كل يوم.

أفضل أوقات الغواية هي وقت الحروب، ينبثق الطمع من الأعماق ويخلع البشر الأقنعة. سيشيع بين الناس أن ناصر الدولة قد أسر طفلًا بارع الجمال لم يُمس، وهو من أهل صيدا. وستستغيث عائلة الطفل بالسلاجقة وتشتت ملكهم وكل من يعاونه. وسيخرج عامر من مخبئه ليتأكد من جمال الطفل، مجازفة ولكنها كل ما يستطيع. ستعم الفوضى وتمتزج الحقائق وتختلط الأمور على الناس، ويُخرج عامر ضعفه الكامن. لو ظهر سيدفع أمير الجيوش أي مبلغ من المال لمن يأتي به حيًّا.

بعث إليه قائده مخبرًا إياه أنه نجح في دخول كل الموانئ وأن أهل حمص دخلوا في طاعته، فبعث إليه بدر الجمالي بالطوق والمال وهو ينتظر الخبر من أفظغين يومًا وراء يوم. جاءه الخبر بعد أسبوع. عامر بعث أحد رجاله ليشتري الطفل من رجال ناصر الدولة، اشتراه وأخذه حيث يختبئ عامر في صيدا، تتبعه الرجال في حرص شديد ثم قبضوا عليه وهو الآن في الطريق إلى مصر.

نام بدر ليلتها في راحة لم يشعر بها منذ موت فرون. لم يزل الجسد الخبيث سجنًا بقضبان من لهب، لا هو يستطيع لمسها ولا حتى الاقتراب منها، ولم يزل العمر كالهم الثقيل، ولم تزل الأحجار تطبق على صدره ولكنه نام وابتسم وتذكرها، يتذكرها. دومًا لحظة رآها بعد خمسة أعوام وهي تنظر إليه من وراء الخمار. في نظرتها كلام وعذاب وشوق وارتباك. تحب بإتقان كما يحارب هو، وتبني بداخله الأسوار حولها لتحميها كما يبني هو، تشيد خلوة للعبادة وأخرى للعشق، وثالثة للإخلاص. ثم رأى أمامه كف أحمد ابنه وهو صغير، يمد كفه ليمسك بكف والده. نظر إلى كف يده والندبة التي تركها السيف الذي سلطه ابنه عليه. آه من هذه الأيام القاسية! يتمنى أن يسامحه الله. هو رحيم. عندما يلتقون مرة أخرى سوف ينزع من صدورهم الغل، سيلتقون إخوانًا على سرر. أجمل وعود الجنة هذا اللقاء المؤجل. في الجنة لا يريد سوى اللقاء بها وبشعبان وأحمد متقابلين سواسية، أحبة بلا خوف ولا شعور بالذنب. عامر.. لقاؤك أنت أيضًا انتصار كالجنة. بعد أعوام من الشوق إلى ذبحك.

نكس عامر رأسه في سجن بدر الجمالي، طالت لحيته واتسخت بالتراب، انتزعوا منه كل جوهر وألبسوه ثيابًا من الصوف القذر. ولكنَّ عينيه لا تباليان يمسح أركان السجن بعينيه كأنه لا يرى لها

حدودًا. دخل عليه بدر الجمالي وفتح محبسه وجلس أمامه في عظمة الملوك بأغلى ثيابه المرصعة بالزمرد والذهب وطيلسان داعي الدعاة وكافل قضاة المسلمين. تعمد أن يذهب اليوم في أجمل صوره وأن يبدو عامر أمامه ذليلًا تافهًا.

- عامر بن حمزة.. غريب أن أبحث عنك عشر سنوات أو أكثر، ثم يدلني عليك صبي لم يتعد العاشرة، طمعت أنت في جسده. أليست الدنيا مليئة بالعبث؟

- لا أعرف جُرمي يا أمير الجيوش ولا لِمَ تبحث عني.

- فلنقل إن جُرمك هو تلصصك على الأطفال. ما رأيك؟ ألا يكفي؟ هذا جرم يحتاج إلى الذبح والتجريس؟

التقت أعينهما ثم قال عامر: عند إثباته نعم. ولكني لا أرى إثباتًا عند أمير الجيوش.

- بل قل السيد الأجل. أريد أن أسمعها منك.. سيدك وسيد سيدك.

- ولكني أعيش حيث لم تستطع الدخول.. دمشق.

- ولكني وجدتك حيث استطعت الدخول في بعلبك..

- تنوي تعذيبي ساعة، يومًا، ثلاثة أيام، سنة، لا يهم، فجرحك يا أمير أعمق، وعذابك في فلذة الكبد وقرة العين.

- أنا أعذبك بعض الوقت، ثم يعذبك الله بقية الدهر. لا تقلق.

- الرافضي يخبرني بما سيفعل الله بي.. هذه دنيا العبث كما قلت.

- الرافضي يخبرك يا عامر أنك إلى الجحيم في الدنيا والآخرة.

- وماذا فعلت يا أمير؟ أنا بريء من كل جُرم. من أمسك بيد ابنك وأرغمه على محاولة قتل أبيه؟ لا أحد. من طلب منه أن يستمع وينصت؟ إلا لو كان كلام مسعود قد وجد هوى في نفسه. من المذنب؟ الابن أم عامر بن حمزة الذي بكى على والده طوال عمره، وأي أب أفضل وأي ابن أبر؟ أما زوجتك فأنا لم أطلب منها أن تثق في البشر كالملائكة، ولا أن تبعد الحراس لتعانق الطفلة كأنها بين أركان الجنة حيث الطمأنينة والسلام. وعزيزة زوجها هو من حثها على القتل، والغريب أن زوجتك كانت تطلب منها أن تطيع زوجها وترضيه ففعلت. ما ذنبي أنا؟ وحرب السلاجقة في مصر هي حرب بها المنتصر والمنهزم، والعدو في الحرب صديق. والصديق الخائن هو العدو الحق.

- يا عامر تعلمت منذ كنت صغيرًا أن القتل أسهل الذنوب، وأن الفتنة أكبر المعاصي. ما قضى على ثلثي سكان هذه البلد لم يكن القتل بل الفتنة، وما يمحو الأثر وينزع المُلك ليست الحروب بل الفتنة. وأنت فتنتك تبلغ البحر عمقًا. لِمَ كل هذا الكُره؟ أهو الانتقام لوالدك أم إحساس بالنقصان بداخلك؟ رغبة في إثبات أنك الأفضل والأقوى. هي منافسة بين رجلين وليس أكثر. خذ قلبي وعيني وسيبقى بدر الجمالي رجلًا حافظ على الأرض وحارب الفتنة، وسيبقى عامر رجلًا أشعل الفتنة واعتدى على الأطفال. هناك فرق كبير من الرجلين. الرجل يا عامر لا ينهزم بضياع فلذة كبده بقدر ما ينهزم

بخراب نفسه ونقصانها. لكم كنت أتمنى أن أبقي عليك هنا في سجني عامًا وراء عام لترى ما أفعل، وما أبني، وكيف أينعت ثمرة زرعتها بهذه الأرض، وكيف وصلت أحلامي إلى السماء، ولكني لا بد أن أقتلك، فوجودك أمامي يشغلني عن البناء والعمارة والاهتمام بأهل البلد. أخاف لو سلخت جلدك قبل قتلك أن يغفر لك الله بعض الذنوب، فسوف أتركك في سجنك تموت جوعًا. لا تستحق عناء الذبح ولا المال الذي سأعطيه للجندي الذي سيذبحك. يومًا وراء يوم تموت عطشًا وجوعًا، وترجو وتتألم وتتذكر ذنوبك أو لا تتذكر، فمثلك لا يدرك ولا يعرف.

بدر الجمالي يُعمر ويحفر اسمه على الأسوار والأبواب وبين ألسنة الشعراء والمريدين. قرر تحصين القاهرة وتوسيعها، فقد تغيرت بعد أن سمح لأهل مصر من الأثرياء أن يتخذوها بيتًا ومسكنًا، فامتدت إلى ما بعد جامع الحاكم بأمر الله. ومن يستطيع أن يبني للقاهرة أبوابًا تحمي من السلاجقة والأعداء جميعًا؟ اقترح عليه محمد ابنه أن يستعين بمشيِّد عمائر من أهل مصر فهم يتقنون البناء، وقد استعان بهم في مسجده كما استعان بهم أحمد بن طولون في مسجده أيضًا. ولكن بدرًا لم يكن يريد أن يبني مسجدًا، كان يريد أن يبني حاجزًا كالذي يبنيه الراهب بين روحه والبشر، هو حاجز لا يمكن هدمه. فقرر أن يستعين بثلاثة رهبان من مدينة الرها. جاء بهم خصيصًا إلى مصر وأخبرهم أن أبواب جوهر الصقلي قد تهدمت، وأنه يريد أن يبني أبوابًا جديدة للقاهرة بأبراج تمنع الغزاة. يريد أبوابًا لا تتهدم كأبواب جوهر الصقلي. يريد أن يذكر العامة اسمه بعد ألف عام أو يزيد. أتى بالثلاثة الرهبان الذين يبنون الأديرة في الرها. ثم قال لهم: أريد تحصين القاهرة بأبواب كأبواب الأديرة بل أقوى وأوسع وأطول. حتى لا يفلح أحد في دخول القاهرة قط، حتى ولو بعد آلاف الأعوام. حتى عندما تغلق أبوابها يصبح الدخول إليها كدخول الجنة للعاصي.

قال أحدهم: وماذا سيفعل راهب في الحروب يا مولاي؟

وضع يده على قلب الراهب ثم قال: شيدت حول قلبك الأبواب المغلقة، فلا يدخله حسد، ولا غل ولا طمع، ثم شيدتم حول الدير أسوارًا تحميكم من غواية الدنيا الخبيثة. شيدوا حول القاهرة أبوابًا جديدة تحميها من الطمع، ولا تهتموا أنتم بما في قلوبنا.

شيد بابًا جديدًا وأطلق عليه «باب العز» بدلًا من «باب النصر» الذي بناه جوهر الصقلي، ولكن العامة لم تقبل بتغيير اسم الباب فأصبحوا يطلقون عليه «باب النصر» حتى يتسنى للجيوش المنتصرة الدخول منه. بنى بابًا مربعًا ضخمًا تعلوه فتحة محاطة بإفريز يحيط ببرجي الباب. والأهم أنه نقش عليه اسم المستنصر واسم بدر الجمالي. وكتب أعلى الباب بالخط الكوفي «لا إله إلا الله محمد رسول الله، علي ولي الله». هنا كان بدر ولم يزل. حتى لو خانه الجسد، فالعمارة تحيا بعد فناء البشر، العمارة لا تخون، كما لم يخن مسجد أحمد بن طولون، بقي حتى بعد ذهاب أحمد. وبقي الهرم وراح الملك. فهم هؤلاء القدماء وبدر يتعلم سريعًا، روحه مع روح القدماء ومع مُشيد الهرم الأكبر، ومشيد مسجد أحمد بن طولون.

أنشأ باب الفتوح أيضًا على شكل نصف دائرة بجوار جامع الحاكم بأمر الله، وأدخل الجامع في حيز القاهرة. ووضع برجين، وبين البوابتين بنى سورًا بشرفات ومزاغل ليلقي بالنار والزيت الحار على من يحاول اقتحام السور. ثم بنى باب زويلة وبُرجي الباب، ثم بنى على بابه زلاقة من الحجر الصوان

حتى لا تثبت عليه خيول جيوش الأعداء. بعد أن انتهى من أبواب القاهرة الثلاثة قرر أن يذهب إلى ساحرة الهرم بحنس، لا بد أن تعرف أنه فخور بما بنى وبانتهائه من أمر عامر. فلِمَ كل هذا العجز في القلب، ولِمَ تنفرط روحه من بين أضلعه كل يوم؟

نظرت إليه بعينيها اللامعتين في ظلام الأيام وقالت: جئت يا بدر كنت أنتظرك، بحنس بضعة من جدتها، وجدتها بضعة منها، هي موجودة دومًا تعرف ما كان وما مضى. انظر إليّ.

نظر إليها وهوى إلى الأرض. لم تر هذا العذاب في عيني رجلٍ قط، حتى لم تره في عيني أحمد بن طولون والمرارة التي أصابته لم تصل إلى هذا الحد. رأت الظلام في بريق مقلتيه، واليأس في أطرافه، وشعرت بالسجن الذي يحتوي أضلعه، فيحمل القضبان على ظهره طوال اليوم. رددت كلمات قالتها جدتها من قبل: ابتلاؤك ليس ككل ابتلاء، عندما يفقد القلب الرغبة في الاستمرار يترك العنان للنفس لتسحب الأنفاس. أخبرني الآن؟ أعجزك أكبر أم عجز المستنصر؟ أحزنك أعمق أم حزن أحمد بن طولون؟

قال في ضعف: عجزي لا قبل لكِ بوصفه.

ابتسمت ثم قالت: يا أمير الجيوش.. لم تهزمك جيوش ولم يقف أمامك والٍ ولا خليفة. بدر الجمالي دومًا ينتصر في كل المعارك.

- هزمني ابني وهزمني موتها. ولد تلو الآخر أفقده كما يفقد الشيخ حبات سبحته المعطرة فينحني ليبحث عنها ويلملم الحبات، ويكتشف أنه لا بد أن يستمر منحنيًا لا يقوى على النهوض. أحدهم يموت والثاني يخون ثم يموت. ألحزن على من خان أكثر، أم على من مات بريئًا؟ أما فرون فكانت كل ما هو جميل من حولي. رحلت وتركت دونها القفر.

رددت كلمات قالتها منذ زمن: اجعل عشقك صافيًا وغايتك نصب عينيك.

قال في إعياء: لقد فعلت.

فقالت الساحرة: قالت جدتي في الماضي لأحمد بن طولون إن العشق يهزم دومًا، وعشق الولد يفتت القلب، وينتزع الأوردة من الأعماق. الحزن للعظماء والهم الثقيل لا تحمله سوى القلوب الصلبة، عندما يُثقل البؤس قلبك اعرف أنك ارتقيت وكأنك من الملوك القدماء. أما حبيبتك فباقية بداخلك، كانت تقول إنك بضعة منها. ابحث يا بدر عنها بداخلك لا تجعل الظلام يخيم فيفقدك الطريق إليها. ستجد الطريق إليها وتعرفه. وهي معك لم تترك لك فرصة لتبحث لأنها كانت تغمرك بعطائها، وأحيانًا العطاء يشل قدمينا فلا نحتاج إلى النهوض، أما اليوم فلديك الفرصة لتقوم وتسير في الطريق وتبحث بداخلك عنها. بدر الجمالي الذي حافظ على الأرض والذهب، انجذب إليها كما ينجذب الموج إلى القمر فأصبح منها ولها. قلت لك من قبل، هناك بلاد يحارب من أجلها أبناؤها، ويحبونها لأنهم وُلدوا بها، وهذه بلاد كثيرة. وهناك بلد واحد على هذا الكون يـأتي إليه الغريب فيغوص في الأعماق ولا يقوى على الخروج. تريد البقاء أنت وابنك وأحفادك وكل من أتيت بهم من بلادك القديمة؛ أعرف.

نظر إلى عينيها رأى بهما بحارًا وأحجارًا، انعكس الضوء فوجد بداخل عينيها فرون تطفو على سطح المياه تدعوه إلى الغوص معها، كانت مبتسمة مطمئنة، ووضع يده على قلبه ثم قام وعيناه لا تتركان

عيني الساحرة.

قالت في رقة: السيد الأجل، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين، أبو النجم بدر الجمالي مرحبًا بك مع القدماء. يقدمون إليك التحية. ليس كل من حكم منهم، ولا كل من يبني ملك، وليس كل من يحارب هو أمير جيوش، ولا كل من يبقى ويورث أبناءه يصبح من القدماء، مصريًّا، ولكنك منهم، اختاروك بعد مائة عام أو يزيد، وستبقى ألف عام أو يزيد، هناك أناس كالأهرام ما يشيدونه لا يمكن هدمه. أتبكي أحيانًا يا ملك؟

- لست ملكًا.. ولا أفهم لغة القدماء.

- بل أصبحت ملكًا، أهل مصر من يقررون لو كنت ملكًا أم لا. أما لغة القدماء ففي القلب لا اللسان. سألتك لو بكيت.

- أبدًا لم أبكِ.

- لأنك لا تريد أم لا تستطيع.

- الاثنان معا ربما.

- عندما يستقر الهم يصعب تحريكه أو مقاومته. أشفق عليك بقدر حبي لك يا ملك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما فعله المستنصر بالله الخليفة لا يغتفر، وكيف يتملص من قبضة يد القدر بعد عشرين عامًا؟ هل يجرؤ؟ عندما دخل بدر على الخليفة اليوم لم يَنْحن ولا قبل ثيابه، بل قال في حدة: مولاي الخليفة جهز الاحتفال بالمولد داخل قصره مع أن الاحتفال دومًا يخططه الوزير!

ابتسم المستنصر وقال في رفق: أليس للخليفة القدرة حتى على تجهيز الاحتفال يا بدر يا فتى المستنصر؟

- يعز علي أن تستعمل فتاك وقت الجد، وتنساه وقت الاحتفالات. أهل مصر لا يحتفلون دون وجود أمير الجيوش منذ عشرين عامًا أو يزيد.

- ألم يأت الوقت ليتذكروا من الخليفة؟

نظر إليه بدر وهو يعرف ما ينوي وما يقصد. ثم قال في هدوء: ابني محمد أبو القاسم يقول إن الخليفة لا يسمح له بحضور الاجتماعات في القصر مع أنه نائب عني عندما أكون خارج البلاد أو لديَّ أمر مهم. ما بال الخليفة والإمام هل تغير على رجله وأمير جيوشه؟

قال المستنصر: لم يحدث يا بدر ولكن الأيام تتغير ولكل زمن دولة ورجال كما قالها القائد جوهر الصقلي. فتح مصر وبنى القاهرة والأزهر، ولكنه توارى عن الأنظار ليُبقي على الخلافة. أتفهم ما أقصد؟ لو استمر هو يرافق الخليفة لبدأ الناس يدعون له ليصبح هو الخليفة. مر عشرون عامًا يا بدر.. وأنت تحكم مصر..

ابتسم بدر ابتسامة باهتة ثم قال في صوت هادئ ويقين: لا وجود لخليفة دون أمير جيوش. نفخت الروح في دولتك يا مولاي مائة عام أو يزيد، أنا لست جوهر الصقلي، وابني ليس حسين الصقلي. لا هو سيموت مقتولًا من الخليفة، ولا أنا سأتوارى عن الأنظار. لو أردت أن أطيح بالخليفة لفعلت..

فتح المستنصر فمه في فزع.. فأكمل بدر: كما حاول ابن حمدان من قبل وكما تآمر عليك وزير وراء وزير، ولكن بدر لا يخون العهد. لا احتفالات في مصر دون أمير الجيوش، ولا قرار يؤخذ في الدولة دون استشارتي، وابني الأفضل أبو القاسم محمد خليفتي ومساعدي. الخليفة يعرف أن البلاد لن تتحمل أزمات، ويعرف ماذا يريد أهل مصر.

- تهددني وتتجرأ عليَّ وكأنني لست خليفتك، لم أتوقع هذا يا أمير. كنت أفكر في راحتك. فقدت الابن والزوجة وأنهكتك الحروب، فظننت أنك تحتاج إلى بعض الراحة.

- بدر لا تُنهكه حروب ولا تكسره نوائب الدهر، اعتادها ويعرفها. أهل مصر كلهم يهتفون باسمي وينتظرون قدومي كل احتفال وكل مولد، يعرفونني يا مولاي.

- تقصد أنهم لا يعرفون خليفتهم؟

- بل أقصد أن الخليفة يقوى بقائد جيوشه. أشكرك أنك فكرت في صحتي. ولكنه تكليف يا مولاي ومسئولية عليّ القيام بها. فليحفظ الله لنا الخليفة ويعينه.

عندما خرج من عند الخليفة، كتم غضبه، ثم أمر ابنه محمد أبو القاسم أن يعين العيون داخل القصر، الكثير من العيون، وأن يحاصر قصر الخليفة بجنوده ليلًا ونهارًا.

اليوم افتقدها.. بعد عشر سنوات من موتها لم يزل يحن كل يوم، يومًا يريد أن يعانقها بقوة، ويومًا يريد أن يحكي لها، ويومًا يلومها على أنها وثقت في البشر. كيف تموتين يا فرون؟ كيف تتركينني وحدي من أجل نشر الخير؟ لِمَ لم تفكري فيَّ؟ ولِمَ لم أمنعك؟ هفت عليه بشدة كما يشتاق الرجل إلى طعم السكر في فمه بعد أعوام من الفقر والجوع. آه من العسل في فمك يا ابنة الحلواني! فتح يديه ومدد ذراعيه كأنه يحتضنها، ها هو الجسد يلعب الألاعيب، يشيخ تارة، ثم يشتاق تارة كالفتى العاشق. «يا خائن.. ليتني أنتهي منك، يا جسد بلا عقل..». قال اسمها واستعرت النيران في أضلعه. يريدها كأول مرة. تفيض الدنيا من جنباتها، ويصبح الكون كالغسق الذي لا ينتهي في غيابها. لم يزل يشم رائحتها ويرى ابتسامتها، يسمع صوتها ويشعر بذراعيها حوله. لِمَ يشتهيها وقت غضبه؟ غريب أمره، لا أمل له في السلوى عنها إلا بلقائها.

قال في صوت مسموع وهو يحدثها: يقولون بدر الجمالي شاخ يا فرون. ولا يعرفون أن الروح هربت منه بغيابك، وأن جسد بدر لا يشيخ أبدًا.

لم يفهم جعفر والده قط. كان يشاهده من على بعد ويهاب حضوره وإطلالته، هو السيد الأجلُّ حقًّا. عندما يرتدي الأبيض المطعم بالذهب الخالص ويسفر ويسطع، فتخشع الأبصار وترفع العامة أيديها في وجل وحب، يدعون له متناسين غيره، ويهتفون باسمه كأنه صديق حميم، ثم يهتفون بكلمات عن الشيخ الجليل والداعي والقاضي العادل. كل عيد وكل مولد يخرج إليهم مع الخليفة، ونوره يطفئ كل نور. يخر أمامه محمد الأفضل شاهنشاه، ومعه جعفر المظفر يلثمان ثيابه وثياب الخليفة، وتستمر العامة في الهتاف كأن كل رجل وكل امرأة وكل طفل يريد أن يعانق بدر الجمالي ويقبله. يحب أن يسير في الأسواق في موكبه العظيم، وحدث أمام جعفر أنه شاهد النساء تصيح باسمه وتلقي بنفسها على قدميه: أنقذت أولادنا يا أمير الجيوش. لك الأمان والهناء.

يومًا اجتمع العامة حوله، فرفع يده للجنود ليتركوهم، فشدوه إليهم، وحملوه على ظهورهم، وانهالت عليه القُبل من كل اتجاه حتى كاد يختنق ولم يُبالِ. تدخل الجنود فنهاهم عن التدخل، ثم أمرهم بتوزيع الدنانير الذهبية على العامة، هي دنانير باسمه، اسمه في كل ركن ودكان في مصر، في وثائق الزواج، في عقود البيع والشراء، على الأموال، نقش اسمه على المباني والطرز، سيف الإسلام، ناصر الإمام، السيد الأجلّ، أمير الجيوش داعي الدعاة.. كان لا ينام لو لم يقرأ اسمه عشرات المرات في اليوم. وكأنه يخط بيديه مكانه في البلاد إلى أبد الآبدين. قال لابنه: هكذا فعل القدماء. وهو يسير على دربهم. لذا هابه جعفر وكان يتكلم معه بحساب، ليس لأنه السيد الأجل فحسب، ولكن لأنه لم يفهم تناقض شخصية والده، ولا عزوفه عن النساء وتضرعه إلى الله، ثم لم يستوعب سبب ارتدائه أفضل الثياب وشرائه الذهب والجواهر، وولعه بنفسه وكبريائه، ورغبته أن يرى اسمه في كل مكان وعلى كل الألسنة. هل والده فرعون موسى أم النبي يعقوب؟ أيريد بدر أن يبلغ الجبال طولًا ويخترق

الأرض، أم أن يعمر ما بينه وبين الله أعلى الجبل بعيدًا عن كل الأنام؟ لم يفهم قط. واليوم عندما استدعاه والده للتحدث معه كان خائفًا، يرتجف حتى وهو في العشرين. وما زاد خوفه أنه استدعاه في مسجده أعلى جبل المقطم. سمع عن موت أحمد الأوحد. البعض يقول إن والده قتله، والبعض يقول إن أحمد قتل نفسه، والكثيرون يقولون إن أحمد قُتل من أتباعه في السجن حتى لا يفضح أمرهم. لم يكن يعرف أحمد ولم يُرد أحمد أن يعرفه، كان يوبخه وهو صغير، ويعيره بأمه ابنة الحلواني، ويقول له إنه أبدًا لن يصبح جنديًّا كالأب والأخ الأكبر. فتحاشى الكلام معه وأفضى إلى حفصة واعتبرها أمه. أفاضت عليه بحنانها وبعطائها فأصبح يأنس بها وبوجودها، وأشفق عليه محمد الأفضل شاهنشاه، وكان يصطحبه في رحلات الصيد، ويحن عليه إن استطاع.

وقف بدر؛ والده خارج المسجد يستمع إلى شدو الصوفي بداخله:

يا كل كلي وأهلي

عند انكساري وذلي

مالي سوى الروح خذها

والروح جهد المُقلِّ

لم يستأذن، ولم يحاول الدخول حتى انتهى الشادي من الغناء، ثم دق باب المسجد، فسمع صوت والده: ماذا بك يا جعفر؟ هذا بيت الله، ادخل يا ولد.

دخل وانحنى يقبل يد والده ثم جلس أمامه ووجهه مثبت على الأرض. صرف بدر الحضور. كان يرتدي الصوف الباهت بلا حلي ولا زينة. بدا وكأنه أحد المجاذيب اليوم، عيناه تتضرعان إلى الأفق وشعره الأبيض ولحيته البيضاء تشيان بحكمة وزهد. كان حافي القدمين زائغ العينين يُسبِّح بصوت مسموع. عندما انتهى نظر إلى ابنه وقال: أتخافني يا جعفر؟

- ومن لا يخاف السيد الأجل يا مولاي؟

ابتسم وقال: والدتك.

- معذرة!

- والدتك لم تكن تخاف السيد الأجل. أتتذكرها؟

- أتذكرها.. أتذكر حنانها ورقَّتها وثوبها الأبيض، كانت من عالم غير عالمنا.

- هذا صحيح. من عالم غير عالمنا. أتعرف كم أفتقدها؟

فتح فمه في ذهول من كلمات لم يتوقعها من والده ولم ينطق.

فأكمل بدر وكأنه يتحدث مع نفسه: الجسد سجن خبيث يحيط البصيرة كالأسوار العالية التي تحصن المدن. نحاول أن نحلق بعيدًا عنه ولا نستطيع. أحيانًا أتمنى أن أشعر بها بروحي فقط ولكني أشتاق إليها بجسدي. كأنني لو لم ألمسها بيدي لا يستوي العمر. لا بأس. فلنتحدث عنك أنت..

بلع جعفر ريقه ثم قال: في قصرنا أجمل الجواري يا مولاي. لا أدريلِمَ لا تقضي لياليَك مع إحداهن يا أبي...

- كأنك لم تفهم ما أقول. قلت لك أشتاق إلى فرون، لو اشتقت إلى النجم في السماء، كيف ترضى بنبتة صبار؟ لا نساء بعدها ولا وقت لدي للنساء.

ثم ابتسم بدر وقال: ولكنَّ أخاك لديه سبعمائة جارية كيف هذا لا أدري، مع أنه ذو عقل جبار ذكي وصادق! دومًا أقول الرجل الذكي لا يُكثر من الجواري. ربما يحب سماع موسيقاهن أو شرب كأس المياه من يد لينة جميلة.. لا أعرف. نتكلم عنك أنت يا جعفر وليس عن محمد. هل يضايقك أن محمدًا سيخلفني؟

قال بلا تفكير: لا يا أبي هو نعم الأخ.

- هو نبتة طيبة. يفهم في الحكم ويعرف أكثر منك.. هذا أكيد. وأنت؟

- أنا ماذا؟

- ماذا تنوي؟

- ما تريده أنت يا أبي.

- بل ما تريده أنت يا جعفر؛ تتقن السيف وركوب الخيل. ولكني فقدت ولدين ولا أريد أن أفقد ما تبقى. والدتك كانت تريد لابن بدر الجمالي أن يكون حلوانيًّا.. أتصدق هذا؟

ارتجف وهو يثبت نظره إلى الأرض، فتفحصه الأب ثم قال: بلغني أنك تجيد صُنع الحلوى. حفصة علمتك وأمك علمتك.

قال مسرعًا: ولكني أجيد السيف أكثر يا مولاي.

- قلبك مع الحلوى يا جعفر.

- صناعة الحلوى للنساء يا مولاي.

- الحلواني كان نعم الرجال. سأفكر في الأمر.

نظر إليه جعفر في فزع فقال الأب: لِمَ الخوف؟ قلت لك سأفكر في أمر الحلوى، تريد أن تعمل مع أبناء الصقلي أعرف كل شيء.

- أبي.. اغفر لي.

ابتسم قائلًا: أغفر لك أنك أخفيت الأمر عني، أم أغفر لك حُبك لابنة خالك السُّنية ابنة شقيق فرون التي تسافر لها الإسكندرية كل حين؟

بُهت جعفر وارتعش ولم ينطق.

ربت الأب على كتفه قائلًا: غفرت لك الذنبين، ذنب حب ابنة الحلواني، وذنب حب صناعة الحلوى. فلو كنت أحببت ابنة الحلواني فقد أحببت أنا أيضًا ابنة حلواني. ولو كنت أحببت صناعة الحلوى فقد أحببت أمك عندما صنعتها لي.

لم يتوقع أن يسمع هذه الكلمات من والده. بقي ساكنًا لا يعرف ما يقول. فقال الأب: المصرية كفرس النهر لا تتقبل أن يشاركها أحد في زوجها، ولا تحب أن تجود بما لها. هل رأيت فرس النهر وشاهدته من قبل؟ ربما يبدو لطيفًا للوهلة الأولى ولكنه أكثر حيوانات الأرض عدوانية إذا شعر بالتهديد. أمستعد أنت أن تتحمل هذا؟

هز جعفر رأسه في حماس. فقال الأب: ستضحي بكل جواري القصر؟!

- نعم بلا تفكير.

ابتسم بدر، ثم أشار إليه بالرحيل قائلًا: لك ما تريد. اتركني الآن في خلوتي.

- ستوافق يا مولاي؟

- سأفكر في الأمر.

- هذا من رحمتك.

اتجه بدر بعينيه إلى الأفق وردد أشعار الحلاج.. «ما لي سوى الروح خُذها.. عند انكساري وذلي» يا رب قد وهن الجسد حتى وإن أظهرت قوته أمام الناس، فقوِّ الروح وارتق بها، لم يعد لدي غيرها. أنا هنا معك أضعف من مملوكٍ أرمني لم يبلغ الثانية عشرة، يتيم في بلاد غريبة بلا جاه ولا مال، أنا هنا فأعطني نفحة من رضاك أكمل بها أيامي.. أراك حولي وأشعر بك، ولكني لا آتي إليك بكل قلبي وروحي سوى أعلى الجبل، وحدي أضحي حينها بكل أخضر وكل الأشجار لأسمع صوتك وأشعر بقربك، كما فعل جبل الطور عندما ضحى بكل الأشجار حتى يختاره الله ليكلم موسى من ورائه. أنا كالجبل اليوم قفر، أصفر، عارٍ، هزيل، منكشف الجسد والنفس أمامك. خذني إليك وسامحني على غرور النفس، لو استطعت كنتٍ أزيل عنها ثياب الكبرياء لتحظى بقربك، ولكني لا أستطيع، زينة الدنيا تشبع بعض نفسي وليس كلها، ولكني لا أستطيع أن أسيطر على نهمي للعلا ولا اختراق المُلك إلى قلبي، أصبحت أنتظر الثناء عليَّ وسماع اسمي كما ينتظر الرضيع لبن أمه، لا فِطام لي عن قريب مهما حاولت. ولكني ألوذ إليك من نفسي وأطلبِ رحمتك المهيمنة، وحدي تقبلني كما أنا كما تتقبل الأم ابنها المذنب، وعسى أن يشفع لي أني لم أنسكَ وسط طمعي وغروري ورغبتي في الـمُلك. أردت الـمُلك وأنا أعرف أنك أنت الـمَلك، طمعت في مصر وأنا أعرف أنك صاحبها. هل ستصفح عن الخادم الذي تمنى أن يتذوق طعام العظماء؟ وهو يعرف أنه ليس ملكه؟ ها أنا أتمنى أن يخلفني ابني، وابن ابني، وأن يُنقش اسم بدر على مصر إلى أبد الآبدين، ها أنا أسعى للخلود كما سعى الملوك القدماء، ولكن فليشفع لي أني أعرف أني لست سوى عبد، وأن انكساري أمامك صدق وليس ادعاء. فرون تقول إن الله يحب عبده الصادق، وبدر لم يكذب عليك.

في اليوم التالي هرول جعفر إلى حبيبته يخبرها أن والده وافق على زواجه منها، وأنه سيترك السيف ويتفرغ للحلوى بعد زواجهما ليصنعا الحلوى لكل أهل مصر كما كان الحال من قبل. أعطته قبلة

لأول مرة، وعاد إلى قصره كأن العالم اعتدل واستقام. استدعاه والده ليتكلم معه في شأن الصعيد ومحصول القصب. دخل عليه في نفس حماسه. رآه رجلًا غير رجل الأمس. يرتدي الطيلسان المطعم بالذهب ورداؤه غارق في الزمرد الذي يحبه. لثم الأرض أمامه ثم استمع إلى كل أوامره وقال: هو أسعد يوم في عمري يا أبي.

نظر إليه في دهشة فقال: فعلتُ ما اتفقنا عليه؛ تكلمتُ مع زبيدة على الزواج وأخبرتها أنك توافق.

رفع حاجبيه في ذهول وقال: متى أخبرتك أني أوافق؟

قال جعفر مسرعًا: أمس في الجبل عندما..

قاطعه: أنا أتذكر ما قلت أمس يا ولد. قلت إني سأفكر.

قال جعفر وقلبه يكاد يسقط تحت ثوب أبيه: أبي..

- تزوجها إذا كنت تريدها لهذه الدرجة ولكن..

بقي صامتًا يستمع فقال والده: ولكن لا تتركها تسيطر عليك هكذا. لو احتجت أن تتزوج ابنة الخليفة ستفعل. فكر في أنك لست أي رجل.

تمنى أن يقول له إنه هو اختار أن يتزوج فقط من ابنة الحلواني ولكنه لم يجرؤ. قال مسرعًا: بالطبع يا أبي. وكنت.. وعدتني أمس أن تفكر في أمر السيف...

قال في حسم: ابن بدر الجمالي لن يعمل حلوانيًّا. أنت رجل دولة، ملك كأبيك. هذا لن يحدث لا في حياتي، ولا بعد وفاتي، ولو لم ترضَ ابنة الحلواني بك وأنت رجل دولة فتزوج غيرها.

قال مسرعًا: سترضى. بالطبع سترضى.

نظر إلى عينيه، اخترقهما ثم قال: لا يضيع الخلفاء سوى نساء القصر. يوم تترك زوجتك تتحكم بك كما يفعل المصريون لن تكون ابن بدر الجمالي.

- لن يحدث يا أبي. و.. أعرف رفقك وحنانك مع أمي وكيف كنت تقدرها.. وأحيانًا.. أعني لم تتزوج غيرها.

- هذا شيء آخر. أمك غير كل النساء.

كتم جعفر ابتسامته ثم قال: نعم بالطبع.

سمع الشعراء خارج القصر ينشدون في مدح صاحب الهيبة السيد الأجل:

فوهبت ما لم يعطه في دهره

هرم، ولا كعب، ولا القعقاع

وسبقت هذا الناس في طلب العلا

والناس بعدك كلهم أتباع

يا بدر، أقسم، لو بك اعتصم الورى

ولجوا إليك، جميعهم، ما ضاعوا

ابتسم بدر وترك يده يلثمها الشاعر علقمة بن عبد الرزاق العليمي، ثم أمر له بالعطايا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جاءه طيفها الليلة، جاءت في حلمه كانت تلومه أنه تركها وحيدة ثم قبلته في شوق وتلاشت. فتح عينيه لا يعرف هل هذا حلم أم حقيقة. كاد رأسه يتحطم من الألم حتى ظن أن الأجل قد جاء ولم يُبالِ. اعتدل في جلسته ورآها من جديد، مد يده يريد أن يلمس يدها، هذا الجسد خائن، ولكنه هو الذي يعبر عن الروح، كيف للروح أن تلمس رفيقها دون جسد؟! يشتاق إلى جسدها حوله، يتمنى لو استطاع مرة ربما أن يضمها كما كان يفعل، يشعر بأضلعها الرقيقة داخل صدره، ثم يستنشق رائحتها، ثم يقبلها قبلات كثيرة على كل جسدها. فرون، لِمَ جئت ورحلت سريعًا كالملَك والريح الطرية الرقيقة. آه يا فرون من الشوق الذي يعرف اليأس، وآه من اليقين الذي يصاحب الرحلة. أنت في الجنة هذا أكيد. ولكنه ليس متأكدًا أنه سيرافقك هناك، كنت تقولين رحمة الله تسع كل شيء. يحتاج إليها اليوم ليستمر. ثقلت قدماه وأصبحت الأنفاس تخرج بعد صراع طويل مع الفؤاد. رأى طيف شعبان ابنه الأوحد، هي النهاية إذن. أسوأ ما في الفقد أنه يظهر عجز الأطراف ورقة القلب. فلا هو قادر على أن يراها أو يلمسها ولا هو قادر على أن يخمد لهيب الاحتياج. أصبح كمن يقف بين الجبلين ينتظر قدوم الفيضان، ولكنه لا يأتي. بدر الجمالي لم يتغير حتى لو مر به العمر، عقله يعمل كمشيدي العمائر لقصور القدماء، وحتى جسده لم تنهكه السنون كما أنهكت جسد الخليفة. لم يزل المصريون يلتفون حوله ينتظرون أن يلمسوا يده، أو يلثموا كتفه، لم تزل النساء تسمي أولادها بدرًا، والرجال تنحني احترامًا لقوته. العمر مر والجسد خان والقلب لم يستكن لم يزل يتوق إلى المستحيل، وها هي أصبحت بعيدة كما كانت منذ أعوام. ولكن صوتها في أذنيه لحظة رأته بعد أن اشتراها ودخل عليها، نطقت اسمه كأنها وجدت كل غايتها في العالم. أربكت كل كونه منذ لحظتها. دوى صوتها في أذنيه وأغمض عينيه ورأسه لم يزل يؤلمه. كأن الدماء توقفت داخل شرايين الفؤاد. لا يعرف كم من الوقت مر. سمع ابنه أبا القاسم يقول في فزع: أبي..

نظر إليه لا يفهم، فتح فمه ليخبره أنه بخير، ولكنه لم يستطع. لعن لسانه وفمه وجسده كله. دق على الحائط فأمسك جعفر بيده، وقال وعيناه ممتلئتان بالدموع: أبي.. اهدأ كل شيء بخير. سيأتي الطبيب بعد حين الآن.

أشار بدر إلى فمه ثم ضرب الحائط مرة أخرى. نظر الأخ لأخيه وجاء الطبيب، طلب منهما الخروج، ولكن الأب أشار إليه بالكلام. فقال في وجل: مولاي الأمير متعب بعض الشيء.

كان متعبًا هذا أكيد. كأنه أنهى آخر معاركه بعد أن نفذت الطعنات إلى كل قطعة من جسده. سمع الطبيب يقول لأبي القاسم: فقد النطق. يحدث أحيانًا، فالأمير يحفظه الله في سن كبيرة، تتوالى عليه الأمراض. احذر من المجهود أو الحزن.

حتى لو فقد السيد الأجل النطق، فالبلاد في يمينه لن يستغني عنها حتى يموت. لا يحكمها غيره ولا يعرف تفاصيلها سواه. هي ما يبغي وما يحيا من أجله. أصبح يخرج يقابل الرجال، ويشير إلى ابنه بالكلام بلسانه، ويستمع في تركيز ويكتب ما يريد قوله. لم تزل جنوده تنحني أمامه في ولاء وطاعة. لا بدا عليه أنه تأثر بما كان، ولا أن قوته قد قلت أو تلاشت. ولكنه ليلًا كان يردد الشعر الذي ردده حفيد الصقلي منذ أعوام بعيدة:

أراني في الثلاثة من سجوني

فلا تسأل عن الخبر النبيث

لفقديَ ناظري ولزوم بيتي

وكون النفس في الجسد الخبيث

آه من خبث هذا الجسد وخيانته. بدأ يلعب معه الألعاب، تارة يفقده النطق، وتارة تؤلمه الأضلع، وتارة تكاد تحرق النار ركبتيه، فيمسك بهما ويتمنى أن يشقهما بسيفه. ثم يأتي الألم غير المحتمل في رأسه، تُرى ماذا سيفقد أيضًا؟ هل سيستيقظ غدًا ليجد أنه جسد هامدٌ على مخدعه يحيا بلا حركة؟ دعا الله اليوم أن يموت. تمناها من الأعماق، فالخيانة تطفئ الحياة من الأطراف، ولكن خيانة الجسد هي خيانة من بعضه إلى بعضه كخيانة الأوحد بالضبط. كتب عليه أن يخونه كل من هو في الأحشاء من ولد وجسد. سيقولون إن بدر حزين، وبدر لا يحزن. سيقولون إن بدر ضعيف وبدر لا يضعف. ولو قالوا إن بدر أسلم الروح إلى ربه فسيكون حينئذ قد انتصر. مر شهر وراء شهر حتى استدعى الخليفة الأفضل شاهنشاه أبا القاسم ابنه. تكلم معه قال إن بدر الجمالي يدير البلاد وهو فاقد للنطق وهذا لا يجوز. كيف لأمير الجيوش أن يأمر الجنود وهو في هذه الحالة؟ كما أنه شاخ ولا بد أن يرتاح. نظر إليه أبو القاسم في ريبة ثم قال: مولاي، أبي لن يقبل أن يرتاح ما دام حيًّا.

قال الخليفة: لا تسئ فهمي. لا أريد أن أستغني عنه ولا أستطيع. أرادك أن تخلفه يا أبا القاسم فلتخلفه من الآن.

صمت أبو القاسم برهة ثم قال: أسأله وأجيبك يا مولاي.

قالها أبو القاسم على استحياء. سمعه والده ونظر إليه ثم طأطأ رأسه ورفع يده وأشار إليه بالحذر. فقال أبو القاسم: أفهم يا أبي.

هز بدر رأسه بالنفي فطلب ورقة وقلمًا، ثم كتب كلمات. كتب: أنت خليفتي ولكنك لا بد أن تكون في قوتي وأكثر. سيحاول المستنصر كسر شوكتك، لا تترك له الفرصة. تخلفني وأنا حي، ولكن تستشيرني في كل شيء، كل شيء، إياك أن تظن أن بدر لن يعرف ما يدور حوله.

انحنى أبو القاسم وقبل يده وقال: كل شيء.

وضع يده على رأسه وهو يردد بداخله: لله الأمر من قبل ومن بعد. أعرف أني لن أكمل عامي هذا.

كل ليلة منذ وفاتها يدوي صوتها في أذنيه: اتركني أعشقك اليوم كما تمنيتك في أحلامي يا أجمل ما في كل الوجود.

كيف لامرأة أن تكون من أهل الجنة وهي على الأرض! ولِمَ كان مصيره أن يقابل فرون؟

لا أحد يحمل السيد الأجل، قوته لا تتلاشى حتى لو خان الجسد واستكان. الجسد خائن منذ الولادة وحتى الموت ولكن الروح القوية تُخضع الجسد وتهزمه. نظر الأفضل إلى جعفر في حيرة لا يعرف كيف يقنع والده أنه يحتاج إلى بعض المساعدة في تسلق الجبل. كان وراءه يكاد يسنده ولا يفعل. اتكأ

بدر على العصا وأصبحت أنفاسه على مسمع من كل أهل مصر. ينتظرهم اليوم جميعًا يريد أن يراهم مرة أخيرة ربما. قال جعفر في رفق: أبي.. خذ يدي فأنا لا أكاد أتسلق هذا الجبل.

نظر إليه في عبوس ثم أشار بيديه كأنه يقول: اذهب يا أحمق. أنا أعرف ألاعيبك.

يمكنه أن يصل إلى مسجده دون أن يفتح عينيه، يعرف الطريق ويعرف كل حجر يمكن أن يتعثر به. رآها أمامه.. مشاهد الدم حوله كثيرة ولكن هذا المشهد غير كل ذبح، وهذا الجرح غير كل جرح. كانت مبتسمة حتى والدماء تغمر صدرها. كيف للغل أن يخشى الاقتراب من فرون؟ ماذا فعلت حبيبته مع شيطان نفسها؟ همست وهي تمسك بيده: لا تُسرف في القتل يا حبيبي من أجلي.

ولكنك مذبوحة اليوم يا فرون. أي قتل الذي لا أُسرف فيه وهو يحيط بنا من كل أركان العمر؟ وضع يده على الحجر يتكئ عليه وهو محني الظهر، خطوة واحدة وسيصل إلى القمة. هي خطوة. تفتت الحجر بين يديه ولكنه وصل. كاد ينكفئ على وجهه، فأمسك به جعفر، أبعده، واعتدل في وقفته ونظر أمامه. هو موعد بينه وبين أهل مصر اليوم. هنا عند مسجده فوق الجبل. يريد أن يقابلهم جميعًا، يعرفهم كلهم. حفظهم عن ظهر قلب، كل طفل، ورجل، وحلواني، وخباز، وبائع خضار، وبائع فاكهة، كل فلاح وعربي، كل جندي في جيشه. كل هذه الوجوه أصبحت صحبة وأهلًا، وجوه تبقى في الذاكرة بخطوط العمر حول العيون وابتسامة حزينة قوية وقت الشدة. جاءوا كما وعدوه جميعهم.

نظر جعفر أمامه وفتح عينيه في ذهول. لم ير هذا الجمع منذ ولادته كأنه يوم الحساب. تغطي الناس كل الجبل، ثم عند سفح الجبل تقابل ألف ألف أو أكثر، يريدون مقابلة السيد الأجل. نظر جعفر إلى أخيه قائلًا: هل ترى ما أرى؟

ابتسم الأفضل قائلًا: نعم. لا تندهش، يحبونه والحب من عند الله.

رفع بدر يده يحييهم، فألقوا عليه أفرع الشجر والزهور، بعضهم لم يصل إليه وبعضهم وصل، ولكنه رأى، رأى الزهور تتناثر في السماء كمواكب الجنة. صاحوا باسمه ثم رددوا آيات القرآن: «نصركم الله ببدر».

كانوا على موعد منذ عشرين عامًا أو يزيد هو وأهل مصر. جاء في موعده ولم يخلف وعده. صاحوا بأعلى صوتهم: السيد الأجل..

زاغت عيناه بعض الشيء، رأى الجمع يهتف باسمه يمتزج بعضه ببعض، الصقلي والأرمني والمصري، من فوق الجبل، يرى بوضوح أكثر، هؤلاء قوم لا ينتهون حتى لو تلاشى البصر واختنقت الكلمات. أبصرهم بقلبه، رأى السحاب يدور حولهم في دوائر متقنة، فيطمس بعض الألوان، ويخفي الأشجار والزهور، ولكنه يحولهم إلى كتلة كبيرة كصخور الأهرامات لا تنتهي مهما انتزعها الأغراب. في وسط الضجيج رأى أركان مسجد ابن طولون هناك أسفل الجبل، واضحة له كمعابد القدماء، باقية دومًا كما سيبقى هو. تُرى ماذا سيقول أهل مصر بعد عام وعامين عن الجمالي؟ هل سيتذكرونه؟ يريد أن يخبرهم بالكثير لو كان عنده وقت كان سيجلس معهم، كل واحد على حدة ليحكي لهم عن الحزن الذي يتبع الانتصار، وعن العجز الذي يتبع خيانة الولد، وعن الشوق الذي يتبع الفقد. ولكنهم يعرفون، لا بد أنهم يعرفون، ألم يحك لهم أحمد بن طولون من قبل؟ حتى لو نسوا أركان

المسجد ستذكرهم. هو نفس المصير ونفس الحزن. سمع البعض يصيح: هذا شيخنا.. وهذا ضريحه. بدر شيخ وعالم. بدر سيد أجل. بدر هبة من الله لنا.

اتجهت عيناه إلى زاويته ثم إلى حيث يمكث جسدها. روحها حوله دومًا.

ثم رفع عينيه إلى السماء، كانت دومًا تنتظر القمر لتقارن بينه وبين بدر، فرون..

التف بعينيه حول الجبل، واتجه بعينيه ناحية الهرم، لا يراه من هنا ولكنه يعرف أنها تسمعه، بحنس ساحرة الهرم حتى ولو فقد النطق: يا ساحرة.. لم تتكلمي معي عن العشق، كيف يُشعل الجوارح ويضيء الروح. بدر الجمالي سيبقى كالقدماء شامخًا بأرجل تطول السماء وجسد فارع مستقيم وذراعين تحملان السيف والرمح. إياك أن تعيِّريني بالسن، هو عمر ينتهي دومًا، ولكن القلب لن يستسلم. تذكري يا بحنس اليوم وغدًا وبعد غد: إن قلب العاشق يحيا حتى لو خمد الجسد.

التفت إلى مسجد ابن طولون...

يا أحمد بن طولون.. طريقك أسهل من طريقي، وهمُّك أخف من همي.. قُل لي بمَ شعرت؟ تلاقت مصائرنا يا ابن طولون كأن أرواحنا على موعد بلقاء.. تُرى عمَّ كنا نبحث؟ عن وطن، أم عن قدماء، أم عن المحافظة على الأرض والذهب؟ هل تسمعني يا أحمد بن طولون؟ يا أبا عباس، أتكلم معك من أعلى الجبل، صوتي فقدته من ضمن ما فقدت، فلو كان همي أثقل من همك، وابني أشقى من ابنك، وحياتي أصعب من حياتك تُرى أهذا لأن انتصاري أكبر من انتصارك؟ ها أنا أبحث عن السيف وعن النصرة وعن التميز حتى في لحظات مناجاة الأرواح، اعذرني يا رفيقي التقينا في درب الحزن وحب مصر ربما. كلانا أمسك بها فأمسكت به، كلانا حاول أن يلملمها في راحتيه فامتصته في فمها، وابتلعته صحيحًا. كنا ننظر إلى أبي الهول في الأفق أنا وأنت. تُرى أينظر هو إلينا؟ ما الذي يخيف في تمثاله؟ كنت أنا مثله في الشموخ، وكان الصقلي وكنت أنت. يا ابن طولون تعال أحكي لك عن الحزن المصاحب للانتصار، وعن الهزيمة المصاحبة للقدرة، وعن العجز المصاحب للعشق. ها هو الصقلي ينضم إلينا.. مرحبًا بك يا جوهر الصقلي.. تعال كلمنا عن الزمن والدولة والرجال و.. مصر..

على هامش التاريخ

حكم بدر الجمالي الديار المصرية إحدى وعشرين سنة. وقد خلف من المال في خزانة الدولة عند موته ستة آلاف ألف دينار، وأربعمائة ألف ألف درهم. والكثير من الجواهر. وترك بعد وفاته ألف قصبة من الزمرد جمعها من كل أنحاء البلاد.

قسم بدر الجمالي مصر إلى حوالي ثلاث وعشرين محافظة أو عملًا بعد أن كانت منقسمة إلى أكثر من ألفي كورة، وهذا التقسيم إلى حد كبير لم يزل معمولًا به حتى يومنا هذا.

خلف بدر الجمالي في الوزارة ابنه الأفضل شاهنشاه أبو القاسم (محمد)، واستعمل نفوذه في وصول أحمد الخليفة المستعلي ابن أخته إلى الحكم، حفيد بدر الجمالي، وليس الابن الأكبر نزار الذي بسببه ستظهر طائفة الحشاشين الشهيرة.

حكم مصر الأفضل شاهنشاه بعدل ورحمة كوزير السيف والقلم لمدة سبع وعشرين سنة حتى نجح الحشاشون في قتله بعد عدة محاولات. ترك من الكنوز ما احتاج إلى أربعين يومًا لحمله إلى قصر الخليفة.

جعفر المظفر ابن بدر وفرون عاش في القصر في حارة برجوان يساعد أخاه في الحكم بضع سنين، ثم انقطع خبره بعد حين، في الأرجح أنه ترك أمور الحكم، ورحل مع زبيدة إلى الإسكندرية ليتفرغ لصناعة الحلوى، وكان قد ترك وراءه القصر في الحارة.

عَمَّر بدر الجمالي مسجد أحمد بن طولون وجدده، وهو مسجد للسنة وليس للشيعة من أهل مصر منذ بدايته. وبنى فيه محرابًا وترك اسمه بداخله.

ترك بدر الجمالي اسمه في مصر في منطقة الجمالية، وشارع أمير الجيوش، وفي أبواب القاهرة الثلاثة التي لم تزل تشهد على عصره، ولم يزل اسمه محفورًا في أحجارها. باب الفتوح، وباب النصر، وباب زويلة. أبوابه التي شيدها نمرُّ عليها كل يوم فتذكرنا بما كان.

مسجد الجيوشي به أول مئذنة فاطمية، وصلت على حالتها الأصلية متكاملة. وهو أول مسجد بني بالحجر في مصر. السبب وراء بناء بدر الجمالي هذا المشهد والمسجد أعلى جبل المقطم لم يظهر بوضوح للمؤرخين فالمكان صعب الوصول إليه إلا لو كان بدر الجمالي يبغي ما هو أعمق، ويفكر بطريقة أعقد من أن يفهمها كل المؤرخين من بعده.

عَمَّر وبنى، كلما حارب بنى، وكلما أحب بنى، وكلما حزن بنى. مسجد العطارين في الإسكندرية لم تزل به اللوحة الرخامية التي تحمل اسمه، والمسجد العتيق العمري في إسنا لم يزل موجودًا، ومسجده الذي بناه على جبل المقطم لم يزل يشهد على مصر كلها. يقف محلقًا على القاهرة ومصر، وربما يتذكر الجماد خروج جموع المصريين تحية لمن أنقذهم من جفاف ومجاعة دامت أكثر من سبع سنوات. يتذكر المصريون الأرمني الذي اتخذ مصر وطنًا وذاب في رمالها واختبأ بين أركانها ووجد ملاذًا في أحجار جبل المقطم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحكاية الثالثة: الكــردي

«اجعـل عشـقك صـافيًـا

وغـايتك نصب عينيك»

السـاحرة بحنس

أخيرًا يا عم عبده ستحكي لي عن صلاح الدين!

- كأنك لم تفهميني طوال الحكي! أنا أحكي لك عن مصر، لا عن ملوك وسلاطين. أتكلم معك عن الحلوى ومن يأكل الحلوى..

- وهل أحب صلاح الدين الحلوى؟

- في البداية لا..

- ماذا تقصد؟

- هل تعرفين علاقته بإبراهيم الصقلي؟

- حفيد بدر الجمالي أم حفيد جوهر الصقلي؟

- حفيد بدر الجمالي وجوهر الصقلي وكل أهل مصر. الحلواني.. سأحكي لك عن إبراهيم.. ويوسف بن أيوب الملقب بصلاح الدين.

فقلت وكأنني تلميذة حفظت الدرس عن ظهر قلب: إذا كان الصقلي هو زيت الشيرج، والأرمني هو الزعفران، والمصري هو الدقيق والسكر، فمن هو الكردي؟

ابتسم ثم قال: بدأت الفهم. أما الكردي فهو كالمسك، ختام لزمن وبداية لآخر. جاء وقت لم تسلم فيه روح من البتر، ولا جسد من الإهانة. ولكنه استطاع أن يضفي رائحته على باقي أيام الزمان. مثله مثل بدر الجمالي، عاش محاربًا ومات صوفيًّا. هذه أرض لا تترك حاكمًا يموت في سلام. لا بد أن يتذوق مرارة الانتصار وحسرة الفوز، ثم تلين أطرافه ويبرح الكبر قلبه، ويخر راكعًا ككهنة فرعون. لا أدري يا ابنتي كيف كانت ستصبح مصر دونهما ودون غيرهما. ربما لا تدركين سر الحلوى الفاطمية وأهميتها، وربما بعثت بك ابنتك لتعلمك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الباب الأول:

هنا يا ابنتيترين

الكمال في الصنع، والعناء في العيش

عم عبده المجنون

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 1 -

562 هـ - 1167 م:

الإسكندرية:

كان وراءه الرجل الغريب الذي توقع قدومه وانتظره. يمكن تمييزه من بين كل أهل الإسكندرية، فلا ملابسه ولا هيئته ولا حتى طريقة سيره تنم على أنه من هنا. توقع إبراهيم أن يأتي الغريب عند الفجر، فمثله لا ينام كثيرًا. ولم يعرف على وجه الخصوص إن كان مكلفًا بالمهمة أم مجبرًا عليها. لم يلتفت إليه، أزاح المياه من علِى جسده ثم ارتدى سرواله وجلبابه. الغوص في البحر عند الفجر عادة ورثها عن والده، وأصبحت أنسًا وذكرى بعد رحيل الأب. عند التحام الرمال بالشمس وشذرات المياه بالكواكب يبدو كل شيء ممكنًا حتى أن يحمل إبراهيم الحلواني السلاح أمام جيش الخليفة.

جلس إبراهيم القرفصاء على الرمال، فاستمر سير الرجل حتى استقر أمامه، وبقي واقفًا ثم قال وهو يقطب حاجبيه: إبراهيم بن الصقلي.. كنت أبحث عنك، أبحث عنك وحدك، وفي هذا عناء يشبه عناء حرب الفرنج يا أخي.

قال إبراهيم: ولكنك وجدتني وعرفت متى تجدني منفردًا. ترى أهذا لأنك تريد التخلص مني اليوم أم إرغامي على الهلاك؟

- أنت حفيد جوهر الصقلي أعظم القواد. لا تندهش كلنا نعرفه، وحتى لو لم يكن من مذهبي فلا بد من الانحناء أمام العظماء أينما وجدوا.

- أنا يا يوسف مجرد حلواني، لا طاقة لي بالحروب، ولا مؤامرات الحكم.

- أتعرف اسمي أيضًا؟

- كنت تبحث عني فبحثت عنك. يوسف بن أيوب، المعروف بصلاح الدين الأيوبي، جندي في جيش الشام، جيش عمك أسد الدين شيركوه. بالطبع سألت عنك وعرفت كل شيء. وأنت في مثل سني بل ربما أصغر بعام أو عامين، حسبتك لم تبلغ الثلاثين. ما الذي جاء بك عند البحر؟

- لو كنت تعرف اسمي فلا بد أنك تعرف ما الذي جاء بي إلى هنا.

- لا سلاح لدينا يا أخي. أنا حلواني لا خبرة لي بالحروب ولا أعرف شيئًا عن الوزير. ولا رأيت الخليفة مع أني أدعو له كل يوم، أؤكد لك هذا.

قال صلاح الدين يوسف بن أيوب في جدية: قرأت عن أهل الإسكندرية، وقصدتهم دون غيرهم، لا خوف في قلوبهم ولا مغامرة ترهبهم. يصرخون في وجه الباطل ومن الصعب السيطرة على أرواحهم الحرة، حتى عمرو بن العاص استعصت عليه المدينة مرة ومرتين. وشتان بين عمرو والفرنج. أتمنى أن تستعصي اليوم على الفرنج يا أخي.

- ماذا تريد من الحلواني بالضبط؟

قال يوسف بن أيوب صلاح الدين: أريد أهل الإسكندرية. أريد أن يكون كل أهل الإسكندرية مع الأمير نور الدين محمود الزنكي، أنا جندي في جيشه وعمي جندي لديه. هو يريد نصرة الأمة لا أكثر ولا أقل، ووزيرك يريد دخول الفرنجة مصر، ألا يكفيه أنهم أخذوا بيت المقدس؟ أي وزير في بلد مسلم يتمنى لبلاده أن يحدث لها ما حدث من الفرنجة في بيت المقدس! يدخلون فيفجرون الدماء ويقطعون الأرزاق. لا داعي أن أحكي لك. أهل الإسكندرية يسمعون من كل الأمم والعوالم. هل حكى لك المسافرون والعابرون عن الدماء التي سبح فيها الفرنج يا أخي؟

- مصر ليست القدس.

- الأيام دول بين الناس. والحلوى لا تنفع مَنْ فقد حاسة التذوق لأن الفرنجة قطعت لسانه. يا أخي.. جئتك مكلفًا بمهمة، وجئتك أبغي القرب أيضًا والأخوة.

فتح إبراهيم فمه، فقال يوسف بن أيوب في حسم: لا تقل لي إن أهل الإسكندرية لا تملك السلاح. رأيت سوق السلاح بعيني ولم أر في ضخامته. كلكم تملكون السلاح والرجال، وقبل هذا وذاك أنت.. أنت يا إبراهيم تملك أكثر من هذا وذاك، تملك قلوب أهل البلد. أعرف هذا أيضًا. يعرفون والدك ويعرفون تاريخك ويحترمونك ويقدرون كل أعمالك. ساعدني لتساعد مصر كلها ثم الشام والعراق وربما بعد بعض الوقت القدس نفسها.

- فليفعل الله الخير. أعطني فرصة لكي أتكلم مع الشيوخ..

فقال يوسف: هذا أمر السلاح والرجال، والآن أمر النسب.

قال إبراهيم: لدي أختان تزوجتا منذ سنوات. عن أي نسب تتكلم يا أخي؟

- ولديك ابنة عم تعيش معك الآن. لم تتزوج بعد.

فتح إبراهيم عينيه ثم قال في وجل: أتقصد رشيدة؟! أقسم لك إنني لا أتمناها لملك الفرنج نفسه.

ساد الصمت.. فأكمل إبراهيم: قالوا لك إبراهيم صادق لذا يحبه أهل البلد. هي لا تصلح لك يا أخي. لو جئت توحد الكلمة فابحث عن غيرها، فما رأيت في كل عمري بنتًا قادرة على خلق الفتن وبث الفرقة مثلها. هي ابتلاء لنا جميعًا.

- يا أخي.. الزواج يهذب ويعلم البنت.

- يُعلِّم من تريد أن تُصلح من نفسها لا من تجد السرور في حزن من حولها، ولا من تريد الهزيمة لتنتصر هي. انسَ أمرها وليقدرني الله أن أزوجها بمن يستحق أن يحتوي عناءها ويصبر على بلائه.

رشيدة.. هذه المصيبة التي حلت على رأس إبراهيم في زمن كله مخاطر وعواصف ضارية تغرق كأمواج الشتاء المتوحشة التي طالما أغرقت سرداب بيته في «كوم وعرة». يتذكر وهو طفل عندما كانت الأمواج تخترق الأحجار وتصطدم بالخشب، فيصرخ فيسمعه الأب الذي ينتفض في توقع وإدراك، لا خطورة في أمواج الشتاء حتى عندما تترك آثارها على الأخشاب والصخور، فتغير اللون وتشبع القلب بالصقيع. لم يكن يعرف لِمَ ينزعج والده عبد الحميد من دخول الأمواج إلى السرداب

وغرق كل بيوت الميناء. ما الذي يخيف في أمواج البحر؟ فهجومها متوقع. أما هجوم رشيدة فلا حدود له. بدأت القصة منذ زمن، سمعها من والدته ولم يصدقها، قال إن غيرة النساء تحجب الحقائق وتزيف التاريخ، ولكنه عاصر الشر وتأقلم معه بعد حين.

ورث الأخوان مصانع الحلوى وحوانيت الجد جوهر بن حسين بن جوهر الصقلي. عبد الودود أبو رشيدة وعبد الحميد أبو إبراهيم. تزوج الأخ الأكبر من ابنة أحد التجار في القاهرة، كانت مدللة وطامعة، ولكنها ملكت قلبه ثم عقله ثم امتدت فروعها إلى كل إرادته، فأصبح لا يأخذ أي قرار إلا بعد الرجوع إليها. فكل رطل دقيق لا يمكن شراؤه إلا بعد موافقة كوثر. فلم تعد عروس المولد تتبع مولد الأولياء والنبي، بل أصبحت تتبع أهواء كوثر زوجة عبد الودود لو قررت أن اليوم عيد، بدأ الحلواني في صنع العروس وتوزيع الأحصنة الحلاوة.

تغيرت الدنيا وانجذبت لكوثر بكل قوتها ثم اندثرت بين أحضانها. قالت ليلى أم إبراهيم: لا بد أن كوثر سحرت لزوجها، فهي لم تنجب طوال عشر سنوات، ثم بعد العشر سنوات أنجبت ابنتها رشيدة فأبقتها في برج مشيد من الصخر والرواسي الثابتة. أصبحت رشيدة هي كل حياة والدها. ضاق الأخ الأصغر بتحكم الزوجة في أخيه فقرر أن يرحل إلى الإسكندرية، وباع نصيبه في الحوانيت لعبد الودود بأبخس الأسعار. فتح مصنع الحلوى في الإسكندرية في نفس مكان مصنع الجد الأكبر جوهر بن حسين بن جوهر الصقلي، واستقر هناك مع زوجته وأولاده، استمر في ود أخيه ولكن الأخ تغير عليه كما توقع لأن عبد الحميد كان أكثر استقلالًا مما يجب ولم يحظ برضا كوثر، فغضب عليه الأخ وهجره. مات الأخ وراء الأخ، والزوجتان ترفضان اللقاء حتى أثناء الوداع الأخير للأخوين. مات الأخ الأصغر أولًا أبو إبراهيم، وكان إبراهيم في العشرين آنذاك فأصبح هو الأب والعائل. ثم مات الأخ الأكبر أبو رشيدة منذ عامين.

بعد موت عبد الودود خرجت رشيدة ابنته للعمل كالرجال وسيطرت على كوثر أمها تمامًا، ثارت الدنيا عليهما ولم تخمد. بدأت تزرع الفتن بين صانعي الحلوى، تعين الجواسيس، تضرب الأخ بأخيه، تشتت الشمل، وتشعل اللهيب. دخلت في صدام قوي مع عبد التواب مساعد والدها الذي رباه الجد بنفسه، وهو من أخلص صانعي الحلوى في مصر والقاهرة. أصبحت تهينه وتستخف به، ثم تسخر منه، تحمل عبد التواب إخلاصًا لوالدها. ثم قررت رشيدة أن تتزوج من حامل القمح جواد. أعلنت خطبتها عليه وأعطته قوة وسلطة، فعاث في الديار وأصبح يحكم ويأمر. تشاجر مع عبد التواب وصفعه أمام المارة والجموع. بكى الرجل الكبير فخرج كل صانعي الحلوى في مصر يريدون قتل حامل الدقيق جواد وقتل رشيدة أيضًا. استغاث الناس بالرجال في عائلة رشيدة.. أولاد عمها، أكبرهم كان إبراهيم، يحبه كل العامة، وهو صادق وعادل لا يخاف في الحق لومة لائم. ذهبوا إليه في الإسكندرية وطلبوا منه السيطرة على ابنة عمه وإلا قضوا عليها، فلم يعد في الزمن ما يستحق تحمل هذا العناء والذل. لو لم يتحكم في تصرفاتها فلا يغضب مما سيفعلون. لأول مرة يسمع إبراهيم تهديدًا من صانعي الحلوى وعنفًا في صوتهم. أمر رجاله بالذهاب إلى القاهرة والإتيان بكوثر وابنتها رشيدة، ثم هدد حامل القمح وطرده. هذا كله حدث منذ شهرين، ومنذ شهرين وهو لا ينام. تضرب المصائب رأسه كل ليلة وكل ساعة. أصبح يدور حول نفسه ويتمنى الخلاص، لم يتوقع من امرأة أن

تقوم بكل هذا الخراب في شهرين، ولكنها قادرة على الكثير كأمها وربما أكثر. فليزوجها بسرعة، ولكن ليس ليوسف بن أيوب فهو لا يستحق منه هذا.

ألحت رشيدة على لقائه منذ أسابيع وكان يمنعها من الدخول عليه. وضعها مع أمها في جناح يبعد كل البعد عن حجرته. واليوم لم تتوقف ولم تتردد، عند ظهور الشمس فتحت باب حجرته بقوة وهو لم يزل في مضجعه. قالت في ثبات: لا خير يأتي من الظلم يا ابن عمي.

نظر إليها ثم قال في فزع: هل فقدت عقلك؟

قالت وهي تتحاشى النظر إليه: لم يكن هناك بد من هذا فقد رفضت مقابلتي مرة و مرات.

- اخرجي وسوف أقابلك بعد العصر هيا.

جلست على مقعد وقالت: لن أتحرك من هنا.

ثم أغلقت الباب فصاح في وجهها: افتحي الباب. ألم تعلمك أمك أي شيء؟

- بلى علمتني الكثير ولكنك تتحكم في، تأخذ مالي وتفرق بيني وبين خطيبي، وهذا لا يرضي أحدًا.

بقي صامتًا ينظر إليها فأكملت: جواد أفضل الرجال وهو من أريده زوجًا، ولا يعيب الرجل الفقر يا ابن عمي. هو من سيكون مسئولًا عن أموالي وليس أنت. لو لم تتركني أعود إلى القاهرة فسوف أشكو إلى الشيخ في مسجد العطارين، ومسجد الألف عمود وكل شيوخ الإسكندرية.

وضع يده على قلبه وتمدد، ثم قال: لكم تخيفني كلماتك. تدخلين حجرتي وأنا نائم، تغلقين الباب ثم تهددينني. لو حبستك اليوم لن يلومني أحد. أنت ستبقين هنا حتى أجد لك زوجًا يستحقك يا رشيدة. انتهى الكلام بيننا.

- بأي حق تأخذ أموالي؟

قال في حسم: لأنك لست أهلًا للحفاظ عليها.

التقت أعينهما فقالت في صوت ثعباني: إبراهيم.. يا ابن عمي.. أنا كفيلة برد أموالي والحفاظ على ما تركه لي أبي. لو لم تعطني حقي فسآخذه ولكنني أشفق عليك مما أنا قادرة عليه.

خرجت منه ضحكة وهو ينظر إليها، كانت أقصر منه بكثير، جسدها ممتلئ بعض الشيء، وملامحها رقيقة، لولا الشرر المتطاير من عينيها ربما كانت ستكون جميلة. ترتدي جلبابًا أبيض مطرزًا بالفضة الخالصة، وغطاء شعر فضيًّا من الحرير. قال في تهكم: هل تحتاجين إلى بعض المال لشراء الأقمشة؟ أم الفضة؟

- ولِمَ أحتاج إلى أخذ المال منك. والمال كله لي؟

أطرق ثم قال: اخرجي من هنا يا رشيدة ولا تفعلي هذا مرة أخرى. إن كان زواجك قد تأخر فهذا لأن الناس تعرفك ربما. ولكن لا تقلقي سأجد لك زوجًا يستحقك. ولكن أمك لم تُعلمك ألا تختلي بالرجال! وألا تدخلي على رجل حجرته!

قالت في تحدٍ وهي تنظر إليه بلا خجل: لا تحتاج أن تعلمني لأنني أستطيع الحفاظ على نفسي.

قامت وفتحت الباب ثم أكملت: لقد أعذر من أنذر.

ثم خرجت وأغلقت الباب في قوة.

تهرول النساء في الحجرات، ويرتعد الرجال، هذه أيام كلها حيرة، لا أحد يعرف مَنْ ضد مَنْ، ومَنْ يحارب مَنْ. الخليفة الإمام العاضد لدين الله الفاطمي يستعين بالملك نور الدين الزنكي من الشام لينقذه من وزيره الطاغية شاور الذي يستعين بالفرنج. أما أهل مصر فهم منقسمون كالجيش الفاطمي، فبينهم مَنْ يتبع الوزير شاور، ومَنْ يتبع الإمام والخليفة العاضد، ومَنْ يتبع جيش الشام والسلطان نور الدين الزنكي وقائده أسد الدين شيركوه. ازداد نفوذ الوزير شاور وضاقت أسوار القاهرة على الخليفة الإمام العاضد، فأصبح لا يبرح قصره، ولا يتحرك إلا بإذن من وزيره شاور. لا اختار المصير ولا أراد الهزيمة ولكنه رآها حوله. وزيره سيطر اليوم وبغى في الأرض هذه ليست حربًا بين شيعي وسني، ولا هي حرب بين خليفة عباسي في بغداد وآخر فاطمي في مصر. هي حرب للبقاء، وعندما تكون الحرب للبقاء فلا بد من الاستعانة بالقوة. اتجه الخليفة الفاطمي العاضد إلى نور الدين الزنكي في الشام يطلب منه العون والإغاثة من نفوذ وزيره شاور. لا بأس من طلب المعونة اليوم من عدو محتمل. بعث نور الدين قائده وأميره الكردي أسد الدين شيركوه إلى مصر، وأخذ أسد الدين معه ابن أخيه الشاب صلاح الدين يوسف بن أيوب. لم تكن أول مرة، فقد عرفوا مصر منذ بضع سنين ولكنها غير كل المرات. فالوزير شاور استعان بالفرنج اليوم ليحارب خليفته العاضد وحلفاءه نور الدين وأسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب. وصل الجيش الشامي بقيادة أسد الدين شيركوه إلى مصر، بحث وفهم.. الإسكندرية هي المفتاح والحل. فأهلها سنة شافعية، وثوراتها دومًا أقوى الثورات. ألم تستعصِ على العباسيين؟ ألم تتقلب على كل فاتح عبر التاريخ؟ لأهلها شدة وضراوة وشجاعة كالأمواج. بعث بابن أخيه الشاب يوسف إلى هناك، كان صديقًا وغريبًا يتكلم مع الناس وكبراء القوم ويعرف هواهم ورغبتهم. سيلجأ إلى مسجد الألف عمود في «كوم وعلة» اليوم، وغدًا ربما يلجأ لمسجد العطارين، ولكنه يتردد..

قال له إبراهيم في حسم: لو أردت أهل الإسكندرية فلنذهب إلى مسجد العطارين.

فقال يوسف: بناه بدر الجمالي..

- لو كانت مشكلتك مع المذهب يا أخي فلا قدرة لنا على القتال. أهل الإسكندرية سنة شافعية، ولكن لا بد أن تتكلم بحذر، فالهوى المصري غير كل هوى. المصريون يعشقون آل البيت ويبجلون بدرًا الجمالي.

- ولكن..

- يوما ستفهمني. نتجه إلى مسجد العطارين.. وتتكلم مع الشيخ زيدون بن القاسم هو من يستطيع جمع الناس معك. هو صديق وأخ. وتذكر أن بدرًا الجمالي بنى المسجد في الإسكندرية وهي ثائرة، بنى ولم يهدم ولا اشترط أن يكون المسجد للشيعة دون غيرهم.

لم ينعم إبراهيم بشبابه، اكتفى بأن يشاهد إخوته وهم يلعبون ويلهون ويشربون الخمر أحيانًا، ومع أن أخاه سالمًا يصغره بعامين فقط، لكنه كان يعشق الدنيا ونعيمها، يدخر المال لشراء الجواري ويستمع إلى الغناء على الشاطئ. أما أخوه صادق فقد فضل الزواج، كان يصغره بثلاثة أعوام. تزوج وهو دون العشرين، وأخلص للزوجة وأنجب الأولاد. انضم إليهم يوسف بن أيوب ليس باعتباره جنديًّا في جيش الشام ولكن باعتباره أخًا وصديقًا، أصبح يقضي معهم لياليه، أحيانًا يذهب معهم إلى الشاطئ يستمتع بالغناء ويشرب القليل من الخمر. كان شابًّا مثلهم، في عينيه آمال وتفاؤل وبعض الشجن لأنه لم يولد في عصر غير هذا العصر، وزمن أكثر رحمة من هذا الزمن. وإبراهيم يشاهد من بعيد، يقف أمام الشاطئ ويضع يديه على خصره ويسمع ضحكات الرجال ومزاحهم، لم يمزح قط ولا ضحك من قلبه منذ مات والده، ولا شرب الخمر ولا استمتع بالجواري. طارد يوسف بعينيه، رأى أخًا يشبه إخوته. يقولون إن أصله كردي من بلاد قريبة من بلاد بدر الجمالي. ربما لهذا يرى فيه ابن عم وسندًا.

في الصباح صليَا معًا وخطبَا في الناس في حذر، فرجال شاور تملأ المساجد تتجسس على أهل الإسكندرية بالذات وتخافهم. اللقاء في بيت إبراهيم آمن وأفضل.

أمرت رشيدة جاريتها بأن تقدم للحضور الحلوى، وأن تستمع إلى الحديث وتبلغها بما يحدث بالضبط. لا بد أن تعرف كل شيء عن عدوها. لديها شعور خفي بالدماء تنبض في الجوارح، والجسد يستعد للنزال والمبارزة. تحب هذا الشعور. هو يشبه شعور الحب أو ربما أعمق وأكثر تأثيرًا. فالحب ضلال وشعوذة كسحر ساحرة الهرم، لا يُبقي ولا يُقيم الأبنية. ولكن سحر رشيدة سيهدم حياة إبراهيم.. هذا أكيد.

دخلت جاريتها زبيدة لتقدم العصائر والحلوى وتلكأت لتستمع إلى الرجال، وضعت كأس العصير أمام يوسف بن أيوب وخفق القلب. نظرت إلى عينيه، ابتسم لها فتسمرت مكانها وكادت دموعها تتساقط من فرط الهوى الذي جاء بلا ميعاد. وهل للجارية أن تعشق؟ وتعشق من؟ جنديًّا من الشام؟ لا تعرف عنه أي شيء.

قال إبراهيم في حسم: عودي إلى سيدتك، لا تأتي إلى هنا. هاتِ إحدى جواري أمي.

هزت رأسها بالإيجاب وجرت مسرعة. وعندما سألتها رشيدة عما حدث انهارت في البكاء.

قالت رشيدة: لِمَ تبكين؟ هل نهرك إبراهيم؟

- لا يا سيدتي ولكني لن أرى الشامي مرة أخرى.

- يوسف بن أيوب؟

- نعم هو.

- أفقدت عقلك يا زبيدة؟ لا تجعلي الضعف ينخر جوارحك ويفتت عظامك فهي كالرميم. الحب آفة ومرض.

- لست في ثباتك وقوتك سيدتي.

- هي مشاعر تخرج من الجسد وليس من القلب. صدقيني، والدتي قالت لي كل شيء. الجسد يرغب فيضلل القلب. ولكن لا شيء في هذا العالم يسمى العشق. هي علاقات كلها فائدة؛ تعطين وتأخذين لا أكثر، نجملها لأننا نحب الكذب، ونهذبها طمعًا في الرقي. أتفهمين؟

- لا أفهمك يا سيدتي.

- لا يهم. انسي أمر يوسف بن أيوب. واحكي لي بالتفصيل.

علت الكلمات في المساجد.. تحث أهل الإسكندرية على الثورة ضد الوزير الفاطمي. يقول إبراهيم: حتى الخليفة نفسه لجأ إلى الملك نور الدين في الشام. وأهل الإسكندرية لا يرضون الهوان ولا الظلم. لا بد من التخلص من الوزير شاور. ولو دخل الفرنج الإسكندرية انتهى أمر مصر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الضيق ذاته ضاق من تشققات الأحجار في هذا البيت السكندري، أخذت رشيدة تمصمص شفتيها وتنظر إلى أركان البيت في حسرة. أين هذا البيت من بيوت القاهرة المضيئة المزخرفة المتلألئة بأنهار الجنة وساحات الحرية. هذه المدينة غير القاهرة هذا أكيد. لا تتذكر أنها زارت الإسكندرية من قبل قط. تلك هي المرة الأولى والأخيرة لو سارت الأمور كما تخطط وكما تتمنى. يبدو أن البحر يتحكم في الناس وفي المدينة، تارة يشتهون لقاءه وتارة يخشونه كالجن السفلي. وحتى مع الخوف يتسلل بمياهه إلى كل الحجرات. الباب المقوس الخشبي المحكم لا يعطي فرصة لدخول الهواء، والمبنى الحجري من ثلاثة طوابق بنوافذ خشبية من قطع الخشب المطلي الغامق الذي صنعت أجزاؤه بإحكام حتى لا تدخل ذرة هواء في الشتاء البارد ولا تتسرب نقطة من شذرات الموج المتوحش. حتى الصحن في الدور الثالث مغطى بالخشب المتهالك وبلا فوارة ولا زرع. يحبون الألوان هنا خاصة الأبيض والأزرق، لا يفقهون سوى الألوان الصارخة كذوقهم وأخلاقهم، لكم سمعت صيحات الرجال ومشاجرات النساء! لا مشربيات تزين البيوت كما في القاهرة، ولا ألوان هادئة تعكس الرقة والدلال والكثير من المكر. خرير مياه الفوارة تعرفه وتتوقعه، دومًا يأتي بهدوء ونظام محدد، أما أمواج البحر فتنطلق بلا رادع، تارة تأتي هادئة وتارة تخترق سرداب البيت فتغرقه، ولو صادفت رأسًا يطل من النافذة تذكره بتحكمها وسيطرتها على الأرض والأحجار.

لن يستمر بقاؤها هنا كثيرًا. ولو لم يرجها إبراهيم نفسه أن ترحل وتعود إلى مصانعها وبيتها في القاهرة فلن تسامح نفسها قط. عندما استيقظت اليوم نادت على زبيدة جاريتها وطلبت اللبن والبيض. لم يكن من عادتها الاستيقاظ مبكرًا إلا عندما تنوي العمل في مهمة سرية، ولم يكن من عادتها الإفطار إلا عندما تنتصر في مهمتها. هذا البيت يتكون من عشرين حجرة، يسكن فيه إبراهيم وإخوته، صادق وزوجته، وسالم، وأخوه الأصغر حسين، وأخته كاملة وزوجها سفيان، ولسبب لا تعرفه فقد دعا أيضًا أخته شفيقة المتزوجة من قائد تركي وتحيا في القاهرة المباركة مدينة الإمام والخليفة. هي تعرف شفيقة، زارتها من قبل في القاهرة، هادئة ومسالمة تحب الخير للجميع. ستتعرف أكثر على أم إبراهيم مع أن أمها كوثر لا تحبها، تدعي أنها دومًا تغار من جمالها وثرائها. من يخطط يفهم أولًا ويعرف.

لم يمر شهر على رشيدة إلا وهي تتحكم في نساء البيت ورجاله فيما عدا ابن عمها إبراهيم. لإبراهيم خمسة إخوة، بنتان وثلاثة أولاد، سالم وصادق وحسين. سالم وصادق تحت سيطرة أخيهم إبراهيم تمامًا. أما حسين فمختلف.. هو في العشرين ثائر ومتمرد. حسين الأخ الأصغر كان الأقرب إلى قلبها، وديع ومخلص ولكنه ينسحق ويفنى أمام جبروت إبراهيم. لِمَ يترك إبراهيم يتحكم في كل شيء؟ لِمَ يقرر إبراهيم عدد الحلوى وشكلها، ويتفق مع التجار والأمراء؟ لِمَ يقلص دور الأخ لدور العصا التي يتكئ عليها وقت التعب لا أكثر. يعامل الروح كالعصا هذه عادة إبراهيم. شرحت رشيدة ساعة وساعات، أعطت الأمثلة على جبروت الأخ معها ومعه، بثت الشك في أذن حسين، من يدري، ربما كان الطمع هو من يحرك إبراهيم. لِمَ الثقة التامة في إنسان بداخل نفسه التقوى والفجور؟ لو كان إبراهيم قد سيطر على أموالها هي فلا بد أنه يسرق من أموال أخيه. عندما قالت هذه الجملة فتح حسين عينيه في فزع وطلب منها السكوت، ثم قال في حزم: أخي لا يسرق يا رشيدة، أخي يتحمل مسئولية

تاريخ ومجد قديم ويدافع عنه. لولاه ما نجحنا هنا ولا استمرت عائلة الصقلي تسيطر على الحلوى في كل مصر والقاهرة.

قالت رشيدة في رفق: يا أخي أحيانًا تصبح النوايا الحسنة نقمة وليست نعمة. أنا متأكدة أنه يريد الخير لعائلتنا، ولكن هذا لا يمنع أنه يسيطر على أموالي باسمي أنا، وأنه منعني من الزواج من رجل مخلص وأمين لمجرد أنه يراه طامعًا. هذه قرارات طغاة وليست قرارات أهل. وهذا لا يمنع أنه يمحو وجودك مع أنه لو أعطاك الفرصة لتألقت. أخبرني يا حسين هل سألك يومًا إذا ما كنت تريد مثلًا أن تفتح حانوتًا في دمياط؟ هل طلب منك يومًا أن تفكر في نوع جديد للحلوى؟ أخبرني ولا تجعل عاطفتك تجاه أخيك تعمي عينيك، اطرح الحب جانبًا، وفكر في نفسك. لِمَ لم تتزوج حتى الآن؟... لا لا تتكلم أنا متأكدة أنك أردت الزواج ولكنه رفض.

فتح حسين فمه في ذهول فقالت وهي تبتسم في انتصار: أردت الزواج وقال لك: إنها لا تناسبك. كانت فقيرة أليس كذلك؟

- يا رشيدة..

- ألا ترى يا أخي، قلت لك افتح عينيك، وفكر في كل ما يفعل معك وكل ما فعل وأقسم لك إني لا أريد الوقيعة بينك وبين أخيك، بل أنا أريدك أن تطلب حقك، ولو رفض تعرفه على حقيقته.

قال حسين مسرعًا: هو خير أخ وخير صديق.

- النفس أمارة بالسوء. عندما تتسنى لك الفرصة قل له إذا أخطأ. ألم يقل عمر بن الخطاب رضي الله عنه «أصابت امرأة وأخطأ عمر»؟

- رشيدة...

- إبراهيم بشر يصيب ويخطئ، هل تجرؤ يا أخي على أن تقول لا؟ هل تجرؤ على أن تعترض؟ أخوك يرمي بنا إلى الهاوية، يعادي الوزير شاور وهو يعرف أن في هذا نهايتنا، ويصادق الغريب يوسف بن أيوب مع أنه يعمل تحت قيادة نور الدين الزنكي الشامي، وسيبقى الزنكي عدوًّا للخليفة حتى ولو ادعى الصداقة الآن. فهو سني والخليفة شيعي. يا أخي..

- أنا لا أفهم في مشاكل الحكم ولا أعرف الفرق بين شاور والزنكي ولا الخلفاء. أنا حلواني مثل أجدادي.

- ولكن أخوك قد زَجَّ بك في مشاكل الحكم فلا مفر من الهزيمة. يومًا ستعرف أني أقول الصواب وأن الله بعثني إليك لأنك أمل هذه العائلة. أتمنى فقط أن تراجع موقف أخيك من معاونة يوسف هذا المدعو صلاح الدين. لا ولاء لحكام الشام ولا لتركي ولا كردي. أنت تعرف وأنا أعرف. راجعه وقل كلمة حق. والدتك من أهل الشيعة حتى ولو كنت أنت سنيًّا مثل أبيك.

- أمي تطيع أخي يا رشيدة. أمي لا ترى سوى أخي..

- نعم بالضبط هي لا ترى سواه مع أن لها أولادًا آخرين. ترى أتعتقد أنك أقل منه ذكاء أم أقل رشدًا؟

- أنتِ..

- لا تسبني أنت أخي.. وأنا أريد الخير لك. فكر في الأمر ولو كان كلامي ضلالًا امحه كما تُمحى المدن وكأنه لم يكن.

العمل الدءوب دومًا يؤدي إلى نتائج إيجابية. لم تعد تنام؛ تخطط ليلًا ونهارًا. ذهبت إلى أم إبراهيم، جلست بجانبها وأخبرتها أنها تريد أن تزور السيدة نفيسة معها وأن مصر والقاهرة بها كل أولياء الله. ثم قالت إن يوسف بن أيوب الذي يزور ابنها يوميًّا ويدعوه للتمرد على الوزير شاور سني، وإنه في النهاية سيختار من يتبع طريقته ولا يمكن أن يكون ولاء يوسف لخليفة فاطمي وإمام. كيف ليوسف أن يكون ولاؤه لخليفتين واحد في بغداد والآخر في مصر؟

قالت الأم في رفق: ولكنه الخليفة نفسه هو الذي طلب مساعدة الأمير نور الدين الزنكي، فبعث الأمير القائد أسد الدين شيركوه من الشام ومعه ابن أخيه يوسف بن أيوب. يوسف يعمل من أجل الخليفة الآن وجاء من أجل الخليفة.

- أي خليفة يا خالتي؟

- من طلب منه أن يأتي، الإمام العاضد. شاور وزير خائن يستعين بالفرنج ونحن نعرف ما يفعلونه في البلاد.

- شاور لا يريد دخول الفرنج مصر يا خالتي..

- يا ابنتي لا طاقة لي على هذا الكلام ولا أفهمه، إبراهيم يعرف كل شيء.

رددت في مقت: إبراهيم يعرف كل شيء.

ثم قالت بصوت خافت: وسيغرقنا جميعًا.

استدارت لأم إبراهيم وقالت: أخبريني يا خالتي عن عروسته الجميلة ابنة التاجر، تدعى سيدة أليس كذلك؟ ما شكلها؟ هل يمكن أن نقابلها؟ متى سنزورها؟

نظرت إليها أم إبراهيم في ريبة، فقالت: أريد أن أعطيها هدية. ولكن إن أردت أنت أن تعطيها الهدية نيابة عني فلا بأس. لا أحد يحبني في هذا البيت. كنت أبحث عن أهل وأنا وحيدة في دربي.. ولكنها دنيا قاسية.

نظرت إليها الأم في ارتباك ثم قالت: يا ابنتي.. عندما تعرفين إبراهيم ستعرفين أنه نعم الأخ والسند.

- أحاول أن أعرفه ولكنه لا يترك لي فرصة. هل رأيته يبتسم في وجهي مثلًا؟ هل يتعامل معي كأخت ويهتم بأمري؟ ألم يفرق بيني وبين خطيبي؟ هل بحث لي عن آخر؟

ربتت على كتفها ثم قالت: أبشري خيرًا يا ابنتي واصبري هي أيام صعبة علينا جميعًا.

تركت الأم وذهبت إلى أخته شفيقة، ثم أخته كاملة، جلست معها ساعات، أعطتها الحلي والذهب وأصبحت صديقتها المقربة. أعادت على مسمعها ما قالته للأخ وزادت عليه أن زوجها سفيان يعمل

تحت إمرة إبراهيم، ولكن لا إرادة له يطيع الأوامر فقط. كانت تدور كالنحلة حولهم، تبث العسل والطنين في كل أركان البيت. وقررت الذهاب لزيارة خطيبة إبراهيم وأمها مع شفيقة أخت إبراهيم ودون علم الأم أو إبراهيم.

سمعت عن حب إبراهيم لسيدة، اختارها دون كل البنات. وجد فيها العقل والدين والخلق. انتظر أن يجد من تفهمه وتؤازره. كلهم يحبون سيدة وعندما تزورهم مع أمها تلمع عينا إبراهيم بالنور.. ابتسمت رشيدة وهي تتذكر الكلمات.

جلست معهم وخلعت خمارها وأعطتهم الأقمشة والثياب المطرزة بالذهب. ثم قبلت سيدة قبلتين على جبينها وقالت: ما أجملك! أنت زين ما اختار ابن عمي.

ثم تركتها مع أخت إبراهيم وخرجت وراء أم سيدة تساعدها في تحضير الطعام وهمست: عمتي أريد الكلام معك في أمر مهم. اصرفي الجواري.

نظرت إليها في فزع ثم صرفت الجواري فانفجرت رشيدة في البكاء وجلست على الأرض وأمسكت قدم أم سيدة وقالت: أرجوك بحق الشرف عندك أن تساعديني.

- أستغفر الله يا ابنتي..

رفعتها أم سيدة وقالت: ما الذي حدث. أنت نعم البنات.

أجلستها بجانبها فقالت رشيدة وهي تتزعم البكاء الحار: أخطأت ربما.. أعرف أني أخطأت وأستحق الرجم والجلد.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

- ولكن أتمنى أن تساعديني فلو عرفت أمي تقتلني. أنت تعرفين أنني كنت سأتزوج من حامل الدقيق.

قالت الأم في ارتباك: يا ابنتي..

كانت تعرف. عرفت كل شيء عن رشيدة. في الإسكندرية تنتقل الأخبار مع رياح الأمواج بسرعة وإتقان. ادعت أنها لا تعرف شيئًا، فقالت رشيدة وهي تمسح دموعها: لو لم أتزوجه فسيفتضح أمري يا عمتي. أنقذيني أرجوك أنت أم فلتتصوري أن هذا حدث لسيدة.

وضعت الأم يدها على فمها ثم شهقت في فزع وقالت: سأتكلم مع إبراهيم. هذا أمر عظيم.

- يقتلني لو عرف أني أخبرتك بشيء يا عمتي.

- ماذا بيدي أن أفعل. كيف تركت حامل القمح يعبث بشرف عائلة الصقلي. يا لها من مصيبة.. ربما أطلب فقط من إبراهيم أن يجد لك زوجًا.

تنهدت رشيدة ثم غطت وجهها بيدها وقالت في صوت خافت: حامل القمح لم يعبث بشرف عائلة الصقلي يا عمتي.. بل عبث به إبراهيم.. حامل القمح كان سيتزوجني حتى ينقذني من الفضيحة، لم أجد غيره لأتزوجه. فعلها إبراهيم، كان يزورنا في القاهرة، فعلها رغمًا عني.. يا عمتي..

أجهشت في البكاء ثم قالت: لو عرف أني أخبرتك يقتلني.

- ما تقولينه.. لو كان خطأ..

- هل يمكن لبنت أن تدعي هذا على نفسها لأي سبب؟ سينكر وسينكر، وربما يقتلني، سيقتلني.. ولكن أقسم لك إنه فعل هذا ورفض الزواج مني بعدها، وأقسم لك إنني كنت سأتزوج من حامل القمح، وأنا ابنة الصقلي لأني كنت خائفة وأريد الستر. ألم يفرق بيني وبين حامل القمح؟ لِمَ يفعل هذا؟ فكري يا عمتي؟ لأنه يريدني معه طوال الوقت حتى بعد زواجه حتى..

صمتت وقالت: اقتليني واذبحيني أهون عليّ مما يريدني أن أفعل.

- أنت تتهمين الرجل تهمة تودي بحياته، وتشين عائلتك إلى الأبد. هل تدركين؟

- أعرفك وأعرف أصلك الطيب. لن تفضحيني.

- ماذا تريدين مني؟

- أقنعيه فقط أن يزوجني من حامل القمح حتى لا يفتضح أمري وحتى أبتعد عنه. لا أعرف لو تزوج سيدة وأقام معنا في البيت ماذا سيحدث بيننا. أخاف يا عمتي.. أخاف منه. لا أريد منه سوى أن يجعلني أتزوج من حامل القمح.

قالت الأم بصوت مبحوح: فليفعل الله ما فيه الخير لنا جميعًا.

- أرجوك لا تخبريه بما حدث بيننا. أتوسل إليك أن تستري عليّ، أنا مثل ابنتك. أقنعيه فقط أن يزوجني من حامل القمح.

- فليفعل الله ما فيه الخير لنا. لا أعتقد أن سيدة تستحق هذا. لا زيجة تُبنى على الكذب وغضب الله.

كتمت رشيدة ابتسامتها ثم قالت: لا يا عمتي.. أرجوك لا بد أن يتزوج من سيدة وإلا سيقتلني. سيشك.. سيعرف أني أخبرتك بالحقيقة.. لو عرف ذلك فسوف يذبحني. أنت لا تعرفين ما فعل بي، كيف كتم فمي ثم استباح جسدي.. لو تعرفين!

- لن يعرف شيئًا أقسم لك. يفعل الله الخير. أي غم هذا؟! وأي مصيبة؟!

اليوم الانتصار هو يومٌ غير كل يوم. سيدة جميلة بيضاء بملامح متوهجة بشعر يصل إلى خصرها وأرداف تجذب الفرسان. تصورت القصة بينهما، هي جارته، قابلها كثيرًا، تبادلا الابتسامات. لا يزيد عمرها على السادسة عشرة، وإبراهيم سيد القوم هنا، لذا أن تحبه كل البنات أمر هين. أحبته وأرادته وعندما تقدم يخطبها من أهلها فرحت وزغردت بنفسها. بنت طيبة من بيت طيب ستكون سندًا له وعونًا. كيف أحبها مع أنه لا يبدو كمن يحب أو يكره، فلم تره يبتسم يومًا ولا يصرخ كأنه من أصنام الجاهلية. ولكن لا بأس. هو فرق بينها وبين خطيبها، وهي فرقت بينه وبين خطيبته، والبادي أظلم. أما الأموال التي سرقها منها فهذا أهم عندها من كل شيء. لن يكفيها تمرد الأخ والأخت عليه. ستعيد أموالها مهما كلفها الأمر. هذه أمانة من والدها أعطاها لها، وإبراهيم ليس أفضل منها في شيء حتى

لو ادعى الفضيلة والصدق أمام الجميع فهو بالنسبة لها سارق وظالم. طلبت من زبيدة أن تجهز لها المياه لتستحم وتزيح غبار الدسائس والمؤامرات وتتطهر من خبثه ونيته المظلمة. قالت زبيدة وهي تدعك ظهرها بالصابون: تبدين سعيدة اليوم يا سيدتي.

- كان يومًا كله انتصارات. زبيدة، ما رأيك في إبراهيم؟

قالت الجارية في خجل: ليس لمثلي أن تقول رأيها يا سيدتي.

نظرت إليها رشيدة.. إلى بشرتها السوداء وملامحها المستقيمة وقالت: أنت جميلة. احمدي ربك أنك لم تقعي في يد رجلٍ هرم يمتص شبابك. أنت هنا معي في أمان من كل الرجال. هل أحببت قط يا زبيدة قبل هذا الشامي يوسف بن أيوب؟

ابتلعت الجارية ريقها وقالت: لا يا سيدتي لا أجرؤ على هذه الرفاهية.

- الحب كالحلوى نتذوقه ليجعل الحياة أفضل لا أكثر ولا أقل. لا وجود له يا زبيدة. الشعراء يظنون أن الحب كالمياه العذبة بالضبط. ربما تشربينها يوميًّا وأنت لا تدرين أنك دونها للعدم. وعندما تستعصي عليك تجف العروق وتحتضر الروح. هذا كذب؛ المياه مياه، والرجال رجال.

- آه من كلامك يا سيدتي. من يملك قلبك يا ست الناس جميعًا.

نظرت إلى جاريتها في ذهول ثم قالت وهي تتمالك نفسها: هيًّا وراءنا الكثير اليوم. أسرعي بعض الشيء.

قالت الجارية وقد نسيت مكانتها لحظات: أمرك سيدتي.

نامت نومًا عميقًا وجرت على رمال البحر وضحكت مع بنات عمها. الانتصار يبدو قريبًا جدًّا. سمعت الخبر التعيس ومسحت دمعة في تأثر. سمعت أنه قد تم فسخ الخطبة بين إبراهيم وسيدة. تساءلت رشيدة عن السبب في ذهول، ثم قالت وهي تربت على كتف أم إبراهيم: هو يستحق أفضل منها، ابنك رجل صادق وكريم، لم أر مثله يا سيدتي. احمدي الله أن حقيقتها تبدت لك الآن قبل الزواج.

هناك أيام تعج بالانتصار مثل اليوم. تركته، تركت إبراهيم الحلواني الصقلي أهم رجل في كل أنحاء الإسكندرية، لفظته في تقزز من فعلته الشنيعة. ترى أكان يحبها؟ هل انفطر قلبه؟ والأهم هل اخترقت الصوارم كبرياءه وفتته تحت حوافر الخيول حتى أصبح لينًا رقيقًا وهزيلًا مثل الكنافة قبل الطهي؟ آه يا إبراهيم من مصيرك! فقد تحديت رشيدة، ومن يتحد رشيدة ينتظر الهزيمة كما ينتظر المراكبي الرياح. فلينشطر قلبك نصفين كلقيمات القاضي في يد الطفل الجائع يا ابن الصقلي، لا تعرف مع من تلعب ومع من تعلن الحرب. تتوالى الانتصارات كما تتوالى الأحجار في السقوط وقت الإعصار. سمعتْ عن الشجار الذي حدث بين حسين وإبراهيم، تجسست زبيدة، وسمعت الأم تبكي ليلًا أمس وتتكلم مع ابنها الصغير الذي هب في وجهها لأول مرة وقال إنها لا تحب سوى إبراهيم ولا تدافع عن أحد سوى إبراهيم حتى لو كان سيودي بكل العائلة إلى الهاوية. والغريب أنه في الليلة نفسها دخلت ابنتها تشكو أخاها وتقول إنه لا يعطي أجرًا يكفي لزوجها مع أن لها نصيبًا في الدكاكين والمصانع.

قالت إنها لا تجرؤ على الكلام معه ولكن لا بد للأم أن تتكلم. ازداد الحصار عليه تتمنى فقط أن يكون قد فهم أن رشيدة تنتصر، وأن رشيدة عندما تريد شيئًا تخضع لها كل أسود المنايا.

ليلًا وزبيدة تغطيها قالت في رجاء: سيدتي.. أشفق على الست أم إبراهيم هي طيبة جدًّا لم نر منها سوءًا.

- للحروب ضحايا يا زبيدة معظمهم من الأبرياء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 3 -

استدعى إبراهيم كل أهل البيت وأمه وأمها وحتى الجواري والخدم. دب الخوف في قلب زبيدة وقالت: يا سيدتي.. لا بد أنه عرف ببكاء أمه. ماذا سيفعل بنا؟

- ولِمَ يفعل بنا أي شيء؟ ما الذي فعلناه يا بنت؟ اعقلي بعض الشيء. هو يريد الكلام عن يوسف بن أيوب الضيف الذي لا يبرح هذه الدار.

ارتجفت الجارية وأسبلت جفنيها فقالت رشيدة: زبيدة! إياك.. انسي هذا الحب.

- لا أجرؤ يا سيدتي إنه ابن أخ أمير كيف لي أن أحبه وأنا لا شيء. ومن سينظر إلى بشرتي السوداء وأمامه كل بنات العجم؟

ضحكت رشيدة ثم قالت: الرجال لا تشبع من لون ولا نوع واحد من النساء.

- يا سيدتي.. مولاتي كوثر..

- أمي غير كل النساء. بل هي كل النساء معًا. من يعرف أمي لا يستطيع أن يسلوها ولا يعشق غيرها. ولكنها واحدة فقط.

- أنت مثلها يا سيدتي.

- يكفي إطراء فيَّ.. هيا حتى لا نتأخر على إبراهيم. تُرى.. هل سنرى الحزن في عينيه يا زبيدة؟ أكان يحب سيدة؟ لكم أتمنى أن يكون قد أحبها!

نظرت إليها زبيدة ثم تمتمت: لم نر منه شرًّا يا سيدتي.

- ماذا قلت؟

- قلت إن الحزن لا بد لم يترك عينيه.

- هذا أفضل. هل حاول جواد رؤيتي؟

التفت حولها ثم قالت: حاول مرات ولكن لم يستطع.

ابتسمت في ارتياح.

في حجرة الجلوس جلست أمه وهي تشبك يدها والانكسار يبدو على عينيها، وبجانبها أختاه عابستين، وإخوته الرجال، وحسين ينظر حوله في عدم صبر. دخل إبراهيم وهو يحمل سيفه في الجب، نظر إليهم في سكون ثم قال في حسم: الإسكندرية كلها ستحارب مع نور الدين الزنكي ورجاله في مصر، أسد الدين شيركوه ويوسف بن أيوب. لا أمان للوزير ولا أمان للفرنج. إن دخلوا قرية نهبوها وأذلوا أهلها. من يستعين بالفرنج هو عدو لنا.

قال إخوته: السمع والطاعة يا أخي.

نظر إلى حسين ثم قال: وأنت ما رأيك؟

تمتم بصوت ضعيف: أخاف من الخراب والحرب.

- الحرب قادمة لا محالة إما أن نواجه بشجاعة أو نختبئ في بيوتنا كالنساء. أهل الإسكندرية لا يختبئون ولا يخشون طريق الحق.

- يا أخي..

قاطعه في حسم: لا تقاطعني.

قال حسين وهو يكتم غضبه: يا أخي..

- الرجل يدافع ولا يتردد. الفرنج في مصر.. ماذا تريدنا أن نفعل؟ ننتظر حتى يلوثوا الشرف ويقتلوا الأطفال كما فعلوا في القدس؟ أريد أن أسمعها منك..

التقت أعينهما ونظرت رشيدة إلى حسين وهي تكتم ابتسامتها، فقال في خفوت: السمع والطاعة يا أخي.

هز إبراهيم رأسه ثم نظر حوله وقال: ويكأن الفتنة تأتي مع الغراب لتعلم الأخ كيف يواري سوءة أخيه. تُرى من أين جاءت الفتنة؟ وكيف دخلت بيتنا؟

التف حوله برهة ثم نظر إلى رشيدة وقال في رقة: اقتربي يا ابنة العم.. أنت هنا تحت رعايتي..

نظرت إليه في ريبة فقال: لا تخافي.. ما الذي يدعو للخوف.. قفي هنا أمامي..

اقتربت بخطى واثقة وهي تنظر لزبيدة التي تفتح عينيها في دهشة ثم وقفت أمامه، فابتسم في وجهها، ورفع كفه وهوى بها على خدها بكل قوته.

خرجت منها شهقة وهي تقع على الأرض فصرخت أمها ووضعت أمه يدها على فمها تكتم الصرخات وارتعدت النساء.

قالت والنار تحرق خدها والدموع تتساقط بلا توقف: كيف تجرؤ.. لو كان أبي حيًّا.. أنت..

أمسك بشعرها أمامهم فصرخت فقال: لو كان أبوك حيًّا لقتلك أو أمرني بقتلك.

قالت أمها: يا إبراهيم.. ليس من حقك أن تضرب ابنتي.. هي لم تفعل شيئًا.يا..

قال في حسم: يا أم رشيدة.. ابنتك لم تتربَّ بعد، تحتاج إلى التربية.. الكثير من التربية..

فتحت فمها فنظر إليها وقال: يا أهل بيت إبراهيم الصقلي.. رشيدة هنا تحت رعايتي، لا تتكلم مع أحد سوى بإذن ولا تخرج من حجرتها سوى بإذن ولا تشتري أي شيء سوى بإذن. فليخرج كل من في الحجرة الآن وتبقى رشيدة وأمها فقط.

نظرت إليه أمه ثم اقتربت وقالت في رفق: يا بني.. هذا لا يجوز.. والدك وعمك.. البنت صغيرة حتى لو أردت تعليمها فلتعلمها برفق..

قال وهو ينظر إلى رشيدة: اخرجي يا أمي.. سنتكلم بعد برهة عن كل شيء. هيا.

قال حسين في حنق: يا أخي.. لِمَ كل هذه القسوة؟ إنها أخت لنا..

قال إبراهيم في تهكم: أترك لك أنت الحنان يا حسين. سنتكلم معًا غدًا.

ما إن خرجوا حتى قامت رشيدة وقالت في تلعثم وهي لا تصدق ما حدث لها: ستدفع ثمن فعلتك.. أقسم إنك ستدفع ثمن فعلتك.. من تظن نفسك.. سأشكو إلى القاضي اليوم.. الآن.. سأشكو إلى القاضي.. تأخذ أموالي وتضربني وتحبسني و..

جلس وقال في هدوء: فلنشكو إلى القاضي معًا يا ست البنات.. يا شريفة يا عفيفة يا ابنة الصقلي والأرمني والحلواني. ما الذي حدث بينك وبين حامل القمح؟

فتحت فمها في فزع ثم قالت: كيف تجرؤ.. أنا ابنة عبد الودود.. كيف..

صاح بأعلى صوته: أدخلوا لي بائع القمح هنا..

ثم نظر إليها وقال: ضعي خمارك هيا..

وضعت الخمار بيد مرتجفة ودخل جواد ويداه مربوطتان ورأسه منكس. فأخرج إبراهيم سيفه ثم قال لها: سأذبحه الآن ثم أذبحك.. ما رأيك؟

صاحت: لقد فقدت عقلك..

- ما الذي حدث بينكما؟

قالت مسرعة: لا شيء.. لم يحدث شيء أقسم لك.

نظر إلى جواد ثم رفع يده وصفعه وقال وهو يمسك بتلابيبه: أتريد أن تموت؟

- أرجوك أن تصدقني يا سيدي..

- لست سيدك.. ستبقى هنا حتى أنهي كلامي مع ابنة العم. وأعرف هل سأقتلك اليوم أم تترك المدينة بلا رجعة.

ثم أمر الحراس بأن يخرجوه. نظرت كوثر في فزع وعدم فهم.

- رشيدة ارفعي خمارك.. وانظري إليّ..

قالت في مرارة: كل هذا من أجل حبيبتك..

فقال: كيف صور لك خيالك للحظة أن تحكي هذه الحكاية.. ومن يصدقها يا ابنة عمي.. أتعرفين؟ لو أرغمني الجان على أن أعاشر الشيطانة نفسها لفعلت، ولكن لو حاولوا إرغامي على معاشرتك

لاخترت نار جهنم إلى أبد الآبدين.. لو كنت تقولين إنك ستتزوجين من جواد من أجل الفضيحة فلا بد أن هناك فضيحة.. ترى من المسكين الذي وقع ضحيتك؟

قالت في صوت ثعباني: تعرف أنك أقوى مني بدنًا، وإلا كنت جعلتك تدفع ثمن كلماتك.

أشار إلى الباب فدخلت امرأتان ضخمتا البنية ثم قال لهما: أريد أن أتحقق. لا صدق يخرج من فمها. لو كان بائع القمح قد نال منها فلا بد من الزواج.

صرخت في وجهه: هل جننت؟!

نظر إلى أمها ثم قال: ابنتك تقول إنها فقدت شرفها.. قالت هذا لأم سيدة، وأقسمت لها ألا تخبر أحدًا... ولكنها نسيت أن إبراهيم يعرف وسيعرف كل شيء. عندما تعترف البنت بهذا فما رأيك يا كوثر يا أم رشيدة؟!.. هل نذهب للقاضي كما تريد؟

وضعت يدها على فمها ونظرت إلى ابنتها ثم قالت: هي صغيرة وربما..

- ربما لم تكذب.. لِمَ أصرت على الزواج من بائع القمح؟ لأنه شغفها حبًّا.. لو كانت تريده لهذه الدرجة سأزوجها إياه ولكن لنتأكد أولًا. لو كانت فقدت شرفها فهي تستحق مائة جلدة، أما لو كانت تدعي عليّ أني عاشرتها فهي تستحق ثمانين جلدة. سنرى..

قالت رشيدة مسرعة وهي تنظر إلى السيدتين: إبراهيم كنت أكذب.. بائع القمح لم يلمسني.. أنت السبب.. أخذت مالي وحبستني هنا وفرقت بيني وبين خطيبي، فأردت أن تذوق من نفس الكأس المرير.. لا أكثر.. إبراهيم..

لم ينطق أشار إلى السيدتين ثم إلى أمها وقال: سأنتظر هنا حتى تتحققَا وأمها تشهد..

أمسكت بيده وضغطت عليها وقالت: لا تفعل هذا بي..

- لم أفعل شيئًا.

ضغطت على يده بقسوة وقالت: أنت الشيطان وليس أنا. تدعي المثالية وبداخلك حقد عليّ وعلى أمي وأبي أعرف.. لأننا أغنى وأفضل.. تريد سرقة أموالي و..

شدتها السيدتان خارج الحجرة وهي تصرخ وتتذمر وأمها تقول في رفق: هذا إثبات براءتك يا ابنتي.. لِمَ الغضب؟

بعد برهة خرجت الأم والسيدتان وقالت الأم في فخر: ألم أقل لك إن ابنتي أطهر بنت في كل البلاد. عذراء لم يمسسها رجل.

ابتسم ثم قال: ثمانون جلدة إذن. أين هي..

دخلت عليه وقالت وهي تمسح دموعها: أقسم إني سأقتلك بيدي..

- أتريدينه لهذا الحد؟ لِمَ تريدين بائع القمح؟ أم أنك تريدين أي رجل؟

قالت وهي تنظر إلى عينيه: أحبه.

رفع يده ليصفعها مرة أخرى، لكنه أنزلها وقال: هذه الكلمة تخرج من جارية وليس من ابنة عمي. الحب للغواني والجواري.. كيف تجرئين؟

قالت وهي تحتضن نفسها: لِمَ لا تتخلص مني وتتركني أعود إلى دياري.

- هذا ما لا أستطيعه. لو كنت تحبينه أتركك تتزوجينه، ولكنه لن يدير دكاكين عمي وأجدادي.

نظرت إلى أمها، ثم قالت: هل تسمعين يا أمي.. يريد أموالنا لا أكثر.

قالت كوثر على استحياء: يا بني.. لو تزوجتها أنت..

شهقت رشيدة ثم ضربت بكفها على وجهها وقالت: يا إلهي يا إلهي.. ماذا تقولين.. أقول لك أحب جواد تطلبين من الشيطان الزواج مني..

قال إبراهيم في حسم: أنا أتزوجها فهذا مستحيل يا أم رشيدة. فأنا أنفر منها نفور العابد من الذنوب، وما فعلته وما قالته لا يؤكد سوى حقدها ومرض نفسها. ليس لدي وقت للتفكير في أمرها الآن. أريدك أن تسيطري على شرها لا أكثر. ولكن أقسم لو فعلت أي شيء آخر.. لو نشرت الوقيعة بيني وبين إخوتي أو تكلمت عني بسوء، لو تجرأت على أي شيء فلن ترى جوادًا بقية عمرها، سأقتله، ثم أحبسها هنا حتى تموت. هل تسمعين يا رشيدة؟

قالت وهي تنظر إلى عينيه: أسمع يا ابن عمي.

- وتطيعين أوامري؟

- وكيف أثق في عهد لك بعد كل ما فعلته بي؟

- لا حيلة لك ولا بد من الثقة في عهدي.

- بل لي كل الحيلة.

اقترب منها ثم قال: أتريدين ثمانين جلدة؟ أم طاعة أوامري؟

- أفضل الثمانين جلدة.

قال في حسم وعيناه لا تتركان عينيها: ولكنك ستطيعين أوامري.

قالت في تحدٍّ: سيدة مسكينة حطمت قلبها. لن تتزوجها يا بن عمي، لن يوافق أهلها حتى لو أثبت أنك لم تفعل شيئًا.

فتح فمه من جرأتها ثم قال وهو يقترب منها: أعدك ووعد الحر دين أنني سأتزوجها وستحضرين الزفاف.

نمت حدة التوتر وترعرعت، طاف حسين بعينيه في الحجرة والإحباط يسيطر. هل يترك كل شيء ليتخلص من سيطرة أخيه، أم يبقي على الرحم الذي طالما أعطى وجاد؟ هل يجرؤ على قول لا

أمامه؟ هل يخبره أنه يوقن أن النهاية آتية مع جند الشام؟ هل يتحدى إبراهيم؟

استرقت عينا إبراهيم النظر إلى أخيه، يتفحصه، يقيس مدى ثورته وغضبه. ثم قال في هدوء: تكلم.. أسمعك..

فقال حسين في حنق: لا أجرؤ على الكلام. يا أخي أنت لا تسمعني. أنت دومًا على صواب.

- ها أنت تجرؤ على انتقادي فلتجرؤ على الكلام. ما الذي قالته رشيدة فألهب الحقد بداخلك؟

قال حسين وهو يتحاشى عينيه: لا أريد الزواج من عائشة.

- أتريد غيرها؟

- لا.. ولكني لا أريدها.

- ما الذي لا يعجبك فيها؟ هل رأيتها؟

قال وهو يدق بقدمه على الأرض: أنت اخترتها، وليس أنا.

ابتسم إبراهيم وقال في هدوء: حسنًا سأفسخ الخطبة.

- لا تفسخ الخطبة.

نظر إليه في حيرة، فقال حسين: أنا سأفسخها.

- افسخها أنت.. عائشة بارعة الجمال، سأزوجها لعلي الذي يعمل معنا.

قال في عصبية: ولِمَ تزوِّجها؟ ولِمَ تختار لها؟ وما شأنك بها؟ لِمَ تتحكم في البشر وكأنك الخليفة؟

فقال إبراهيم في حسم: حسين..

- اعذرني يا أخي.. تراكم الحزن ولم أعد أطيق. لا أطيق بقاء يوسف بن أيوب هنا ولا جند الشام.

- أتفضل جند الفرنج؟

- أفضل جند الجيش الفاطمي.. هو جيشنا..

- هو جيش الوزير لم يكن يومًا جيشنا..

- زوج أختك منهم، «أفتكين» زوج شفيقة من الجيش.. أنت تعرفه وتعرفهم..

- أعرفه نعم ولكني لا أعرفهم جميعًا، بعضهم يعمل في إخلاص وبعضهم يطيع أوامر الوزير فقط بلا تفكير ولا معرفة العواقب.. إذا كنت لا تثق في جند الشام فكيف يثق بهم الخليفة العاضد نفسه؟

- ما لنا والسلطة والخلفاء؟! نحن نصنع الحلوى طوال عمرنا، لا أريد أن ألقي بنفسي إلى التهلكة ولا بأمي ولا..

قال إبراهيم في حسم: لا تريد.. ومن أنت لتريد؟ أنت تطيع أوامري فقط. استمعت إليك وكل كلامك ماذا لو.. لا أخذت قرارًا ولا أتيت بجديد. إذا أردت أن تثور فلا بد أن تبني أيضًا، فالهدم ليس النهاية.. ماذا ستفعل عندما يدخل الفرنج الإسكندرية؟ كيف ستحمي أمك وأختك؟

- لن يدخلوا لو لم تتحالف مع يوسف.

ساد الصمت ثم قال إبراهيم: ماذا تبغي؟ المال؟ تتكلم عن الزواج والحروب والجيش وفي عينيك طمع الصبي للحلوى لا أكثر.

قال في غضب: أنا لست بطامع يا أخي حتى لو سألت عن مالي..

- أوقعت رشيدة بينك وبين أخيك.. هل ترى نفسك؟ هل تتذكر وصية أبي؟ تريد تقسيم الإرث وضياع الهيبة؟

- ما تعطيني إياه لا يكفي.

- أعطيك حقك.

فتح حسين فمه فقال إبراهيم وهو يكتم غضبه: أعطيك حقك يا بن أمي.. لا تجعل الوقيعة تمزق أربطة الوصال، ليس للطمع مكان في بيت الصقلي. نحن عصبة كما أرادنا الأب. لو كان لديك شكوى مني نؤجلها حتى تنتهي الحروب. رشيدة جاءت بالشر لا خير في قلبها، إذا كانت أشعلت الفتنة بين رجال مصنع الحلوى فماذا ستفعل بين الإخوة؟ إياك أن تصدقها.

- ولكنك لا تعطيها حقها. هي أموالها..

- أعطيها حقها أيضًا.. ولكنها لن تدير أموالًا وهي تفرق ولا تجمع. من يؤلف بين القلوب هو من يحكم يا أخي، أما من يتبع الهوى فمكانه في البيت والمطبخ يصنع الحلوى للنساء، ولا يصنعها للسلاطين والخلفاء. نؤجل الضغينة ونتذكر كلمات والدنا. أنت أخي..

مد إبراهيم يده ثم قال: تعالَ هنا.. ربِّت على يَدِي، وعِدْني أننا سنبقى واحدًا أمام الفرنج والجيش الفاطمي وجند الشام ويوسف بن أيوب أيضًا.

بلع حسين ريقه في حيرة ثم مد يده، وقال: سنغرق معًا..

- تفاءل.. الحق معنا.

وجود رشيدة كأنه الغم والفقر والجراد والقمل. لو يستطيع إبراهيم أن ينزعها من على ملابسه، أن يتخلص من فتنتها وشرها! أغمض عينيه وهو يتذكر كلمات سيدة، قالت إنها تصدقه وإنه سيدها ورجلها ليس لها سواه. قالت إنها لا تثق في رشيدة وتعرف مؤامرتها. ولكن التخلص من الجراد ربما يودي ببعض النباتات أو كلها. وجد نفسه يمتطي فرسه ويتجه إلى الجيزة، خرج في الغسق على أمل الوصول سريعًا والعودة قبل قيام الحروب. أراد زيارة بحنس. يعرفها، حكى له الأب عن تبجيل الساحرة واحترامها للقدماء. لا أحد يعرف دينها ولكنها أهل للثقة والبصيرة. موجودة في كل زمان ومكان. كل واحدة تربي خليفتها وتعلمها علم القدماء ولغتهم. يحتاج إليها اليوم. كلمات حسين نفذت

إلى القلب. لم يتجرأ عليه أخوه قط من قبل، هذه البداية فقط.. بدأ يفقد الثقة في الأخ الأكبر، وعما قليل تنتهي عائلة الصقلي.

عند الوصول طلب الدخول على الساحرة، فسمحت له. دخل وقدم التحية للقدماء، يعرف ما ستبغي وما ستريد. أتى بالكعك الذي تحبه وعروس المولد ووضعهما أمامها ثم قال: أحتاجك يا بحنس.

كانت تنظر في رقعة قديمة، رفعت رأسها فلمعت عيناها بضوء المعرفة وتناثر على جبهتها شعرها الأسود. قالت: الحلواني.. ابن الصقلي والأرمني والمصري.. كيف حالك يا إبراهيم؟ لم تأت منذ أعوام. تنسى بحنس ولا تتذكرها سوى وقت الأزمات.

قال وهو يجلس: بنت أتت بالخراب، بل الخراب يحاصرنا وهي تزيد عليه. كل ما مضى أسهل من القادم. الفرنج مصيبة وابتلاء، هم غير كل ما شهد عليه الأجداد. لا أعرف لو كان لي طاقة على أن أعاصر هذا البلاء. يأتي البلاء في صور مختلفة كالشيطان. رشيدة...

ابتسمت ثم قالت: الشجاعة لحظة يختار فيها الإنسان أن يناطح شياطين السماء والأرض وحده بلا تردد ولا وسواس ملقيًا بكل الحذر إلى قاع النهر متشبثًا فقط بسنَا البرق. قلت هذه الكلمات لجدك يا إبراهيم.

قال في مرارة: مصر.. أضعها نصب عيني وأتمنى ألا يكون ابتلائي أن أراها منهزمة، فهذا ابتلاء مُبين يا بحنس.

رددت: هو ابتلاء مبين. كنت أقول إن الشجاعة لحظة..

- لو كنت تتكلمين عني فـ..

قاطعته: لا أتكلم عنك.

نظر إليها في ذهول ثم قال: تتكلمين عمن؟ مَن الشجاع؟ يوسف بن أيوب؟

ابتسمت وقامت وقالت: جئت من أجل ابتلاء وفتنة.. بسبب بنت أليس كذلك؟

- هو كذلك.. رشيدة!

قالت وهي تخرج إلى الصحراء: كنت أتكلم عنها.

فتح فمه في فزع ثم قال: بحنس.. ماذا تقصدين؟

- بحنس لا تشرح كلامها يا حلواني.. تعال لي بعد حين ولا تنس أن ترسل سلامي ليوسف بن أيوب.. سيأتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اجتمع الرجال في مسجد العطارين، تحت لوحة من الرخام تُخلِّد اسم بدر الجمالي، السيد الأجل سيف الإسلام ناصر الإمام.. قال إبراهيم: رجال الشرطة تملأ المدينة والفرنجة على الأبواب.

فقال يوسف في صوت خافت: يا رجال المسلمين لا عهد للفرنجة ولا يجوز أن نلجأ للغرب ونخترق البحار لأننا لا نستطيع أن نحل مشاكلنا. أي عجز أصاب أمة المسلمين؟ اليوم الفرنجة تساعد شاور وتثبت حكم الوزير وغدًا تنقلب عليه. الطمع كالفرس المغامر الذي يتسرج بهوى النفس ويخوض في الصحراء في جرأة، الخطر في تشرذمنا وليس في الفرنجة.

نظر الناس إليه، تساءل البعض عمَّن يكون. قال البعض: إنه ليس بقوة جند الترك، وقال آخرون: إنه ليس عربيًّا. كيف للكردي أن ينافس التركي في القتال؟ تهامس البعض أن عائلته من إدوين، جاء من مدينة قريبة من مدينة بدر الجمالي الأولى، ولكنه ليس مملوكًا كبدر الجمالي بل وُلد في العراق وعاش في الشام، خجله غريب على القواد، وكلماته الهادئة أكبر من سنه الذي لم يتجاوز السابعة والعشرين.

استمع إليه إبراهيم ثم قال: يوسف بن أيوب جاء ليساعدنا. أهل الإسكندرية لا تخضع لأحد سوى الله. العزة ممتزجة بالأضلع والدماء كلها كرامة. سيجد فينا عونًا له طالما جاء ليؤلف القلوب مثل بدر الجمالي.

نظر يوسف إلى اللوحة في المسجد ثم اقترب من إبراهيم وقال: يا أخي لا تقارن بيني وبين الوزير؛ أنا عبد الله وهو السيد الأجل.

- أنت من أهل السنة وهو من أهل الشيعة.

قال يوسف سريعًا: ما أتفه خلافاتنا! وما أقساها! عندما يمحو الفرنج أثرنا كلنا ربما نعرف أن الخلاف كالخنجر المسموم لا شفاء منه ولا نجاة. أنا جئت مع عمي بأمر من خليفتكم العاضد، استغاث بنا من سطوة وزيره وتوغله.

راقبت الشرطة اجتماع الرجال، وصلت الأخبار لشاور، أهل الإسكندرية من الشافعية والسيطرة عليهم استحالت على مر العصور منذ عهد عمرو بن العاص، لو لم يكسرهم اليوم فلا أمل له في البقاء. هو بجيشه وجيش الفرنج قادر على أن يهزم نور الدين ورجاله والشاب الذي تركه عمه في الإسكندرية يحث أهلها على الثورة. فليؤدب شاور أهل الإسكندرية أولًا ثم يتفرغ للشاب وعمه.

نفحات الثورة تملأ الهواء وتثير الترقب والحذر. اتفق الرجال على أن محاربة شرطة المدينة هي أول خطوة للسيطرة على الإسكندرية، ثم طرد كل رجال الوزير شاور منها. قرر الرجال وعلى رأسهم إبراهيم أن يجتمع النساء في البيوت ويقف رجلٌ على حمايتها، ثم يذهب الرجال لمقاتلة جنود شاور المتمركزة على أبواب مدينة الإسكندرية. كل عشرة بيوت تجتمع في بيت. فتح إبراهيم بيته لسيدة ولأهلها وإخوتها وكل الجيران. اجتمعت النساء هناك. ثم قرر أن يبقى أخوه حسين ليحرس البيت بالسلاح، بينما يذهب هو مع يوسف لمحاربة الجنود خلف أسوار الإسكندرية.

هرولت رشيدة إلى أختَيْ إبراهيم، تكرهانها، وهناك تاريخ حافل بين السلفتين أم إبراهيم وكوثر أمها. غيرة وحقد. من المؤكد أن الأختين لن تحباها. ولكنها ستحاول. شفيقة متزوجة من جندي تركي يدعى «أفتكين» في الجيش الفاطمي، وكاملة متزوجة من سفيان الذي يعمل مع إبراهيم. بدأت بشفيقة، أغدقت عليها الهدايا، ثم أخبرتها أن أخاها قريبًا سيحارب زوجها وربما يقتله. فزوجها الجندي التركي في الجيش، والجيش يسيطر عليه الوزير شاور، لذا فزوجها أصبح عدوًّا لإبراهيم الذي يستعين بالجيش الشامي اليوم. قالت الأخت في حسم: إبراهيم هو أبي وليس أخي فقط، ولو كان عليَّ الاختيار فسأختار أخي.

قالت رشيدة وهي تمصمص شفتيها: أريدك أن تفكري في أولادك، وليس في نفسك فقط.

ترددت شفيقة ثم قالت: ليفعل الله الخير. أخي لن يؤذيني، هو من زوجني وهو من رباني بعد موت أبي.

نفخت في غيظ وبعض الأمل، ثم استدارت لكاملة، وسألتها لِمَ يعمل زوجها عند أخيها لو كان لها حق في الإرث؟ لِمَ يخضع هذا البيت كله لإبراهيم كأنه هو الإمام؟ مع أنه رجل يطمع ويخطئ ككل البشر. للفتنة مرونة وحِدَّة معًا، تتسلل إلى العروق حتى وإن لم تصل إلى الأطراف. رشيدة تعرف هذا. ابتسمت وهي ترى ذرات الشك في عيني شفيقة، وبعض الأسى في عيني كاملة، وعادت إلى حجرتها في انتصار.

زعمت رشيدة البكاء وهي تتحدث لحسين مستغيثة: يمنع عني الأكل يا أخي.

نظر إليها في فزع، فقالت: جاء بحبيبته لتعيش معنا هنا بعد أن أذلني. ما يفعله سيحطم به عائلة الصقلي. صدقني.

- هدئي من روعك يا بنة العم.

ثم أخرج من جيبه المال وقال: خذي ما تريدين.

قالت في استغاثة: أنت نعم الأخ. أرجوك أن تدافع عني. أرجوك. ضربني وحبسني. أريد لقاء جواد.

قال في فزع: لا أستطيع يا رشيدة.

- هات لي حقي أنت من تستطيع.

- لا حق لأحد سوى إبراهيم.

- جدنا لم يكن يرضى عن هذا. لا جوهر الصقلي ولا بدر الجمالي.

ورغم حديثه معها، رتب حسين لها لقاء مع جواد. كان جواد مختبئًا في أحد البيوت المهجورة عند الميناء. خرج حسين معها ثم قال: سأبقى معك وأنت تقابلينه.

قالت في فرح: أنت أفضل أخ في العالم كله.

قالت وهي ترتجف فرحًا: جواد، ماذا فعل بك الطاغية؟

قال وهو يلتفت حوله: لا أحد يستطيع أن يفرق بيننا يا سيدتي.

ابتسمت ثم قالت هامسة حتى لا يسمع حسين: تسرق كل أمواله.

فتح فمه في فزع فقالت مؤكدة: تسرق كل أمواله فهي أموالي أنا وتعطيها لي..

- يذبحني.

- لن يستطيع، الحرب على الأبواب وهو ليس هنا طوال الوقت. أعطني الأموال..

- وهل سنتزوج بعد هذا؟

- أتسأل يا رجل؟! لِمَ تحملت كل هذا العذاب يا ترى؟

- يا مولاتي..

- بعد غد تعطيني كل أموال خزانة المصنع، وكل الطحين والسكر. هو مشغول الآن والمصنع أمامه حارس أو اثنان فقط.

- سأحاول.

- لو حاولت خيانتي فأنت تعرف أني أستطيع سجنك. أليس كذلك؟ بعد غد تعطيني الأموال. سآتي هنا لأقابلك.

- مولاتي.. الحب لا شفاء له ولا خيانة تصاحبه.

ابتسمت ثم قالت وهي تنظر لحسين وتمسح دمعة لم تتساقط: هيا يا بن العم.

طوال الطريق وحسين يحاول أن يعرف منها اتفاقها مع جواد بلا فائدة. بدأ يستشعر الخوف من أن تكون ثقته بها ليست في محلها. من يدري؟ هذه أيام كلها غدر وفوضى. الوزير ضد الخليفة والخليفة يستعين بجنود الشام، والوزير يستعين بالفرنج. بقي صامتًا فأدركت شكوكه، فقالت في حسم: هل تثق بي يا حسين؟

نظر إليها ثم قال: لا أعرف.

- هل تتفق معي أن أخاك ظالم؟

- هو أخي. هو كل من أعرف منذ موت أبي.

- ولكن الله يأمرنا أن نقول الحق ولو على ذي قربى.

- إياكِ أن تؤذيه، جواد لا يليق بك، أنت ابنة الصقلي.

- الحب لا يعرف الفروق. لا وطن له ولا لون.

- لم أكن أعرف عنك أنكِ برقَّة الشعراء.

مدت يدها ثم قالت وهي تربت على يده: ما فعلته معي اليوم يوطد صداقتنا. أنت أخ وسند بعثك الله لي. أعني أنا يتيمة وحيدة مقهورة. أنت رأيته يضربني ويحبسني. حتى أبي لم يضربني قط. لِمَ تذلني الأيام يا ترى؟!

- نعم رأيته. أقسم أني لم أره يسيء معاملة أحد هكذا قط.

- تتجلى حقائق البشر وقت القدرة أو الحرب. وهو قادر اليوم ونحن في وقت حرب. أريد حمايتك.

- كيف تحمينني؟

- ستعرف.. ليس الآن. ولكني أعدك أن هذه البنت الضعيفة ستحميك يا ابن عمي، وستدعمك وستفعل كل شيء لتعطيك قدرك الذي تستحقه.

سرقة المحلات لم تكن بالسهولة التي توقعتها. دخل جواد، نعم، ولكنه لم يخرج. قبض الحارس عليه وكأنه ينتظره وألقى به في سرداب داخل المصنع المطل على البحر، وأخبره أنه سينتظر أوامر إبراهيم عند عودته. فلم يأت جواد في ميعاده ولم يحصل لا على الأموال ولا على الحلوى. انتظرته في قلق فتحت النافذة، تنتظر خبرًا يريحها. ولكنها رأت ما لا يريح قط.. رأت إبراهيم!

فتح باب حجرتها فشهقت في فزع وفتحت عينيها وهي لا تصدق جرأته، انحنت الجارية التي تجلس على الأرض بجانب رشيدة، فقال إبراهيم في حدة: اتركينا وحدنا.

قالت وهي تصيح: أنت تعرف أن هذا لا يجوز، تتهجم علي في حجرتي.. ماذا تريد؟

- لا حياء لديك يا رشيدة ولا أدب، لا تدعي ما ليس فيك. لا ذهلت ولا اندهشت يا بنة العم. اصرفي جاريتك أريد الحديث معك.

خرجت زبيدة في خجل فأغلق الباب، نظرت إليه في عدم تصديق ثم قالت: هل ستضربني مرة أخرى؟

أمسك بيدها وأجلسها أمامه ثم ترك يدها في اشمئزاز وقال: ادعيت عليّ الفُجر، ثم قلبت قلب إخوتي عليّ الواحد تلو الآخر. أصبحت أختي تنظر إليّ في ترقب، وثار عليَّ حسين مع أنه قرة عين لي وأقرب إخوتي إلى قلبي. فرقت بيني وبين مَنْ أحب. ثم حاولت سرقة أموالي. أي جريمة لا ترتكبينها يا رشيدة؟ سرقة، كذب، نفاق، إشعال الفتن.. وماذا أيضًا؟

نظرت إلى عينيه في ثبات ولم تنطق. لبثا يحدقان في عيني بعضهما حتى قالت في صوت مبحوح: أنت بدأت بالشر. كنت مستقرة مع أمي في الفسطاط وسأتزوج بمن أريد، وأنت حطمت كل أحلامي.

ردد: تتزوجين بمن تريدين.. هل شققت قلبك بالتفرقة بينك وبين حامل القمح؟!

قالت بلا تردد: فعلت.

ابتسم، أطرق برهة، ونظر إليها من جديد وقال: أتذكرك يا رشيدة منذ كنت طفلة.. لدلالك وتصميمك سحابة كالتي تأتي قبل الإعصار. لو أردتِ شيئًا ولم تحصلي عليه فأنت مستعدة أن تهدمي البيت

بأكمله. أتذكرك وأنت طفلة عندما رفضتْ أمك أن تأكلي من عروس المولد قبل أن يأتي المولد فألقيت بالعروس على الأرض ثم دهستها بقدميك ثم صرخت وبكيت وأنت تدقين قدمك على الأرض، وطلبت عروسًا أخرى ووافقت والدتك بلا تردد. فأكلتها في غضب وقد علمتهم درسًا عن الانصياع لأوامر رشيدة. قال عمي حينها هي الوريث الوحيد ومن يحمل اسم عائلة الصقلي في الفسطاط والقاهرة، لا نريدها أن تموت مثل إخوتها. فلتعبث كما تشاء، فلتصرخ وتطلب، وتظلم، وتبدد الأموال، فهناك رشيدة واحدة كلنا نجري في محرابها. أتذكرك يا رشيدة.

قالت في تحدٍّ: لو كنت تتذكرني لعرفت أني سأحارب..

صمت. ثم نظر إلى الحائط وقال في تأمل: كنت أتوقع أن تحاربي.. ما أدهشني يا بنة العم هو عدم معرفتي بما تحاربين من أجله. أمن أجل العروس التي لم تقتنيها؟ أم من أجل منعك من أكلها قبل المولد؟ هذه المرة لم أعد أفهم ما تحاربين من أجله. هذه المرة..

اقترب من وجهها فجأة ونظر إلى مقلتيها كأنه يخترق القلب وقال: رشيدة.. هذه حرب غير كل الحروب. فلا العروس يمكن استبدالها، ولا تحطيمها سيعيد الرمق إلى الشرايين. أتفهمينني يا بنة العم؟

بلعت ريقها وقالت في حيرة: لا أفهمك.

- بل تفهمين وأفهم منذ البداية. لن تحصلي على ما تريدين.

قالت في حدة وعدم ارتياح: أنت لا تعرفني ولا تعرف ما أريد.

اقترب منها وقال في صوت هادئ: بل أعرفك وأعرف ما تريدين. ما تخفين داخل فؤادك وما يخرج من قلبك كل الفتن. أؤكد لك أنني أعرف وأن تحقيق أحلامك مستحيل.

أزعجتها كلماته ولم تنطق.

سمعت أم إبراهيم همهمات رجال الشرطة اليائسة وجريهم في الشوارع، ثم سمعت صراخًا من النساء، ثم صوت ضرب وسيوف، فنادت بأعلى صوتها على كل أهل البيت أن يأتوا إلى حجرة واحدة يختبئون فيها معًا حتى تنتهي المعارك في الطرقات. شدت يد رشيدة وأطفأت الشموع ومكثت النساء معًا في صمت لا يتخلله سوى الأنفاس الخائفة. همست سيدة وهي تحتضن أمها: متى يأتي إبراهيم؟ أمي..

فقالت رشيدة وهي تطبق شفتيها: هيا ابكي كالنساء.

أخفت سيدة وجهها وصوت أقدام الرجال تقترب، ثم ضغطت بكل قوتها على كتف أمها قائلة: ماذا سيفعلون بنا؟

بدأت كوثر تقرأ الآيات القرآنية هي وليلى أم إبراهيم، أمسكت أختاه بالأم، وكأن كل بنت عادت إلى بطن أمها وقامت الساعة أو كادت.

قرارات صاحب الشرطة هي محاولة للعيش، وفي محاولات العيش قسوة ويأس. خطط مع رجال شاور الحيل والمناورات. كسر الرجال وذُل النساء هما أول درجات الوصول في تلك الحروب. يُلقى القبض على الرجال ثم يُصلب البعض، ويُقطع أعضاء البعض، ويُسجن البعض، والأهم من كل هذا هو ذُل النساء. والذل لا يأتي إلا بالعجز والقهر. شرف النساء لا يعنيه والعبث به ربما يضر أكثر مما ينفع. لذا لديه حل واحد هو الجلد ثم التشهير بها وإذلالها. سوف يختار من كل بيت امرأة كبيرة أو صغيرة، صاحبة مرض أو سليمة، ثم يجلدها أمام أهل البيت حتى ترجو وتحتضر، ولكن لا بد ألا تموت. سوف يصلبها أمام الباب أيامًا ليوضِّح عدم قدرة أي رجل أو امرأة من أهل الإسكندرية، وستموت من العطش أمام أعين الأهل والرجال. شرطة الخليفة في يد الوزير وطاعة الوزير واجبة. ما تجرأ عليه أهل الإسكندرية لم يحدث منذ مائة عام أو أكثر. هذا حادث جلل وخطورته من خطورة خليفة بغداد وربما أكثر.

علت الصرخات وخفت الرجاء، أقوى الرجال مشغولون في غرب الإسكندرية بحرب مع الجنود. ومن تبقى في البيوت هم الضعفاء أو من لا يريد الصراع مع شاور ويخاف غدره. تشرذمت الأخبار عن الجلد والموت. كل بيت يغلق أبوابه أملًا في النجاة. سار سرب الجنود بين شوارع العطارين وكوم وعلة والباب الأخضر، الأبواب المقوسة الخشبية لا تحتمل أيدي الجنود الغليظة. بدا تصارع الألوان واضحًا عندما أُغلقت كل الأبواب، ها هي البيوت الملونة وسط الصمت تكاد تستسلم لأمواج البحر، ولا بد أنها ستفعل اليوم أو غدًا. حياتهم هنا على المحك. البحر دائمًا يفوز ولكن لحظات الشجاعة ترغم الأمواج على الانحناء تقديرًا لها وشفقة عليهم. لا بيت يعلو على ثلاثة أدوار ولا بيت يخلو من النوافذ الخشبية المغلقة بإحكام لتدفع صقيع الشتاء والرياح المصاحبة للأمواج ليلًا ونهارًا.

قال حسين وهو يتجه إلى الباب: سأذهب لأرى ماذا يفعل الجنود. سأتكلم معهم.

أمسكت أمه بيده وقالت: أتوسل إليك ألا تفعل. ألا يكفي أن إخوتك الثلاثة ذهبوا للحرب. ابق هنا لا تتحرك.

نظر إليها في حيرة ثم حاول أن يحرر يده من قبضتها، ولكنها كادت تغرز أظافرها بها، تشبثت بها كأنها آخر رجاء لها في هذه الأرض ثم قالت: فليقتلوني أنا قبل أن يقتلوك.

قبل أن تكمل كلماتها كان رجال الشرطة يقفون أمامهم، ويمسكون بالأسلحة والسياط، كسروا الباب، ودخلوا عليهم. عشرة رجال أحاطوا بالحجرة ومعهم القناديل ليروا من يختبئ بها. مسحوا بأعينهم كل محتويات الحجرة وكل من بها. قال قائدهم: أوامر الوزير شاور أن العقاب قادم لأهل الإسكندرية. كل من يتمرد وكل من يخون وكل من يتعاون مع جيش نور الدين الذي جاء ليغزو البلاد سيدفع الثمن. هيا..

قال حسين في صوت خائف: يا أخي، ما ذنب النساء في هذه الحرب؟

- بل النساء تدفع ثمن حماقة إخوتك. أم تريد أن تدفع أنت الثمن؟

صاحت أمه: لا.. حسين لا.. أنا أدفع الثمن. قل لي ما تريد يا بني.

- من رحمة رجال الشرطة أننا لا نقتل كل من في البيت، ولكن نَعلم أهل الإسكندرية فقط أن الخيانة والتمرد جريمتان تُجرسان صاحبهما. اختاروا منكم جارية أو بنتًا تُجلد وتُصلب أمام البيت. لديكم ساعة لتختاروا ولو لم تختاروا فسأجلد كل نساء البيت وأصلبهن، كما فعلت مع جيرانكم.

فتح حسين فمه في فزع ثم قال: هذا مستحيل. أتوسل إليك أن ترحم النساء خذني أنا..

قاطعه القائد: بل أنت هنا لتشاهد ذلك وتخبر إخوتك به. أتفضلون أن نسبي نساءكم ونتخذهن جواري؟ هيا اختاروا إحداكن.

قالت أم إبراهيم مسرعة: أنا يا بني. أنا عجوز لا فائدة مني.

أمسك الجندي بذراعها لتخرج خارج البيت، ولكن حسين وقف بينه وبينها وقال: مستحيل أن تلمس أمي.

لكمه الجندي في فكه بقوة حتى تحطم وسقط على الأرض وهو يتأوه. نظرت رشيدة إلى سيدة ثم قالت: هيا أنت اذهبي، أنقذي حماتك وأم خطيبك، أثبتي لإبراهيم شجاعتك هيا..

نظرت إليها سيدة في فزع واحتضنت أمها وهي تقول: ستقتلني يا أمي، ألم أقل لك إن إبراهيم لم يفعل شيئًا؟ هي كذبت إنها حقودة كالكفار.

قالت أمها وهي تتقهقر: معك حق.

ابتعدت سيدة مع أمها، فقالت كوثر وهي تنظر إلى زبيدة: أنت يا ابنتي.. أنت تستطيعين تحمل السوط هيا.

ارتجفت زبيدة ولكنها عرفت أيضًا أن أمر كوثر لا بد أن ينفذ. نظرت حولها فقالت أم سيدة: أنت الجارية لا بد أن تضحي من أجل من تعيشين في كنفهم. هيا يا ابنتي..

نظر القائد إلى زبيدة ثم قال: هيا معي..

وقفت زبيدة وهي ترتجف ثم نظرت حولها وهمست: أنفذ الأمر، لا بد أن أنفذ الأمر..

ثم سقطت مغشيًّا عليها. نظر إليها الجندي وتفقد أنفاسها وهو يُردد: قلبها ضعيف ستموت قبل أن تصلب، وقبل الانتهاء من الجلد، لا تصلح.

ثم أمسك بأم إبراهيم مرة أخرى فقال حسين: أمي لا.

نظرت رشيدة إلى سيدة وقالت: هيا ضحي من أجل حبيبك.

بكت سيدة بصوت عال وقالت: أين أنت يا أبي؟ يا إبراهيم، أين أنت؟

قال حسين في رجاء: خذني أنا بدلًا من النساء.

فقال القائد: نختار نحن إذن. سوف نأخذ كل النساء.

نظر القائد إلى كاملة وشفيقة وهما تحتضنان أولادهما وهمَّ بأن يمسك بشفيقة، ثم أشار إلى جنوده بأن يمسكوا بسيدة وأمها وكوثر، فاتجه الجند إليهن يشدونهن خارج الحجرة، وقبل أن يمسك بهن صاحت رشيدة بقوة: أنا.. لا تأخذ كل النساء. أنا آتي معك.

ساد الصمت المفزع. فتحت كوثر عينيها في خوف ثم قالت: ابنتي الوحيدة!

ابتسمت سيدة ولم تنطق وتنهدت أمها في ارتياح. وطأطأت أم إبراهيم رأسها، وقبل أن ينطق حسين أمسك الجندي برشيدة وقال: هيا.

حاول حسين أن يوقفه، ولكنها خرجت معه طواعية وهي لا تعرف ما ينتظرها، ولا لِمَ قالت ما قالت، ولِمَ قررت ما قررت. أغمضت عينيها حتى لا ترى ضوء الشمس ونظرت إلى الجنود وهم يبنون الأخشاب لجلدها، ثم صلبها يومًا أو أكثر، اتجهت ببصرها إلى نهاية الشارع ورأت بنتًا مصلوبة تبدو ميتة بل من المؤكد أنها ميتة؛ فالدم يتساقط من فمها بلا مقاومة، والجفن مستسلم والدنيا قصيرة.

خرجت كل نساء البيت وراء رشيدة في صمت المفزوع المترقب وراحة من نجا من نار تتأجج بجمر الغضا. صاح حسين: اتركوها، منذ متى تُجلد نساء مصر؟! اتركوها.

وضع الجندي السيف على رقبته، فتوقف عن الكلام، ثم ربط يديه ورجليه وألقى به على الأرض، وقال القائد وهو ينظر إلى كل من تجمع حول رشيدة: هذا مصير من يخون الوزير والجيش الفاطمي. هذا مصير من يستعين بالعدو ويتآمر مع جيوش نور الدين. لا أريد صياحًا ولا صرخات من النساء، أريد أن أسمع صرخاتها هي فقط. أريدها أن تدوي لتصل إلى القاهرة ومصر، يسمعها أهل الفسطاط فيعرفون مصير الإسكندرية، ويسمعها أهل دمياط وبلبيس فينحنون احترامًا للوزير والجيش. ويسمعها إبراهيم الخائن فيعرف أنه لا يقوى حتى على حماية نسائه، شرطة الإسكندرية تتحكم في المدينة وأهلها. اتعظوا يا أهل الإسكندرية، الثورة مصيرها دومًا الهزيمة. وعندما ننتهي من جلدها نتركها على الخشبة مربوطة ومصلوبة حتى نرحمها بعد يوم، اثنين، ثلاثة.. أو لا نرحمها. هذا قرار الوزير. من يجرؤ على التحرك نحوها أو حتى إعطائها شربة ماء فهو مقتول.

صرخت كوثر وهي تستغيث: ابنتي الوحيدة، رشيدة، خذني أنا بدلًا منها.

لكمها الجندي فوقعت على الأرض. في هذه الأثناء كان عقل رشيدة لا يركز على كلمات القائد، بل رحل إلى مصنع الحلوى، كانت تغوص داخل العسل وهي صغيرة فيوبخها والدها، ولكنها كانت دومًا تسأله لِمَ يلتصق العسل بالجسد ولا تلتصق المياه به؟ فلا يعرف الإجابة. فتبتلع بعض العسل ثم بعض المياه، يمنعها من دخول المصنع ولكنها لا تطيع الأوامر قط، تذهب من جديد فلا يقوى على عقابها. لم يقو على عقابها طوال عمره. لا أحد يعاقب رشيدة. هي معجزة السماء ورزق الله له ولكوثر. ولِمَ تجرأت وضحت بنفسها؟ هل ضحت بنفسها؟ خافت على أمها أم آلمها مشهد الأطفال المتشبثين بوالدتهم؟ منذ متى تفكر في غيرها؟ كان سيعاقب كل نساء البيت، ستموت أمها ربما، ومن يدري؟! ستموت أمهات أخريات ويُيتَّم أطفال، سيدة هذه الأنانية الحمقاء ستبقى حية بينما ستموت هي لأن

إبراهيم أرادها أن تبقى في هذا البلد وقت الحروب. ليمت هو وحبيبته وكل من يطمع في أموالها. فتحت فمها لتخبر القائد أنها لا تريد الموت ولا التعذيب، وأنها لم تقصد أن تضحي من أجل أحد و..

جاءت ضربة السوط كالقضاء مفاجئة وحادة، لم تصرخ ولكنها تأوهت والنار تحرق ظهرها. ثم توالت الضربات، في البدء كانت تعدها وتتوقعها، ثم فقدت القدرة على التركيز، أغمضت عينيها، ورأت اللون القرمزي يسطع فيضمر كل اليابسة. خرج أنينها مكتومًا وتساقطت الدماء من شفتيها بعد أن عضت لسانها من الألم، ثم عضت شفتيها. ودت لو قالت أنا لا آبه بأحد اتركني واقتل كل من في البيت، ودت لو رجته أن ينهي حياتها. لم تدرك من قبل أن آلام الجسد بهذه القدرة.. تمحو الذاكرة وتكسر الإرادة. الغريب أنها بعد الجلدة الأربعين لم تعد تشعر بالألم، ترى هل اعتادته أم فقدت الوعي؟ لا تعرف. ولكن عندما سكب الجندي الماء على وجهها حاولت أن تبلل شفتيها، أرادت فقط بعض الماء لا أكثر. ضغطت على عينيها وتمتمت في رجاء: ماء..

لو يعرف إبراهيم أنها مستعدة أن تترك له كل أموالها الآن من أجل شربة ماء؟ ترى هل سيسعد بموتها؟ هل سيعرف أنه الفائز؟ لن تفكر فيه. ستفكر فقط في رقائق الحلوى المتشابكة، فلا أول لها ولا آخر. أجمل ما في الحلوى أنها مثل البناء تبدأ بمواد بسيطة ثم تخرج من الفرن كالعروس المتزينة لزوجها. كأن المزج بين الأشياء المملة بإتقان وحرفية دومًا يؤدي إلى روعة الإبداع وجمال الروح. هل انتهى الجندي من جلدها؟ لا بد أنه انتهى. لم تعد تسمع صوتًا حولها ولا هي تستطيع تحريك رقبتها. أغمضت عينيها وهي ترجو المارة أن يعطوها شربة ماء. ولكن يبدو أن المارة جبناء جبن الفئران وقت الحرائق. ازداد العطش وجفت العروق.

قال حسين وهو ينظر إلى أمه في استغاثة: حرري يدي ستموت.

فقالت وهي تنظر إلى الجندي الذي يشهر السيف: لا أستطيع يا بني.

ثم همست سيدة لأمها: هذا مصير من تدعي على رجل الفحشاء. تستحق هذا يا أمي.

قالت أمها: معك حق لا أعرف كيف صدقتها.

سالت الكثير من الدموع وأمرت سكينة أولادها أن يغمضوا عيونهم. جلس الجميع في انتظار النهاية كما ينتظر العجوز زيارة ولده الغائب بلا أمل. مر اليوم والأنين لا يتوقف، يكاد يصم أذني حسين، قال لأمه في استغاثة: ستموت يا أمي.

بكت كوثر في صمت وكأنها فقدت الأمل في النجاة. ثم اتجهت إلى الجندي وقالت في رجاء: أعطها شربة ماء يا بني، أنا مثل أمك.

قال دون أن ينظر إليها: لا أستطيع. أمر صاحب الشرطة.

ألحت.. فقال في حدة: لا تكثري الكلام وإلا ضربت عنقها أمامك.

بعد مرور يومين والنساء يضعن أيديهن على خدودهن في أسى وعجز، سمع حسين صوت الأحصنة، لا بد أن أخاه قادم، نظر أمامه وصاح بأعلى صوته: إبراهيم..

أمسك الجندي برمحه ليضرب به القادم ولكن سهم إبراهيم نفذ إلى صدره. انهالت سهام إبراهيم ورجاله فقضت على كل الحراس حول البيت. جاء إبراهيم ومعه الرجال، هرول إلى حيث صُلبت رشيدة وبدأ يفكها دون أن ينظر لأحد، ثم قال لأحد رجاله: أعطني شربة ماء..

جرت إليه سيدة في حماس وبدأت تتكلم بلا توقف: إبراهيم أذلنا الجنود، كادوا يقتلوننا، كانوا سيجلدوننا أعرف أني كنت سأموت، إبراهيم هل تسمعني؟ هل أبي بخير؟ كنت خائفة بدونك، خائفة جدًّا..

لم يلتفت إليها حمل رشيدة ووضعها داخل البيت ثم نظر إلى وجهها وهو لا يعرف لو كانت حية أم لا. سكب الماء على وجهها ثم أسند رأسها على ذراعه وحاول أن يضع بعض الماء داخل فمها وهو يقول: حاولي أن تشربي.. هل تسمعينني؟ افتحي عينيك، لو تسمعينني افتحي عينيك فقط..

حاولت أن تفتح عينيها ولم تستطع. قال في ارتياح: أنت بخير حمدًا لله. اشربي..

فتح فمها ووضع بعض الماء وقال: حاولي أن تبتلعيه.

كان حسين أمامه، حاول أن يحكي له في حسرة، فقال وكأنه لا يسمعه: لن نجد طبيبًا الآن. الجنود ستعود. اخرج من البيت واجمع كل الرجال.

قال في حيرة: أجمعهم كيف؟!

- عادوا جميعًا. قل لكبارهم إن إبراهيم يريد التحدث مع كل الرجال والشيوخ.

- هل عاد معك يوسف؟ هو السبب..

قال وهو ينظر إلى رشيدة: هو ليس السبب. الوزير هو السبب. لا تجعل الذل يغمر عينيك كالتراب.

وضعت كوثر رأسها على صدر ابنتها وهي تلهث وتبكي: ابنتي.. حبيبتي..

نظر إلى ثيابها الرثة من أثر التبول والدماء، ثم مرر بيده على جبهتها وشعرها المبلل وقال في خوف: رشيدة.. هل تسمعينني؟

همست: أموت، أريد المياه والموت.. الألم..

أمسك بخرقة بيضاء بللها بالمياه وبدأ يمسح الدماء والعرق عن وجهها، وقال: ستذهبين مع شفيقة وكاملة إلى الحجرة.. تغتسلين وتنامين، ستكونين بخير، اشربي بعض الماء..

نظرت إليه سيدة في فزع، ثم قالت: إبراهيم، اتركها لأختك. هذا لا يجوز.

تجاهلها ووضع بعض الماء داخل فم رشيدة، فابتلعته بصعوبة، مسح بيده على جبهتها وشعرها وقال: الجنود رحلوا. أنت بخير.. هل تسمعين؟ افتحي عينيك.. هيا..

حاولت أن تفتح عينيها ولم تستطع. نظر إلى شفيقة وقال: عندما تخلعين ملابسها توخي الحذر ونظفي الجروح بالأعشاب والمياه. سأنتظر لتخبريني عن حالها بنفسك. لو ماتت أنت المسئولة أمامي.

هزت رأسها بالموافقة. لم يزل يسند رأسها بذراعه وكانت عيناها مغمضتين. اقترب منها وهمس: تسمعينني؟

قالت بصوت ضعيف: أمي..

- من يتكلم معك؟ أنا من؟

حاولت أن تفتح عينيها مرة أخرى وهمست: أعرف صوتك.. أنت..

- أنا من؟ افتحي عينيك..

حاولت أن تفتح عينيها بصعوبة، ثم فتحتهما وحدقت فيه كأنها لا تراه، وزاغت عيناها، فقال في رقة وهو لم يزل يمسح بكفه شعرها وجبهتها: كنتِ شجاعة اليوم. ولو استمرت شجاعتك وقاومت الألم فسأفتخر بك يا بنة الصقلي.

همست: إبراهيم.. الظالم..

ابتسم في ارتياح وقال: هو بعينه.

حملها إلى الحجرة ثم خرج، وانتظر أمام الباب وهو يستمع لأخيه والغيظ قد أضرم فؤاده. بعد برهة دخل عليها الحجرة وهي تئن وتتبس بكلمات غير مفهومة. اقترب منها وجلس أمام مخدعها وأمسك بيدها وقال وهو يضغط على يدها لتتحرك فيها الدماء: رشيدة.. تذكري أنت بنت الصقلي، أنت من دمي وأنا لا أقبل القود فيمن يؤذي دمي، من فعل هذا سيدفع الثمن غاليًا، تأكدي من هذا.

ثم التفت حوله في حيرة والكثير من الشفقة، فقالت وهي تحاول أن تتحرك: أريد أن أشرب.

أعطاها الماء وقال: اشربي ببطء.

كيف لبنت بهذا الجبروت أن تبدو كجرو فقد أمه للتو، ثم عذبه طفل قاس حتى الموت، تناثر ظلمها ثم اختفى كما الماء في القفر؟! سقطت الدموع بلا توقف وهي تهمس: أريد أبي.. أين أبي؟

قال لأمها: تحتاج إليك يا عمة.

اتجهت إليها كوثر وقالت في تردد: أخاف لو لمستها تموت. هل ستموت؟

ثم ناحت وصرخت، فأخرجوها خارج الحجرة.

اقترب منها إبراهيم بلا تفكير، جلس على مخدعها ووضع رأسها على ذراعه وهمس: أنت بخير. أعدك أن هذا لن يحدث مرة أخرى. كان خطئي. اغفري لي.

حاولت أن تحرك رأسها ولم تستطع، فاستقرت رأسها على صدره، وقال في حنو وهو يمرر بيده على شعرها: والدك سيفخر بك اليوم. ابنة السيد الأجل والصقلي. شجاعتك تشبه شجاعة جدنا وجدتنا. أتتذكرين قصة جوهر بن حسين الصقلي عندما واجه الحاكم بأمر الله في شجاعة وهو لا يخشى الموت ولا التعذيب؟ تذكرينني به اليوم.

أمسكت ببطنها وقالت: احكها لي..

نظر حوله رأى نظرات اللوم من أختيه والحيرة في عيني أمه. حاول أن يتحرك فتشبثت به وقالت: سأموت.. هذا الألم.. والعطش.. والجوع.. أنت..

وضع يده على أذنها وهمس: أنا ماذا؟

- ستحكيها لي؟

بلع ريقه ثم قال: تعرفين شجاعة جوهر ثم شجاعة بدر الجمالي من واجه المجاعة وأنقذ مصر.. ثم تأتي رشيدة.. وتنقذ كل أهل بيت الصقلي.

ابتسمت وأغمضت عينيها ورأسها مستقر على صدره وقالت: هل ماتت رشيدة؟

قال مسرعًا وهو يحيط كتفيها: لم تمت هي معنا. ستأكل الآن وتشرب ثم تنام.

لم تجب. فهمس في قلق: أنت تسمعينني؟

قالت في صوت مبحوح: أسمعك. هذا الألم لا يتوقف. ستخبرهم أن يتوقفوا؟

- سأفعل.

تنفست داخل صدره ثم حركت كفها في ضعف وضعتها على قلبه، وقالت في ترجٍّ: ابق معي.

همس في أذنها وهو يمرر بيده على كتفها: أنا معك.

رأت والدها يوم تاهت في أزقة الفسطاط، نادت والدها والدنيا غريبة كلها ظلام، تساقطت الدموع من عينيها ثم اصطدمت ببراح صدر والدها. وَجدها.. لم تتعد الخامسة ولكنها تتذكر التيه وتتذكر صدره وبكاءها. هذا صدر يشبه صدر والدها، نفس الصلابة ونفس الاتساع يحف بجانبيه كل العمر. تنفست داخل صدره ثم همست: هذه رائحة أبي.

مرر بيده على كتفها وقال: هو قطعة منك ومني.

نامت بعد برهة فقام في بطء وحاول السيطرة على الشفقة والحنو، وخرج وقال في قوة: اهتممن بأمرها حتى أعود. عندما تستيقظ تحتاج إلى الأكل. هي مسئولة منكما أنت يا شفيقة، وأنت يا كاملة.

قالتَا في أسى: مسكينة! ولكن يا أخي.. ما حدث.. مهما كان..

لم تكمل كاملة جملتها ولم تجرؤ، ولكنها رددت لسيدة أن رشيدة شيطانة تريد السيطرة وتسحر لإبراهيم.

تتبعته سيدة بعينيها، يقلقها تعامله مع رشيدة وتتمنى أن يطمئنها. ولكنه لم يكن ينظر إليها، كان يجمع الرجال وينتظر عقاب الشرطة على جرأته وإنقاذ رشيدة وقتل الجنود، أخرج السيوف من الجُب وصاح في إخوته: ندافع عن العرض والبيت. شرطة الوزير شاور لا بد أن تنهزم في الإسكندرية ولو لم تنهزم فسوف نموت نحن بالعار.

خرج سالم وصادق وراءه بالسيوف، وتوقف حسين، نظر إليه ثم قال في تردد: السلام أفضل يا أخي، عواقب الحرب وخيمة. كل ما حدث بسبب ثورتنا وتمردنا.. لو..

قاطعه في حدة: إذا لم تكن رجلًا فابق هنا مع النساء. لا تنبس بكلمة أخرى حتى لا أقتلك.

نظر إليه حسين في لوم ولم ينطق. قالت أمه وهي تهدئه: هو غاضب يا بني، أخوك الكبير في منزلة والدك، لا بد أن تطيع كل أوامره.

نظر إليها وقال في استياء: أخي سيقضي علينا جميعًا. لا أثق به ولم أعد أحبه.

فتحت فمها في فزع وقالت: هذا تأثير رشيدة عليك. هذه الشيطانة تزرع الوقيعة والخراب.

- هي الوحيدة التي عرفت حقيقته. وهي الوحيدة التي دفعت ثمن أفعاله.

خرج حسين من البيت مهرولًا إلى مصانع والده، رأى الرجال تستعد للحرب، شاهد من بعيد إبراهيم يتحرك كما الأسد المحاط بالنيران، في سرعة وغضب وبعض الترقب، من بيت إلى بيت، ومن مسجد الألف عمود إلى مسجد العطارين، يصرخ في كل شيخ وشاب أن يحمل السلاح ويدافع عن نسائه. يستمع إليه الرجال الواحد تلو الآخر، رجال الشرطة تحيط بهم والفوضى تغمر الرمال وتمتد إلى الأمواج. سهم يضرب، وآخر يصيب طفلًا، سيف رجل شرطة يستقر في صدر شيخ، ورمح صياد يستقر في ظهر قائد شرطة. فَكَّر حسين.. الحرب بدأت.. نعم أوقدها أخوه، إبراهيم هو السبب في كل الهلاك القادم. هو وصديقه الآتي من الشام يوسف بن أيوب. أين هو الآن؟ يقولون يدرب الجنود حول مسجد العطارين؟ هل تسمع يا بدر الجمالي؟ هل ترى يا وزير السيف والقلم، يا سيد يا أجل؟ هل توقعت أن يتدرب أهل الإسكندرية على السلاح حول مسجدك ويدربهم الكردي؟ يقولون يأتي من بلاد قريبة من بلادك يا بدر. هل سمعت عنه؟ أنا أخبرك عنه.. أنا حسين أخبرك عنه.. هو من حرض أخي على الثورة.. هو من ينذر بخطر لا قبل لنا به. خطر آتٍ من الشمال كما الجراد يقضي على كل الزرع ولا يُبقي على شيء حي. لا نعرفه ولا نأبه به. كنا نعيش في أمان نبتعد عن مؤامرات الحكام. نحن أهل الإسكندرية لا شأن لنا بالحاكم. نخرج في الأعياد ونُحيي الخليفة ونبيع الحلوى، ننتظر الموالد والأعياد كما ينتظر الطفل قدوم والده المسافر لعدة أعوام. كنا نحيا في سلام.. وزير يتغير، وزير قاسي القلب يطلب الضرائب فندفع، وآخر يغير سياسة من قبله فنوافق، وزير يريد إذلالنا فنرضخ ليس إجلالًا له ولكن رغبة في العيش في سلام.. ثم يأتي أخي إبراهيم ليظن أنه سيغير الكون! إذا كان آدم نفسه لم يستطع أن يمنع ولديه من القتال، فهل سيمنع إبراهيم الحلواني الظلم عن البلاد، ويوقف خطر الفرنجة، ويعيد العدل إلى الكون؟! ما حجم براءتك يا بن أمي؟! لقد تعديت الحدود الآمنة للبراءة. البراءة حدودها أن تتمنى زوجة عذراء لم يمسسها غيرك، أما أن تريد أن تسيطر على مصيرك وتبغي العدل في دنيا قوامها الظلم فقد تعديت الحدود الآمنة يا بن أمي.

ها هي الصرخات تتكاثر، وها هي النساء تفقد الزوج والابن. تريد أن تنتقم من الشرطة؟ ألا تعرف أن الانتقام كله هلاك، وأن الدم عندما يُراق لا يعود إلى العروق قط؟

سمع الدق على الباب في المصنع. خرج كل الرجال للحرب. حاول أن يفتح الباب لجواد ولم يستطع. استغاث به جواد وقال: أنقذني ورب الكعبة. أنا لم أفعل شيئًا. أنقذني.

نظر حوله يبحث عن حديدة ليكسر بها الباب. ثم أمر جواد بالابتعاد عن الباب ثم انهال بالحديدة على الباب ولم يتحطم. حاول من جديد وصورة إبراهيم لا تتركه. ترى هل جاء حسين ليختبئ هنا؟ هكذا سيظن إبراهيم. ولكنه لم يأت ليختبئ هو فقط لا يحب الحروب ولا يروقه منظر الدماء ولا الأحشاء التي تفترش الطرقات ولا الأطراف المفتتة كالخبز يوم إقامة السماط.

ها هو ينتصر على الباب. خرج جواد فنظر إليه حسين وهو يلهث قائلًا: من حبسك؟

قال في رجاء: أخوك. لم أفعل شيئًا. أريد فقط الزواج من رشيدة. هل يستحق مثلي أن يموت جوعًا وعطشًا؟ اتركني أرحل.

نظر إليه ثم قال: أصدقك. إبراهيم يفعل أي شيء. اخرج من هنا ولا تعد إلى الإسكندرية وإلا قتلك.

خرج وهو يترنح ويدعو لحسين.

لم تزل الصيحات تعلو على صوت أمواج البحر، ولم تزل الحرب بين الشرطة وأهل الإسكندرية قائمة. يسمع صوتها.

بكى حسين. لا يعرف لِمَ بكى. هل بكى لأنه يفتقد أخاه الذي كان يمسك بيده وهو صغير، ويلعب ويسير معه في الطرقات؟.. هو أخوه الذي علمه السباحة والخيل وصنع الحلوى، أم بكى لأن منظر رشيدة وهي معلقة بين الحياة والموت هز حشاش النفس؟ كانت تئن في رجاء وكان مكبلًا عاجزًا. لا بد أن إبراهيم يظن أنه جبان. إبراهيم هو السبب. لن يتذكر لحظات الفرح التي غمرتهما أطفالًا. سيتذكر مشهد رشيدة، هو السبب. وغدًا ستموت أمه وسيموت كل إخوته. لم يعد الأخ أخًا. أصبح إبراهيم يصادق الكردي. أصبح الكردي أقرب إليه من ابن أمه. حسنًا. لن يفكر. سيبكي ففي البكاء راحة. ترى عندما يخرج من هنا هل سيكتشف من مات ومن لم يزل حيًّا؟ هل سيرى أمه مرة أخرى؟ يتمنى أن يرى أمه مرة ربما يطلب منها المغفرة، أحيانًا كان يفقد أعصابه، وكثيرًا ما عصاها لمجرد إثبات ذاته. كانت دومًا كأطناب الخيام يتكئ عليها، وتتحمل منه شدة الرياح وعواصف الدهر. يا أم إبراهيم، كم أحبك حتى ولو لم أخبرك قط!

أمسك ببقايا الكنافة وبدأ يأكل ويمسح دموعه. مر يوم، ثم يوم.. والده؟ ترى ما شكله؟ هل يشبه إبراهيم؟ يتمنى ألا يكون شبه إبراهيم. هو أب رحيم هذا مؤكد، وأقل براءة وأكثر رقة. لِمَ كلما لاح الأب بالذاكرة يرى وجه إبراهيم؟

ساد صمت مخيف. لا حرب في الشوارع. ربما مات كل من في الإسكندرية. نعم ماتوا. لِمَ ينفطر قلبه على إبراهيم؟ قلبه يخاف عليه أكثر من خوفه على أمه وسالم وصادق وأختيه؟ تمنى في التو أن يذهب إليه ويحتضنه ويبكي. لو كان قد مات فهل سيسمعه؟ لن يطلب منه المغفرة فهو لم يفعل أي شيء. سيطلب منه أن يعودا كما كانَا في الماضي البعيد. سيطلب منه أن يغوصَا معًا في قاع البحر، يبحثان عن الصدف واللؤلؤ. ومن يجد أول صدفة يخرج سعيدًا ليخبر الآخر. وعندما تتلألأ عيناه وهو يمسك بصدفته يقول إبراهيم في حماس: أخي.. دومًا يجد أحلى الأصداف. ترى هل مات إبراهيم قبل أن يثني عليه؟ هل يمكن أن يطلب منه أن يغوصَا مرة واحدة باحثين عن الأصداف؟ لا يريد سوى

هذا اليوم. لو كان سيموت في هذه اللحظة فليبحث عن صدفة واحدة لامعة مكتملة كما الحب الكامن في القلب لا يتزحزح.

هذا الصمت أصعب من ضجيج السيوف، وصهيل الخيل المجروحة. تحسس طريقه في حذر ثم فتح الباب في بطء ينظر إلى الشارع.. سطعت الشمس واختفت الشرطة تمامًا. رأى جثث رجال الشرطة في الطرقات. تردد ثم خرج وسار متمهلًا وهو ينظر حوله ولم يمسك بسيفه. لا يستطيع ولا يحب القتل. رأى أحد الرجال يشد الجثث ليدفنها، فقال له في رفق: ماذا حدث يا أخي؟

قال الرجل وعيناه تلمعان في فرح غريب: انتصر أهل الإسكندرية على الشرطة، عادت المدينة ملكًا لأهلها!

قال في عدم فهم: ماذا تعني؟ وماذا ستفعل بالجثث؟

- سندفنها يا أخي. حتى جثث العدو لا بد من دفنها. إبراهيم الحلواني هل تعرفه؟ هو البطل هو المنقذ. هذا الرجل شرف للإسكندرية كلها.

نظر إليه في غضب ثم قال: هذا الرجل أعرفه. ولكن ألم تفكر في ردة فعل شاور مثلًا؟

قال الرجل في حماس: أهل الإسكندرية وحدهم استطاعوا أن يتغلبوا على كل رجال الشرطة. هي مدينتنا. فلم أفكر في الوزير الخائن؟ هذا وزير يستعين بالفرنجة يا أخي. ومن يستعن بالفرنجة فلا ولاء له. الفرنجة كما العِرسة يتلونون ثم يهجمون اليوم أو غدًا. والحلواني إبراهيم بن الصقلي، نِعم الرجال.. هيا إلى مسجد العطارين لتصافحه.

قال حسين في غضب: لا أريد أن أصافحه. هذه نهاية المدينة لو تعلم. الحرب في البداية. والقضاء على الشرطة هو أول شعلة في نار ستلتهمنا جميعًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 5 -

ما إن دخل إبراهيم على أمه حتى عانقته في قوة، ثم التفتت إلى ابنيها صادق وسالم تحييهما. فقالا معًا: نحن أيضًا حاربنا يا أماه، ولكن إبراهيم هو من يأخذ القبلات والتحية.

قالت في إحراج: كلكم أولادي.

ابتسم إبراهيم ثم قال: حسين لم يَعُد بعدُ؟

- لا. أخاف عليه.

- هو بخير، لا تقلقي.

- أخاف أن يأخذوه أسيرًا أو يكون قد..

قاطعها في حسم: سأجده اليوم. أعدك.

دعت له وربتت على كتفه ثم اتجه بعينيه إلى حجرات النساء وقال: النساء بخير؟

- كلهن بخير يا بني.

- ورشيدة كيف حالها؟

- لم تزل الجروح تؤلمها. بعضها أصابه العفن، لا أعرف ماذا أفعل معها.

- والطبيب ماذا قال؟

- لم نجد طبيبًا.

قال في ضيق: كنت قد بعثت طبيبًا قبل الذهاب لحرب رجال شاور.

- لم يأت يا إبراهيم.

نظر إلى أخويه وأمرهما بإحضار طبيب، ثم طلب من زبيدة أن تخبر سيدتها أنه يريد أن يراها.

غطت زبيدة ظهرها وقالت: افتحي عينك يا سيدتي، سيدي إبراهيم يريد أن يقابلك.

حاولت أن تتحرك بلا فائدة. منذ أن جلدها الجنود من أسبوع وهي تنام على بطنها فقط، تأكل القليل وتشرب كثيرًا، والألم لا يبرح الجسد. تشوشت كل الصور وكل الذكريات. أمها تتكلم معها وتحثها على الأكل. تضع الأعشاب على الجروح بلا فائدة. الدنيا تبدو كالقمح داخل الغربال، تهتز ثم تتلاشى سوى من رمال متحجرة.

لم تشعر به وهو يدخل عليها، ولم يتردد في إزاحة الغطاء عن ظهرها والنظر إلى الجروح. مسح بعينيه كل ظهرها، حدق في كل جرح تركه السوط، ثم توقفت مقلتاه أمام جرح غائر أسفل الظهر لم

يزل يعج بالدماء والماء الفاسد. وضع يده عليه، فتأوهت، فعبس وجهه، وقال: يحتاج إلى وقت.. اصبري.. ويحتاج إلى أن يُنظِّف. اعذريني، كان لا بد أن يراك طبيب.

مرر بإصبعه بخفة على أطراف الجرح، فأغمضت عينيها، والألم مكنونه النفس قبل الجسد. ثم قال: ما فعلته بطولة لم أتوقعها ولا توقعها غيري..

قالت في مزيج من الأسى والسخرية: ندمت عليها.. أقسم لك مع أول ضربة سوط كنت لأفتدي البيت كله بما فيهم أمي بنفسي وأنا معلقة يا بن عمي..

ابتسم ثم قال: أفهم. الألم يُضعف ويُذل. ولكنك أبية دومًا.

حاولت أن تتحرك، نظرت إلى الملاءة التي تغطيها ثم إليه؛ شهقت من ملابسها الخفيفة فقال وهو يقوم: أريد أن أنظف جرحك. سأتركك ترتدين شيئا لائقًا، ولكن سأمزق مكان الجرح فلا ترتدي أغلى ثيابك.

ثم خرج من الحجرة. نادت على زبيدة وقالت في إعياء: هذا كان إبراهيم، أليس كذلك؟

- هو يا سيدتي.

- قال إني أبية دومًا. سمعته يقول هذا.. وإني شجاعة.. قال كلمات غريبة..

قالت الجارية في ذهول: كان ينظر إلى جروحك كأنها جروح في قلبه، في قلق وخوف. آه يا سيدتي لو رأيته، و.. رأى كل ظهرك كما يفعل الطبيب.. ومرر بيده..

قاطعتها في خجل: اصمتي، لا أريد أن أعرف. يبدو أنني لست بخير. أسمع كلمات غريبة وتحدث لي أشياء غريبة. هاتي ثيابي..

جاءت الجارية ببعض الثياب لتختار منها، فنظرت إليها جميعًا، واختارت أغلاها وأحلاها. فنظرت إليها الجارية في ريبة وقالت: طلب منك يا سيدتي أن ترتدي ثيابًا رخيصة.

- وأنا لا أنفذ ما يطلبه ابن عمي أبدًا. لا حكم له عليَّ. أخبريني يا زبيدة كأنني كنت أحلم.. هل عانقني إبراهيم منذ أسبوع وحكى لي حكايات؟ أي حلم هذا.

قالت زبيدة: فعل يا سيدتي. ومسح بيده على شعرك كأنك ابنته الصغيرة.

زاغت عيناها ثم عبس وجهها وقالت: وماذا فعلت أنا؟

- تشبثت بصدره كأنه والدك.

قالت في تلعثم: وقت المرض.. تحدث المعجزات. كأن صدره ببراح صدر أبي تتسرب الطمأنينة لمن يستقر بين ثناياه، ولكنه ليس كذلك. هو ليس بطيبة أبي ولا رحمته، فلِمَ تسكن الأضلع بين راحتيه؟

قالت زبيدة في حيرة: لا أفهم يا سيدتي، اعذريني.

دق بابها فسمحت له بالدخول وهي تحاول أن تجلس والألم يسيطر عليها. ثم قالت مسرعة لزبيدة: أعطيني بعض الكحل بسرعة.

قبل أن تمد يدها بالكحل دخل إبراهيم. التقت أعينهما ثم قال في حزم: نامي على بطنك كما فعلت من قبل، أريد أن أنظف الجرح قبل أن يأتي الطبيب.

قالت: فلننتظر الطبيب.

فقال في حسم وهو ينظر إلى الجارية: هيا ساعديها لتنام على بطنها. لا يوجد وقت، ربما لن يأتي في هذه الظروف.

فتحت فمها لتعترض ثم نظرت إلى عينيه ونفذت ما يريد، وقالت في شيء من الترجي: لا تؤلمني كما آلمني سوط الجنود. هل ستشق الجرح بسكين.. إبراهيم..

أخرج سكينًا ثم قال: لا أصدق أن رشيدة ترجوني ألا أؤلمها. احكي لي كيف قررت أن تضحي بنفسك من أجل بقية أهل البيت..

قالت وهي تحاول أن تلتفت إليه فيمنعها بيده: كنت أقف في قوة وشموخ أمام الجنود.. دخلوا البيت وقالوا.. سنختار واحدة فقط.. واحدة أو..

صرخت بأعلى صوتها وحاولت أن تتحرك، فأمسكت بها زبيدة بكل قوتها. سبته ولعنت اليوم الذي رأته فيه، فقال للجارية: اكتمي فمها. صاحت في استغاثة: أقسم لو فعلت فسأقتلك بيدي.. ماذا تفعل؟ تريد أن تذبحني؟ تسلخ جلدي؟

قال في هدوء وهو يضغط على الجرح ليخرج الصديد الممتزج بالدماء: شققت الجرح بالسكين، والآن أنظفه.. وأنت شجاعة.. تتذكرين، رشيدة لا تتوسل ولا تخاف.

همست والألم فوق طاقتها: أتوسل إليك أن تتوقف. أفضل الموت.

- أحيانًا الألم ساعة أفضل من عفن الجروح طوال العمر الباقي. أخبريني متى بدأت تكرهينني كل هذا الكره؟

- لا أتذكر. منذ وُلدت.. والآن أكرهك أكثر بكثير، الآن أود أن أمزقك لو استطعت، أغرز السكين في أحشائك فتخرج بكبدك في يدي فأفتتها..

صرخت مرة أخرى.. فقال وهو يفتح الجرح الثاني بسكينه: ماذا ستفعلين بكبدي بعد أن تفتتيها؟

حاولت القيام فأمسكت بها زبيدة، فتوعدتها، ثم بدأت تسب وتلعن وتصرخ بأعلى صوتها، ثم ترجو ثم تبكي. تساقطت الدموع، والآه لا تفارقها. فقال: جواد حاول سرقة مصانعي. هل يجوز يا بنة عمي أن تطلبي من الرجل سرقة مصانع ابن عمك؟ ماذا أفعل؟ وكيف أعاقبك؟

صرخت بأعلى صوتها من جديد وهي تحاول القيام وقالت: توقف، هذا حرام. ما تفعله بي حرام. لو مت يكون أفضل. هذا الألم فوق احتمالي.

قاومت بكل قوتها واستطاعت أن تفلت من زبيدة، ثم أحاطت بطنه بيديها وقالت في رجاء: إبراهيم، أتوسل إليك لا تؤلمني. اتركني. أتوسل إليك. لا أطيق هذا الألم.

فتحت الجارية عينيها ولم تقو على النطق. لم تدرك وسط آلامها أن صدرها العاري ملتصق ببطنه، ولا أن ذراعيها اللتين تطوقان خصره لا تستران ما ظهر ولا ما برح في الظلام. لم تدرك ولكنه أدرك، أدرك أن الجسد الذي يلتصق به ليس لطفلة، بل لامرأة تعج بالغواية. أدرك أن صدره ينتفض وأن عقله تائه. عبس وجهه وحاول أن يتذكر ما جاء من أجله ومن تكون.

رفع يده، تردد برهة ثم وضعها على شعرها ومرَّر بها عليه، وقال في رقة: لا بد من تنظيف الجرح.. سوف تتحملين، أنت شجاعة. لو مت فمن سيأخذ أموالك؟ أنا.. وسيدة.. هل تريدين هذا؟

حاول أن يبعدها ولكنها تشبثت به وألصقت جسدها نصف العاري بجسده بلا وعي. نظرت إليها زبيدة في ذهول ولم تقو على الكلام. أمسك بكتفيها يحاول أن يبعدها على مضض ولكنه توقف.

ترك كتفيها فاقتربت أكثر وهمست: تألمت كثيرًا. والعطش.. أسوأ شيء هو العطش. لا تتركني بلا مياه مرة أخرى. عدني ألا تتركني بلا مياه. إبراهيم..

أغمضت عينيها.. امتزج الألم بشعور مخيف.. استنشقت رائحته داخل الروح.

رفع يده ليبعدها ولكنها استقرت في أغوار الصدر. مرر بيده علي أذنيها وشعرها، غاص بأصابعه داخل رأسها ثم رقبتها وقال في صوت واهن: هناك جرح واحد متبقٍ.

قالت في يقين: هو جرح واحد يصعب التخلص منه.

اقترب بفمه من أذنيها وهمس: ستتحملين جرحًا واحدًا..

ثم أبقى فمه على أذنها بلا وعي وتنفس في بطء ليستجمع إرادته التائهة. أين عقله الآن؟ لِمَ يخفق القلب وتضرم النيران في الأحشاء؟ هل يرغب في هذه الجنية؛ سبب العناء لكل البشر؟!

شهقت وانتفضت من مكانها وهي تبحث عما يستر جسدها، وضعت الغطاء عليها وأغمضت عينيها وهي تتمتم: أين ذهب عقلك يا رشيدة؟! أين ذهب رُشدك يا رشيدة؟!

اعتدل في مجلسه وقال مسرعًا وهو يخشى أن ترى رجفة يده أو ارتعاش صوته: يمكننا أن ننتظر الطبيب. سأذهب لأحضر الطبيب.

قالت في يقين: بل تنظفه أنت.

اتجهت عيناه إلى الغطاء وهو لا ينسى ما يخفيه، وعبس وجهه وقال لزبيدة: هيا لم يتبق غير جرح واحد، أمسكي بها.

صرخت بأعلى صوتها وقاومت وبكت. ولكن زبيدة سيطرت عليها أخيرًا. صمتت وهي ملقاة على بطنها، وأغمضت عينيها تنتظر طعنة في قلبها. اقترب بالسكين من الجرح الأخير، ارتجفت يده ثم هز رأسه كأنه يريد أن يفيق من خمر شربه دون قصد. غرز السكين، عضت على شفتيها حتى سالت

الدماء، طعم الدماء في فمها أراح الفؤاد. بكت في صمت. عندما انتهى لم تلتفت إليه. أبقت رأسها غارقة في الوسادة.

أمر زبيدة أن تأتي برباط للجروح، ربطها بنفسه بقوة وقال: وعدتك أن الألم سيقل مع الوقت. الألم دومًا يقل مع الوقت. هيا اغسلي وجهك. رشيدة لا تبكي، رشيدة تحيك المكائد فقط.

قالت في توعد وهي تلتفت إليه وتمسح دموعها: حبيبتك هي التي تبكي. الجبانة التي لم تضح من أجل أحد حتى أمها.

- بعض الجبن حكمة. المرأة الشجاعة لا تصلح للزواج.

نظرت إليه في كره ثم قالت: هنيئًا لك زوجتك الجبانة يا بن العم.

نظر إليها وقال: ما حدث من جواد بتحريض منك كنت أتوقعه. لا أعرف لماذا أتوقع منك كل شيء.

قالت في تحد: ربما لأنك تكرهني كما أكرهك.

ثبت عينيه على عينيها، ساد صمت رهيب بينهما.. والجوى لاعج بقوة السوط. من أين بدأ؟ وكيف توهج؟ لا تعرف. اقترب منها دون أن يصارح أو يتساءل، أحاط رأسها بيديه فخارت قواها وكادت يدها تستسلم للألم، ولكنه أمسك بها قبل أن تسقط كتفها على المخدع، ضغط على كتفيها بكفيه ثم مسح دمعة لجأت إلى رقبتها واستقرت. وقال: زبيدة، هاتي المياه لأغسل لها وجهها.

فتحت فمها لتعترض ولكنها لم تكن تريد أن تعترض. أمسك بصحن الماء وألقى به كله على وجهها بلا مقدمات. فتحت فمها لتتنفس فدخلت المياه إلى حلقها. ثم أمسك بخرقة وبدأ يمسح لها وجهها قائلًا: لو تطيعين كل أوامري تكونين أفضل وتصلين إلى كل أحلامك، ولكنك متمردة ثائرة شريرة..

قالت وهي تغمض عينيها حتى لا تدخل الخرقة فيهما: أنا مثلك يا إبراهيم، ألست متمردًا ثائرًا على الوزير؟

- أثور على الوزير ولا أثور على رجال عائلتي مثلك. أنت بنت، تذكري هذا.

قالت في قوة: ولولاي لما بقيت امرأة في هذه الدار حية.

صفر في انبهار وقال: هذا صحيح. جدنا يقول: إن الشجاعة في لحظة القدرة هي قمة العطاء والمجد.

قالت: توقف.

قال وهو يقترب منها ويمسح المياه عن فمها: سأتوقف.

فتحت عينيها فقال في ثقة: ستكونين بخير. يومان لا أكثر ثم يختفي الألم.

قالت في امتعاض: ما دمت لن أراك فسأكون بخير بالتأكيد.

نظر إلى شفتيها، لم تزل تنزف بلا توقف. أمسك بالخرقة ووضعها على شفتها السفلى، وقال: اضغطي عليها بعض الوقت. لا شيء يخيفك، ولا عواقب تجعلك تترددين. تعجبينني يا رشيدة. حربنا

لم تنته. تذكري هذا. أتمنى لك البركة في هذا اليوم.

إبراهيم.. لو يعرف.. كانت في الثامنة من عمرها عندما قررت أن تتزوجه. تتذكر هذا اليوم. تلعب مع أخته وأخيه، أمها تقول إنها كبرت، ولا بد أن تتوقف عن اللعب، لا يشاركهم اللعب، لم يشاركهم اللعب قط. دومًا كان بعيدًا شامخًا كما السواري، يهيم الضوء حوله كما الفنار وقت السحر. منذ وعت اسمها ونسبها وهي لا ترى سواه. ومنذ نما جسد الطفلة وغدا جسد فتاة وهي لا تحلم بسواه.. ليلًا يزورها في الأحلام، يعانقها عناقًا لا ينتهي، ثم يدغدغها بالقبلات، ثم ماذا؟ خيالها لم يفكر سوى بهذا. تغرق القبلات ظلام الليل، وتساعد على تقبل الأيام. كانت في الثامنة عندما هرولت ناحيته، نظر إليها في دهشة ثم قال: لِمَ لا تلعبين مع شفيقة وكاملة؟

فقالت في حسم: لأنني سأتزوجك.

ضحك ربما.. كان في العشرين، وكانت في الثامنة من عمرها، فقال: رشيدة، اذهبي لتلعبي معهم.

فقالت في حدة: لا تسخر مني. في مثل سني تتزوج النساء، سأخبر أبي أني أريد الزواج منك.

قال وكأنه يتكلم مع طفل ضل الطريق: ولكن البنت لا تجرؤ على هذا، لو كانت من بيت طيب تنتظر حتى يختار لها الأب زوجًا.

فقالت في تذمر: ولكنك ابن عمي. لا بد أن تتزوج مني. هل سترفض الزواج مني؟

ربما أزعجته جرأتها وربما أدهشته فقال في صرامة: هذا الحديث لا يليق بك يا رشيدة، ظننتك نعم البنات، البنت الطيبة لا تفكر هكذا. اتركي هذا الحديث والعبي، هيا..

- ولكنني لست طفلة.

قال في ضيق: اذهبي يا رشيدة هيا.. لا تنطقي بكلمات كهذه مرة أخرى.

- أنت فقط لا تريدني. ولكن أبي سيرغمك على الزواج مني. أبي ينفذ كل طلباتي. سأتزوجك.

قام واتجه إلى الباب ثم قال: هيا إلى الخارج.. أنت رشيدة، البنت الطيبة التي أعرفها، ورشيدة التي كانت هنا منذ لحظات سيطر عليها الشيطان.

لم يفهم. يبدو أنه لم يفهم. لا شيطان يسيطر عليها، بل وجدت به بضعة منها. هذا ماض. الآن تعرفه أكثر، هو طامع وظالم. جحود القلب ذنب لا يغتفر. لو فعل أي شيء، لو ارتكب أي جرم سوى هذا كانت ستغفر له. ولكنها أيام وأيام، ثم شهور وسنون قضتها تشتاق إليه وهو يصدها، حتى كرهته بقدر حبها له، وشيدت أسوار المدينة حول القلب، لو كان يريد أن يعذبها بقية عمرها فليتعذب معها، ولو رفض عشقًا لا مثيل له فلا عشق له، ولا زوجة ستدخل بيته ولا تروي ظمأه، تهابه الآن أكثر، فأسفل الرقبة يسهل النحر والقبض على الروح.

لمعت الدموع ولم تتساقط. ثم قالت لزبيدة: أخبريني ماذا رأيت؟

نظرت إليها في حيرة. فقالت وهي تنام على بطنها مرة أخرى: أعني عندما نظر إلى جرحي وظهري.

صمتت الجارية فقالت رشيدة: أنت لا تريدين الكذب. لم تري منه أي شيء. كان كالطبيب، أليس كذلك؟ لا ارتجف جسده ولا تمنى.

بلعت الجارية ريقها ثم قالت: أنت جميلة يا سيدتي. ولكن الجروح..

- شوهت ظهري، أليس كذلك؟

- ستختفي مع الوقت.

- فليختف هو.. لِمَ لم يمت في هذه الحرب؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم ينم ولم يعد يفكر في الفرنج أو الوزير أو حتى سيدة المثالية الزوجة المطيعة. لكنه كان يفكر في رشيدة.. يراها كل لحظة، فيرتعد الجسد وتسير في الجوارح سكرة محيرة. يراها وهي تحتضنه في تلقائية، وترجوه أن يوقف الألم، يكاد يرى نفسه وهو يمرر بيديه على كل جسدها، ظلال صدرها من الثياب الممزقة وانحناءات خصرها. أهي رغبة تتملكه كما الشيطان أم شيء آخر لا يعرفه. رشيدة.. يحتقرها كما الثعابين والعقارب. رشيدة.. آخر بنت في هذه الدنيا يمكن أن يريدها. وبخ الجسد وأهانه، سوف يطيعه كما فعل من قبل. إلا رشيدة. أغمض عينيه في حسرة ويداها اللتان ضغطتا على خصره مرت كما العواصف على النيل الهادئ المستقر. حسنًا يا رشيدة.. اعبثي بالجسد كما تشائين يا بنة العم ولكن القلب بعيد عن أحلامك. طوال الشهور الماضية كان يراها في الثامنة من عمرها ربما، طفلة مدللة مملة شريرة، كان يطرحها جانبًا كطفل لا يريد التحاور معه، ولا الهبوط إلى مستوى تفكيره. ثم تجلت المرأة أمامه كامرأة العزيز ببهاء لا يتوقعه، وبينما هو يشق الجراح المتعفنة بسكينه، انشق شغاف القلب وانطلق الشوق يعبث بالعرائس والحلوى. آه يا بنة الحلواني من طغيانك وافترائك. حاول أن يتذكر رشيدة؛ هذه الطفلة التي كان يتجنب وجوده حولها، لكم كان يسأم مللها وإلحاحها وشعورها أن البشر عبيد طوع إرادتها! ولكم يتمنى أن ينساها؛ سيدة.. أجمل وأرقى وأهدأ و..!

ضغط على جفنيه وهو يتقلب يمينًا وشمالًا وانتفض من مكانه. أيام الحروب كتغير المواسم تؤرق القلوب الهادئة، وتثير القلق في النفوس المستقرة. سمع صوت قيس في أحلامه ينشد أشعاره في ابنة عمه..

«تَعَلَّقتُ ليلى وهي غِرٌّ صغيرةٌ

ولم يَبْدُ للأترابِ من ثَديِها حَجْمُ

صغيرين نرعى البَهمَ يا ليتَ أَنَّنا

إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البَهْمُ»

قام مفزوعًا. غسل وجهه ووبخ جسده: أفق من غفلتك يا خائن. هذه الشريرة أذتك وتريد هلاكك. انظر إلى وجه سيدة الملائكي، فكر في سيدة التي ستطيع كل أوامرك، وستستمع إليك في ترج وانبهار، تذكر سيدة ووداعتها، لن ترهق القلب الحزين ولا تلدغ الأطراف. نعم سيدة.. ولكنه جسد رشيدة الذي لا يبرح خياله. هذا ليس حبًّا، بل شهوة كالتي يشعر بها الرجل تجاه راقصة أو جارية. الحب طاهر جميل يخرج أجمل ما في النفس. ارتاح ونام بعد أن طمأنه عقله بهذه الكلمات.

بعد أيام أغلقت الجروح أبوابها كأن سكين ابن العم قادرة على كل شيء. بدأت تتحرك في حماس. في بيت عمها سرداب يؤدي إلى البحر، كأن التنفس صعب دون مياه البحر المالحة وأمواجه التي تحث على الثورة والمقاومة. ستتبع خطاه في السرداب، ستعرف كل شيء عنه، مكنونات الفؤاد وضعف النفس. ليس لأنها تريده، بل لأنه العدو الأول. الحذر واجب. أما القلب فلا يساعد صاحبه قط. دخلت الممر الضيق المنكسر، في آخره ضوء ممتزج بذرات مياه متدفقة، تدنو وتبتعد طوع هواها وطوع

شوقها. خلع عباءته ثم سرواله ثم قميصه، أغمضت عينيها، ثم فتحتهما عندما غاص في المياه ولم يطف على السطح. لا تتذكر ملمس المياه المالحة على جسدها، في الماضي كانت تلهو مع الأطفال، يغرق بعضهما بعضًا مزحًا وطمعًا في الفوز واليوم قالوا إن النساء لا تتخذ البحر المالح مكانًا للهو. إذا أرادت أن تعرف شيئًا عن الأمواج فلتشاهدها دون قرب أو لمس. اقتربت برجليها، وضعتهما في المياه، ضربت الأمواج صدرها، فشهقت من برودة المياه وسحر زبد البحر القابع في الأفق دومًا. جلست في شجاعة تنتظر قدوم الموجة تلو الأخرى.. وتصرخ في صوت مكتوم كلما اصطدمت بها، ثم أرخت رأسها وتوسدت المياه في ثقة، حتى عندما تغمر وجهها كانت تضحك وتزيحها، ثم تنتظر الهجوم القادم.

نسيت وجوده.. سبح بعيدًا ولكنها عرفت أنه يشاهدها منذ وقت. حتى سمعت صوته: هل انتهيت؟

قالت: لم أنته بعد.

أسندت كفيها على جبهتها لتظلل عينيها ونظرت إليه لأول مرة ربما، لم ينتصر الخجل هذه المرة، فقد تخيلته كثيرًا من قبل. عبرت بعينيها على ذراعيه القويتين السمراوين وكتفيه ثم صدره، وأغمضت عينيها وهي تتصور نفسها هنا، عند رئتيه مستقرة بقية عمرها. قال في لوم: لا حياء لديك.

فقالت وهي تنظر إليه: أنت من جئت إليَّ..

- بل كنت تطاردينني. لم جئت؟ وماذا تريدين؟

قالت في غضب: أريد ما تريده أنت يا بن عمي.

- بل لا التقاء لنا يا رشيدة. لن يحدث.

لملمت المياه في راحتيها وألقت بها على وجهه في غضب وقالت: ومن قال إني أريده أن يحدث؟

فوجئ بتلقائيتها ربما، وتفاجأ بتلقائيته أيضًا، حرك المياه تجاهها ثم دفع بها إلى وجهها بكل قوته. صرخت واستسلمت للأمواج، ثم ضربت المياه برجليها بكل قوتها وهي لا تنظر إليه. فأمسك بيدها، طوق خصرها وحملها بين يديه ودفع بها إلى قاع البحر. تحول العالم إلى لون أبيض ممتزج بالفرح وسط كل الخراب. صرخت والتفت حول نفسها تبحث عنه، وما إن وجدته حتى طوقت رقبته وقالت: لو أردت أن تغرقني فستغرق معي...

أمسك بذراعيها ليبعدها عنه وقال: هل يجوز لامرأة بتلك التلقائية أن تحمل مستقبل الحلواني على عاتقها؟

تركها تدفع به، وترك نفسه يستلقى على رمال البحر وهو يقول: استعدتِ عافيتك يا رشيدة. تأكدت من هذا.

قالت وهي تغرقه بالمياه: لو تركتني أعود إلى القاهرة لن تراني. ولكنك لا تفعل. ترى أتحبني يا بن عمي؟ أكنت تحبني طوال عمرك؟

قال في حسم: فقدتِ عقلك..

بدا أنها أيقظته أو كادت. قام من مكانه يبحث عن ملابسه، وجدها معلقة على الصخرة، فارتداها وهي تنظر إليه بلا حياء، ثم قال: سأزوجك مِمَّن يستحقك. ترى مَنْ يستحقك يا رشيدة؟ مَنْ فعل كل الفواحش وفرق بين كل القلوب؟ من أغضب والديه وقطع رحمه؟ بل من لم يترك الذنب حياته حتى يستحقك؟

قالت: أنت..

- هذا لن يحدث، قلت لك.

- كنت أقول إنك أنت الظالم. ولم أقل إني أريدك زوجًا. أين ذهب بك الحلم؟! أنت آخر رجل على هذه الأرض يمكن أن أفكر فيه.

أمسك بيدها وقال: هيا قومي معي.. وإياك أن تأتي هنا وحدك. هذه الأمواج عاتية أحيانًا. اليوم لاطفتك، غدًا تفترسك كما الدنيا يا بنت عمي.

شدت يده على حين غفلة أو ربما عن عمد منه، وقع بجسده بجانبها فألقت برأسها على صدره ولم تنطق بكلمة. اليوم هي واعية. أول مرة يصبح الخيال حقيقة. وربما آخر مرة من يدري.

طوق خصرها وقربها منه أكثر مما ينبغي..

واقترب بفمه، فعل.. اقترب من فمها أم شُبه لها؟ أسبلت جفنيها وارتعد القلب فهمس.. كاندفاع الأمواج.

ثم قَبَّل رأسها في بطء، ومسح بشفتيه على جبينها ثم عينيها ثم خدها، استقرت شفتاه على ذقنها برهة ثم رحلت إلى رقبتها، أنفاسه تتهادى عند منبع أنفاسها، هواء صدره يعذب أكثر من ضربات السوط.

همس وهو يغمر وجهه في رقبتها: الأمواج دومًا مندفعة..

قبضت أصابعها وتمتمت باسمه. تلك لحظات تمر كصوت السحاب الممتلئ بالمطر. بعد برهة ابتعد عنها، أغمض عينيه، ثم هب واقفًا وأخذ بيدها، ثم تركها وقال وهو يطأطئ رأسه: هذا لم يحدث. لننس ما حدث اليوم، هو خطئي، اغفري لي. لم أتصرف بعقلي. أحيانًا..

قاطعته: أعرف ما ستقول يا بن العم.

نظر إليها برهة وكأنه لا يفهم ما فعل، ولا يعرف لِمَ يتصرف الجسد بتلقائية لا يملكها اللب..

ثم استدار إليها، وقال: حامل القمح لا يليق بكِ. لا أفهم ما الذي أعجبك به؟

قالت دون تفكير: خضوعه.

ابتسم في انتصار ثم اقترب منها وقال وهو يضع إصبعه على ذقنها: يا بنة العم، لم يكن ليخضع لك. بعد الزواج كنت ستصبحين خادمته.

ابتسمت وقالت: أنت لا تعرفني يا بن عمي.

- بل أعرفك وأعرفه. ما إن يمتلكك حتى..

قاطعته: لم يكن سيمتلكني بالطبع.

نظر إليها في دهشة. فأكملت: جدتنا فرون.. تعرف حكايتها.. تزوجت من رجل غصبًا، ولم يمسسها حتى عادت لبدر الجمالي. البنت تستطيع أن تفعل ما لا يقوى عليه الرجال.

خرجت منه ضحكة ثم جلس على الرمال وقال: كنت تظنين أنه سيتركك دون أن يمسسك! أي سذاجة لديك! سيرغمك وستصبحين أسيرة لديه وسيتصرف في كل أموالك.

قالت في إصرار: لقد وعدني وأخذت منه أوراقًا أمام القاضي. لو تزوجني يبيع لي نفسه. أقر أن عليه دينًا كبيرًا لي، وبهذه الأوراق يطيع كل أوامري، وإلا زججت به إلى السجن. الحب يفعل المعجزات.

نظر إليها وكأنه لا يصدق ثم قال: كنت ستتزوجينه حتى يقف أمامي فقط دون أن يمسسك؟ ودون أن تريديه.. لأنه يطيع أوامرك، ويدفع عمره دينًا لك. ماذا بيدي أن أقول؟ يستحقك حامل القمح يا بنة العم.

سار وهو يضرب كفًّا بكف. حِيَلها تُعيي كل العقول.

زادت وطأة القلق والتوتر.. فقد صبره، يحتقر نفسه قبل أي شيء. وعندما عاد إلى البيت بحث عن شفيقة فلم يجدها. عرف أن رشيدة أقنعتها أن تعود إلى زوجها في القاهرة دون إذنه ودون قبوله. ضحت بالأخ من أجل الزوج.

أما رشيدة فكانت تدندن بألحان حفظتها عن جدتها وهي صغيرة، كلمات حب قالها تميم بن المعز لدين الله، قررت أن تصنع حلوى الخبيص. وأمها تنظر إليها بطرف عينها كأنها تشك في نوايا البنت أو قلبها. أخذت مقدارًا من الجزر الصغير، ومثله مقدارًا من التمر، ومثله من اللبن، ومثله من العسل، ثم وضعت هذه المقادير كلها في برام على تنور من النار الهادئة، وهي تقلبها حتى تمتزج كما الأحباب وقت العشق. ثم أضافت بيدها في رقة القليل من الزنجبيل، ثم أضافت لباب خبز السميد حتى يزيدها سماكة، ثم صبت القليل من زيت الشيرج، ووضعت إصبعها داخل البرام لتتأكد من سمكه، ثم مصت إصبعها وهي تقول في حماس: رائعة يا أمي. لا أحد يجيد صنع الحلوى مثل رشيدة.

لم تشعر به وهو يدخل عليها. ولكنها رأت النار في عينيه. صاح في وجهها: لماذا؟ ماذا عليَّ أن أفعل لأوقف شرَّك؟ الشيطان يتعلم منك يا رشيدة. أختي وأخي ومَنْ أيضًا؟ ستقلبين قلب مَنْ عليّ؟

فتحت فمها فقاطعها: إياك أن تقولي إني أُبقيك هنا أسيرة، وإنك تريدين العودة إلى الفسطاط. إياك أن تتهميني أني أخذت أموالك ومنعتك من الزواج ممن تحبين، أنت لا تحبين جوادًا، ولم تحبيه قط.

التقت أعينهما، لم تكن تخافه. قابلت نظرة لومه بنظرة لوم، ورأت غضبه بين ذرات يأس. فأكمل: ما المصير؟ ما الذي أتى بك إلى هنا؟ لِمَ دخلت حياتي؟ فرقت بيني وبين من أحب، كل من أحب.. كأنك جئت بلعنة من القدماء أو ثأر مني.. تريدين أن تثأري مني يا رشيدة؟ تريدين مذلتي يا تُرى أم موتي؟

علت دقات قلبها وبقيت ساكنة. فقال في حدة: لِمَ لا تجيبين؟ تَرى لو تركتك تعودين إلى الفسطاط وأعطيتك كل أموالك ماذا سيحدث؟ ستتركينني وشأني؟ أم ستتبعين خطاي وتبحثين عن كل من يحيطني لتدمريه واحدًا تلو الآخر.

قالت في ثبات: سيدة حبيبتك لم تزل تريدك، لم أفرق بينكما. ولكنك لا تريدها. لم تردها يومًا.

فتح عينيه في فزع. فأكملت: وأختك لا بد أن تطيع زوجها، وأن تنقذ زواجها من أجل أبنائها. لا طاعة لأخ على حساب الزوج يا بن العم. أم أنني أخطأت؟ حتى لو كان العداء بين الجيش الفاطمي والشامي فأختك زوجة، وليست طرفًا في نزاع بين الأمم. شجعتها لتقول كلمة حق أمامك فلا أحد يجرؤ على معارضتك. أنا فقط من أجرؤ. شفيقة تحب زوجها أفتكين ومكانها معه.

قال في صوت خافت: الجرأة لا تنقصك يا رشيدة. أتمنى فقط ألا أرى وجهك بقية عمري وأعرف أن هذا مستحيل.

ترقرقت الدموع في عينيها لأول مرة من كلماته. طأطأت رأسها ولم تستطع النطق.

قالت أمها: رشيدة.. ماذا بك؟ قلت لك لا أمل في هذا الرجل إنه حقود كأمه.

أمسكت برقبتها ودموع العين تغمر الأنفاس، شهقت وابتلعت آهات عمرٍ مرَّ وآخر قادم.

انتصرت المدينة على الوزير شاور. فرت الشرطة هاربة في خزي. حمل الرجال إبراهيم وأصبح هو البطل والقائد. التف حوله الشيوخ والعلماء، بعضهم في إعجاب، وبعضهم في عدم ارتياح من انتصاره الساحق. منذ متى يستطيع السكندري أن يحرر مدينة من رجال الوزير؟ وكيف سنتعايش مع هذا الوضع المضطرب. هل نفرح أم نقلق؟ لم يعد في المدينة وجود لرجال شاور. ماذا بعد؟ من سيحكم المدينة؟ ألن يخرج اللصوص من الجحور ويعتدوا على النساء؟ ألم يكن من الأفضل أن يبقى رجال الشرطة حتى لو قتلوا بنتًا أو اعتدوا على ثلاث، فعلى الأقل السواد الأعظم بخير.. تهامس بهذا الأمر بعض الأعيان حتى الشيوخ. اضطرب التجار من حب الناس للشاب الحلواني. أصبحوا يذهبون إليه في استغاثة كلما مروا بأزمة أو حيرة. كأنه هو حاكم المدينة. هذا أمر خطير. لو حكم المدينة الثائر ينقلب العالم كله، ولا نعرف مَن الخَيّر ومَن الشرير. النظام المعروف أفضل من مفاجآت الحرية وفزع الانتصار.

بل ازداد الناس تحيرًا، فقد انتصر أسد الدين شيركوه مع ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على جيش الصليبيين في أشمونين. وأصبح دخول جيش الشام القاهرة أمرًا محققًا. ولكن أسد الدين شيركوه تردد. القاهرة هي عاصمة بني عبيد، بها كل رجال الجيش الفاطمي. لا يعرف لو كان أهلها سيساندونه أم يقفون ضده. أما الإسكندرية ففيها أصدقاء وعِشرة. وطد فيها يوسف بن أيوب علاقات، يعرفه أهلها ويقدرونه. اتجه إليها أسد الدين ففتح السكندريون أبواب المدينة وعلقوا الزينة وصنعوا الحلوى.

ترك أسد الدين صلاح الدين يوسف بن أيوب يتولى أمر المدينة وعاد إلى الصعيد يحارب الفرنجة وهو يعرف أن المدد لهم قادم وأعدادهم ستزداد بالآلاف.

خرج إبراهيم يرافق يوسف بن أيوب، يخطب في الناس أن أهل الإسكندرية يحتاجون إلى محارب اليوم.. وهو حلواني. اضطر إلى أن يحارب ولكنه يفضل أن يبقى حلوانيًّا. خطب وقال إنه تعلم من جده الأكبر جوهر بن حسين بن جوهر الصقلي أن البطولة كفعل الخير يبطل ثوابها لو أذيعت بين الناس. يبقى البطل مجهولًا فيزداد شأنه بين العامة وعند رب العامة والخاصة. قال إنه يريد أن يعضد موقف يوسف بن أيوب الجندي الشاب، يريده أن يتولى أمر الإسكندرية اليوم، فالفرنجة قادمون لا محالة.

كان إبراهيم على صواب. حاصر الفرنجة الإسكندرية وجاء المدد للملك عموري، ألف وخمسمائة فارس. اتجه الرجال إلى أسوار المدينة يحمونها من الفرنجة، ولكن حصار الإسكندرية يمحص أهلها هذا أكيد.

شحت المياه وأصبح الطعام يعادل ثمن الزمرد. كل من يملك قارورة ماء أو زيرًا للغسل يتغزل فيه كأنه ظبي من الصحراء. تغير كل شيء حتى صيد البحر أصبح نادرًا، فلا طاقة للصيادين ولا هناك رجال للصيد، كلهم مع إبراهيم ويوسف بن أيوب في حربهما ضد جنود شاور والفرنج الذين يحاصرون الإسكندرية. أصبح بيت إبراهيم الحلواني قفرًا، لكل عشيرة ملجأ وسلاح، ولكل خيمة حارس وشيخ. تقهقرت رشيدة مع والدتها وجاريتها زبيدة إلى حجرتها، لا تخرج منها إلا قليلًا، تتحاشى أن تقابل سيدة وأمها. ولجأت أم إبراهيم وأخت إبراهيم إلى حجرة سيدة وأمها يتسامرن ويتكلمن ساعات طويلة. تعرف رشيدة أنهن يتحدثن عنها وعن شرها وخداعها وطمعها. طلبت من زبيدة أن تتجسس على النساء، ففعلت، وعادت تحكي لها كيف يدبرن التخلص منها. يتمنين أن ترحل كما تتمنى هي هذا. يفكرن في طريقة لإقناع إبراهيم بأن يتركها تتزوج من جواد أو تعود إلى الفسطاط. قالت لزبيدة في لامبالاة: أتمنى أن ينجحن.

نظرت إلى عيني الجارية الممتلئتين بالتوق والقلق ثم قالت: أتحبين القائد يا زبيدة إلى هذه الدرجة؟

قالت في يأس: كيف للجارية أن تبذل عمرها في الجوَى يا سيدتي؟! ليس لمثلي أن تتمنى أو تحلم. لو لم ينفر من أصلي سينفر من لوني.

نظرت إليها رشيدة في عطف قائلة: أنت جميلة يا زبيدة.

- لا تداعبي قلبي بأحلام يا مولاتي أرجوك. الرجال لا تحب اللون الأسود.

- هو اللون الذي يرتديه خلفاء العباسيين يا زبيدة. وهو يوسف بن أيوب وولاؤه لخليفته. الرجال يحبون كل الألوان، مشكلتهم أنهم لا يكتفون بلون واحد.

- لون يرتديه الخلفاء ويتخلصون منه عند النوم، أما جلدي فلا يمكن التخلص منه مهما حاولت.

- إياك أن تقولي هذا. أقسم إنك جميلة وإن الإسلام لا يفرق بين الناس كالقلب الذي لا يرى سوى ما تمليه عليه الروح.

- الإسلام لا يفرق، ولكن المسلمين يفرقون، والرجال محكومة بالجمال.

- كلامك كله حكم. كأنك..

- اليأس يهذب النفس ويربيها. آه يا مولاتي من العشق البائس! لا يوجد أقسى منه، حتى موت الأحبة أمامه رحمة.

نظرت إليها وأطرقت برهة وقالت: لا تتكلمي عن اليأس. لا أحب الكلام إلا عن القوة والشجاعة.

تساقطت الدموع من عيني زبيدة بلا حواجز. فمدت رشيدة يدها وعانقت الجارية وهي تقول: لا تبكي، ثقي في أن الله معك. لن يتركك.

ابتعدت زبيدة، ونظرت إليها في فزع قائلة: مولاتي..

- العشق كالموت لا يفرق بين عربي وأعجمي، ولا أبيض وأسود، ولا سيد وعبد. وأنت مثل الأخت.

- بل أنا جارية.

- من اليوم أنت مثل الأخت.

- لا أستحق هذا الشرف..

- ويومًا سأعتقك. أعدك بهذا.

- لا لا تعتقيني، لا دار لي سوى دارك، ولا أهل لي سواك.

- الأيام دول بين الناس. تذكري هذا. جدي الأكبر جوهر الصقلي كان يقول، «لكل زمان دولة ورجال».

- جدك لم يتكلم عن النساء يا مولاتي. فلا زمن ينصفهم ولا أيام تعطيهم ما يستحقون.

ليلًا، تذكرت رشيدة كلمات زبيدة عن سيدة وأمها، وعن أم إبراهيم وأخته. عن كل من يكرهها ويراها أشر من الشيطان نفسه. انتصف الليل وتقلبت يمينًا ويسارًا ثم نهضت وكان حلقها جافًّا جفافًا غريبًا عليها. ترددت الكلمات «آه يا مولاتي من العشق البائس، لا يوجد أقسى منه». ترددت الكلمات وازداد جفاف الحلق وكادت تختنق، فأمسكت بقدح الماء وشربت رشفة كما أمرها إبراهيم، ولكن ليس لإبراهيم عليها أمر ولا نهي، فشربت رشفتين ثم ثلاثًا وهي تحاول أن تسد أذنيها عن كلمات زبيدة ولا تستطيع. أمسكت بحلقها ثم شربت كل القارورة بلا تردد ولا تفكير. وعندما انتهت كادت أن تفقد أنفاسها بين طيات المياه، ثم شهقت وأغمضت عينيها وتلاشت الكلمات وهدأ الظمأ.

عند الصباح نظرت زبيدة إلى المياه كما تفعل كل يوم، وعرفت أن سيدتها شربت كل نصيبها من المياه لهذا الأسبوع ليلًا. فزعت وأخبرت كوثر ثم خرجت من الحجرة إلى حجرة أم إبراهيم تخبرها بما حدث. فأمسكت أم إبراهيم بقلبها ثم هرولت لتخبر سيدة وأمها وأخت إبراهيم. تهامس النساء فيما بينهن ثم قالت أم إبراهيم: لا بد أن نساعدها ستموت عطشًا.

ولكن بقية النساء قررن أنها فعلت هذا طمعًا وخبثًا وأنها تريد لكل البيت أن يعطش ويجوع. إذا كان لا بد لأحد أن يساعدها فهي أمها وليس هن. كل امرأة أمسكت بقدح المياه وخبأته في مكان لا يجده أحد، فقد أصبح العيش صعبًا صعوبة دخول الجنة للمذنب. رشيدة لم تطلب ماءً من أحد، حاولت أن تبقى

في مخدعها حتى لا تشعر بالعطش، وليلًا أعطتها أمها رشفة من الماء، طلبت منها كوثر أن تأخذ أكثر ولكنها رفضت. وأمسكت زبيدة بقدحها وأعطته كله إلى سيدتها قائلة: هو لك يا مولاتي.

قالت رشيدة في حسم: لا. أمي أعطتني الماء، حافظي عليه.

بعد يومين بدأ الإعياء يصيب رشيدة، ولكنها لم تتذمر ولم تشتك لأحد. حتى صاحت سيدة بأعلى صوتها قائلة إن قدح المياه الذي تحافظ عليه قد تحطم وضاعت كل المياه. هناك من دخل حجرتها وشرب من الماء ثم حطم القدح حتى يقتلها. وهي تعرف من فعل هذا، من يملك كل غل الشياطين داخل قلبه هو رشيدة. بكت سيدة ولجأت إلى أمها ثم إلى أم إبراهيم، وأخبرت كل من في البيت بما حدث. الجواري عرضن عليها مياههن فأخذت قارورة إحدى الجواري، وشربت بعض المياه ثم أمرتها أن تترك لها القارورة وأن تستخدم هي قارورة مع جارية أخرى ولتكن زبيدة. ولكن رشيدة ثارت واستيقظت من إعيائها ورفضت ما حكمت به سيدة، بل هددت أن تحطم كل أقداح المياه في البيت لو اضطرت زبيدة إلى أن تعطي نصف نصيبها إلى أخرى. أصرت سيدة واتهمتها بالسرقة، وقفت أم إبراهيم بينهما في عجز لا تعرف ماذا تفعل. حاولت أن تبعث رسالة إلى ابنها بأن البيت يحترق والمياه قلت والطعام كاد أن ينتهي. قالت في يأس: لننتظر إبراهيم، لا بد أنه سيأتي.

فقالت رشيدة: لن ننتظره، ليس له حكم عليَّ. جاريتي لن تشارك جارية سيدة في الماء.

ثم أمرت زبيدة أن تدخل حجرتها وتبقى بها مع الماء، وهددت أن من سيقترب من حجرتها ستضربه وتحطم كل أقداحه. صرخت سيدة ووالدتها قائلتين: إن الجور والظلم لن يستمرا طويلًا، وإن رشيدة هي من حطمت القدح وشربت الماء، والآن تتحكم بهما بجنونها وقسوتها. قررتا أن تحتلَّا المطبخ وتسيطرا على الطعام كله. بقيت أم إبراهيم عاجزة. ولكن أخت إبراهيم كاملة كانت تناصرهما وتعرف أنهما على حق وأن رشيدة ظالمة شريرة. منعن رشيدة من دخول المطبخ ووقفن جميعًا أمامها بالعصي قلن إن رشيدة لا بد أن تحترم قواعد البيت، ولو أرادت أن تأكل فستوافق على أحكامهن. رفضت وتذمرت. ولكن زبيدة ذهبت لجارية سيدة وأعطتها نصف المياه. ثم طلبت أن تأخذ الأكل لها ولسيدتها ولكوثر. أعطينها القليل، ثم اتفقت النساء معًا أن سيدة ستكون المسئولة عن المطبخ وهي التي سوف تفرق الطعام. وبعد يومين اتفقن أنها ستكون مسئولة عن المياه أيضًا، وأعطينها كل المياه، وطلبن منها أن تسيطر عليها وعليهن، فأحيانًا يشربن أكثر مما ينبغي. احتفظت رشيدة بعصًا في حجرتها ورفضت أن تنضم إلى النساء، ولكن أمها وافقت وأعطت سيدة المياه، وقالت لابنتها إن السلام أفضل دومًا. ورشيدة ترفض. حتى زبيدة تخلت عنها على ما يبدو. فلم يعد لها لا مياه ولا طعام إلا لو وافقت سيدة. وكان من الأفضل بالنسبة إليها أن تموت جوعًا. خرجت من البيت تبحث عن صيد البحر، فوجدت المدينة كلها نائمة من الإعياء. شهر مر بل شهران والحصار يشتد والناس تموت جوعًا أو مرضًا.

ولكن سيدة لم تكن منصفة في حقيقة الأمر، فقد كانت تختار من اللحم أفضله لها أولًا ثم لأمها، ثم تقطع بقية اللحم على حسب حبها لمن حولها. وقد كانت تزيد من الشرب لو أرادت دون أن تحاسب نفسها، ومع ذلك شعرت أنها أعدل من كافة قضاة المسلمين وأنها أجدر الناس بإدارة هذا البيت. كلما حاولت رشيدة أن تثور رفعت الجواري العصيان أمامها.. فتوقفت.

عند دخول إبراهيم البيت نظرت إليه سيدة في حب ثم قالت: حمدًا لله على سلامتك.

ابتسم لها وهو يبحث عن أمه، لثم يدها ثم قال: حسين لم يظهر بعد؟

قالت في خوف: لا يا بني. أخاف عليه.

- سيظهر، لا تقلقي. أريد أن أطمئن وأعرف ما الذي حدث في غيابي، ليس لدي أكثر من ساعة هنا، ثم عليّ أن أعود.

سألته عن حال إخوته، فقال إنهم بخير. جلس فحكت له سيدة ما حدث، وكيف حطمت رشيدة قارورتها وكيف شربت كل المياه، وكيف سيطرت هي على البيت. بكت بين يديه وأخبرته عن جور رشيدة، وزادت وطلبت منه أن ينقذها من ضربها على يد رشيدة وذلها. استمع في صمت. ثم طلب أن يرى رشيدة. بحثوا عنها في البيت ولم تكن موجودة. قالت أمه: أحيانًا تخرج وحدها ثم تعود.

فقال في حدة: منعت خروج النساء يا أمي.

- لا أحد يستطيع السيطرة على رشيدة حتى أمها.

انتظر في ترقب وغضب. فتحت الباب ودخلت، بدت شفتاها بيضاوين جافتين من العطش.

لم يتحرك من مكانه كان محاطًا بكل أعدائها. نظرت إليها سيدة وهي تبتسم لها في انتصار، ثم نظرت هي لزبيدة بعينيها الحزينتين اللتين لا تجرؤان على السؤال عن القائد يوسف بن أيوب، ثم لأمها التي لا تأبه بشيء سوى العيش، ثم لأم إبراهيم وأخت إبراهيم والجواري. نظرت حولها ثم قالت في قوة: كنت أنوي الرحيل لولا الحصار. لن أبقى هنا وسيدة تتحكم فيَّ.

قالت سيدة مسرعة: أخبريه أنك سرقت المياه، لِمَ لا تخبرينه؟

بقي صامتًا يشاهد تحاورهما. فقالت رشيدة في حسم: لم أسرق شيئًا، أنت من فعلت هذا لتتحكمي في البيت. أنت اللئيمة الشريرة الوحيدة في هذا البيت.

ترقرقت الدموع في عيني سيدة ثم قالت: هل تسمع؟ تعاملني هكذا منذ رحيلك بل أكثر..

قال في صوت هادئ وصارم: نحن على وشك الهلاك، والفرنج على أبواب الإسكندرية، والنساء في بيت إبراهيم تتشاجر على المياه والأكل!

فتحت سيدة فمها فقال في حسم: لا أريد أن أسمع كلمة واحدة. سنعيد تقسيم كل شيء.

قالت رشيدة مسرعة: ولكن سيدة لن تكون هي المسئولة. لا أثق بها.

فقال وهو ينظر إليها في حدة: أنت تنفذين ما أقول فقط.

فتحت فمها فنظر إليها، فتوقفت عن الكلام. قال: سأعطي لكل واحدة قدرًا من المياه والطعام، وسأبقي بعض الطعام والمياه الزائد مع إحداكن، وفي حال حدث أي شيء تقسمه هي بالعدل. نحن لا نعرف إلى متى سيستمر الحصار.

أمر الفتى الذي معه بتوزيع المياه والطعام، فأخذت رشيدة نصيبها وشربت رشفات كثيرة بسرعة ثم مسحت فمها، فقالت سيدة: هل ترى؟ ستنتهي من المياه في أقل من يومين ثم ستستعمل الاحتياطي الذي جئت أنت به. أنا يمكنني أن أحافظ على الزائد الاحتياطي كما حافظت على البيت حتى الآن وكلهم معي. تكلمي يا أم إبراهيم.

أكدت أم إبراهيم وأخته حتى الجواري أن سيدة أحق الناس بالحكم في احتياطي الطعام والشراب، فهي تحكم بالعدل ولا تتبع الأهواء، وهي أيضًا ليست بجرأة رشيدة ولا اندفاعها. نظر إلى كوثر ولكنها لم تنطق. أما رشيدة فكانت تكتم الكلمات يأسًا ومعرفة بالقرار قبل أن ينطقه. انهمرت سيدة في البكاء وجلست عند قدميه ونظرت إليه بحب وشوق وهمست: أنفذ كل أوامرك، لم يعد لي غيرك.

نظر إلى رشيدة، بدت عيناها قويتين متحَدِّيتين، وكلها تعب. قال: رشيدة هل حدث أن شربت كل المياه؟

قالت بصوت أرادته قويًّا وخرج مفعمًا بالإعياء: حدث. ولكني لم أسرق.

قال وعيناه لا تتركان عينيها: لماذا شربت كل المياه؟

ترقرقت دمعة واحدة ولم تسقط. ابتلعتها في أسًى لا تعرف مصدره، ثم قالت: لا أعرف.

صاحت كل النساء في نفس الوقت: رشيدة كاذبة. رشيدة تظلم، وتفتري على كل الناس. تذكَّر ما فعلت من قبل، وما ادعت عليك يا إبراهيم... كلنا نقول لك إنها لِصَّة لا أكثر.

طأطأت رأسها ولم تجب. من ستهاجم؟ كل الناس؟ ولِمَ تدافع وهي تعرف رأيه فيها؟

اقتربت منها جاريتها ونظرت إليها في شفقة.

أشار بيده إلى النساء أن تصمت. فتحت رشيدة فمها قائلة في حنق: أنتن..

قاطعها في حسم: اصمتي. لا أريد أن أسمع صوتًا.

نظر إلى الفتى الذي يرافقه ثم قال: أدخل الزائد من الطعام والشراب إلى حجرة رشيدة.

ساد صمت رهيب ممتزج بفزع وعدم فهم. فتحت رشيدة عينيها في نفس ذهول سيدة، قالت سيدة: ولكن رشيدة.. سرقت ودمرت..

قاطعها في حسم: ولولاها لكان كل من في البيت أمواتًا. هذا عصر يحتاج إلى الشجاعة.

كتمت رشيدة ابتسامة رضا عن الدنيا بأكملها، ووضعت يدها على قلبها حتى لا ينطق بكلمات تحوم حول نفسها منذ الأزل. سمع الاعتراض والتذمر ثم قال في حسم: هذا قراري أنا، وهي تحت حمايتي، من يؤذها، أو يضربها فسأعاقبه بنفسي. أما الطعام الزائد والمياه فلو تمت سرقته فسأعرف أنها لم تسرقه هي ولكن سرقته أخرى، إحداكن.. أي واحدة سوى أمي بالطبع.

قالت أخت إبراهيم: يا أخي.. لم نر من سيدة سوى الخير، ولم نر من رشيدة سوى الشر. ماذا أصابك من هذه الحرب؟

قال في حدة: لا أحد يتناقش معي في قراري أبدًا.

ثم قام متجهًا إلى الباب، فنادته رشيدة في قوة، التفت ونظر إليها، قالت متلعثمة: أريد أن أخبرك بشيء لو سمحت لي وحدنا.

فتحت أمه عينيها في فزع، ووضعت سيدة يدها على فمها وهي تتبادل النظرات مع أخته. التفت حوله ثم قال بلا تردد: حسنًا ولكن بسرعة.

دخلت الحجرة وهو وراءها ثم أغلقت الباب فقال مسرعًا: لا تغلقي الباب..

قالت بلا تفكير: لا يمكن أن تتزوج من سيدة. لن أسمح لك.

ابتسم ثم أمسك بالباب قائلًا: أهذا ما أردت أن تتكلمي فيه يا بنة عمي؟ سأتزوج ممن أريد.

قالت وهي تنظر إليه في شوق: لِمَ أنصفتني؟ أخبرني بالحقيقة.

قال في حسم وعيناها تضايقانه: لأنك لا تكذبين.

فتحت فمها ولكنه فتح الباب وخرج قبل أن تنطق.

كن كلهن وراء الباب.. كل نساء البيت. نظر إليهن في لوم ثم اتجه إلى باب البيت.

فتتبعته سيدة وهمست في عتاب: أنت لم تعد تحبني. سحرت لك الشيطانة.

نظر إليها، ولم يجب.

صاحت سيدة بأعلى صوتها: رشيدة امرأة سوء. ادعت أنها عاشرت ابن عمها ولم تكذب. هي أغوته يا عمتي.. هي السبب.

هرولت رشيدة إلى النافذة لتراه وهو يمر ثم قالت لزبيدة: هل سمعت ما قاله؟

- سمعت يا سيدتي.

- لِمَ فعل هذا؟

- لا أحد يدري يا سيدتي.

- أخاف.

- ممَّ يا سيدتي؟

- من التمني

هل يمكن للأم أن تنجب ابنة ولا تعرفها؟ نظرت كوثر إلى ابنتها وكأنها تراها لأول مرة. يبدو أننا لا نعرف بعضنا إلا عندما تشتد المجاعات وتقل المياه، من يبدو كريمًا لا يجود، ومن يبدو لئيمًا يعطي بلا مقابل، من كان يتحاشى سيوف القدر يفتح ذراعيه لغدر الأيام في يقين، ومن كان يدعي الجرأة يختبئ في القبو المظلم، لا الطيب طيب ولا الشرير شرير وقت الشدة، ولا الضوء نهار دومًا ولا

الظلام ليل، تتكشف الحقائق وتتبدل الأيام. أين أنت يا جوهر الصقلي لترى وتشهد على تقلب الأيام وعلى اختلاف الأحفاد، وأنت يا بدر الجمالي.. تعال.. يقولون إن قوتك لم يكن لها مثيل، تسلقت جبل المقطم وأنت فاقد للنطق، تلهث وراء السيادة كما الوحوش البرية في الأساطير، ولكنك تصل دومًا حتى لو فقدت كل أطرافك، تعال لترى حفيدتك، رشيدة، تعدد غنائمها ثم توزعها على العدو قبل الصديق، تحكم بالقسط ولا تستمع إلى الوشاية ولا تتبع الأهواء. رشيدة التي كانت تلهو بمصائر البشر، وتعبث بالفتن والوقيعة، وتضحك على بكاء الأنام، أصبحت تريد لكل من في البيت أن يعيش وكأنها تنتظر إبراهيم ليشهد على عدلها ومعرفتها، تُرى أتريد أن تثبت له شيئًا أم لنفسها؟ تفحصتها أمها، حدقت في عينيها اللامعتين ونظرتها الممتلئة بالحياة، لا جفاف يؤثر عليها ولا حروب تخيفها. اقتربت ثم قالت: هل تفتقدين جوادًا يا رشيدة؟

نظرت إليها وكأنها لا تتذكر الاسم، ثم قالت: لم أعد أتذكره. هذا ماضٍ يا أمي.

قالت في رفق: لا تُعلقي آمالك على ابن عمك، فالضغينة بينكما عمرها سنون بعمر الآباء.

قالت في فزع: ولِمَ أعلق آمالًا عليه؟ أنا لا أطيقه أصلًا. أنا فقط أريد أن آخذ حقي منه لا أكثر ولا أقل.

ابتسمت الأم في معرفة ثم قالت: الحب لا سيادة له ولا قائد. حتى السيد الأجل يقف أمام سيوفه حائرًا لا يدري هل يستسلم أو يموت شهيدًا. وأنت قوية دومًا، لا تجعلي الحب يضعفك. لم يعد لي غيرك أريدك سندًا.

قالت في حسم: أنا سندك، لا حب يقوى عليَّ ولا سيوف تصيبني، اطمئني. سنأخذ حقنا منه ثم نرحل.

لم تثق سيدة في نوايا رشيدة، ولا وثقت فيها أي من نساء البيت سوى أمها وجاريتها. كن يترقبن غدرها في أي لحظة ويتمنين أن تفقد أعصابها وتتصرف بحماقة كما كانت تفعل في الماضي فيخبرن إبراهيم عندما يعود. أفضت سيدة إلى أمها بقلقها من تغير إبراهيم عليها، ولكن الأم طمأنتها أن الرجال وقت الحروب تفقد صوابها بعض الوقت ولكنها تعود إلى عقلها بعد انتهاء الحرب. لا يوجد مقارنة بينها وبين رشيدة. هي ابنة رجل صالح وامرأة صالحة، لا عداء بينها وبين إبراهيم، ولا تاريخ مليء بالضغينة. الرجل لا يختار سوى من تحبها أمه، وأم إبراهيم تحب سيدة، وتريد سيدة، وتخاف رشيدة خوفها من الفئران الممتلئة بالدود. حاولت سيدة أن تتسلل إلى حيث تخبئ رشيدة المياه والطعام، ولكن زبيدة استيقظت واستغاثت، فخرجت سيدة مسرعة. حاولت وحاولت بلا فائدة. كأن الحظ مع رشيدة في هذه الحرب. ولكن لا أحد يعرف بالضبط أين قلب إبراهيم.

انتصارات جيش الشام تشي بنهاية قريبة. فقد هاجم أسد الدين شيركوه جيش شاور من الجنوب، قطع النيل إلى البر الغربي وخيم بالجيزة. عرض على شاور الاتفاق ضد الفرنج. ولكن شاور قال في يقين: ما هؤلاء بالفرنج إنهم الفرج.

ثم انتصر أسد الدين شيركوه في الأشمونين على شاور والفرنج، وكان معه ابن أخيه يوسف بن أيوب، سارا معًا نحو الفيوم وانتصرا معًا، واخترقا الصحراء الموازية للدلتا حتى أتوا إلى الإسكندرية، ثم رحل حينها أسد الدين شيركوه إلى قوص، وترك صلاح الدين إلى الإسكندرية. واستمر حصار الإسكندرية أربعة أشهر.

الأمل في أن الحصار سيتلاشى بدأ يتلاشى. الفرنجة لهم خطط كلها جرأة وقسوة. وبعد انهزامهم أمام جيش شيركوه أصبحوا يحاربون ببأس وشراسة. ملك الفرنج عموري الذي يحكم بيت المقدس يعرف الإسكندرية، يعرف مصر حتى قبل أن يزورها. اتفق مع شاور أن يدفع له مبلغًا من المال للحماية طوال العمر، والأهم أن يبقي فرسان الفرنجة يحمون أبواب القاهرة ومصر. اتفق عموري مع الوزير الفاطمي شاور على أن يُبقي فرسانًا من الفرنج على أبواب القاهرة حتى لو رحل هو، وأن يعطيه شاور ثلاثين ألف دينار كل عام من دخل مصر الذي يبلغ مائة ألف دينار. هذا الاتفاق كان كما الحلم والجائزة القاهرة.. يحميها فرسان الفرنج.. هكذا تمنى عموري طوال عمره.

هذا حلم اقترب من التحقق، ثم جاء شيركوه بجيشه فهزم جيش شاور وجيش الفرنجة معًا في أشمونين. الهزيمة أحيانًا في صالح الفرنجة.. فقد ازداد يأس الوزير شاور وتشبثه بالأمل الأخير. أصبح مستعدًّا أن يسلم مصر كلها على أن يتولى وزارتها. أهل الإسكندرية بالنسبة لشاور فسدة وخونة يستحقون القتل. تعاونوا مع صلاح الدين وفتحوا أبواب بيوتهم لجنود الشام. إبراهيم ابن الحلواني الصقلي يحتاج إلى الذبح والتعليق على باب زويلة الباب الذي شيده جده بدر الجمالي. سيتأكد من هذا بنفسه. ذاع صيت المصري السكندري ووصل إلى الوزير كما وصل إلى عموري ملك الفرنجة. لا بأس، الوزير شاور سيُنهي هذه المسألة في غضون شهر لا أكثر. ضحى الرجال اللابثون في الخيام أمام الأبواب، وآثروا إعطاء المياه لزوجاتهم وبناتهم وأولادهم والعجزة والمرضى. بعض أسهم الفرنجة وصلت إلى خيام الماكثين خلف الأبواب. مات رجل وراء رجل. وبعد مرور شهر بدأ الفرنجة في خطة جديدة. مرض بعض الفرسان، بدأ المرض كالوباء بآلام مبرحة في البطن، وقيء وجفاف وموت أكيد بعد أسبوع. مات الرجل بعد الآخر. فأمر الملك عموري بإلقاء جثث الموتى على خيام المصريين في الإسكندرية. اختار رجالًا أقوياء أشداء يتقنون الرمح، وطلب منهم أن يلقوا بالجثث بأعلى ما عندهم من عزم حتى تصل إلى أعماق المدينة. تسرب الوباء إلى الخيام. خاف الرجال من انتشاره فآثروا البقاء في الخيام وعدم زيارة بيوتهم ولا حتى إعطاء الطعام لأولادهم.

لم يكتف الملك بذلك، أصبح يلقي بالرجال أحياء، كل من يمرض من الفرسان يلقي به حيًّا إلى المدينة بالسلاح في البداية، فظن بعض الرجال أن الفرسان أتت تحاربهم، اشتبكوا معهم وأصابتهم العدوى. فهِموا بعد فوات الأوان. ازدادت الجثث المتعفنة وانتشر المرض.

يوسف بن أيوب صلاح الدين، لم يترك خيام الرجال حتى وسط الوباء. ولكنه شاهد الموت البطيء وعاصره، وشح المياه وأنين الآلام الأخيرة. حارب من قبل ولكنه أبدًا لم يشهد كل هذا البؤس، الموت البطيء أقسى من موت الحروب بكثير وأكثر عجزًا. رفع إبراهيم يديه إلى السماء يدعو الله في عزم، ويتمنى أن يرحل جيش الوزير وجيش الفرنجة قبل أن يقضي على كل أهل الإسكندرية. ولكن البلاء طاله. هرول إليه سالم وهو يمسك ببطنه في ألم. فزع وقال له: هل اقتربت من الفرنجة.. من الجثث أو الفرسان؟

قال في صوت واهن: لا لم أفعل.

فقال يوسف بن أيوب: أدخله إلى خيمتي.

- أخاف أن يطولك الوباء.

قال في حسم: أدخله إلى خيمتي. نحن في هذا البلاء سواء.

ما بين رجاء وشقاء قضى إبراهيم أيامه. عندما يزدهر الأمل وسط الموت يفتت الروح. تمنى أن يصيبه الداء نفسه. بكى سالم خوفًا، ارتعد جسده، فقال إبراهيم وهو يمسك بيده: لن تموت.

- لا طبيب في هذه البلدة.

- أنا معك. اشرب المياه ستكون بخير.

عندما حاول صادق الاقتراب دفع به إبراهيم بعيدًا. اختلى بأخيه وهو يرى أمامه طفلًا يجري معه على الشاطئ، يسأل عن اللؤلؤ ويجمع الأحجار الغريبة والأصداف الملونة. كانت عيونهما تضحك في نشوى كلما وجدا معًا صدفًا مستطيلًا لامعًا بألوان زاهية أو سمكة حية تعاني من صحوة الموت. ضحكات الأطفال قاسية لو تذكرناها وسط الموت. كأنك تتذكر نهرًا عذبًا والجفاف يحاصرك. أغمض سالم عينيه، بدا مستكينًا مطمئنًّا. خرجت الصرخة من فم إبراهيم مكتومة: أخي!

وضع رأسه على صدر أخيه ثم قبل جبهته وهو يهمس: كان لا بد أن أموت أنا. لم أبقى حيًّا وتموت أنت؟ أنت الأصغر، أنت الأطيب، أنت..

ربت يوسف على كتفه وقال: الموت مكتوب علينا جميعًا. نحاول إنقاذ المدينة. هل تشعر بإعياء؟ اصدقني القول.

- أنا بخير.. هذا ما يؤلمني.

- لا أفهم قصدك.

- أنا هنا حيٌّ وهو من مات. هل هناك ألم أكثر من هذا؟

نظر إليه يوسف في صمت.

ضرب الفرنجة أبواب الإسكندرية بالمجانيق. دخل بعض الفرسان يحاربون، يرمون السهام ويخرجون. تشابك المصريون مع الفرنجة. تناثرت الجثث المتقطعة في الهواء. خرج يحارب، يلقي بنفسه إلى التهلكة ويدعو الله أن يموت. اليوم سيموت. عندما يموت ستغضب أمه وتحزن ولكنها ستتذكر أن لديها صادقًا وحسينًا. ولكن لو عاد إليها وقال فقدت أخي فستتهمه أنه كإخوة يوسف. آه يا ليلى يا أم إبراهيم!.. لكم أخشى نظراتك وأتذكر دموعك وأنت تعانقينني وأنا في العشرين بعد وفاة أبي! قلت حينها: أنت رجلي وسندي، حافظ عليهما يا إبراهيم.

ها أنا أفشل في المحافظة على الأخ والوطن.

أخذ يجر رأس أخيه.. يا صادق.. صاح بأعلى صوته. قال الأخ: أنا هنا معك. لم تصيح؟

فقال إبراهيم في حسم: اذهب إلى أمك وأخبرها بما حدث.

- لا أستطيع.

- لا بد أن تذهب ولا تعد إلى هنا. الموت يحاصرنا، أمك تحتاج إليك.

قال في غضب: ألست رجلًا مثلك؟ لا بد أن نحارب ولا نستسلم للفرنج.

بقي إبراهيم ساكنًا ثم قال: في حمايتك لأمك جهاد. عد إلى البيت.

فقال في قوة: لن يحدث.

سمع صوت الموت، للموت صوت يعرفه اليوم، صوته ممتزج برائحة نفاذة. ولكنها لا تشي بشيء. صوت يشبه الضحكات المتشابكة والأيام المحيرة. فتح عينيه ونظر أمامه.

رأى يوسف يحارب فرسان الفرنجة المتسللين من الأبواب، يرمي رمحه فيصيب فارسًا أو أكثر. ثم سمع الصوت وشم الرائحة. هل استقر هذا السهم القادم من الفرنجة في صدره؟ هل استقر في صدره؟ صرخ بأعلى صوته: فلتمت اليوم يا إبراهيم يا عاجز! فلتمت اليوم.

كان يصيح لأن السهم لم يستقر في صدره. استقر في صدر أخيه صادق!

انحنى ظهره، هوى إلى الأرض لأول مرة. نظر إليه يوسف في بؤس لم يشعر به طوال عمره، ثم تمتم: ليتني ما شاهدت هذا الحزن.. ولا آتيت إلى هذه البلاد.. ليتني ما شاهدت هذا الحزن.

نظر إلى يوسف في ذهول ثم قال: أنا لم أزل حيًّا.. يوسف.. ألم أزل حيًّا؟

قال والدموع تتساقط: أنت حي يا إبراهيم.

- كنت أظن أن السهم نفذ إلى الفؤاد. لقد نفذ إلى الفؤاد، فلِمَ لم أزل حيًّا؟

للموت رائحة نعم. لا تترك الفم ولا الأنفاس خاصة عندما تختلط برائحة اليأس والهوان كما الياسمين الممتزج بالعنبر والريحان ربما، هي رائحة معتقة، حلوة المذاق كما قطائف رمضان المحشوة بالجبن. الموت يعرفه ويألفه ولكن اليأس الذي يرافقه يمزق الحشا. سمع الصرخات تعلو من حوله. بعد قليل ستعلو صرخات أمه.. فقد رحل اثنان من الأبناء.

غطى رأسه بيديه ولم يشعر بيد الشيخ زيدون التي تلمس كتفه.

قال الشيخ زيدون: هو قضاء الله. السبب ليس الغاية. القضاء آتٍ لا محالة.

بكى يوسف بن أيوب، تذكر ضحكات صديقيه، كانا أقرب إليه من إبراهيم، ركضوا معًا على الشاطئ ولَـهَوا معًا، والصحة تنبث من بين أطرافهم، واليوم تلاشوا كما التراب.

بكى يوسف لأن شعوره بالذنب طغى على مهمته هنا. السبب هو.. وجوده دمار للمدينة وأهلها. أتى لينقذ فأغرق. أتى ليوقظ فأمات. أتى ليساعد فخرق السفينة، ولكنه لم ينقذ أهلها ولا آتاه الله رحمة من لدنه.

قال الشيخ وهو يلتفت إليه: خفف عنك يا بني.. الذنب ضلال والموت حقيقة لا مفر منها.

نظر يوسف إلى إبراهيم، التقت أعينهما. لم يعرف ما الذي يدور في ذهن إبراهيم ولم يكن يريد أن يعرف. في لحظات اليأس يلفظ الفؤاد كل الخوف وكل العشب المستقر في القاع برائحته الكريهة وحشراته النامية. قال يوسف: لو طلبت منك أن تغفر لي فلن تفعل. ولو قلت لك إنه لم يكن خطئي تصدق. شاور انتصر اليوم. هذه بلاد لا أعرفها. ولم أعد أتذكر لم جئت؟ أقسم لك اليوم أن أرحل ولا آتي هنا أبدًا لو تبقَّى لي في العمر عمر. كل ما رأيته في المعارك شيء، وما رأيته في الإسكندرية في هذه الأشهر شيء آخر. هذه الأهوال وهذه المصائب كنتم في غنًى عنها. القائد الحق يعترف بالهزيمة ويتعلم من الفقد. لا شيء يستحق كل هذا الفقد والعجز. مكاني ليس الحروب وليس مصر وليس الإسكندرية. اليوم ودعت أصدقائي وشبابي، ويقيني أنني قوي.

لم يجب إبراهيم. قام يوسف وقال في قوة: هذا الحصار لا بد أن ينفك اليوم قبل الغد. أقسم أمامك إنني لن أبرح هذا البلد إلا بعد أن أتأكد من إعطاء الأمان لأهلها.

لم يسمعه إبراهيم، خرج خارج أسوار المدينة... وحده...

لم يبك. لا بكى على سالم ولا على صادق. تملكته الرغبة في الموت منذ تلك اللحظة ولم تهجره قط. كان يتكلم مع ملك الموت ليلًا، يخرج خارج الأسوار ليلقي بكرات النار على الفرنجة وهو يتضرع إلى المَلَك أن يذبحه. يمسك بسيفه ويخترق صفوف الجنود وهو يرجوهم أن ينهوا هذه المعاناة. وليلًا يقول لملك الموت: ما بالك تهجرني ولا تأبه بي؟! ألا تراني؟ أنا هنا أمامك، أدعوك إليّ.. تعالَ إليّ قبل أن أعود إلى بيتي. فلا أنا أستطيع مواجهة ليلى.. ولا العيش بعد الآن. تركتني أنا حيًّا لماذا؟ أنا أكبرهم، أنا من طلبت منهم المقاومة، أنا من.. أنت لا تسمعني.. أنت لا تتبع الأوامر. تأتي عندما تؤمر منه هو. يا رب، ضع حدًّا لهذه المعاناة، فلم أعد أستطيع التحمل.

مر شهر وإبراهيم يلقي بنفسه إلى التهلكة ويعود سالمًا. شهر وأهل الإسكندرية تموت جوعًا وعطشًا والمرض ينخر الأضلع واليأس يدخل الأحشاء. شهر آخر وهو لا يذكر اسم أمه إلا لنفسه، ولا يقوى على تصور يوم المواجهة. لا بد أنه سيموت قبلها.

كل يوم يرى الأسى في عيني يوسف بن أيوب. كل يوم يسمعه وهو يملي رسائله لعمه يرجوه أن ينهي الحصار.

بعث أسد الدين شيركوه رسالة إلى شاور، أخبره أن ما يحدث عار على أمة الإسلام. طلب منه أن يتعاونوا معًا على الفرنجة. ولكن شاور لم يستجب. قال مرة أخرى في قوة: لا تقل الفرنجة.. قل الفرج.

لم يزل أسد الدين شيركوه يعسكر عند بركة الحبش في ظاهر الفسطاط. اقترب من القاهرة ولم يدخلها. ولم يستسلم.

ازداد الضغط على ملك الفرنجة في الشام من جيش نور الدين. ولكن حصار الإسكندرية أدى إلى الخراب والموت. بعث ملك الفرنج إلى أسد الدين شيركوه بالرسائل قال إنه مستعد للخروج من مصر لو خرج جيش الشام. وقال إنه يريد السلام وسوف يبذل لأسد الدين شيركوه خمسين ألف دينار، ولو بقي صلاح الدين بن يوسف في الإسكندرية وأسد الدين شيركوه في الصعيد فسيبقى الملك عموري

أيضًا في مصر. بعد أربعة أشهر بعث صلاح الدين بن يوسف إلى عمه رسالة قال: إن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها. أقسم لك يا عمي إني ما رأيت هذا الألم وهذا الموت منذ ولدت، يكفي ما قاساه أهل الإسكندرية. فلتقبل عرض الملك عموري.. نرحل ويرحل هو على أن يُقسم شاور أمامنا جميعًا ألا ينتقم من أهل الإسكندرية بعد أن انتفضوا ضده. ولو فعل فسنعود وسنقضي عليه. ما رأيته هنا يا عماه يصعب على النفس ويُدمي الأفئدة، ويُخرج الدموع من قلب الأحجار. لا معاناة تضاهي ما شاهدته هنا يا مولاي وعمي.. فلنخفف عنهم.

استمع له عمه أسد الدين شيركوه. اتفق الطرفان على الانسحاب، واشترط أسد الدين شيركوه على ملك الفرنجة ألا يقيم في مصر ولا ينكل الوزير شاور بأهلها الذين تعاونوا معه وخاصة أهل الإسكندرية. ولكن الفرنجة تركوا فرسانهم على أبواب القاهرة وأخذوا من شاور ثلاثين ألف دينار. رحل ملك الفرنج وعيناه على القاهرة.. هذه المدينة المحصنة بالأبواب الحجرية.. اليوم يقف حارسًا عليها رجل من رجاله وغدًا تصبح له.

أما صلاح الدين فلم يترك الأسى قلبه على ما عاصر هنا وما رأى. كانوا ثلاثة أصدقاء تدوي ضحكاتهم في السماء، فتتسامر معهم النجوم وتحن إليهم الكواكب، صادق وسالم ويوسف بن أيوب. غاصوا معًا في بحر الإسكندرية فجرًا، كانت الدنيا بين أيديهم في أمواج الشتاء وعواصف الخريف. مات الصديقان بل الثلاثة بل الأربعة. فلا إبراهيم الرجل نفسه ولا يوسف بن أيوب الشاب الذي يلعب ويمرح مع الشباب.

جلست النساء في خوف من القادم، يجلسن أمام بيوتهن في انتظار جثث الأهل، هذه أم مكلومة، وهذه أرملة، وها هي بنت تفقد أخاها، وها هي يتيمة وسط العالم الكبير. أسندت رشيدة يديها إلى ذقنها ونظرت إلى حيرة أم إبراهيم في شيء من الشفقة. تعرف أن أم إبراهيم لا تطيقها وتعرف أنها لن تتقبل منها كلمات طمأنينة. سيدة تُربت على كتف أم إبراهيم وتخبرها أنها متفائلة، اليوم سيعود إبراهيم مع سالم وصادق ووالدها وحسين. لا بد أن حسينًا سيظهر من جديد. كل شيء سيعود كما كان قبل أن يدخل الفرنج مصر، وقبل أن يأتي جيش نور الدين من الشام، وقبل أن تسقط عليهم سحابة سوداء اسمها رشيدة. سيعتدل العالم اليوم.

رأين طيف الرجال القادمين من بعيد، جارِّين السيوف جرًّا كأن الذراع ارتخت والعيون أدمعت والقلب انفطر وانشق كالقمر يوم القيامة. رأت إبراهيم فتنفست في ارتياح. كل ما بعده لا يهم، وبخت نفسها. أين أنت يا رشيدة وإلى ماذا تطمحين؟ هل فقدت عقلك؟ هذا الرجل أخذ أموالك. وهذا الرجل أنت من تسببت في تمرد أخته عليه وأخيه. لن ينسى الإساءة، لا رجل ينسى الإساءة وخاصة إبراهيم. لا رحمة في قلبه ولا مشاعر. يُطوع القلب لصالح العقل. ويغلب مصلحة الحلوى على كل شيء حتى رغباته وأهوائه. هذا هو الطاغية الذي سيطر على العائلة أعوامًا دون أن يسمع أحدًا ولا يخاطب غير نفسه. هذا هو.. حبيب عمرها منذ الفطام وحتى اليوم. فلتواجه القلب الخائن اليوم، وهو قادم من بعيد أشعث بملابس ممزقة ولحية غير مهندمة يجر سيفه كأن اليوم هو النهاية. أشفقت عليه وفي الإشفاق بعض الحب أو الكثير منه. في هذه اللحظة ستواجه القلب، أغمضت عينيها ونطقت اسمه. اقترب وكلما اقترب دنا الفجر وأصبح قاب قوسين أو أدنى. اقترب أكثر فقامت أمه وهي ترتجف وهرولت إليه تحتضنه وتبكي ثم قالت: إخوتك سيلومونني ولكنك الغالي يا بني. فليلوموني.

ثم التفتت تبحث عن ابنيها لتضمهما وتستمع إلى اللوم المعتاد، تسمعه الآن قبل أن ينطقوه: أنت لا تحبين سوى إبراهيم. ما دام إبراهيم بخير فالدنيا بخير.. لديك أولاد آخرون يا أم إبراهيم.. ها نحن هنا أمامك.. أماه.. أماه..

التفتت حولها، ثم قالت في حيرة: أين إخوتك؟

نظر إليها بلا كلمة. وضعت رشيدة يدها على فمها في فزع من القادم. ثم صرخت أخت إبراهيم صرخة كادت تصل إلى القاهرة. فأشار إليها إبراهيم بالسكوت. ولكن الصرخات توالت، الكثير من الصرخات فوالد سيدة أيضًا مات وأخوها، أبقت رشيدة يدها على فمها وهي تنظر إلى حيرة أم إبراهيم وعجزها، لا بكت ولا صرخت. تعيد السؤال للابن مرة ومرات: أين سالم؟ أين صادق؟

قال في حسرة وانكسار: هم في جنة الخلد أحياء عند الله يرزقون.

نظرت إليه وكأنها لا تفهم ما يقول ثم سألت من جديد.. بدأت تتكلم مع نفسها، قالت الكثير:

أنت قتلتهم، أم قتلتهم أنا؟ كنت أحبك أكثر، أخاف عليك أكثر، عرفوا فماتوا، عرفوا فماتوا، بل وثقت بك، كانوا أمانة بين يديك فألقيت بهم إلى التهلكة من أجل جيش الشام. أنت قتلتهم لتأخذ حقهم. اليوم كل مصانع الحلواني لإبراهيم. إبراهيم الطامع الذي يريد كل شيء لنفسه، هرب الصغير حسين خوفًا منك، وقتلت أنت إخوتك. ابني.. مات. إبراهيم بن الصقلي مات اليوم. أين إخوتك؟ هات إخوتك وسأسامحك. أقسم إني أسامحك. سأغفر لك جمر الغضا الذي يحرق قلبي، ولكن هات أختك وحسينًا وسالمًا وصادقًا. فرقت بين الإخوة يا إبراهيم. هات إخوتك يا كبير العائلة يا رجل. أين هم؟

بقي ساكنًا لا يعرف ماذا يفعل. ضمت كفها ثم لكمته بكل قوتها على صدره، وقالت: لِمَ لم تمت أنت؟ أنت سبب كل المصائب.. سيدة هاتي المصحف.. هاتي المصحف.. بسرعة..

هرولت سيدة تبحث عن نسخة المصحف الوحيدة التي يملكها بيت إبراهيم، كانت ثقيلة كبيرة، فحملتها معها جاريتها، وضعتها أمام أم إبراهيم، فأمسكت بالمصحف وقبلته ثم وضعت يدها على جبهتها وقالت: أقسم بهذا المصحف وبرب العالمين إن ابني إبراهيم مات اليوم. لن أخاطبه ولن أرى وجهه ما حييت حتى يأتي لي بإخوته الأربعة كلهم أو يموت، وحتى لو مات فلن أدعو له ولن أصلي من أجله. اليوم مات ابني ولا أريد بكاء ولا نائحات، أما بقية أولادي فأحياء يرزقون.

قالت سيدة في رفق: يا أم ابراهيم، استعيذي بالله من الشيطان.

قالت وهي تقبل المصحف: لا شيطان هنا سواه، إبراهيم هو الشيطان. خذيني يا ابنتي بعيدًا عنه فقد أقسمت.

لم ينطق. بقي ساكنًا بعينين متحجرتين كأنه مات بالفعل، ولكنه لم يُبعث. بقي في هذا المكان المظلم بين الجنة والنار.

عندما نهلت السيوف من دمه كانت رحمة، وعندما سمع قرار جيش الشام بالرحيل وسقط قلبه في أعماق الجُب كان انتصارًا. وفي لحظة أعلنت أمه وفاته فانهزم الهزيمة الأخيرة. أم إبراهيم هذه السيدة التي لم تصرخ قط ولا تألمت ولا اشتكت ولا غضبت من إنسي، كانت كالملائكة في حلمها

وغفرانها، واليوم قررت أن تذبح بلا تردد ولا تفكير. نطقت بعد خمسين عامًا من الصمت وذبحت بكلماتها بحرفية وإتقان دون أن تترك أثرًا على الجدران ولا على أعمدة المساجد. كان ذبحًا نظيفًا كأعتى القواد. ماذا يقول اليوم لأمه.. التي تطارده بعينيها شغفًا وإعجابًا منذ ولد؟ ولكنها الليلة تغمض عينيها حتى لا تراه. وقد أغلقت القلب وجذبت الروح بعيدًا عن وجوده. الأيام القادمة كلها ظلام، والهزيمة لم تبدأ بعد. شاور قد وعد يوسف بن أيوب أنه لن ينتقم. وعد الفرنج أنه لن ينتقم من أهل الإسكندرية وسيتركهم في سلام. لا وعد للوزير، هو يعرفه لم يلقه من قبل، ولكنه يعرفه أكثر من أي شخص. من اليوم أهل الإسكندرية سيعرفون معنى الهزيمة والذل. سيبدأ التأديب وسيلعب شاور بالذاكرة. لا بد أن ينسى أهل الإسكندرية أنهم استطاعوا يومًا القضاء على شرطة شاور، وأنهم حاربوا الوزير كما الجيوش المدربة، وأنهم تمردوا. من يطلب العدل يستحق السحق وكل خوازيق الوزير. ومن يجرؤ على التمني يلق المهالك ويتفتت أمام الأسلحة. لم يتعلم ولم يربه والده.. ليت والده علمه أن يبتعد عن الحكام وأن القدرة للقوي وليست للعادل. ما أجهله اليوم! ولكنه يعرف حتى لو كان يوسف بن أيوب يصدق وعد الوزير شاور، فهو يعرف.

خرج من حجرته، من بيته، نظر حوله إلى شوارع الإسكندرية، هنا كوم الناضورة، وهنا مسجد العطارين، بدت الأزقة مهملة كما المدن المهجورة، كل رجل يلتزم بيته، ساد صمت المنهزم قليل الحيلة، وكاد يسمع بكاء صامتًا من النساء على من هلك ومن سيهلك. كيف للإسكندرية أن تبدو بهذا الظلام وسط النهار؟ وكيف للشمس أن تغلق أبوابها حزنًا على الأيام الماضية والقادمة؟ وحسين.. ترى أين أنت يا أخي؟ هل هانت عليك أمك؟ أم هان عليك أخوك؟ صرخ بأعلى صوته: حسين.. تعال أمك تحتاج إليك.

اتجه إلى مصنع الحلوى يبحث عن الخزانة، كان المصنع مهجورًا، الأبواب مفتوحة، والرجال إما ميت وإما مصاب. أمسك بقلبه ونادى على سفيان زوج أخته بأعلى صوته، طلب منه أن يحرس المصنع في غيابه، جاء سفيان من أقصى المدينة يسعى ويجر الخيبة وراء ظهره، قال في صوت محموم: جواد سرق الخزانة.

نظر إليه إبراهيم ثم نظر حوله، كيف لم يلاحظ جنود شاور، التفوا حول المصنع كما الضباع في ثوانٍ.. قال أحدهم: أين الأموال؟

فقال إبراهيم في مرارة: كنت أسأل السؤال نفسه.

قال سفيان وهو ينظر إلى الجنود: سرقها حامل القمح. اعذرني يا أخي، لم يكن بيدي، كنت خائفًا وتركت المصنع للمأكل ورؤية أولادي لا أكثر. لم يكن ذنبي.

لم ينطق إبراهيم، نظر للجنود التي تحيط به وهو يسأل نفسه متى يقبضون عليه؛ اليوم أم غدًا؟ وماذا ينتظرون؟ عاد إلى بيته بأقصى سرعة وهم وراءه، يحاصرونه.. فتح الباب ثم نادى على رشيدة ودخل حجرته.

أخبرها بما حدث. فقالت مسرعة: أقسم إني لم أطلب منه هذا. نعم حدث في الماضي أني طلبت منه ثم سجنته أنت. ومنذ ذلك اليوم وأنا أخلص لك.

قال في مرارة: منذ ذلك اليوم وأنت تخلصين؟ هل لا بد أن أفرح؟

قالت في صدق: والله لم أحبه قط ولم يلمسني، وكنت سأتزوجه لأحمي نفسي من طمع الرجال حولي.

قال وهو يشير لها بيده: كُفِّي عن الكلام.

ساد الصمت الممتلئ بالكلمات وعلت الخفقات. نظرت حولها. الضوء الخافت جعل وجهه كوجوه القدماء كأنه صنع من حجر أحمر، حتى عيناه بدتا حمراوين. اقتربت بلا كلمة، استجمعت كل شجاعتها، تنفست في بطء وواجهت القلب لأول مرة. لا يوجد رجل على هذه الأرض مزق حشا القلب غيره، ولا رجلٌ أخرج الضغائن من جوف الليل غيره، ولا رجلٌ ترك النفس جوفاء غيره. لا حرقها بجمر الغضا غيره، ولا أضاء بقية العمر سواه. آه يا إبراهيم لو تعرف! آه لو تدرك أن الدماء سالت من الفؤاد تبحث عنك! لِمَ يتوق القلب إليك وقت هزيمتك؟ ولِمَ يريد أن يغفر لك كل الخطايا؟ وضعت يدها على كتفه وهمست: إبراهيم.

لم يُجب. لم تعرف لو كان يدرك وجودها حوله أم لا. هذا أفضل. فلتسكب كل ما في القلب حتى ولو لم يسمع، بل من الأفضل ألا يسمع. اقتربت ثم طوقت ظهره بذراعيها وأراحت ذقنها على ظهره، استنشقت رائحته، كانت تطوف بها لياليَ طوالًا منذ الصغر. أغمضت عينيها وضغطت على جفنيها، تجمعت الدموع كما الأبقار وقت الغروب منتظرة الدخول إلى المسكن، الواحدة تلو الأخرى، كانت على وشك السقوط، ولم تسقط. فلم يفتح لهم أحد الباب. عذاب الجسد هين أمام هذا الحضور الطاغي لروح تتوق إلى روح ولا تصل إليها. عضت على شفتيها حتى سالت الدماء. تُرى أيدرك وجودها؟ وهل هناك ذنب أكبر من أن ينفر من عشقها؟ أن يمر عليه كما يمر المرء على خشاش الأرض؟ لو تعرف ذنبك يا إبراهيم وجريمتك لتمنيت الموت، ففي الموت رحمة، فجزاؤك عذاب لا ينتهي، وسلخ للنفس قبل الجلد. بعد برهة التفت إليها في بطء وكأنه أدرك وجودها أو ربما لم يدرك، لا تدري. ثم اعتدل في جلسته وجذب ذراعها إليه فألقت بنفسها بين ذراعيه، احتضنها بكل قوته حتى ذاب صدرها داخل صدره، وهامت دماؤها بين دمائه، امتزجت الأنفاس وزُلزلت الأرض تحتهما، قال بصوت متقطع وهو يقربها أكثر حتى كادت تختنق: ماذا تفعلين هنا؟

همست: لا أعرف.

- لا بد أن تعودي إلى حجرتك.. هيا.

أحاطت عنقه وقالت: أخبرني أنك بخير.. أنت بضعة مني..

أبعدها عنه في فزع ثم قال: هل فقدت عقلك؟ ماذا تفعلين؟ وماذا كنت تريدين؟

حاولت أن تصد الدموع عن المرور ولكنها مرت، تساقطت دون رغبتها، فمسحتها بعصبية، ثم اتجهت إلى الباب.. فتحته وخرجت.

حاول أن يتكلم مع أمه مرة ومرات، لم تكن تجيب ولا تنظر إليه، كان أمامها كذرات الهواء لا تراه. أغلقت روحها عن وجوده. أيقن أنه لم يمت فقط، بل دخل نار جهنم أمام عينيها. ولكن أيقن أيضًا أن التألم أحيانًا يكون رفاهية لا يملكها الآن. هو ألقى بهما إلى التهلكة. هو تسبب في كل هذا.. قصد أم لم

يقصد، حتى النوايا النبيلة مصيرها إلى بئر لا قرار لها. أمسك برأس سفيان وقال في صوت عالٍ: أنت يا زوج أختي.. لا أدري لو كنت قد خنتني وسرقت المصنع مع جواد أم لا. ولكن لم يعد لنا أي شيء، أي شيء. أريدك أن تثبت ولاءك لأختي ولنا.

نظر إليه سفيان في فزع، فأكمل إبراهيم: تأخذ أمي وأختي وأولادك وسيدة وأمها وكل الجواري في البيت وترحل إلى الشام ليلًا.. اليوم.

- يا أخي.. جنود شاور على باب بيتنا.

- لم يأت لهم أمر بعد بسجننا، سيتركونك ترحل. أنت لست المطلوب.

- فلترحل معنا إذن يا إبراهيم.

ردت كاملة: أرجوك أن ترحل معنا يا أخي.

نظر إبراهيم لأمه، كانت صامتة تنظر إلى لا شيء. قال: أمي.. هل تريدينني أن آتي معك؟

لم تُجب. قال في بعض الرجاء: لو بقيت أهلك. تريدين هلاكي؟

لم تُجب. ربت على كتفها فاقشعر جسدها كأن أفعى لدغتها. فنزع يده وقال: أنا لا أترك بلادي ولا وطني. هذا بيت الصقلي. يومًا سنعود إليه جميعًا ومعنا حسين. هيا لا يوجد وقت، لملموا ما تبقى من أغراضكم واتجهوا بسرعة إلى الشام. لن يستطيع شاور أن يوقفكم، ولو فعل فسيتصدى له يوسف بن أيوب.

نظرت سيدة حولها ثم قالت: ورشيدة؟ هل ستبقى معك هنا؟

طأطأت رشيدة رأسها. حسرتها تمتد إلى حدود صقلية وبلاد الأرمن. ليت سيدة تعرف هزيمتها، حبست دموعها. فليفعل بها إبراهيم ما يشاء، فقد قتل وانتهى الأمر.

لم يجب عن سؤال سيدة. اتجهت بعينيها إلى عينيه وقالت: هل ستنساني؟

نظر إليها وقال بصوت حاسم: انسيني أنت. لا تربطي نفسك أبدًا بجندي منهزم. أنت تستحقين من هو أفضل. ربما أموت هنا أو أُسجن أو أفقد الذاكرة، لا أحد يعلم. عيشي وتزوجي وأنجبي الأبناء.

فتحت رشيدة عينيها لا تعرف هل تفرح أم تحزن. ولكن سيدة قالت في صوت خافت:

سأحاول لأني لا أعرف لو كنت أستطيع.

قال وهو ينظر إليها: ستستطيعين يا سيدة. تستحقين من هو أفضل.

نظر إلى الجمال وهي تحمل رِّحل أمه وأخته وسيدة وأمها والجواري، رأى الجمال تبتعد فاطمأن قلبه.

رآها تجلس في عبوس داخل حجرتها وحدها. أغمض عينيه وتنفس الصعداء. لم يكن يومًا بالجبان. فليواجه قلبه بشجاعة، وليواجه جرأتها وحمقها وحربها. دخل وأغلق الباب.

نطق اسمها فلم تجب.

- رشيدة.. لِمَ لا تجيبين؟ هل تسمعينني؟

أدارت وجهها ولم تنطق. رفع يده ليضعها على كتفها ولكنه لم يفعل. قال فجأة: لا أريدك أن تظني أني أكرهك. أو..

قالت في حسم: فلتكرهني كما شئت. أنا أيضًا أكرهك.

قال في صبر: أريدك أن تفهمي، أحيانًا تتصرفين بجرأة لا تليق بابنة الصقلي. وأحيانًا جرأتك تضعفني، بل ربما الضعف كامن منذ زمن..

قالت في حدة: قبلتني على الرمال، فعلت يا بن عمي لم أكن أدعي عليك. لست المثالي الذي لا يخطئ أبدًا كما تدعي. وإياك أن تقول إنك لم تضللني ولم..

بحثت عن الكلمة ولم تعرف ماذا تقول.

التقت أعينهما، انتظر ليسمع منها فقالت: ولم...تخدعني..و..؟

نظر إلى شفتيها فقالت: ماذا تريد مني يا بن عمي؟

- أنت على حق يا رشيدة.

أذهلها استسلامه. لم يفعل هذا من قبل. قالت: على حق في ماذا؟

ثم قالت في حزن: تنفر مني كأنني الوباء.

- بل أريدك كأنك متاع الدنيا.

فتحت عينيها وكادت الأنفاس تتوقف ثم قالت: تبتعد عني..

- لأنك مستقرة بداخلي.

- تعاملني كأنني لا شيء.

- لأنك كل شيء ربما، لا أعرف.

- تتلاعب بالكلمات لتنتقم مني.

- لو انتقمت منك فلا بد أن أبعثر بقايا روحي. لا أستطيع.

- تخدعني الآن، فقد تسببت في كل همك.

- لا أدركت قدر همي ولا ثقل الاشتياق وهوان الجسد إلا عن قريب.

- لا تفعل هذا بي. لو أردت أن تنتقم فانتقم، ولكن لا تذبح الروح.

- حاولت أن أنتقم من نفسي ولم أستطع.

- ما الطريق الآن؟

- لو أعرف كنت أخبرك. في هذه اللحظة أريد أن أعانقك.

ترددت ثم ابتعدت، فأمسك بذراعها ثم قربها في حذر وقال: أعرف.. أفهم أنك لا تثقين بي ولا أنا أثق بك، ولكن العالم من حولنا انفض ولم يبق فيه سوانا. لا.. لم أسامحك، وربما لن أستطيع.

- ألن ترضى بك سيدة الآن؟ آه لن ترضى بك.

- لا يرضى بي كل الناس يا ابنة العم. ولا أرضى عن نفسي. تعالي هنا بين ذراعي.

- لماذا؟

- يعتدل الكون حينها.

- لن تدوم اللحظات.

- لهذا أريدك بين ذراعي لأني أعرف أنها ساعات قصيرة وأيام معدودة.

- لا تضللني، أتوسل إليك.

- لا ضلال في الروح، ولا يقين إلا في وجودها، كل ما دونها فناء وريبة.

خرج من الحجرة وهي تحاول أن تتأكد أن ما مر بينهما لم يكن مجرد طيف خيال.

ما حدث منذ ساعة لا تدري لو كان حقيقة. ولكن كيف للسعادة والرضا أن يوجدا وسط الهزائم؟ لا تعرف. عانقها في رقة وحذر ثم خرج من الحجرة وقال إنه سيأتي بعد قليل من الوقت.

لم ينطق بكلمة حب. تعرف أنه يشتهيها ويريدها، ألا يكفيها هذا؟ ولكنه لم يكن يكفيها. ومع ذلك تكلم عن الروح. لا تعرف لماذا، وربما لا يعرف هو لِمَ خرجت منه هذه الكلمات. هي راضية، فلو أصبح لها الجسد فسيتبعه القلب.

نظرت إلى عيني جاريتها الحزينة قالت: ماذا بك؟

تمتمت: سيدي يوسف رحل إلى الشام، لن أراه مرة أخرى طوال عمري.

- أكنت تفضلين الذهاب إلى الشام أم البقاء معي؟

- وحتى لو ذهبت إلى الشام فكيف للجارية أن تطمح في رؤية سيد الكون. سيدتي. وجودي معك أمان لي.

- ولكننا لا نحتاج إلى الأمان بقدر ما نحتاج إلى الرضا.

عاد إبراهيم وطلب منها أن تأتي إلى حجرته.

جلست أمامه وهي تحتضن نفسها تحاول لملمة ما تبقى من فُتات الفؤاد، فلو عرف أن القلب يخضع أمامه ويطمح فستكون نهايتها. نظر من النافذة الخشبية برهة، ثم قال دون أن ينظر إليها: لم أر كشرِّك

من قبل.

توقعت كلماته اللاذعة ولم تعد تأبه بها. بقيت صامتة، فأكمل وهو لم يزل لا ينظر إليها: ولا رأيت في شجاعتك كأنك خُلقت للحروب يا بنة عمي، قلب صلب وإرادة من حجر مثل حجر الأهرام، لا زمن يفنيها ولا رياح تطوعها.

قالت في مرارة: هل هذا إطراء أم ذم؟

التفت إليها، التقت أعينهما ثم قال: شاور انتصر على جند الشام، وأسد الدين شيركوه ومعه يوسف بن أيوب عادوا إلى الشام. لا عهد لشاور ولا للفرنج. الانتقام قادم.

بلعت ريقها وهي لا تعرف لِمَ يتكلم معها اليوم. لم يفعل من قبل.

قال: ما بناه الصقلي لا بد أن يبقى، ولكني لست متأكدًا من أنه سيبقى. حسين ثار عليَّ، وأنت السبب. فهل أعاقبك اليوم لأنك قلبت قلب أخي عليَّ؟

قالت في جفاء: لو كان لك قلب لما تقلب قلبه عليك.

هز رأسه وكأنه يتفق معها ثم قال: حسين رحل لا أدري إلى أين، وبقية إخوتي ماتوا، وأختي اختارت زوجها بتحريض منك، وبقية أهلي رحلوا إلى الشام. لم يتبق في عائلة الصقلي سوانا.. أنا.. وأنت..

جلس أمامها واقترب منها بعض الشيء، فاختلجت الأحشاء، وارتعشت الأطراف.

ثم قال: أنا لا أهرب.

قالت في يقين: أعرف.

- وأنت لا تهربين.

- لا أهرب.

قال في رقة لا تعرف مصدرها ولا سببها: رشيدة.. مصانع الصقلي والحوانيت كلها في خطر.

- ولكن المدينة لم تزل قائمة.. الصقلي ليس حفيد الحلواني فقط، هو أيضًا الجد الجندي القائد الذي بنى القاهرة، وهو السيد الأجل بدر الجمالي الذي أنقذ مصر من المجاعة. نحن أحفاد القدماء وأحفاد من اختارها وطنًا.

- الحلواني والقائد لكل منهما بناية وأثر. ليس في يدي أن أحافظ على المدينة، ولكني أستطيع أن أبقي على أثر الحلوى.. حتى لو تحالفت مع ألد الأعداء.. فالأثر أهم عندي والذكرى لا بد أن تبقى.

رددت: ومن هم ألد الأعداء يا بن عمي؟

استقرت عيناه على عينيها ثم قال: أنت تعرفين.. أنت..

ضغطت على شفتيها حتى لا تبكي أمامه وقالت: كنتٍ تقول إنني كل شيء.

فقال في حسم: أنت في قلبي نعم ولكنك لست صديقًا. أنت يا رشيدة ما تبقى من الحلواني، أنت من يستطيع أن يُبقي على الأثر..

فتحت عينيها في ذهول وهي لا تعرف ما يقصد.

فقال: عندما ينهزم القائد يُغير الخطة ويعيد قراءة أوراقه، فربما لم ير كل شيء ولم يُبصر في خضم الغضب. عدو قوي لو انقلب إلى رفيق يعيد بناء الجيش. أنت تعودين إلى القاهرة والفسطاط وتحاولين..

وضعت يدها على قلبها ثم قالت: تريد أن تعطيني حقي؟

- أريدك أن تأخذي كل المصانع التي كتبها لك والدك، ولكن ليس لأنه حقك، ولكن لأنك الوحيدة القادرة على إدارتها والحفاظ عليها. عندما تبتعدين عن هنا يمكننا إنقاذ الجد.

- أنت؟

- لا لم أفقد عقلي.. ألفي بين القلوب، فهذا أصعب لو تعلمين، حاولي أن تقودي أنت كما حلمت.. أعطيك الفرصة لتثبتي أنك أهلٌ لها. ولو فعلت فلن أتدخل في شيء يخص مصانعك طوال عمري.

بقيت صامتة، تستوعب كلماته وهي لا تعرف هل تفرح بالبعد عنه أم تحزن على عشق لا قِبَلَ لها به.

قال: لو أشعلت الفتنة تقضين على ما تبقى. تذكري والدك وجدك، تذكري من تكونين. عديني أن تتصرفي كابنة الصقلي، وسوف أبعث معك الرجال، وأترك لك الحرية التامة.

قالت في صوت مبحوح: تريدني أن أرحل؟

- أليس هذا ما أردت من البداية؟ ترحلين اليوم وأنت أقوى وأعلم. أثق بقدرتك يا رشيدة، فبداخل كل الوسخ نقاء الزمرد، ولهيب الياقوت الأحمر.

- أتذمني أم تمدحني؟

ابتسم وهو ينظر إليها ثم قال: لا أعرف. سأعطيك أيضًا كل الأموال التي في الخزانة هنا. ترحلين الليلة بأسرع وقت. قولي إنك هربت مني وإنك كنت ضد أفكاري وإنني أرغمتك على البقاء. ذمي وسبي فيَّ بكل قوتك، فلا بأس، ولكن حافظي على الإرث. كل الإسكندرية تعرف أنك تكرهين وجودك هنا، وأنني أبقيك رغمًا عنك. عيون شاور ستخبره بأن قصتك حقيقية. أنت هربت مني، لا ذنب لك فيما حدث، بل أنت عدوة لإبراهيم تتمنين قتله. أقنعي كل من حولك بهذا.

تمتمت: تريدني أن أقنعهم أنني أتمنى موتك وأكرهك.

نظر إليها.. اقترب منها وقال في رقة: قولي إنك لم تكرهي أحدًا كما كرهتني. قولي إنك تكرهين صوتي وأنفاسي..

أمسك بيدها فارتجفت ثم قرب شفتيه من جبهتها، وقَبَّل جبهتها في وجل، فأغمضت عينيها وقالت: أنت لعنة عليَّ لو تعرف. داء أصابني منذ الصغر.

ابتسم ثم ابتعد عنها وقال: الغريب أنني كنت أتصور نفسي وأنا أمزقك بالقبلات في اللحظة نفسها التي أتمنى فيها أن أضربك أو أذبحك. كنت أطرد الخيال والغواية وأقول لنفسي: إبراهيم لا يذنب ولا يتبع الأهواء. هو الكره أحيانًا يتبدى للجسد كما الغربة والشهوة لا أكثر.

بلعت ريقها وقبضت يدها.

اتجه إلى درج، ثم فتحه وأخرج منه المال والذهب. وضع كل ما أخرج في راحتيها وقال: هذا كل ما أملك.

قالت وقلبها يكاد يخترق الأضلع: سأحافظ عليه.

فقال وهو يبتسم: أعرف.

- متى تعود لتأخذه؟

رفع كتفيه ثم قال: كيف لي أن أعرف؟ لو كنت أعرف لما أعطيتك كل شيء. لو بقيت حيًّا فسأعود..

- ثم..؟

- ثم تعيدين لي حقي فقط وتبقين على حقك.

عضت على شفتيها. تمنت أن يقول الكثير، ولكنه لم ينطق.

فتحت راحتيها فتسلل الذهب من بين يديها، نظر إليها في فزع وقال: قلت لك حافظي عليه.. ها هو يتسلل من بين يديك..

تجاهلته واقتربت منه وهي تستجمع كل شجاعتها، ثم استنشقت هواءه في صدرها، وقبلت وجنته بلا كلمة، وابتعدت في بطء.

قال وهي ترى بعض الأثر على وجهه، ولكنها ليست متأكدة إذا كان أثر الدهشة أم شيء آخر.. ها أنت تتصرفين دون تفكير.. يا رشيدة..

انحنت تلملم الذهب وهي تحاول أن تتحاشى النظر إليه وتشعر باحمرار وجنتيها وحرارة جسدها، انحنى وجلس على ركبتيه ثم أمسك بيدها ودفع بها إلى صدره في لحظات، غاصت في اللهيب ولم تبال. قبل وجنتها في بطء ثم اتجه إلى شفتيها يستكشف آثار الشوق ووهج الانتظار، همس وهو يمسح بشفتيه على شفتيها: هذا جنون.. لا بد ألا يحدث..

لم تعرف كيف تتذوق شفتيه ولا كيف تمتص رائحته لتبقيها معها بقية العمر. أتدفع به أم تضمه أكثر؟ أتجيبه على كلماته الجارحة أم تترك العنان للأطراف البائسة؟ أحاط بوجهها وقبلها قبلة مختلفة تسربت وتسللت إلى جوف الروح. حاولت أن تبتعد، أفزعها وصوله إلى هذا العمق ولكنه مستقر منذ زمن لم يتزحزح، فلِمَ الفزع من تمكنه لو كان موجودًا منذ الأذل؟ ارتبك عالمها، غاص بها في حجرات لم ترها من قبل، وطاف بها على أنواع حلوى كلها فستق ومسك ورائحة ورد طازج زاهي الألوان. كيف للتمر أن يتلوى ويتشكل بين الأيدي؟ وكيف يخرج رخوًا متكاملًا شهيًّا كنبات الجنة؟

وكيف لهذا الدقيق أن يغمر كل الساحات ثم يتحول إلى رقائق هشة من السكر والعسل وحبات القمح؟ آه من حبك يا إبراهيم وما تفعله بالنفس! لو تدري كيف عذبت وكيف عاقبت! وضعت يدها على صدره لتبعده عنها، فلو استمرت القبلة ستودي بحياتها هذا أكيد. بدا وكأنه يفيق من ثبات عميق، تردد ربما، ثم وضع رأسها على صدره وأبقاها بلا كلمة.

ضغطت بأصابعها على زنديه وهمست: ماذا بعد؟ هل ستتركني؟

فتح فمه فقالت مسرعة: إياك.. لو اعتذرت أو ندمت أو..

ابتسم ثم أراح خده على شعرها وقال: كنت في العاشرة عندما طلبت الزواج مني.

- بل كنت في الثامنة.. هل تتذكر؟

- كيف لي أن أنسى؟ جرأة لم أعهدها في الأطفال.

- لم أكن طفلة.

- تغيرت يا رشيدة.. ولكن جرأتك كما عهدتها.

ودت لو ضربته، لو نطق بالكلمات التي تريد أن تسمعها، لو..

قال في حسم: لو بقيت حيًّا فلا بد أن نتزوج.

تنهدت وطوقت عنقه وقالت: لماذا؟

- قلت لك: لا بد أن نتزوج.. هذا يكفي.

قالت وهي تمسح دمعة من عينها: نعم هذا يكفي.

ابتعدت في بطء، ثم وجدت الملجأ في جمع الذهب والدنانير التي تبعثرت حولهما، فقال في حسم: اذهبي إلى حجرتك يا رشيدة، سآتي لك بهما بعد برهة.

نظرت إليه في ذهول، لا تفهم لِمَ تغير فجأة. تُرى أيريدها؟ أيكون قد ضاق بوجودها حوله دون أن يقبلها ويصهرها بداخله؟ أجمح خيالها اليوم؟ لن تفكر. تركته وذهبت إلى حجرتها وآثار قبلته لم تزل تضيء ما تبقى من الأيام.

بعد برهة أمسك بيدها وخرج بها من الحجرة وقال وهو ينظر إلى عينيها: رشيدة تكره إبراهيم، تذكري هذا. لو قالوا لك إبراهيم مات لا تبدي أي تأثر، بل افرحي أمامهم، ولو قالوا إبراهيم في السجن يتعذب قولي هو يستحق هذا وأكثر. رشيدة.. أنت أمل هذه العائلة، أنت في يدك نجاة الصقلي. هل تسمعين؟ اطرحي كل مشاعرك جانبًا. القائد لا يحب ولا يكره، يتخلص من كل هوى النفس.

نظرت إليه ثم همست: هل تنوي أن تعيش؟

فقال في حسرة: هل أنوي أن أعيش؟ لا أعرف ولا يهم. لا تسألي هذه الأسئلة.

أمسك بكتفها ثم قال: ستخرجين من هنا ولن تفكري إلا في الصقلي، جدك جوهر الصقلي وبدر الجمالي والحلواني، أجدادك يتوقعون أن تنصريهم. هذا طلبي الوحيد.

هزت رأسها بالإيجاب وسط ذهول جاريتها.

ابتسم في مرارة ثم فتح ذراعيه وقال وهو يقربها إليه: مرة واحدة ومن بعدها تتذكرين أن إبراهيم عدوك، وأنت تمرين من أبواب الإسكندرية سيسألك عساكر شاور لا بد أن تقنعيهم ليتركوك. لم أطلب منك طلبًا طوال عمري سوى هذا.

أحاطت صدره وقالت: أحبك. ربما لن تصدق، وربما.. أقسم أني لم أحب أحدًا غيرك منذ ولادتي.

لو كانت كلماتها أثرت فيه فهو لم يظهر هذا. مسح بيده على شعرها ثم قال: لا تتفوهي بهذه الكلمات مرة أخرى. تذكري، سيقولون لك إبراهيم يتعذب، مات، هلك، يُصلب، مُعلق على أبواب القاهرة، وستقولين يستحق هذا. ستلجئين إلى حماية الوزير شاور من ظلم وجور ابن عمك.

قالت وهي تقبل قلبه: سأفعل كل ما تريد.

خارت قواه وتفتتت الإرادة. ضمها كأن العالم بين راحتيها والنصر في عينيها. التصق الجسد بالجسد والصدر بالصدر، ثم قال: ربما لو تزوجنا الآن ثم رحلت. هل أتزوجك الآن؟ نقضي معًا نصف يوم، ساعتين، ساعة، أو لحظات. فلو مت أكون قد تذوقت عشقك في الدنيا.

قالت وهي تحيط ظهره بيديها وتتشبث به: نتزوج الآن.

- كيف ستقولين إنك تكرهينني وأنت زوجتي؟

- نتزوج يا إبراهيم.

قال فجأة في عدوانية وهو لم يزل يضمها إلى صدره: إياك من جرأتك وسذاجتك مع الرجال، ابتعدي عنهم. لا تتعاملي معهم قط هل تفهمين؟.. سأعرف، ولو عرفت..

ابتعد عنها. التف حول نفسه في يأس. فتح الباب ثم قال لأحد رجاله: هَيَّا، الطريق طويل. نادِ على بقية الرجال.

علت أنفاسها وهي تنظر إليه. بدا قليل الصبر، الضيق يطفو على السطح والبؤس يتوغل. نظر إليها وأغمض عينيه، تصورها بين ذراعيه طوع إرادته، ملكًا له. ترتجف من الشوق وتنبض أحشاؤها من الاشتهاء. نظر إليها، تعمدت أن تجلس بعيدًا عنه وترخي ذراعيها والهوان يبدو عليها لأول مرة. سرقت نظرة بطرف عينيها، تلاقت العينان وتعانقتا، تبادلا العشق والنشوى. أغمضت عينيها وزفرت أنفاسًا مختلفة. لا عرفت قدر الجوى ولا شدة التعلق سوى اليوم. مرت قشعريرة في كل الجسد لم تكن تعرف كيف تصفها لأنها لا مرت من قبل بهذا الشعور، ولا عرفت ما معناه. ولكنه أزعجها كأن الصبابة والتوق اجتمعا ضدها.

جلست زبيدة على الأرض تنظر إليهما وبكت في صمت، بكت لأن العشق موصول بين الأحبة، من عرف ومن لم يعرف. من أحب بلا أمل، ومن اقتربت نجاته.

سمع الأصوات خارج البيت، هرول إليه الرجل: جنود شاور تسيطر على المدينة.

قام كالهائم ثم قال في جدية وهو ينظر إليها: هيا يا رشيدة. لا وقت عندنا. أريدك أن ترحلي بأسرع وقت.

قامت، اتجهت إليه كأنها ترجوه، تتضرع إليه أن يطفئ نارًا اشتعلت، ويرفق بقلب تشبث بلا رجعة. أمسك بيدها، ضغط عليها في قوة. أغمض عينيه وأغمضت عينيها، رآها في مخيلته مرة أخرى تتأوه من الشوق إليه، يغرقها بقبلاته وينزع فرعًا من أفرع الفؤاد ويبقي عليه بداخل نفسه. وشعرت هي به في مخيلتها، تذوقت قبلاته في فمها، زال العطش وابتلت عروقها.

أبعدها عنه ثم نظر إلى زبيدة وقال: احميها إن استطعت. ولا تتركيها.

قال وهو يدفع بها إلى خارج البيت: تركت بنتًا وحيدة وسط الأهوال، ولكنها أعتى من كل الجنود. لا تخذليني. تذكري دومًا كلمات بحنس «الشجاعة لحظة، يختار فيها الإنسان أن يناطح شياطين السماء والأرض وحده، بلا تردد ولا وسواس، ملقيًا بكل الحذر إلى قاع النهر، متشبثًا فقط بسنا البرق». أحببتك من أجل شجاعتك.

توقفت عن الحركة ثم فتحت فمها في ذهول وقالت: ماذا قلت؟

قال مسرعا: هيًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الباب الثاني:

ما لقلبي من لوعة البين راق

أتراني أحيا ليوم التلاق

طلائع الأمري

شاعر فاطمي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القبض على إبراهيم تم بعد يومين لا أكثر كما توقع وكما أيقن. لا عهد لشاور، ولا حيلة لإبراهيم سوى أن يرجو القدر في ميتة رحيمة هنا على أرضه، وليس وهو هارب إلى أي مكان. هو من اختار وهو من سينتظر ما ستسكبه الأيام على نفسه، وكيف ستتكأ الجروح وتخرج الحشا من داخل الجسد. فليصبر، فالجسد سجن، والدنيا سجن، هكذا قال جده بدر الجمالي، ووسط مجده وانتصاراته خانه الجسد وتوقف لسانه عن الكلام. دفع به الجندي إلى السجن. سبه ولعنه ثم سب والديه، بقي إبراهيم ساكنًا يعرف أن الشجاعة تكمن في الصمت، وأن الجندي ينتظر منه صرخة أو ألمًا. لن يعطيه هذا الانتصار. بدا الوجه كالأحجار أو أشد قسوة. قال الجندي في كره: أين صلاح الدين الآن وعمه شيركوه؟ جاءا طامعين وخرجا مخذولين وتركاك يا خائن لمصير مجهول. سمعت أن أمك قد تبرأت منك. تتبرأ منك بالطبع فقد جلبت لهم العار. تكلم.. هل فقدت النطق؟ هل تسمع؟ هل تتعلم؟ هل تقسم بالولاء لوزيرك؟ يا مصري..

سبح عقله في سبعة بحور؛ بحر هائج وآخر هادئ، بحر بزرقة الليل وآخر بزرقة السماء وقت السحر. يا أم إبراهيم! يا ليلى، يا لك من قاسية وظالمة! هل تتبرئين مني اليوم؟ قتلتني يا أم إبراهيم؟ لأنك صنعت مني الرجل منذ كنت طفلًا، صنعت فارسًا من الحلوى ثم أكلته في ثوانٍ، كنت أنا قلبك فدهستني بقدميك واعتصرت الروح. ليتك عرفت من أكون منذ البداية؟ جسد ضعيف، حلواني.. يا أمي.. لست قائدًا للجيوش ولا عالمًا ببواطن الأمور. لم يخلقني الله بسحر موسى ولا قدرة سليمان. يا أم إبراهيم، لكم ابتسمت فخرًا وأنت تأخذينني بين ذراعيك وأنا في الخامسة وتهمسين: يا رجل أنت الفارس والأمل.. أنت رجلي وكل عمري الباقي! حمَّلتني ما لا أستطيع يا ليلى، ثم عندما ناء بي الحمل و«بركت» ناقتي تخليت وكأنك لم تحبي يومًا ولم ترحمي. كيف لي أن أحمي إخوتي؟ وكيف لي أن أصارع الأيام يا ليلى؟ إذا كان جدي السيد الأجل لم يستطع أن يمنع ابنه من خيانته، تريدينني أن أحافظ على حياة إخوتي وكأنني أنا المانح والمانع. يا ليلى.. ربما كنت على صواب، ليس للعدل أن ينتصر ولا لأصحاب الأفكار النبيلة في عصر الفتنة أن يثبتوا، فليذهب الجميع إلى الجحيم لا أبالي. حاولت وأخفقت. حدث. قولي لهم يا ليلى إن ابني إبراهيم قتل إخوته بحماقته ومبادئه وحبه للخير والعدل. قولي لهم إن ابني إبراهيم دفع بعائلة الصقلي إلى الهاوية، وأنهى ما تبقى منها. قولي لهم إني قتلت إبراهيم يوم عاد إلي بُخفَّيْ حُنَين. ولكن باعه قصير يا امرأة.. لا هو يحيي ولا يميت. مات إبراهيم يا ليلى فقرِّي عينًا ولا تخافي ولا تحزني. سيستسلم الجسد اليوم أو غدًا، ولكن الروح برحت الجسد وانتهى الأمر.

ليت ليلى تترك ذاكرته. اليوم يراها.. أمه لا يراها بعينين عاجزتين وظهر منثنٍ وكفين مرفوعتين إلى أعلى كأنها تناجي القدر أو تستجير به، يراها شامخة بشعر أسود وعينين ممتلئتين بالحياة، تحكي له في حماس عن قصة السكندري في أيام الفوز والرخاء. قالت: تعرف يا إبراهيم، كان هناك ملك غير كل الملوك، جاء بعد عهد كله ظلم. هل تصدق أن المصريين كانوا يدفعون الضرائب على ملح الأرض وصيد البحر؟ حتى جاء الملك، يقولون اسمه أحمد بن طولون، ولكن الفوز جاء من هنا؛ من هذه المدينة. الإسكندرية.. تثور حتى وإن نام الدهر واتكأ على السحاب. دم الإسكندرية ممتزج بالكرامة لا يطيق الظلم ولا يستقر معه. ثار الصياد ثم قتله الظالم حتى جاء ابنه وأخذ بثأره. يقولون

إن اسمه أنس، تزوج أجمل البنات ووضع نصب عينيه مدينته وثأره. ظلم وضُرب، قطعوا أطرافه وألقوا به في السجن، وخرج منتصرًا وطرد الغريب. حكى لي جدي عن القصة. في الإسكندرية نتذكر مجد الأجداد. هو زمن غير الزمن، كان الدينار من الذهب الخالص، وكان الخير وافرًا والدنيا مضيئة، والرياح تخجل من المصري وترهبه. لا سفينة تغرق، ولا ملك ظالم يأخذ كل سفينة غصًبا. بعد الشدة فرج يا بني، تذكر الصياد وحكايته. سجنوه وعذبوه.

ابتسم لنفسه في أسى. أين أنت اليوم يا ليلى. تبرأت مني؟ أي حب هذا الذي يصبح كعبادة الله على حرف، إن صاحبني الفوز أحببتني، وإن ابتعد نفرت مني؟ أي أم أنت يا أم إبراهيم؟

رسم بإصبعه اسم رشيدة على حجر السجن. ترى ماذا ستفعل؟ لِمَ يثق ويوقن أنها لن تتزوج بغيره؟ هل يصدق القلب حتى وإن عارض العقل؟ هل عشق ابنة عمه؟ وهل سامحها؟ لا لم يعد الجسد هو ما يشتاق إليها بل الروح. لن يخدع نفسه، هي بضعة من روحه، شاء أم لم يشأ. ولا يعرف متى ولا كيف تشبثت بالكبد وغمرته بفؤادها؟ يراها أمامه طوال الوقت بضحكتها الشريرة تارة، وبصرخة الألم تارة. لن يناقش العقل، فلو فعل فربما يطل عليه العقل بالظنون والشك يُذكره أنه كرهها واحتقر أفعالها. لا لن يدنو من عقله. يكفي أن قلبه يصاحبها فيهدأ ويقترب منها فيصفو. ألا يكفي هذا؟

قال شاور في قوة وهو ينزل سلالم السجن الضيقة ويضع يده على أنفه من رائحة العذاب والقهر:

أريده يقظًا لا مكسورًا من التعذيب، ولا ذليلًا من الضيق والظلمة.

إبراهيم بن الحلواني، جدك الوزير بدر الجمالي السيد الأجل أمير الجيوش، وجدك الأكبر جوهر الصقلي فاتح مصر وباني القاهرة. أنت الآن أمام أمير الجيوش شاور وزير الخليفة الفاطمي العاضد!

لم يكن حلمًا. طلب الوزير شاور لقاء ابن الحلواني بالذات. أراد أن يراه ويتكلم معه. جاء شاور وسط حراسه ومع ابنه الكامل.

نظر إليه إبراهيم بلا كلمة.

- أتعرف يا حلواني يا خائن أن جدك هو مثلي ومعلمي، أتعلم منه، ولا أقصد جوهر الصقلي بل بدرًا الجمالي، كان يزيح أعداءه بإتقان، ويذبح كل من يقف في طريقه بلا رحمة! كم رجل سلخ وصلب! وكم من الأطراف قطع! ثم يأتي علينا زمان يقف حفيده أمام أمير الجيوش شاور، من يتخذ الجد أبًا ومثلًا. أليس هذا ذنبًا عظيمًا يا إبراهيم؟

بقي إبراهيم ساكنًا.

- لا بأس، أنت تعرف أن هذا ذنب عظيم. سترجو وتستعطف. ولكم استعطف أبو طاهر جدك بدرًا الجمالي قبل أن يسلخه بدر بلا تردد وهو حي. هذا زمن لا يترك لك الوقت لتفرز الأفعال وتتأمل النفوس. هذا عصر الفتن والطمع والخيانة، وأنت خائن، خنت الجيش الفاطمي من أجل جيش الشام! لهثت وراء كلمات العدل والخطر الكامن في الظهر من الفرنج مع أن الفرنج هم الفرج وليسوا الخطر، ولولاهم لاحتل صديقك الشاب الخجول الذي لا يجيد القتال يوسف بن أيوب بلادك. تعرف أم تضلل نفسك؟ كلهم طامعون في مصر لا أكثر، الفرنج وجيش الشام ونور الدين وقائده الصغير

يوسف بن أيوب، كلهم يريدون إقطاعية للجنود ليطفئوا نار الدماء في عروق جنودهم، ويشعلوا نار القتل. لا ملاك على الأرض يا رجل! لو كنت جدك لسلختك. قتل ابنه الذي من صلبه عندما خانه. جئت أراك لأخبرك أن شجاعتك ممزوجة بضلال، وأن جرأتك ممزوجة بالخيانة، وأن مصيرك هو الهزيمة الأبدية. لو خرقت عينيك أرحمك من رؤية عذابك. ولو قطعت أطرافك يصبح السجن جنة واسعة. فلتبق عيناك في الظلام تتوق إلى النور ولا تجده، ولتبق أطرافك حبيسة تحلم بالجري ولا تقوى على القيام. يا بدر الجمالي.. تعال لتشهد على خيانة إبراهيم حفيدك، تعال لأخبرك أن جعفرًا المظفر ابنك قد ترك قصره في القاهرة ليلتحق بمصانع الحلواني، وأن حفيدك يستحق القتل مثله مثل ابنك الأوحد. هل أقتله اليوم وهل ستفرح بقتله أيها السيد الأجل؟ على قدر الوجل في سيرتك على قدر الخزي في سيرة حفيدك. وعلى قدر الشجاعة في مسيرتك على قدر البلادة في سيرة حفيدك، وعلى قدر حمايتك للبلاد على قدر غدره بوزيره. تكلم.. أسمعك.

- ليس لدي ما أقول. فلتكن مشيئة الله.

- بل تكلم، ربما تنقذك شجاعتك من السلخ، ويكون قتلك أسرع وأقل إيلامًا.

ساد الصمت هنيهة حتى قال إبراهيم في صوت بطيء: الفرنجة ليسوا الفرج. لو دخلوا مصر تنتهي كما بيت المقدس، وكما مدن الشام التي دخلوها.

- رحلوا يا غبي.

- على موعد بالعودة. هي حرب على الأرض والكنز وليست من أجل عقيدة ولا رب. ولكنهم لم يرحلوا، استقروا على الأبواب التي بناها جدي بدر الجمالي. أبواب عاصمتك القاهرة.

كيف نطق؟ لا يعرف، ومن أين جاءت الكلمات؟ لا يدري. حتى الشجاعة تتبدى في شهر بئونة هذا العام!

قال شاور في جفاء: اتضح أن لإبراهيم لسانًا يحتاج إلى القطع.

ثم التفت شاور لابنه الكامل وقال: أريدك أن تخترق بسيفك فخذ إبراهيم، ولا تصيب عرقًا حتى لا يموت. اسلخ الفخذ فقط.

بلع الكامل ريقه ثم قال في رفق: أبي، أنت طلبت منه الحديث.

- افعل ما تؤمر بلا كلمة.

أغمض إبراهيم عينيه وتمتم لنفسه: لا حول ولا قوة إلا بالله. ربِّ لا تجعلني أرجو.. فلتقطع لساني أو تفقدني النطق.

فأمسك الكامل بسكين في تردد، واتجه إلى فخذ إبراهيم، شق الفخذ دون المساس بالوريد، تصبب العرق من إبراهيم، صرخ بأعلى صوته، الآه خرجت من بين أطناب الحشا، ورأى جدته الكبيرة سندس وهي طفلة وسط النيران، كيف احترق وجهها وبعض الجسد؟ يشعر بها الآن. ما أقبح النار! وما أفزع الآلام التي لا إرادة لنا بها! ولا يدري لماذا تذكرها؟ رشيدة تتحمل في صبر، فما باله لا

يستطيع أن يتحمل هو. هل تكون ابنة عمه أقوى منه؟ ابتسم وسط آلامه كأنه فقد عقله. توقف الكامل ونظر إلى الأب وقال: هذا يكفي وإلا سيموت.

- كأني رأيته يبتسم. هل فقد عقله؟

- أبي.. الرحمة من سمات العظماء.

قال الأب في حسم: أريدك أن تنهي ما بدأت يا كامل. غدًا أزوره فأجده مسلوخًا تمامًا، علق جلده، أريد أن أرى الجلد يحترق تحت النيران. أريد أديم الأرض من جسده.

بلع الكامل ريقه ثم قال: أمرك أبي. ولكن الوعد الذي وعدناه لـ..

قاطعه: الوعد يعده المهزوم، لا وعد للمنتصر ولا محاسبة. غدًا أراه.

قال في حسم: أمرك يا مولاي وأبي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 8 -

توقعت رشيدة أن المواجهة مع عبد التواب ستكون كمواجهة الوحش الضاري. لا تحبه ولكنها تحتاج إليه. وما يثير أعصابها هو استماع كل الحلوانية إليه هو وليس لها هي صاحبة المكان. جلست أمامه ثم قالت: إبراهيم طلب مني أن أدير الدكاكين والمصنع هنا في الفسطاط.

قال في حسم: إبراهيم في السجن يا ابنتي. أنا مثل أبيك وسأدير كل شيء نيابة عنك، هذا أفضل، أنت تبقين في بيتك مصونة كاللؤلؤ المكنون. كلنا هنا في خدمتك.

حاولت أن تسيطر على الغضب الذي يجتاحها ثم قالت: أنت ذراعي الأيمن، ولكن الدكاكين لي. أبي أرادني أن أديرها وكذلك ابن عمي.

قال عبد التواب في تحدٍّ: العمال لن تستمع إلى بنت يا سيدتي. لو كان هناك رجلٌ قادرٌ على إدارة المصنع.. أنا كنت أديره طوال العام الماضي.

ابتسمت ابتسامة مصطنعة ثم قالت: أنت على صواب يا عمي. الرجال لن تطيع بنتًا إلا لو أمرهم الرجل الطيب الذي تربى هنا منذ الصغر أن يطيعوني. أنت تأمرهم بهذا.

نظر إليها في تحدٍّ ثم قال: لن يوافقوا.

- يا عمي، أنت مثل أبي الآن. وجواد هرب ولن أتزوج غير إبراهيم.

- إبراهيم في سجن شاور، لا أحد يخرج من سجن شاور حيًّا.

كتمت دمعة خنقتها ثم قالت: لا أستطيع الاستغناء عنك يا عمي ولا أريد. هب مثلًا أن الرجال قررت ألا تطيعني، سأضطر إلى قطع قطعة من قلبي والاستغناء عن رجل أعتبره في منزلة أبي. وهب أني استغنيت عنك ثم لم ينفذ الرجال أمري مثلًا.. سأبحث عن غيرهم، ولن يكونوا بكفاءتهم ولا إخلاصهم، وستشهد أنت تدهور مصنع الصقلي ودكاكينه.

طبق شفتيه ثم قال: ولكنك لن تفعلي يا ابنتي. فأنت لا تكرهين جدك كل هذا الكره.

- ثق أني لن آخذ أيَّ قرار دون استشارتك، وأني لا أستطيع إدارة هذا المصنع من دونك. ولكن جدي كان يقول لكل زمان دولة ورجال.

- نعم جدك على حق. تكلم عن الرجال ولم يأت بسيرة امرأة ولا بنت. لا مكان للبنات في أي عصر، مكانهن في البيت.

تنهدت وهي تحاول أن تتذكر حبها لإبراهيم، وتحاول السيطرة على عصبيتها، ثم قالت: كأنني رأيت جدي جوهر الصقلي في الحلم وهو يخبرني أنه كان يقصد لكل زمان دولة ونساء. وأن كلمة رجال هنا كانت تشمل كل البشر. لا أعرف هل هذه رؤيا أم ماذا؟ هيا يا عم عبد التواب فقد زارني أمس الشمولي صاحب محال الحلوى في القاهرة يريد شراء الدكاكين، وقلت إني سأفكر في الأمر.

قال في حسم: لن تتحكم فينا بنت في عمر بناتي.

- هل تفضل أن يتحكم فيك صاحب دكاكين الحلوى في القاهرة؟ الشمولي!

- سأترك المصنع اليوم.

- يا عمي.. أنا لا أهدد ولكني سئمت الخلافات، لو بعت المصنع للشمولي فسوف ينتهي كل خلاف. معي تحافظ على هيبتك، ومع الشمولي تعود حلوانيًّا صغيرًا في مصنع كبير. ماذا تريد؟

- سأترك المصنع اليوم.

- فكر في الأمر يا عمي ولا تأخذ قرارًا سريعًا. أنا لن أستغني عنك.

ضرب كفًّا بكف وهو يتذمر ويتمتم بكلمات ثم خرج. أتى بعد ثلاثة أيام، وقال إنه سيبقى على شرط أن يشاركها كل قرار، وافقت على مضض وهي تدعو الله أن يلهمها الصبر.

السلام الحذر بين عبد التواب ورشيدة كان أصعب من السلام بين نور الدين وشاور. هي تتتبع خطاه وهو يتتبع خطاها، هي تتجسس عليه وهو يتجسس عليها، هي تأخذ قرارًا أحيانًا لتحيط الرجال وتسيطر وتظهر قوتها، وهو يتحداها فقط لأنه يستطيع. بعد شهر ظهر جواد. جاء يسعى في شوق، ما إن رآها حتى ركع أمامها ثم قال: أقسم إني لم أخنك.

نظرت إليه بلا أي تعبير على وجهها. التفتت حولها وهي تعرف أن عبد التواب يتجسس عليها وينتظر ما سيحدث. قالت في حسم: أنت سرقت أموال إبراهيم كلها.

التفت حوله ثم قال: جئت أتمنى رضاك وأتمنى الزواج بك.

قالت في حسم: أنت سرقت.

فقال في صوت خافت: وأنت من طلبت مني هذا. فعلت هذا من أجلك.

- وأين هي الأموال؟

التفت حوله ثم قال: أنا لم أسرق وحدي يا سيدتي. تعاون معي زوج أخته ومساعده وذراعه اليمنى سفيان.

- لا أصدقك.

- بل صدقيني. سرقت الأموال وأعطيتها له ليحفظها في مكان آمن حتى تنتهي الحرب والحصار، اتفقنا أن ندفنها في كوم الدكة عند القرافة، دفناها معًا، ثم بعد يوم اختفت، هرولت إليه ولكنه رحل إلى الشام هاربًا. أقسم إني أقول الحق، وإني أريدك.

قالت: يا جواد، فلننس الماضي، اذهب إلى حال سبيلك.

نظر إليها في غضب ثم قال: الآن تريدينني أن أذهب إلى حال سبيلي؟ بعد أن عدتني بالزواج إذا سرقت. كنت تنتظرين إشارة من ابن عمك حتى تلقي بي في القاذورات! أهذا مصيري يا بنة الحلواني؟

قالت في حسم: اذهب إلى حال سبيلك.

- ألم تتعلمي يا رشيدة ألا تلعبي بالبشر وكأنهم عرائس من الحلوى!

قالت في فزع: إياك أن تنطق اسمي دون سيدتي!

قام وأمسك بمعصمها في قوة وقال: ألم يربك والدك يا بنت؟ تظنين أن حامل القمح لا يليق بك الآن! بعد أن أضعت كل عمري؟

قاومته بكل قوتها وقالت في قوة: لا تهددني. لم يولد من يهدد رشيدة. اخرج ولا تعد.

أخرج سكينًا من جيبه ثم رفعها، فانطلق عبد التواب ناحيته، صارعه، وأمسك بالسكين، ثم قال: السيدة رشيدة تطلب منك أن تخرج، أم أنك تريدني أن أنادي كل رجال المصنع!

أمسك جواد بسكينه ثم خرج من المصنع. قالت رشيدة وهي تبتسم: أنقذت حياتي يا عمي.

ابتسم عبد التواب في فخر وقال: أنت ابنتي.

ولسبب ما بعد هذه الحادثة اعتدلت العلاقة بين الاثنين، وأصبحت أشبه بالعلاقة بين صلاح الدين بن يوسف وعمه أكثر منها بالعلاقة بين شاور ونور الدين.

اختفى جواد مرة أخرى. شعرت ببعض الذنب ليلًا. كان على صواب.. لعبت به وبغيره. لم تكن ترى سوى نفسها ويأسها من ابن عمها. كانت طفلة عابثة. تعرف وتندم وتتمنى ألا يكون عقابها هو حرمانها من ابن عمها بقية العمر، مع أن هذا عقاب تستحقه بلا شك.

أصبحت تعمل في إتقان ليلًا ونهارًا، أرادت أن تعيد علاقات مصنع الصقلي بقصور القاهرة، القصر الغربي والشرقي، تفننت في صناعة الحلوى وإرسال الهدايا لأمراء القاهرة. فلتبدع في صنع الحلوى. اليوم تخترع نوعًا جديدًا من الحلوى كما اخترع جدها عروس المولد والحصان والفارس. طلبت من أمها وزبيدة أن تساعداها.

أخذت السكر والعسل واللوز والشيرج وقسمتها أجزاء متساوية، ثم دقت اللوز ووضعته مع السكر على نار مع زيت الشيرج حتى يغلي ويتحمص اللوز، ثم أضافت العسل ونثرت عليها السكر وخلطتها معًا، ثم قَلَتها مرة أخرى في زيت الشيرج، ثم أضافت الزعفران الثمين المذاب في ماء الورد والمسك، ثم وضعتها في أوانٍ وقالت لأمها: ما رأيك؟

تذوقت الأم بأصابعها وتنهدت قائلة: كأنها حلوى من الجنة؛ عسل ومسك ولوز.

قالت رشيدة في فخر: نعطيها هدية للخليفة الإمام وأمراء القاهرة. ولكن لا بد أن نختار لها اسمًا، هذه حلوى من إبداع ابنة الصقلي والأرمني والمصري: رشيدة.

قالت الأم: سميها حلوى الشجاعة.

ابتسمت ثم قالت: لن يتذوقها أحد يا أمي خشية تبعات الشجاعة! فلنسمها حلوى المكشوفة. رشيدة أول من أدارت مصانع وحدها وكشفت قدرتها وقوتها.

بدأت في توزيع حلوى المكشوفة.

جاء إلى مصنعها أمراء الوزير كلهم يطلبون الحلوى الجديدة. واليوم جاء ضيف لم تره من قبل، ولكنه كان يتتبعها منذ تذوق الحلوى. طلب مقابلة ابنة الصقلي التي تدير المصانع في الفسطاط. ارتدت خمارها وذهبت في قلق وطلبت من عبد التواب أن يأتي معها...

توقفت والتفتت إليه ولم تصدق من ترى. كان الكامل ابن الوزير شاور، هو شاب في مقتبل العمر، ابتسم لها وقال في رفق: هلا خلعت خمارك يا سيدتي؟

قالت: لا يجوز يا مولاي.

نظر حوله ثم قال: اصرفي الرجال.

قالت في تردد: يا مولاي!

- جئتك من أجل سر مهم.

طلبت من عبد التواب أن ينتظر بالخارج، ثم عقدت كفيها وهي تخاف أن يأتي بنبأ شؤم عن ابن عمها.

قالت: أسمعك.

- ليس للقلب قائد ولا وزير وأنت ملكت القلب يا سيدتي فاحكمي بما تريدين، اليوم أتزوجك فتملكين كل مصر.

نظرت إليه في ذهول بلا كلمة، فأكمل: أراك وأراقبك كل يوم، كأن دكاكين الحلوى هي روحك. وماذا ستفعلين لو ضاعفت لك الدكاكين؟ لو حميتك من كل غادر؟ لو ساعدتك دون أن أكبح حريتك؟ منذ تذوقت حلوى المكشوفة وأنا أبحث عن الحلواني، دلوني عليك، فأصبحت الغاية والأمل.

لم تنطق.

قال مسرعًا: لا تقولي شيئًا، فكري في الأمر. زواجنا يُبقي على مصانع الحلواني في الفسطاط وكل مصر. فكري في الأمر واستشيري، ولأثبت لك حسن نيتي أعطيك أضعاف ما تملكين مهرًا يا رشيدة.

- في مصر الكثير من البنات يا مولاي، كنت أظن أنك جئت إليَّ بخبر عن ابن عمي، هو في سجن شاور.

قال في حسم: لن يعود.

سقط قلبها للأحشاء وأمسكت ببطنها وقالت في صوت مبحوح: هو حي. أريده حيًّا يا مولاي، فهو من دمي حتى لو اختلفنا، هو كالأخ والأب، كنت أتمنى أن تتشفع..

قاطعها: سلخت فخذه بيدي.

نظر إلى عينيها، رأى رعشة في جفنيها واضطرابًا في أنفاسها، ثم شهقت بلا إرادة وزاغت عيناها، ولكنها قالت في صوت خافت كله رجاء: هو لم يمت أليس كذلك؟

قال وعيناه تركزان على عينيها: هل يهمك أمره؟

قالت في صوت أرادته أن يخرج قويًّا: الدم والرحم يا مولاي.

بقي صامتًا.

شهقت من جديد كأنها ابتلعت أفعى سامة، ازدادت شهقاتها ولم تستطع النطق.

فقال كامل: أنت تحبينه، أليس كذلك؟ منذ رأيتك وأنا أشعر بهذا. منذ لمعت عيناك عندما تكلمت عنه، وعندما انتفض قلبك يطلب المزيد.

أمسكت بجدار الحانوت حتى لا تقع وقالت في ترجٍّ: لا، اعذرني يا مولاي. الموت يؤثر فيَّ دومًا، وهو من دمي، ولكنه لم يمت. أعرف. حتى لو تعذب، فقد هرب، أليس كذلك؟

تساقطت الدموع دون إنذار، وضع يده على كتفها، وقال: لو قلت إني أحبك هل تصدقينني؟ وإني لم أحب غيرك حتى ولو كان كل نساء الأرض نصب عيني.

لم تسمعه، همست وهي تزيح يده: إبراهيم.

قال فجأة: والدي يريد أن يصبح بدرًا الجمالي. يضع القائد نصب عينيه. سمى نفسه أمير الجيوش. ولكن ليس كل من أصبح ملكًا هو ذا القرنين، ولا كل من ملك خزائن الأرض يوسف. هل تحتاجين إلى شيء مني؟

هزت رأسها بالنفي وهي تتمنى فقط أن يتركها لحالها. خرج بلا كلمة. فهوت إلى الأرض.. تنشجت بلا بكاء، ثم جرت إلى مشهد السيدة رقية. جلست أمامها ثم همست: سيدتي، أنت تفهمينني وتعرفين قلبي. اشفعي لي.. أو تكلمي عني. يا رب، لا تغضب مني، كنت أتصرف بهوى النفس فاغفر لي. يا رب، لا تحرمني منه، لا أستطيع العيش بدونه. كان أمامي وأنا أكرهه، وأنا أحبه منذ ولدت. يا رب.. أعرف أنها مشيئتك لو حرمتني منه فلن أغضب فهو ملكك أنت، ولكني أعدك أن أحسن من نفسي وأجاهد كل الشر بداخلي.. أعدك. هل ستعيده لي؟ لا لا تقل إن رشيدة مدللة لا تحب الخسارة ولا تترك لعبها للغرباء. هل ستعيده لي؟

من اليوم سأُحسن إلى الضعيف وأغفر كل الأخطاء. هل ستعيده لي؟ يا رب، عدني أن تعيده لي. سيدتي، أنت امرأة تعرفين.. تفهمين.. توقنين. يا بنة علي بن أبي طالب.. هل تسمعين؟ يا رب، هل ستعيده لي؟

سأتأدب في الطلب. نعم سأتأدب في الطلب.. وأكف عن التدلل والحروب والمؤامرات. أنا رشيدة بنت الجمالي الأرمني وجوهر الصقلي بنت الاثنين، المصرية التي تحبك. حتى في معترك شري كنت أحبك. لم يترك حبك قلبي. يا سيدتي، أخبري ربي أني أحبه. يا رب، هل ستعيده لي؟ أنت الحليم الغفور اللطيف، الطف بي، واجعل حلمك يطغى على كل انتقامك، وأعده لي. يا رب العالمين..

ها أنا أتأدب في الطلب.. أنا راضية بقضائك. سأرضى حتى تعفو وتصفح..

انهمرت في البكاء بلا توقف.

هرولت إلى بيت أخته في القاهرة تسأل عنه. قالت أخته إن أمها ستعود من الشام قريبًا ولا أحد يعرف أي شيء عن إبراهيم، ولكن حسين عاد. سيجتمعون معًا قريبًا، ولكن إبراهيم.. لجأت شفيقة إلى زوجها أفتكين ليخبرها بمصير أخيها، قال في وجوم: لا أحد يخرج حيًّا من سجن شاور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما حدث لإبراهيم يعرفه الكامل بالتفصيل.

أغمض عينيه واستسلم. سيأتي الموت أخيرًا فليشكر الوزير، ولكم يتمنى أن يخبر ليلى أنه ميت، أن بقاءه حيًّا ذنب دفع ثمنه من لحمه، وتفرق الجلد عن الدم! عندما تطمئن روحه في يد الخالق يتمنى أن يعود إلى الأرض برهة ليستمع إلى ليلى، ويرى ماذا ستقول، هل ستحزن؟ ما يقلقه هو أنها لن تحزن. ربما تفرح أنها تخلصت من قاتل ولديها. آه من جور الأحبة وخيانة الكبد! أنا المظلوم يا ليلى! أنا المظلوم وأنا الحي!

صاح الكامل: ألا تسمعني؟

- لا أسمعك. ولكنك توقفت عن التعذيب. هل توقف العذاب؟ هل انتهيت؟ لو قتلتني بسرعة أكون ممتنًّا لك بقية عمري.

قال الكامل وهو يلتفت حوله: كنت أقول لك اهرب. فتحت لك الباب. اخرج، ارتد هذه الثياب وغَطِّ وجهك واخرج بسرعة. سأضع مكانك جثة مشوهة لسجين قد مات. هيا.

فتح عينيه في فزع: سيقتلك والدك لو عرف. اقتلني تسلم.

- لن أقتلك.

- أنت وملك الموت تحقدان عليَّ، لماذا؟

نظر إليه الكامل ثم قال: ربما فقدت عقلك من التعذيب. اخرج من هنا هيا.

ألقى به رجلٌ في صحراء سيناء وترك معه بعض الماء والطعام. لم تزل الدنيا مبهمة والعينان لا تريان سوى شغف العجز. العذاب واقع والبين يتجلى. لا عودة له لمصر. علت الأمواج ثم امتصت المياه التي تمردت وحدثت المعركة في الأعماق. آه من الإسكندرية! تبقى في القلب رغم كل السلخ.

استلقى على الأرض في الصحراء.

مد شيخ يده ببعض الماء. فتح عينيه ورأى لحيته الطويلة البيضاء. ولم ير ملامحه.

من أنت؟

قال الشيخ: أنا من أنقذت حياتك وعقلك من التعفن داخل سجن شاور

- أنت عابد زاهد أم رجل حرب؟

- أنا أعرف ما لا تعرفه وأفهم ما لا تفهمه. رأيت ما لم تر وعاصرتما لم تعاصر، فأعطيت ولائي للسلام.

- وهل السلام رجلٌ لتعطيه ولاءك؟

- هو المنقذ يا إبراهيم.

- لِمَ أنقذتني؟ ظننت أن من أنقذني هو الكامل بن شاور.

هو أوصلك إلى هنا. ومن هنا أنا أتولى أمرك. لك هدف يا إبراهيم خُلِقت من أجله. معي تتكشف لك كل الحقائق.

أدار إبراهيم رأسه كأنه يحاول أن يدفع بأحلامه بعيدًا، فهذا الشيخ حلم هذا أكيد. ولكنه لا يختفي.

قال في ريبة: أنت يا شيخ.. ماذا تفعل في الصحراء؟ تتعبد يا ترى في الخلوة، أم تبحث عن الضالين مثلي؟

قال الشيخ بصوت رخيم: أنا هنا من أجل إنقاذ النفس والبشر. أقتل من أجل أن تنقذ الأرواح لو اضطررت. الفرق بيني وبين الجيوش أني أقتل من أجل السلام، والجيوش تقتل طمعًا وحمقًا.

مد يده ثم قال: ماذا رأيت؟ هل تعرف شيئًا عن تبعثر الأمم وشرذمة القبائل؟ هل تدرك معنى التناحر وحروب داحسٍ والغبراء. عصر الجاهلية كان عصر رحمة لو قارنته بوقتنا هذا. العراق حيث خليفة بغداد كان محاطًا بالفرنجة من جهة الشام، سقط بيت المقدس في أيديهم، وبينما الفرنجة تتطلع لكل الأمة كان خليفة بغداد يستعين بملك تركي ضد ملك سلجوقي فتُقام الحروب أعوامًا ويسقط القتلة بين المسلمين، ثم يعايرون العرب بحرب البسوس! أتصدق هذا؟ مسلم يحارب مسلمًا ويتآمر عليه، والفرنجة تنتظر سقوط الخلفاء الواحد تلو الآخر. أما خليفة مصر فأنت تعرف ضعفه أكثر مني، يستعين بنور الدين زنكي، وهو يخاف على ملكه منه ليقضي على وزيره شاور. كيف لخليفة يحكم مصر ألا يستطيع أن يتحكم في رجل واحد. لو أردت البكاء تعال معي إلى بلاد العرب. ستشهد على الذل بعد العزة والجهل بعد المعرفة والردة بعد الإسلام.

نظر إليه إبراهيم بلا كلمة. كلماته حقيقة عاصرها ويشهد عليها. فأكمل الشيخ وهو يسير وسط الصحراء: ستتجه معي إلى الشام، من هناك سنذهب إلى بغداد وستشاهد بنفسك وتحكم بنفسك.

- يا شيخ.. كيف تعرف اسمي؟

- سمعت عنك. شاور يهابك.

- لقد أذلني، كنت بين يديه كالأيتام في مأدبة اللئام.

- من يذل عدوه يخشاه. تأتي معي إلى القلعة. حيث يسكن أهل الجنة فقط.

- وأين هذه القلعة؟

- عند الجبل البعيد، عند بلاد الفرس، حيث لا تصل الفتن.

«هنا قلعة الموت على قمة الجبل، هنا عقاب المذنبين وفرج المعذبين. هنا طريق واحد يلتف حول المنحدر من يجتازه فهو آمن. ولكن لا جيش يصل إلينا ولا ملك يقوى على طريقنا العسير. تعال يا إبراهيم لتتذوق ريح الجنة حيث الطيب فقط من يعيش، والطيب فقط من ينتصر، والطيب فقط من

يمتلك. خذ نفسًا عميقًا واجلس فوق الجبل، هنا كل ما عليها ضئيل تافه كما الإنسان. هنا أناس عرفوا الله فعرفوا غايته وعملوا من أجل الخير..

ستتذوق طعامًا لم تذق في روعته. قل لي يا إبراهيم أي الأشياء تجعل من الحلوى نشوة الخلد؟

- الزعفران والمسك.

- أبشر يا أخي. أنت لست منا ولكنك ستصبح منا عندما تعرفنا. أجدادك أعداء لنا نعم، ولكن يخلق من الشر كل الخير.

- أنا لا أفهم شيئًا.

- لن تفهم إلا عندما تتذوق حلوتنا. قدم له الحلوى يا بني

نظر إلى طبق الحلوى، كانت تشبه الزلابية، ولكن لونها أخضر ممتزج بالأصفر. أمسك بواحدة ثم قال: ماذا بداخلها؟

- يا إبراهيم أنت ميت، أخذناك من بين يدي الوزير شاور مسلوخًا، أتخشى الحلوى من يد المسلمين؟

قربها إلى فمه ثم قال: ما الأخضر الذي يعطيها هذا اللون؟

- نبات الجنة.

- لا أعرف ما قصدك.

- تذوق ثم احكم بنفسك يا أخي.

وضع واحدة في فمه. كانت تشبه الزلابية التي تصنعها والدته في البيت، ولكنها أيضًا تشبه الملوخية بالسكر أو الزعفران بالملح لم يتأكد. أخذ الواحدة تلو الأخرى. ارتخت أنفاسه وارتاحت وتردد عقله بين أركان الدنيا. تارة إلى مصر وتارة إلى الطريق الطويل للقلعة. رأى ما لم ير من قبل، أغمض عينيه، ثم غاص في زيت الشيرج البارد، شديد البرودة، امتزج الزيت بزبد البحر، وخرجت أنفاسه هادئة مستعدة لأي ألم. ابتعدت ذكرى الأم التي تخلت، والحبيبة التي لم يكن لديه الوقت ليطفئ لهيب شوقه إليها، والإخوة.. آه من غدر الإخوة وتخليهم! يا قلعة العقاب والحياة.. تعالَي هنا إلى أحضاني، أنا باقٍ حتى لو غار كل البشر، أنا هنا سيد القوم والملك الوحيد. همس رفيقه: يا إبراهيم.. من أقوى أنت أم شاور؟

- أنا..

- سوف يموت شاور. وستقتله بيديك.

- هذه أمنيتي الوحيدة.

- فلتأكل من نبات الجنة وتتمنى. هذه حشائش تعطي القوة. كيف ستقتله؟ تتدرب أولًا على الرمح..

- أتدرب اليوم.

- نقتل شاور وننقذ البشر من ظلمه. لو قتلته في حرب تقتل معه الكثيرين، ولو اغتلته وحده كما الفأر يموت بمفرده وتنقذ حياة كل البشر. أنت يا إبراهيم.. تنقذ حياة كل البشر وتحرر بيت المقدس من ملوك الفرنجة. استمع.. هل تسمع..؟

- أسمع.

- تقتل شاور.

- أقتله. بالطبع أقتله.

- خذ بعض الحلوى يا أخي. هل تشعر بالجنة؟

- أخاف على عقلي.. لا أعرف أين أنا.

- لم تشرب الخمر من قبل، أليس كذلك؟

- لم أفعل قط.

- حتى يوسف بن أيوب كان يشرب الخمر مع إخوتك في الإسكندرية. ثم يقولون إنه ترك الملذات جميعًا ندمًا على ذهابه إلى الإسكندرية. أنت خير البشر، تذوق الجنة لتعرف ما الذي ينتظرك. ولكنك تعرف أنك فدائي، تقتل شاور، وتعرف أنك ستموت أيضًا.

- أتمنى الموت. لو كان سينقذ الناس من شر الوزير.

- هذا هو رجل القلعة. الرجال هنا تُقدم على الموت فداء للبشر جميعًا. شاور يموت.. ثم نور الدين، ثم أسد الدين شيركوه، ثم يوسف بن أيوب، ثم الخليفة العباسي، وبعد أن يموتوا كلهم نحرر بيت المقدس..

لم يسمع إبراهيم الجمل الأخيرة، كان يطير في الهواء على جناحي طائر العنقاء، يلفح الهواء وجهه ويدغدغ بانتعاشه كل أحشائه. هذا هواء غير كل الهواء، وهذا طائر يجري به في السماء ثم يصطدم بسحابة فتتحول بين جناحيه إلى حلاوة من الشعر الأبيض يأكلها ولا يشبع.

عندما استيقظ تلاشى الطائر ومعه الحلاوة البيضاء. التفت حوله في يأس. ما فائدة الدواء السحري الذي يتلاشى بعد ساعات، وما فائدة الموت لو كان يتبعه عقاب؟ لِمَ تختلط عليه كل الحقائق؟ من أنقذه؛ الشيخ الصوفي الزاهد جلال الدين أم كامل بن شاور الذي ولِد من بين حشاش الشر والظلم؟ أين هي الحقائق؟ وكيف لشيخ زاهد أن يدعو للقتل حتى ولو كان من أجل إنقاذ البشر؟ حاول أن يتذكر ما سمع أمس، حاول أن يتذكر الألم، السلخ.. ولكن وجه أمه هو ما طغى، تنظر إليه في لوم كأنه قاتل إخوته. تتبرأ منه. ثم وجه رشيدة بعينيها الممتلئتين بالحياة.. هذا عصر الجنون، فلو أحب هو شقاوة وصعلكة ابنة عمه ولم يعجبه هدوء وعقل سيدة فهو مجنون. بل أحب شجاعتها ومواجهتها أكثر من أي شيء. أحب الشغف الذي يكاد يقفز من مقلتيها، واليقظة التي تنسكب من روحها. أحب فيها جرأة الفارس وعدل الزاهد. كيف لعيني أمه أن تؤذيه أذى لا يُمحى بنار ولا ماء.. حتى السلخ أهون.

ثم جاء جيش الشام إلى الإسكندرية، صاحبه يوسف بن أيوب أصبح أخًا وعشرة. هل كان إبراهيم على ضلال؟ اهتزت الرءوس داخل عقله أو امتدت وتفتت، الجيش الفاطمي ليس جيش مصر ولا به جنود مصريون، يقولون أحمد بن طولون أدخل المصريين جيشه ولم يفعلها أحد بعده. ولكن أليس من الحُمق أن يقف إبراهيم أمام الجيش الفاطمي؛ جيش الإمام والخليفة الذي يحكم بلده؟ ماذا توقع؟ ألم يُلقِ بإخوته إلى التهلكة؟ ولِمَ يثق في كلمة يوسف بن أيوب وهو شاب لم يتمرس في القتال بعد؟ ولِمَ لم يدخل شيركوه بجيشه لينقذ أهل الإسكندرية؟ لم يستطع ولو لم يستطع إذن لا بد من إدراك العجز والضلال. نعم. لكم يحتاج إلى الحلوى الخضراء الآن بعد أن أدرك! أخطأت يا إبراهيم.. سرت في معراج القادة وأنت حلواني، لا أتقنت الحساب ولا حافظت على الرجال والنساء. أخطأت يا رجل، فلا جيش الشام يستحق ولا الجيش الفاطمي! فلتنهر كل الجيوش، وليعد إخوته إلى الحياة! فلتنكشف الغُمة وينس ما كان. السلخ أهون من عذابات ما بعد السلخ!

عرض عليه جلال الدين الحلوى الممزوجة بالسحر والنشوى فرفض. قال إنه سقيم. ينظر إلى الأصنام حوله ويتمنى أن يحطمها. كل البشر أصنام، وكل ما نتمنى من زينة فهو إلى النسيان. قال جلال الدين في قلق: ماذا بك؟ أنت غير إبراهيم الذي طار أمس مع السحاب؟

- أنا هو ولكن الطيران ثم الهبوط إلى أقصى أعماق الأرض يقلق ويفقد البشر التوازن. إني سقيم..

نظر إليه جلال الدين في قلق ثم قال: تتذكر ما اتفقنا عليه أمس، أليس كذلك؟ تريد قتل شاور..

- أريد قتله.

- لتنقذ البشر من شره. حتى لو مت أنت أيضًا فأنت رجل أنقذت الآلاف. كم رجلًا مات في حرب شاور وأسد الدين شيركوه ويوسف بن أيوب؟ الكثير.. ما رأيك فيما حدث في الإسكندرية؟ هل ضللك يوسف بن أيوب؟ ألم يُلق بأهلك إلى التهلكة؟!

قال إبراهيم بلا تفكير: فعل.

مد جلال الدين يده بالحلوى ثم قال: ذق طعم الجنة.

أمسك بها بيد مترددة ثم قال: لقد فقدت الطريق.

فقال جلال الدين بقوة: بل وجدته. يوسف بن أيوب الملقب بصلاح الدين هو الوزير شاور هو نورالدين هو شيركوه هو الخليفة العباسي وهو الفرنجة. كلهم سواء. هل تسمعني؟

قضم من الحلوى ثم أغمض عينيه وقال: لا أسمعك. أعد ما قلت.

فأعاد عليه جلال الدين.

فقال إبراهيم في اضطراب: صلاح الدين ليس شاور. والفرنجة ليسوا الجيش الشامي.

- كلهم سواء، الطمع آفتهم. بعضهم يلبس ثياب التقوى فيكون أخطر وأشد وطأة.

أغمض إبراهيم عينيه وراح في غيبة عن العالم، تفتحت الأبواب وظهرت حشائش الجنة. بعد برهة قال في ريبة: يا شيخ، لِمَ تلبس ثياب الصوفي؟ وكأنك أنت ترتدي ثياب التقوى.

- عد إلى رشدك يا إبراهيم، أنت في قلعة الموت. من يدخل لا يخرج. هو مصير اخترته أنت عندما صاحبتني. أنا الشيخ جلال الدين. الشيطان يصور لك أنني لست هو.

أطال إبراهيم نظره إليه ثم قال: تريدني أن أقتل شاور؟

ابتسم الشيخ وطأطأ رأسه ثم مرر بأصابعه على لحيته البيضاء الطويلة وقال: لا يمكنك أن تقتل شاور. ينتظرك ليقتلك. كلنا فدائيون ولكننا ننجح في المهمة دومًا. لا بد أن تترك قتل شاور لغيرك، تتركه لرجل لا يشك فيه شاور ولا يخافه.

- الوزير لا يخافني.

- بل لا يخاف غيرك. نحن نعرف النفس والخوف واللين الذي بالقلب. صلاح الدين يوسف ابن أيوب.

- ماذا تريد مني؟

- أنت صديقه.

- هذا ماض.

- لن ينسى ما فعلت من أجله.

- أريد الموت. هل تقتل هذه الحلوى؟ كل ما هو حلو يذبح.

- الموت نعمة لمثلك.

- تركني الله حيًّا، وأخذ مني كل شيء. لِمَ تركني حيًّا؟

- حتى تقتل صلاح الدين.

فتح إبراهيم فمه في ذهول ثم قال: مَنْ؟

- ألم يطلب منا الله أن نتخلى عن كل ما نحب من أجله؟ هل هو أقربِ إليك من أهلك وأمك وأخيك؟ ألم يقل الله في كتابه إن في الأقارب أعداء حتى في زوجتك وابنك. تخلَّ عن الناس من أجله.

كان إبراهيم في دنيا غير الدنيا، كان متعبًا من الركض ويحتاج إلى نوم عميق. ابتسم جلال الدين ثم قال: أنت خير الرجال. الموت قريب لا تقلق.

ردد إبراهيم: قريب.. لا تقلق.

أخذ يفكر في كلمات يجادل بها الشيخ جلال الدين. رتب كلماته. وما إن دخل عليه حتى قال: أنت تلعب بالكلمات وتضل ولا تهدي.

- إبراهيم.. لا تتجرأ على الشيخ..

- التخلي ارتقاء، ولا شرَّ به، ولا طمع، ولا قتل، ولا غدر. والأقارب عدو إذا حثونا على ما يغضب الله. والأخسرون أعمالًا هم من ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، مثلك تمامًا. عملك أسوأ من عمل الكافر وأكثر وطأة على المؤمن وأقسى تبعات.

- أراك تهاجمني. مع أنني أنقذت حياتك. لا بأس. فكر في الأمر. يوسف بن أيوب قتل إخوتك بحرب لا فائدة منها ثم رحل.

قال إبراهيم في دهشة: تُضل ولا تهدي. الفرنجة قتلوا إخوتي.

- ومن تسبب في كل هذه الحرب؟

- الوزير.

- أفهم. طمع الحكام هو السبب. نحن نحلم بأمة غير كل الأمم. لا شرذمة بها ولا حروب بين المسلمين.

قال إبراهيم: أنت تزعم أنك على حق.. والزاهد يبحث عن الحق طوال عمره، وهو على يقين أنه سيجد بضعة منه لا أكثر.

- أنا الشيخ جلال الدين معلمك.

قال إبراهيم: أنت تقول إنك تعرف، والصوفي لا يعرف بل يبذل.. التواضع بداية العظماء ونهايتهم. لو أردت أن تلتحم بالخالق فلا بد أن تواجهه بقلب سليم، والقلب السليم لا يحقد ولا يتكبر، ولا يُقسِّم البشر، يتذكر أنهم كلهم من صنعه. هو الواحد فلنتحد معه. كيف للزاهد أن يُنصِّب نفسه حاكمًا، أليس في هذا بعض الشرك؟ قسمت بين الناس، وجعلت أهلها شيعًا كفرعون موسى، والصوفي يرى في خلقه معجزة وحكمة، و يخر وجلًا أمام كل مخلوقاته، الصغير منها والحقير، لا يفرق بين البشر من أجل طائفة ولا لون ولا عقيدة، حتى المجرم والطاغي لا يحكم عليه. الصوفي يجتهد ليصل، ولا يطمع، ولا يتمنى سواه. هو كل مطمعه وغايته. لا يسأل سواه، ولا يتخذ البشر دونه ملوكًا. أنت تطمع في ملك وأرض، تظن أنك تعرف كيف تحميها، والصوفي لا يطمح سوى في السعي إليه وحوله. اتركني أرحل.. فلا مكان عندي للكره، الكره كما الوباء يأكل الأحشاء ويضعف الجسد.

- وكأنك لا تكره من سلخ فخذك!

- أشفق عليه من غضبه، وأود أن أساعد أناسًا تحتاج إلى المساعدة، ولكني لا أعرف ولا أملك. أتذكر دومًا أننا لا نعرف ولا نملك. هكذا علمني شيخي أبو طاهر السني في الإسكندرية.

ابتسم الشيخ جلال الدين ثم ربت على كتف إبراهيم وقال: تعجبني مجادلتك. تجادل لأنك في أعماقك تعرف أني على صواب. كل أهل الإسكندرية تُحمِّلك أنت ذنب الموت مع أن الذنب مع الشاب الذي لا يملك الخبرة في القتال يوسف بن أيوب وليس الحلواني. لا تجعل ضلالك يقضي عليك. أمهلك حتى الصباح لتغير رأيك، ولو لم تفعل أقتلك عند الظهر.

صاح بأعلى صوته: قلت لك أهلًا ومرحبًا بالموت.. أين هو؟

- غدًا ترجو وتستغفر.. ولن تأكل من نبات الجنة إلا عندما تستعد لدخولها.

لم يجب إبراهيم.

نظر إليه جلال الدين برهة، ثم خرج ومنع عنه الطعام والشراب.

بعد عدة أيام عض إبراهيم شفتيه ليتذوق بلَلَ دمائه، وبدأ يهذي، ويغوص في عمق جديد.

رآه أمامه.. شيخًا غير كل الشيوخ.

لحيته البيضاء صافية، وملبسه شفاف كأنه لا يغطي سوءة. هذا شيخ غير كل من عرف! أغمض عينيه، وهو يتمنى أن يبقى معه طيف هذا الشيخ، فقد سارت الراحة بين العروق كماء الورد، ونفحته رائحة المسك ولون الزعفران. سمع الصوت الجميل.

- السلام عليك دومًا يا إبراهيم.

- من أنت؟

- لا تسأل واصبر على ما لم تحط به علمًا. عند عودتك مر على يوسف بن أيوب، يحتاج إليك أكثر مما تحتاج إليه. يأكل العذاب قلبه منذ زار مدينتك.

- لقد أقسم ألا يعود إلى مصر.

- يحنث في القسم ويصوم ثلاثة أيام أفضل من أن يتبع هوى النفس. لكل منا دور ورسالة لا حيلة لنا بها، هي تكليف من الله. وعند انتهاء الرسالة تعود إليه ويسألك عنها. هل تعرف؟

- لا أعرف.

- هل تملك؟

- لا أملك.

- إلام يطمح كل من يأتي إلى مصر؟

- إلى الكنز والأرض.

- وماذا فعل جدك؟

- أي جد؟

- الأول والثاني؟

- حافظَا على الأرض والكنز.

- هل تتذكر من أي مذهب كانَا.

- لا يعنيني.

- لِمَ لا يعنيك؟ أنت سُني وهما من الشيعة!

- تلك تقسيمات البشر، ولكنه يعرف ما لا نعرف.

- أحسنت في ردك. هو يعرف ما لا نعرف. ترى أيقسم جنته بين عباده، هذه للغني وهذه للفقير، هذه لخليفة بغداد، وهذه لخليفة مصر؟ وهل سيعطي لغير المسلم؟

- هي جنته، والسؤال عنها ذنب كبير وتدخُّل في مشيئته، ولكنه عادل أمرنا بالقسط.

- أحسنت في ردك مرة أخرى. عد إلى بيتك.

- لا أحد يريدني.

- ولكن كلهم يحتاجون إليك.

- هل أنت حلم؟

- أو أنا الحقيقة الوحيدة.

- أنا في مكان غريب، يحرفون الكلم عن مواضعه. لا أعرف نواياهم ولكني أخشاهم.

- لا خوف يصاحب صاحب القلب السليم. إن المؤمنين أشد حبًّا لله.

فتح عينيه وأمسك بقلبه وكأنه يود أن يبقي على هذا الجمال وهذه الحلوى، رأى أمامه الفرس على حصانه من الحلوى مزينًا في قمة مجده، ينتظر من يبقي عليه بعض الوقت ثم يأكله. اشتاق إلى الحلوى وإلى الفارس. كان بين الشفق والظلام، بين الحلم والحقيقة، يأكل من طير عملاق كله عسل وسكر بأجنحة تمتد إلى السماء. أمسك بجناح من الأجنحة، فقاومه الطير، ومد جناحه يخترق الجدران إلى السماء، دعاه إلى العودة، ولكنه رفض. قال له: أنا صنعتك.. فقال من بعيد بصوت أجش: هو أرادك أن تصنعني، لا حيلة لك يا حلواني. قم بواجبك قبل أن تتذوق الحلوى.

تبدى له الرجل بلحيته البيضاء، وعينيه الثاقبتين كأنه يعرفه منذ أعوام، قال بصوت أجش: جئتك يا حلواني لأنك ناديتني.. اسمع ما أقول، ونفذه، هذا أمر وليس طلبًا.. قبل أن تدعي المعرفة لا بد أن تميز الخبيث من الطيب.

- هي اللحية البيضاء نفسها.

- ولكني لست جلال الدين. ليس كل شيخ معصومًا، ولا كل شيخ عارفًا. العارف هو من أدرك قدر جهله. يقول الجيلاني: المؤمن غريب في الدنيا، العارف غريب فيما سوى المولى.

الصوفي يا إبراهيم هو من صفت نفسه عن الدنيا، وليس من أراد أن يرسمها كما يريد.

لا تكن مع شيء، بل كن مع خالق الأشياء الذي هو شيء لا يشبهه شيء.

هذا كلام الجيلاني. عن أي شيخ تتحدث؟

ابتسم الشيخ ثم قال وهو يهز رأسه: قل ليوسف بن أيوب إننا التقينا يوم زارني سرًّا في العراق، وإنني بشرته بفتح عظيم لو صفت النية، وانصلح حال القلب.

قام من حلمه وشهق وارتعد.. أيكون من جاءه في الحلم الشيخ عبد القادر الجيلاني تاج العارفين؟ من تعلم شيخه هو في الإسكندرية كلماته؟

لا تكن مع شيء، بل كن مع خالق الأشياء الذي هو شيء لا يشبهه شيء.

المؤمن غريب في الدنيا، العارف غريب فيما سوى المولى.

هذه كلمات الجيلاني نفسه. جاءه اليقين. أراد الله له ألا يكون من الجاهلين. قام، وصلى، وردد: لا حول ولا قوة إلا بالله.

استيقظ بروح تطفو، وتسبح في سكينة كما سكينة لقائه، وخفة كالتي ترافق الروح بلا جسد. ابتسم لنفسه ثم نادى على الحارس، قال إنه يريد لقاء الشيخ جلال الدين. طلب منه شربة ماء. ثم قال: سأنفذ ما تريد.

- تكذب.

- أنا ميت في كلتا الحالتين.

- أنت فدائي. هناك فرق بين الميت والفدائي.

- لو لم أنفذ ما تريد..

قال الشيخ في حسم: سأقتلك بيدي بعد أن أنزع جلدك لمدة ثلاثة أشهر. كل يوم ستتمنى الموت ولن تحصل عليه. سأخرق عينيك ثم أذنيك ثم أقطع أطرافك..

قاطعه إبراهيم: سأفعل ما تريد. وليكن قتلي سريعًا.

- عندما تقتل من يدعي أنه صلاح الدين سيكون قتلك سريعًا. يقولون إنه رحيم. لو كنت تقول هذا لتخرج من هنا فاعرف أن من شاهد قلعة الموت، ومن تكلم مع سنان ولم يخلص له لا يحيا ليحكي عما رأى.

- أعرف. أنتم الحشاشون، الفدائيون. أعرف.

استرد صحته وأخذ سيفه المسموم معه، واتجه إلى دمشق يبحث عن صلاح الدين يوسف بن أيوب. رفيق الحرب وصديق أيام العجز.

عندما علم صلاح الدين من بالباب أمره بالدخول ولم يفتشه، فلم يكشف عن السيف المسموم في الجُب.

نظر إلى صلاح الدين يوسف صديقه.. تبدل حال الشاب.. لا يرتدي الحرير ولا تلمع عيناه بحيوية الصبا والتمني. ما إن رآه حتى ربت على يديه ثم قال في حماس: إبراهيم... أحمد الله أنك بخير.

ابتسم إبراهيم في مرارة ثم قال: اصرف جنودك. أريد التحدث معك وحدي.

نظر إليه في حيرة ثم صرف الجنود وجلس قائلًا: ما الأمر؟

أخرج سيفه ثم قال: هذا السيف المسموم جئت أقتلك به.

لم يبد على يوسف أي انفعال. ابتسم وجلس قائلًا: تُرى من يريد قتلي؛ شاور، أم ملك الفرنجة؟

- ولِمَ تبحث عن العدو خارج دارك؟ هو دومًا حولك تراه وتعرفه. إياك أن تظن أن العدو هو الفرنجة. من أدخل الفرنجة إلى مصر؟ وزير مصر. ومن يحاول قتلك هنا في الشام؟

نظر إليه مليًّا ثم قال: الحشاشون!

- هم بعينهم. الفدائيون.

- هل أصبحت منهم؟

- يخترقون الصفوف، يرتدون زي الشيخ في المسجد، وزي الراهب في الكنيسة، وزي الجندي في الحرب. سنان لن يتركك حيًّا.

- أنت لست منهم إذن.

- وأنا لن أبقى حيًّا كثيرًا.

مد إبراهيم يده بالسيف: خذ السيف المسموم وأبق عليه، وحافظ عليه ليذكرك أنك دومًا في خطر. أما أنا فسأرحل إلى وطني.

قال يوسف في تأثر: يا أخي.. سأبعث معك حارسًا، أخاف أن يقتلوك.

- سيقتلونني لو جاء الأجل. الحشاشون معك وحولك. تذكر هم الخطر الأكبر. يريدون الحكم مثلهم مثل غيرهم، ولكنهم لا يخشون الموت، وتلك أخطر الأمور.

- العمر بيد الله. أقسم لك يا أخي أني لا أريد الحكم، ولم أطمح سوى في جمع الأمة على كلمة سواء، ولكنها أيام بلا لون ولا رائحة.

- يوسف، جئتك بأمر آخر.

- أي أمر؟

- كأنني رأيته، أين هو؟ هل هو في مجلسك؟

- رأيت من؟

- مولانا عبد القادر الجيلاني، هذا اسمه، ولكني لا أعرفه. أين هو؟

نظر إليه صلاح الدين في شيء من الحيرة، شيء من الفزع، ثم قال: مولانا عبد القادر الجيلاني زرته في العراق بنفسي منذ أعوام.

قال إبراهيم في ارتياح: إذن ما رأيت كان حقًا، ولم يكن أضغاث أحلام. كأنه كلفني برسالة لك يا يوسف. لا أدري لِمَ كلفني أنا.

قال يوسف: يا أخي.. ذكرتني بالهوان والعجز. كنت أتمنى أن أنسى وأقضي بقية عمري أحاول أن أتخلى.

- ولكنه قال: إن هذا أمر يا يوسف.

- أي أمر؟

- قال: إن عليك أن تتصدق على الخلق بالمداواة.

- لا دواء عندي، لست حكيمًا، أنا جندي رغمًا عني.

- ولكنه هو أخبرني بهذا، هو يأمرك أن تداوي الناس. يقول: إن الرسول قال: مداواة الناس صدقة. قال لي في الحلم: أخبر صلاح الدين أن يعطيهم ويتكرم عليهم ويترفق بهم ويلين جانبه لهم.

ابتسم صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم قال: يا أخي، لا أنا ملك ولا سلطان. إذا كنت لم أستطع أن أحميك أنت وأهلك، فكيف تطلب مني كل هذا؟

- لم أطلبه، بل طلبه مولاي عبد القادر الجيلاني. أنا أبلغك رسالة لم أفهمها.

تفحصه صلاح الدين ثم قال: كيف حالك يا إبراهيم؟ كيف هربت من سجن شاور؟

ابتسم إبراهيم ثم قال: تسألني عن حالي كأنك تشك أنني فقدت عقلي من التعذيب.

- بل أحاول أن أعرف أي عذاب تحملت.

- العذاب كان مؤلمًا، ولكن قلعة الموت كانت أكثر إيلامًا.

نظر إليه صلاح الدين ثم قال: عند أتباع نزار؟ الحشاشون! ذهبت إلى قلعتهم. معك حق لن يتركوك حيًّا.

قال في تأمل: لو كنت ولدت في زمن غير الزمن، ومع أناس غير هؤلاء كنت سأكون أسعد حظًّا. ترى هل سنرى يومًا كأيام الملك القديم؟ أحمد بن طولون أو باني الأهرام أو عمرو بن العاص؟ ترى هل سيشهد أولادنا على دنيا غير الدنيا، وعصر غير العصر؟ يكون البشر كالبنيان المرصوص كعرائس شرفات مسجد ابن طولون. ترى هل سيشهد أبناؤنا على مجد كمجد القدماء، وعلى أرض تمتد إلى بلاد ما بعد النهرين بلا حواجز ولا طامعين؟ ترى هل ستنتهي مملكة بيت المقدس كأنها لم تكن، ويختفي الفرنج كأنهم لم يغزوا ولم يتحصنوا بقلاع على أرضنا؟ ليتني ولدت في زمن غير الزمن، كنت سأتقبل العذاب، وأفتح ذراعيَّ مُرحبًا به. الحشاشون موجودون يا يوسف منذ الأزل وسيبقون، هم فقط كالديدان لا يرتعون سوى في العفن وعلى الأنقاض. احذر على نفسك.

- ماذا رأيت؟

- لا يمكن وصف ما رأيت.

- ربما لست بخير.

- بل أنا بخير، لم يكن عقلي يعمل كما يعمل اليوم. جئتك برسالة من سيدي عبد القادر الجيلاني.

- يا إبراهيم، لطالما أعجبت به، هو شيخي ومعلمي حتى لو لم ألتقه، ولكن لا يمكن أن يبعث لي أي رسالة.

- ولم لا؟

- لأنه مات منذ عدة سنوات. يا أخي، أنت تحتاج إلى الراحة. ابقَ معي في دمشق. هنا أنت في أمان.

أطال إبراهيم نظره إليه ثم قال: مات. الشيخ مات.. وأنت تريدني أن أبقى هنا؟

- نعم يا أخي.

- ولكنني كالأسماك لا أترك بحري ولا مدينتي. يا صلاح الدين يا صاحب شرطة دمشق، هذه رسالة من الشيخ حتى وإن مات.

- بل أتمنى أن تكون أضغاث أحلام، فلا أنا أملك الدنيا، ولا أطمع في ملك.

- هو اختارك لأنك لا تطمع.

- ابق معي.

- من قال إنك أنت ستبقى هنا؟

قال صلاح الدين في حسم: أقسمت ألا أعود إلى مصر. ما رأيته من هوان وعذاب وموت يكفي الرجل عمرين.

- ليس لنا خيار في الوطن، ولا المُلك، ولا الموت. يا يوسف، كذبت عليَّ، والكذب ليس من صفات أهل العلم.

نظر إليه يوسف في عدم فهم. فأكمل إبراهيم: في الحلم أخبرني عبد القادر الجيلاني أنك زرته في العراق متخفيًا، وشربت العلم من بين راحتيه، وأنه بشرك بنصر عظيم.

شحب وجهه ثم قال بعد برهة: كيف عرفت هذا؟

- كنت أحاول أن أوضح لك، ولكنك لا تريد الفهم.

- لا أحد يعرف هذا سوى هو وأنا.

- تعرف الآن الرسالة والتكليف ولا تحتاج إليَّ يا أخي. إلى لقاء قريب يا يوسف. في هذه الدنيا الضيقة أو في دار البراح والراحة.

أطرق يوسف برهة ثم قال: لو خرجت من عندي الآن تموت. ينتظرونك بالخارج. اسمح لي يا إبراهيم أن أتهمك بمحاولة قتلي، وأن أضعك في سجني بعض الأيام ثم تهرب. لن أفصح عن اسم من حاول قتلي.

قال إبراهيم في يقين: افعل هذا لو أردت. ولكنني ذهبت إلى قلعة الموت، ومن يشهد عليها لا بد أن يموت، أنا ميت في كلتا الحالتين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الباب الثالث: 1169 ميلاديًّا - 564 هجريًّا

ما زلت حتى رأيت الناس كلهم

في واحد وجميع الأرض في بلد

تميم بن المعز لدين الله

شاعر فاطمي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في بلبيس استقر حسين، وقلبه لم يستقر، تزوج هناك وأنجب طفلًا أسماه إبراهيم. عندما سألته زوجته لِمَ أطلق عليه اسم أخيه الذي هجره، قال إنه هجر أفعاله ولم يهجر الماضي الذي يجمعهما، ولا الرحم الذي حملهما، فتشبعَا بنفس الطعام والدم. هجر إبراهيم الذي يتحكم فيه ولم يهجر الفتى الذي رباه وجرى معه على شاطئ البحر وعلمه السباحة في صبر وجَلد. نظرت إليه زوجته في عدم فهم وبدأت تُرضع ابنها. يعمل عند دكان حلواني بعد أن كان يملك المصنع والدكاكين. ولكنه أسعد، هذا أكيد. فقد تخلص من سيطرة أخيه وطغيانه، حتى لو أساء صاحب الدكان معاملته فهو ليس أخاه. سيتقبل إهانته بصدر رحب طالما هو بعيد عن سيطرة إبراهيم. وها هو يتزوج وحده ويقرر العيش هنا وحده، وعما قريب سيفتح دكانًا للحلوى باسمه، ثم مصنعًا وسيصبح أفضل من إبراهيم. هو بالطبع أفضل من إبراهيم. فهو لم يرث المجد والنجاح بل يصنعه الآن. حتى أمه راضية عنه تستقبله الآن وكأنه ابنها الوحيد. بل هو ابنها الوحيد. لن ينكر، فقد انشرح صدره عندما عرف أنها تبرأت من إبراهيم. اليوم هي أمه فقط، تنظر إلى عينيه وتهتم به. لم يعد سحر إبراهيم يسطو على كل حواسها. ابتسم العالم أخيرًا. بدون إبراهيم تستوي الدنيا، فلِمَ يحترق القلب كلما سمع اسمه حتى لو نادت زوجته على صغيرها.

شاور حكيم. وزير قوي كجده بدر الجمالي، يستحق لقب أمير الجيوش، هكذا قال حسين لنفسه. سمع الشائعات ولن يصدقها كما لم يصدقها شاور نفسه. يقولون إن ملك بيت المقدس عموري يتحرك بجيشه إلى عسقلان! حتى لو فعل فهو بالطبع لا يقصد مصر. هناك عهد بينه وبين شاور. وشاور يفي بكل الشروط، أبقى حامية من الفرنج على أبواب القاهرة، حتى عندما يسيئون معاملة أهل مصر يغض الطرف. فمن المؤكد أن عموري يعرف مَن الصديق ومن العدو. بالطبع لن يغزو بلاد الصديق بعد أن تحالف معه الجيش الفاطمي. عدو عموري في الشام هو نور الدين محمود، ومعه قائده أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب. أما شاور فهو الصديق المخلص. وِشاية الرجال لن تفلح. بعث شاور بأحد أمرائه إلى عموري ليعرف ما الأمر.لم يعد الأمير الذي بعثه شاور. قالوا إن عموري عرض عليه الإقطاعيات والمال. فبعث شاور بآخر، أرسل رسالة حب إلى ملك الفرنجة قائلًا إنه صديقه ولم يخن العهد. فعاوده عموري برسالة حب أخرى ووعده أنه لن يخون العهد وفسر له ما يحدث. قال إنه يتحرك بجيشه فقط لأن قوة من الفرنجة آتية من البحر من الشمال ستشن هجومًا على مصر. هو يحمي صديقه لا أكثر، ويضع الجند بين يديه وتحت إمرته. جنود الفرنج كلها تحت إمرة أمير الجيوش الوزير شاور. ولكن لا بد لشاور أن يدفع المال، فتحريك الجيش يكلف الذهب وأكثر. فليدفع شاور. رد شاور بأنه مستعد أن يدفع أي شيء يطلبه ملك بيت المقدس الصديق المخلص. ورد عليه عموري بالشوق والأماني الجميلة. وانتهى الأمر.

ولكن الشائعات لا تتوقف. يقولون إن ملك الفرنج يأتي إلى مصر عما قريب، وإنه على أبواب بلبيس.

هذا هراء بالتأكيد. هكذا قال حسين لنفسه.

نام الأنام، وحلم حسين بمصنع للحلوى، يصنع فيه الكنافة بيديه ويغرقها بالعسل. يقولون جيش الفرنج يتجه إلى الدلتا، كذب وافتراء! شائعات من خونة لا أكثر. في فجر يوم الجمعة استيقظ يصلي، ثم سمع

الصرخات. ما حدثلا يتذكره بالضبط. ولكن أصوات الرجال كتمت ولم يُسمع سوى نواح النساء، كأن كل نساء الأرض نائحات، باكيات يصرخن على ضياع العمر هباء. صوت صليل السيوف لم يترك أذنه. اصطدم الحديد بعضه ببعض، قام مهرولًا يبحث عن زوجته، اصطدم بها وهي تصرخ، فأمسك بذراعها وهم بفتح الباب فنهته وصاحت: الفرنج...

- أي هراء تقولين!

- الفرنج في بلبيس.. جيش الفرنج يذبح كل الناس في المدينة.

هم بفتح الباب فوقفت أمامه وقالت: إياك. لا تتحرك.

- لست بالجبان.

- احمني واحمي طفلك لا تتحرك.

قبل أن يتحرك كان الجنود يحطمون باب بيته الخشبي، واندفعوا اندفاعًا إلى داخل البيت دفعوا به إلى الأرض ففقد توازنه. ثم ضرب جندي رأسه بمقبض السيف فكاد يفقد الوعي، وفقد القدرة على الحركة ولكنه رأى. لم ينس المشهد طوال عمره، وليته يستطيع. شُلت قدماه ويداه، ولكن عقله كان يعمل وليته تفجر أو احترق. رأى السيف يخترق أحشاء زوجته ويخرج من ظهرها، ورأى الجندي يمسك بطفله وكأنه حجر متعفن يمتلئ بالديدان، ويلقي به إلى الأرض بكل قوته، فيتوقف الطفل عن التنفس، ثم هرولوا داخل البيت يبحثون عن الغنائم ولما لم يجدوا شيئًا، جروا حسين جرًّا وأخذوه أسيرًا.

تأكد شاور دون شك أن الفرنجة دخلوا مصر، وأنهم بعد بضع ساعات يدخلون الفسطاط والقاهرة. هذه ليست أوهام ولا شائعات. تأكد عندما سمع أن بلبيس أصبحت بلا رجال. فقد دخل الفرنجة وقبضوا على كل شاب وأخذوه بضاعة إلى بلادهم، وذبحوا كل شيخ وطفل وامرأة. أثاروا الرعب، ولكن لم يتركوا حيًّا يحكي عما شاهد. تناثرت نقاط الدماء إلى الفسطاط، وملأت الترع وقنوات المياه. فزع شاور وتحسر ابنه الكامل، واستغاث الخليفة العاضد بنور الدين، بعث إليه بشعور النساء، وقال إن نهاية مصر أقرب من وصوله من الشام للنجدة.

أفاق حسين وهو مكبل اليدين والرجلين في مركب في النيل، أخذ يتنشجبلا توقف حتى سمع الجندي يقول بعربية رديئة: أهل مصر يبكون كالنساء! توقف عن البكاء يا عبد.

لم يستطع أن يتوقف ولا أن يعي أين سيذهب. حتى سمع الأسير يقول لزميله: هذا أسر لا ينتهي. نحن عبيد أربعين عامًا في عرفهم أو أكثر. لن نرى بلادنا ولا ما تبقى من أهلنا حتى نهاية العمر. لا مفر لنا من الذل.

رأى أمامه ابنه الصغير عندما دفع به الجندي إلى الأرض، لا انبثقت الدماء ولا صرخ الطفل. يا لرقي الطفل وعظمته! لا أعطى الجندي فرحة الفوز بذله ولا أثرًا لألمه. إبراهيم ابني.. هل تستطيع أن تسامحني!

همس في صوت ممتلئ بالدموع: كيف لنا أن نقتل أنفسنا؟

فهمس أسير بجانبه: لا سكاكين هنا ولا سيوف.

- لو سقطنا في قاع النهر..

- لن تستطيع أن تصل إليه من مكانك هذا.

- سأزحف.

- ربما..

- سأصل إلى الموت زحفًا ولن أبقى أسيرًا عند الفرنجة.

سمع قهقهة لا يعرف مصدرها. ولكنها أصمت أذنيه، وخاف أن يفقد عقله. غفل قلبه بضعة ثوان، اختلطت عليه الأمور. لا يتذكر ما الذي أتى به إلى هنا، ولا أين زوجته. صاح فجأة: فاطمة! قلت لك افتحي الباب أنا أستطيع محاربة الفرنج يا امرأة..

علَت الضحكات، رأى الفم الكبير يبتلعه، ثم يسكبه، ثم يضحك كثيرًا، ثم تتساقط منه الدماء، ثم يضحك كثيرًا، ثم يلقي بجثة زوجته أمامه، ثم يضحك كثيرًا، ثم يرى جثث إخوته، ثم يضحك، يعلو الضحك، يصم أذنيه، يصرخ مستغيثًا، يتمنى أن يضربوا رأسه بمطرقة حتى يفقد الوعي.. والفم يضحك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هوت رشيدة إلى الأرض وهي تستمع إلى الأنباء. حسين لا بد أنه قد قتل.لا أحد يعرف عنه وعن أهله أي شيء، وملك الفرنج يزحف بنفسه إلى القاهرة، جلس الرجال حولها برءوس منتكسة، ثم قال عبد التواب: الحرب آتية لا محالة.

قالت في مرارة: أي حرب يا عمي؟ وأين هو الجيش؟ إذا كان ملك الفرنجة قد دخل بلبيس في ثلاثة أيام، ولم يقف أمامه سوى بضعة رجال، فلا أهل بلبيس يملكون الأسلحة ولا تدربوا على القتال.

قال عبد التواب في حسم: الخيانة في وسط البلاد منذ تحالف الوزير معملك الفرنج.

بقيت صامتة، أسندت ذقنها بيدها وهي تحاول السيطرة على الدموع التي تبرق في الأفق كلما تذكرت حبًّا لم يكتمل، ورجلًا تملك القلب ثم رحل عنوة. المحافظة على مصنع الحلواني هو ما سيريح إبراهيم وجدها وكل عائلتها. ستدافع عنه بكل ما تملك. قامت وأمرت الرجال بتخزين الأسلحة، فلو كان الفرنجة قد دخلوا بلبيس فلن يدخلوا القاهرة ولا الفسطاط. نظر إليها الرجال في حيرة ثم قال عبد التواب: أي كلام هذا يا ابنتي؟ تريدين لصانعي الحلوى أن يحاربوا ملك الفرنجة نفسه!

قالت في حدة: عندما يعتدي اللص على بيتك يا عمي فليس لك بدٌّ من مواجهته حتى ولو بسكين المطبخ ووسادات النوم.

تمتم لنفسه: فقدت عقلها.. هذه نهاية تحكم النساء.

قالت في قوة: لو لم يحارب الرجال سأحارب أنا. سأدافع عن مالي ومكاني كما هو حال الأقوياء.

بقي الرجل صامتًا. جمعت كل الأموال التي تملكها، ثم خرجت عند الفجر وحدها، تلتفت حولها وتسلقت جبل المقطم وهي تلهث، كأنها سمعته أو رأته.. كأنها شعرت بيديه تربتان على كتفها، بدر الجمالي.. هل تسمعني يا جدي؟ هل تعرف مرارة الهزيمة والعجز؟ هل تعرف جوى الشوق ويقين البين؟ لا بد لكل سيد وقائد أن يدرك أن فيض العشق من عزم الأمور، وأن حرق الفراق من ارتقاء النفس. آه يا جدي.. لو تعرف الذل الذي رأيته! ثقل الحمل وكاد يكسر ظهري!

تلتفت حولها كل حين لتتأكد من خلو المكان. وصلت إلى الهدف. مشهد الجيوشي، مسجد جدها بدر الجمالي. هنا اختلى بربه، وهنا تجلى ذله وضعفه..

يا كل كلي وأهلي

عند انكساري وذلي

ما لي سوى الروح خذها

والروح جهد المقلِّ

فتحت الباب في بطء. شعرت بالملائكة في استقبالها أو هكذا شُبه لها. كانت على استعداد لحضورها. سجدت وهمست: يا رب.. كنت قد طلبت منك أشياء في المرة الماضية.. أريد أن أغيرها.. عجيب أمر

الإنسان، تتقلب أمانيه مع تقلب الأيام. فلننس كل ما طلبت في الماضي. اليوم أريد لمصر السلام وكفى.

خرجت من المسجد، وأخرجت الفأس من جيبها وبدأت تحفر وراء المسجد، ثم وضعت كل ما تملك وغطته بالرمال والصخور. وجلست عليه تنظر إلى نجوم السماء. تُرى ماذا رأيت هنا يا جدي؟ وهل كنت تخاطب النجوم كل يوم؟ هل أنت راضٍ عني؟ أُقسم أني تغيرت.. أحاول مجاهدة نفسي قدر المستطاع. الله يرحم ويغفر ولكن البشر لا ترحم ولا تغفر. عندما نتقابل يا جدي لا تلمني أو تتذمر من أفعالي، فوالله لن تجد من أحفادك أشجع من رشيدة ولا أكثر وفاء.

نزلت بسرعة، وضوء النهار كاد أن يفضحها، اقتربت من الحانوت ورأته.. نائب الوزير وابنه الكامل.. شهقت وهي تنظر إليه، فقال في فزع: أين كنت؟

تلعثمت ثم قالت: الفرنج..

- يقتربون من مصر والقاهرة.. جئت لأني أريدك معي.

نظرت إليه لا تفهم ما يقول فأكمل: أنا سأحميك، لن يصل الفرنج إلى بيت الوزير.

فقالت في حسم: ومن سيحمي أهل مصر، ومن سيحمي مصنع جدي. المصنع أهم عندي من كل شيء.

قال في حسم: ولو وعدتك أن أحافظ عليه هل ستتزوجينني؟

- ولِمَ ستتزوجني وأنت تعرف..؟

قاطعها: لأن حبك تمكن من القلب، فلا مفر من الاستسلام. من يحب يخشع في كل الأمور ويخضع.

بلعت ريقها ثم قالت: يا مولاي. أنت تستحق من هي أفضل مني.

- ليتني أستطيع رؤية غيرك. أنا أحافظ لك على كل شيء.

قالت في رفق: أنت من أنبل الرجال. اتركني مع أهلي فلا قدرة لي على فراق الأحبة.

- وأين هم الأحبة؟ لا أحبة لك يا رشيدة سوى أمك وهي ستصاحبنا، وجاريتك أيضًا.

- هم حولي يا مولاي حتى ولو لم ترهم عيناك.

التقت أعينهما فقال الكامل: لديك شعور بل يقين أنه حي، ابن عمك..

قالت في حسرة: الغريق يتشبث بقشة يا مولاي.

- ما هو قادم أسوأ بكثير مما تتخيلين.. وما حدث لا يقوى فؤادك على تصوره.

- أعرف.

- حسنًا لو لم تأتي معي سأبقى حولك أحرسك وأحافظ عليك، ويومًا ستعرفين قدر العشق وعذاب العاشق.

سدت أذنيها بإصبعيها حتى لا تسمع نحيب أمها ورجاءها. ولا غمغمات الجارية وبكاءها. قالت الأم فجأة: لنهرب يا رشيدة!

- هي بلدنا. إذا كان إبراهيم لم يهرب وهو يعرف أنه سيُعذب ويُقتل في سجن شاور، تريدينني أنا أن أهرب.

- لنهرب يا ابنتي. لا أطيق رؤيتك قتيلة.

- هي أقدار مكتوبة.

نفخ العساكر في البوق وخرج الصوت الحاد النافذ وخرجت كلماتهم في صوت مرتجف كله يأس: ملك الفرنجة وصل إلى حدود الفسطاط والقاهرة، هو يعسكر عند بركة الحبش... يا أهل مصر... يا أهل مصر.. أمير الجيوش شاور ابن مجير السعدي سيدافع عن البلاد يا أهل مصر.. أمير الجيوش يأمركم بإخلاء الفسطاط بعد ثلاث ساعات.. لن يدخل الفرنج مصر.. بعد ثلاث ساعات سيتم حرق كل الفسطاط.. من يملك الولد أو المال أو الذهب فليأخذه ويرحل، أبواب القاهرة ستفتح اليوم لاستقبال أهل الفسطاط. ملك الفرنج عسكر حولكم، وحامي المسلمين أمير الجيوش سيحافظ على أهل مصر.

ضحكت على الكلمات الأخيرة ضحكة عالية حتى ظنت أمها أن ابنتها قد فقدت عقلها. ثم قالت: هل سمعت يا رشيدة؟ لا بد من ترك الفسطاط ستحترق يا ابنتي.

- أي قائد يحرق مدينته!

- يحرقها حتى لا تقع في يد الفرنج كما وقعت بلبيس.

- فليحرقنا معها. لن أترك الفسطاط ولا مصنع أبي ودكاكينه.

ولولت الأم ونادت على الرجال وصرخت بأعلى صوتها: ابنتي فقدت عقلها.. يا عبد التواب.. يا...

فقالت رشيدة في حسم: أمي.. أنت تذهبين إلى القاهرة أما أنا فلن أبرح مصنع أبي.

ثم غطت وجهها واتجهت إلى المصنع، جلست أمامه كما أبي الهول أمام الهرم الأكبر. ولم يستطع أحد أن يزحزحها. هناك علاقة غريبة تربط هذه العائلة بالنيران منذ احتراق جدتهم الكبرى سندس بنيران الحلواني.. امتزجت آلام النيران بحلاوة السكر، واتخذت الدنيا شكلًا غير كل الأشكال، ولوّنا غير كل الألوان. امتزج الرمادي بالأحمر، ثم انسكب الأسود على الأوراق، فطمس البصر واخترق البصيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما يكون النوم أفضل الأقدار تعرف أنك في الجحيم. أغمض عينيه والنوم يراوغه ويعبث بما تبقى من عقله. تارة يقترب بيديه ليعانقه، وتارة يوبخه على جُبنه وجهله، ويلومه على أنه لم يزل حيًّا. فتح عينيه يبحث عن النجوم في السماء ولم ير أيًّا منها. أغمض عينيه ثم فتحهما، زحزح نفسه إلى طرف السفينة، ثم قال بصوت عال: لقد فقدت بصري. أنا لا أرى سوى الظلام.. أمي..

- يا جبان تنادي على أمك الآن..

لا يعرف لو كان الصوت قد خرج من داخله أم من الخارج. حسين عندما يذهب لبلاد الفرنج أو بلاد المسلمين التي احتلها الفرنج سيغيرون اسمه وهويته ولونه ولغته. فلو فقد عقله الآن يكون أفضل، ربما يقررون ضربه حتى الموت. آه من الأقدار والهزيمة. كلما دخل الفرنج مدينة في الشام كان يظن أن دخولهم مصر مستحيل. كلما ذبحوا أهل ميناء كان يشفق ويمصمص الشفاه ويقول: ما أبشع حظهم ولكننا في مصر، هنا نحن بعيد عن الفرنج. هنا نحن في أمان. ولكن لا أمان من الفرنج، ولا نوم وهم في الشام. ترى هل دخلوا القاهرة اليوم؟ هل ذبحوا أمه وأختيه؟ آه يا إبراهيم.. ليتك تعلم أنني أكرهك، أكرهك لأنك كنت على حق، أكرهك لأنك أظهرت عجزي. هل تضحك الآن؟ مِت وبُعثت، هل تنظر إليّ من أعلى وتوبخني؟

صاح بأعلى صوته: هل توبخني يا أخي؟

نظر إليه الجنود ثم واصلوا النوم وهم يتمتمون أنه فقد عقله.

سمع الهمس وتيقن أنه فقد عقله: أُوبخك يا أحمق. يا ولد أما زلت تتذكر السباحة، أم نسيت كل ما علمتك؟

قال وهو يغمض عينيه: ابتعد ولا تأت إلى هنا.

ثم لم يدر بنفسه إلا ويد تظهر له من تحت المياه تشده إلى أسفل، سقط في قاع النهر وعمَّ الظلام. استيقظ الجنود على صوت ارتطامه بالمياه، تكلموا كثيرًا والتفت بعضهم إلى بعض قالوا إنه قتل نفسه. كان يريد قتل نفسه منذ البداية. هذا أفضل، فقد فقد عقله، لا يصلح للعمل ولا حتى التعذيب. استمرت السفينة في طريقها. ملأت المياه عينيه وفمه وأذنيه، حاول أن يطفو، ولكنه كان مكبل اليدين والقدمين. فليسقط إلى أعماق الأعماق، فيسبر غور النهر ويفرج هم الدنيا. لا يعرف متى سيفقد الوعي ومتى سينتهي كل الألم. وهو صغير كان يستطيع أن يغوص في المياه فترة أكبر من إبراهيم. كلما لعبَا معًا وغاصَا يخرج إبراهيم قبله، فيقول في فخر: هناك شيء يفعله حسين أفضل من إبراهيم.

اليد تمسك بيده، تعبث بالقفل، تفتحه بمسمار، ثم تتجه لقدميه في سرعة غريبة، وتفتح القفل أيضًا، ثم يأتي الصوت آمرًا: يمكنك أن تطفو الآن. السفينة ابتعدت.

لهث واختنق، أصابته نوبة سعال وحيرة. نظر إلى الوجه الذي يسبح بجانبه، ورأى في ضوء الليل عينيه وأنفه هو، رأى نفسه.. بل رأى ملامح تشبه ملامحه، قال في صوت محبوس: إبراهيم..

شد إبراهيم يديه إلى جزيرة وسط المياه، وعندما لمس الأرض، خرجت الأنفاس سريعة لاهثة، ثم قال وهو لا ينظر إليه، بل يتصبب ماء، وهو يستند إلى صخرة في الجزيرة: ظننتك نسيت السباحة.. ولكنك لم تزل تتذكرها على الأقل.

لم ينطق حسين، ترك أخاه يأخذ بيده ليتسلق الصخرة إلى الجزيرة الصغيرة، ثم تركه فهوى إلى الأرض وهو لم يزل يلهث ويبكي بلا توقف. فقال إبراهيم: لا تبك كالنساء. بحثت عنك.. كان لا بد أن أجدك. منذ عرفت بدخول الفرنجة بلبيس، وأنا أتمنى أن تكون من الأسرى.

غطى وجهه بيديه وبكى بلا توقف، فاقترب منه إبراهيم وضمه قائلًا: توقف أمك تحتاج إليك.

- قتلوا ابني أمام عيني وزوجتي.. يا أخي..

- هكذا هم الفرنجة..

- يا أخي..

- الموت قضاء يأتي بهم أو بدونهم. اثبت. لا تشمت بنا الأعداء.

ابتعد عنه ونظر إليه ثم قال فجأة في تذمر: جئت لتشمت أنت فيّ يا ابن أمي. أنقذتني لأنك الأفضل. إبراهيم يعرف كل شيء. إبراهيم يسيطر على كل شيء.. إبراهيم..

قاطعه: توقف عن أهوائك، واثبت كما الرجال.

- أنا لا أحبك. لم أحبك يومًا.

- الحب لا يعنيني يا ابن أمي. تصرف كابن الصقلي والسيد الأجل. أمك تحتاج إليك.

- أنت..

- لا تشغل بالك بي.

- أنت..

- هارب من موت محقق، بيد الفرنجة أو بيد الحشاشين، الاثنان سواء بالنسبة لي، وربما بيد شاور نفسه.

نظر إليه حسين مليًّا ثم قال: هل تعرف نفسك يا أخي؟ أخبرك أنا عن نفسك. أنت والإمام لا يتناقش أحد معكما، ولا يعارض قراراتكما أحد. منذ وُلدت وأنت الإمام لأمي يا إبراهيم. كل ما تفعله صواب حتى شببت على الغرور، لا تعرف أن تفعل شيئًا سوى إعطاء الأوامر لكل من حولك. كلنا ننتظر ما سيحكم به إبراهيم في البيت. أنت لست حتى مثل الخليفة العاضد، فحكمه ليس في يده. ربما ورثت من جدك السيد الأجل أن هناك سيدًا واحدًا لا غير. طوال عمرك ونحن أقل منك. ترتفع وتطير حول رءوسنا كالنسر، ونرتجف خوفًا وطمعًا. أتعرف ما مأساتك؟ أنك دومًا على صواب! حتى في أهوائك وضعفك! ولكنك لا تستشير ولا تستمع.

قال إبراهيم: هل انتهيت؟

- أريدك أن تعرف نفسك.

- أنت على صواب يا أخي في كل ما قلت. طغى الخير بداخلي وأرغمت الكون على قواعدي، فنفر مني الأخ والأم وحتى الحبيبة. لا لم أعتد أن أتواضع ولا أن يتحدى أوامري أحد. ولكن بما أنني على صواب فلتطع كل أوامري!

صرخ حسين في يأس.

كان تحريك رشيدة من مكانها أصعب من تحريك تماثيل القدماء وسواري الإسكندرية. اضطر الشيخ عبد التواب أن يحملها مع الرجال وهي تعض يده وتصرخ فيه، وهو يتمتم بكل الشتائم التي يعرفها. جرها جرًّا خارج الفسطاط، ومشاعل النار تقترب وهي تصيح: مصنع أبي، هذه مدينتي.. لن أتركها. فلأحترق معها. ولِمَ تحرق المدينة يا شاور؟.. يا جبان.. دافع عنها ولا تحرقها.. يا شاور، هل تسمعني؟

كتم عبد التواب فمها، فعضته من جديد، فكاد يلقي بها إلى الأرض لولا رجاء أمها أن يساعدها للوصول مع ابنتها وجاريتها إلى القاهرة. عند باب النصر دخل الشيخ عبد التواب، واتجه إلى بيت أم إبراهيم وابنتيها. لم تكن تريد أم إبراهيم استقبالهم ولا رؤية رشيدة مرة أخرى. ولكنها وافقت على مضض مع إلحاح شفيقة بالذات، أدخلوا رشيدة حجرة وأغلقوا عليها الباب، وهي تضرب الباب بكفها حتى أدميت، هوت إلى الأرض وغطت وجهها ورائحة الدخان قد وصلت إلى بيوت القاهرة. هذا ليس حريقًا عاديًّا..

ألقى الوزير شاور على الفسطاط عشرين ألف قارورة نفط، وعشرة آلاف مشعل نار، أراد للمدينة أن تصبح رمادًا، والرماد لا يحترق، في هذا سلوى للوزير. فملك الفرنج لن يستفيد بالرماد ولا المصريون ولا جنود الشام.

قالت شفيقة وقلقها على زوجها يزداد: أتمنى ألا يقتله الفرنجة، وأتمنى أن تنتهي الحرب، أفتكين يستحق الخير.

نظرت إليها كاملة في حزن. هي لا تعرف لو كان زوجها يستحق الخير أم لا. سمعت كلمات جواد عن تعاونه معه على سرقة أخيها. هل تصدق كلمات حامل القمح أم تصدق زوجها؟ هي دومًا تصدق إبراهيم فهو لا يكذب ولكنه ليس هنا. أصبحت كما عرائس الحلوى مع زوجها تعاشره بلا قلب ويتقرب منها ولكنه أبدًا لا يمتلكها.

علت الصيحات، حاصر جنود الفرنج باب البرقية. هو باب بناه جدها يومًا.. وكأنه يعلم المستقبل، ويعرف الأخطار. مسحت الدموع، ثم نظرت إلى أمها في لوم، وبعض الدهشة، وقالت: ألا تفتقدين إبراهيم؟

قالت في قوة: لا.

- وحسين؟

- هو بخير.

- ولكن بلبيس ليست بخير، وهو هناك يا أمي.

بقيت ساكنة ثم قالت: ولو مات على الأقل فلن يكون قاتله هو أخاه كما قتل ولديَّ من قبل.

- يا أماه..

- لا أحب ابنة كوثر هنا، ولا كوثر، ولا الجارية اللئيمة.

- إنها الحرب يا أمي. رحمتك كانت دومًا تغمر غضبك.

- فلتذهب الرحمة إلى الجحيم. وليذهب كل من تبقى إلى الجحيم. كلهم سواء.

- ترى أتحزنين أكثر على فقد ابنيك أم فقد إبراهيم؟

- هو مات، قلت لك.

- يقولون إنه تعذب على يد شاور، ثم هرب إلى الشام. سلخ...

قاطعتها: توقفي. أنت من نسل أخيك إبراهيم. الحقد يملأ قلبك، لو ظننت أني أشفق عليه، فقد أخطأت. قلت لك هو مات.

- ربما كان مات حقًّا يا أمي.

- هذا خير وبركة، كُفي عن سيرته، أريد لرشيدة أن تترك هذا البيت، أو أتركه أنا. اختاري.

- كأنك يا أمي...

- كأنني لست أمك.. فلتلقي بها إلى الفرنجة، أتمنى أن يدهسوها بعد أن يفتتوا أضلعها، وينتهكوا عرضها.

شهقت شفيقة، ثم خرجت من الحجرة، نظرت حولها ورأت الجبال تقترب، ثم تُدك دكًّا والأبواب الحصينة تذوب كما السكر في إناء الماء. أغمضت عينيها وهي لا تعرف لو كان الفرنجة سيبقون على أحد. ربما لا بد أن يمحوا هذا الأثر، وهذه العائلة المنكوبة.

دق الباب ليلًا بيد قوية، فتح سفيان بعد أن تأكد من اسم الطارق، كان الكامل نائب الوزير و ابن شاور يأتي إلى بيت الصقلي في القاهرة، ذهل عند رؤيته، كان محاطًا بحراسه، قال في حسم: جئت لأنني أريد إنقاذكم جميعًا تأتون معي، وتتحصنون في قصر أبي.

تجمعت النساء في الحجرة ما عدا رشيدة التي لم يفتح لها أحد خشية ما ستفعل، فخرج عبد الجواد ونظر إليه بلا كلمة، فقال: كلكم. الحلوانية والنساء والرجال، كلكم!

قال سفيان: بارك الله لك يا مولاي.

فقال الكامل: أين هي؟ أين رشيدة؟

حكى له سفيان ما حدث. فقال: خيرًا ما فعلتم. هيا اجمعوا أغراضكم بسرعة، نحن لا نعرف ما الذي سيحدث في النهار.

- ولكن رشيدة..؟!

- نأخذها عنوة...

هز سفيان رأسه واتجه إلى زوجته، فبدأت تجمع أغراضها تريد حماية أطفالها، أهم شيء هو حماية أطفالها. دقت كوثر باب ابنتها ثم قالت: سنرحل يا رشيدة مع نائب الوزير. جاء الفرج.

قالت من وراء الباب: لن أتحرك سوى لإنقاذ مصنعي في الفسطاط.

- يا ابنتي.. استغفري ربك ولا تتعجلي قضاءه.

شدوها من حجرتها، كما شدوا أم إبراهيم. نظرت إليها أم إبراهيم في كره، ولكن رشيدة اتجهت بنظرها إلى الكامل، ثم قالت في ثبات: أليس من الأفضل أن نحارب وألا نختبئ؟

ابتسم ثم قال: نحارب نعم، نحن الرجال، أما أنت فلا. هيا معي.

قبل أن يأمر رجاله بالتحرك اتجهت عينا أم إبراهيم إلى الباب.. ارتجف القلب ثم ارتعد، من يقف أمام الباب تعرفه، لكم احتضنت عينيه ولكم داعبت وجنتيه وهو طفل. لم تحب أحدًا كحبها له.. ولم تحقد على غيره. ابنها حسين بدا أكبر سنًّا، نحف الجسد، وتبدى الشعر الأبيض، ولى العمر بين ليلة وضحاها، عام واثنان..

دخل حسين من الباب المفتوح ونظر حوله. اتجهت عيناه إلى أمه التي تسمرت مكانها، فقال وهو يمسك بيدها ليقبلها: كيف حالك يا أمي؟

نزعت يدها من يده.

أما عينا رشيدة فكانتا تتمنيان وتخافان من الأمل وقلبها يناجي في صمت.. حتى رأته.. إبراهيم. أمسكت بيد أمها حتى لا تلقي بنفسها بين ذراعيه أمام الحضور، وحتى لا تفقد الوعي. التقت عينا إبراهيم بعيني الكامل، وقف الرجلان وجهًا إلى وجه في صمت، حتى قال الكامل: حمدًا لله على سلامتك. كنت على وشك أن آخذ أهل بيتك إلى مكان آمن.

علت الأنفاس وتشابكت المشاعر واختلفت كما اختلاف ألسنة الأئمة وأهوائهم. الأخت تشتاق إلى أخيها وتبكي، والأخت الأخرى تشعر بالذنب والخزي لأنها تركته من أجل زوجها، وتبكي أيضًا، أما أم إبراهيم فتقف كما الصنم لا تبكي، ولا تحزن، ولا تفرح. تغضب فقط. وتغضب أكثر من موجة من رقة اجتاحت القلب، ومن ألفة وراحة شعرت بها العين. فنهت عينها، وضربت قلبها بحجر.

رشيدة بقيت ساكنة تنظر إليه، غاصت في مياه عذبة بأمواج عاتية، اختلج القلب وثارت الأحشاء. بين رجاء وخوف استمرت تنظر إليه بلا كلمة. وعمرها بين يديه منذ الفطام وحتى اليوم. هو حي.. هذا ما تمنت وهذا ما أبقاها.

التفت إلى كامل من جديد ثم قال: يا مولاي كرمك على رأسنا، ورحمتك معي لن أنساها، ولكني أتعجب لِمَ تريد إنقاذ عائلتي بالذات؟

نظر الكامل إلى رشيدة ثم قال في صدق: هناك شخص هنا يهمني أمره. وأشفق عليه من قسوة الفرنجة.

رفع إبراهيم حاجبيه في ذهول وبعض التحدي، واتجهت عيناه إلى رشيدة. التقت أعينهما، فبكت عيناها ألمًا من فراق وهزيمة، وخجلًا من عدم قدرتها على المحافظة على الإرث.

حاول إبراهيم السيطرة على ما بداخله. إبراهيم لا يفقد أعصابه حتى لو قابلته أمه بعينين باردتين، ووجد حبيبته على وشك الرحيل مع الكامل.

اقتربت دون إرادة تبحث عن ريحه وعيناها نصف مغمضتين، لم يلاحظها إبراهيم. كان مشغولًا بالكامل، منزعجًا من وجوده أكثر من انزعاجه من الفرنجة. قال في حسم: يا مولاي أشكرك على حمايتك، ولكني عدت مع أخي وسوف أحمي أهلي بنفسي.

قال الكامل في حسم: لم آتِ لأخذ رأيك يا إبراهيم. أنا أحمي ما يخصني.

قال إبراهيم في تحدٍّ: لا شيء يخصك في بيتنا يا مولاي. هذه أمي، وهذه أختي، وهذه ابنة عمي وخطيبتي.

ابتسمت أمه في مرارة وتمتمت: تستحقها يا قاتل.

- أتعجب منك يا إبراهيم كأنك نسيت أني أنقذت حياتك. لو كنت مكانك لشعرت ببعض الامتنان.

- لك كل الامتنان يا مولاي. ولكن لي القرار فيما يخصني.

- أنا لا أتكلم معك، أنا سآخذ رشيدة وأمها من هنا شئت أم أبيت.

شهقت رشيدة.. وقبل أن تنطق قال إبراهيم في حسم: لن تتحرك من هنا، ولو أردت أن تأخذها لا بد أن تقتلني وسيذهب إنقاذك لي هباء. سأحارب أنا وكل الرجال هنا ولن تتحرك رشيدة.

اقتربت رشيدة أكثر، لم يعد يفصلها عنه سوى خطوة، وجدت يده فتشبثت بها، ضغط على يديها بأصابعه، ثم قال للكامل: اذهب يا مولاي.. لو احتجنا إلى حمايتك سآتي إليك بنفسي، أشكرك على كل شيء، لن نحارب بعضنا بعضًا، والفرنجة تخيم على أبواب القاهرة، والفسطاط تحترق.

تردد الكامل لما رأى يدها التي تمسك بيد ابن عمها.

ثم طوقت رقبته أمام الحضور وقالت في قوة: أنت حي يا بن العم! لكم افتقدتك.

طوق خصرها ثم قال: نعم حي.. هل ظننت غير ذلك؟

نظر الكامل إليهما في أسى ثم قال: لو ماتت رشيدة ستكون أنت السبب..

نظر إليه في تعجب وهو يكتم غيرته، ثم قال وهو يبعدها عنه، ولكنه لم يزل يمسك بيدها: يعجبني اهتمامك بأهل مصر.

أدار الكامل وجهه ثم أمر رجاله بترك البيت، ولكنه توقف ونظر إليها، فقال إبراهيم بسرعة: غطي وجهك يا رشيدة.. الآن.. لا تخرجي سافرة الوجه حتى ولو دخل عليك ملك الفرنجة.

فتحت فمها لتعترض أو تتكلم ولكنَّ عينيه أسكتتها. ولكنها استمرت متشبثة بيديه. عاد.. ولكنها ستقابله بهزيمة. لا حافظت على الإرث، ولا استطاعت مواجهة الفرنجة والوزير والمؤامرات والفتن.

رحل الكامل فالتفت إبراهيم إلى أمه ثم قال: كيف حالك يا أم إبراهيم؟

أمسكت بيد حسين وهي تكاد تفقد توازنها، ثم قالت: خذني إلى حجرتي.

انطلقت أختاه إلى أحضانه تبكيان، ربت سفيان على كتفه يرحب به، انهزمت العيون، وضاقت الدنيا؛ أصبحوا لاجئين في بلادهم، ما بين مدينة تحترق وأخرى على وشك الاحتراق.

لا حاول ترك يدها ولا حاولت ترك يده. وضعت يدها الأخرى على قلبها لتدفئه فهو قلب لا يتضرع لسواه.

التفت إليها وازدادت قبضته على يدها، ثم قال: ما بالك سيطرت على قلب ابن الوزير! ظننت أني طلبت منك أن تحافظي على المصنع لا أن تجمعي قلوب الرجال!

قالت وهي لا تسمعه وتقبض كفها حتى لا تعانقه مرة أخرى: لم أحافظ على المصنع. خذلتك يا إبراهيم.

اقترب منها والشوق يندفع باندفاع الجيوش، ثم قال: أتكلم عن نائب الوزير يا رشيدة لا عن المصنع.

قالت في ترجٍّ، وكأنها تتمنى ألا يُفقدها السيطرة على ما تبقى من عقلها: إبراهيم..

نادى على حسين وطلب منه أن يحضر الشيخ ليكتب على ابنة عمه الآن.

فتح حسين عينيه وقال: الفرنجة تدخل بيتنا قبل أن..

- اسمع ما أقول. هناك أشياء لا يمكن أن نؤجلها.

احمرت وجنتاها وأرخت جفنها، وحسين ينظر إليها في عدم فهم ثم قال: يا أخي..

- اذهب في التو. هذه الساعة لا تمر إلا وهي زوجتي..

قال حسين في خجل: يا أخي لا ترغمها أرجوك.

التقت أعينهما وقال في ثبات: هل أرغمك يا رشيدة؟ أم توافقين؟

قالت في صوت مبحوح: أوافق يا ابن عمي.

نظر إليها حسين، ثم قال: رشيدة.. هذا إبراهيم.. هل فقدت عقلك؟

ترددت ثم قالت: أعرف، هو إبراهيم لا أريد غيره.

تقهقر في عدم تصديق، ثم خرج ليأتي بالشيخ.

مكثت في حجرتها تفكر في أحداث لا يعرفها، وهزيمة لا يدرك مداها. تتمنى أن تحكي له، أن تنام بين ذراعيه وتبكي. تعرف أنها محاطة بالأحقاد، فلا هي أفلحت في كسب حب الكثيرين، ولا هي أصلحت ما أفسدته. اقتربت من الباب تسمع الكلمات في الخارج، ثم فتحت الباب في بطء تنظر إلى العيون والقلوب. قالت زوجة أخيه نفيسة: جاء ليتزوج من الشيطانة بعد أن قتل زوجي. هذه العقرب التي لدغتك يا أم إبراهيم. قالت الأم في لامبالاة: لا ولد لدي. فليفعل ما يحلو له.

ثم قالت أخته كاملة في استحياء لزوجها: الحرب داخل الدار، وهو يريد أن يتزوج؟!

فقال سفيان: هو يفعل ما يحلو له.

- أنا لا أوافق. لا أحد هنا يثق في رشيدة. أنت تتذكر ما فعلت في الماضي.

قال في حيرة: لا بد أن السجن والتعذيب أفقداه عقله.

دفعت كوثر الباب في رفق ثم قالت: ماذا ستفعلين يا رشيدة؟

قالت وعيناها ممتلئتان بالحنين: إبراهيم عاد يا أمي.

- ظننتك تكرهينه.

صمتت. فضربت أمها كفًّا على كف وخرجت من الحجرة. بعد هنيهة عاد إبراهيم، أغمضت عينيها، ثم فتحتهما وهي زوجته. التفتت حولها وهي تجلس في الساحة، فرأت العيون تتوعد وتستنكر حتى عينا حسين، اقترب ثم قال: خدعتنا جميعًا يا ابنة عمي.

لم تُجب ولم تفهم ما الذي ينوي إبراهيم فعله، هل سيرحل معها من هذا البيت؟ هل سيدخل بها وسط كل هذا الحقد؟ هل كتب عليها وسوف يذهب لحرب الفرنج ولن يدخل بها؟

تتبعته بعينيها وهي تحاول أن تستيقظ من الحلم الذي لا تعرف هل هو كابوس أم حلم من الجنة.

قام إبراهيم، اتجه إلى أمه، وحاول أن يمسك بيدها فانتزعت يدها من يده. قالت أخته في تذمر: هل هذا وقت زواج يا أخي؟ زوجة أخيك حسين وابنه ماتَا للتو.

تجاهلها ثم نظر إلى حسين وقال: بعد بضع ساعات تأتي معي أنت وسفيان.

صرخت أمه بأعلى صوتها: لن تأخذ ابني. اذهب وحدك ومت وحدك.

قال في مرارة: حاولت الموت يا أم إبراهيم ولم أفلح بعد.

- لن تقتل ابني المتبقي.

نظر إلى عينيها ثم قال: معك حق. حسين سيبقى معك.

نظر إليه حسين في غضب، ثم قال: تتعامل معي كأنني طفل. لن أنتظر هنا حتى يذبح الفرنج أمي أمام عيني.

اتجه بنظره إلى رشيدة، ثم قال: ادخلي حجرتك.

قامت في تكاسل والعيون تتبعها في ضغينة، وهي تتمنى أن تقضي كل لحظات عمرها الباقية معه، ولكنها تأبى أن تزيد الكره من حولها. أبقت الباب مفتوحًا، وجلست على مخدعها وأسندت ذقنها إلى كفها في حزن، وهي تعرف أنه سيرحل الآن. ولكنه لم يرحل. دخل الحجرة وأغلق الباب، فاتجهت كل العيون إلى الباب، وجلست كل النساء حول الحجرة حتى قال حسين: يا أختي.. هذا لا يجوز، نتركه يختلي بزوجته.

- هنا نجلس يا أخي، هل نترك لها بيتنا؟

ثم قالت زوجة أخيه: الثعبانة تسيطر عليه الآن، وتطلب منه قتلك أنت أيضًا ليسيطر هو وهي على كل شيء.

فقال حسين: لم يعد هناك شيء ليسيطرا عليه.

كانوا ينتظرون همسات آهات، ربما صرخات أو مشاجرات، كانوا ينفخون هواء الحقد حول البيت كما نفخ الجنود البوق؛ ليعلنوا حريق الفسطاط، وكان يعرف وكانت تعرف.

نظر إليها بلا كلمة، فقالت في شوق ممتزج بالأسى: كلهم حولنا.

- لا أحد حولنا.

- يستمعون يا إبراهيم وينتظرون.

- لا أشعر بهم.

اقترب منها وجلس أمامها ثم أحاط وجهها بيديه، وقال: ما حكايتك مع ابن الوزير؟

قالت مسرعة: أقسم أنه لا يوجد أي شيء بيننا. كيف؟!

وضع إصبعه على فمها ثم قال: لو أخذك معه يحميك. ولو تزوجك تضمنين زوجًا حيًّا بعض الوقت. ولكنني لست بهذا النبل ولا هذه الطيبة. أريدك وأريد أن أطفئ لهيبًا اشتعل منذ عامين وأكثر، ولو مت لا أريدك أن تتزوجي غيري ولا أن تنسيني. اليوم أريد أن أتأكد أنك لن تنسيني، كيف لي أن أتأكد؟

دفع برأسها إلى صدره واحتضنها حتى التقى الصدر بالصدر، والقلب بالقلب وامتلأت الأنفاس وفاضت، هذا عناق غير كل عناق، ووجد غير كل الأشواق. فاجأها به، ارتاعت، ولملمت كل عزيمتها في راحتيها، وقالت بين أنفاسها المتقطعة: كيف لي أن أنساك؟ كنت أدعو الله كل يوم، أرجوه ليلًا ونهارًا. أقسم أني سأطيع كل أوامرك، سأفعل أي شيء لتبقى معي.

طاف بكفيه على الجسد والنفس، ولم يترك موضعًا لا يخضع له. نبضات الجسد امتدت للعينين والأذن، حتى إن العمر كله توحد في لحظة ورفقة ورجل. انتابها الخوف من نفسها، وفزعت من

قدرته، حاولت أن تبتعد فشدها إليه، وقربها وهو يقبل شفتيها قائلًا: أتحبينني يا ابنة عمي؟

- والله لم أر غيرك طوال عمري. أنت تعرف.

أمسكت بيده حتى لا تعيث في براح الجسد.

فقال: أعرف. اعذريني.. لا رقة تصاحبني اليوم ولا صبر.

لم تفهم ما يعني، ولم تكن معنية بصبره ورقته قدر ما أرعبها قدرته وسيطرته.

قال إنه يريد أن يتأكد أنها لن تنساه. وفعل؛ أغرقها في البحر ثم أخرجها منه إلى زبد الموج، يتداعى الفؤاد ويعبث بالرمال. تارة تتناثر الرمال حول عينيها فتشوش على لون المياه، وتارة تتدفع فتزيح كل الحواجز. كتمت صرخات وآهات، وهي تعرف أنهم كلهم خارج الحجرة، ولكنها همست باسمه كثيرًا، ورجته ألا يتركها. تشبثت به كما الغريق، ثم تركته كما الغارق. قالت وسط ضرام نيران العشق: فقدت كل شيء. لم أستطع أن أحافظ على مصنع أبي ولا الدكاكين.

- حاولت وهذا يكفي.

- إبراهيم..

- قولي اسمي كثيرًا، أريد أن يبقى صوتك آخر شيء أسمعه. تعالي هنا.

غاصت برأسها في صدره، ونسيت كل العالم. لم تعد الحجرة في القاهرة ولا البيت، كانا محمولين على بساط سحري، يطوفان حول الجنة، ويستنشقان عبيرها، ويأكلان من شجرها.

مسح بيده على شعرها، ثم قال: كنت أريد أن أرتوي منك، ولم أدرك أن الارتواء منك مستحيل. عامًا وراء عام يزداد العطش وأتمناك.. اعذري يأسي وبأسي اليوم.

لم تفهم ما يقصد. عقلها أصبح مخمورًا، والماضي محا أثره كما المستقبل. بأسه شديد، وعزيمته مرعبة، أربكت حتى رشيدة التي وقفت أمام جنود شاور.

وضعت يدها على فخذه، مررت بأصابعها على مكان التعذيب ثم انحنت، وقبلت فخذه قائلة: لو أستطيع أن أمحو كل آلامك..

قال في قوة وهو يقبلها: أذبتها مع العسل في فمك.

وكانت هذه جملة الحب الوحيدة التي سمعتها منه حتى الآن، والتي أغنتها عن كل ما دونها.

نظرت للجلد النافر المتمرد الذي يأبى أن يترك مكانه على فخذه، ثم قالت: لكم جرحتنا الحياة وأذلتنا يا إبراهيم. أنا وأنت.. آلام الجسد أقل الأضرار..

قال وكأنه يتكلم مع نفسه: ضللت بعد العذاب بعض الوقت. تهت كما الطفل في الأحراش ولكن الله أراد لي النجاة. لا ذل في تعذيب الجسد يا رشيدة.. روحك قوية حتى لو تركت الجروح الندبات..

أحاط رأسها بيديه، وقبّل موضع القلب في شغف ثم قال: الآن أحبك من جديد كما تستحقين... أو كما أريد، فأنت تستحقين كل بأسي يا ابنة العم.

همست وهي لا تعرف ما يقصد: أحبني كما تريد.

ضحك ثم قال: لأول مرة لا تتحدينني.

بعد وقت طويل حاول القيام على مضض ثم قال: أنا فخور بك يا رشيدة. رعيت مصنع جدك كما الرجال، بل أفضل منهم جميعًا.

قالت وهي تمسك بيده: ابق معي بعض الوقت.

عانقها بكل طاقته، وغاص من جديد في مدام الرضا والنشوة. حتى سمع دقًّا على الباب. قال أخوه: يا إبراهيم لو كنت تريد أن تذهب إلى أسوار القاهرة فلا بد أن نذهب الآن، أم أذهب وحدي؟

قام وارتدى ملابسه وهي نصف واعية، نصف هائمة، قبل رأسها ثم خرج.

رحل.. أغمضت عينيها، وسمعت طرقًا على الباب من أمها، فقالت: سأنام بعض الوقت.

ثم رفعت الغطاء إلى رقبتها، وهي تسترجع أحداث اليوم وكل أيام حياتها. أصبح لها، من حلمت به منذ كانت في الثامنة، أصبح لها. ابتسمت ومررت بأصابعها على رقبتها وشفتيها، لكم تخيلت هذا اليوم، وهذا الشفق ولكنها لم تتوقع مدى الجوى، ولا قدرة تأجج النار في الجوارح. دفنت رأسها في الوسادة، لكم طافت حوله تارة تزعجه، وتارة تؤذيه ليلاحظ وجودها، ولكم تآمرت ضده، واستغلت من حولها لتنتقم منه على أنه لم يعرف ولم يدرك. ولحظة أصبح لها وأصبحت له، نطقت اسمه ممزوجًا بكل حنين العمر الماضي، وكل عذابات القلب الكلف به. فقال: ماذا بك؟ تندمين على الزواج من رجل سيموت؟

همست وهي مغمضة العينين: بل أذكر نفسي بأنك بداخلي، هذا لا يمكن نسيانه. لا تنسه يا ابن العم.

حملها، فاستقرت فوقه وقال مازحًا: ها أنت تعطينني الأوامر من جديد. أنا الزوج هنا. وأنا القائد. وعدتِ أن تطيعي كل أوامري، هل تتذكرين؟

لم تُجب. لا قالت نعم ولا لا. ولم تكن تعرف أن للحب شهورًا تتغير فيها اللمسات من رعد وبرق وأمطار ونسيم وبرد وحر وقفر وجنات النعيم. ظنت أن الحب قبلات وعناق قوي، ولكن العشق ترك آثار زوابع أحواله على جسدها. في أول مرة فزعت من لهفته وسيطرته، وفي ثاني مرة فزعت من رقته وتأنيه، وفي ثالث مرة فزعت من إتقانه وثقته وعطائه. أفزعها في كل مرة، وأشجاها وأرّقها، واستقر كالنجم المحترق داخل صدرها. تذكرت، وابتسمت، وراحت في نوم هادئ لأول مرة منذ عامين.

تناثرت الكلمات حول كوثر عن خُبث ابنتها وعن قلة تربيتها، لم تعرف كوثر كيف تجيب. فاجأتها رشيدة بعشقها لابن عمها. طرقن بابها في عدوانية وطلبن منها أن تساعدهن، نظرت إليهن في

ازدراء ثم رفعت رأسها وقالت في فخر: لا بد أن تتعاملن معي باحترام، أنا زوجة إبراهيم، لا تنسين هذا.

خرجت من الحجرة تبحث عن الماء، ما إن خرجت حتى دخلت كاملة وهي تغمز لنفيسة وقالت: أقسم لك إنها باغية، أغوته وأغوت غيره، ترك الطيبة ابنة العائلة من أجل هذه. أقسم أنها عاشرت حامل القمح قبل أن تعاشره.

فقالت نفيسة في حسرة: لا تفلح سوى البغايا في هذه الأيام.

ثم بدأتا تبحثان داخل حجرتها، تفتشان خزانتها، ونفيسة تقول: ستجدين العمل والسحر الذي صنعته له، وسيكرهها، هذا أكيد.

ثم اتجهت نفيسة إلى مخدعهما، ونظرت إلى الفراش في فزع، وفتحت عينيها. التقت عينا السيدتين، ثم استقرت على نقاط الدم في الملاءة، فقالت كاملة: هذا ليس دليلًا، ربما حافظت على بكارتها لتخدعه.

قالت نفيسة: معك حق.

ثم اتجهت عيناهما إلى باب الحجرة حيث وقفت رشيدة ويداها على خصرها تنظر إليهما في تحدٍّ. ابتسمت وقالت: هل انتهيتما من البحث والتأكد؟

تلعثمت كاملة ثم نظرت إلى نفيسة، فقالت نفيسة في حنق: الشر لا ينتصر يا رشيدة.

قالت رشيدة في حسم: لا شر لدي. ولكنك لا ترين سوى ما تحت قدميك. ألأنني أطلب، آمر وأنهى، أتجرأ، وأدافع، أعمل وأفكر، أصبحت غانية بالنسبة إليكما؟

قالت كاملة: نعم. أنت أيضًا تخططين، وتطوعين الرجال، وتروضينهم جميعًا، أنت أيضًا أبعدت من يحبها أخي حتى تتزوجيه. أنت أيضًا.. مكشوفة كما الحلوى التي اخترعتها. مكشوفة حقيقتك لنا.

قاطعتها رشيدة: هذا كان ماضيًا وانتهى. اليوم لديك اختياران، إما أن تتحديني أنت ونفيسة، وكما تعلمين لا أسامح ولا أتنازل عن حقي، أو تهادنيني وترفعي رايات السلام، فنعمل معًا لمصلحة هذا البيت. الاختيار لكما. فكرا في الأمر. رشيدة لا تنهزم ولا تخاف. ومن يؤذِ رشيدة تنتقم منه اليوم أو غدًا، أما من يسالمها فله الجائزة.

فقالت كاملة في ازدراء: أخي لا تحركه أهواؤه، ولا تسيطر عليه امرأة يا رشيدة.

ابتسمت رشيدة في انتصار، وهي لم تزل تضع يدها على خصرها، وقالت: ليتك سمعته أمس وهو يقسم لي إنه سيفعل كل ما أريد وينفذ كل ما أطلب. هل سمعته؟ كنت أمام الباب، أعرف. لا بد أنك سمعته.

أطبقت كاملة شفتيها، ثم تمتمت: الفُجر لا حدود له.

قالت رشيدة: هل قلت شيئًا يا ابنة عمي؟ اتفقنا أن يعم السلام بيت إبراهيم وبيت رشيدة، فإبراهيم ورشيدة أصبحا واحدًا. سره معي، وقلبه معي.

همست نفيسة في أذن كاملة: استحكمت وسيطرت، هادنيها.

ابتعدت رشيدة عن الباب حتى تخرجَا. وابتسمت في انتصار.

خرجتا في خزي وهما تعرفان أن الهزيمة سترافقهما وأن الاستسلام أسلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عند باب البرقية وقف إبراهيم يخطب في الرجال، والفرنج تضرب الباب بالمجانيق وترمي كرات النار على السكان، يتوعدون ويهددون.. يعرف إبراهيم هذا المشهد، رآه وعاصر نهايته منذ عامين، بعد عدة أشهر تستسلم القاهرة بعد موت نصف سكانها وإنهاك الباقين. وبعد عدة أشهر يدخل الفرنج فيذبحون النساء والأطفال، لا ينجو منهم المسلم ولا المسيحي ولا اليهودي كما فعلوا في بلبيس. سوف يأسرون الرجال، فالقتل للرجل رحمة، أما الذل والخزي فعذاب ممتد إلى الأزل. أمسك برأس أخيه وقال: هو يحكي لكم عن بلبيس وما حدث له هناك.. وأنا أحكي لكم عن الإسكندرية والأسر وتعذيب الوزير. مصر اليوم بلا وزير. مصر اليوم بين أيديكم أنتم إما أن تنقذوها أو نهلك كما هلك بيت المقدس وهلكت بلبيس. بدلًا من أن يدافع شاور عن الفسطاط أحرقها لأن جيشه ليس جيشنا يا معشر القوم، لا فرار من المقاومة ولا حياة مع العجز. نحارب وحدنا أو نسقط، ولو سقطت مصر سقطت كل بلاد الإسلام، هم يعرفون لذا لن يخرجوا إلا عندما يوقنون أنهم مهزومون، فلندافع بكل ما نملك. فليعد جيش الفرنجة مهزومًا، ولننس أمر وزير باع البلاد يومًا وتحالف مع الأعداء. الوقت ليس في صالحنا. لا بد أن نهزم الفرنج.

خرج جواد من الجموع ثم قال في صوت ساخر: الحلواني يهزم الفرنج! من أنت؟ تريد القضاء على أهل القاهرة كما قضيت على أهل الإسكندرية من قبل. من أنت؟ وماذا نملك لنحارب؟

علت الهمسات وتردد الناس، فقال إبراهيم في قوة: أنا أحارب وأنت ابقَ هنا مع النساء.

اقترب منه جواد ثم قال: لا أحد يعرف حقيقتك مثلي، ولا أحد يعرف طمعك مثلي.

أدار إبراهيم وجهه، لا يجب أن يفقد أعصابه. فاقترب منه حسين، ثم قال: تريدني أن أطرده من القاهرة؟

- لا، لا تشغل بالك به.

فقال حسين في مرارة: أنا أطيعك اليوم لأنك على حق، ولكن عند انتهاء الحرب سأرحل.

- أعرف.

- ألن تطلب مني أن أبقى؟

- لا. افعل ما تريد.

- سأفعل ما أريد.

الحرب في القاهرة لم تكن كحرب الإسكندرية، ذاق المصريون اليأس ولم يعد هناك بد من مقابلة الموت بشجاعة واستسلام. ولو كان الاستسلام واجبًا فليكن استسلامًا للموت وليس للهزيمة. ملئوا أواني النفط وتسلقوا سور باب البرقية، ورموا النفط على الجنود، ثم ألقوا بكرات من النار في الهواء. رد الفرنج بالمجانيق وتسلل بعضهم داخل المدينة يقتلون بلا وعي، يذبحون النساء قبل الرجال. التف العامة حولهم وقتلوهم ثم ألقوا بالجثث من فوق السور. جمعوا كل مخلفات المدينة من نفايات وروث

بهائم وقاذورات، وألقوا بها على جنود الفرنج. ابتعد الجنود عن الباب، واستمروا في ضرب المجانيق، وهم يعرفون أنهم سيفلحون اليوم أو غدًا. سيتحطم الباب. وستطير المدينة في الأفق. القاهرة.. سمعوا عن قصورها الفاخرة والذهب الذي يرصع أشجارها. سمعوا عن أكياس الزمرد التي تركها الوزير بدر الجمالي عند وفاته. ترى أين ذهبت؟ لا بد أن الوزير شاور يملكها الآن أو الخليفة العاضد.

هذا باب بناه قائد صقلي من بلاد ليست بعيدة عن بلادهم، ولكنه استقر في مصر واتخذها وطنًا. يقولون إن اسمه جوهر الصقلي. الملك عموري يُدرِّس تاريخ الشرق للجيش. في التاريخ انتصارهم ومفتاح فهم أهل الشرق. يقولون إن قائدًا آخر من بلاد الأرمن بنى بابًا موازيًا لباب البرقية بعد أن وسع رقعة القاهرة، وبناه من الحجر، ثم استقر في مصر واتخذها وطنًا. والملك عموري قرر أن في تحطيم هذا الباب انتصارًا سيكتبه التاريخ. سيقولون ملك الفرنج انتصر على بدر الجمالي الأرمني وجوهر الصقلي. سيقولون عموري انتصر على من اتخذها وطنًا.. لأنه يُقدر وطنه ويعرفه. أمر ملك الفرنج بتحطيم الباب حتى لو استعان بكل جنود العالم. فليطلب مساعدة كل سكان الشمال ويحطم هذا الباب خاصة.

قال حسين في قلق: الفرنج سينجحون في الدخول بعد عدة أيام. أنت تعرف هذا.

فقال إبراهيم: مر عليهم الوقت ولم ينجحوا.

- أنا أعرف.. حتى مع حصون بلبيس فتحوا الأبواب. نحن لسنا جيشًا نظاميًّا يا أخي.

- ولكننا ندافع عن كل ما نملك، لا يوجد جيش أكثر قوة ممن يدافع عن نفسه.

- جيش شاور اختفى. يبقيه حوله لحمايته هو.

- بالطبع ماذا توقعت يا حسين؟

نظر أمامه ورآه. زوج أخته شفيقة، أفتكين التركي. لم يكن قد رآه منذ أكثر من عامين. منذ طلب من زوجته أن تطيعه، وتترك بيت أخيها.

قال أفتكين في إحراج: أحمد الله على سلامتك يا إبراهيم.

فقال إبراهيم في قوة: أين جيش مصر يا زوج أختي؟

- هذه أيام كلها عتمة وضلال.

- أسألك عن الجيش وليس عن الأيام.

- الوزير شاور أمير الجيو..

قاطعه إبراهيم: مصر لم يكن بها سوى أميرين للجيوش في عهد بني عبيد، جدي جوهر وجدي بدر. شاور خائن.

- لا تقل هذا.

- ولكنه خائن. يختبئ ويحيط نفسه بالجنود.

- لقد وافق على مساعدة جيش الشام. وافق على طلب الخليفة من أسد الدين شيركوه وصلاح الدين، طلب منهما العودة إلى مصر.

- لم يعد يملك الموافقة يا زوج أختي. هو ليس حارسًا عليها.

- وحتى يأتوا..

- جئت إليّ.. لماذا؟

التقت العيون فقال إبراهيم: تُرى أتريد أن تعصي أمر وزيرك، وتحارب معنا يا أفتكين؟

- إذا دخل الفرنج مصر انتهى كل شيء.

- لِمَ لا تنتظر مع شاور جيش الشام؟

التفت حوله ثم قال: قلت إن شاور وافق. لم أقل إنه راضٍ، ولا إن جيش الشام قادم.

- هل جئت لي برسالة؟

- بل جئت بنية المقاتل.

مد إبراهيم يده ثم قال: مرحبًا بك بيننا.

قال في مرارة: أريدك أن تعرف شيئًا واحدًا حتى تتصرف بحكمة.

- ما هو؟

- لو كان عند الوزير شاور الاختيار بين دخول الفرنجة مصر أو دخول جيش الشام..

قال إبراهيم بلا تفكير: سيختار الفرنجة، أعرف.

- كيف تعرف؟

-لأنه اختارهم من قبل.

- لم يكن يعرف أنهم سيغزونها. ظنَّ أنهم يحمون فقط.

- من يُبقي جنود الفرنج على أبواب مدينته ليحموها هو خائن يا أخي.

- لا تذم الوزير أمامي. نحارب ونترك أمور الحكم للحكام.

ليلًا حاول بعض جنود عموري تسلق الباب، ولكن المصريين أغرقوا الأسوار بزيت الشيرج، فتزلج الجنود ولم يفلحوا في الدخول. ثم تسلل المصريون بالسيوف والسكاكين من باب النصر وباب الفتوح في اتجاه باب البرقية واختبئوا. خرجت عجوز بالزلابية وهي تقول بالعربية إنها تمنت قدوم الفرنج، وإنها تفضل الفرنج على الوزير شاور. لم يصدقها الجنود. أمسكت بالحلوى ووضعتها داخل فمها،

فتشجع الجنود وأمسكوا بواحدة وأمروها أن تأكلها، ففعلت فخطفوا منها الحلوى وأكلوها كلها. قالت إنها ستأتي لهم كل يوم بالزلابية. لم يجدوا ما يخيف في هذا. في اليوم الثاني أمروها أن تأكل فأكلت، اختاروا لها واحدة واثنتين لتأكلها، ففعلت فأكلوها. قالت وهي تحرك يديها: أريد أن أعرض عليكم كنوز مصر.

أشارت لهم بأن يأتوا وراءها. احتاروا، وترددوا، ثم اتجه خمسون جنديًّا معها، فاتجهت إلى الصحراء، وطلبت منهم الحفر، فحفروا فوجدوا الزمرد، هاجوا وماجوا وانتشرت الأخبار، فازداد عدد الجنود القادمين بحثًا عن الكنوز وتركوا حامية صغيرة أمام الباب.

خرج المصريون المختبئون عند باب النصر، في اتجاه من تبقى أمام باب البحر من جنود الفرنج، وبدأت الحرب بينهم وكانت حربًا متكافئة، خرج نحو ألف مصري وتبقى ألف جندي من جيش عموري أمام الباب. بعد عدة ساعات أخذ المصريون مائة أسير، وقتلوا خمسمائة جندي، وهرب الباقون في اتجاه البحر.

اضطربت الجموع وبلغ الخبر عموري، فغضب غضبًا شديدًا وقرر معاقبة كل من ترك مكانه. بحثوا عن العجوز فلم يجدها أحد. أشيع في معسكر الفرنج أن السحرة القدماء يساعدون المصريين. في الأساطير ساحرة تسكن الهرم، تخرج ليلًا لتصيب الرجال باللعنات، هذا ما أصابهم.

لم يصدق عموري أمر الساحرة تصديقًا تامًّا، ولكنه أصيب ببعض الخوف والاضطراب من هزائم غير متوقعة من رجال غير مدربين على القتال. طال الحصار والقاهرة لا تستسلم. طال الحصار وجنوده أنهكوا. لا كنزًا وجدوه ولا انتصارًا حققوه.

حان وقت الكلام مع شاور. بعث إليه عموري، فجاءه الرسول بالهدايا، وأخبره أن شاور عند العهد، ولكنه يطلب من عموري الخروج من مصر الآن والعودة مرة أخرى عندما يستطيع هو السيطرة على الأمور. لم تعجب الملك عموري الرسالة. طلب الأموال، فرد عليه شاور وأعطاه أربعين ألف دينار وقال إنها كل ما يملك. ولكن عموري لم يقتنع، فقد دخل مصر، فلِمَ يخرج دون أن ينتزعها من فم بني عبيد؟ لو استقرت مصر بين راحيته امتلك الشرق. لم يكن ينوي العودة.

انتشرت الأخبار أن جيش أسد الدين شيركوه قادم إلى مصر. أمره نور الدين الزنكي بحرب الفرنجة في مصر حتى لا تقع في يد الملك عموري. ولكن لم يكن هناك أثرٌ بعدُ لهذا الجيش. وعموري لن يترك القاهرة إلا وهي بين يديه.

بدأ يتقلب في نومه قلقًا عليها. تملكته رشيدة. ولم يهنأ بأحضانها. يفكر فيها حتى وهو يحارب، حتى وهو يحيك المؤامرات، في كل لحظة يتذكر رجفة شفتيها، والشوق في عينيها، فينتفض جسده ويضرب الأسى قلبه. لِمَ حكم عليه الزمن أن يصارع هواه طوال العمر؟ ولِمَ لا يترك كل شيء، ويعود إلى أحضانها؟ نفخ في غضب وضيق وشعر به يتجسس عليه، إنه جواد..

تحسس خنجره ثم تظاهر بالنوم. فتسلل جواد إلى داخل الخيمة، ورفع سيفه بيد مرتعشة وهم بأن يضرب إبراهيم، تحرك إبراهيم سريعًا وقبل أن يُمسك بالخنجر سمع تأوهات جواد، أصابه سهم في

كتفه. فسقط السيف من يده. نظر أمامه وكان حسين، ابتسم له أخوه في فخر ثم قال: قل لأمك يا إبراهيم إن حسين أنقذ حياتك، كما أنقذت أنت حياته.

ربت على كتفه وقال: حسين أشجع الرجال.

وربما كانت أول مرة يسمع فيها حسين الإطراء من أخيه، ولكم بردت تلك الكلمات نار القلب وهدأته!

أمسكوا بجواد وربطوه، نظر إليه جواد في كره ثم قال: افعل ما تشاء، تزوجها غصبًا، العب أنت وهي بي، اقتلني، افعل ما تريد، ولكنك ميت.. اليوم أو غدًا.

قال إبراهيم: من طلب منك قتلي؟

- أنا أريد قتلك.

- بل لا تقوى على القتل. هم الفدائيون أليس كذلك؟

قال وهو ينظر إلى عينيه: الكامل بن شاور، من يستحق رشيدة.

- صفعه إبراهيم ثم قال: لا تنطق اسمها. احبسوه حتى نبت في أمره.

ذهب إلى بيت أمه في القاهرة وقد عزم أمره. رشيدة لن تبتعد عن مرمى بصره.

لم تنظر ليلى إليه. مكثت تتحرك في رتابة، تحرك ظهرها وكتفيها ثم كفها، تضرب بها على السرير كأنها تطلب الإغاثة منه هو، من ربها، أن يوقف عذابًا امتد بلا حساب ولا عقاب.

قال في صوت رقيق: أم إبراهيم..

- يقولون: إن جوادًا حاول قتلك. ليته نجح.

- لا تقلقي غيره سينجح. هو كتاب مؤجل لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. ليتني كنت أستطيع أن أوقف القدر، ولكنك كلفتني ما لا أطيق.

بقيت صامتة.

- يا أم إبراهيم في البدء كلفتني ما لا أطيق، ثم حاسبتني على ما ليس في يدي. حتى إخوة يوسف عندما أرادوا قتله غيَّر الله خطتهم، وجعلهم يلقون به في الجُب. هل كان لي أن أنقذ إخوتي؟ هل أردت قتلهم؟ أقسم أني تعذبت بفراقهم كما تعذبت بفراقك وأنت حية.

ارتجفت عيناها ثم أدارت وجهها، وقالت: اتركني.

- ليس قبل أن أحكي لك عن ظلمك.

- جئت لتلومني.

- جئت لألوم بعضي على بعضي. لا تقسي يا أم إبراهيم. يكفي قسوة العمر عليّ. ولا تتركيني كما الأيتام، وأنت تتنفسين على الأرض. ولا تحمليني ما لا أطيق.

- لو كنت انتهيت فارحل.

- على قدر حنانك على قدر ابتلائي ببعدك. واحتياجي إليك.

رمشت بعينيها وتجمعت الدموع ولم تتساقط.

استمر ينظر إليها، يبحث عن علامة رضا أو رحمة، ولم يجد.

- سأتركك في سلام.

ثم ذهب يبحث عن زوجته. وجدها تصنع الحلوى مع أخته وزوجة أخيه. كأنهن أصدقاء منذ أعوام. كن يستمعن إليها، فتأمر وتنهى وتُحفز وتشجع كأنها صاحبة البيت وقائدة الجيوش. ابتسم لنفسه. تُرى أيثق في رشيدة؟ أوثق بها قط؟

عندما لاحظت وجوده، نظرت إليه في شوق.

فقالت كاملة: أخي.. حمدًا لله على سلامتك.

سأل عن حال أمه وحالهم وعيناه على زوجته، ثم قام وأمرها في حدة أن تجهز أغراضها لأنها ستأتي معه. قالت في حيرة: آتي معك إلى أين؟ أريد أن آتي معك ولكنك.. لا بد أن أفهم، ثم أنت لم تتكلم معي من عدة أيام ولم..

قاطعها في حسم: لا تجادليني يا رشيدة.

ثم أمسك بيدها ودخل بها إلى الحجرة وقال: إياك أن تجادليني أمام عائلتي.

قالت وهي تضع رأسها على كتفه بلا إرادة: سأجادلك وحدنا إذن. لِمَ لم تأت أمس، وأول أمس.. وكل يوم..

ضغط على ظهرها بكفه وقال وهو يحك خده برقبتها: هيا بنا.

- تشرح لي.

- أخاف أن يخطفك كامل.

- لن يفعل. هو صادق وطيب لو عرفته.

ابتعد عنها ونظر إليها في غيرة، ثم قال: لا أريد أن أعرفه، ولا أن تعرفيه أنت. هيا.

ثم شد يدها خارج البيت. قالت في تذمر: لم آخذ أغراضي.

- لن تحتاجي إليها.

- إبراهيم..

- كُفي عن الكلام. نحن في حرب. أريدك أن تبقي معي طوال الوقت.

كتمت ابتسامتها ثم قالت: تَرى هل تفتقدني يا بن عمي؟ أم تغار عليّ؟

حملها على فرسه وقال: لا هذا ولا ذاك. ولكني أريد زوجتي معي. هل ستحققين معي بقية النهار؟

ألقى بها إلى الخيمة ثم دفع بها إلى الأرض وقبلها في شوق. قالت في دلال: لِمَ لا تقول إنك تحبني. تريدني.. تعشقني منذ الصغر.. قل إنك قاومت عشقك طوال عمرك، ولم تستطع.. إنك..

كتم فمها بالقبلات، وعندما أفاقت من رضاب الحب، قالت وهي تضع رأسها على صدره: أنا أشجع منك يا إبراهيم؛ أقول بقوة إني لم أحب غيرك.

قال وكأنه يتحاشى الكلمات: وجودك هنا خطر، لا أعرف ماذا أفعل. ولِمَ جئت بك إلى هنا، كأنني أفضل أن تموتي معي على أن أتركك لغيري، فقدت عقلي، أصابتني لعنتك يا رشيدة. لم أكن بهذه الأنانية قط، كنت أساعد إخوتي وأمي.. أمي..

- ستعرف. تحتاج إلى الوقت لتدرك يا إبراهيم. إياك أن تظن أنها لا تحبك. هي تحبك بقدر حسرتها على ما ضاع، وتغضب منك بقدر غضبها على ما فقدت. عندما تسلم وتستسلم ستعرف من أنت..

- معك أصبح أكثر أنانية وشراسة. يتلاشى إبراهيم المثالي، ولا يتبدى سوى الوحش بداخلي.

- معك أصبح أكثر غضبًا واشتياقًا. ولا يتبدى سوى الوحش بداخلي.

- هنيئًا لنا العيش معًا يا رشيدة!

استمعت من وراء باب خيمتها لخطط الجيوش.. رأت جوادًا مربوطًا، نظرت إليه مليًّا. في الماضي اتفقت معه أن تتزوجه زواجًا صوريًّا على أن يبقي معها كل شيء. طغى اليأس لديها على كل شيء. أم أنه الغضب من رجل لم يشعر بها؟

سمعت زوجها وهو يقول: إما أن نقتل الخائن أو نستفيد منه. نبعث رأسه إلى الملك عموري ليعرف أننا اكتشفنا خطته، وأننا سنستمر في الحرب حتى يتركوا بلادنا.

- إبراهيم..

التفت إلى الصوت الذي يناديه. ثم استأذن الرجال ودخل الخيمة وقال في غضب: لا تناديني وأنا وسط الرجال.

- كنت أريد أن أقول..

- لا أريد أن أسمع رأيك.

كادت تنفجر فيه ولكنها صمتت وأدارت وجهها. هم بالخروج ثم عاد إليها وقال: حسنًا.. ماذا تريدين؟

- لا شيء.

قال في حدة: رشيدة.. نحن في حرب.

- لدي خطة.

- أي خطة؟

- كنت تريد الاستفادة بجواد، ابعث به إلى الملك عموري وهو حي برسالة. قل إنكم ستستسلمون.

نظر إليها ثم قال: ولم نثق في جواد؟ هو خائن.

ابتسمت واقتربت منه وأمسكت بيده وقالت: هو خائن. ابعث بهذه الرسالة إليه، وتقهقر بالرجال إلى داخل القاهرة.

أطرق برهة، ثم قال: رشيدة..

- نعم هذا ما جال بخاطري..

- أي عقل لديك؟!

- عقل امرأة يا بن عمي.

- أذكى امرأة رأتها عيني!

- هل هذا إطراء؟

- وأشجع امرأة! وأجمل امرأة!

- أجمل..

- والله ما رأت عيناي في جمالك!

قبّلها في قوة، ثم قال وهي بين ذراعيه: جواد سيذهب برسالة إلى الملك عموري، تقول إننا نتقهقر، وهو يظن في الحقيقة أننا نستعد للهجوم. لأننا سنستعد أمامه للهجوم. ولكنه عندما يذهب إلى الملك لن يخبره بالرسالة، ولأنه خائن، حتى لو وعدنا، سيخبره بما رأى أن رجالنا تستعد للهجوم. عندئذ يغرق عموري الباب بالمجانيق والأسلحة، ويدفع بالرجال إلى داخل الأسوار. ولكن الضرب في الباب سيكون هباء لأن الرجال اختبئوا وتقهقروا. سيرهق جيشه نفسيًّا ويستنفد أسلحته. وعندما يتسلل بعض الرجال داخل القاهرة نقابلهم في الأزقة والحارات. ولكنه لن يجد جيشًا وراء السور. سيجد جيشًا في كل ركن من أركان المدينة. بعد أن تنفد أسلحته، ويعرف رجاله أنهم وقعوا في الفخ..

- سيرحل.

- كيف عرفت هذا؟

قالت في يقين: ملك الفرنج سيعرف أن المدينة محصنة ليس بالأبواب يا بن عمي بل بالرجال والنساء قبل الرجال.

- أحبك.

- ماذا قلت؟

- لم أقل شيئًا. نامي بعض الوقت.

حدث كل ما تنبأت به رشيدة بحذافيره.

تسلل جنود الفرنجة وهم يتوقعون أن يغرزوا السيوف. دخل مائة أو أكثر، والباقون ينتظرون وراء الباب في تأهب. هذ الباب لن يتحطم. التسلل إلى المدينة يكون ليلًا، ومن خلال أبواب متفرقة، ربما مع بائع يدخل بيته أو رجل يبحث عن أهله داخل القاهرة. ولكن الجنود المائة لم يجدوا جيشًا في انتظارهم داخل القاهرة. بل ساروا في الأزقة تائهين فتفتتوا بين أيدي الرجال والنساء. عند كل بيت خرج رجل أو امرأة بخنجر أو فأس. قتلوا الجنود المائة ثم لملموا جثثهم، وألقوا بها جميعًا على الملك الماكث خلف سور البرقية، وكتب إليه إبراهيم رسالة قائلًا: هذه جثثك رُدت إليك. أهل الإسكندرية أولاد أصول يردون الهدايا دومًا.

اشتعل الملك غضبًا، كاد يقتل كل جنوده. ذبح جوادًا ثم صاح بلا تفكير أو تردد: القادم أبشع، الجثث ستؤدي إلى الوباء، والبقاء هنا لا جدوى منه.

نظر إليه قائده وقال في حسرة: مولاي، كان حلمك دخول القاهرة!

- ولم يحدث. هيا بنا نعود إلى الساحل ومنه إلى طريق عسقلان، ومن هناك إلى بيت المقدس.

- مولاي.. سيقولون انهزم ملك الفرنجة.

- لا يعنيني ما سيقولون.

- سيقولون انهزم بلا جيش. انهزم من سكان المدينة وهذا..

قاطعه: جيش نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه يوسف بن أيوب في الطريق إلى مصر. قل لهم ملك الفرنجة رحل حتى لا يدخل في حرب أخرى مع نور الدين.

- ولكن نور الدين لم يأت بعد. لو دخلنا القاهرة قبل مجيئه..

قال في حسم: وهذا مستحيل.

- كيف لأعتى الجيوش أن..

قاطعه: لملم أغراضك وجنودك يا قائد، هذه حرب قد انتهت.

قبل أن يرحل الجيش ضرب المجانيق على الباب في قوة، ثم ألقى كرات النار على خيام المقاتلين وراء الباب. سمع دوى انفجار النار حوله، التفت ثم هرول إلى باب خيمتها تاركًا كل شيء. صاح بأعلى صوته وهو ينادي اسمها. كانت تترقب وهي ترتجف من نافذة الخيمة. ما إن رآها حتى جذبها واحتضنها، ودقات قلبه على مسمع منها. اندهشت من تلقائيته. طوقت عنقه ثم قالت: أنا بخير.

خلجات جسده لمست الفؤاد. قالت في رقة: أتخاف عليَّ يا إبراهيم؟

ابتعد وهو عابس الوجه ثم قال: أريدك أن تبتعدي عن هنا، وأخاف أن أتركك بعيدًا عن عيني، ماذا أفعل؟

قالت في يقين: الفرنجة سيرحلون. هذه سجية منهزم.

قال في توعد: رشيدة..

- اصبر.

- من الأفضل أن تتركي الخيمة.

- اصبر.. بعض الشيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تنفس إبراهيم في ارتياح وهي بين ذراعيه وابتسم. صلاح الدين يوسف بن أيوب أقسم ألا يعود إلى مصر، ثم أرغمه نور الدين وعمه شيركوه على العودة. لا بد أن يصوم ثلاثة أيام. جاء بعد يأس الفرنجة من دخول مصر. جاء وجيش الفرنجة في طريق العودة من حيث جاء. لا، لن يشهد على موت بطيء هذه المرة، ولا على عجز إلا على عجز الطامعين وهزيمتهم. إبراهيم أكثر الناس معرفة بمعنى الهزيمة. يظن الناس أن النصر هو قتل العدو، وأخذ أرضه وسبي نسائه. لا.. النصر هو إدراك العدو لعجزه، ومعرفته بقدره الضئيل مهما أخذ من سبايا ومهما احتل من أراضٍ. عجز الفرنجة ويئسوا، وهذا ما كان ينبغي. لن تكون آخر مرة. طالما الأرض بها الكنز والسحر، سيأتي الفرنجة مرة أخرى. وفي كل مرة لا بد أن يدركوا حجم العجز سواء استقروا أو رحلوا. آه يا بن أيوب.. تنتظرك أيام عصيبة وابتلاءات عظيمة!

قال لزوجته: أليس من الغريب أن يبني الصقلي سور البرقية، ثم يزيد عليه الأرمني ويبني سورًا أكبر من الحجر، ثم يأتي الكردي إلى مصر ليجد أن السور قد حمى ومنع الأعداء فيزيد عليه ويعضده؟

- عم تتكلم يا إبراهيم؟ عن يوسف؟

- عن يوسف.

- يوسف جاء مع عمه، لا جند له ولا حيلة. هو أصغر القواد وأقلهم طمعًا.

- هي دنيا لا تعطي إلا من لا يتوقع ولا يريد.

- والوزير شاور؟

- إنما الأعمال بالنيات.

- ما بال الكردي وباب البرقية؟

- لا بد أن يفكر فيه عندما يملك القدرة والنفوذ.

- يا إبراهيم، كيف للكردي أن يحكم الجنود الأتراك والعرب؟

- كلنا سواسية أمام الله. لا كردي ولا صقلي ولا أرمني. هو طمي الأرض الذي يتغير لونه عبر المواسم، ولكنه ينبت الأزهار نفسها حتى لو اختلفت ألوانها، ويجاور المياه العذبة نفسها حتى لو تفاوتت حرارتها. لا نحن نعرف قدرة يوسف، ولا القدر أعطاه ما يستحق بعد.

- تُحبه يا إبراهيم؟

- أعرفه.. بيننا صداقة طويلة صاحبها الموت والحزن.

- اذهب إليه وأعطه هدية.

اعتدل في جلسته ونظر إليها وهو لا يفهم ما تريد. فقالت في حماس: أعطه زبيدة هدية مني له.

- ما الذي تقولين؟ لقد زهد في الدنيا ولبس الصوف وتوقف عن الشراب..

- هذا ما أحلَّ الله يا بن عمي. ليس للزاهد أن يُحرم ما أحلَّ الله. هي جاريتي وأريد أن أعطيها له هدية. ربما يُطلق سراحها، ربما يعطيها لزوجته تخدمها، فليفعل بها ما يشاء.

أطال نظره إليها ثم قال: أنت خبيثة. لا أثق بك.

- هل أغرقتك من قبل؟

- أي عقل لديك! ماذا تريدين؟

- هي تعشقه. قربها منه رحمة حتى ولو رأته كل عام. مجرد بقائها في بيته يفرحها.

- وأنت تقربين القلوب، وتتعاطفين مع العشاق؟

- هي مثل الأخت. وأنا أعرف معنى العشق البائس.

أطرق برهة، ثم قال في حسم: لك ما تريدين. سآخذها معي عندما أزوره وأعطيها له هدية.

لم تتمالك زبيدة نفسها، انحنت، ولثمت قدم رشيدة والدموع تنهمر، فرفعتها رشيدة، وقالت في جدة: هيا جهزي نفسك للخروج مع إبراهيم.

خلع الخليفة على شيركوه عم يوسف بن أيوب وأعطاه الوزراة، فأصبح لمصر وزيران؛ شاور وشيركوه. لم يعترض شاور بل رحب بشيركوه ترحيب من كان ينتظر الفرج بعد الشدة. ودعاه هو ويوسف وبعض القواد إلى مأدبة عشاء في بيته في القاهرة. أخرج الرجال يذيعون خبر قدوم جيش نور الدين المنقذ وقواده الشجعان. بدا أنه يفكر في حرص، ويعرف أن بقاءه يعتمد اليوم على نور الدين وحمايته. تقبل الوزير شاور الشراكة على ألا يفقد ملكه كله، فليشاركه فيه شيركوه بجيشه القوي. أما الجيش الفاطمي فبعضه قد ثار على بعضه. لا ولاء لهم اليوم. هذا الجيش الذي طالما فتح البلاد والموانئ لم يعد يستطيع أن يمنع غزو الفرنجة، ولا حتى يحمي عاصمة بني عبيد. يحتاج شاور إلى رجال شيركوه. قال له ابنه الكامل: أبي، تصرفت بعقل وحكمة.

- والدك دومًا يتصرف بعقل وحكمة يا ولد.

- مولاي يعرف أين يكمن الخطر.

- مولاك وأبوك دومًا يعرف أين يكمن الخطر. أريد الترحيب بقواد نورالدين اليوم. أريد لشيركوه أن يشعر أن مصر هي بلاده. في وجوده أمان لنا.

- كنت أعرف أن الفرنجة لا أمان لهم. لا يحمون يا أبي.

قال شاور في استسلام: اليوم أعرف أنا أيضًا. ها هم قد ذهبوا بكل حاميتهم.

كانت عينا زبيدة تبحثان عنه.. ما إن رأته حتى رمشت في عصبية وأغمضت عينيها برهة، ثم فتحتهما وهي تستمع إلى كلمات إبراهيم ليوسف بن أيوب صلاح الدين؛ الرجل الذي عشقته، وهي

تعرف أنها لا يمكن أن تفوز به. تبادلا السلام. أخبره يوسف بكل الأنباء، ثم قرب إبراهيم زبيدة وقال في بعض التردد: اعذرني يا أخي. أحيانًا يتصرف النساء بعفوية وعدم اكتراث، ولكن زوجتي أصرت على أن أعطيك هذه الجارية هدية منها.

ثم أمر زبيدة أن تخلع خمارها، ففعلت، وعيناها تتضرعان له أن يقبلها. نظر إليه برهة ثم قال في هدوء: هذه زبيدة، أليس كذلك؟

بلعت ريقها وارتجفت ثم انحنت وقبلت يده قائلة: جاريتك لو قبلتني.

أبعدها في رفق وأمسك بيدها ليرفعها ثم قال: أتذكرك.

ثم ابتسم لإبراهيم وقال: هدية زوجتك مقبولة.

كاد قلبها يقفز من بين الأضلع. انحنت وغطت وجهها كأنها تبكي، فنظر إليها في دهشة وقال: أتفضلين العودة إلى سيدتك؟ لو كنت تفضلين هذا أعيدك إليها أو أطلق سراحك الآن. أخبريني ماذا...

قاطعته وهمست في صوت سمعه: بل يكاد قلبي يتوقف من الفرح. لم أنل أي شيء تمنيته. ها أنا أنال شرفًا لا أستحقه. أبقني حولك يا مولاي لا أكثر. أخدم زوجتك.

بدت في نظرته دهشة ممزوجة بحنان ربما، ثم تمالك نفسه ونظر إلى إبراهيم في حدة وقال: اليوم نذهب إلى شاور، هل تريد أن تصاحبنا؟ لديك معه قصة وثأر، ولكن هكذا الدنيا يا إبراهيم، يعذب بعضنا بعضًا ثم نجلس لنتناول غداءنا معًا. بعضنا يحمل هم موت الأخ، والبعض لا يكترث سوى بالغنائم. هيا تعال معنا، فلك عند شاور حق.

بقي إبراهيم ساكنًا برهة ثم قال: هل لي أن أقابل شاور؟ أريد لقاءه وحدي. هل تستطيع يا مولاي أن تنظم لي هذا اللقاء؟ أكون ممتنًّا لك بقية عمري.

- لا أفهم ما تعني.

- اليوم العشاء معه. لو تركتني أتقابل معه قبلها فسأكون ممتنًّا لك. تبعث معي حارسًا إليه وتخبره أنك تبارك هذا اللقاء.

- ولِمَ تريد لقاءه وحدك؟

- هذا بيني وبينه يا مولاي. هذا اللقاء هديتك لي.

- لك ما تريد يا إبراهيم. لك ما تريد. اذهب إليه اليوم مع الحارس.

بعد أن فتشه حراس شاور، سمحوا له بالدخول على الوزير. جلس الوزير ينظر إلى إبراهيم في بعض الاحتقار وبعض الكره، فقال إبراهيم: مولاي، جئت أبارك لك على خروج الفرنجة من مصر.

لم يُجب شاور، فالتفت إبراهيم حوله ثم قال: ترى أما زلت تعتقد أنك أمير الجيوش يا وزير؟

نظر إليه شاور في غضب ثم قال: لو أمرت حراسي لقتلوك الآن. كل الجيش تحت إمرتي. ابني حسابه معي لأنه لم يقتلك.

قال إبراهيم: مُر حراسك أن يتركونا وحدنا. أمير الجيوش لا يحتاج إلى حماية أحد.

- يا عبد...

- بل قل يا مصري.

- لا خوف في قلب الوزير.

رفع يده يأمر الحراس بالخروج.

ثم اقترب من إبراهيم وقال: يومًا سلخت جلدك، وأنقذك كامل مني.

ثم قبض يده ولكم إبراهيم في فكه بكل قوته وقال: لم يزل شاور أمير الجيوش. بيدي كل الجيش الفاطمي. لا أحد يستطيع خلعي ولا إيذائي. حتى لو كنت تدربت مع الفدائيين في قلعة الموت يا إبراهيم. أعرف عنك كل شيء.

اقترب منه إبراهيم ثم كتم فمه بيده وضرب رأسه بالأرض في قوة وسرعة. خرجت من الوزير تأوهات مكتومة. ولكن إبراهيم استمر في ضرب رأسه وهو يقول: من يريد تقليد بدر الجمالي لا بد أن يكون بعظمته يا شاور. أنا أعرفك حتى ولو لم يعرفك أحد. أنا أعرف نواياك حتى وإن لم يعرفها ابنك الذي من صلبك. أتعرف لماذا؟ لأني تعذبت على يديك فأصبح قلبك في قبضتي. أتعرف أن من يتعذب على يد رجل؛ يمتلكه كما امتلك هابيل قلب أخيه قابيل وأصابه بالعجز؟ استمع إليَّ وأنت تحتضر.. هل تسمعني؟

أغمض شاور عينيه وراح في عالم غير العالم. استمر إبراهيم في ضرب رأسه بالأرض حتى دخل عليه الحراس وأمسكوا به. بعضهم قرر قتله في الحال، والبعض قرر تأجيل القتل لحين سؤال الخليفة. أغمض عينيه، تذكر جوهر بن حسين الصقلي، قلده اليوم. أراد أن يكون بشجاعة جده، ولكنه لا يدري لو كان سينتهي به الأمر بالموت أم لا.

اليوم العشاء.. اليوم.. تفحص الجنود قائدهم، كان قد فارق الحياة. دفعوا بإبراهيم إلى الأرض، وضربوه حتى فقد الوعي ولكن لم يقتلوه. هذه أيام تستحق الحذر. لا أحد يعرف أين الولاء ولا من سيحكم غدًا.

انزعج صلاح الدين من الخبر. ارتبكت كل الخطط. لا عشاء اليوم. أراد مقابلة إبراهيم بأقصى سرعة. لا بد أنه فقد عقله. موته حتمي. حتى الخليفة صمت عند سماع الخبر. ربما يفكر في طريقة التخلص من قاتل شاور. أما الكامل فجُنَّ جنونه على قاتل أبيه وخاطف حبيبته. أراد قتله على الفور ولم يستمع الجنود لكلماته. هرع إلى رشيدة بجنوده ولكنه لم يجدها. سافرت إلى الإسكندرية كما طلب منها زوجها، وكما فعل جده يومًا بزوجته. لا بأس سيسافر وراءها. ولكن بعد أن يتخلص من زوجها القاتل الخائن.

هُرع صلاح الدين إلى مقابلة إبراهيم في سجنه. لامه وزجره. استمع إبراهيم في صمت. نظر صلاح الدين إلى أثر اللكمات والضرب على كل جسده ثم قال: كيف لي أن أمنع قتلك لو قرر الخليفة العاضد هذا؟ أخبرني يا أخي؟

قال إبراهيم في هدوء: أنقذت حياتك اليوم.

- ماذا تقول؟

- أقول إني أنقذت حياتك يا يوسف.

- هل فقدت عقلك؟

- شاور يرى في جدي مثالًا للقوة.

- بدرًا الجمالي تقصد.

- أقصد بدرًا الجمالي الأرمني أمير الجيوش.

- بدأتَ تهذي. الضرب أثر على عقلك. هل ضربوك على رأسك؟

- بدر الجمالي ليس عدوك يا يوسف، هو قائد عظيم.

- هو قائد عظيم، هذا لا شك فيه.

- وشاور كان يتوق إلى عظمته. أطلق على نفسه لقب أمير الجيوش. ولكن كيف للضئيل أن يتوق إلى العظمة؟! وكيف للحقير أن يطمح فيما في يد الكريم؟!

- هل ستفتخر بجدك بقية اليوم!

- في الماضي عندما حضر بدر الجمالي إلى مصر، جهز عشاءً كبيرًا للقواد الترك كلهم، ثم قضى عليهم بعد العشاء.

أطال يوسف نظره إليه وقد بدأ يفهم.

- هل كنت تشك في نوايا شاور؟

- لا شك لدي بل يقين. شاور يا مولاي أراد أن يقتلكم جميعًا في هذا العشاء وأثناء تلك الوليمة. يريد أن يحتذي حذو بدر الجمالي، ولكنه كالحمار يحمل أسفارًا؛ لا فهم بدرًا الجمالي، ولا عرف أغراضه.

- أي إثبات لديك لتلك الشكوك؟

- لا أحتاج إلى إثبات.

- بل إن بعض الظن إثم.

- تُرى.. هل صدقت حقًّا أن شاور يطمئن إلى وجودك، وأنه عدو للفرنجة؟

- يا إبراهيم..

- لدي صديق في جنود شاور.

- جاسوس؟

- بل صديق سهَّل لي قتله أمس. أخبرني برسالة بعثها شاور لملك الفرنج عموري.

- أي رسالة؟

- رسالة تطلب من ملك الفرنج أن يدخل مصر عن طريق دمياط. الوزير شاور يا يوسف طلب من الفرنجة أن يدخلوا مصر، ووعد أن يسهل لهم الدخول على أن يحكمها معهم. هذا هو من دعاك للعشاء يا كردي. لو أخبرتك فربما كنت ستقتله فيقتلك جيشه، أو يلومك عمك أو الخليفة، ولكن إبراهيم رجل مصري حلواني، ربما يظنون أن الثأر هو سبب القتل لا أكثر.

نظر إليه يوسف بن أيوب في فزع ثم قام بلا كلمة. ذهب إلى عمه ثم إلى الخليفة الفاطمي العاضد. تحقق من الرسالة ومحتواها، ثم أمر بالإفراج عن إبراهيم. أنقذ حياته وأنقذ مصر في شجاعة لا مثيل لها. فلو أخبره قبل ذلك فربما كان شاور سيهرب أو يستعين بالفرنج. ولكنه جازف بحياته من أجل إنقاذ يوسف أو من أجل مصر.. ربما من أجل مصر. أمر الخليفة العاضد بقتل الكامل أيضًا. لا يريد لنسل شاور أي أثر في مصر، ثم جعل من أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين وزيرًا لمصر؛ وزير السيف والقلم.

الغريب أن إبراهيم طلب أن يقوم هو بنفسه بقتل الكامل. قال لصلاح الدين يوسف بن أيوب إن الكامل قد حاول قتله من قبل، فهو يريد الثأر لنفسه. وافق صلاح الدين على أن يتولى إبراهيم بنفسه قتل الكامل.

دخل عليه إبراهيم في سجنه. جلس أمامه ثم قال في هدوء: اخرج من هنا. الفرس ينتظرك ليأخذك إلى الشام، ومنها إلى أي بلد تريد.

فتح الكامل فمه في ذهول، فقال إبراهيم: أنقذت حياتي يومًا.

- ترد الجميل؟!

- أرد الجميل.

- وماذا عن ادعاء جواد بأني أردت قتلك؟

- لم أصدقه. أنت لا تخون، أنت عمل طيب لرجل شرير. اذهب في سلام.

- الخليفة سيعاقبك.

- سآتي له بدم كاذب وأقول إني ذبحتك ثم دفنتك. اهرب.

- أنت...

- أنا رجل وأنت رجل.. لم تؤذني، فلِمَ أوذيك؟

- رشيدة..

- كان بيدك أن ترغمها في غيابي ولم تفعل. قلت لك: أنت عمل طيب. اذهب قبل فوات الأوان. سيقولون: الكامل مات.

- لو كنت تعرف براءتي فلِمَ لم تدافع عني أمام الخليفة؟

- لأن وقت الحروب والخيانة لا يستمع أحد. من الأسهل والأكثر أمانًا أن أُهربك.

خرج الكامل، وذبح إبراهيم الشاة ووضع الدماء في أركان السجن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاد إبراهيم إلى الإسكندرية حيث ترك زوجته وأخته كاملة وزوجها سفيان، وزوجة أخيه نفيسة، وأمه وأم رشيدة. عاد وهو قد عزم أمره على إعادة بناء دكاكين الحلوى في الإسكندرية أولًا، ثم الفسطاط، ثم القاهرة.

رشيدة تنتظر أحضانه كل ليلة، ولا تسكن إلا على صدره، ولكنها تعرف دومًا، تعرف أن زوجها وابن عمها لا يثق فيها حتى لو اشتهاها وأحبها، وأنه يرى في ماضيها مكرًا وخبثًا وتملصًا ومجازفة. لم تكن تتصور أنها ستهتم برأيه هو. لا يشغلها سوى الهدف والوصول إليه. كانت تريده، تعشقه، ولا تعرف غيره، وحصلت عليه، وامتلكته، أو شُبِّه لها، ولكن المرأة لا تمتلك رجلًا لا يثق فيها. عبس وجهها.. وانتظرته، وبعد أن عاد، وانصهرا في ضرام نيران الوهج استقر رأسها على صدره فقال: ماذا بك؟ عقلك ليس معي.

قبلت صدره ومررت بيدها على قلبه لتشعر بنبضات القلب وقالت: هل تثق فيَّ يا إبراهيم؟ أعني أعطيتني كل شيء قبل أن ترحل. هل كانت مجازفة شجاع أم ثقة بي؟

لم يُجب، أزعجها أنه لم يجب، فقالت في إلحاح: لا بد للزوج أن يثق في زوجته. قلتَ إنني أشجع امرأة رأتها عيني.. قلتَ هذا..

فقال وهو يمسك بيدها ويقبل أصابعها: وأنت يا رشيدة هل تثقين فيَّ؟

قالت بلا تفكير: بالطبع.

- تكذبين، طوال الوقت تترقبين، تفكرين فيما سأفعل، وأعرف أنك تخبئين عني بعض الأشياء.

بلعت ريقها ثم قالت: كلامك يزعجني.

-لأنه صحيح.

- كنت أتمنى أن يفضي بعضنا إلى بعض.

- هذا ما تمنيت أنا أيضًا. أنت ذكية ولكنك لا تتفوقين عليَّ بالذكاء، تذكري هذا.

قالت في مرارة: أخاف، نعم، بعض الشيء لأنك في الماضي...

قاطعها وهو يعتدل في جلسته: في الماضي.. نعم.. الماضي يجعل الثقة صعبة، أليس كذلك؟

كأنه حاصرها في خندق لا خروج منه. قالت في حيرة: من أين نبدأ؟

نظر إليها وقال: ماذا تبغين؟ لو كنت تبغين الثقة فهي تحتاج لكفين ولي كف واحدة. كفِّي وكفُّك. ولو كنت تبغين السيطرة عليَّ فهذا لن يحدث. مالك لك يا رشيدة، ومالي لي.

قالت مسرعة: نتشارك في كل شيء.

- ومنذ متى تتشارك النساء مع الرجال في كل شيء؟

قالت في غضب: ليس كل النساء سواء. أريد أن أعود إلى العمل في الدكاكين معك في الإسكندرية أو القاهرة.

كانت حاملًا في شهرها الخامس.. فقال مسرعًا: هل جننت؟

قالت: بعد الولادة بالطبع وبعد فترة. أمي وأمك معنا ترعيان طفلنا.

بقي صامتًا فقالت في حماس: ستكون معي.. سأعمل معك فقط.. أُشرف على صناعة الحلوى. فعلت من قبل ونجحت، ولو لم يحرق شاور الفسطاط...

قاطعها في حسم: لن يحدث.

أطبقت شفتيها ثم قامت ونظرت إليه وقالت في هدوء وفتور: لأنك لا ترى سوى نفسك. دومًا لا تستمع إلا إلى نفسك. أعطيتني كل شيء مجازفة وليس ثقة. إبراهيم يعرف كل شيء. إبراهيم فقط من يقرر أي شيء. إبراهيم دومًا على صواب. ولكنني لن أسلم لك يا بن عمي ولن أرضخ كما رضخ الباقون.

أطرق برهة ثم قال: هذه ليست حربًا يا رشيدة. الحياة مشاركة.

قالت وهي تجلس أمامه: ولكنها ليست مشاركة بالنسبة إليك. هو قرار واحد يأتي منك. لو أعطيتني فرصة..

قال في حسم: أموالك لك لن أمسها.

- أنا لا أتكلم عن المال يا بن العم. بل عن القلب، اتركني أسبر أغواره وأرعى فيه عشقي.

- تحسنين الكلام.

أمسكت بيده وقبلتها ثم قالت: اجعلني أعمل معك. حسين سيعمل معك، أليس كذلك؟ ما رأيك لو عملت معه في الدكان الجديد الذي ستفتتحه في الإسكندرية وأصبحت أنت المسئول عن الدكان القديم؟ سأعمل مع أخيك وليس وحدي.

قال في تردد: سأفكر في الأمر.

قالت في يأس: لا تبتعد عني بقلبك.. تعرف أني أحبك.

- أعرف. ولا أعرف ما الحب بالنسبة إليك.

- أنت.. أنت كل ما أبغي..

- أنا لست سلعة تدخرين المال لشرائها.

نظرت حولها ثم اتجهت إلى ذراعيه واحتضنته وقالت: حسنًا، أخبئ عنك شيئًا.

ابتسم، ثم قال: وأنا أيضًا.

- أخبرني وأخبرك.

- بل أخبريني وأخبرك.

- نتكلم معًا.

ولكن عم الصمت.

ضحك قائلًا: هاتي كفك.. تعالي ننتظر حتى تتوغل الثقة بين الدماء، تحتاج إلى وقت.

وافق أن تذهب ثلاثة أيام في الأسبوع إلى دكان الحلوى الجديد مع حسين، لم يملكوا غير القليل من المال، أصبح بيع الحلوى هو الذي يقيم البيت والدكان الجديد. ولكن حسينًا لم تستهوه صناعة الحلوى قط ولا العمل في الدكان. كان يترك العمل ويهيم في الطرقات يبحث عما يريد. وكانت رشيدة تخبئ هذا عن زوجها لأنه لو عرف أنها هي المسئول وحدها في الدكان، فربما يعاقب حسينًا، وربما يمنعها من الذهاب.

اليوم عاد زوجها وأجلسها بجانبه وحكى لها كالصديق. ابتسمت في فخر وبعض الأمل.

قال إبراهيم: الخليفة العاضد اتخذ صلاح الدين وزيرًا بعد موت عمه شيركوه. أطلق عليه الخليفة العاضد «الملك الناصر».

نظرت رشيدة إلى زوجها تنتظر المزيد وهي تُرضع ابنتها. حكى لها في صبر أن شيركوه بعد أن تقلد وزارة السيف والقلم بثلاثة أشهر وافته المنية، ففكر الخليفة العاضد في أن يولي أحد القواد الترك الوزارة، أو يولي أحد قواد الشام الآتين مع جيش شيركوه. جاءه الكاتب بثلاثة أسماء. أطرق الخليفة برهة ثم اتخذ قرارًا مفاجئًا بتعيين وزير مختلف. يريد رجلًا ضعيف الشوكة، زاهدًا في الملك، صغير السن، بلا رجال حوله، ولا جيش تحت إمرته. يريد رجلًا يستطيع الخليفة أن يأمره، ويستعيد معه ملك آبائه بعد أن تلاشى من يد الخلفاء للوزراء منذ أن أخذ بدر الجمالي وزارة السيف والقلم. هناك شاب يصاحب عمه لم يبلغ الثلاثين بعد. لا قواد تطيعه ولا جنود تحت سيطرته. هو كردي؛ فلا العرب تستمع إليه، ولا جنود الترك تثق في قدراته مع الرمح والفرس. صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب الدُّويني. وافق صلاح الدين على الفور، وأطلق عليه الخليفة العاضد «الملك الناصر».

قالت رشيدة وهي تنظر إلى عينيه: صلاح الدين ليس سهلًا يا إبراهيم، ولا صاحب شوكة هشة. ما أشد صلابة الزاهد الذي تعلم من الجيلاني! وما أشرس من يملك الحُلم والغاية! الخليفة لا يعرف أي قلب اختار ولا أي نفس أعطاها ملكه ورمى عليها بألقاب النصر.

- يوسف بن أيوب صلاح الدين رجل أمين.

- لا أتكلم عن الأمانة، بل عن الحُلم والغاية.

- نحتاج إلى رجل يعيد الأمان إلى الطرقات لنبدأ من جديد.

- نبدأ من أين يا بن عمي؟

- من حيث انتهينا يا رشيدة. يومًا سأخبرك.

- بِمَ ستخبرني؟

- بما حدث في الماضي.

- ولِمَ لا تخبرني اليوم؟

- لم يحن الوقت بعد. نحن بين دولتين، وعصرين، وحربين، وراحتي غول يريد أن يلقي بنا إلى النار.

- ألم يمت الغول؟

- بل مات صبيه.

- أريدك أن تعرف أنني أنقذت بعض المال والذهب من الحرائق.

- أعرف.

- كيف تعرف؟

- أعرفك. ولكننا لن نتكلم عن هذا الآن. سنبني ما تهدم بحرص. أتعرفين ما هو أول قرار اتخذه الملك الناصر صلاح الدين؟

- ما هو؟

- فتح القاهرة للعامة.

- لأهل مصر من الفقراء؟!

- لكل أهل مصر. أبواب القاهرة مفتوحة للغوغاء، والفقراء، والصوفيين، حتى المجاذيب.

- خيرًا ما فعل.

- لم يستشر الخليفة في هذا القرار يا رشيدة.

التقت أعينهما، فهمت ما يريد أن يقول، ثم قالت: يفعل الله الخير لنا ولمصر.

بعد بضعة أشهر عرف إبراهيم بحال حسين. غضب وثار وعاد إلى البيت وأتى بأخيه وزوجته وتكلم معهما في حدة وتهديد. طأطأ حسين رأسه ثم قالت رشيدة: ربما لو أعطيتنا فرصة لا نكذب.

فقال في حنق: الكذب في دمك، كيف تنسين ما تعودت عليه؟!

بلعت ريقها ثم دخلت حجرتها وأغلقت الباب، فقال حسين: رشيدة ليست المسئولة عن هذا يا أخي. أنا قد اتخذت قراري.

- بدون استشارتي؟!

قال حسين في حسم: نعم، بدون استشارتك يا أخي. بل هما قراران؛ الأول هو أنني لا أريد أن أكون حلوانيًّا. بدأت في تعلم علوم الطب.

قال إبراهيم في تحدٍّ: والثاني؟

- سأتزوج من نفيسة زوجة أخي. ليس للأغراب أن يربوا لحمنا. لو لم أفعل فسيتزوجها غريب.

نظر إليه إبراهيم برهة، ثم قال: هل تريدها؟

بقي حسين صامتًا.

فقال إبراهيم: هذه تضحية كبيرة.

- يستحقها أخونا يا إبراهيم، يستحق أن نرعى زوجته وأولاده.

ساد الصمت برهة ثم قال إبراهيم: ربما كنت أفضل مني على كل حال. افعل ما يحلو لك، أبارك كل أفعالك.

نظر إليه حسين، ثم قال: أنا أفضل منك كيف؟!

فقال إبراهيم: أقسم أنك أفضل مني، وأعرف أنك تقوم بواجبك، وأنك في أعماقك لا تريد نفيسة. ربما لم أكن أستطيع أن أكون بهذا العطاء.

التقت أعينهما وغمرتهما راحة كتلك الراحة التي كانا يشعران بها وهما يلعبان معًا، ويبحثان عن المحار واللؤلؤ في قاع البحر، ثم خرج حسين.

فتح الباب على زوجته، أغمضت عينيها وغطت وجهها وادعت النوم. أزاح الغطاء ثم قال وهو لم يعتد أن يعتذر ولا يندم: رشيدة.. كذبت عليَّ!

لم تفتح عينيها.

هزها بيديه ثم قال: أعرف أنك مستيقظة.

قالت في جفاء: إذن تعرف أني أفضِّل ألا أتكلم.

حملها واحتضنها وقبَّل وجنتها ثم قال في تردد: ربما كنت قاسيًا بعض الشيء. لم أقصد قولي إنك تكذبين طوال الوقت. أعرف كم تعملين، وكيف تبذلين أقصى جهد من أجل هذه العائلة، وأقدر هذا.

أبعدته ثم قالت في مرارة: هي الثقة ما ينقصنا. وربما ستنقصنا للأبد.

قال وهو يشد يدها: لا. أريد أن أخبرك بقرار جديد.

قالت وهي تدير وجهها: لا أريد أن أعرف.

طوق ظهرها ثم قبل شعرها فخافت أن يستسلم الجسد وينبض بالحنين. قَبَّل رقبتها في بطء ثم قال: كيف أشتاق إليك كل يوم.. وكل ساعة.. ولا أرتوي قط؟

قالت وهي تحاول أن تذكر نفسها بسبب حزنها: كنا نتكلم عن الثقة.

قال وكأنه لا يسمعها وقبلاته تغرق كتفها: لا أتذكر. تعالي إليَّ.

جذبها إليه وقبل شفتيها في لهفة فهمست: إبراهيم، الثقة.

ولكنها ذابت من لمساته وقبلاته. دارت حول نفسها ولم تعد تعرف أين الدرب. بعد الكثير من الوقت وهي تنام على صدره قالت: لم أغفر لك.

أمسك بيدها وقبلها وهو مغمض العينين، ثم قال: غضبك أجمل من مغفرتك.

- كنت تقول إنك اتخذت قرارًا...

قال وهو لم يزل يقبل يدها: لو تقبلين قراري.. أن تديري وحدك الدكان الجديد..

قبل أن يكمل قفزت على مخدعها من فرحة تمتد إلى ما وراء البحر، ثم طوقت رقبته وصاحت: أقبل وأحبك.

- وتخنقينني..!

- لأني أحبك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استدعاه صلاح الدين فجأة وطلب منه طلبًا لم يتوقعه. قال: إنه يريد أن يزور ساحرة الهرم. سمع عن سحر القدماء. لا يصدقه ويعرف أن كل شيء بيد الله، ولكنه حلم بها وكأنها تطلب مقابلته. أخذه إبراهيم إلى بحنس متنكرًا.

دخل عليها يوسف بن أيوب، نظر إلى عينيها الكبيرتين وتسمَّر مكانه.

قالت بحنس: أهلًا ومرحبًا بالكردي.. قدِّم التحية للملوك القدماء.

- يا أختاه.. هؤلاء..

- أنت أعلم من أن تحكم عليهم، وأعدل من أن تدعي أنك تعرف الغيب، ولن تقسم الكفر والإيمان لأنك تعلمت من شيخك أن تسيطر على نفسك وكفى.

- أنت تعرفين شيخي؟

- أعرفك وأعرف عنك كل شيء.

- أنت ساحرة بحق.

- هكذا يطلقون على من تعلم! مع أن العلم أمامنا، ولكننا نغلق قلوبنا عنه. قدم التحية لأتكلم معك، واشكرهم على المحافظة على الأرض والذهب.

قال في صوت هادئ: السلام على من حارب مِن أجل هذه الأرض، والشكر على المحافظة على الأرض والذهب.

ابتسمت ونظرت إليه بعينيها السوداوين، فارتجف دون قصد فقالت: اجعل عشقك صافيًا وغايتك نُصب عينيك.

قال في تلعثم: كلماتك..

- يا يوسف.. الجيلاني غير أي شيخ. يفرق بين الحق والباطل، الخير والشر. هذه أرض لا تجعل ملوك الأرض طوائف، فقد جادت على المسيحي والمسلم واليهودي، والذي عبد ربه بطريقته، وعلى قدر علمه، والذي حاول أن يعدل وسط الظلم. اعدل فتتجلى لك كما العروس، وإن ظلمت أو طمعت رأيتَ منها نفور الملائكة من الشياطين.

- جئت أخبرك.. أني عاجز.

- على قدر قدرتك يأتي ابتلاؤك.

- عرفت أن باعي قصير، والهمَّ كالشمس يتخطى السماء ليصل إلى أعلى كوكب، فلا أنا قادر على أن أصارعه ولا أنا قادر على أن أتجاهله، أرشديني إذن..

- أدركت عجزك يا رجل فنجوت. وعرفت مقدار قصرك فامتدت ذراعاك إلى ما بعد الأقمار. أنت مُكلَّف، والـمُكلَّف لا خيرة له، لو استسلم يفشل، ولو تردد يتوه بين أطناب الخيام كما الطفل الذي تعلم المشي أمس. هل تفهم كلمات شيخك الجيلاني؟

- كيف تعرفينه؟

- هو مني وأنا منه.

- حسبتك تعرفين سحر القدماء

- وأعرف سحر كلمات العقلاء أيضًا.

- يا ساحرة..

- قل يا بحنس، فقد أصبحنا عشرة وأهلًا. من هنا تنطلق إلى ما كُلِّفت به.. اليوم يا يوسف لا تحافظ على الأرض والكنز هنا فقط، بل تمتد بسيفك لتحيط بلادًا كثيرة.. وإياك أن تظن أنك تنقذ المسلمين.. الفرنجة تذبح من؟

- كل البشر.

- أنت جئت لتساعد البشر أجمعين. من يدفع الظلم يرتقِ، ومن يدافع عن الطامعين يَزُلْ أثره من على وجه الأرض. هنا البداية.. من هنا تتوغل بجناحيك إلى حيث الظلم والطمع. وتذكر أنك جئت لتجمع ما فرقته الأطماع والضغائن. الأجداد علمونا أن الوحدة بين الناس قوة. لولا وحدة الشمال والجنوب ما كانت مصر. الشمال والجنوب يا يوسف والشرق والغرب. الدنيا تنتظرك.. أنت تبدأ، وغيرك يُكمل.. هي دنيا نتناوب العيش فيها، منا من يترك أثرًا، ومنا من يهلك بلا حبيب ولا عمل صالح. ومن يترك الأثر يبقَ في ذاكرة الأحجار وطمي الأرض، وجدران الهرم.

نظر إبراهيم إلى حسين أخيه في ترقب. هذه الجمعة غير كل جمعة. الخليفة العاضد على فراش الموت. ونور الدين لا يثق في صلاح الدين. يخاف أن يستأثر بمصر. ألح عليه أن يجعل الخطبة للخليفة العباسي، وأن يذكر فيها الخلفاء الراشدين، ويعيد الآذان إلى ما كان عليه. ألح في الطلب. استجاب صلاح الدين، وخطب الشيخ الأجنبي القادم من بلاد بعيدة، شمس الدين محمد بن أبي القضاء بصوت أجشَّ ودعا للخليفة العباسي. لا ثار أهل مصر ولا فرحوا. تقبلوا الأمر في لامبالاة. سيرة صلاح الدين طيبة، لا طمع في قلبه ولا حقد يسيطر عليه. يخشع عند الظلم ويفتح قلبه للفقير الضعيف. يومًا خاف على أهل الإسكندرية من بطش الوزير شاور، ويومًا آخر أسقط عن أهل بلبيس دفع الضرائب مدة أربعين عامًا بعد أن رأوا الموت والذل على يد الفرنجة. هدفه نُصب عينيه أن يتغلب على الظلم. يستبدل دولة مكان دولة، وخليفة مكان خليفة، ومصر بين يديه هو، الكردي. يريدها لنفسه لأنها قلب الدولة ودنياها. ها هي دولة الفاطميين، بني عبيد تنتهي..

قال صلاح الدين في صوت قوي للجموع بعد صلاة الجمعة:

أُراني وقومي فرقتنا مذاهب

وإن جمعتنا في الأصول المناسب

غريب وأهلي حيث ما كان ناظري

وحيد وحولي من رجالي عصائب

هكذا قال أبو فراس الحمداني، وهكذا أقول لكم اليوم بعد أن أصبحت الخطبة لخليفة واحد، وهو الخليفة العباسي وأصبحت الجمعة جامعة. وليعلم أهل مصر أن صلاح الدين لا يحكم على البشر من أجل مذهب أو عقيدة ولكن الأيام تحتاج منا إلى أن نتضافر، ونجتمع على كلمة سواء. لله الأمر من قبل ومن بعد.

بعد الانتهاء من الصلاة، سار بوزيره بهاء الدين قراقوش إلى مسجد أحمد بن طولون، سار بين الأروقة وعيناه على العرائس في السماء، ثم قال: فعلتها قبلي يا أحمد، انفردت بمصر، ولكنها أيام غير الأيام، لو تعرف أن همك أخف من همي، وحلمك الذي بدا مستحيلًا حينها كان أقرب إلى التحقيق من حلمي.. لو تعرف أن الفرنجة استقروا معنا، وجاورونا ما يقرب من مائة عام وربما أكثر. كيف لي أن أزحزحٍ قومًا مكثوا قرنًا من الزمن؟ بل أن تأتلف القلوب وتتحد الأبدان لا حيلة لي ولا قوة. يومًا سأنشئ جيشًا ليس ككل الجيوش، به من كل أراضي المسلمين، رجال لا تلهيهم تجارة عن ذكر الله. ولكنها لحظات يا ابن طولون، يعتدل العمر لحظات لا أكثر. لا هذا الجيش سيبقى، ولا العظمة التي يصنعها الملوك سوى حكايات وأساطير يتسلى بها الأطفال ويحلمون مثلنا في دنيا تفرق دومًا وتشعل الفتن. ها يا أحمد.. تُرى أتنظر إليَّ من أعلى، وتضحك على حلمي، أم على طموحي؟ أجبني يا ابن طولون؟

تغير حال مصر، ومذهب الخليفة، وأصاب القلق الحلواني. فحلوى الأعياد اهتم بها واخترعها الفاطميون. تُرى ما مصيرها في عصر صلاح الدين. أصاب إبراهيم الأرق. شعرت به زوجته. هدأت من روعه، ولكنها كانت تعرف أنه على صواب. وعندما تخلى صلاح الدين عن كل الجيش الفاطمي، وترك أفتكين زوج شفيقة بلا عمل أصبح القلق واجبًا.

قالت رشيدة: اذهب إليه وتكلم معه.

فقال في حسم: سيقول إنني أحتاج إليه بعد أن أصبح ملك مصر.

- ولكنك أنقذت حياته مرتين أو أكثر.

لم يُجب. عزمت أمرها ولم تنتظر استشارته. ذهبت لتقابل جاريتها زبيدة مع شفيقة أخت إبراهيم.

القاهرة لم تعد هي القاهرة التي تعرفها رشيدة، كيف للمدن أن تتبدل بين يوم وليلة؟! لا الأبواب تمنع العامة ولا الغوغاء ولا العيارين، تدفق البشر داخل الأسوار المفتوحة ينظرون يمينًا وشمالًا كأنهم دخلوا غفلة من باب الفردوس، يلهثون وراء نباتات الجنة: التفاح والأعناب، ويبحثون عن الحور العين. انطلق العيارون داخل قصور بني عبيد يحملون القوارير والقناديل، ويهرولون بقطع الذهب، وبقايا الكنافة والبسندود، يأكلون ثم يرقصون في حدائق القصور. هنا يسكن الحكام والأغنياء فقط. هنا الأسوار والسحر، وها هي الأيام تدور فتنفتح أمام العامة كل القصور، ويهجرها سكانها.

سيبتلعون كل حلوى الخلفاء، ثم يكنزون المال والفضة، ثم ماذا؟ غدا يعودون عيارين ورعاعًا.. ماذا سيحدث غدًا؟ ترى هل يدخل الفرنجة القاهرة؟ وهل يعدل معهم الملك الناصر؟ ها هو الجامع الأزهر يقف كالأفيال وسط القفر، بلا شيوخ ولا دعاة ولا حتى مصلين. لا تعرف رشيدة لو كانت تفضل هذه القاهرة أو القاهرة التي عرفتها في الماضي. ولكن الماضي لا يعود. قالها الجد الأكبر.. توارثتها الأجيال: «لكل زمن دولة ورجال». بعد أن ينفض العامة من حول القصور، وتطمئن الأرض وتهدأ لا بد من التفكير.. الأيام تغدر وتذل. هذا عرفته في رحلتها. جاءت اليوم لتقابل جاريتها أو من كانت جاريتها.

نظرت إلى جاريتها وهي تُرضع طفلها. كان ذا شعر أسود ووجه مستدير كوالده، وامتزج لونه ما بين الأسمر والأبيض فأصبح كطمي النيل وقت الفيضان، هذا الطمي الأسود الذي يعج بالخير. قالت رشيدة وهي تمد يدها: هل لي أن أحمله؟

فقالت زبيدة وهي تعطيه لها في حرص: بالطبع يا مولاتي.

- مولاتي! لا تسخري مني يا زبيدة. أصبحت أنت السيدة.

- بل أم ولد يا سيدتي.

ابتسمت ثم قالت رشيدة: فزت بالرجل الذي عشقته طوال عمرك.

قالت وهي تنظر إليها في امتنان: لم أزل أتساءل لِمَ أرادني في مخدعه؟ وماذا رأي فيَّ؟

- رأى امرأة جميلة تعشقه.

- جميلة!

- كالمسك والبدر ممتزجين، كذرات الرمال في جبال سيناء المقدسة. هو يعرف قيمة الحب. هو ليس بالرجل العادي.

أغمضت عينيها ثم قالت: لو عشت طوال عمري لأوفيك قدرك ما استطعت. أنت السبب لن أنسى هذا أبدًا.

نظرت رشيدة إلى شفيقة، ترددت ثم قالت: زبيدة، أنت أختي، كنت منذ البداية. ابنك.. علاء الدين شادي، جميل مثلك فليبارك لك الله فيه. ويهدي قلب صلاح الدين لك وله.

- لا أريد إلا أن أحيا في سلام. وأراه كل حين دون همٍّ يصاحبه. ولكن الهم لا يتركه.

- هل أنت سعيدة معه؟

- كنت أحلم بقربه، فأعطاني الله ملكًا، وهو يعطي من يشاء. تشرق الشمس بوجوده حولي.

- لو كنت تشعرين بالامتنان يا زبيدة فلتساعديني.

- اطلبي مني أي شيء.

- شفيقة أخت إبراهيم وزوجة القائد التركي أفتكين في أسوأ حال هي وزوجها. أنت تعرفين أن الملك الناصر صلاح الدين قد تخلى عن كل الجيش الفاطمي، وأبدل به جيشًا جديدًا من الجنود المماليك والترك وعرب الشام والمصريين. أخذ الجنود الجدد أملاك الجيش الفاطمي ومساكنهم، ولم يعترض صلاح الدين. أريدك أن تشفعي للقائد أفتكين عند صلاح الدين ليعيد إليه مسكنه وماله.

نظرت إليها زبيدة في وجل ثم قالت: لا أظن أنه سيوافق. أقسم لك يا مولاتي إنه لا يستعمل النقود لنفسه ولا لأهل بيته. أنت ترين بيتنا وثيابي ولكنه يحتاج إلى المال لتنظيم الجيش، والحرب دومًا على الأبواب، والفرنج لا ترحم.

- أعرف، ولكني أطمع في أن يستثني أفتكين، فأنا أعرفه وهو نعم الرجل.

- سأحاول. ولكن لا تغضبي لو لم أستطع أن أغير رأيه.

- أفهم يا زبيدة.

قامت رشيدة، فأمسكت زبيدة بيدها وضغطت عليها وقالت في ألم: لا تؤاخذيني يا مولاتي وأختي. كنت أتمنى المساعدة، ولكني لا أريد أن أغضبه. سأحاول..

ولكن زبيدة عرفت أنه لن يوافق. ولم يوافق. قراره كان على كل الجنود الفاطميين، ولم يستثن أحدًا لأنه صديق أو أخو صديق.

شاهد زوجته من بعيد، وهو يعرف قدر طغيانها وتحكمها في كل أهل بيته، تارة بالتهديد، وتارة بالوعيد. لم يعد يعرف مَن قائد هذا البيت. أحيانًا كان يبتسم من قدرتها وتحديها. أصبحت أخته شفيقة تطيع كل الأوامر، فرشيدة هي من ترشدها وتنصحها. وأخته كاملة تخاف غضب رشيدة، ونفيسة تقهرها رشيدة، وتحاول أن تهمش دورها في العائلة، ولكنها تعطف على أولادها، وتعطيهم الكثير من الهدايا. قال لها يومًا: رشيدة لا تهدأ إلا إذا سيطرت على كل الناس.

فقالت وهي تبتسم: رشيدة لا تستطيع السيطرة على إبراهيم.

فقال في لوم: تكون هذه نهاية إبراهيم لو سيطرت عليه زوجته.

- ولو أفضى إليها ربما ترشده.

أمسك بذقنها وقال في تهكم: لا تجعلي انتصاراتك الصغيرة تغمر عينيك وتصيبك بالغرور. لا أحد يسيطر على إبراهيم. كم عمرك يا رشيدة؟

ابتسمت ثم همست وهي تقبل أصابعه التي تلمس ذقنها: لا أطمح في هذا يا ابن العم ولا أحلم به. أطمح في ثقتك فقط.

ازداد حنق إبراهيم على قرارات صلاح الدين يوسف بن أيوب، فقد أمر الملك الناصر صلاح الدين بإلغاء عادات الفاطميين، ولم يعجبه حلوى المولد، ولا عروس المولد، والفارس على الحصان. لم يعجبه تمسك أهل مصر باحتفالات شيعية، أو هكذا رآها، تُذكرهم بعهد وَلَّى. انقسام الأمة هو خطر لا بد أن يواجهه. وما لم يدركه هو أن المصريين لم يهتموا بعادات فرضها عليهم بنو عبيد، إذ كان خلفاء

بني عبيد يعيشون في قاهرتهم بين أسوارهم فلم يمتزجوا بأهل مصر ولا سمحوا لهم بالدخول. حتى بدر الجمالي سمح للمصريين الذين يملكون الأموال بالبناء في القاهرة، ولكنه لم يفتحها لكل العامة والفقراء. واليوم تمتد القاهرة وتتسع لمصر كلها. ألا يدرك أهل مصر الفرق؟ لِمَ يهتمون بحلوى المولد وعروس من السكر؟

قال إبراهيم لزوجته: سأذهب إليه.

فقالت في تردد: تريث وكن حكيمًا. هذا ليس صديقك يوسف الذي كان يمشي معك على شاطئ البحر يا إبراهيم. هذا هو الملك الناصر.

كان قد عزم أمره. ولم يقف أمام باب صلاح الدين كثيرًا.

أدخله الحراس وما إن رآه يوسف بن أيوب حتى قال في حرارة: إبراهيم.. افتقدتك يا أخي. لِمَ لا تزورني؟

- أعرف مشاغلك ولا أريد التقرب من الحكام. ألم يقل شيخك عبد القادر الجيلاني.. إن... «كل من اعتمدت عليه فهو إلهك، وكل من خفته ورجوته فهو إلهك، وكل من رأيته في الضر والنفع، ولم تر أن الحق عز وجل مجرٍ ذلك على يديه فهو إلهك. طهروا قلوبكم من غيره، ولا تروا الضر والنفع إلا منه، أنتم في داره وضيافته». هذه كلمات شيخك يا مولاي وهذا تعريفه لمعنى الشرك الأعمق.

التقت أعينهما ثم قال صلاح الدين في عمق: أجئت تذكرني بكلماته يا ترى من أجل غرض في نفسك يا أخي؟ بيننا عشرة وإخاء. لو جئت لتذكرني بكلام الشيخ فأنا لم أنسَ. ولو جئت وفي قلبك لوم لي فأنت أخ أستمع إليك وأفتح قلبي لاحتواء غضبك.

- مولاي الملك الناصر.. جئتك بطلب وأنا لا أحب أن أطلب.. ربما كانت نصيحة من أخ وربما رجاء..

- يا إبراهيم اطلب بلا حرج. واعذرني لو لم أستطع أن أساعد زوج أختك. أريد العدل، ولو عاملت أحد جنود الجيش الفاطمي بطريقة مختلفة عن الآخرين لأنه ينتسب لصديق أكون قد ظلمت نفسي.

- أعرف، ولكني أجد بعض القسوة في معاملتهم يا مولاي حتى ولو..

قاطعه: أنت من تقول هذا؟ هذا جيش حارب مع الفرنج يا أخي.

- ثم عدل عن ذلك.

التقت أعينهما فقال صلاح الدين في حسم: أحاسب جيشي وأقسو لو تردد. الجندي الذي يهرب من لقاء الفرنج أفصل جسده من الوسط بعضه عن بعض. لا مكان للجبن بين أركان جيش يحارب الفرنجة.

تمتم إبراهيم: بدر الجمالي.

- ماذا قلت؟

- تذكرني به.

- مَنْ؟

- لا يهم. الجنود كلها تحارب من أجل الإقطاعيات يا مولاي والعطايا حتى لو كان القلب سليمًا ويريد النصرة للمسلمين. جنود الجيش الفاطمي مثل جنود الجيش الشامي.

- لم تفهم كلماتي. عندما أخرج بجيشي إلى ساحة القتال لا بد أن أعرف أن الرجل الذي يدافع عن أرضي ولاؤه لله وليس لسلطان. لو تغير الرجل بتغير الحكام فهو لا يصلح جنديًّا. أنت لا تحتاج مني إلى أن أشرح لك هذا. قال جدك الكبير: «لكل زمان دولة ورجال».

- تعرف جدي الكبير؟

- أعرفه.

- وتعتبره عدوك لأنه قائد من بني عبيد.

- أعتبره قائدًا يستحق الاحترام. لو كنت أعتبره عدوًّا لما حصَّنت بابًا هو بناه، جوهر الصقلي هو مَن بنى باب البرقية وأنا أُحصنه. الملك الذي يهدم ما بناه غيره مهزوم وملعون إلى يوم الدين.

- ولكن يا مولاي اسمح لي..

- هل مسست بالمباني؟

- تهدم الأفكار.

- عندما يتفق وزير مصر مع الفرنجة، وعندما يدخل الفرنجة مصر مرة ومرتين، وعندما يقف الخليفة عاجزًا عن محاربة وزيره أو محاربة الفرنج تعرف أنه آن الأوان لعصر جديد. فعلها أحمد بن طولون من قبل، استقل بمصر عن الخليفة العباسي ليرفع من شأنها. هل تراني هدمت الأثر؟ ها هو الأزهر وها هو مسجد الحاكم بأمر الله. وها هو سور جدك الصقلي، ثم أسوار جدك بدر الجمالي الأرمني شامخة واقفة، أعضدها ولا أهدمها. ولكن هذا عصر غير العصر، لا وقت فيه لجبر الخواطر.

- يا مولاي..

- أُذكرك يا إبراهيم بتاريخ جدك.. اسمح لي أن أذكرك.. بدر الجمالي عندما حل على مصر جمع كل قواد الأتراك وذبحهم في بيته. هل تتذكر؟ أنا لم أذبح سوى من تمرد أو بدأ بالحرب. فعلها بدر الجمالي، وأصبح بطل الأبطال لأنه أنقذ أهل مصر من مجاعة وفساد. اليوم أهل مصر محاطون بالفرنجة من كل اتجاه، تريدني أن أشفق علي جنود بني عبيد وأغفر لهم الخيانة يومًا. لن يحدث. ولو حدث لكنتُ قد ظلمت أهل مصر والشام، وكلٌّ يتوقُ إلى عصر غير العصر وزمن كله قوة.

- وما شأن العصر بحلوى المولد وعرائس المولد يا مولاي؟ هل لو أكل المصريون الحلوى يدخل الفرنجة مصر؟ أليس الحلواني هو من حمى القاهرة؟

ابتسم صلاح الدين في فهم ثم قال: أعرف. حميت القاهرة وأنقذت حياتي مرة ومرتين. أعرف. ولكن آن الأوان ليتخلص المصريون من البِدَع والتقرب من الأولياء. الحلوى ترمز لبني عبيد. يرون في الفارس خليفة الفاطميين وهو على حصانه، ويرون في العروس زوجته. وماذا فعل بنا خليفة بني عبيد؟ أشفقت عليه، ولن أنكر أني أكن له المشاعر ولكنه عهد انتهى، وكل ما يذكِّر المصريين به فتنة.

- أنت تعرف أنها ليست كذلك.

- أخاف أن يُفتن العامة، والفتنة أشد من القتل. اسمح لي يا إبراهيم لا أريد حلوى للمواسم على شكل خليفة ولا لموالد أهل البيت. الناس في الإسلام يحاسبون على أعمالهم، لا يشفع أحد للآخر إلا بإذن الله. (يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)).

- يا مولاي.. اسمح لي أن أختلف معك. أهل مصر تُقدر صلاح الدين وتعرف خطورة هذه الأيام. ولكنهم يُقدرون حريتهم وأعيادهم منذ الأزل. لا أعرف ما الذي سيضر الملك في أكل المصريين للحلوى وفرحهم بالموالد. إن الله قال في كتابه: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ).

- أنا لا أُحرم الرزق والزينة يا إبراهيم.

- بل تحرم البهجة للأطفال بلا داع.

- إبراهيم..

- أعرف أني تجاوزت الحد ولكني تعلمت من أجدادي أن في الجمال انتصارًا، وفي صناعة الحلوى إبداعًا كما إبداع البناء. إذا كنت لم تهدم مساجد بني عبيد ولا أسوارهم فلا تهدم إبداعًا صنعه مصري لزوجته يومًا لأنها لم تكن ترى في إصابتها بالحرق أيَّ جمال فأراد أن يخرج لها من كبد الألم ما يُطمئن قلبها. في هذه القصة الكثير من الإيمان. هو الله البديع صنعنا من صلصال.. يقدر المبدع.

- هي حلوى تذوب في الفم ولا تبقى.

- كما الدنيا يا مولاي. تذوب في الفم ولا تبقى، ولكن في لحظات الجمال بعض السلوى عن القبح والطمع والألم. ولحظة البهجة في عيون الأطفال وهم يحلمون بالفارس والعروسة تستحق العناء. عندما ينام الطفل وبين يديه الفارس يذكره أن الحلم ربما يكون حقيقة، وأن الفرس والسيف ليسا بالأمر المستحيل، لو اقتنع الطفل بهذا نكون قد انتصرنا.

- إبراهيم..

- أن يعدل الملك الناصر عن قراره فهذا قمة العظمة. أعرف عنك التواضع وكره الكبر. أهل مصر يقدرون البهجة لأنها قليلة، ويتشبثون بلحظات الرضا لأنها كما الفرسان تأتي بالأحلام والقدرة، ثم تتلاشى. يا مولاي..

- ظننتك جئت تجادلني من أجل صناعتك ودكاكينك، ولكنك لمست قلبي بكلماتك.

- أراك ذا هم وهمة، والهمة والهم دومًا يصاحبان بعضهما بعضًا.

- وأنا أراك ذا معرفة وبصيرة، وكأنك شيخَ أو صوفي أو مشيِّد عمائر.

- أنا كما الشيخ أرى عظمته في جمال ما صنع الإنسان، وأنا كمشيِّد العمائر حتى لو تلاشى أثري فسوف يبقى في الذاكرة، والذاكرة كما البنيان المرصوص لا تتلاشى حتى لو حاولنا.

- لك ما تريد يا إبراهيم. لك ما تريد. سيعدل الملك الناصر عن قراره على شرط أن تزوره أكثر.

خرج من عند صلاح الدين في راحة واطمئنان على مصير مصر والشام. هذا ملك غير كل الملوك. يرتدي الصوف الخشن ويستمع إلى الناس في خضوع الصوفيين وعراقة القدماء. أمر صلاح الدين حارسه الخاص بأن يرافق إبراهيم حتى بيته إعزازًا له. سار الحارس بجانبه في صمت. وإبراهيم يفكر، ستفرح زوجته بالقرار، وأمه؟ أصبحت تبادله السلام صباحًا، وتبحث بعينيها عنه كل يوم. وأخته وزوجها ستغمرهما الحلوى وتشفي قلوبهما. هي دنيا تبدو ضئيلة من أعلى الجبل، نلهو فيها ونلعب، ولكن بها نفحات من الجنة كما أن بها جمرًا من جهنم. نتذوق فيها الجنة والنار، ونتوق إلى الطمأنينة. لِمَ يزعجه هذا الحارس؟ ولِمَ يمتلأ الهواء بالخيانة؟ أدار وجهه فجأة للحارس الذي يسير وراءه في بطء، بدا له كأن الحارس يضع يده في جيبه، ثم يعدل عن ذلك. تردد، ثم التقت أعينهما، فأدار إبراهيم عينيه، وأصبحت خطواته أبطأ، تعج بالترقب. استمرا في السير حتى قال الحارس: مولاي لا يركب الخيل؟ لم تعود إلى بيتك في القاهرة سيرًا على الأقدام؟ أم أنك عائد إلى الإسكندرية؟

قال إبراهيم وهو لا ينظر إليه بل يسير في خطوات محسوبة بين مربعات الأحجار في الطرقات: أحب السير على الأقدام. وأنت؟ متى جئت لتخدم الملك الناصر؟

- منذ وقت طويل. منذ كان في الشام. هو يثق فيَّ.

- بالطبع.

ما حدث بعد ذلك كان كما الأحلام. الموت يقترب ويبتعد، يغازل، ويشتاق، ثم يعذل، ويهجر. رفع الحارس سيفه وهم بغرزه في ظهر إبراهيم وهو يتكلم، شعر به إبراهيم فانحنى فخدش السيف كتفه، ثم ألقى بنفسه على الحارس وضرب يده التي تحمل السيف بالأرض في عنف، وأخرج من جيبه خنجرًا غرزه في قلب الحارس وهو يقول: مَن أنت؟

قال وهو يتأوه: حارس الملك.

- تكذب.

أمسك إبراهيم بكتفيه وضربهما في الأرض ثم قال: جئت بطلب من رشيد الدين سنان أليس كذلك؟ أنت من الحشاشين؟ كنت تريد قتلي أم قتل صلاح الدين؟

أشار بأصبعيه السبابة والوسطى وعيناه تتحدى الخوف، ثم مات.

نظر إلى الجرح في كتفه وهو يعرف أن السيف مسموم. هرول إلى أول بيت في الطريق يطلب المساعدة، يحتاج إلى من يفتح الجرح ويتخلص من الدماء بأسرع وقت.

أغمض عينيه وراح في نوم عميق ورأى أمامه فضاء كبيرًا تتجلى ابنة عمه من وسطه بعينيها.. بل تبكي. هل تبكي؟

قال في صوت ضعيف: كيف جئت إلى هنا يا رشيدة؟

فقالت في يقين: أنا حولك دومًا.

ابتسم ثم نام مرة أخرى.

قالت لحسين في قلق: هل هو حي؟ هل سيعيش؟

قال حسين: إن شاء الله.

قال إبراهيم بصوت ضعيف: اذهب إلى صلاح الدين، أخبره أن الحشاشين اخترقوا صفوفه. لا بد من الحذر.

هرولت زوجته إلى ليلى قالت لها في فزع: إن إبراهيم بين الحياة والموت. يحاول الحشاشون قتله وسوف ينجحون. صرخت كاملة، وناحت شفيقة، وهرولتا إلى رشيدة ترجوانها أن تريا أخاهما. منعتهما من دخول حجرته. قالت لن يدخل حجرته سوى أمه. أرخت ليلى عينيها ولم تنطق.

أمسكت رشيدة بكتفها ثم قالت: إبراهيم.. آه لو رأيته يا خالتي، العرق يتصبب من جبينه، وشفتاه بيضاوان كما السحاب في السماء. والروح تخرج في هدوء إلى خالقها. وينادي اسمك. طوال الوقت يقول أمي..

تشبثت الأم بالجدار ولم تجب. فقالت رشيدة: يا خالتي... لا تحطمي كل كيس الحلوى لأنك فقدت عروستك. كنت أفعل هذا وأنا طفلة، وعدلت عنه بعد أن أدركت أنها أيام معدودة. وما يجملها هو الحب حولنا. اذهبي لتودعي ابنك.

قالت في صوت خافت ممتلئ بالدموع: لا ابن لي.

فقالت رشيدة في حسم: بل لك ابن. وهو ليس ملكًا. لا يتحكم في الموت والحياة.

- تكذبين. هو لا يحتضر.

- بل رأيت جرحه بنفسي.

أطرقت برهة ثم قالت وكأنها استيقظت للتو: إبراهيم.. أين هو.. خذيني له.

دخلت على ابنها، حركت أصابعها المرتجفة على وجهه كأنها تعيد اكتشافه، ثم نادت اسمه. فتح عينيه ونظر إليها ثم قال في صوت ضعيف: الحشاشون يريدون قتلي ولن يفلحوا. تُرى هل لو تركتهم يقتلونني كان سيهدأ قلبك يا أمي؟

نظرت إليه بعينيها الممتلئتين بالعجز ثم إلى كتفه المربوطة. بلعت ريقها وارتعشت يديها أكثر ثم قالت في صوت مبحوح: لم تقل أماه منذ زمن.

- كنت رفيقة الدهر يا أمي.

- وكنت سندي والجدار الذي أتكئ عليه.

أمسك بيدها وقبَّلها، ثم قال: لو كنت تهجرينني لأنك تلومينني على الموت فلا حيلة لي، ولو كنت تهجرينني لأنك تخافين من فقدي فلا حيلة لي أيضًا. لو أدركت عجزي فسوف تسامحينني على ذنب لم أقترفه.

رددت لنفسها: إبراهيم يقدر على كل شيء.

قال في حنان: كان طفلًا لا يقدر على شيء. ثم أصبح رجلًا منفردًا وسط الفرنجة والوزراء والملوك، هو حلواني لا أكثر.

دارت بنظرها في الحجرة ثم رأت عروس المولد التي صنعها، فقالت مداعبة من بين دموعها: لا تجيد صنع الحلوى. طوال عمرك. انظر إلى وجهها المائل وجسدها غير المتناسق، وهذه الألوان التي سكبتها عليها بلا داع ولا فهم. أنت يا إبراهيم..

اقترب منها وقال وهو يمسح دموعها بكفه: أنا ماذا؟

- أنت.. القلب والنفس.

ضمها إليه ووضع رأسها الصغير على صدره، فأجهشت بالبكاء وهي تضغط على كتفه وتردد اسمه. ثم قالت وهي تتنشج: يا بني.. القلب تشقق كما الجدار القديم وليته ينهار أو يفني. لو كنت قد حملتك ما لا تطيق فقد تحملت أنا ما لا أطيق.

- هي أيام قليلة نحياها على هذه الأرض. فلا تحرميني من حنان اعتدته يا أمي.

- بل لو تعرف حرمت أنا نفسي من حنان اعتدته منك منذ وُلِدت.

قبَّل رأسها ونظر إلى وجهها الممتلئ بالدموع. تسللت زوجته إلى الحجرة وأمسكت بعروس أخرى وضعتها أمام حماتها ثم قالت: انظري إلى هذه؟ أنا صنعتها. أريدك أن تحكمي بالعدل من يجيد صنع الحلوى في هذا البيت؟

نظرت إلى العروس ثم تعلقت عيناها بابنها، وقالت في ثقة: إبراهيم يجيد كل شيء.

تنهدت رشيدة وقالت في يأس: قلت احكمي بالعدل. ولا عدل في هذه الدنيا.

التقت عيناها بعيني زوجها، رأت الرضا ربما لأول مرة منذ زمن. اطمأنت واطمأن. ابتسم لها فردت الابتسامة ثم خرجت، وهي تزعم التذمر وتتمتم بأنها مظلومة في هذا البيت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

للثقة موعد كما الموت، هي كتاب مؤجل. نظرت إليه وهو يحاور رجاله في ثقة وهدوء. هو عشق العمر وحلم الأيام البريئة. ترك لها العنان في التجارة، قررا ألا يتشاركا، ففي الشركة خسارة لعلاقتهما. هي تصنع الحلوى وتتاجر وحدها، وهو يفعل الشيء نفسه كلٌّ في دكانه. ولكنه سمح لها بإدارة كل شيء. شجعها واستمع إليها. أعجب بذكائها ولكنه لم ينس مكائدها في الماضي، ولم يعمه الحب عن نوبات الطاقة المفاجئة التي تنتابها، فيخاف على مصيره ومصير عائلته. أما هي فوسط كل العشق لم تنس أنه يومًا سطا على مالها رغمًا عنها. أو هكذا ظنت. امتزج العشق بالحرص، ووسط حشا اللهفة مكث الحذر يقظًا. من يدري ربما غدًا تموت فيتزوج سيدة أو غيرها. قالت يومًا بعد أن أفاقت من الحب وهي تقبل ظهره: لو مت يا إبراهيم لا أريدك أن تتزوج غيري.

ابتسم وغاص برأسه في الوسادة بلا كلمة، فقالت في توعد: يمكنني أن أتأكد أنك لن تتزوج غيري.

قال وهو يلتفت إليها ويشدها إليه: لو عشت فتأكدي أني لن أتزوج غيرك.

- هل كنت تحب سيدة؟

أحاط وجهها وقال: لا أتذكر الماضي.

- كنت تفضلها عليَّ.

أمسك بها ثم حبسها بين ذراعيه وقبلها في لهفة، وبعد حين قال: في عينيك كل سكر القصب وعسل النحل. من أين أتيت بكل هذا الدلال؟

ابتسمت فقبل عينيها قائلًا: أحيانًا أتمنى أن أسيطر على عقلك كله، وأعرف أن هذا مستحيل. أتثقين فيَّ يا رشيدة؟

قالت دون تردد: لا.

- ومع ذلك تضحين بكل شيء من أجلي.

قالت في تحدٍّ وهي تمرر بيدها على لحيته: وهل تثق أنت فيَّ يا إبراهيم؟

فقال دون تردد: لا.

- ومع ذلك اخترتني وأنصفتني، وحاربت الناس وعقلك من أجلي.

ضمها ثم قال: ما رأيك.. يفضي بعضنا إلى بعض.. ماذا سيحدث؟ أنا أخاف الغدر، وأنت أيضًا. أتعرفين لم لا يفضي بعضنا إلى بعض؛ لأن الغدر عندما يأتي من النفس يذبح الروح. بقدر عشقي لك يكون حذري على ما تبقى من عقلي.

أمسكت بيده وقبلتها ثم قالت: نلعب لعبة. فالدنيا لعب ولهو، يثق بعضنا في بعضنا، روحي في روحك.

قال في عدم تصديق: الروح.. لنبتعد عنها فهي من أمر ربي. ولنثق في القلب فهو منبع الراحة والاطمئنان.

أغمضت عينيها وأمسكت بيده وقالت: أريد أن أخبرك بسر.

- لا تتكلمي.

- لو أخبرتك به هل ستخبرني أنت أيضًا.

- وبعد أن نتبادل الأسرار ماذا سنفعل بقية العمر؟

- نصنع أسرارًا جديدة لنتبادلها.

ضحك ثم قال: أقسم أني لم أقابل امرأة مثلك طوال عمري، وأنت قد تملكت العقل والقلب، وأن الجسد لا يختلج لسواك يا ابنة عمي.

- وأنا أقسم أنني لم أعشق غيرك منذ ولدت.

- والآن..

- الآن..

قالت في حسم: غدًا أريد الذهاب معك إلى مسجد الجد.

- بدر الجمالي؟

- هو بعينه نتسلق الجبل معًا. هناك سر أريد أن أخبرك به.

- ليس قبل أن أبادلك أنا أيضًا سرًّا.

تسلقا الجبل، وأعينهما تتوق إلى المسجد، هنا اختلى الجد بربه، وهنا صدق بدر الجمالي مع نفسه.

توقف أمام المسجد ونظر إليها برهة، لم تفهم نظرته ثم فتح الباب في بطء، وأضاء القنديل انعكس الضوء الأصفر على وجهه وهمس: أين خبأت الأموال يا رشيدة؟

قالت في بعض الخوف لا تدري من ماذا: بجانب المسجد.

أغمض عينيه وسمع صوت القرآن من الأفق خافتًا هادئًا كما الحب والسكينة. قال: هاتيها هيا.

- ألن تأتي معي؟

- سأنتظرك هنا.

خرجت من الباب وهي تلتفت إليه كل حين، ثم أمسكت بالفأس وبدأت تحفر حيث خبأت المال والذهب والمجوهرات. تمنت ألا يكون أحد قد وجدها. تمنت أن تظهر له مدى شجاعتها ومعرفتها. وجدت

المال كما هو لم يمسسه أحد. تنفست الصعداء ثم دخلت عليه فوجدته يصلي، انتظرت ثم وضعت كل شيء أمامه. نظر إليها ثم قام في هدوء وخرج. قالت في فزع: إبراهيم.. هل أنت غاضب مني؟

قال في حسم: لا. اصبري بعض الشيء. لا تتحركي.

سمعت صوت الفأس. ثبتت مقلتيها على القنديل وضوئه الرقيق رقة العشق. بعد برهة، وضع يده على كتفها لتنظر إليه. نظرت إليه وفتحت عينيها في ذهول.

كان يمسك بقفة كبيرة بها مجوهرات وأموال. قال في هدوء: هذه الأموال التي سرقها جواد. كل ما نملك وكل ما لم يقع في يد شاور.

هرب صوتها ونظرت إليه تنتظر المزيد: عندما بعثتِ أنت بجواد ليسرق المصنع قبضت عليه وسجنته داخل المصنع، وهربه أخي حسين. هل تتذكرين؟

قالت في صوت مبحوح: أتذكر.

- بعدها شعرت بانتقام شاور القادم. رحل جيش الشام بعد أن تعهد شاور بأنه لن يعاقب أهل الإسكندرية. كنت أعرف أن شاور سيجردنا من كل ما نملك. لذا أردتك أن تذهبي إلى الفسطاط حتى لا يحل غضبه عليك أنت أيضًا.

- لا أفهم. جواد عاد وسرق كل شيء.

- نعم فعل ذلك بتحريض من سفيان. توقعت أنا أن جوادًا لن يرحل. سيحوم حول المكان كما كل سارق فشل في محاولته. اتفقت مع زوج أختي سفيان أن يحرضه على السرقة ويتفق معه على تقسيم الغنيمة. سرقا كل شيء ثم خبآه معًا عند كوم الدكة. ولكن بعد بضع ساعات ذهب سفيان وأخذ كل شيء، وهرب به إلى هنا، إلى مسجد جدي وجدك. بدر الجمالي. خبأه هنا كما أمرته. هو لم يخن. تشاجر معه جواد وكاد يقتله وأخبر أختي وهدده، ولكنه لم ينبس بكلمة. لم يزل هناك المخلص وسط كل هذه الخيانة.

- أنت.. أنت من طلبت من سفيان أن يتعاون مع جواد، ويسرق أموالك! ثم خبأتها هنا.. في نفس المكان.. كيف؟!

أحاط رأسها بيديه: أحيانًا خرق السفينة يحافظ عليها من ملك يأخذ كل سفينة غصبًا. كان لا بد أن أفكر في إنقاذ إرثنا.

- ولِمَ فكرت أن تخبئه هنا؟

- الأجداد يحرسون الإرث. هكذا قالت ساحرة الهرم.

- يا إلهي.. كيف تعرف ساحرة الهرم يا إبراهيم؟!

- قابلتها مع جدي منذ أعوام. كان جدي يوفر لها طوال حياته الكعك بالسكر الذي تحبه، ثم فعل أبي الشيء نفسه مع الساحرة التي أخذت مكانها. للأجداد قدرة يا رشيدة.

قالت في صوت ممتلئ بالوجل: لهم قدرة!

- الغريب يا ابنة عمي أن روحي من روحك، ونفسي من نفسك. ما يزعجني ويفرحني معًا هو ذكاؤك وشجاعتك. ومعرفتي أنك قادرة على المحافظة على الإرث مع أنك امرأة.

- إبراهيم..

- استسلمت وأيقنت الهزيمة، تركتك تديرين كل شيء. وسوف أتركك تديرين أموالك وبعض أموالي. سنعيد بناء الدكاكين في القاهرة والفسطاط. ولكنك ستديرين دكاكين الإسكندرية يا ابنة العم. لن أتحمل بُعدك.

- سيقولون تترك زوجتك تمشي في الأسواق، وتتحدث مع الرجال!

- وسأقول تزوجت من امرأة غير كل النساء، وقفت في وجه الوزير ثم الفرنجة في شجاعة تفوق الرجال. ولكن مصنعك في القاهرة سيبقى وأنت تختارين من يديره.

- سفيان.. هو مخلص و.. هو وأفتكين.

- وهل سيوافق الجندي التركي أن يدير مصنع حلوى؟

- الحلوى يا زوجي وابن عمي تجعل الحروب محتملة، والعيش بطعم السكر. هكذا تعلمنا.

أحاط وجهها بيديه، ثم نظر للوحة التي تركها جده.. قرأها بصوت عال:

مما أمر بعمارة هذا المشهد المبارك فتى مولانا وسيدنا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الأئمة الطاهرين وأبنائه الأكرمين وسلم إلى يوم الدين، السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين، عضَّد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وكيد عدوه وحسدته ابتغاء مرضاة الله في المحرم سنة ثماني وسبعين وأربعمائة.

ثم أطفأ القنديل، ونظر إلى الأفق ينتظر بزوغ الفجر من فوق الجبل، همس إليها: من هنا رأى مصر وشهد عليها، وربما شعر أنها في قبضة يده.. افردي ذراعك من هنا تبدو كل الأماني صغيرة والمصائب والابتلاءات تافهة، من هنا تبدو الدنيا بضآلة «سمِّ الخياط». ترى عندما تبتعد الدنيا هل تدنو الروح؟ أخبريني يا ابنة عمي..

فردت ذراعها ثم قبضت كفها في الهواء وقالت: تتلوى من بين أيدينا، وتهرب كذرات الهواء في سلاسة وإتقان، وكأننا لا ملكناها ولا قبضنا عليها، هو أدرك هذا يا إبراهيم.

- هو من؟

- جدنا.. كل أجدادنا.

- ترى أكان يريد أن يقبض عليها من مكانه هذا، عندما ترتفع ترى بوضوح، وعندما ترتفع تغمر ما هو أسفل بعينيك.. من هنا كان بدر الجمالي يرى ساحة مسجد أحمد بن طولون شاسعة كما الأرض، مبانيها معلقة كما عمدان العمر على الأعمال والنيات.

نظر إليها برهة، بدا وجهها لامعًا مريحًا مستكينًا. قال في حسم: أثق فيك يا رشيدة. فلو تركت الحذر يسيطر عليَّ فقدت التحام روحي وروحك وأنا أحتاج إليه.

- بعد ثلاثة أعوام من الزواج تقول لي هذا.

- فلتحمدي الله أنها ثلاثة فقط. الرجال لا يثقون في زوجاتهم حتى بعد ثلاثين عامًا يا ابنة العم.

ضحكت ثم قالت: ولا النساء. ولكني أثق فيك. لأنك حلواني والحلواني لا يخون.

- إياك أن تحمليني فوق طاقتي مثل أمي.

- ربما أدركت قوتك. وأدركت أنا صلابة قلبك. من يمتلك القوة يعرف كيف يحب، وكيف يعطي، وكيف يثق. الحشاشون لم يقتلوك، ولا قتلوا صلاح الدين. اليوم أدركوا عجزهم، لن يحاولوا مرة أخرى معك.

قال وهو يبتسم: يعجبني يقينك وثقتك في نفسك.

ضغط على جفنيه ونظر إلى الأفق أسفل الجبل، يرى رجلًا واقفًا يفتح ذراعيه ليواجه الرياح بقلبه، ويصارع الأيام بصبره، ويسرج مهرته بإرادة من حديد وذهب، والكثير من الزمرد. التفت إلى زوجته وقال: هل ترين هذا الرجل في الأفق؟ انظري..

وضعت يدها على جبهتها كأنها تنتظر أن تبصر ما لا يستطيع نظرها أن يدركه. ثم انشرح القلب واطمأن وقالت: يوسف بن أيوب.. صلاح الدين..

- ينوي بناء قلعته هنا أسفل الجبل.. ومن هنا يرى مسجد الجد ومئذنة ابن طولون. أسمع خفقات قلبه يا رشيدة، وأعرف همه ومحنته.

الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب، كان يقف حقًّا مكان قلعته. بدا ضئيلًا وسط صحراء المقطم. هذا الجبل بعروق من دم متدفق لا يجف، في كل عرق شغف، وشوق، وحكاية، ونهاية تلتحم ببداية، وخيبة تتسرب من بين طياتها مثابرة. هنا قالوا إن الرمال تشفي المريض، ومن يدفن هنا يجاور قبس الجنة. هنا تبدى الأمل في عيش رحب وموت رحيم. دومًا هذا المصري يريد أن يضمن الآخرة قبل الدنيا. كأن الخُلد سيطر على النفس، وألهمها الفجور والتقوى.

ابتسم يوسف بن أيوب لنفسه: في البدء بنوا الهرم فخلدوا الأحياء وتركوا الأموات لربهم. ثم دفنوا موتاهم عند الجبل ليضمنوا الجنة. يحيرهم الموت فقد اعتادوا الاستقرار، ثم يأتي الموت فيزلزل كل استقرار، ويذكرهم أن الاستقرار ليس على الأرض. بنوا ليستقروا، فاستقر المبنى وفني الباني أو كاد. ربما يبقى من بناه. هو اسم نتذكره ونتصور صورته وروحه. يا أحمد بن طولون.. لِمَ تبقى بعد فناء الأيام؟ عظمتك حولي وغايتك بين حنايا الأحشاء. أعرفك.. وأعرف محنتك، يا جوهر الصقلي..

بابك يشهد على الطمع والعظمة. تركت خلفه جيشًا من بائعي الحلوى يا أمير الجيوش. أما أنت يا بدر الجمالي.. فعندما أراك سأضربك مرة ومرتين، ومن يدري ربما أحاول قتلك. ثم أقف أمامك مبجلًا، وأنطق بلقبك، وأنا مقتنع به، السيد الأجل. كنت على مذهب غير المذهب، وفي عصر أقل قسوة حتى ولو امتلأ بالمهانة والموت. ليتك تعرف.. أقف هنا لأواجه السلاجقة، والزنكيين، وبني عبيد، والحشاشين والفرنجة.. آه من الفرنجة! عندما يتسربون داخل الأرض المتشرذمة. عندما يرسمون بسيوفهم على الدماء أيامنا القادمة بينما نحن نلهو في حروبنا.. فقدت ابنك يا بدر الجمالي.. وفقدت أنا ابني في الحروب. لست أفضل مني يا أمير الجيوش، ربما لو قابلتك أراك عدوًّا، ولكن الوجل في قلبي لا ينقطع. تعلمت أن القلب يصدق دومًا، وأن الدنيا قلب سليم. في دنيا غير الدنيا ستلقاني لنأكل معًا في رضا وطمأنينة. وحتى يحين هذا الوقت سأتحمل في صبر ورضا.

نفدت الكلمات ونظر صلاح الدين يوسف بن أيوب أمامه.

تجلت في الأفق وسط عجيج الريح، ثم هطل المطر، جرفت صورتها المطر والريح وكل الكواكب، يعرفها، رآها مرة واحدة ولكنها بداخله منذ قدم التحية للقدماء لمن حافظ على الأرض والذهب، هي ساحرة الهرم، بحنس.. تولد كل ثلاثة عقود أو أكثر، يأتي مولدها مع فيضان النيل المبارك، يهابها الناس ولا يجرءون على اختراق خصوصيتها. تجلت بحنس في الأفق.. ارتعدت فرائصه.. هوى إلى الأرض ينظر إلى الجبل.. سمع الصوت القوي العذب: اجعل عشقك صافيًا وغايتك نصب عينيك.

2016م - 1437هـ القاهرة:

سكت عم عبده عن الحكي. دمعت عيناي، ونسيت لم قابلته، ولم استمعت إلى حكاياته.

قال في فهم: عودي إلى بيتك، وتعالي غدًا لتري الحصان الخشبي الذي ورثته عن الجد الأكبر. يا ابنتي.. تحتاجين إلى الوقت لتدركي..

قلت في صوت مبحوح: هذه الحكاية.. بها الكثير من الألم والعظمة. أشكرك يا عم عبده.

- هل تتذكرين جئت لأنك تريدينني أن أصنع حلوى فرح ابنتك، الحلوى الفاطمية. وقلت لك يومًا: «هذه حلوى لا تصلح إلا بالمزج بين كل المقادير كما مصر، كلما أضفت إليها الغريب يمتزج داخل دقيقها، ويعطي لحلواها طعمًا ولونًا بهيًّا».

- هو كذلك. أشكرك مرة ثانية أنك ذكرت. وأستأذنك في العودة إلى بيتي، فقد اقترب الفجر. غدًا آتي لأرى الحصان الخشبي.

تركت دكان عم عبده، ونظرت حولي إلى الشارع الضيق الذي تحول فجأة إلى براح عميق لا تدركه الأبصار.

وعند الفجر تقابلت معهم جميعًا، أصبحوا صحبة وأنسًا، كلما اشتد بي الألم أصاحبهم، وكلما غفلت عني أدمعي أسير وراء خطاهم. عند الالتقاء يتلاشى كل اختلاف، وكل حرب، وكل صراع، وتبقى الحكاية بطهارة العشق، ورونق الأحلام. لم أعد أرى جيوشًا تسير في ترقب وحذر ولا صيحات يأس وفزع، طغى طعم الحلوى على فمي، ورأيت أمامي عروس المولد في أوج زينتها، حلوة حلاوة جَدة

بقلب سليم، جميلة كسندس، متوهجة توهج فرون في عشقها، ومثابرة كما رشيدة أمام الجموع. رفعت يدي ألقي السلام على جوهر الصقلي أمام أبواب القاهرة، تكلمت معه عن عم عبده، وعن طعم الزلابية. قلت له إنه صدق عندما قال: «لكل زمان دولة ورجال»، ثم سرت على قدمي، وعيناي على جبل المقطم، رأيته يطل عليَّ كأنه يذكرني بصحبة بيننا عامين أو أكثر لم تنته ولن تنتهي، إنه السيد الأجل أمير الجيوش، يا بدر، يا أرمني، أعرفك، وأفهم لم اخترت الوحدة عند العبادة والصلاة.

قلت لنفسي وليس له: في علاقتك بالله رويحٌ، وريحانٌ، وصبرٌ، وغضبٌ، وعلمٌ، وجهل. لو لم تصفُ لن تسمع صوته ولن يتجلى لك نوره. ستسير في دنياك وحيدًا كما الشيطان بعد العصيان. ستغضب، وتسأله لِمَ لا يجيب، ولا يساعد، ولا يتواصل. ولن تدرك أنك لم تفتح ليدخل. لو لم تفتح لا تتذمر. هو لا يتجلى إلا لمن واجهه بقلب صافٍ ونفس راضية. أنت عرفت هذا يا بدر. اعذرني لن أقول لك السيد الأجل، فنحن صحبة منذ الأزل. والأنس لا يحتاج إلى ألقاب. كيف لك أن تخلص في حبك كل هذا الزمن؟ وترى أي مشهد بنيت، ومن كنت ترثي ليلًا في الخلاء؟ آه من الخلاء عندما يمتزج بالخواء تنتفض الأحبة من حولنا، وتبتعد كما الفرح. هي بعض يوم يا بدر كلها. أنت تعرف.. وتعرف أن جعفرًا لم يخشك يومًا، ولا ارتجف أمام عظمتك. بل رأى فيك صنعه وعظمته هو. تتذكر جعفرًا يا بدر. اعذرني إذا أطلت عليك، ولكنها أسرتك بعروسة الحلوى، والتهمتك وأنت تظن أنك تغمرها. هل تعرف؟ كانت في البدء عروسًا من الحلوى، وفي النهاية هي العروس، من مكثت بين الأضلع تضرم نيران الشوق.

التفت ببصري، ورأيتها، القلعة التي لم يشهد على إتمامها. يوسف بن أيوب.. صلاح الدين.. يا ملك جيشك، كما توقعت لم يجتمع مثله جيش، كما ومضة رحيق الجنة تصيب روحًا واحدة، ثم تختفي لآلاف السنين. لم يزل اسمك يدعو إلى الشجن أكثر من الفرحة. كنت تعرف أن لحظات الأمل قصيرة، هي بعض يوم.

أمسكت بحبات الزلابية الساخنة، أغرقت يدي من عسلها، بدت قاسية، ورقيقة طازجة حية كما الروح الحرة. وضعت واحدة في فمي، نظرت إليه بساحته الرهيبة، وأروقته التي تتسع لكل عاجز وباحث. أحمد بن طولون. معي، صديق ورفيق، كما بدر ويوسف وجوهر. لا بد أنهم سيلتقون جميعًا على مأدبة طعام، يتحدثون عنها، وعن الكنز، وعن ساحرة الهرم. بحنس.. لم تركتنا؟ بحثت عنك ولم أجدك.. ترى هل أصابك يأس؟ أفتقد سجيتك الحية، وضحكاتك، وعلمك، ويقينك. أفتقد عشقك، وإخلاصك، وكرامتك.

تدور عيني حول المكان، فأراه شامخًا، السلطان حسن.. جاء ليقول إن العهد دين والوعد لا بد من تحقيقه. يقتربون مني جميعًا، أكاد أشعر بأرواحهم حولي، في العرائس على الجدار، في المئذنة فوق الجبل، في سور القلعة الحامية، في بناء شاهق يكاد يصل إلى السماء. كلهم معي، وحولي، يؤنسون الوحدة، يتسامرون في سلام وطمأنينة. يعرفونني وأعرفهم. أصبحوا عشرة وعمرًا، أزورهم كثيرًا وأجمل ما فيهم أنهم كلهم بقرب التاريخ ورهبته. لا مسافات بينهم، هل تعمدوا أن يناجوا بعضهما بعضًا بالمباني، أم ربما عرفوا أنني يومًا سأحتاج إلى دفئهم وصداقتهم عندما تضيق بي الدنيا، وتتألق المعاناة.

تدمع العين ويتجلى الضوء وينتشر.

تأملت عروس المولد، أبعدتها عني لأراها بوضوح، ثم وجدتها تلتحم بالمآذن والقلعة في ضوء الفجر الخافت، رأيت قناديل مضيئة تمتد حول الأفق، وسمعت تسابيح بأصوات كثيرة، في الجمال عبادة، وفي الحلوى إبداع، لكم جاء سلطان عاشق للدنيا إلى هذه الأرض، ولم يبرح إلا وهو عابد زاهد يتضرع إلى الله وحده وسط الجبل. يا حلواني.. أين أنت؟

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

على هامش التاريخ

توحيد الأمة كان أصعب ما واجه صلاح الدين الأيوبي، حارب في الشام قرابة سنتين أو يزيد، وتحالف مع القواد تارة بالتهديد وتارة بالوعيد حتى أصبح له حكم مصر والشام، وأنشأ الدولة الأيوبية. قضى صلاح الدين معظم سني حكمه في الحروب.

استرد صلاح الدين الأيوبي مملكة بيت المقدس من يد الصليبيين بعد حوالي مائة عام من احتلال الصليبيين لها. وحرر معظم الأراضي التي احتلها الصليبيون بعد موقعة حطين عام 1187. مات صلاح الدين بعدها بستة أعوام، ولم ينته خطر الصليبيين طوال حياته. فالقضاء على التهديد الصليبي سيحتاج إلى مائة عام ثانية.

عُرِف عن صلاح الدين سماحته في معاملة المسيحيين واليهود، وحتى حربه مع الدولة الفاطمية لم تكن حربًا مذهبية بقدر ما هي تمكين دولة مكان دولة، فقد تحالف معه شيعة حلب بعد ذلك. في الغالب اهتمام صلاح الدين بالصوفية وتعلمه من عبد القادر الجيلاني هو ما أثر في شخصيته، وجعله زاهدًا إلى حد كبير، ومتسامحًا ومقدرًا لكل الأديان والاختلافات.

لم يهدم صلاح الدين الأيوبي أي أثر في مصر، لم يزل مسجد الحاكم بأمر الله قائمًا، وقبل كل شيء هناك الجامع الأزهر، بل عزز أسوار القاهرة، ووسع حدود المدينة. لم يشهد صلاح الدين روعة قلعته، مات قبل أن ينتهي البناء.

بدأت الحروب الصليبية عام 1095 ميلاديًّا، ولم يستعد المسلمون بيت المقدس استعادة نهائية حتى قدوم المماليك إلى مصر والشام. فقد عاود الصليبيون احتلال بيت المقدس بعد وفاة صلاح الدين بأعوام في عام 1228، ولكن أصبح الأمل في استرداده قائمًا بعد أن اخترق صلاح الدين حاجز الخوف. حتى جاء السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون، وفتح عكا عام 1291 ميلاديًّا. وبعد هذا الفتح انتهى الوجود الصليبي في بيت المقدس.

صلاح الدين الأيوبي هو أول من بنى مدارس في مصر لا تحمل اسمه هو، وكانت المدارس قبل ذلك تحمل دومًا اسم السلطان أو الملك. لم يزل أثر صلاح الدين يسطع في القاهرة وغيرها من المدن.

أنجب صلاح الدين ابنه علاء الدين شادي من أم ولد؛ أي: من جارية.

أما زفاف بنت السيدة فريدة فقد اشتمل على هذه الحلوى:

البسندود، الخشكناج، الفنايد، النيدة، أصابع زينب، لقيمات القاضي، القطايف، الكنافة، حلوى العجوة، حلوى الورد، حلوى مكشوفة وبالطبع زلابية... الكثير من الزلابية...... ولكن حدث شيء مثير.. أضاف بعض الطباخين الشيكولاتة للزلابية فاعترضت السيدة فريدة وابنتها، وادعتا أن الطباخين قد شوهوا جمال التاريخ وعمق الماضي، وأن الطباخين لم يفهموا شيئًا عما كان وما حدث. ولكن المدعوين لم يأكلوا سوى الزلابية بالشيكولاتة. تنهدت السيدة فريدة في يأس، ونظرت لابنتها ثم قالت: بدر الجمالي كان يقول لأحمد بن طولون «اعذرني يا رفيقي، التقينا في درب الحزن وحب مصر!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شجرة عائلة عم عبده الحلواني وأصوله الفاطمية

قائمة الحلوى الفاطمية المذكورة في الرواية:

1- البسندود:

«اصطف البسندود ملتصقًا بعضه ببعض على شكل حلقات مجوفة من الصعب أن تكتفي بواحدة أو تفصل إحداها عن الأخرى. رائحة اللوز والفستق تمتزج بالألوان القوية التي تزينه».

2- خشكنانج:

«كانت حلوى خشكنانج تقف كما الهلال الشامخ الواحد فوق الآخر، لا أدري كيف لا يسقطون أو ينهارون. مزج الزبد بالسكر واللوز بالفستق».

3- الفنايد:

«صنعها من السكر والبيض والورد واللوز، فأصبحت تذوب بين الأصابع قبل أن تصل إلى الثغر».

4- النيدة:

«النيدة حلوى مقصورة على أهل القاهرة، لا يصنعها أهل الفسطاط. ولا يسمح لهم بصنعها. قمح بالزبد والسكر ممزوج بعناية كفوارات القصور».

5- أصابع زينب

6- العلاليق: لأشكال الحيوانات والورود

7- حلاوة العجوة:

«يضيف لوزًا وسميطًا، ويصبغها بالزعفران، ثم يضيف خشخاشًا، وسكرًا، ويلقي عليه مسكًا وماء ورد».

8- لقيمات القاضي:

«أشعل النيران، ووضع زيت الشيرج في وعاء وألقى فيه لقيمات القاضي. عجن نشا وفستقًا مقشرًا مدقوقًا مع العجين، ثم شكلها على شكل الدنانير. بعد أن انتهى نثر على اللقيمات القرنفل والزعفران والعود والمسك».

9- حلوى العجوة:

«سأطحن الفستق واللوز مع السكر. ثم سأضيف له التمر المطحون وماء الورد. وعندئذ أمير التوابل كلها، لا حلوى دون الزعفران، يعطي لونًا وعظمة لكل الحلوى».

10- القطائف:

«مزج السكر والقمح، تطبق عجين القمح على جائزة من السكر والفستق واللوز، حشوة القطائف: تطحن السكر بعسل النحل والفستق والبندق، ثم تضيف المسك، وتبخر العجين بالعود والعنبر، ثم تغوص به داخل القطائف، وتقلي القطائف في زيت الشيرج».

زيت الشيرج: مصنوع من السمسم.

11- الحلوى الوردية:

«قطعت أوراق الورد، ثم وضعت الورد في قدح ممتلئ بالماء، وأضافت له النشا، وتركته يغلي وهي تنتظر أن تضيف إليه المسك والشيرج في النهاية. عندما اتخذ اللون الأحمر الفاقع وضعت الشيرج، ثم جلست أمام القدح ليبرد».

12- الكنافة:

«أخذت السميد، ومزجته بيديها، ثم فركته بأصابعها بالسمن، ثم أضافت إليه عسل النحل، وكورته على شكل أقراص، ووضعتها جانبًا، وأخذت بعض الدقيق، وفركته بالشيرج والماء، ثم كورته في شكل أقراص، ثم وضعت الأقراص الأولى فوق الثانية، ولفّت أطرافهما بمختم منقاش، ثم خبزتهم».

13- حلوى الخبيص:

«أخذت مقدارًا من الجزر الصغير، ومثله مقدارًا من التمر، ومثله من اللبن، ومثله من العسل، ثم وضعت هذه المقادير كلها في برام على تنور من النار الهادئة وهي تقلبهم حتى يمتزجوا، ثم أضافت بيدها القليل من الزنجبيل، ثم أضافت لباب خبز السميد حتى يزيدها سماكة، ثم صبت القليل من زيت الشيرج».

14- حلوى المكشوفة:

«أخذت السكر والعسل واللوز والشيرج وقسمتها أجزاء متساوية، ثم دقت اللوز ووضعته مع السكر على نار مع زيت الشيرج حتى يغلي ويتحمص اللوز، ثم أضافت العسل، ونثرت عليها السكر، وخلطتها معًا، ثم قلتها، مرة أخرى في زيت الشيرج، ثم أضافت الزعفران الثمين المذاب في ماء الورد والمسك، ثم وضعتها في أوانٍ».

أهم ما يميز حلوى الفاطميين المسك والزعفران والسكر الممزوج بالدقيق بعناية وزيت الشيرج. هذه حلوى لا تصلح سوى بالمزج بين كل المقادير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شكـــر..

أشكر الجامعة الأمريكية بالقاهرة لمنحي منحة بحثية للانتهاء من الرواية.

وجزيل الشكر للمؤسسة المصرية لإنقاذ التراث لاستضافتي في بيت الرزاز أثناء كتابة هذا العمل. وشكر خاص للأستاذ عبد الحميد صلاح شريف رئيس مجلس الأمناء، والأستاذة أميرة صديق المدير التنفيذي في المؤسسة، والصديقة العزيزة أمنية عبد البر مدير قسم التنمية في المؤسسة.

وشكرًا لوزارة السياحة والآثار المصرية لإعطائها للجمعية ولي هذه الفرصة.

الكتابة التاريخية علمتني أن كل حجر من تراث مصر يستحق الاحترام والعطاء والفخر.

كل الشكر للدكتور ممدوح عثمان مدير عام متحف الفن الإسلامي بالقاهرة على الجولة والنقاش حول الآثار الفاطمية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس: